

الدكتور محمد عمارة

مسلمون تنوير

دار الشروق

بين يدي الطبعة الجديدة

منذ أن صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، قبل خمسة عشر عاما ، والكتب والدراسات التي تتناول ظاهرة «المد» الإسلامى و«الصحوة الإسلامية» في نمو وتعاظم يلفت الأنظار ويستدعى التأمل ويشير الانتباه ..

فوطن العروبة وعالم الإسلام يشهد منا إسلاميا متعاظما ، وحول هذا المد الإسلامى تقدم المطبعة للقراء آلافا من الكتب التي يدور حديثها حول موقف الإسلام من قضايا الواقع الإسلامى ومشكلاته ، وماذا باستطاعة الإسلام أن يقدم لأمته كى تنهض لتواجه ما يفرضه ويفرضه عليها أعداؤها الكثيرون - فى الداخل والخارج - من التحديات؟! ..

وفى خضم هذا الفكر ، الذى تقذف به المطابع إلى عقول القراء ، هناك سيل منهم من الأفكار والآراء التي يحاول أصحابها تقديم الإسلام فى صورة «القيود الجالمة» التي تكبل العقل المسلم وتكرس ثبات الواقع الراهن البائس الذى يعيش فيه المسلمون! ..

والأمر الذى لاشك فيه أن أغلب هؤلاء الذين يقدمون الإسلام فى هذه الصورة وعلى هذا النحو ، ليسوا «هواة» ، ولاهم من «ذوى النوايا الحسنة» .. فذلك أمر مبيت ، وراءه إعداد وتخطيط ... فبقاء الواقع الإسلامى على هذا النحو من البؤس والهوان ، واستمرار عزل جماهير الأمة عن مقدرات أوطانها وإمكانات هذه الأوطان ، هو بمثابة البقرة الذلول الحلوب التي تستأثر بلبنها قوى الاستبداد والهيمنة والاستغلال ، من الداخل كانت هذه القوى أو من خارج هذه الأوطان؟! ..

وفى مواجهة هذا «الواقع الفكرى» ، وتصديا لآثاره التي تشل فعاليات العقل المسلم وتجهض قوى الأمة وتبدد طاقاتها ، تتزايد أهمية الجهود الفكرية التي تصحح «صورة الإسلام» فى عيون بنيه ، والتي تنصفه عندما تكون المقارنة بينه وبين غيره من الأديان ... تلك الجهود التي تقدم الإسلام الحق .. دين الاستنارة .. والعقلانية .. ورباط الوحدة والتوحيد ..

ونج الثورة ضد الظلم والاستبداد والاستغلال ...

وإذا كان الله قد مَنَّ علينا ، فنحن التوفيق كى نسهم ، بالعديد من الأعمال الفكرية ، فى إبراز الوجه المشرق والصادق لإسلامنا ، وتراثه العربى .. فلقد كان هذا الكتاب واحدا من هذه الأعمال الفكرية التى أسهمت فى إبراز هذه القسمة من قسمة الإسلام .. قسمة الثورة - بمعناها الواسع والشامل - فى مختلف الميادين .. فكرا .. وعلما .. وقاما .. وحضارة وذلك فضلا عن ميدان الأموال والثروات ، تحقيقا لحلم الإنسانية : أن يسود العدل الاجتماعى حياة الناس ! ..

فى هذا الكتاب نقدم «الإسلام : الثورة» ، لا كفكر نظرى مجرد ، يمكن أن يختلف عليه البعض ... وإنما نقدم «الإسلام : الثورة» واقعا تجسد فى مسيرة هذا الدين وواقع الذين آمنوا به عبر تاريخه الطويل والعريق .. فى مختلف الميادين التى برَّزَ وبرَّزَ فيها هؤلاء الأعلام الذين يقدمهم هذا الكتاب ، كانت حياتهم وإنجازاتهم - الفكرية والعملية - المصادق والتجسيد لثورة الإسلام ضد «الجمود» و«الرجعية» و«الخرافة» و«ضيق الأفق» و«الظلم الاجتماعى» و«الاستبداد» إلى آخر القيود التى تطمس الطاقات الخلافة التى وهبها الله ، سبحانه للإنسان .. ذلك «الجرم الصغير» الذى انطوى فيه «العالم الأكبر» ، كما قال - بحق - أسلافنا العظام ! ..

* * *

وإذا كانت تلك هى الرسالة التى نهض بعثها هذا الكتاب ، عندما قدمنا طبعته الأولى إلى القراء قبل خمسة عشر عاما - التى ظل ناهضا بعثها من خلال طبعاته الثلاث ، التى نفيت - فإن هذه الطبعة الرابعة تأتى لتسهم ذات الإسهام .. بل وربما أكثر بكثير .. وذلك لعوامل عدة ، فى مقدمتها :

- إن الإقبال المتعاضم على «الإسلام السياسى» ، والآمال الكبار المعلقة على صبح مشروع نهضتنا الحضارية بصبغة الإسلام ... إن هذا الإقبال وهذه الآمال ، تقابلها وتعارضها «مخاوف» البعض من إسلامية النهضة الحضارية المشودة ، و«عداء» البعض و«تآمره» ضد استلهام الإسلام كإطار للمشروع الحضارى المشود ...
- إن الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، إذا كانت قد جاءت ضعف طبعته الأولى - بما ضمت من إضافات - فإن هذه الطبعة الجديدة تضم أربعة عشر فصلا جديدا ، لتصل فصول هذا

الكتاب إلى واحد وعشرين فصلا ، بعد أن كانت سبعة فصول ...

فهو ، إذًا ، بتوقيت طبعته الجديدة هذه - من حيث الظروف والملايسات الفكرية والنضالية - ... وبالإضافات الجديدة التي تضمنتها هذه الطبعة ، جدير بأن يحقق ما نعلق عليه من آمال :

١ - أن يطمئن «المخلصين» الذين يتخوفون من إسلامية نهضتنا المنشودة .. عندما يقدم لهم الإسلام الحق : « ثورة » تنهض بالواقع وتدفعه إلى الأمام على درب التقدم ، في كل المجالات ، وفي مختلف الميادين .. فيريهم أن الإسلام هو - بحق - سبيل التقدم الذي ينشدون ..

٢ - وأن يثبت من يقين «المسلمين الثوار» بإسلام الثورة وثورة الإسلام ، ويزيد آفاقهم استنارة وعقولهم حكمة وخطاهم ثباتا على الدرب الصعب الذي وهبوا له النفس والنفيس ؟ ! .. وأن « يرشد » رؤية الذين اختلطت عليهم الأمور في هذا الميدان ؟ ! ..

٣ - وأن يفضح «أعداء» إسلامية حياتنا ومشروعنا الحضارى ، الذين يجتهدون لستر عورات هذا «العداء» بغلالة «التقدمية» التي يرفعونها ، زاعمين أن حرصهم عليها هو سبب رفضهم للإسلام إطارا للنهضة التي يتوق لها الجميع ؟ ! ..

٤ - وأن يفل «أسلحة» القوى الرجعية والمتخلفة ، تلك التي حاولت وتحاول «استخدام» الإسلام كقيود تديم استغلال الأقلية للأكثرية ، واستبدال البعض بمقدرات الكل .. وحرمان الأمة من تحقيق شرائط النهضة والتقدم والقوة والعزة التي تجعلها بجدارة : الخليفة عن الله في عمارة الأرض واستكشاف أسرار الوجود ، كخير أمة أخرجت للناس ! ..

فإذا أسهمت هذه الطبعة ، من هذا الكتاب ، في تحقيق ما علقنا ونعلق عليها من آمال ، كانت السعادة المتبغاة من وراء الجهد الفكرى الذى بذلناه فيه ...
والله من وراء القصد .. له الحمد والشكر ... ومنه نستمد العون والتوفيق .

دكتور

محمد عمارة

جمادى الثانى سنة ١٤٠٧ هـ

فبراير سنة ١٩٨٧ م

القاهرة

مقدمة الطبعة الثانية

في فبراير سنة ١٩٧٢ م صدرت عن (دار الهلال) ، بالقاهرة ، طبعة ضمت فصلاً من هذا الكتاب ، مع شيء من الاختصارات في تلك الفصول ... ولقد كنت عازماً يومئذ على تقديم هذا الكتاب الى القارئ العربي كاملاً - كما هو الحال في الطبعة الجديدة التي أقدم لها - ولكن أزمة الورق قد حالت دون ذلك ، فصدرت طبعته الأولى في نحو نصف الحجم الذي نقدمه اليوم إلى القراء .

ولقد كان الاستقبال الطيب الذي استقبلت به الطبعة الأولى حافزاً لي على التفكير في إعادة طبعه كاملاً منذ ذلك التاريخ ..

فعديد من حلقات الدرس والتثقيف في المنظمات الشبابية والتنظيمات السياسية قد اختارته مادة للدرس والمناقشة ، بل وأجرى بعضها حول مادته الاختبارات والمسابقات .

وعديد من البرامج الإذاعية المتخصصة والعامّة قد تناولته بالعرض والنقد والتعليق الذي شارك فيه نخبة من المثقفين والمفكرين ..

وعديد من الأساتذة والكتّاب قد تناولوه بالدراسة والتعليق في عدد من المقالات في كثير من الصحف والمجلات .. حدث ذلك في المجلات الشهرية ، والمتخصصة ، وأيضاً في الصحف الفثوية - مثل جريدة (العمال) التي تصدر في مصر- وفي الصحافة اليومية مثل (الجمهورية) و(الأهرام) .. الخ .. الخ ..

وإذا عنّ لي في هذه السطور التي أقدم بها للطبعة الجديدة من (مسلمون ثوار) أن أقدم نماذج من الكلمات الطيبة التي تجسد ذلك الاستقبال الطيب الذي استقبل به هذا الكتاب ، فإنني أشير إلى ذلك المقال الكبير الذي كتبه عنه الأستاذ الدكتور حسين فوزي في صحيفة (الأهرام) وهو المقال الذي اهتم فيه يبحث بعض الجوانب الخاصة بشخصية «العزير عبد السلام» .

ولقد عبّر الدكتور حسين فوزى ، خلال مقاله هذا ، الذى جعل - عنوانه : (درس فى المثاليات الاجتماعية : مسلمون ثوار) ، عبّر عن رأيه فى هذا الكتاب بكلمات طيبة كثيرة من مثل قوله عنه : إنه « كتاب صغير الحجم كبير المعنى » ..

وقوله عن التعريف الذى قدمته لمعنى « الثورة » إنه : « تحديد علمى جدير بالتأمل فى كل ما توهمت كلماته إلى تعبير عن حقائق » ..

ومن مثل قوله : « .. وللمؤلف علىّ فضل تمكينى من قراءة (الأعمال الكاملة) للكواكبي ، وله اليوم فضل تعميق معرفتى بالعز بن عبد السلام ، سلطان العلماء .. » .
ومن مثله قوله : « .. كتاب (مسلمون ثوار) للأستاذ محمد عمارة : دروس أخلاقية سامية ، تظهرنا على مجموعة فذة من المسلمين فى العصور المختلفة ، تمسكوا بمبادئهم ، وتكلموا بقلوبهم وبألسنتهم وبأعمالهم ، وكانوا أمثلة للعالمين فى الشجاعة والصرافة . وصدق الإيمان .. » .

هذا نموذج من كلمات الدكتور حسين فوزى فى (الأهرام)^(١) .

ونموذج آخر ، وأخير - حتى لا نطيل هذا التقديم - كتب فيه الأستاذ الأديب فاروق منيب - متعة الله بالصحة^(٢) - فى جريدة (الجمهورية) يقول :

« الديمقراطية ... الاشتراكية ... الثورية . كلها اصطلاحات حديثة نشأت فى ظل تغيير المجتمعات الأوروبية ، وانتقالها من حالة راكدة خانعة إلى أخرى متحررة ، يتقدم الإنسان فيها خطوة على تاريخه ... ولكننا نعلم الإسلام والمجتمع الإسلامى على طول تاريخه الطويل إذا حكمنا عليه بأنه لم يعرف هذه المعانى ، فى الحق إن بذورها كانت موجودة ، لا بشكل نظام ونظريات ثابتة مستقرة ، وإنما بشكل هبات وانتفاضات ورؤيا شعبية وثورية تقوم فى المجتمعات الإسلامية ، يتبناها ، أو يحرك أوارها مسلمون ثوار ، أو ثوار مسلمون على الأصح ..

وهذا هو الموضوع الذى شغل كاتبنا محمد عمارة فى بحثه القيم (مسلمون ثوار) .. فهو يطرح تلك الفكرة ، ثم يجيب عنها من واقع التاريخ الإسلامى لا من خلال التعصب الفطرى والبدىيات التقليدية .

(١) انظر عدد (الأهرام) الصادر فى ٥ مايو سنة ١٩٧٢ م .

(٢) اختاره الله إلى جواره . فى لندن . بعد صراع طويل مع المرض . عليه رحمة الله .

وليس هذه بداية اهتمام الكاتب بالتاريخ والفكر الإسلامى ، وإنما هى تنويج ومواصلة ومثابرة لما بدأه منذ سنوات فى هذا الميدان^(١)»

* * *

وإذا كان لى أن أعقب بشيء على هذه الكلمات الطيبة التى قبلت فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، فإننى أقول : إن الوفاء بحق الشكر الواجب علىّ نحو كل الذين احتفلوا بهذا الكتاب ، والذين استقبلوه هذا الاستقبال الطيب ، لا يقف فقط عند تقديمى لهم هذه الطبعة الكاملة منه .. وإنما يتعدى ذلك إلى وعد أقطعه على نفسى للباحث والقارئ العربى أن أوصل العمل فى هذا المجال من مجالات الدراسات التى أنا معنى بها ، فأنفض غبار الإهمال ، وأزيح ركام الخرافة عن الوجوه المشرقة لثوارنا المسلمين - وهم كثيرون فى كل مناحى الفكر ونشاطات الحياة - ... وأتمنى أن لا يطول بنا الزمن حتى أقدم فصولاً جديدة عن مسلمين ثوار آخرين ... وذلك حتى يستطيع جهدى هذا - مع كل جهود المخلصين - أن يسهم فى البلورة والانتصار للحاضر والمستقبل الثورى الذى نبتغى به وفيه للإنسان العربى أن يواصل المسيرة الرائعة التى استهدفها وفكر فيها وعمل لها وحلم بها واستشهد من أجلها هؤلاء المسلمون الثوار ..

محمد عمارة

القاهرة - أكتوبر سنة ١٩٧٣

(١) انظر (الجمهورية) العدد الصادر فى ١٠ فبراير سنة ١٩٧٢ م .

مقدمة الطبعة الأولى

في أدبنا السياسي الحديث ، عندما نسمع مصطلح « الثورة » يقفز إلى ذهننا ذلك المضمون المحدد الذي استقر لهذا المصطلح في أحدث التعريفات ، وأيضاً في التطبيقات الاجتماعية المعاصرة ، وهو : علم تغيير المجتمع تغييراً جذرياً وشاملاً ، والانتقال به من مرحلة تطويرية معينة إلى أخرى أكثر تقدماً ، مما يتيح للقوى الاجتماعية المتقدمة في هذا المجتمع أن تأخذ بيدها مقاليد الأمور فتصنع الحياة الأكثر ملاءمة وتمكيناً لسعادة ورفاهية الإنسان .

والأمر الذي لا شك فيه أن هذا المضمون المحدد لم يكن في حسابان الذين استخدموا مصطلح « الثورة » في مجتمعنا العربي الإسلامي القديم ، ومن ثم فإنه يعد إضافة عصرية أدخلها التطور الحديث ووضعها تحت هذا المصطلح ، الذي عرفته لغتنا منذ قرون وقرون .. « فالثورة » كانت تعني عند العرب ، وفي لغتهم ، أشياء كثيرة منها - في مقامنا هذا - : « الهياج » ، و « الغضب » ، و « الوثوب » ، و « الانتشار » .. دون أن تعني كل مدلولات هذا المصطلح في وقتنا الراهن .

وهناك مصطلحات أخرى استخدمها العرب لعدد من « المعاني » و « الأفعال » القريبة من معنى « الثورة » وأحدها ، ومن ثم فإن بالإمكان اعتبار هذه المصطلحات مكملّة ومتآزرة مع مصطلح « الثورة » في الدلالة على أكثر المضامين قرباً من مدلول « الثورة » في لغتنا الحالية وعصرنا الحديث ..

فكلمة « الفتنة » استخدمت قديماً بمعنى : الاختلاف والصراع حول الآراء والأفكار ، وقيام الأحزاب والتيارات الفكرية المتصارعة ، واستخدمت بمعنى « الثورة » ، أي الوثوب ، ووقوع الابتلاء والامتحان والاختبار وتمييز الجيد من الرديء عن طريق الصهر في حرارة الأحداث والصراعات .. وفي كلمات « عثمان بن عفان » رضي الله عنه إلى « معاوية بن أبي سفيان » عندما علم منه أخبار اجتماع الفقراء من حول الصحابي الجليل « أبي ذر الغفاري » ،

وانقضاضهم ووثوبهم على الأغنياء بالشام، وممارستهم بأنفسهم تنفيذ أفكار «أبي ذر» وآرائه في الأموال وتوزيع الثروات ... في كلمات «عثمان» إلى «معاوية» ما يدل على استخدام مصطلح «الفتنة» بمعنى «الثورة» .. فلقد كتب يقول: «إن الفتنة قد أخرجت خطمها (منقارها) وعينها، ولم يبق إلا أن تثب» ... وعندما عالج الدكتور طه حسين أحداث هذه الفترة فإنه عالجها تحت عنوان (الفتنة الكبرى) .. وهو يعني «الثورة»، ويستخدم مصطلح القدماء ..

وكلمة «الملحمة» كانت تعني - ضمن ما تعني - التلاحم في الصراع والقتال، والقتال في «الفتنة» (الثورة) بالذات .. وكانت تعني أيضاً الإصلاح العميق الذي يشمل الأمة ويعمها، لأن هذا الإصلاح يؤلف بين الأمة ويحقق وحدتها وتلاحمها ... ومن الأوصاف التي وُصِفَ بها النبي - صلى الله عليه وسلم - وصف: «نبي الملحمة» .. وقالوا: إنه يدل على معنيين: أحدهما: نبي القتال، والثاني: نبي الإصلاح والتأليف بين الناس، لأنه يؤلف أمر الأمة في لإحكام ..^(١)

كما استخدمت - قديماً كذلك - لهذا المعنى كلمة «الخروج»، فقبيل «خرج» على السلطان بمعنى «ثار» ضده ووثب عليه .. الخ .. الخ ...

وإلى عصر قريب كانت كلمة «النهضة» تستخدم بمعنى «الثورة»، لأن «النهوض» يعني «الوثوب» و«الانقضاض» ... ولقد استخدمها هذا الاستخدام جمال الدين الأفغانى، وكذلك سعد زغلول في ثورة مصر سنة ١٩١٩^(٢).

* * *

ومن الأمور الجديرة بالإشارة في تقديمنا هذا، أن نقول: إن الثورة - بما تعنى من مضمون قد تحدد لها في أدبنا السياسى الحديث - هي أمر أعم وأشمل من الأثر الثورى الذى يحدثه نائر من الثوار .. فمن الممكن أن نطلق وصف «الثائر» على مفكر من المفكرين، أو سياسى من السياسة، أو عالم من العلماء، وأن نطلق وصف «الثورى» على الأثر الذى أحدثته هذا الإنسان في ميدانه، وذلك دون أن يعنى هذا أن هناك «ثورة» قد تمت في المجتمع الذى

(١) انظر مواد هذه المصطلحات في (لسان العرب) لابن منظور.

(٢) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى مع دراسة عن حياته وآثاره) ص ١٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م دراسة وتحقيق دكتور محمد عارة .

عاش فيه ، لأن الجزء لا يعنى الكل ، وحدث أثر « ثورى » من إنسان « ناثر » لا يعنى أن عملية التغيير الجذرى الشاملة (الثورة) قد حدثت وشملت المجتمع .. كما أن تخلف هذا الشمول لا ينفى وصف « الثورى » عن هذا الأثر ، ولا وصف « الناثر » عن ذلك الإنسان ..

ففى تاريخ الإنسانية مفكرون ومناضلون قدموا إسهامات « ثورية » فى الحقول التى عملوا بها : فى العلم ، أو الأدب ، أو الفلسفة ، أو السياسة ، دون أن يشهد عصرهم ومجتمعهم تلك العملية الشاملة والجذرية فى التغيير .. ومن ثم فلقد كانوا ، وكانت آثارهم ، علامات على طريق « الثورة » بمعناها الشامل والجذرى .. وعندما حان الحين فى هذه المجتمعات لتتم هذه العملية الجراحية الكبرى ، كانت أعمال هؤلاء الرواد من ركائز ومكونات هذه العملية الكبرى ، ومن « التراكمات الكمية » التى أدت إلى هذا « التغيير الكيفى » الحاسم الكبير ..

وفى هذا الباب ، ومن هذا المدخل يأتي الحديث عن أعلام كثيرين شهدهم تاريخنا العربى الإسلامى وحفلت بهم حياتنا ، وزدانت بآثارهم الفكرية والنضالية صفحات تراثنا ... يأتي الحديث عن هؤلاء « كتوارة » ، بالضمون العلمى الحديث لهذا المصطلح ، كما يأتي الحديث عن آثارهم فى عوالم الفكر والسياسة والممارسة العملية والسلوك ، كأعمال « ثورية » ... وأهم من ذلك يأتي الحديث عن كل ذلك كلبينات أسهمت ومازالت تسهم فى صنع « الثورة » بالمجتمع العربى الإسلامى الكبير ، « الثورة » التى تغيّر التغيير الجذرى والشامل وتنقل به إلى مرحلة أكثر تقدماً وتطوراً ، وإلى وضع أكثر ملاءمة للحرية والتقدم بالنسبة للإنسان الذى يعيش فيه .. ومن هنا تأتى أهمية البحث فى تراثنا عن هؤلاء الأعلام ، وأهمية الكشف عن آثارهم الفكرية والنضالية ، وتقديمها إلى الناس .

* * *

والشخصيات النائرة التى نعرض لحياتها ونضالها فى هذا الكتاب ، تكوّن ، بمجتمعة ، قضية من القضايا التى يحفل بها تراثنا العربى الإسلامى ، والتى تحتاج إلى الجلاء والإبراز والتقديم ... وهى الخاصة بأن هذا التراث وذلك التاريخ - رغم كثير من صفحاته المظلمة - قد كان دائماً وأبداً حافلاً بالعمل الثورى والموقف الثورى والكلمة الثورية .. على امتداد العصور ، وتنوع المذاهب والمدارس الفكرية ، وفى مختلف حقول الفكر وميادين النشاط ...

ففى عصر البعثة وصدر الإسلام ، نجد الصحابى أبا ذر الغفارى ، يجسد لنا موقفاً ثورياً من التحولات الاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على المجتمع بعد فتح المجتمعات الزراعية الغنية فى

مصر والشام والعراق ، وبالذات في عهد عثمان بن عفان .

وفي ظل الدولة الأموية تقدّم لنا حياة غيلان الدمشقي ونضاله موقفاً ثورياً وفكراً ثورياً تمثل في مناهضته لفكر الجبر والخبيرة الذي يبرر المظالم ويدعو للسكوت عليها والرضى بها ، وفي موقفه العملي أثناء مصادرة ممتلكات الأسرة الحاكمة ، على عهد عمر بن عبد العزيز: . ثم يجسد لنا قبة هذا الموقف الثوري عندما يقبض عليه ، ويحاكم ، ويصلب .. فيتحول إلى أسطورة في الصبر والتحدى والقيام بواجبه الثوري حتى وهو على خشبة الصليب؟! .

وفي المجتمع الأندلسي والمغربي ، عندما تسود الفكر الإسلامي مواقف الإمام الغزالي ضد الفلسفة والفلاسفة يشن ابن رشد هجوماً مضاداً ، ويقوم بثورة فكرية على جبهة الفكر الفلسفي والاجتماعي ، فيعيد للعقل العربي - الإسلامي مجده ومكانه ... ويدفع لذلك ثمناً غالياً من راحته وحرية وكرامته كأكبر مفكر شهدته ذلك التاريخ ...

وفي عصر الدولة الأيوبية والمماليك .. يتقدم العز بن عبد السلام ، من فوق أرضيه فكرية محافظة ، أرضية المذهب الأشعري ، ليقود نضالاً فكرياً ثورياً ضد الجمود .. وليقف بحزم وصلابة ضد الظلم ، والتفاوت بين الناس ، وضد البدع والانحرافات .. وفي سبيل الدفاع عن الوطن ضد الصليبيين والتتار . وليصارع الظلمة والخنوة من السلاطين والحكام ..

وفي عصرنا الحديث يقدم جمال الدين الأفغاني للأدب السياسي الثوري نموذج الناثر حيث توجد مبررات الثورة ودواعيها ، ونط الإنسان الذي جعل من قلبه وعقله منزلاً لآلام الإنسانية فناضل في سبيل البشر دون أن يربط نفسه ببقعة محددة من الأرض أو يتعصب لجنس ضد جنس أو دين ضد دين .. وعندما شهد في عصره أن أكبر الظواهر هي هجوم الغرب الاستعماري على الشرق وهب حياته للدفاع عن هذا الشرق والانتصار لحرياته ضد الاستعمار والاستبداد .

كما يقدم الكواكبي - وهو مفكر سلفي ، تولى في وطنه نقابة الأشراف - فكراً ثورياً منظماً في « القومية » و « الاشتراكية » و « الحرية » يقف موقف الريادة في فكرنا العربي الإسلامي الحديث ..

وكذلك يصنع ابن باديس - المفكر السلفي المستنير - عندما يسهر على صنع الرجال الجزائريين الذين أعادوا إلى العروبة والإسلام شعباً ووطناً أراد له المستعمرون الفرنسيون ولخصارته ومكوناته الذاتية الإبادة والفناء ..

فههم إذاً كوكبة من الأعلام .. من عصور مختلفة ، وبلاد مختلفة ، ومذاهب فكرية مختلفة قد أحدثوا آثاراً ثورية في حقول وميادين مختلفة .. ولكن القسمة التي تجمعهم جميعاً هي أنهم مسلمون .. وأنهم ثوار .. وهم بذلك مقيمون الدليل ، أصدق الدليل ، على استمرارية الثورة في حياة أمتنا ومجتمعاتنا .. بل على أن هذه الاستمرارية لروح الثورة في أحشاء هذه الأمة إنما تقف في مقدمة العوامل التي حفظت لها وجودها ، فصدت موجات الإبادة ، واحتفظت لها بوحدتها فانتصرت على عوامل التمزيق .

وإنه لأمر هام وضروري أن تكون حياة هؤلاء الأعلام وآثارهم الثورية في عقولنا وقلوبنا ونصب أعيننا .. وبين يدي الجيل الذي سينجز ما بدأوه ، ويحقق الأحلام التي ناضل من أجل تحقيقها هؤلاء المسلمون الثوار .

دكتور
محمد عمارة

القاهرة - فبراير سنة ١٩٧٢ م .

- ١ -

عمر بن الخطاب

[٤٠ ق . هـ - ٢٣ هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤ م]

تجسيد العدل بين الناس

تقديم

عدل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - وهو جوهر تشريعاته الاقتصادية وفكره الاجتماعي - من أشهر المأثورات التي تحدث عنها تاريخ الإسلام والمسلمين على عهد الخلفاء الراشدين .. حتى لقد أصبح عدل هذا الخليفة مضرب الأمثال ، وواحدة من القضايا المسلمة والمتفق عليها في هذا التاريخ .

وحمل هذا العدل ، فكرا وتطبيقا ، تناثرت الكلمات وتفرقت القصص وشاعت الحكم في مصادر تراثنا ، القديم منه والحديث .. ومع هذا فإن الباحث المتأمل في نهج عمر بن الخطاب بميدان العدل الاجتماعي يشعر أن المجال لازال مفتوحا ، والحاجة لاتزال ماسة لالقاء المزيد من الضوء والدقيق من التحديدات والتقييات على قسمة العدل الاجتماعي عند هذا الخليفة العظيم ..

● ذلك أن العدل الاجتماعي عند عمر بن الخطاب ليس مجرد عدل صحابي زاهد من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وإنما هو عدل خليفة ورأس دولة وأمير للمؤمنين فهو ليس موقفا فرديا ، وفكرا ذاتيا ، واختيارا خاصا وإنما هو عدل دولة ، وقانون مجتمع ، وتجربة أمة ، وسياسة امبراطورية كانت أوسع وأول وأقوى امبراطوريات العالم في ذلك التاريخ ..

● وعدل هذا الخليفة الراشد ليس كعدل غيره من الخلفاء - كأبي بكر الصديق مثلا - يمكن لمخالف معاند أن يرده إلى فقر الدولة وضيق إمكانيات المجتمع ، الأمر الذي يدفع إلى اختيار المساواة في القليل بحكم الضرورات الحاكمة .. ذلك أن عهد عمر بن الخطاب هو الذي شهد فتح الفتوح ، فبلغت حدود الدولة من الجزيرة والشام شمالا إلى اليمن في الجنوب ، ومن فارس في الشرق إلى الشمال الافريقي غربا ، فضمت أودية الزراعة حول الانهار ،

واحتازت كنوز أكاسرة الفرس التي سجلت كتب التاريخ أوصافها في صفحات تشبه الاساطير.. وعندما يجتاز قوم عامتهم من البدو الفقراء بلادا وكنوزا وثروات كهذه ، ثم ينهض فيهم حاكم يجعل للعدل الاجتماعى فى دولتهم مكانا بارزا ، بل ومألقا ، فإننا ولا شك نكون بإزاء أمر غير مألوف ، وحقيقة تشد انتباه الباحثين ..

● ويزيد هذا الأمر أهمية وتميزا ان سفينة العدل الاجتماعى ، تلك التي قادها عمر بن الخطاب ، قد اكتنفت مسيرتها العديد من الاعاصير والانواء ..

فأغنياء قريش القدامى وسادة مجتمعا على عهد ما قبل الإسلام ، أولئك الذين دخلوا الإسلام متأخرين بعد أن لم يكن هناك مفر من الانخراط فى المجتمع الجديد .. هؤلاء الأغنياء بدأت تطلعاتهم للتملك والحيازة والاستئثار تبرز فى عنف زاد منه اغراء الثروة التي امتلكها المجتمع . بعد الفتوحات ..

ونفر من الذين سبقوا إلى الإسلام ، وفقدوا فى سبيل دعوته ودولته ما كان لهم من مال و ثراء ، لم يجدوا بأسا ولا غضاضة فى أن يجتهدوا كل الاجتهاد لتكوين ثروات جديدة تفوق كثيرا ما سبق أن امتلكوا وفقدوا من ثروات ..

وآخرون من المسلمين الذين شبوا فقراء . أو حتى رقيقا ثم أصبحوا بالإسلام والبلاء والجهاد فى سبيله من أعلام المجتمع الجديد ، تطلعت نفوسهم إلى حياة الدعة والغنى والرفاهية التي تعوض لهم شظف العيش وعناء الجهاد فى مجتمع ما قبل الغنى والفتوح ..

وكانت هذه التطلعات ، المشروع منها وغير المشروع ، تحديات تهدد نهج عمر بن الخطاب فى العدل الاجتماعى .. بل لقد تحدث عنها عمر فى العديد من المواقف - التي سيأتى حديثنا عنها فى مكانه من هذا البحث - حتى لقد رآها معركة وقتالا يدور بينه ، كحاكم ، وبين الطامعين فى موقعه ، الطامحين فى اختراق الحصار الذي حاصر به هذه التطلعات .. فهو يتحدث ، محذرا ، عن صعوبة مهمة من سبيله فى حكم المسلمين ، فيقول : «... فليعلم من ولى هذا الأمر بعدى أنه سيريد عنه القريب والبعيد .. وأيم الله ما كنت إلا أقاتل الناس عن نفسى قتالا ؟! ^(١) » .

ومع كل هذه التطلعات ، وبالرغم منها ، ساد عدل عمر ، وارتفعت أعلامه خفاقة ، حتى لقد أصبح منارة أضواء عصره ، ولا تزال مضيئة فى صفحات التاريخ والتراث ، يغرى

(١) ابن سعد (الطبقات الكبرى) ج٣ ق ١ ص ٢٠٦ ، طبعة دار التحرير - القاهرة .

ضوؤها الباحثين والمصلحين والثوار بالاستلهام على مر العصور ! .

● وعدل عمر بن الخطاب ، الذى تمثل فى فكره وتطبيقاته التشريعية والتنفيذية وفى سلوكه ، قد تميز عن عدل خلفاء آخرين حكموا فعلدوا هم أيضا ، تميز باجتماع القلوب على السكينة إليه ، والعقول على تأييده ، والتيارات الفكرية الاساسية فى تاريخنا وتراثنا بالاجماع على سلامته من النقد والتجريح ..

فأبو بكر الصديق .. حكم فعدل .. ولكنه قال عن مساواته بين الناس فى العطاء : انها ضرورة تحتها قلة المال كما أن حكمه وخلافته - لا عدله - كانت موطن نزاع .. فعلى ابن أبى طالب وفريق من بنى هاشم ومن الصحابة قد امتنعوا عن البيعة له نحو من ستة أشهر ، أى قرابة ربع المدة التى حكم فيها .. وسعد بن عباد ، وهو من أكبر زعماء الانصار وأعظم بناءة الدولة الإسلامية ، وأحد النقباء الاثنى عشر الذين عقدوا مع الرسول عقد تأسيسها فى بيعة العقبة .. سعد بن عباد هذا قد امتنع عن بيعة أبى بكر ، بل وعن الصلاة خلفه أو الاقتداء بلوائه فى الحج ، لأنه كان يريد الخلافة لنفسه وللانصار .. ومات أبو بكر وخلاف سعد له قائم لم يحدث حوله اتفاق .

وعثمان بن عفان بلغ اختلاف المسلمين من حول سياسته ونهجه الاجتماعى إلى حد الثورة عليه ، وهى الثورة التى حاصرتة فى منزله ، ومنعت عنه الزاد والماء ، حتى تسور الثوار داره فقتلوه ، رحمه الله ، وهو يقرأ القرآن ! ..

وعلى بن أبى طالب - وهو من قم العدل فى تراثنا العربى وتاريخنا الإسلامى - انقسمت الأمة من حوله ، وحاربه الاكثرون ، وصمد إلى جانب الدفاع عن نهجه الاقلون حتى لقي ربه شهيدا ! ..

أما عمر بن الخطاب .. فإنه يتفرد - مع عدله الاجتماعى باجتماع الامة من حوله ، والثناء الذى لقيته وتلقاه تجربته السياسية والاجتماعية من التيارات الاساسية فى فكر المسلمين وتراثهم عبر تاريخهم الطويل ..

● واكثر من هذا .. فإن عمر ليس بالمشرع العادى ، حتى تكون تشريعاته فى العدل الاجتماعى تشريعات عادية .. فهو أكثر من صحابى .. واكثر من واحد من ممن سبقوا إلى الإسلام .. وأكثر من أحد الأربعة الذين مثلوا عهد الخلافة الراشدة .. أكثر من هذا كله يتميز عمر ويمتاز بعبقريه ملهمة فى التشريع ، تضمنى على تشريعاته فى العدل الاجتماعى

عبقرية تضعها في مكان عال بين تشريعات غيره من الخلفاء ..

وهذه العبقرية المهمة في التشريع قد برزت لدى عمر وعرفت عنه وشاعت بين المسلمين حتى على عهد الرسول ، عليه الصلاة والسلام .. بل لقد بلغت إلى الحد الذي جعل عمر يفكر ، فيدرك الضرورة التشريعية ، فيقترح على الرسول سن التشريع .. ثم لا يلبث الوحي ان ينزل بآيات القرآن الكريم مؤيدة ومزكية لما اقترح عمر بن الخطاب من تشريعات ! حدث ذلك في مواطن كثيرة ، تحدثت كتب السنة النبوية وتفسير القرآن الكريم عن سنتة منها :

١ - فالرسول ، عليه الصلاة والسلام ، يأخذ بيد عمر فيريه مكانا بالمسجد الحرام ، ويقول له : « هذا مقام إبراهيم ، فيجيبه عمر ، مقترحا : « أفلا نتخذة مصلى ؟ » فيقول الرسول : « لم أومر بذلك ! » .. فلم تغب شمس ذلك اليوم حتى نزل الوحي بالآية الكريمة : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ^(١) .

٢ - وقبل أن ينزل القرآن بآية « الحجاب » لنساء النبي ، عليه الصلاة والسلام ، اقترح عمر هذا التشريع على الرسول .. ثم ينزل القرآن مؤيدا اقتراحه فيقول للمسلمين . (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم ، والله لا يستحي من الحق ، واذا سألتهم متاعا فسألوهن من وراء حجاب ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن) . ^(٢)

٣ - وعقب انتصار المسلمين في غزوة بدر ، يقترح عمر قتل الأسرى من أئمة الشرك في قريش ، ولكن الرسول يختار الرأي الذي حبذ اطلاق سراحهم لقاء فدية .. فينزل القرآن مؤيدا رأى عمر ، ومعاتبا رسول الله لاختياره رأى الآخرين ! (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يتخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم) ! ^(٣)

٤ - وفي الموقف من المنافقين ، والصلاة على موتاهم .. يذهب الرسول ليصلي على عبد الله

(١) البقرة : ١٢٥ . (انظر : صحيح مسلم . ج ٤ ص ١٨٦٥ طبعة الحلبي . القاهرة سنة ١٩٥٥ م . وانظر كذلك : تفسير البيضاوي ص ٤٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .

(٢) الأحزاب : ٥٣ (انظر : صحيح مسلم . ج ٤ ص ١٨٦٥ وتفسير البيضاوي ص ٥٩٠ ، ٥٩١) .

(٣) الأنفال : ٦٧ (انظر : صحيح مسلم . ج ٤ ص ١٨٦٥ . وتفسير البيضاوي ص ٢٧٢) .

ابن أبي بن سلول ، فيقول له عمر : « يا رسول الله ، أتصلى عليه وقد نهاك الله ان تصلى عليه ؟ ! » فيجيبه الرسول : « إنما خيرني الله فقال : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة) ^(١) .. وسأزيدك على سبعين ! » .. فيتساءل عمر : « انه مناقف ؟ ! » ولكن الرسول يصلى على عبد الله بن أبي بن سلول .. فينزل قول الله سبحانه : (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) ! ^(٢)

٥ - وعندما تجتمع نساء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عليه في الغيرة ، يتحدث عمر عن ان موقفهن هذا يجعل الخير في طلاق الرسول لهن ، فينزل القرآن الكريم بقول الله سبحانه : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات ساجدات ثيبات وأبكارا) ! ^(٣) .

٦ - وقصة التشريع الإسلامى مع تحريم الخمر ، هى واحدة من المواظن التى سبق فيها عمر باقتراح التشريع ثم نزلت الآية الكريمة : (إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) . ^(٤)

إذا .. فنحن هنا بازاء عبقرية تشريعية متفردة ومتميزة ، الأمر الذى يعطى المزيد من الأهمية والحجية والثقل لتشريعات عمر وتطبيقاته فى ساحة العدل الاجتماعى بين الناس .. ويكفى أن يكون هو المشرع الملهم الذى قال فيه الرسول ، عليه الصلاة والسلام : « قد كان يكون فى الأمم قبلكم محدثون - (بضم الميم وفتح الحاء وتشديد الدال مفتوحة .. أى ملهون) - فإن يكن فى امتى منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم » ! ^(٥) .

● وأخيرا .. فإن عمر بن الخطاب يتميز ويمتاز على كثيرين من أقرانه بعقلانية واقعية تجعل من نهجه نهجا أكثر صلاحية للعطاء والاستلهاام مها تخالفت العصور وتغايرت القرون .. قد يتغير الواقع وتتجدد التطبيقات ، ولكن عقلانية عمر وواقعيته تجعلنا نجد فى منهجه وفكره عناصر خالدة أكثر من تلك التى نجدها عند الكثيرين .

فالرجل الذى يطوف بالكعبة ، ثم يقف أمام الحجر الأسود ليقول : والله انى أعلم انك

(١) التوبة : ٨٠ .

(٢) التوبة : ٨٤ . (انظر : صحيح مسلم . ج ٤ ص ١٨٦٥) .

(٣) التحريم : ٥ (انظر : صحيح مسلم . ج ٤ ص ١٨٦٥ «هامش») .

(٤) المائدة : ٩٠ (أنظر : تفسير البيضاوى . ص ٦٩ . وصحيح مسلم ج ٤ «هامش» ص ١٨٦٥) .

(٥) صحيح مسلم . ج ٤ ص ١٨٦٤ م .

حجر لا تضر ولا تنفع .. ولولا انى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك؟! .. الرجل الذى يتسائل هذا التساؤل ، فيفك عقل العقل كى يتحرك ، بل ويتمرد .. لابد ان تسترعى عقلانيته الانظار .

والرجل الذى قدم للمسلمين نهجا فى السلوك اعطى مفاهيم جديدة «للسك» و«التسك» و«النسك» .. مفاهيم نعرفها عندما نقرأ كلمات الشفاء ابنة عبد الله اذ رأت فتيانا يشبهون نساك عصرنا وصوفية زماننا ، «يقصدون فى المشى ، ويتكلمون زويدا» ! . فسألت : ما هذا ؟ ! .. فقالوا : نساك ! فقالت : كان ، والله ، عمر اذا تكلم اسمع ، واذا مشى اسرع ، واذا ضرب أوجع .. هو ، والله ، الناسك حقا» ! .^(١)

رجل كهذا .. لشخصيته وسلوكه تلك الميزات فى العقلانية والواقعية ، لابد وأن تكون حظوظ تشريعاته وتطبيقاته فى العدل الاجتماعى من عناصر الثبات والخلود الصالحة للعطاء والاستلهاام أكثر من حظوظ تشريعات الآخرين .

ومن هنا .. ولجميع ما قدمناه .. كانت الأهمية البالغة لتلك الصفحة من صفحات تراثنا وفكرنا الإسلامى .. صفحة الفكر الاجتماعى .. والعدل الاجتماعى عند عمر بن الخطاب .. سواء أكان ذلك فى التشريع .. أم فى الفكر والتعاليم .

طور جديد فى بناء الدولة

حقيقة أن أسس الدولة العربية الإسلامية قد وضعت فى عهد الرسول عليه السلام ، ومنذ ان هاجر من مكة إلى «يثرب» (المدينة) ، بل وقبيل هذه الهجرة عندما تمت البيعة الأولى بينه وبين ممثلى قبيلتى الأوس والخزرج فى أحد مواسم حجهم إلى مكة ، تلك البيعة التى غدت بمثابة العقد التأسيسى للدولة العربية الإسلامية التى اتخذت من «يثرب» عاصمة لها منذ هاجر إليها الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولكن السنوات التى قضاها الرسول فى «يثرب» وكذلك السنوات التى حكم فيها من بعده أبو بكر الصديق قد استغرقتها أعمال الحرب الدفاعية عن النظام الجديد ، والغزوات التى استهدفت تأمين سلامة الدولة الوليدة ، وبناء كيانها السياسى فى اطار شبه الجزيرة العربية .. ولم

(١) تاريخ الطبرى . ج ٤ ص ٢١٢ . طبعة دار المعارف القاهرة .

يحدث أن فتحت هذه الدولة عيونها بقوة على خارج شبه الجزيرة ، ولا امتدت فتوحات جيوشها إلى حيث اخضعت أقاليم الفرس وحررت مستعمرات البيزنطيين إلا في خلافة عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ - ٦٣٤ - ٦٤٤ م) ، ففي عهده امتدت حدود الدولة العربية الإسلامية حتى تحولت إلى «امبراطورية» رفرت أعلامها على المنطقة الممتدة من ايران إلى مصر إلى الشام ، فضمت أهم واغنى أقاليم الدولة البيزنطية في الشرق وكل ممتلكات الدولة الفارسية .. ولذلك تحدثت أقدم المصادر العربية الإسلامية عن عمر بن الخطاب فوصفته بأنه «هو أول من فتح الفتوح ، وهى الارضون والكور التى فيها الخراج والفيء ، فتح العراق كله ، والسواد والجلال ، واذربيجان ، وكور البصرة وارضها ، وكور الاهواز وفارس ، وكور الشام ما خلا اجنادين فانها فتحت فى خلافة أبي بكر- .. وفتح عمر كور الجزيرة ، والموصل ، ومصر ، والإسكندرية . وقتل -رحمة الله- ونخيله على الرى ، وقد فتحوا عامتها .. وهو أول من مسح السواد وأرض الجبل ، ووضع الخراج على الارضين والجزيرة على جماجم أهل الذمة فيما فتح من البلدان ..^(١)

وهذه العبارات تعنى بالنسبة للباحث عن قسيات النظام الاقتصادى والفكر الاجتماعى الذى اعتمده الدولة العربية الإسلامية الأولى ، الشئ الكثير .. لأنها تجعل من النظام الاقتصادى لهذه الدولة على عهد عمر بن الخطاب النموذج الادق والاكمل الذى يجسد ، بحق ، طبيعة هذا النظام .. فعهد هذا الخليفة هو الذى استكملت فيه الدولة طابع الامبراطورية ، ومن ثم واجهتها مشاكل مستحدثة لم يعرفها عهد الرسول ولا عهد أبي بكر .. ليس فى الجانب الاقتصادى والاجتماعى فقط .. وهو موضوعنا - بل وفى جوانب البناء السياسى والادارى للدولة أيضا ..

* * *

ففيما يتعلق باقامة جهاز إدارى يضبط الحياة الاقتصادية ويرتب الاوضاع الاجتماعية والطبقية للعاملين فى أجهزة الدولة المدنية وجيشها العسكرى ، لم يكن لهذه الدولة عهد بمثل هذا الجهاز قبل عهد عمر وقبل تمام هذه الفتوحات .. فلقد كانت بساطة البيئة العربية وسنأجتها ، مضافا إليها قلة الموارد المالية ، قد حددت لهذا الجهاز أشكالا بسيطة وأولية لا علاقة لها بما للدول الكبرى والامبراطوريات الغنية من أجهزة تضبط مثل هذه الأمور وتنظمها ..

(١) ابن سعد (الطبقات الكبرى) ج ٣ ق ١ ص ٢٠٢ . طبعة دار التحرير . القاهرة .

ولقد طرحت هذه الفتوحات ، وما ادخلت في حدود الدولة من تغور احدثت بها مخاطر واطحار ، وما جلبته إلى العاصمة من أموال لا عهد للعرب بمثلها ، طرحت ضرورة إقامة هذا الجهاز الإدارى الذى ينظم هذه الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للعاملين بهذه الامبراطورية ، وهو الجهاز الذى كانوا يسمونه (الديوان) ..

ولما لم يكن في تراث العرب الادارى ما يستفاد به في «تدوين» (الديوان) ، ولما كانت ملامح «الدولة» العربية الإسلامية في عهده الرسول وأبي بكر هي ثمرة للمجتمع العربى الساذج والبسيط ، فلقد كان ضروريا ان يستلهم العرب على عهد عمر ملامح هذا (الديوان) من التراث الادارى في حضارات الأمم التى فتحوا بلادها ، وبالذات حضارتى الفرس والروم والتراث الادارى لدى كل من الاكاسرة والقيصرة .. فهذه أمور تتعلق بالدنيا ، وبناء الدولة ، وليس في القرآن ولا في السنة ، ولا في تراث العرب الادارى ما يسعف المشرع ورجل الدولة ، فليتجه رجل الدولة العربى المسلم ، دوتما حرج ، إلى تراث الآخرين كى يستلهم النظم التى تقتضى الضرورة والمصلحة وضعها ، اذ في تحقيق هذه المصلحة تحقيق الغايات السامية التى استهدفتها التعاليم الكلية والوصايا المحملة التى يزخر بها القرآن الكريم ..

وقصة عمر بن الخطاب مع «تدوين» (الديوان) تحكى هذا المعنى الذى أشرنا إليه ، «فجبير بن الحويرث بن نقيد» يروى : ان عمر بن الخطاب استشار المسلمين في تدوين الديوان ، فقال له على بن أبى طالب ، تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ، ولا تمسك منه شيئا . وقال عثمان بن عفان : أرى مالا كثيرا يسع الناس ، وان لم يحصوا ، حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ ، خشيت أن ينتشر الأمر - (أى أن عليا وعثمان كانا من انصار البقاء على بساطة وسداجة جهاز الدولة القديم ، ولا يريان ضرورة لتدوين الديوان) فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : يا أمير المؤمنين ، قد جئت الشام فرأيت ملوكها دونوا ديوانا وجندوا جنودا ، فدون ديوانا وجند جنودا ، فأخذ بقوله» ! .^(١) .

فعمر هنا قد أدخل في النظام الإدارى للامبراطورية العربية الإسلامية شيئا مستحدثا لم تعرفه من قبل ، وليس هذا الشيء هو (الديوان) فحسب ، وبل تجنيد الجنود ، أى اتخاذ الجندي مهنة وصناعة يمتنها البعض ، أى تكوين جيش محترف لشئون القتال ؟ ! وهذا الذى صنعه عمر كان استجابة لضرورة طرحتها التطورات الجديدة في الامبراطورية

(١) المصدر السابق . ج ٢ ق ١ ص ٢١٢ ، ص ٢١٦ .

ولم يشهدها عهد الرسول ولا عهد الخليفة الأول ، ولم يجد عمر حرجا في أن يصنع أشياء لم يشر إليها القرآن ولا تحدث عنها الرسول ، ولا فكر فيها أبوبكر ، ولا اقتنع بها علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان فهي أمور مدنية تتعلق بالسياسة والادارة التي تحكمها المصالح المتجددة للناس .

ولم يكن التراث الادارى للدولة الرومية البيزنطية المسيحية هو فقط الذى استلهمه عمر في «تدوين» (الديوان) وتجنيد الجنود ، بل لقد استلهم فيه كذلك تراث الفرس المجوس ، ففي أقدم المصادر التي تؤرخ لهذه الأحداث حديث عن قدوم أبي هريرة - وكان عمر قد ولاه امارة «البحرين» إلى المدينة ومعه ٥٠٠,٠٠٠ درهم جمعها خراجا وجزية من سكان امارته «فقال عمر للناس : انه قد قدم علينا مال كثير ، فان شئتم ان نعد لكم عدا ، وان شئتم ان نكيل لكم كيلا ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ، أنى قد رأيت هؤلاء الاعاجم يدونون ديوانا يعظون الناس عليه .. فدون (عمر) الديوان .^(١)

وغير قضية «تدوين» (الديوان) وتجنيد الجنود ، نجد أن شكل الدولة ، بل والتسمية والمضمون المتعلقان برأس هذه الدولة قد استدعت التطورات الادارية الجديدة طرحها للمناقشة من جديد .. فعندما توفى الرسول ، عليه السلام ، كانت الدولة لا تزال في دور البساطة ، فاطلق على أبي بكر الصديق لقب «خليفة الرسول» ، وكان هو الخليفة الأول ، فكانت هذه التسمية خفيفة بسيطة هي الأخرى ، وعندما مات أبوبكر لقب عمر بـ «خليفة خليفة رسول الله» فأصبح الاسم أكثر طولاً وادخل في التعقيد ، وفكر القوم فيمن سيخلف عمر ، وفيمن سيخلف خليفة عمر ، وكيف أن الأسم سيطول إلى درجة المشقة على الناس في نطقه وتدوينه ، فضلا عن عدم لياقته .. وفكروا أيضا - وهذا هام - في الالقب السياسية والادارية الجديدة التي هي جزء من التراث السياسى والادارى لشعوب البلاد المفتوحة ، والتي أصبح تراثها جزء أساسيا في تراث الامبراطورية المفتوحة الجديدة فكروا في القاب «الامارة» و«الملك» .. فكانت شعوب البلاد المفتوحة ذات التراث السياسى «الملكى» تسمى عمر «ملكا» وكما يروى «انس بن مالك» فان «الهرمزان» من فارس عندما رأى عمر بن الخطاب «مضطجعا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : هذا هو الملك الهنئ ! .^(٢)

بل لقد فكر عمر بن الخطاب نفسه في ان يتخذ من لقب «الملك» لقباً له ، ففي رواية

(١) المصدر السابق . ج ٢ ق ١ ص ٢١٢ . ص ٢١٦ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ق ١ ص ٢١١ .

محمد بن عمر نقرأ قوله : « حدثني » عبد الله بن الحارث عن ابيه عن سفيان بن أبي العوجاء ، قال : قال عمر بن الخطاب : والله ما ادري أخليفة أنا أم ملك ؟ ! فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم !! » وتمضى الرواية فتقول ان قائلا قال لعمر : « يا أمير المؤمنين ، إن بينهما فرقا ، قال (عمر) : ما هو ؟ قال : الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا في حق ، فانت بحمد الله كذلك ، والمملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا ، فسكت عمر ؟ ! »^(١)

أى أن عمر سكت ، مجرد سكوت ، ولم تشر هذه الرواية إلى أنه قد عدل عن تردده هذا ، ولا أنه قد حسم في أمر اللقب الذي هو أولى به .. ولكن رواية أخرى تأتينا عن سلمان الفارسي لتحكى حوارا دار بينه وبين عمر بن الخطاب حول ذات الموضوع ، ومنها نعلم أن عمر قال لسلمان : « المملك أنا أم خليفة ؟ ! فقال له سلمان : إن أنت جيتت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فانت ملك غير خليفة ! » وتمضى الرواية فتقول : « .. فاستعبر عمر !! »^(٢) أى أنه اقتنع بأن لقب « المملك » مرتبط بمضمون متميز بالظلم الاجتماعى ، وهو مالا يليق بالحاكم المسلم العادل الذى كانه عمر بن الخطاب .

ونحن نعلم أن الأمر قد حسم باختيار عمر واستحسانه للقب « أمير المؤمنين » ، ونعلم أنه قد رفض لقب « المملك » وقال لاحد اصهاره - كما يروى محمد بن سيرين - عندما اشم منه انه يريد ميزة من بيت المال : « اردت ان ألقى الله ملكا خائنا ؟ ! »^(٣)

فهو اذا الاجتهاد .. قام به عمر عندما طرحت الحياة في الامبراطورية الجديدة مشكلاتها المستحدثة .. وهو النظر إلى المصلحة الاقتصادية للأمة المرتبطة بقيمة « العدل » ، والعدل الاجتماعى على وجه الخصوص .

ونحن لو ذهبنا نستقصى مواقف الاجتهاد العمرى التى وقفها هذا الخليفة العظيم ، التى تعلقت بالحياة الاقتصادية الجديدة والقضايا الاجتماعية التى طرحتها عليه الحياة ، لوجدنا ذخيرة من المواقف الاجتهادية مازالت حتى يومنا هذا صالحة كى تقوم بالنسبة لنا بدور المعلم ، نستفيد منها الجراءة والشجاعة ، ونتعلم منها كيف نميز بين الجوانب الروحية والعقائدية في الدين وبين جوانب التشريع في الدولة المسلمة فلا تتحول التشريعات إلى ظلال للاهوت والكهنوت كما يريد بها بعض الذين يحاولون استخدام الدين ستارا لاشباع شهواتهم للسلطة ، كما لا تتحول التشريعات إلى نطاق خارج التعاليم الكلية والوصايا السامية العامة التى جاء بها القرآن .

(١ ، ٢ ، ٣) المصدر السابق ج ٣ ق ١ ص ٢٣١ ، ص ٢٢١ ، ص ٢١٩ .

لو ذهبنا نستقصى مواقف الاجتهاد العمري التي نتعلم منها هذا التمييز - لا الفصل - بين الدين والدولة ، وهذه العلاقة - لا وحدة السلطتين الزمنية والروحية - بين كليات تعاليم القرآن والاشكال المدنية المتجددة دوما بتجديد الحياة .. فاننا واجدون الكثير والكثير..

العطاء بين المساواة والتفاوت

كانت الفتوحات الإسلامية على عهد أبي بكر الصديق تدور أساسا في نطاق شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم كانت «الغنائم» محدودة لا تقارن بتلك التي تحصلت على عهد عمر من فتوحات فارس والشام ومصر.. وكان أبو بكر يوزع هذه «الغنائم» بالمساواة بين الناس ، بصرف النظر عن قرابتهم من الرسول أو بعدهم عنه ، وبصرف النظر أيضا عن سبقهم إلى الإسلام أو تأخرهم في اعتناق الدين الجديد .

ولم تكن هناك نصوص دينية - لا في القرآن ولا في السنة - هي التي حددت لابي بكر هذه التسوية بين الناس في العطاء ، وإنما كان اجتهادا من أبي بكر في هذه القضية «المدنية» ، غير الدينية ، راعى فيها قلة هذه «الغنائم» ، ومن ثم فإن المقصود بالتسوية هنا اتاحة حد الكفاف الذي يحفظ للناس الوفاء بضرورات الحياة ، فكان العدل يعني في هذا الموقف التسوية في العطاء .

ولما جاء عمر بن الخطاب ، وفتحت في عهده الفتوح وجاءت الأموال الكثيرة ، و«دون» عمر «الديوان» ، الغى نظام «المساواة» الذي عمل به أبو بكر ، ووضع نظاما للعطاء تتفاوت فيه انصبه الناس ، وجعل التدرج قائما على دعامتين .

الأولى : مدى القرب أو البعد في النسب ، بالنسبة للرسول عليه السلام .

الثانية : السبق إلى الإسلام ، ومن ثم النضال المبكر في سبيل دولته ، أو التأخر في اعتناق الدين الجديد ، ومن ثم المساهمة في النضال ضده .

وكان هذا الموقف الجديد اجتهادا من عمر دفعه إليه وضع اقتصادى ومالى جديد .. وتحكى لنا المصادر الإسلامية التي ارخت لهذا الموقف كيف «كان أبو بكر الصديق قد سوى بين الناس في القسم ، فقيل لعمر في ذلك ، فقال : لا اجعل من قاتل رسول الله ، صلى الله

عليه وسلم ، كمن قاتل معه !^(١) وكيف قال عمر : « ان ابا بكر رأى في هذا المال رأيا ولى فيه رأى اخر»^(٢)

بل ونفهم من هذه المصادر صراحة ما يؤكد قولنا بأن هذه المواقف إنما كانت من وحي الاوضاع الاقتصادية ، ومحكومة بالمصلحة التي تقدرها الدولة ، وانه لم تكن هذه المسائل علاقة عضوية بأمور الدين .. يشهد لذلك ويقطع به ان عمر الذي رفض نظام «التسوية» في العطاء ، واستبدله بنظام التفاوت والتمايز ، عاد في أخريات حياته عندما كثرت الاموال - من جانب - وعندما برزت الفوارق الطبقيّة وهددت قيمة «العدل» التي استهدفها هذا الخليفة العظيم - من جانب آخر - عاد فعزم على الرجوع إلى نظام «التسوية» في العطاء ، فيروى «أبويوسف» عن عمر أنه «لما رأى المال قد كثّر قال : لئن عشت إلى هذه الليلة من قابل ، (أى من العام القادم) لالحقن أخرى الناس بأولاهم حتى يكونوا في العطاء سواء»^(٣) ، وقوله : «لئن عشت إلى هذا العام المقبل لالحقن آخر الناس بأولهم حتى يكونوا بيانا واحدا» ، أى شيئا واحدا . وعلى حد قول أبي عبيد القاسم بن سلام فإن أبا بكر كان يسوى بين الناس في العطاء ، ثم فاضل بينهم عمر ، ثم جاء عنه شيء شبيه «بالرجوع إلى رأى أبي بكر»^(٤) ويروى «زيد بن أسلم» عن ابيه فيقول : «سمعت عمر بن الخطاب يقول : والله لئن بقيت إلى الحول لالحقن آخر الناس بأولهم ، ولا جعلنهم رجلا واحدا»^(٥) .. ولئن بقيت إلى الحول لالحقن أسفل الناس بأعلاهم» . ويؤكد قولنا : إن السبب في هذه التغيرات في تلك التشريعات الاقتصادية والاجتماعية إنما كان الموقف المالى ، يؤكد ذلك رواية إسحاق بن حارثة بن مضرب عن عمر قوله : لئن عشت حتى يكثر المال لاجعلن عطاء الرجل المسلم ثلاثة آلاف»^(٦) . وقوله أيضا الذى يرويه أبو وائل : لو استقبلت من امرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء ، فقسمتها على الفقراء»^(٧)

(١) المصدر السابق . ح ٣ ق ١ ص ٢١٣ .

(٢) كتاب الخراج ، لأبي يوسف . ص ٤٣ . طبعة المطبعة السلفية سنة ١٣٥٢ هـ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٦ .

(٤) (الأموال) ص ٣٧٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(٥) طبقات ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢١٧ .

(٦) المصدر السابق ج ٣ ق ١ ص ٢١٧ .

(٧) الطبرى (التاريخ) ح ٤ ص ٢٢٦ (احداث سنة ٢٣ هـ) طبعة دار المعارف - القاهرة .

فعمرو قد خالف أبا بكر ، لأسباب مالية واقتصادية ، ثم عزم على العودة إلى موقف أبي بكر ، لأسباب مالية واقتصادية واجتماعية ، دون ان يحاول أى منها الربط بين أى موقف من هذه المواقف الدنيوية المدنية وبين الدين .

نصيب الرسول ونصيب قرابته من الغنائم

في القرآن الكريم آية حددت المصارف التي تصرف فيها أموال «الغنائم» التي «يغنمها» المسلمون ، يقول الله فيها . (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ، ولذو القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) ^(١) . فكان أربعة أخماس الغنائم يوزع على الفاتحين ، والحمدس الخامس يوزع في خمسة مصارف : الرسول ، وقرابته ، واليتامى ، والمساكين والغرباء من أبناء السبيل .. فلما توفى الرسول اجتهد الخلفاء : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، والتقى اجتهادهم على أن الموقف ازاء هذا النص القرآني ، بعد موت الرسول ، يختلف عنه وقت حياة الرسول فقسّموا هذا الخمس إلى ثلاثة أقسام هي لليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والغوا خمس الرسول وخمس قرابته ، ورفضوا أن يحل الخليفة محل الرسول في أخذ خمسة ، مما يوحى بان سلطان الرسول وسلطته ومن ثم حقوقه هي نوع خاص واستثنائي وغير قابل للميراث ، كما رفضوا أن يظل خمس قرابته لآل بيته ، أو أن يتحول هذا الخمس إلى آل بيت الخليفة .. ويروى «أبو يوسف» عن عبد الله بن عباس : «ان الخمس كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على خمسة اسهم : لله وللرسول سهم ، ولذو القربى سهم ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ، ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان على ثلاثة أسهم ، وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القربى . وقسم على الثلاثة الباقي . ثم قسمه على بن أبي طالب على ما قسمه عليه أبو بكر وعمر وعثمان» ^(٢)

كما يروى أبو يوسف أيضا عن «الحسن بن محمد بن الحنفية» ، كيف كان هذا الأمر من مواطن الخلاف والاجتهاد فلقد «اختلف الناس بعد وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم في

(١) سورة الأنفال آية : ٤١ .

(٢) كتاب الخراج . ص ١٩ .

هذين السهمين : سهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسهم ذوى القربى . فقال قوم : سهم الرسول للخليفة من بعده وقال آخرون : سهم ذوى القربى لقرباة الرسول عليه السلام ، وقالت طائفة : سهم ذوى القربى لقرباة الخليفة من بعده فاجمعوا على ان جعلوا هذين السهمين ، فى الكراع^(١) والسلاح^(٢) .. أى أنه قد استقر الرأى والاجتهاد على « تأميم » هذين القسمين ، وضمهما إلى الأموال المخصصة للمصالح العامة فى الدولة ، واكد هذا الاجتهاد على قسمة «مدنية» السلطة بعد الرسول عليه السلام ، عندما أبعد شبة وراثه الخليفة لما للرسول ، وحلول قرابته محل قرابة الرسول وذلك بعد ان نبي استحقاق قرابة الرسول من بعده لما كانت تستحقه فى حياته بسبب ظروف اقتصادية تحملتها فى سبيل الدعوة الجديدة قبل ان تستقر دولة هذه الدعوة .

الموقف من تملك الأرض الزراعية

على ان أخطر المواقف التى واجهت عمر بن الخطاب ، وهو يرسى القواعد الاقتصادية والاجتماعية للإمبراطورية الجديدة ، كان الموقف حيال الأرض الزراعية ، الواسعة والغنية ، التى فتحتها جيوش العرب المسلمين فى المشرق : العراق ، وفارس ، وفى المغرب : مصر ، وفى الشمال : الجزيرة والشام ... فلقد ادرك عمر بن الخطاب ان فتوحات دولته لن تمتد فى المستقبل القرب إلى ما هو ابعد كثيراً من هذه الحدود التى امتدت إليها ، ومن ثم فان هذه الأرض الخصبة التى تروىها انهار « النيل » و « بردى » و « دجلة » و « الفرات » هى الثروة الرئيسية فى هذه الامبراطورية . حاضرا ومستقبلا .

ثم نظر الرجل إلى نصوص القرآن ، وإلى تطبيقات الرسول ومن بعده أبوبكر ، فاذا النصوص والتطبيقات جميعها تعتبر هذه الأرض المفتوحة « فيئا » أفاءه الله على الفاتحين ، ومن ثم فان الحكم هو قسمة هذه الأرض بما عليها ومن فيها من الفلاحين بين الجنود والفاتحين ؟ أى أن القرآن والسنة يقضيان بتمليك هذه الأرض للجنود الفاتحين ملكية خاصة ، وبتحويل شعوب هذه البلاد المفتوحة - وبالذات الفلاحين - إلى عبيد أرقاء لهؤلاء الجند الفاتحين ؟ !

(١) الكراع هنا معناها : الحيل .

(٢) كتاب الحراج ص ٢١ .

ولقد رفض عمر بن الخطاب هذا الموقف رفضا قاطعا .. وقرر ان الوضع الجديد يطرح قضية جديدة ، وانه لا بد من الاجتهاد لاتخاذ موقف جديد يستند إلى تشريع جديد .. وخاض هذا الخليفة العظيم صراعا عنيفا ضد أغلبية الصحابة وضد الجيوش التي فتحت هذه البلاد حتى انتصر ، في النهاية ، على كل المعارضين ..

وقبل ان نعرض لوقائع هذا الصراع «الاجتماعي - الاقتصادي» ، يحسن أن ننبه إلى أن دوافع عمر بن الخطاب إلى اتخاذ موقفه المتقدم هذا لم تكن كلها نابعة من إيمان الرجل بالعدالة الاجتماعية كقيمة مثالية مجردة ، فعمر لم يكن الممثل الحقيقي لفقراء القوم ، لا قبل إسلامه ولا بعد اسلامه ، وإنما كان ممثلا للطبقة الوسطى في المجتمع القرشي المتميز في شبه الجزيرة العربية .. وحتى نقطع الطريق على الذين يخلوهم الجدل في ذلك ، نقول : إن عمر نفسه هو الذي يقرر لنا هذه الحقيقة الاجتماعية والطبقية ، فهو يتحدث عن حقوقه ، كأمر للمؤمنين ، في بيت مال المسلمين فيقول : انها «حلتان : حلة في الشتاء ، وحلة في القبط ، وما أحجج عليه واعتمر من الظهر (الدواب) وقوتى وقوت اهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم !^(١) .. فلا تلتعلق بقيمة العدالة الاجتماعية ، بمعناها المجرد والمثالي ، ولا كراهة ان تتحول هذه الشعوب الفارسية والشامية والمصرية إلى أرقاء ، هي كل الأسباب التي وقفت وراء «ثورة» عمر بن الخطاب على ما كان يراد بهذه الأرض وهؤلاء الناس من الاقتسام والاسترقاق .. وإنما كانت الضرورات الاقتصادية تلعب دورا هاما في مجموع الأسباب التي جعلت عمر يقرر أن تصبح هذه الأرض وانهارها وقفا على بيت المال ، للدولة «ملكية الرقبة» فيها ، وان تظل بأيدي فلاحها ، لهم فيها «ملكية المنفعة» نظير «الخراج» الذي يدفعونه عن مساحتها .. وان يظل هؤلاء الفلاحون أحرارا يدفعون «الجزية» التي تضيف مصدرا من مصادر تمويل بيت المال ، مع «الخراج» وذلك بدلا من أن تتحول كل هذه الثروة الزراعية والبشرية إلى ملكية خاصة ينفرد بها وبالتمتع بثمراتها الجنود الفاتحون .. رأى عمر ذلك .. ورأى فيه المصدر الرئيسي لمالية الدولة ، ولقيامها بنفقاتها المدنية والعسكرية ، سواء في عهده أو فيما سيلي عهده من عهود ..

ولقد كان موقف عمر هذا ، الذي يمثل تغييرات جذرية في أمر استقرت عليه الدولة الإسلامية واستندت فيه إلى نص قرآني .. كان هذا الموقف بمثابة «الثورة» في الاجتهاد والتشريع والتطبيق .. ويكفي أن نورد هنا بعض النصوص التي أرخت لهذا الحدث الكبير حتى

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١٩٠ .

نعلم ملابساته وما اعترض سبيله .. يقول «أبيوسف» : «.. حدثني غير واحد من علماء أهل المدينة قالوا : لما قدم على عمر بن الخطاب جيش العراق ، من قبل سعد بن أبي وقاص شاور أصحاب محمد ، صلى الله عليه وسلم ، في قسمة الارضين التي أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام .. فرأى عامتهم (أى عامة الناس) ان يقسمه .. وسأل بلال (بن رباح ؛ الصحابي المشهور) وأصحابه عمر بن الخطاب قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام ، وقالوا : أقسم الارضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر .. وان أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وجماعة من المسلمين ارادوا عمر بن الخطاب أن يقسم الشام كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خبير وانه كان أشد الناس عليه في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن رباح .. وكان رأى عبد الرحمن بن عوف ان يقسمه . فما الأرض والعلوج (الفلاحون الفرس) إلا ما أفاء الله عليهم .. ولما افتتحت أرض مصر بغير عهد ، قام الزبير فقال : يا عمرو بن العاص ، أقسمتها .. كما قسم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، خبير ..» .

وأمام هذه الجبهة العريضة التي ضمت الجند الفاتحين الذين تطلعت نفوسهم لأرض مصر والشام والعراق وانهارها وفلاحها ، كما ضمت الصحابة الذين ارادوا التطبيق الحرفي للنص القرآني الذي اعتبر مثل هذه الأرض وانهارها « فيئا » افاءه الله على الفاتحين لهم أربعة اخماسه تقسم بينهم كما ارادوا التأسى بما صنع الرسول بأرض خبير في شبه الجزيرة العربية ..

أمام هذه الجبهة العريضة وقف عمر ومعه قلة من المهاجرين الأولين فيهم عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وطلحة وابن عمر .. وتصدى عمر لهذه الجبهة العريضة ، وقال لهم : « ما هذا برأى .. ولست أرى ذلك .. والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل (أى كبير نفع) ، بل عسى أن يكون كلا (عبثا) على المسلمين ، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها ، وأرض الشام بعلوجها ، فما يسد به الثغور؟ وما يكون للذرية والارامل بهذه البلد وبغيره من أرض الشام والعراق؟؟ .. لقد اشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء ، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء ، ولئن بقيت ليلبغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ودمه في وجهه (أى دون أن يطلب) .. (ولو قسمته بينكم) اذن اترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم .. فكيف أقسمه لكم ، وأدع من يأتي بغير قسم؟! ..» .

ولكن هذه الحجج المنطقية والاجتماعية والاقتصادية التي ساقها عمر لم تقنع القوم ، فقالوا

له « اتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يستشهدوا؟! ولأبناء قوم ولأبناء أبناءهم ولم يحضروا؟! » .

وكان واضحا من هذا الجدل، وتلك الحجج المتبادلة أن انصار قسمة الأرض والأنهار والفلاحين يقفون إلى جانب «الفرد» الفاتح .. بينما يقف عمر إلى جانب «مجموع» الأمة بأجياها الحاضرة والمستقبلية .. «الفرد» هو المنطلق والهدف عند هؤلاء ، و«الجماعة» و«الدولة» هي المنطلق والهدف عند أمير المؤمنين ..

ولم تحسم هذه الحجج الموقف .. واعتبر عمر ان كل ما يقال في هذا الموضوع هو مجرد «رأى» .. فالقضية خلاف في «رأى» ، وإزاء هذا الخلاف طلب القوم من عمر أن يستشير ويحتكم إلى من يوثق في رأيهم من رؤوس القوم بالمدينة .. «فاستشار المهاجرين الاولين ، فاختلّفوا ..» فقرر العدول عن استشارتهم إلى استشارة رؤساء الانصار ، حيث أقام منهم ما يشبه لجنة التحكيم العليا ، وذلك انه «ارسل إلى عشرة من الأنصار ، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، من كبارهم واشرافهم ، فلما اجتمعوا .. قال لهم : انى لم ازعجكم إلا لأن تشرّكوا في أمانتى فيما حملت من أموركم ، فانى واحد كأحدكم ، وانتم اليوم تقرون بالحق .. خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ، ولست اريد أن تتبعوا هذا الذى هو اى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر اريده ما اريد به إلا الحق . قالوا : قل نسمع يا أمير المؤمنين . قال : قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا انى اظلمهم حقوقهم ، وانى أعوذ بالله أن اركب ظلما ، ولكن رأيت ان لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله اموالهم واراضهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله .. وقد رأيت أن أحبس (أى أوقف) الارضين بعلوجها ، واضع عليهم فيها الخراج ، وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فينا للمسلمين المقاتلة والذرية ، ولئن يأتى من بعدهم . أرايتم هذه الثغور ، لا بد لها من رجال يلزمونها ، أرايتم هذه المدن العظام ، كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ، لا بد لها من ان تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم ، فن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج؟! » ..

عند ذلك حكمت هيئة التحكيم بصواب رأى عمر ، وقالوا له جميعا : «الرأى رأيك ، فنعم ما قلت ورأيت !! » .. وبذلك حسم النزاع ، وانصر موقف عمر ، فكتب إلى سعد بن أبي وقاص ، فاتح العراق : «أما بعد . فقد بلغنى كتابك ، تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم ، وما أفاء الله عليهم ، فاذا أتاك كتابى هذا فانظر : ما أجلب الناس عليك

به إلى المعسكر من كراع ومال فأقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارضين والأهجار لعاملها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء .
 وكتب إلى عمرو بن العاص ، فاتح مصر . « .. أن دعها (أى الأرض دون قسم) حتى يغزو منها جبل الجبله » (أى الجنين فى بطن أمه) .. ويعلق أبو عبيد القاسم بن سلام على ذلك فيقول : « اراه أراد أن تكون فينا موقوفا للمسلمين ما تناسلوا ، يرثه قرن عن قرن » ، (أى جيل عن جيل) !^(١)

ونحن نريد أن ننبه مرة ثانية إلى أن الدوافع الاقتصادية والاجتماعية هي التي كانت حاسمة في اتخاذ عمر بن الخطاب لهذا الموقف الاجتماعى والاقتصادى المتقدم ، وليست النصوص .. وان كان يبدو لنا أن الرجل كان حريصا على أن يقدم نصا قرآنيا لأولئك الذين تحصنوا في معارضته بالقرآن ، فهو لم يقف مثلهم عند قول الله سبحانه (ما آفأ الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ..) الآية .

وإنما استمر يتلو حتى بلغ قول الله سبحانه « والذين جاءوا من بعدهم ..) إلى آخر الآية ، وقال : « قد وجدت حجة في تركه ، وان لا أقسمه !! »^(٢) . نقول ذلك لأن قول الله سبحانه (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم) .. نقول : ان هذه الآية يسهل على أنصار تقسيم الأرض بين فاتحيها ان يثبتوا عدم ارتباطها بهذا الموضوع ! .

والأمر الذى يقطع بان العوامل الاقتصادية والاجتماعية هي التي كانت الاساس فى موقف عمر هذا ، وفى تشريعه « الثورى » الذى « أمم » به « ملكية الرقبة » لهذه الأرض ، هو ان عمر ذاته كان قد فكر فى تقسيم هذه الأرض بين فاتحيها ، ولكنه بعد دراسة مؤسسة على احصاء عدد الجند ومساحة الأرض وعدد الفلاحين المعرضين للرق ، عدل عن التقسيم إلى « التأميم » .. ونحن ننقل هذا الدليل القاطع عن أبي يوسف الذى يروى عن « محمد بن اسحق عن حارثة بن مضرب عن عمر بن الخطاب انه أراد أن يقسم السواد (أرض العراق) بين المسلمين ، فأمر بهم أن يحصوا ، فوجد الرجل يصيب الاثنتين والثلاثة من الفلاحين ، فشاور

(١) راجع فى كل هذه النصوص (كتاب الحراج) لأبى يوسف ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٥ .
 اموال (الموال) لأبى عبيد القاسم بن سلام ص ٥٧ ، ٥٨ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .
 (٢) كتاب الحراج ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٥ .

أصحاب محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فقال على (بن أبي طالب) : دعهم يكونوا مادة للمسلمين ! .. »^(١)

ودليل آخر يرويه أبو يوسف أيضا عندما يقول : « بلغنا عن على بن أبي طالب أنه قال : لولا أن يضرب بعضكم وجوه بعض لقسمت السواد بينكم ! »^(٢) ، فعلى الذى اشار على عمر بعدم قسمة أرض السواد ، وناصر موقف عمر هذا ضد معارضيه ، لم يكن موقفه هذا نابعا من الاستناد إلى نص قرآنى أو حجة دينية ، بل دليل أنه عندما تولى الخلافة لم يمنعه من قسمة أرض السواد بين المسلمين إلا مخافته ان « يضرب بعضهم وجوه بعض » أى الا الصراع الاجتماعى الذى اراد اجتناب تصعيده .. وهو سبب اجتماعى ، يؤكد ان الدوافع التى قادت إلى هذه المواقف كانت فى الأساس دوافع اجتماعية واقتصادية حكمت مواقف هؤلاء الرجال العظام فى هذه التحولات الاجتماعية التى سجلها لهم التاريخ .

مصدر التشريع لضريبة الأرض

وموقف آخر من المواقف الاقتصادية التى سجلتها التشريعات الاقتصادية العمرية فى عهد بناء الامبراطورية العربية الإسلامية ، يسجل هو الآخر ذلك « الطابع المدنى » الذى طبعت به اركان هذه الدولة الإسلامية .. ويتمثل فى المصدر الذى استلهم منه عمر بن الخطاب التشريعات والنظم الضرائبية التى قررها على الأرض المفتوحة .

فلقد كانت الضرائب على الأرض تعرف لنظمها يومئذ نظامان اساسيان يسمى أحدهما نظام « المقاسمة » ، ويعتمد على اخذ حصة ونسبة مقررمة من المحصول بصرف النظر عن « المساحة » المنزرعة ، وبصرف النظر كذلك عن جودة الأثمار أو عدم جودته .. ويعرف الثانى بنظام المساحة ويعتمد على تحصيل قدر معين على المساحة المعينة من المحصول المعين ..

وكانت الدولة الفارسية قبل عهد « كسرى بن قباد » (انوشروان) (٥٣١ - ٥٧٨ م) تعتمد نظام المقاسمة ، ولما جاء « كسرى انوشروان » أجرى اصلاحات اقتصادية حققت بعض العدالة النسبية ، وهى الاصلاحات التى جعلت العرب يصفون هذا الملك بصفة « العدل » ،

(١) كتاب الخراج . ص ٣٦ .

(٢) المصدر السابق . ص ٣٦ ، ٣٧ .

وجعلت الرسول - عليه السلام - يقول عن نفسه : «ولدت في زمن الملك العادل كسرى !» وكان من أهم اصلاحات كسرى الاقتصادية استبدال نظام «المساحة» بنظام «المقاسمة» ..

وعندما فتحت الجيوش العربية الإسلامية هذه الأقطار ، ودخلت هذه الأرض في تبعية بيت مال المسلمين ، كانت تشريعات كسرى أنوشروان ، وهى التى عرفت باسم «وضائع كسرى» ، هى المصدر الذى استلهم منه عمر بن الخطاب تشريعاته الضرائبية على الأرض الزراعية .. فأقر عمر «وضائع كسرى» المتعلقة باعتماد «المساحة» معيارا لتحديد الضريبة على هذه الأرض .. ويقول «الماوردي» فى كتابه (الاحكام السلطانية) «وجرى (عمر بن الخطاب) فى ذلك على ما استوقفه من رأى كسرى قباذ»^(١) .. وظل هذا النظام الذى استعاره عمر بن الخطاب من تشريعات الدولة الفارسية المجوسية معمولا به زمن الخلفاء الراشدين ، وبنى أمية ، وحتى خلافة «المهدى» العباسى ، الذى عاد بالتشريع الضرائبى للأرض الزراعية إلى نظام المقاسمة^(٢) .

وهكذا تؤكد هذه القسيات التى عرضناها للحياة الاقتصادية - وخاصة فى ميدان الأرض الزراعية على عهد الفترة التأسيسية للإمبراطورية العربية الإسلامية .. تؤكد هذه القسيات على الطابع المدنى لهذا التنظيم الاقتصادى الذى قام فى هذه الامبراطورية ، كما تحدد طابع العلاقة بين حركة الاجتهاد والتشريع وبين الأسس العامة والمبادئ الكلية التى جاء بها القرآن الكريم فيما يتعلق بحياة الناس وتنظيم دنياهم .. كما تبرز الدور المتميز وغير العادى الذى لعبه الخليفة الثانى عمر بن الخطاب .. ذلك الرجل الذى مازالت عقلايته - وخاصة فى أمور الدولة والحكم - فى حاجة إلى من ينفص عنها غبار التاريخ !

العدل بين الحاكم والمحكوم

لم يؤلف عمر بن الخطاب كتابا يتحدث فيه عن نظريته ومذهبه فى العدل الاجتماعى بين الناس .. ولكنه ترك لنا فى صفحات التراث كلمات متناثرة ، عبر بها عن آرائه فى المواقف المختلفة والمناسبات المتعددة ، نستطيع أن نستخلص منها ، إذا نحن تأملناها وربطناها

(١) الماوردي (الأحكام السلطانية) ص ١٤٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ .

(٢) الحراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، للدكتور محمد ضياء الدين الرئيس . ص ٧٥ ، ١١٠ . طبعة القاهرة سنة

بملاساتها ومناسباتها ، مذهب هذا الخليفة العظيم في العدل بين الناس ..

فهو يكتب إلى أحد ولاته - أبو موسى الأشعري - كتابا نعلم منه انه قد حدد لقيام العدل بين الناس وسيادته في مجتمعهم حدا أدنى هو انصافهم في أمرين :

الأول : الحكم .. أى القضاء وفصل المنازعات ..

والثاني : قسمة العطاء والمال ، وما يتعلق بهذا الجانب المادى من شؤون المعاش والاقتصاد .. يكتب عمر لابى موسى الأشعري ، محمدا الحد الأدنى والضرورى ، الذى لا غنى ، للإنسان والمواطن عنه ، من العدل ، فيقول : « ويحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في : الحكم ، والقسم »^(١) .

وهنا نعلم ان العدل عند عمر لا يقف عند الانصاف المعنوى والقضائى والادارى ، مما تسميه كثير من الدساتير المعاصرة بالمساواة أمام القانون ، وتقف عنده لا تتجاوزه إلى ما عداه من صنوف العدل والمساواة .. وذلك ان عمر يمتد بهذا العدل - بل ويراه نطاق الحد الأدنى منه - إلى الانصاف في قسمة الثروة والأموال !

ولذلك فهو يوصى عماله على الأقاليم بان يوفروا للناس ما يشبع حاجاتهم المعاشية ، كبارا كان هؤلاء الناس أم صغارا ، فيقول هؤلاء العمال (الولاه) : « .. واشبعوا الناس في بيوتهم ، واطعموا عيالهم .. بل ويعتبر اشباع هذه الحاجيات المادية أساسا لا بد من توافره كى «تحسن أخلاق هؤلاء الناس ..»!^(٢) .

ولقد كانت القدوة العادلة التى يقدمها الحاكم للمحكوم فى ميدان العدل والمساواة ، كانت ولا تزال واحدة من اروع القيم التى ورثها لنا وللإنسانية عمر بن الخطاب - فالعدل ليس نصوصا وقوانين وصياغات نظرية تصدر عن حاكم يحيا حياة تتميز وتمتاز عن حياة أوساط الناس . لأن تحلف القدوة الطيبة المتمثلة فى الحاكم ، ستفقد ولاشك كل هذه النصوص ما فيها من حرارة وما بها من قيمة وما لها من معنى مفيد وجميل ..

وأهمية هذه القيمة التى يقدمها لنا عدل عمر بن الخطاب تزداد أكثر وأكثر ، خصوصا اذا تأمل الإنسان فى العديد من المجتمعات التى وان تمايزت فى النظم والصياغات الفكرية الا أنها

(١) تاريخ الطبرى . ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٠١ .

قد اتفقت على أمر جوهري هو ان يمتاز حكامها ويتميزون عن جباهير المحكومين .. ولم يعد هذا الامتياز أمراً يستخفى به أصحابه ، بل اضحى شرعا مشروعا ، تقدم لتبريره وتقريره الأسباب والأفكار التي تتحدث عن أهمية الحاكم ، وتوقف شئون المحكومين على سلامته ، التي غدت تعنى أكثر مما تعنيه سلامة المواطن المحكوم ، ومن ثم فان مشروعية امتيازه وتميزه هي بعض الضرورات التي يقضيها «الصالح العام» ! .. وهي أفكار قد قننت الواقع ، وبررت الاثرة والاستثناء ، حتى لقد غدت تلك الميزات التي تتمتع بها القلة الحاكمة في هذه النظم المختلفة سنة طبيعية ومقررة من سنن الحياة ! ..

ولكن عدل عمر بن الخطاب ينقض هذا الواقع السائد ، وينكر ذلك الفكر الذي يبرره ، عندما يؤكد على ضرورة تساوى الحاكم في القانون والاقتصاد ، بجمهور المحكومين .

فعنده نجد ان نقطة البدء في قيام العدل أو اختلاله إنما هي الحاكم .. ففي استقامته وعدله ، أى في استقامة النظام وعدالته ، استقامة المحكومين وسيادة العدل في المجتمع الذي يعيشون فيه ، والعكس صحيح ! .. وبعبارة عمر : «فان الناس لم يزالوا مستقيمين ما استقامت لهم ائمتهم وهداتهم .. والرعية مؤدية إلى الامام ما ادى الامام إلى الله . فاذا رجع الامام رجعوا .. !»^(١) .. فعلى الحاكم ، أى على نظام الحكم ، تتوقف قيمة العدل ، حضورا أو غيابا ، في أى مجتمع من المجتمعات .. وما تلك «المشاجب» التي يعلق عليها البعض فساد المجتمع ، من مثل : تغير النفوس ، وفساد الأخلاق ، وحب الشهوات .. الخ .. الخ .. إلا نتائج ومسببات وثمرات أفرزها فساد النظام الذي يسود المجتمع الذي انتشرت فيه هذه الاعراض .

وانطلاقا من هذا التحديد لمسئولية الحاكم والنظام في فكر عمر بن الخطاب يمتد هذا الخليفة العظيم بهذه المسئولية لتشمل مختلف الأنشطة والأماكن والميادين في المجتمع .. فعمر يحكم في «المدينة» ولكنه يتحدث عن ضميره اليقظ بمسئوليته عن رعاة اليمن وعن ارامل العراق اللاتي لا بد وان تتوافر لهن الاحتياجات ! .. بل وعن الجمل الذي يتعثر على شاطئ الفرات لأن الدولة لم تمهد وتعد له الطريق .. ! .. ففي أى بقعة من بقاع الدولة يقف ضمير الحاكم الأعلى ويقف النظام مسئولا عن الظلم ، بل وعن القصور والتقصير ، الواقع على

(١) المصدر السابق ج ٣ ق ١ ص ٢١٠ .

الإنسان ، بل وعلى الحيوان .. !^(١) .

والمساواة القانونية ، التي قررها عمر بين الحاكم والمحكوم ، تنبع في فكره ، من طبيعة مهمة الحاكم في المجتمع الذي يحكم فيه .. فهو ليس «سيلا» للمحكومين .. ولقد سنَّ عمر سنة حسنة عندما جعل من موسم الحج إلى بيت الله الحرام مؤتمرا سياسيا يحاسب فيه الناس ولاتهم وحكامهم بحضرة أمير المؤمنين .. فلقد كان يستدعى الولاة ، حتى اذا اجتمعوا أمام الناس قام خطيبا فقال : «أيها الناس ، انى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من ابشاركم ولا من أموالكم ، وإنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ويقسموا فينكم بينكم» (أى أن مهمة الولاة هى توفير الحد الأدنى من العدل للمحكومين : العدل فى الحكم والقضاء .. والعدل فى قسمة الأموال) .. ثم استطرد عمر قائلا للناس : «.. فمن فعل به غير ذلك فليقم ! ..» ولما استكثر عامل مصر ، عمرو بن العاص ، ان ينفذ القصاص على الوالى اذا هو «أدب رجلا من رعيته» .. استنكر عمر هذا المنطق ، وقال : «.. ومالى لأقصه منه وقد رأيت رسول الله ، - صلى الله عليه وسلم - ، يقص من نفسه ؟» ثم كتب بيانا عاما وأمرًا شاملا إلى ولاته على الأقاليم يقول فيه : «.. لا تضربوا الناس فتذلوهم ، ولا تحرموهم فتكفروهم !»^(٢) فالحرمان فى رأى هذا الخليفة العظيم ، هو سبب شيوع الكفر - والعياذ بالله - بين الناس ! .. بل ويقرر عمر ان ظلم الحاكم يلغى عقد حكمه ، ويحل الناس من طاعته «فمن ظلمه عامله فلا امره عليه دونى !»^(٣) .

وحتى يكون هناك عدل حقا ، وحتى تكون هناك مساواة حقيقية بين الحاكم والمحكوم ، فلا بد وأن تتعدى الفعالية نطاق النظريات والصيغات إلى الواقع والتطبيق .. بل ولا بد أن يحيا الحاكم حياة المحكوم ، حتى يعلم ، بالحق والصدق ، حقيقة هذه الحياة ، وحتى تصبح طموحاته فى العدل العام عميقة وصادقة وجادة لتعبرها فى ذات الوقت عن طموحاته للعدل الخاص الذى يتوق إليه هو كفرد وإنسان .. وعمر يتساءل ذلك التساؤل الذى لا يزال يدوى ، رغم القرون : «كيف يعنى شأن الرعية اذا لم يمسنى ما مسهم ؟ ! .. ويستنكر ان تكون له منزلة خاصة يعجز عن بلوغها المحكومون ويأبى إلا أن تكون حياته أسوأ بحياة سائر

(١) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢٤٤ ، ٢٢٠ .

(٢) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢١١ ، ٢٠١ .

(٣) تاريخ الطبرى . ج ٤ ص ٢٠٣ .

الناس .. « اذا كنت في منزلة تسعني وتعجز عن الناس فوالله ما تلك لي بمنزلة حتى أكون أسوة للناس ! .. »^(١)

ولقد كان عمر بن الخطاب أمينا كل الأمانة في تطبيق نهجه هذا على ذاته وأسرته وخاصته .. نهجه هذا في المساواة بين الحاكم والمحكوم ، وفي أن يحيا الحاكم حياة المحكومين .. وفي هذا الميدان حفلت كتب التراث والتاريخ بالعديد من القصص والوقائع والمأثورات :

- فعمريهبي خادمه «يسار بن نميل» عن نخل دقيق خبزته ، حتى يظل عيشه في خشونته على نحو عيش الناس .. ويقسم «يسار» بالله : « ما نخلت لعمر الدقيق قط إلا وأنا له عاص ! »^(٢) .
- و«حفص بن العاص» يمتنع عن تناول طعام عمر معه ، لأنه طعام خشن ، ويدور بينه وبين عمر هذا الحوار الذي بدأه عمر بالسؤال :
- ما يمنعك من طعامنا ؟ ! ..

- إن طعامك جشب غليظ ، واني راجع إلى طعام لين قد صنع لي فاصيب منه !
- أتراني أعجز أن آمر بشاة فيلقى عنها شعرها ، وأمر بدقيق فينخل ، ثم يخبز خبزاً راققا ، وأمر بصاع من زبيب فيقذف في سعن - (قربة صغيرة يصنع فيها النيذ) - ثم يصب عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال ؟ !!
- اني لأراك عالما بطيب العيش ! ..

- أجل ! ! .. والذي نفسي بيده لولا أن تنتفض حسناتي لشاركتكم في لين العيش ! ..^(٣)
فعمركان عالما بطيب العيش ، خبيرا بالأطعمة الرقيقة والاشربة التي تشبه دم الغزال ! .. ومعاشرا لأئك الذين جعلتهم تطلعاتهم يعافون عيشه الخشن وطعامه الغليظ .. ولكنه الحاكم الذي حمل الأمانة : « كيف يعينني شأن الرعية اذا لم يمسنني ما مسهم ؟ ! » .

- وعمر لا يأخذ بذلك نفسه فقط ، بل وأسرته أيضا .. بل لقد سن سنة تشريعية تجعل العقوبة مضاعفة اذا كان مرتكب الذنب من أسرة أمير المؤمنين ! .. وأعلن ذلك في أهله

(١) . المصدر السابق . ج ٤ ص ٩٨ ، ٢٠١ .

(٢) طبقات ابن سعد . ج ٣ ق ١ ص ٢٣١ .

(٣) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢٠١ .

قائلا : « .. قد سمعتم ما نهيت عنه ، واني لا أعرف أن احدا منكم يأتي شيئا مما نهيت عنه الا ضاعفت له العذاب ضعفين ! »^(١) .

لكن .. كيف يعرف عمر حياة الناس كى يحياها بواحد منهم ، وهو الحاكم الأعلى الذى يعيش فى العاصمة ؟ بديهى ان بساطة المجتمع وسلوك عمر قد أعاناه على بلوغ ذلك المراد ، خصوصا وانه قد سن سنة التجول ليلا - العسس - واستطلاع أحوال الفقراء وعامة الناس .. وسن سنة استطلاع أحوال الأفاق فى مؤتمر الحج الذى يعقده كل عام ..

لكن هذا الخليفة العظيم لم يقف عند هذه الحدود ، فغزم على النزول إلى أقاليم الامبراطورية وولاياتها ، لدراسة واقعها على الطبيعة ومعايشة عامة المسلمين فى المواطن والظروف التى فيها يعيشون ، وقرر أن يخصص لمشروعه هذا عاما كاملا يعطى فيه لكل اقليم من الاقاليم الستة شهرين .. بل واعتبر هذا العام من أفضل أعوام حياته .. فخير أوقات الحاكم وأكثر الأيام بركة فى عمر أمير المؤمنين تلك التى يقضيها فى دراسة حال الرعية ومشاركة الناس ظروف هذه الحياة ! .. يقول عمر عن مشروعه هذا : « لئن عشت ، إن شاء الله ، لاسيرن فى الرعية حولا - عاما - فأنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى ، أما علمهم فلا يرفعونها إلى ، وأما هم فلا يصلون إلى ! .. فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة ، وأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر ، وأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة ، فأقيم بها شهرين .. والله لنعم الحول هذا ؟ ! .. »^(٢)

هكذا فكر .. وشرع .. ونفذ - فى ميدان العدل - عمر بن الخطاب ..

فالعدل قيمة اجتماعية ، لا بد ان تتعدى حدود النظر والفكر كى توضع فى الممارسة والتطبيق ..

والعدل ، بالنسبة للناس ، يعنى حدا أدنى لا بد وأن يتحقق ، متمثلا فى الانصاف القانونى والمالى ..

وفى هذا الانصاف وفى تلك المساواة لا بد وأن يتساوى الحاكم بالمشكوم .

وأمر هذه المساواة ليس بالصعب ولا هو بالمستحيل ، فقط يجب ان تصح عقيدة الحاكم

(١) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢٠٧ .

(٢) تاريخ الطبرى . ج ٤ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

فى العدل ، وىصدق عزمه فى التطبيق ، وىعايش المحكومىن ، لأنه لن يعىنه شأنهم اذا لم ىمسه ما ىسهم .. كما قال عمر بن الخطاب ..

ان عمر لم ىصعب طرق العدل على الحكام ، كما قال كثىرون .. ولكنه صعب وىصعب على الكثرىن الصديق فى الحدىث عن الإسلام وباسمه ، طالما لم ىنهجوا ، فى العدل ، نهج هذا الخلىفة العظىم ، الذى كان عدله الصورة الامىنة لما دعا إلىه الإسلام فى هذا المىدان ! ..

المال للأمة

وهذا العدل الذى ىشترط عمر بن الخطاب لتحقق حده الاذنى أن ىقوم الانصاف للناس جمىعا فى قسمة الثروة وتوزىع الأموال ، لا ىنبع عند هذا الخلىفة العظىم من دوافع الاحسان أو الفضل أو الشفقة على جمهور الأمة وفقراءها ، ولكنه مؤسس على عقىدة اجتماعىة - اقنصادىة « ترى ان المال - الذى هو ملك لله مالك كل شىء - إنما هو مال الناس جمىعا ، فجمهور الأمة تتمثل فىهم ذاتىة الإنسان وشخصىته العامة والجمعىة ، ذلك الإنسان الذى هو خلىفة الله فى أرضه ومن ثم فإن ملكىة الله سبحانه للمال وحقه فىه إنما تعنى ، فى الواقع والتطبيق ، ان ىكون هذا المال ملكا لجموع الأمة وحقا من حقوقها ، ىتم توزىعه وفق المعابىر العادلة أو الأقرب إلى العدل ، حسب ما تقرر هذه الأمة وتختار من تلك المعابىر .. فالحاكم الذى ىعدل - فى رأى عمر - لا ىفضل على الناس ، وإنما ىقوم بواجبه ، كحامل للأمانة ، فى رد الحق إلى أصحابه الاصلىين ..

وهذه العقىدة « الاجتماعىة - الاقنصادىة » ىعبر عنها عمر عندما ىقسم بالله - ثلاثا - فىقول : « والذى نفسى ىبده ما من أحد الا له فى هذا المال حق ، اعطىه أو منعه ، وما أحد أحق به من أحد .. وما أنا فىهم الا كأحدهم .. فالرجل وبلاؤه .. والرجل وقدمه .. والرجل وغانؤه .. والرجل وحاجته .. هو ما لهم ىأخذونه .. أنه فىؤهم الذى أفاء الله عليهم ، لىس هو لعمر ولا لآل عمر ! ... »^(١)

ولقد وضع عمر هذه العقىدة « الاجتماعىة - الاقنصادىة » فى التطبيق ، وامتلأت

(١) طبقات ابن سعد ج٣ ق ١ ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٩ .

صفحات تاريخه بالفماذج والوقائع التي تؤكد التزامه التام والخلق بهذا الفكر المالى الذى عبر عنه فى تلك الكلمات ..

● فهو يقرر أن يكون لكل مواطن فى الدولة حدا أدنى للمعيشة .. ويستشير المسلمين فى مقدار هذا الحد الأدنى .. ويجرى التجارب المعاشية ليصل إلى تحديد هذا المقدار .. ويروى «الحارث بن مضر» أن عمر طلب احضارَ مقدار من الطعام - (جرب) - (١) فعجن وخبز ثم عمل «ثريدا» ثم دعا ثلاثين رجلا لأكله فى الغداء ، ثم امر بتكرار ذلك فى وجبة العشاء ، فوجد هذا المقدار كافيا لهذا العدد ، ومن ثم تقرر لكل مواطن «جربيا» فى الشهر حدا أدنى للطعام .. (٢) .

● وحتى الأطفال الرضع كان لهم نصيب فى بيت مال المسلمين على عهد عمر ، أى نصيب فى مال الأمة .. وفى البداية كان استحقاقهم له يبدأ مع بداية «الفطام» .. ثم ادرك عمر من تجواله بين أحياء المدينة ، ومراقبته مواطن مبيت الرحل والمسافرين أن الأمهات المرضعات يتعجلن وقت فطام الأطفال استعجالا لنصيبهم فى العطاء ، ففزع لما يسببه ذلك من بكاء الأطفال وضعف لبنيتهم قد تودى بحياتهم ، فخطب فى الناس ، يلوم نفسه ، وينتقد تشريعه ، ويعلن ان استحقاق الطفل فى المال يبدأ مع لحظة الميلاد .. قال :
«يا بؤساً لعمر ، كم قتل من أولاد المسلمين ؟ ! .. ألا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فانا نفرض لكل مولود فى الإسلام ! ..» وأمر المنادى فنادى بذلك فى العاصمة ، وكتب به كتابا إلى الآفاق ! .. (٣)

وكان عطاء الطفولة هذا الذى قرره عمر ، وكفالة الدولة لهم يزداد مقداره مع تزايد عمرهم فى السنين .. فللطفل عند الميلاد مائة درهم «فاذا ترعرع بلغ به مائتى درهم ، فاذا بلغ زاده .. ! ..» .

ولم يكن حق الطفولة وفقا على من له أب أو أبوان ، بل كان أيضا حقا قرره عمر للأطفال اللقطاء ! .. للقيط مائة درهم ثم يزداد عطاؤه الذى تعطيه الدولة لمن يتولى تربيته .. ووصى

(١) والجرب مكبال قديم مقداره أربعة اقفة ، والقفيز مكبال مقداره ثمانية مكالك . والجرب يطلق أيضا على مساحة الأرض التى تبلر بحب هذا المكبال . وهو يوارى ٦٤ كيلو جراما .

(٢) طبقات ابن سعد . ج ٣ ق ١ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٣) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢١٧ .

بهم خيرا ، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال ! .. »

هكذا قرر عمر وطبق المبدأ الذى جعل المال للأمة ، لكل مواطن - مسلما كان أو غير مسلم - فيه حق ونصيب ، يبدأ بالحد الأدنى للمعاش ، ثم يتدرج صعودا وفقا لبلاء الإنسان وعمله وحاجته ودوره فى بناء المجتمع الجديد .. وعمر ، فى تطبيقه هذه العقيدة «الاجتماعية .. الاقتصادية» ، أمر بتدوين أسماء القبائل ، وأسماء كل الأفراد فى هذه القبائل ، فجعل لكل قبيلة «ديوانا» .. أى أنه لم يدون فقط ديوان الجيش والجنود ، كما هو الشهير فى كتب التاريخ ، وإنما دون دواوين للأمة جمعاء ، كبارا وصغارا ، رجالا ونساء .. ! . ونحن نقرأ مثلا : انه أمر «فكتب له عيال أهل العوالى ، فكان يجرى عليهم القوت .. » وأنه «كان يحمل ديوان قبيلة خزاعة حتى ينزل «قديدا» فتأتيه القبيلة «بقديد» ، فلا يغيب عنه امرأة ، بكر ولا ثيب ، فيعطين فى أيديهن .. ثم يروح فينزل «عسفان» فيفعل مثل ذلك أيضا ! .. (١) .

وكان عمر يعطى الناس عطاءهم ويقدر لهم نصيبهم من مال الأمة ، حتى ولو زاد هذا العطاء والمال عن احتياجاتهم الضرورية فى النفقات .. ولما تحدث إليه «خالد بن عرفطة» عن أن العطاء يشمل الأطفال ، وهم لا يأكلون ، وان ذلك يؤدي إلى توفير أموال قد لا تنفق فتتعمل ، وقد تنفق فيما لا ينبغي ان تنفق فيه .. سلم له عمر بحدوث مثل هذه النتيجة ، ولكنه أصر على بقاء هذا النظام واستمرار تطبيق هذه الفلسفة المالية .. فقط اقترح لمعالجة هذه الثغرة السلبية الجانبية أن يحث الولاة والعمال الناس على توجيه الفوائض المالية لاغراض الانتاج وميادينه ، بدلا من الاغراق فقط فى الاستهلاك ! .. فالزمن لن يضمن لهم - بعد عمر - عدلا يفيض عليهم به المال ، وليس سوى الإنتاج والعمل فى تنمية المال سبيلا للأمن عندما تتغير الظروف وتبدل الفلسفات ! .. قال عمر لخالد بن عرفطة ، عن المال والعطاء : «إنما هو حقهم اعطوه ، وأنا أسعد بأدائه إليهم منهم بأخذه ! .. فلا تحمدنى عليه ، فانه لو كان من مال الخطاب ما اعطيتموه ! .. ولكنى قد علمت ان فيه فضلا - (زيادة عن حاجات النفقات) - ولا ينبغي ان احبسه عنهم ، فلو أنه اذا خرج عطاء أحد هؤلاء الاعراب ابتاع منه غنما فجعلها بسوادهم ، ثم اذا خرج العطاء الثانية ابتاع الرأس فجعلها فيها ؟؟ .. فانى أخاف عليكم ان يليكم بعدى ولاة لا يعد العطاء فى زمانهم مالا ! .. فان بقى أحد منهم أو أحد من ولده كان لهم شىء قد اعتقدوه - (ادخروه) - فيتكثرون عليه .. تلك نصيحتى لك يا خالد بن عرفطة ، وهى نصيحتى لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين ، وذلك لما طوقنى الله فى

(١) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢١٤ .

أمرهم .. ولقد قال رسول الله ، - صلى الله عليه وسلم - : من مات غاشيا لرعيته لم يرح راحة
اللجنة ! ..» (١)

* * *

ولقد كان « للعمل » في فلسفة عمر الاجتماعية مكان بارز ووزن كبير .. فالعروبة لن يغني
الانتساب لها والافتخار بمجدها عن الإنسان ، ان لم يعمل ، شيئا .. بل ان الانتساب إلى
الرسول ، - عليه الصلاة والسلام - ، لن يغني عن غير العاملين شيئا .. ويقسم عمر فيقول :
« والله ، لئن جاءت الاعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ! ..
فلا ينظر رجل إلى القرابة .. فان من قصر به عمله لا يسرع به نسبه ! ..» (٢)

وانطلاقا من هذا التقدير لقيمة العمل ودوره في التنمية وفي اعطاء الاشياء قيمتها اعاد عمر
النظر في أوضاع كثيرة أدت إلى أن يحوز نفر من المسلمين مصادر للثروة ثم يعجزون عن تنميتها
وتطوير إنتاجيتها ، فلا هم ينهضون باستثمارها ، ولا هم يدعونها للآخرين ، وإنما « يحجزونها »
ويحتجزونها .. فهم بدعوى تملكهم لها واقطاع الرسول اياهم هذه المصادر - وخاصة
الأرض - زعموا لأنفسهم الحق والحرية في ابقائها في حوزتهم واحتجارهم .. أعاد عمر النظر
في هذه الأوضاع حتى ما كان منها اقطعا أقطعه الرسول ، - عليه الصلاة والسلام - ، وحتى
ما كان منها لصحابة أجلاء « كبلال بن الحارث » ! .. فيروى مؤرخو الأموال والحراج في تراثنا
أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد اقطع بلالا أرضا طويلة عريضة هي أرض العقيق ..
ولم يستطع بلال ان يستثمرها ، فطلب إليه عمر ان يكتفي منها بما يطيقه عمله ، ويترك ما بقي
للمسلمين .. فحدث بينها خلاف جسده هذا الحوار الذي بدأه عمر بقوله :

- انك استقطعت رسول الله أرضا طويلة عريضة ، فقطعها لك ، وان رسول الله لم يكن
يمنع شيئا يسأله ، وأنت لا تطيق ما في يدك ! ..

- أجل !

- فانظر ما قويت عليه فأمسكه ، وما لم تقدر عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين .

- لا .. لا أفعل ! .. هذا شيء أقطعنيه رسول الله ! ..

(١) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢١٥ .

(٢) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢١٣ .

– إن رسول الله لم يقطعك لتحتجره عن الناس ، وإنما اقطعك لتعمل ، فخذ منها ما قدرت على عمارته ورد الباقي ! .

– لا أفعل ! ..

– والله لتفعلن !! ..

ثم أخذ عمر من بلال ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين .. ثم خطب في المسلمين فأعلن أن من حاز أرضاً ليعمرها ، فاهمل أو عجز ، وجب ان يتركها لمن يقدر على احيائها ، لأن الأرض لمن يعمرها ويفلحها ويحييها « فمن أحيأ أرضاً ميتة فهي له .. ومن عطل أرضاً ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له ! ..^(١)

فالأرض لمن يعمرها ويحييها ، لأن العمل هو الذى يعطى الأشياء قيمتها ، ويضيف للمجتمع والناس جديدا ، وليست الحيازة والاحتجاز والاحتجار ! ..

* * *

وفي نظام عمر الاقتصادى برز نصيب الدولة – (الأمة) فى الثروة ، أى برز حجم المال العام ، لانتساع مجالات الانفاق على المصالح العامة ، تلك المجالات التى زاد العدل الاجتماعى من حجمها ، وأضاف اتساع الدولة وازدياد مهامها هذه المجالات اتساعا ..

● فكانت ملكية الرقبة فى الأرض المفتوحة – وهى أودية الانهار بمصر والشام والعراق – التى أصبحت الثروة الاساسية فى المجتمع – كانت هذه الملكية للأمة ..

● وكانت «الصوافى» – أى الأموال والأرض المصادرة – من الأعداء وأجهزة الدولة والحرب فى البلاد المفتوحة ملكية خالصة للأمة ..

● وكانت هناك من قبل : الملكية العامة لما كان بمثابة المصادر الأساسية للثروة فى الدولة . على عهد بساطتها وفقرها قبل عمر ، وهى : الماء والنار والكلاً .. التى حددها حديث الرسول – عليه الصلاة والسلام – الذى قال فيه : « ثلاث لا ملكية فيها : الماء ، النار ، والكلاً .. » وفى رواية أخرى : « المسلمون شركاء فى ثلاث : الماء والكلاً والنار » .^(٢)

(١) . يحيى بن آدم (الخراج) ص ٩٣ ، ٩١ . طبعة القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ و : أبو عبيد القاسم بن سلام (الأموال)

٤٠٨ ، ٤٠٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(٢) هذا الحديث رواه ابن ماجة فى سننه ، ورواه الدرামী فى سننه ، ورواه أحمد بن حنبل فى مسنده .

وكانت هناك مراعى للدولة خصصت ، على عهد عمر ، للخيل والإبل المخصصة للقتال ، أو لشئون الدولة ، أو لمساعدة الفقراء على اداء فريضة الحج .. ومن هذه المراعى : النقيع ، والرَبْذَة ، والشرف ..

ولكن عمر أصدر أوامره للمشرفين على مراعى الدولة هذه بان يبيحوها للفقراء ، كى ترعى فيها أغنامهم وابلهم ، ويمنعوها عن الاغنياء ، حتى ولو كان هؤلاء الاغنياء من كبار الصحابة الذين سبقوا إلى الإسلام وهاجروا مع الرسول ، مثل عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف ! .. انه مال عام فهو للدولة .. ولكنه ايضا للفقراء ، دون الأغنياء ! .. ويروى «زيد بن اسلم ، عن أبيه» ، فيقول :

«سمعت عمر، وهو يقول «لهنى»- حين استعمله على حمى الرَبْذَة-: يا هنى، أضمم جناحك عن الناس ، واتق دعوة المظلوم فانها مجابة ، وادخل رب - (صاحب) - الصرمة - (تصغير : صرمة (بكسر الصاد وسكون الراء) وهى القطيع الصغير من الابل - والغنمة - (تصغير : غنمة .. وهى القطيع الصغير من الغنم) - .. واياى - (دعى) - ونعم - (بفتح النون والعين : ماشية) - ابن عفان وابن عوف فانها ان هلكت ماشيتها رجعا إلى نخل وزرع ، وان هذا المسكين ان هلكت ماشيته جاء يصرخ : يا أمير المؤمنين ! .. فالكأ أهون على ؟ ! أم غرم الذهب والورق - (الفضة) - ؟ ! انها لارضهم ، قاتلوا عليها فى الجاهلية ، واسلموا عليها فى الإسلام .. والمال مال الله ، والبلاد بلاد الله ! ..^(١)

فالمال مال الله ، والبلاد بلاد الله ، والدولة تختص بما تختص به للمصالح العامة ومن هذه المصالح رعاية شئون غير القادرين ، أما القادرون فلا حق لهم فى هذا المال العام لأن لديهم ما يكفيهم ، فلا عدل فى مشاركتهم الفقراء فيما يسدون به الحاجات ويلبون به الاحتياجات ! تلك كانت نقطة الارتكاز والانطلاق فى فلسفة العدل والفكر الاجتماعى عند عمر بن الخطاب .

وعلى حين كان موقف عمر وعدله منحازا الانحياز كله لمجموع الأمة ، وبالذات لفقرائها ومحتاجيها ، كان عدله هذا بالمرصاد لذلك النفر من أشرف قريش وقدامى اثريائها وقادتها وملئها الذين وقفوا من الإسلام موقف المناهضة والعداء دفاعا عن المظالم الاجتماعية التى كانوا منها يستفيدون ولآلامها يستثمرون ..

(١) الأموال . ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

وبعد فتح مكة ، فى السنة الثامنة من الهجرة ، أسلم كل هؤلاء ، وسعوا بمسلمة الفتح ، وكان العطاء والمال وتأليف القلوب بهما من وسائل اجتذاب العديد منهم إلى النظام الجديد .. وظل الكثير من المسلمين على حذر من الكثير من هؤلاء .. وفى عهد عمر ، وبعد الفتوحات وما جلبت للدولة من ثروة وثناء ظهرت تطلعات الكثيرين من هؤلاء الأشراف والسادة ، ورأوا الفرصة سانحة لحيازة الأرض فى البلاد المفتوحة ، بل والقفز إلى جهاز الدولة وقيادتها تحت رايات الإسلام ، كما كان لهم جهازها وقيادتها بمكة قبل الإسلام ! ..

وسجل التاريخ ان عمر بن الخطاب كان شديد الوعى بهذه المخاطر الجديدة ، شديد الحذر من هؤلاء القوم ، شديدا عليهم الشدة كلها كى يحول بينهم وبين تحقيق ما يريدون .. ! . فهو يحذر هذا النفر من سادة قريش عندما رأهم يجتمعون معا ويأتمرون من دون المسلمين .. حذرهم من احياء عصبيتهم القديمة وتميزهم الذى قضى عليه ظهور الإسلام ، وقال لهم - كما يروى ابن عباس - : « بلغنى أنكم تتخذون مجالس ، لا يجلس اثنان معا حتى يقال : من صحابة فلان ؟ من جلساء فلان ؟ حتى تحوميت المجالس ! ... فيضوا مجالسكم بينكم ، وتجالسوا معا - (أى اندمجوا فى عامة الناس) - فإنه أدوم لألفتكم ، وأهيب لكم فى الناس ! » .. ثم يتوجه عمر إلى الله شاكيا هذا الملاء من قريش ، الذين كرههم وكرهوه ، فيقول : اللهم ملونى وملتهم ! واحسست من نفسى وأحسوا منى ، ولا ادرى بأينا يكون الكون ، وقد أعلم ان لهم قبيلة منهم ، فاقبضنى إليك ! ! » (١)

وهذا واحد من اشراف قريش واثرائها : عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومى يسعى لأن تكون له بالعاصمة مرابط خيل كثيرة ، ويرى عمر أن فى ذلك ما يحدث أزمة فى أعلاف الخيل بالمدينة ، فيمنعه من ذلك ! .. فلما كلم الناس عمر فى ذلك اشترط ان يجلب ابن أبي ربيعة لخيله أعلافها من املاكه خارج المدينة ، وقال : « لا آذن له إلا أن يجيء بعلفها من غير المدينة » .. فنفذ أمر عمر « وارتبط عبد الله بن أبي ربيعة أفراسا ، وكان يحمل إليها علفا من أرض له باليمن (٢) ! » ..

وهند بنت عتبة تقترض قرضا من بيت مال المسلمين لتتاجر فيه ، ولكن أبا سفيان ينصحها بأن تتلکأ فى رد هذا القرض لبيت المال ! .. ويعلم بذلك عمر بن الخطاب ، فلا يتردد فى حبس أبي سفيان ، وهو من هو فى ملاء قريش ، وهو قائد حربها الطويلة ضد الإسلام ! ..

(١) تاريخ الطبرى . ج ٤ ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٢) المصدر السابق . ج ٤ ص ٢١٤ .

ويستمر حبسه حتى ترد هند قرضها إلى بيت مال المسلمين^(٥٩) ..

ولقد بلغ موقف عمر بن الخطاب ضد ملاً قريش ذروته عندما حجر عليهم في العاصمة ، ومنعهم من مغادرتها إلا بأذن منه ، ولدة محددة وأجل معلوم ! .. فقرر عليهم ما نسميه بلغة عصرنا بالتوقيف أو تحديد محل الإقامة ! وذلك حتى يمنهم من تحقيق مطامحهم المالية ومطامعهم في التراء بالبلاد الغنية المفتوحة .. ولقد كان بعض هؤلاء السادة يريد أن يتحایل على مغادرة العاصمة باسم الغزو في سبيل الله ، فكان عمر يبتسم له ، ويقول : حسبك غزوك مع رسول الله ؟ ! .. والطبرى يحدثنا عن هذا الموقف الذى اتخذته عمر من أشرف قريش هؤلاء ، ويضع يدنا على أهميته الاجتماعية ، فيقول : وكان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بأذن وأجل .. ثم يستطرد فيضع يدنا على الآثار السيئة التى ترتبت على اهمال حظر عمر بعد أن تولى الخلافة عثمان بن عفان ، فيقول : « فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذى كان عمر يأخذهم به ، فخرجوا إلى البلاد ، فلما نزلوها ورأوا الدنيا ؟ ! ، ورآهم الناس .. وتقربوا إليهم ، وقالوا : بملكون فيكون لنا في ملكهم حظوة ؟ ! . فكان ذلك أول وهن على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة ! ! .. ولذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر ؟ ! »^(٦٠)

فعمر .. بوعيه الاجتماعى ، وعدله بين الناس .. رأى المال مال الأمة ، ومال جمهورها وعامتها بالدرجة الأولى .. ورأى الحجر واجبا ضد اشرف قريش ، حتى ولو كانوا مسلمين ومهاجرين أولين .. فكان فى ذلك صلاح الإسلام والمسلمين .. فما ان تبدلت السلطة .. وتغيرت المواقف ، وانطلق الخاصة ، فملكوا وملك بواسطتهم وفى حاهم الاتباع والاذناب ، حدث - كما يقول الطبرى - « أول وهن على الإسلام ، وأول فتنة فى المسلمين ! » .. حدث ذلك عندما غاب عدل عمر بن الخطاب عن ساحة المجتمع والسلطة فى ديار الإسلام ! ..

وماذا للحاكم فى المال العام

المال مال الله ، والبلاد بلاد الله ، وحق الله هو حق المجتمع ، أى مجموع الأمة وجمهورها العامل ، الذى يحيى الأرض الميتة ويمنحها العمران والزينة .. تلك هى الفكرة والعقيدة

(١) المصدر السابق . ج٤ ص ٢٢١ .

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة . ج١١ ص ١٢ ، ١٣ طبعة الحلبي . القاهرة .

الجمهورية والجمهورية في الفكر والتطبيق الاجتماعي لعمر بن الخطاب ، وللدولة الإسلامية التي قادها هذا الخليفة العظيم ..

« وإذا كان الأمر هكذا .. فما هو مكان الحاكم الأعلى للدولة - وبتعبير عصرنا : الحكومة - من مال الدولة العام ؟؟ .. وما هو حقه ونصيبه ، كحاكم ، في هذا المال ؟؟ .. إن موقف عمر من هذه القضية ، هو الآخر ، صفحة من صفحات عدله الاجتماعي التي لازالت تتألق بالضوء المشع والساطع في تراثنا وتاريخنا منذ عصره وحتى هذا العصر الذي نعيش فيه ..

لقد كان عمر - كما كان أبو بكر الصديق - تاحرا من تجار القرشيين بمكة ، قبل اسلامه وبعده ، ومن تجار المهاجرين الاولين بالمدينة بعد أن هاجر إليها .. وظل كذلك حتى تولى الخلافة والسلطة العليا كأمير للمؤمنين ، فشغلته مهام الدولة عن تحصيل رزقه ورزق أهله من التجارة ، فتوقف عن مزاوله مهام تجارته ، ومع ذلك ظل لا يتناول من مال الدولة شيئا ، حتى اصابه جهد وحلت به الشدة .. وبعبارة «سهل بن حنيف» في روايته عن أبيه : « مكث عمر زمانا لا يأكل من المال شيئا حتى دخلت عليه في ذلك خصاصة ! .. »

ولم يكن نظام دولة الخلافة يعرف «الرواتب والمخصصات» لقاء تولى المناصب ، وإنما كان يعرف الرواتب والمخصصات - (العطاء) - لقاء الحاجة والاحتياج ، فالاحتياج يأخذ ، بقدر حاجته ودوره ، عطاءه بصرف النظر عن موقعه في النظام ، حاكما كان أو محكوما .. والمستغنى لا يأخذ من المال العام شيئا ، حاكما كان هذا المستغنى أو محكوما ! .. اللهم إلا ماله من «عطاء» .

فلما احتاج عمر لما يتعيش به هو وأهله دعا إلى مؤتمر حضره كبار الصحابة ، وفي مقدمتهم الهيئة الشورية التي حملت مسؤولية الحكم في الدولة بعد وفاة الرسول ، - عليه الصلاة والسلام - ، هيئة (المهاجرين الأولين) .. وحدثهم أن أمر الخلافة قد شغله عن تحصيل أسباب معاشه ، ثم سأطهم عن القدر الذي يحق له أن يتناوله من مال الأمة العام .. وبعبارة : «لقد شغلت نفسي في هذا الأمر .. فما يصلح لي منه ؟» .. فتعددت الآراء .. ففريق عبر عنهم عثمان بن عفان كان رأيه ان يتوسع الخليفة ما شاء له التوسع في الانفاق على نفسه وأهله ، بل وغير أهله ، من المال العام .. فله ان يأكل هو ، وان يطعم من يشاء .. قال عثمان لعمر : «كل وأطعم ! .. ومع عثمان في هذا الرأي كان سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، قريب عمر ،

وأحد (المهاجرين الأولين) .. ولكن عمر نفر من هذا النهج ورفض هذا الرأي ، وطلب رأى على بن أبي طالب ، الذى أشار بأن للخليفة من مال الأمة العام ما يسد حاجاته وحاجات أهله فقط ، لأن ذلك إنما يحل له بحكم الحاجة ، كواحد من المسلمين ، لا بحكم امتياز رتبته له كونه حاكما للمسلمين ! .. فلما سأل عمر عليا : « ما تقول أنت فى ذلك ؟ » أوجز على الجواب فقال : « غداء وعشاء ! ! » . فاستراح عمر ، واستقر الرأى على هذه الفلسفة وعلى ذلك التحديد ^(١) .. فقرر أن يكون لعمر من مال الأمة ما يسد حاجاته وحاجات أهله ، فى حدود وسط ، كمواطن قرشى من أوساط الناس : « قوته وقت عياله ، لا وكس ولا شطط - (مع التوسط ، لا بنحس ولا زيادة) - وكسوتهم وكسوته للشئاء والصيف - (حلة للصيف وأخرى للشئاء) - ودابتان لجهاده وحوائجه وحجته وعمرته » وبعد ذلك له عطاؤه ، كواحد من أقرانه فى الإسلام ، عندما يقسم ما أفاء الله على المسلمين « والقسم بالسوية ! » ^(٢)

ولقد أكد عمر هذه الفلسفة وهذا النهج وهذا التحديد فى الكثير من المواقف والعديد من المناسبات .. وعندما اشتبه على البعض تحديد الفواصل بين مال للحاكم وما للأمة فى المال العام ، وظنوا ان ما للدولة هو لأمر المؤمنين ، استنكر عمر ذلك ، ووضح لهم الأمر قائلا : « أنا اخبركم بما استحل من مال الله .. يحل لى : حلتان ، حلة فى الشئاء وحلة فى القيط ، وما احج واعتمر عليه من الظهر - (الدواب) - وقوتى وقوت اهلى كقوت رجل من قريش ، ليس بأغنائهم ولا بأفقرهم ، ثم انا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم ! » ^(٣)

استراح عمر لهذا النهج ، والتزم هذا التحديد ، واخذ نفسه بهذا المنطق الصعب .. فكان ينفق درهمين فى اليوم ، هو وعياله ! .. ويذهب من المدينة إلى مكة حاجا فلا يتخذ لنفسه بناء ولا فسطاطا - (خيمة) - يتقى بهما الشمس ، وإنما ينشركساء على شجرة فيستظل تحته ! .. ويستكثر على غلامه ان تبلغ نفقات رحلتهم للحج خمسة عشر دينارا .. ! ويمرض فيوصف له العسل علاجا ، فلا يتناوله من بيت المال الا بعد أن يصعد المنبر خطيبا ، فيعرض أمره على المسلمين ويأخذ منهم الاذن فى قربة صغيرة من العسل ، قائلا : « ان أذنتم لى فيها اخذتها ، والافانها على حرام ! .. » ^(٤)

(١) طبقات ابن سعد . ج ٣ ق ١ ص ٢٢١ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٦١٦ .

(٣) طبقات ابن سعد . ج ٣ ق ١ ص ١٩٧ .

(٤) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢٢٢ ، ٢٠٠ ، ١٩٨ .

ويزيد من روعة موقف عمر هذا ويعلى من قدر نهجه هذا في العدل الاجتماعي ووضع الضوابط التي تضبط ما للحاكم في مال الدولة ، ان هذا النهج وذلك السلوك قد قام واستمر وبرزت معالمه ورسخ في أرض التجربة السياسية للدولة الخلافة الراشدة وسط معارضاة كثيرة من اناس كثيرين .. فلقد كانت هناك تطلعات قوية تريد ان يصبح أمير المؤمنين قدوة في العيش الهني والانفاق السخي والحياة الباذخة ، كى يحل للآخرين هذا النمط من انماط الحياة دون لوم أو عتاب ، خصوصا وان الخيرات قد زادت ، والأموال قد وفدت ، والفتوحات قد غمرت العاصمة بكنوز ما كان ليحلم بها العرب الأولون ! ..

كان تيار التطلعات قويا ، وحملة هذه الرغبات كثيرين .. وكان رفض عمر شديدا ، وصموده عنيدا .. ! ..

● فهذا تحرك جماعي يمثله وفد من جماعة المسلمين يسعى إلى منزل عمر يطلبون منه ان ينفق بسخاء ، ويوسع على الآخرين في الانفاق ، لأن المال كثير .. ولكنهم يهابون الحديث إلى عمر فيما جاءوا من اجله ، فيتحدثون إلى ابنته حفصة فيقولون : «أبي عمر الا الشدة على نفسه وحصرها ، وقد بسط الله في الرزق ، فليسط في هذا الفىء فيما شاء الله ، وهو في حل من جماعة المسلمين !» .

فهم يطلبون له تغيير نهجه ، ويحملون له موافقة جماعتهم على هذا التغيير ! ..

ولقد مالت حفصة إلى رأيهم .. أى ان هذه التطلعات قد وجدت لنفسها موقعا في بيت عمر ، وعند من ؟ عند حفصه ، احدى زوجات الرسول ، - عليه الصلاة والسلام - ، .. ولكن عمر يصد هذا التيار في قوة إنسانية محلقة .. في قوة القديسين ، بل نقول : في قوة أمير المؤمنين ؟ ! .. ويعتب على حفصة ، بل يعنفها ، فيقول : «يا حفصة بنت عمر ! نصحت قومك وغششت اباك ! .. إنما حق أهلى في نفسى ومالى ، أما في دينى وامانتى فلا ؟ !» (١) .. ابليهم عنى : ان رسول الله قدر فوضع الفضول - (زيادات الأموال وفوائضها) - في مواضعها ، وتبلغ بالترجية - (استعان بما يكفيه) - وانى قدرت - .. فوالله لأضعن الفضول في مواضعها ، وأتبلغن بالترجية ! !» (٢)

● وهذا عم الرسول ، - عليه الصلاة والسلام - ، العباس بن عبد المطلب ، - رضى الله

(١) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ١٩٩ .

(٢) تاريخ الطبرى . ج ٣ ص ٦١٧ .

عنه - ، يتحدث إلى عمر طالبا منه العدول عن عيشه الحشن ، وإقامة الولائم الطيبة والمآكل اللينة ، ودعوة الصحابة إليها ، يأكلون ويتحدثون ! .. فيرفض عمر ، ويحدث العباس عن أن الرسول وأبا بكر قد « عملا عملا وسلكا طريقا .. وأنى إن عملت بغير عملها سلك في طريق غير طريقها » !^(١) .

● وهذا عبد الله بن عمر بن الخطاب يحاول اختراق حصن التقشف عند أبيه ، فيحدثه عن ان هذا التقشف قد اصاب انتة بالهزال ! .. ولكن عمر يحسم الأمر ، وينهى إليه أن تلك مسؤوليته هو ، وليست مسؤولية بيت مال المسلمين !^(٢) .

● وابن آخر من ابناء عمر ، هو عاصم .. استشعر عمر منه الركون إلى عطاء أبيه ونفقته التي ينفقها من مال المسلمين فهناه عمر عن ذلك الركون ، وقال له : يكفيك انى قد انفقت عليك شهرا .. فاذهب واستعن بمال لى ، بعه وشارك احدا من تجار قومك في تجارته ، واكسب ما تنفقه على نفسك واهلك .. وإياك ان تمد بصرك فتطمع في شىء من مال المسلمين « فما كان هذا المال يحل لى قبل أن اليه - (قبل خلافتى) - إلا بحقه .. وهو الآن أشد حرمة على ، لأنه قد أصبح أمانتى ! !^(٣) .

● وهذا واحد من اصهار عمر ، يأتيه طامعا في عطاء من بيت مال المسلمين ، فيغضب عمر ، وينهره قائلا : اردت أن التى الله ملكا خائنا ؟ !^(٤) « فهو اذا وضع مال الناس في غير موضعه خرج عن معنى الخلافة وسهج الإسلام وخلق الأمانة ، واصبح ملكا جبارا ، بل وملكا خائنا ! ..

يصمد عمر أمام أصحاب هذه الرغبات والتطلعات .. ويرسخ بناء العدل الذى رعاه فى أرض التجربة الإسلامية .. ويؤكد للناس ما يجب عليه وعليهم رعاية لهذا النهج العادل فى الفكر والتطبيق الاجتماعى ، فيحدث الربيع بن زياد عن مكانه الحق ، الذى يجب ان لا يتعداه ، من مال الامة والدولة ، فيقول : « .. ان متلى وهؤلاء ، مثل قوم سافروا ، فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم ، فقالوا : انفق علينا ، فهل يحل له ان يستأثر منها بشىء ؟ ! » .. فلما

(١) طبقات ابن سعد . ج٣ ق ١ ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر السابق . ج٣ ق ١ ص ١٩٨ .

(٣) المصدر السابق . ج٣ ق ١ ص ١٩٨ .

(٤) المصدر السابق . ج٣ ق ١ ص ٢١٩ .

أجاب الربيع بالنبي قال عمر: « فكذلك مثلى ومثلهم .. »^(١) .. وفي موطن آخر تتكرر عنده الفكرة ويتغير التمثيل ، فيقول : « انى أنزلت نفسى من مال الله منزلة مال اليتيم ، ان استغنيت استعفت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف .. فان أيسرت قضيت !! .. ولا يحل لى من هذا المال إلا ما كنت آكلا من صلب مالى ! »^(٢) .. والله لوددت انى خرجت منه كفافا ، لا على ولا لى ! »^(٣) .

وأكثر من هذا الصمود وأروع ، تلك الحقيقة التى تلفتنا إليها عبارة عمر : « فان أيسرت قضيت ! » .. فما يتقاضاه أمير المؤمنين ، ليسد به حاجته ، من بيت المال إنما هو نفقة علتها الحاجة ، فاذا ما استغنى فلاحق له فيها ، بل ان عليه القضاء والرد لما أخذ وانفق اذا تيسر له الغنى والاستغناء حتى بعد الانفاق ! .. فهو اذن قرض ودين قضاؤه مرهون بتحقيق الوفر والقدرة على السداد والوفاء ! !

ويؤكد هذه الحقيقة ، ذات الدلالة الهامة ، ما حدث عندما حضرت الوفاة عمر بن الخطاب فلقد أحصى ما فى ذمته لبيت المال ، فوجده ستة وثمانين ألف درهم ، وأوصى ابنه عبد الله بوفائه من ماله ، فان لم يكف فن مال « عدى » - (البطن الذى يتنسب له عمر من بطون قبيلة قريش) - فان لم يكف فن مال قريش ! .. قال عمر لابنه : يا عبد الله ، انظر كم على من الدين - فحسبه فوجده ستة وثمانين ألف درهم - .. ان وفى لها مال آل عمر فأدها عنى من أموالهم ، وان لم تف أموالهم فاسأل فيها بنى عدى بن كعب ، فان لم تف من أموالهم فاسأل فيها قريشا ، ولا تعدهم إلى غيرهم ! »^(٤) .

وقبل ان يدفن عمر كان ابنه عبد الله قد أحضر هيئة (المهاجرين الأولين) وعددا من الأنصار ، واشهدهم على نفسه بتحملة دين أبيه قبل بيت مال المسلمين .. ولم تمض على دفن عمر « جمعة حتى حمل عبد الله المال إلى الخليفة عثمان بن عفان ، واحضر الشهود على البراءة بدفع المال ! .. »^(٥)

(١) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢٠١ .

(٢) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢٠٧ .

(٤) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢٤٤ .

(٥) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢٦٠ .

صنع عمر هذا الصنيع .. وأقام تلك الحدود التي فصلت بين ما للأمة وما للحاكم في المال العام .. وارسى قواعد تلك الفلسفة الاجتماعية التي جعلت المال للأمة ، والمعيار الذي يحكم انفاق الحاكم منه هو معيار الحاجة ، وما يتقرر له منه هو بمثابة الدين يجب الوفاء به والرد له عند الغنى والاستغناء ! .

ولقد سن هذا الخليفة العظيم السنة العادلة في مواجهة تيار من التطلعات قوى وعظيم ، فزاد ذلك من عظمته ، حتى لقد غدا عدله الاجتماعي منارة يجتذب سنا ضوئها عقول الباحثين وقلوب المستضعفين منذ عصره حتى الآن ! ..

* * *

ولم يكن عمر وحده هو جهاز الدولة على عهد خلافته ، فلقد كان هناك «العمال» - (الولاة) - على الأقاليم .. ولقد اجتهد عمر في أخذهم بهذا المنهج العادل والشديد .. فاستن سنة احصاء أموالهم الخاصة وقت تعيينهم في مناصبهم ، ثم احصائها وتقديرها حيناً بعد حين ، وعندما وجدها قد تضاعفت ، لدى بعضهم ، شاطرهم هذه الأموال ، أى قاسمهم اياها مناصفة ، أى انه ترك أصل ما كانوا يملكون قبل توليهم ولاياتهم وصادر منهم كل ما زاد عليها وقت توليهم هذه الولايات ! .. وهو صنع ذلك مع صحابة اجلاء .. بل وعزل بسبب ذلك عددا من هؤلاء الصحابة الاجلاء ، من امثال سعد بن أبي وقاص ، وأبي هريرة ، عليهم رضوان الله .. (١)

وكان عمر يشجع المسلمين على مراقبة ثروات الولاة ، فراقبهم .. وكتب شعراؤهم إلى عمر شعرا يشكو ويصف نمو ثروات الحكام .. فعندما «رأى عمرو بن الصعق أموال العمال - (الولاة) - تكثر ، استنكر ذلك ، وكتب إلى عمر بن الخطاب باييات شعر ، فبعث إلى عماله ، وفيهم سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة ، فشاطرهم أموالهم ! » .

ويروى ابن سيرين قصة مصادرة عمر لنصف ثروة أبي هريرة - وكان واليا على البحرين - وتعنيفه اياه فيقول : لما قدم أبو هريرة من البحرين دار بينه وبين عمر هذا الحوار ، الذي بدأه عمر بقوله :

- يا عدو الله وعدو كتابه ، أسرقت مال الله ؟ ! ..

- لست بعدو الله ولا عدو كتابه ولكنى عدو من عاداهما ، ولم أسرق مال الله ! ..

- فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف درهم ؟ ! ..

(١) المصدر السابق . ج ٣ ق ١ ص ٢٠٣ ، ٢٢١ .

- خيلى تناسلت ، وعطائى تلاحق ، وسهامى تلاحقت ! ..

ولكن عمر رفض منطق أبي هريرة ، وصادر المال .. وبعبارة ابن سيرين : «فقبضها منه» - أى العشرة آلاف درهم - وحزن أبو هريرة ، ولكنه لم يستطع أن يصنع شيئاً . اللهم الا - كما قال - : « فلما صليت الصبح استغفرت لأمر المؤمنين ؟ ! » .. ولكنه رفض ان يتولى الامارة فى عهد عمر ولما سأله عمر :

- الا تعمل ؟ - (أى الاتولى العمل : الولاية) ؟ .. قال : - لا .. أخشى ثلاثا ، ان يضرب ظهرى ، ويشتم عرضى ، ويتزعم مالى !! .. (١) .

أى انه رفض الولاية ، لمصادرة المال ، ولافتقاد ما نسميه فى عصرنا بالحافز المادى ! .. ولكن عمر أهمل أمر توليته ، لأنه رفض منطقته من الأساس ! ..

ولقد كان وراء موقف عمر هذا من تنمية الولاية والحكام لثرواتهم أثناء توليهم مناصبهم قاعدة ادارية واقتصادية واجتماعية حددها وطبقها ، ومنع بها اشتغال هؤلاء الحكام بجمع الثروة وتنميتها طالما كانوا حكاما يستطيعون تحصيل الميزات والامتيازات .. فقال الأمة العام تتولاه الدولة .. ولكن الفرق كبير والبون شاسع بين ملكية الدولة العامة والملكية الخاصة للولاية والحكام .. وقصة عمر مع الوالى «عتبة بن أبى سفيان» شاهد على هذا الذى نقول - فلقد تولى عتبة حكم «كنانة» ، فاشتغل بالتجارة فيها وهو وال عليها ، ثم رجع إلى المدينة بثروته التى حصلها ، فسأله عمر :

- ما هذا يا عتبة ؟ ! ..

- ما خرجت به معى ، تاجرت فيه ! ..

- ومالك تخرج المال مذك فى هذا الوجه ؟ ! ..

ثم امر بمصادرته «فصيره فى بيت المال» !

واشتهرت تلك القصة يومئذ .. بل لقد ظلت حية فى الازدهان حتى بعد وفاة عمر ، ووفاة عتبة ، فعندما تولى الخلافة عثمان بن عفان ، وهو أموى مثل عتبة بن أبى سفيان ، عرض على أبى سفيان ان يرد إليه ما صادره عمر من ابنه ، قائلاً : «ان طلبت ما اخذه عمر من عتبة رددته عليك ! ..» (٢) فلقد كان لعثمان ، رحمه الله ، فى الأموال نهج خالف فيه نهج

(١) الأموال . ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٢) تاريخ الطبرى . ج ٤ ص ٢٢٠ .

عمر.. وهو القائل :- ان عمر كان يمنع أهله وأقرباءه ابتغاء وجه الله ، واني أعطى أهلي وأقربائى ابتغاء وجه الله ! » (١) .

اذن .. فنهج عمر فى العدل لم يكن استثناء ذاتيا اقتصر عليه ووقف عنده وعند منصبه كأمير للمؤمنين ، وإنما كان نهج دولة وفكر أمة وقانون مجتمع ، بدأ به الأمين الأكبر على أمر الأمة ، فالتزم به هو وأهله وذووه ، ثم اجتهد ليعممه على الذين وضعت بين أيديهم مقاليد الحكم وأمانة السياسة لهذه الأمة ، فى العاصمة كانوا أم فى الأقاليم ..

عام الرمادة

وانه لمن خطأ رأى وخطأ القول أن يحسب البعض أن عدل عمر بن الخطاب كان استثناء من المألوف وشذوذا عن القاعدة ، وضرورة ارتبطت بظرف من الشدة طرأ على حياة المسلمين ..

فى بعض الأحيان يلمح القارىء اشارات البعض إلى أن شدة عمر فى العدل والمساواة كانت ضرورة اقتضتها الضائقة التى مرت بالمسلمين على عهده ، وضائقة عام الرمادة بالذات .. وتلك محاولة لاطفاء نور هذه المنارة من منارات العدل الاجتماعى ، حتى تتيح الظلمات السبل للفكر الذى يبرر المظالم والاستغلال ! ..

● فنحن نعرف ان ثروة الدولة الإسلامية لم تكثر كما كثرت على عهد عمر بن الخطاب .. فبعد أن كانت ثروتها آبار مياه قليلة ، وأعشاب كالأمتناثرة فى الصحراء ، وتجارة محدودة ، ضمت اودية الزراعة فى العراق وفارس ومصر والشام ، وأصبحت لها خيرات النيل وبردى ودجلة والفرات .. مع ما ضمت الامبراطورية من صناعات وحرف وتجارات ، وزخرت به من فنون .. ومع ما صادرت من كنوز سال لها لعاب قوم ، وبكى لرؤيتها ، ولخوف آثارها ، عمر بن الخطاب عندما سطعت عليها الشمس فى ساحة مسجد الرسول ، - عليه الصلاة والسلام - ! ..

● ونحن نعلم ان خلافة عمر وامارته للمؤمنين قد دامت عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام -

(١) المصدر السابق . ج ٤ ص ٢٢٦ .

(من ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ ٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م حتى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ هـ ٣ نوفمبر سنة ٦٤٤ م) - .. بينما عام الرمادة والمجاعة لم يدم أكثر من تسعة أشهر من شهور السنة الثامنة عشرة من الهجرة ! .. فعدل عمر هو القاعدة في طول خلافته ، وتشريعات هذا العدل كانت فكر الدولة الاجتماعى طوال عهده ، ولم تكن خاصة باختصاص بها الشهور التسعة التى سميت في التاريخ : عام الرمادة ..

ثم ان مجاعة الرمادة هذه لم تكن عامة في الامبراطورية الإسلامية كلها ، وإنما كانت شدة أصابت بادية شبه الجزيرة وحدها لانعدام المطر ، الذى أدى إلى انعدام الكلاً والمرعى ، فبلغت الحياة بأهل البادية حافة الهلاك ..

ولقد كان الجديد الذى احدثه عمر في عام الرمادة ، هو انه أضاف إلى تشريعات عدله الاجتماعى تشريعات اضافية ، اقتضتها ضرورات طارئة .. ومن هذه التشريعات - غير ايقافه حد قطع يد السارق - :

١ - انه أكد ، أكثر فأكثر ، على وحدة ثروة الأمة وعمومها في كل انبائها .. فالأثرة الإسلامية الشهيرة تقول : « اذ جاع مسلم فلا مال لأحد ! » .. ففي الظروف العادية لكل إنسان عطاء يكفى احتياجاته .. أما في وقت الضرورة هذا ، وعندما يجوع مسلم واحد فان المال ، جميع المال ، هو للجميع يسدون الرمق أولاً ، ويحفظون الحياة قبل أى شىء آخر .. ولذلك أرسل عمر بن الخطاب إلى والى العراق سعد بن أبي وقاص .. وإلى والى الشام معاوية بن أبي سفيان .. وإلى والى مصر عمرو بن العاص .. وطلب منهم وضع ما لديهم من ثروة بين يدي جوعى شبه الجزيرة ، فوراً ودون ابطاء .. وليس مثل كلماته لعمر بن العاص في التعبير ، فهو يقول له : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، إلى العاصى بن العاصى ! . سلام عليك ، أما بعد ، أفترانى هالكاً ومن قبلى وتعيش أنت ومن قبلك ؟ ! .. فياغوثاه ! .. ياغوثاه ! .. ياغوثاه ! » .

فلما جاءت قوافل الطعام من الاقاليم خرج عمر وقادة الدولة من العاصمة بها إلى البادية ، يطعمون الجياع ، ويحفظون عليهم حياتهم ، وفق نظام من المساواة الصارمة التى بدأت برأس الدولة عمر .. مساواة في الفقر والشدة حتى يمتاز الجميع المحنة .. وامتألت كتب التراث والتاريخ بقصص الايثار التى تشمخ بذكرها وتعلو إنسانية الإنسان ! فعمر يحرم على نفسه السمن والدهن واللبن - وكانت أطعمة مألوفة له كرجل من أوساط قريش - ويلتزم الأكل بالزيت حتى أسود لونه بعد أن كان شديد البياض ! .. ويتملكه الحزن حتى يمضى شهور

الرمادة لا يقرب النساء ! .. ويلبس ثوبا مرقعا ، به ست عشرة رقعة ! .. ويخرج عندما يرى ولدا من آل بيته يأكل فاكهة . وينهره قائلا : « بخ بخ يابن أمير المؤمنين ، تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى ؟ ! .. » ويقسم الذين عايشوه : والله ، لو لم يرفع الله شدة عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هما بأمر المسلمين ؟ ! ..

٢ - ويقن عمر اشتراك الناس وتساويهم في الموجود ، قل ذلك الموجود أو أكثر . ويعزم على أن يعيد نظام المؤاخاة الذى أقامه الرسول بالمدينة بعد الهجرة ، بين المهاجرين ، وبين المهاجرين والانصار ، وذلك عندما يعزم على ان يعهد لكل أهل بيت عندهم قوتهم الضرورى ان يشركوا معهم فى قوتهم هذا عددا مثل عددهم من الذين لا قوت لهم .. فيقول : « نطمع ما وجدنا أن نطمع ، فان أعوزنا جعلنا على أهل كل بيت ، ممن يجد ، عدتهم ، ممن لا يجد ، إلى أن يأتي الله بالحيا - (المطر) - .. وانى لو لم أجد للناس ما يسعهم الا أن ادخل على أهل بيت عدتهم ، فيقاسمونيهم انصاف بطونهم ، حتى يأتي الله بالحيا ، فعلت ، فانهم لن يهلكوا على انصاف بطونهم ! .. »^(١)

فعدل عمر ، اذن ، لم يكن استثناء ارتهن بعام المجاعة . وإنما كان قسمة أصيلة استلهمت روح الإسلام ، قرآنا وسنة ، وعالجت ضرورات الواقع ولبت احتياجاته ، واستهدفت كرامة الإنسان الذى استخلفه الله على ما أودع فى هذا الكون من ثروات وخيرات ..

فالعدل الاجتماعى ليس ترفا فكريا ، ولا هو زينة سياسية ، كما أنه ليس تفضلا واحسانا من فريق حاكم وقادر على آخر محكوم ومحتاج .. وإنما هو ضرورة من ضرورات الحياة ، تقتضيها تنمية طاقة البشر ، وزيادة قدراتها على الخلق والتنمية والابداع ، بنفس القدر الذى تقتضيها تنمية إنسانية الإنسان وكرامته ، كأكرم مخلوقات الله فى هذا الكون الفسيح ..

ولقد كان عدل عمر الاجتماعى يعالج هذه القضية على هذا النحو ، ومن هذا المنطلق .. فالمال مال الأمة ، وأنصبة الناس فيه محكومة ، بعد اجتهاد الحاكم ، بعبء كل منهم واسهامه ، وباحتياجاته .. وبقدر الضرورات يكون تقدير الانصبة فى هذا المال الذى هو « مال الله » والذى - كما قال عمر بن الخطاب - :

« ما من أحد من الناس إلا له فى هذا المال حق .. وما أحد احق به من أحد .. هو ما لهم

(١) طبقات ابن سعد . ج ٣ ق ١ ص ٢٠٣ ، ٢٢٣ - ٢٢٥ ، ٢٢٧ - ٢٢٩ ، ٢٣١ .

يأخذونه .. وما أنا فيهم الا كأحدهم .. ولأنا أسعد بادائه إليهم منهم بأخذه .. فالرجل
وبلاؤه .. والرجل وحاجته .. ووالله لو ددت انى خرجت من هذا المال كفافا ، لا على
ولالى !! .. »

- ٢ -

أبو ذر الغفارى

[٣٢ هـ - ٦٥٢ م]

إتفاضة العدالة الاجتماعية

حياته في سطور :

« المشهور والأصح أن اسمه : أبو ذر جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل بن صغير بن حرام بن غفار ، وينسب إلى قبيلته غفار ، فيقال : أبو ذر الغفاري ، وفي اسمه هذا خلاف كثير ، فالبعض يقول إن اسمه : أبو الذر ، والبعض الآخر يقول : إن اسمه برير بن عبد الله ، أو برير بن عشقة ، أو برير بن جندب ، أو برير بن عبد ، ومنهم من يقول إنه : جندب بن السكن ، أو جندب بن سفيان بن جنادة بن عبيد بن الواقفة بن حرام بن غفار بن مليل بن صخرة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار الغفاري .

« أما اسم أمه فإنه لا خلاف فيه ، فهي : رملة بنت الوقيعة ، من بني غفار بن مليل .
« ولد في قبيلة غفار ، في تاريخ غير معلوم ، وكانت مضاربها على طريق مكة التجارية إلى الشام .

« وكان أبو ذر أسمر اللون ، طويلاً ، نحيف الجسم معروفاً ..

« ولقد اهتدى إلى عقيدة التوحيد ، فترك عبادة الأصنام ، وعبد الله وحده قبل بعثة الرسول محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بثلاث سنوات ، وكان قومه يعلمون عنه ذلك ، ويسمونه ، لترك دينهم وخروجه عليه : الصابئ .

« كان من السابقين إلى تصديق الرسول في رسالته ، وهناك اتفاق على أنه أحد الخمسة الأوائل الذين أسلموا مبكراً ، والخلاف هل هو الرابع أو الخامس فيهم .

« كان إسلامه ودعوة الإسلام لا تزال سراً ممكئة ، فولاه الرسول مسئولية قومه ، فعاد

ومكث فيهم يدعو للإسلام جهراً ، فأسلم معه كثير من قومه . وظل في موقعه هذا حتى هاجر إلى المدينة سنة ٥هـ سنة ٦٢٧م .

* أبرز ما يميز حياة أبي ذر علمه الغزير ، حتى قال عنه علي بن أبي طالب - وهو من هوى العلم - : « وعى أبو ذر علماً عجز الناس عنه ، ثم أوكأ عليه فلم يخرج شيئاً منه » !! . وكذلك زهده وتواضعه ، وفي زهده يقول الرسول : « أبو ذر في أمتي على زهد عيسى ابن مريم ، عليه السلام » . ولقد بلغ به التواضع أنه كان يقدم لإمامة الصلاة - في منفاه بالريذة - رقيقاً اسمه « مجاشع » ، وهو دونه في كل الصفات والمؤهلات وكذلك جرأته في الحق التي فاق فيها أصحابه ، حتى قال عنه الرسول بصددها : « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر » . ! .

* روى عن الرسول أحاديث كثيرة ، ومنها أحاديث عديدة ذات مضمون اجتماعي تدعو إلى المساواة والتكافل وتنفر من التفاوت في الثروات ، وروى هذه الأحاديث عن أبي ذر كوكبة من الصحابة والتابعين ، منهم مثلاً : أنس بن مالك ، وعبد الله بن عباس ، وأبو إدريس الخولاني ، - وزيد بن وهب الجهني ، والأحنف بن قيس ، وجبير بن نفير ، وعبد الرحمن بن تميم ، وسعيد بن المسيب ، وخالد بن وهبان (أو : اهبان) - وهو بن خالة أبي ذر ، وقيل : ابن أخيه - وعبد الله بن الصامت ، وخرشة بن الحر ، وزيد بن ظبيان ، وأبو أسماء الرحبي ، وأبو عثمان النهدي ، وأبو الأسود الدؤلي ، والمعمر بن سويد ، ويزيد بن شريك ، وأبو مرواح الغفاري ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعبد الرحمن بن حجيرة ، وعبد الرحمن بن شماسه ، وامرأة أبي ذر ، وعطاء بن يسار ، وغيرهم كثيرون .

* لم يشهد أبو ذر غزوة « بدر » ، ولكن عمر بن الخطاب ألحقه بمن شهدا في العطاء ، اعترفاً بفضله ، ولأنه لم يكن يوماً قد هاجر بعد إلى المدينة .

* اختلف مع أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، لمحاباته أهله بعد توليه الخلافة ، وثار على خروج المجتمع الإسلامي يومئذ عن نهج الرسول وأبي بكر وعمر في التقارب والتكافل الاجتماعي ، وانتقد تسابق البعض على حيازة الثروات ، ونفى بسبب ذلك أكثر من مرة ، من المدينة إلى الشام ، ومن الشام إلى المدينة ، وأخيراً إلى قرية صحراوية على بعد ثلاثة أميال من المدينة تسمى الريذة ، وكان ذلك في سنة ٣٠هـ .

* في تاريخ وفاته خلاف بين سنوات ٣١ و ٣٢ و ٣٤هـ والأصح هو التاريخ الأول .

* لم يحضر وفاته سوى ابنته ، وكان قد أمرها عندما اقترب منه الموت أن تولم وليمة لأول ركب يفد إلى منفاه كي يجهزه ويدفنه .. وقيل أن يسلم روحه قال لابنته : استقبلي بي الكعبة ، فعلت ، وقال : بالله ، وعلى ملة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .. ثم أسلم الروح . وعندما وفد على ابنته ركب قادم من الكوفة ، وكان فيه عبد الله بن مسعود ، قالت لهم : رحمكم الله ، اشهدوا أبا ذر ، قالوا ، وأين هو؟ فأشارت إليه - وقد مات - فجهزه وصلوا عليه ودفنوه .. ولقد بكى ساعتها ابن مسعود ، وقال : صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقد قال عن أبي ذر : « يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » (١) .

إسلام أبي ذر :

في الأحاديث التي رويت عن الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، كلمات تشهد لأبي ذر الغفاري بالتميز والتفرد ببعض الخصال والصفات ، سبقت إشارتنا إلى بعض من ذلك ، وسيأتي الحديث عن بعضها الآخر بعد قليل .

وقصة العلاقة بين أبي ذر وبين الدين الإسلامي من أهم القسامات التي تميز أبا ذر عن غيره من الصحابة ، سواء منهم الذين سبقوا إلى الإسلام أو الذين أبطأ بهم الإيمان بالرسول حيناً من الدهر ، قلَّ أو كثر ذلك الحين .

في شبه الجزيرة العربية كانت تتناثر ، قبل بعثة الرسول ، بعض المراكز الدينية ، وبعض القبائل التي آمنت بشريعة موسى أو عيسى ، عليها السلام ، وكانت في هذه الأرض كذلك بقايا لديانة إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، تمثلت أساساً في عقيدة التوحيد التي

(١) انظر في كل ذلك ، صحيح مسلم ، بشرح النووي ، طبعة القاهرة على نفقة محمود توفيق ، وتاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٢ ، ٥ ، طبعة القاهرة الأولى ، والاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر ج ٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ وأسد الغابة ، لأبن الأثير ج ٥ ، طبعة القاهرة سنة ١٢٨٠ هـ ، والإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلاني ج ١ ، ٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م ، وطبقات ابن سعد ج ٢ ، ٢ طبعة القاهرة ، والكامل في التاريخ ، لابن الأثير ، ج ٣ ، طبعة القاهرة الأولى سنة ١٣٠١ هـ . ودائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة العربية الثانية ، ومروج الذهب ، للمسعودي ج ٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ط . القاهرة الأولى ١٩٠٦ م .

ترفض الأصنام ، وتنكر على الناس عبادتها ، وكانت هذه البقايا من عقيدة إبراهيم تسمى «الحنيفية» ، وأتباعها يسمون «الحنفاء» .. ولقد كانوا أكثر الناس إحساساً ، في تلك البقعة وفي ذلك التاريخ ، بشدة حاجة تلك البيئة إلى رسول يوحد العرب حول عقيدة توحيدية ، وينتقل بهذا المجتمع إلى طور حضارى جديد ..

ولقد كان أبو ذر الغفارى من هؤلاء الحنفاء ، الذين اهتموا - ذاتياً وبالتأمل والتعمق في التفكير - إلى عقيدة التوحيد ، فدعا الله وعبده ، بل ودعا إليه ، قبل أن يبعث الرسول - عليه الصلاة والسلام - بثلاث سنوات ، وهذه ميزة يتفرد بها الرجل عن الذين شاركوه في صحبة الرسول .

وهو يقص علينا ذلك السبق في حوار دار بينه وبين ابن أخيه ، يقول فيه : « - وقد صليت^(١) ، يا ابن أخى ، قبل أن ألقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بثلاث سنين ..

قلت : لمن ؟

قال : لله .

قلت : فأين تَوَجَّه ؟

قال : أتوجه حيث يوجهنى ربى ! ... »^(٢)

وفي الوقت الذى بدأ فيه الرسول الدعوة سراً إلى الإسلام ، كان أبو ذر مع أخيه « أنيس » قد غادرا مع أمهما مضارب قبيلتهم غفار ، سخطاً على خروج القبيلة عن تقاليد العرب التي تحرم الحرب في الشهر الحرام ، فنزلوا حيناً من الدهر عند خال لهما ، ثم غادروه ونزلوا على مقرية من مكة .. وفي هذا المكان سمع أبو ذر عن الرجل الذى يقول : إنه يتلقى وحى السماء ، ويدعو إلى عقيدة التوحيد ، فبعث بأخيه كى يتنسم له هذا الخبر الذى لم يكن بعد قد ذاع ، وقال له : اركب إلى هذا الوادى ، فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من قوله ، ثم ائتنى .. وعندما عاد « أنيس » من رحلته ، سأله أبو ذر :

« - ما صنعت ؟

قال : لقيت رجلاً بمكة على دينك ، يزعم أن الله قد أرسله ، يسمونه الصابئ .

(١) والصلاة لغة : الدعاء .

(٢) صحيح مسلم جـ ١٦ ص ٢٧ وما بعدها .

قلت : فما يقول الناس ؟

قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر .. ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقرأء الشعر^(١) فما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

ولكن هذا القدر من الحديث ، وذلك اليقين الذى تحدث به « أنيس » عن صدق محمد لم يكف لطفة أبي ذر ولم يشبع نهمه ، وهو الذى ينتظر مثل ذلك اليوم منذ سنوات ثلاث ... فطلب من أخيه القيام على أمر أمها وأمر معاشهم حتى يذهب بنفسه إلى مكة كى يباشر السماع ويقف بنفسه على حقيقة الموضوع .

وعندما وصل إلى مكة اختار رجلاً ضعيف البنية من بين أهلها ، كى يسأله عن مكان هذا الداعية إلى نبد عقيدة الأصنام ، فقال للرجل : أين هذا الذى تدعونه الصابئ ؟ .. ففرغ الرجل ، كيف شاع أمر الدعوة الجديدة ، التى يريد أهل مكة أن يقربوها فى مهدها ، حتى بلغ خبرها إلى من هم خارج مكة ، فجاء هذا الغريب يسأل عن مكان صاحبها !! ولذلك صرخ الرجل فى تعجب من سؤال أبي ذر ، وقال : الصابئ ؟ .. الصابئ ؟ .. ويحكى أبو ذر كيف هجم عليه القوم وانهالوا عليه بالضرب حتى اصطبغت ملبسه وبشرته بدمائه ، فيقول : « فما على أهل الوادى بكل قدرة وعظم حتى حررت مغشياً على .. فارتفعت ، حين ارتفعت كأتى نُصْبٌ أحمر !! » ..

ولكن ذلك لم يصرف أبا ذر عن ما جاء من أجله .. فذهب إلى ماء بئر زمزم فاغتسل من دمائه ، وشرب من مائه ، ودخل المسجد واختنى خلف أستار الكعبة يترب ما تأتى به الأيام من الأحداث ... واستمر فى محبته هذا يتسمع خمسة عشر يوماً ، وقيل ثلاثين يوماً ، لا طعام له سوى ماء زمزم ؟! حتى كانت ليلة مقمرة انصرف فيها رجال مكة إلى السمر عن الطواف بالأصنام المنصوبة حول الكعبة وفوقها ، وجاءت امرأتان تطوفان بالأصنام ، وتدعوان الصنم « إساف » والصنم « نائلة » بما هو مألوف عندهم من الدعاء ... وقرر أبو ذر أن يسخر من المرأتين ومن معبودهن - و « إساف » إله ذكر ، - و « نائلة » إلهة أنثى - فرفع أبو ذر صوته من محبته ، وقال للمرأتين : أنكحا أحدهما الأخرى ؟! .. ولكنها استمرت فى دعاء الصنمين فقال : « هُنَّ مثل الخشبة » ؟! ^(٢) ... وعند ذلك فزعت المرأتان ، وغادرتا

(١) أقرأء الشعر : أنواعه وبحوره ومقاصده .

(٢) هن : من معانيه الذكر والفرج ، والأول هو المقصود هنا ..

مكان الطواف في اتجاه باب المسجد وهما تصيحان : لو كان ههنا أحد من أنفارنا؟؟
وصادف ذلك دخول الرسول - صلى الله عليه وسلم - يصحبه أبو بكر إلى المسجد للصلاة ،
في تلك الليلة التي خلا فيها المسجد من المشركين .. فسأل المرأتين :

- ما لكما ؟

قالتا : الصائئ بين الكعبة وأستارها ..

- ما قال لكما ؟

قالتا : إنه قال لنا كلمة تملأ الفم (أى غليظة في فحشها ، لا يمكن التلفظ بها) !
ويحكى أبو ذر ما حدث بعد ذلك ، وكيف « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى
استلم الحجر ، وطاف بالبيت هو وصاحبه ، ثم صلى ، فلما قضى صلاته ، قلت : السلام
عليك يا رسول الله ، فقال ، وعليك السلام ورحمة الله .. ثم قال : من أنت؟ قلت : من
غفار .. » ويعلق أبو ذر على هذا اللقاء ، وعلى إسلامه ، دون أن يدعوه الرسول إلى
الإسلام ، فيقول : « فكننت أنا أول من حياه بتحية الإسلام » .

ثم ذهب أبو ذر في صحبة الرسول وأبي بكر ، ونزل في ضيافة أبي بكر ، حتى حان
موعد رحيله عن مكة ، فأخبره الرسول بتفكيره في الهجرة من مكة ، واحتمال أن تكون
« يثرب » ، (المدينة) هي مكان هذه الهجرة المرتقبة^(١) .. وطلب إليه أن يتولى أمر الدعوة
إلى الإسلام في قبيلته غفار .. وقال له : « فهل أنت مبلغ عنى قومك ، عسى الله أن
ينفعهم بك ، ويأجرك فيهم ؟ .. ارجع إلى قومك فأخبرهم ، حتى يأتيك أمرى .. »

ولكن أبا ذر لم يشأ أن يغادر مكة سراً ، ودون أن يتحدى أهلها في ذلك الوقت المبكر
الذى لم تكن فيه الدعوة الإسلامية قد أعلنت بعد ، ولم يكن فيه عدد المسلمين قد تجاوز
أربعة فقال للرسول عليه الصلاة والسلام : « والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين
ظهرانهم .. فخرج حتى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن
محمد عبده ورسوله ، فقام القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس بن عبد المطلب
فأكب عليه ، وقال : ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار؟! وأنه طريق تجارتكم إلى
الشام؟! فأنقذه منهم » وتكرر هذا المشهد في اليوم التالي حيث عاد أبو ذر لتحديهم علناً ،
فعادوا لضربه وأنقذه منهم ثانية العباس ، عم الرسول .

(١) ولعل ذلك كان في زيارة أخرى من زيارات أبي ذر للرسول بمكة ، قبيل الهجرة .

وهكذا تفرد أبو ذر مرة أخرى بأمر آخر عن غيره من الصحابة الذين أسلموا حتى ذلك التاريخ .

وعندما عاد أبو ذر إلى قومه ، تبعه في العقيدة أخوه « أنيس » ، وأمه .. ثم أخذ في الجهر بالدعوة إلى الإسلام ، وفي السخرية من أصنام غفار وأهلهم .. حتى دخلت أعداد كبيرة من قبيلته في الإسلام ، وظل بينهم داعياً إلى الدين الجديد حتى هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، وقدم إليها أبو ذر فأسلم من بقي من قومه ، ودعا لهم الرسول فقال : « غفار غفر الله لها »^(١) .. فكانت ميزة أخرى تميز بها هذا الداعية إلى الإسلام بين قبيلته وقومه عن كثير من الذين أسلموا في ذلك الحين .

صفات أخرى للرجل :

ولم تكن هذه هي كل الصفات التي تميز بها هذا الصحابي الجليل .. بل كانت له صفات أخرى امتاز بها على الكثيرين :..

* ومن أولى هذه الصفات غزارة العلم والمعرفة .. فعلى الرغم من أن المشهور من الدراسات الإسلامية التي تناولت مركز الصحابة من العلم والمعرفة تكاد تجمع - وهي على حق في ذلك - على أن علي بن أبي طالب كان أبرز الصحابة في هذا الميدان ، إلا أن تقييم أبي ذر في هذا الصدد يحتاج إلى تنبيه وجلاء وتفسير لبعض ما روى حوله في هذا الموضوع .

فلقد ذكرت في أوصاف الرجل أنه « كان يوازي ابن مسعود في العلم »^(٢) .. وابن مسعود من المبرزين والمقدمين في هذا الميدان .. ولكن الأمر الأهم الذي نود التنبيه إليه هو أن وصول أبي ذر إلى الإيمان بعقيدة التوحيد قبل البعثة المحمدية ، وقبل سماعه بالقرآن والرسول ، إنما يضعه بين أصحاب النظر العقلي والتحليل النظري والفكر الفلسفي ، ومن ثم يعطى الرجل مكاناً متميزاً في هذا الميدان .. ويبدو.. أن الرجل قد كانت له آراء فلسفية ونظرات عميقة حول عدد من القضايا الفكرية لم تكن البيئة الفكرية التي عاش فيها من سعة الصدر ولا من الحاجة بحيث تسمح له أن يلتقي بكل ما عنده إلى الناس ... ويشهد بذلك

(١) صحيح مسلم ج ١٦ ص ٢٧ وما بعدها ، وأسد الغابة ، ج ٥ ، ص ٨٧ ، والاستيعاب ج ٤ ، ص ٦٤ ، والإصابة ج ١ ص ٨٨ .

(٢) الإصابة ج ٤ ، ص ٦٥ ..

قول علي بن أبي طالب عندما سئل عن أبي ذر ، فلقد قال : إنه «وعى علماً فَعَجَزَ فيه ، وكان شحيحاً حريصاً : شحيحاً على دينه ، حريصاً على العلم» (١) ، فهو هنا يشير إلى «نوعية» علم أبي ذر ، وأيضاً إلى أن الرجل كان حريصاً عليه وضميناً بإذاعته بين الناس .. وفي حديث آخر لعل عن هذا الموضوع يقول فيه ، كان «أبو ذر وعاء مليئاً علماً ، ثم أوكئ عليه» ؟ ! (٢) .. أي أن البيئة التي عاش فيها الرجل لم تشهد ما في وعاء علمه من قضايا وأفكار ، لأن هذا الوعاء بعد أن ملئ بالعلم ، حدث أن «أوكئ عليه» ؟ ! .. وهناك رواية أخرى لكلمات علي هذه أكثر صراحة وأقطع في الدلالة عندما يقول : «وعى أبو ذر علماً عجز الناس عنه ، ثم أوكأ عليه فلم يخرج شيئاً منه» ؟ ! (٣) .

ولأبي ذر نفسه إشارة إلى أنه قد تحصلت له وامتك عقله نظرة شاملة ومتكاملة للكون والحياة ، فهو يصف حالته الفكرية بعد أن اكتسب ما اكتسب من صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام - وكان ملازماً له منذ لحق به في المدينة - فيقول : «لقد تركنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً؟» ! (٤) .. فالرجل ولا بد كانت لديه قضايا وأفكار أكثر مما حفظته لنا كتب الحديث والتاريخ .

* وزهد أبي ذر هو الآخر ميزة من الميزات التي تميز بها الرجل ، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قال عنه : «أبو ذر في أمتي على زهد عيسى بن مريم عليه السلام» (٥) ، ولكن زهد أبي ذر هذا لم يكن عزوفاً عن الدنيا وإدارة ظهر لمشاكلها وأحداثها ، وإنما كان موقفاً نضالياً يرفض صاحبه الانغماس في الملذات والترف ، وفي نفس الوقت يكافح ضد الذين سلكوا هذا السبيل ، فأبو ذر كان يؤمن بأن له في أموال المجتمع حقوقاً مثل ما للآخرين ، وأن استئثار الآخرين بهذه الأموال لا يعنى اختصاصهم بها دونه ، وحتى في منفاه «بالربذة» ، وفد عليه «سلمة بن نباتة» فحدثه عن تسابق أصحابه في حيازة الأموال وتنمية الثروات ، وقال له : «إن أصحابك قبَلْنَا أكثر الناس مالا؟» فقال له أبو ذر : «أما إنهم ليس لهم في مال الله حق إلا ولى مثله» (٦) . فهو لم يكن زاهداً زهد الإنسان

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١١٢ .

(٢) الإصابة ج ٤ . ص ٦٥ وهو حديث أخرجه أبو داود .

(٣) الاستيعاب ج ٤ ، ص ٦٤ .

(٤) المصدر السابق ج ٤ ، ص ٦٤ .

(٥) المصدر السابق ج ٤ ، ص ٦٤ .

(٦) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٦٧ .

الذى لا يرى لنفسه علاقة بالدنيا ومباهجها ، وإنما كان زاهداً زهد المناضل ضد احتواء هذه المباحج للمكاته وقدراته وتطويعها لمزاياه الثورية التى أكتسبها من قبل ومن بعد بعثه الرسول عليه الصلاة والسلام .. والإمام أحمد بن حنبل يروى بمسندة فى « كتاب الزهد » الحديث الذى يقول فيه أبو ذر « إني لأقربكم مجلساً من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة ، ذلك أنى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن أقربكم منى مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئته يوم تركته فيها » ثم يستطرد أبو ذر فيقول : « والله ما منكم أحد إلا وقد نشب فيها بشيء غيرى »^(١) . فهو إذناً نمط من الزهد أقرب إلى المواقف النضالية منه إلى المعنى الشائع الآن عن الزهد والزاهدين .. ولاشك أن هذه الميزة من ميزات أبي ذر ستبرز أكثر وأكثر عندما نعرض لمواقفه النضالية من التحولات التى طرأت على الحياة الإسلامية فى عهد عثمان بن عفان .

* وميزة أخرى للرجل لم يشترك معه فيها أحد من أصحابه ، بشهادة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى « صدق اللهجة » ، التى تعنى بلغة عصرنا أن الرجل كان أكثر الألسنة صدقاً فى التعبير عن الرأى الحر ، وأكثر الناس جرأة فى إعلان ما يعتقد حقاََ دونما مواربة أو مداورة ، وأن لسانه كان أكثر منابر العصر تعبيراً عن الحقائق التى شهدها هذا الصحابى الجليل .

أما شهادة الرسول لأبي ذر بهذه الميزة وذلك الامتياز ، فإنها قد جاءت فى حديثه الذى يقول فيه عليه السلام : « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر »^(٢) وهو حديث رواه أبو الدرداء ، ورواه كذلك بنفس ألفاظه مع تقديم وتأخير عبد الله بن عمر بن الخطاب ... ولقد اشتهر أمر هذا الحديث حتى أصبح من الصفات الشائعة لأبي ذر فى كتب الطبقات الخاصة بالصحابة والمحدثين صفة « الصادق للهجة »^(٣) ، وهو وصف لم يطلق على أحد غيره من صحابة رسول الله ..

وأهمية هذه الصفة بالذات من بين صفات أبي ذر الغفارى أنها تعطى قيمة أكبر وأهمية أعظم لرأى الرجل وتقييمه للتطورات والأحداث التى دار حولها الخلاف بينه وبين عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان ومن ناصرهما من الصحابة ، وهى الأمور التى سيأتى حديثنا

(١) الإصابة ج ٤ ، ص ٦٥ .

(٢) الاستيعاب ج ٤ ، ص ٦٤ . ٦٥ والإصابة ج ٤ ، ص ٦٥ .

(٣) الإصابة ج ٤ ، ص ٦٣ .

عنها بعد قليل .. فالقطع بصدق لهجة الرجل ، واليقين بأنه أصدق أهل زمانه لهجة ينفي نفيًا باتاً ما حاول به البعض تجريح الرجل والنيل من إنصافه عندما صوروه أداة لبعض من أسلم من اليهود، دفعوا به لناواة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان، ومن ثم فإن هذه الصفة من صفات أبي ذر لا بد وأن تظل حاضرة في ذهن الباحث والدارس والقارئ عند التعرض لأحداث ذلك الصراع الذى قام بينه وبين جهاز الدولة والاغنياء في ذلك الحين .

وهذه الصفة التى يتميز بها أبو ذر قد جعلت الرجل أثيراً إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، قريباً منه ، تدل على ذلك أحاديث كثيرة مثل ذلك الذى أخرجه الطبرانى من أحاديث أبي الدرداء ، قال : « كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتدنى أبا ذر إذا حضر ، ويتفقد إذا غاب » أى أن منزلة الرجل كانت كبيرة لدى الرسول .. بل وأكثر من ذلك .. فنحن نستطيع أن نقول : إن الرسول كان شديد الحرص على أن يجد أبا ذر دائماً فى المكان المرغوب لصفوة الصحابة وخيرة المسلمين ، ولقد حدث أن انتشر وشاع تخلف الناس عن الخروج للقتال مع الرسول فى غزوة « تبوك » ، وأخذ بعض الصحابة ينقلون إلى الرسول عليه السلام أخبار المتخلفين عن الاستعداد للقتال ، فيقولون : يا رسول الله : تخلف فلان... فيقول لهم : « دعوه .. فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه » .. فذهب هذا الحكم معياراً يميز الخارجين إلى القتال عن القاعدين عنه دون عذر مقبول .. وعندما خرج الجيش المسلم عن المدينة ، لم يكن فيه أبو ذر ، لأن بعيره كان بطئ السير ، وتفقد الرسول أبا ذر فلم يجده ، فأخذ يتمنى على الله أن يكون أبو ذر فى القادمين ، حرصاً منه على الرجل ومكانته فى الإسلام وبين المسلمين وفى نفس الرسول .. وفى نفس هذه اللحظات كان أبو ذر - وقد استبطأ بعيره - قد أخذ متاعه على ظهره ، وتبع جيش الرسول مشياً على الأقدام .. « فنظر ناظر من المسلمين ، فقال : إن هذا الرجل يمشى على الطريق ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كُنْ أبا ذر »؟! ويكمل ابن مسعود رواية الحديث فيقول : « فلما تأملت القوم ، قالوا : - يا رسول الله هو والله أبو ذر »؟! ففرح رسول الله فرحاً شديداً بتحقيق أمنيته فى أن يكون أبو ذر فى مكانه الطبيعي بين الذين جعل الله فيهم خيراً فألحقهم بجيش الذاهبين للقتال فى « تبوك » وقال : « يرحم الله أبا ذر ، يعيش وحده .. ويموت وحده .. ويحشر وحده »؟! .

* * *

تحولات عهد عثمان :

حتى نفهم موقف أبي ذر من التحولات التي طرأت على الحياة الإسلامية أخريات حياته ، لابد أن نعرض لهذه التحولات ، وحتى نحكم للرجل أو عليه لابد من تقديم لمحة تجسد لنا ما حدث في الميدان الاجتماعي منذ ولى الخلافة عثمان بن عفان ، فذلك هو السبيل الطبيعي للتقييم الأدق الذي ننشده ، وللتمييز بين وجهتي النظر المتعارضتين للمؤرخين القدامى الذين عرضوا لموقف هذا الصحابي الجليل من هذه التحولات ..

وبادئ ذي بدء فنحن مع الذين يرون أنه قد حدثت بالفعل تحولات اجتماعية في الحياة الإسلامية على عهد عثمان ، لم تكن موجودة في عهد البعثة ولا في زمن أبي بكر وخليفته عمر بن الخطاب .. ففي عهد الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، لم تكن الفتوحات الإسلامية الكبرى قد حدثت بعد ، ومن ثم فإن ثروة المجتمع لم تكن ذات وزن كبير ، حتى أن الدولة العربية الإسلامية التي قامت يومئذ لم تعرف نظاماً مستقراً ومقنناً لمالياتها من حيث الضبط والتنظيم للواردات والمصروفات ... وعندما لقي الرسول ربه لم يخلف مالا يورث ، بل خلف ديناً عليه هو عبارة عن قرض اقترضه لقضاء حاجات أهله المعاشية .. ولم يختلف الحال كثيراً في عهد أبي بكر الصديق .. لا من حيث الحدود التي امتد إليها الفتح العربي ، تقريباً ، ولا من حيث ثروة الدولة ، بل لقد تأثرت بالانقسامات التي حدثت على سلطة أبي بكر القائمة في « المدينة » ، واستنفدت منها الحروب ، التي سميت « بحروب الردة » ، قدراً كبيراً من الجهد والنفقات ، حتى أن بيت مال المسلمين - (خزانة الدولة) - عند وفاة أبي بكر ، لم يكن به سوى دينار واحد قد سقط وتحلف بطريق الخطأ والنسيان؟! .. أما رأس الدولة ، أبو بكر ، رغم أنه كان من أثرياء قريش وتجارها ، فإنه لم يخلف وراءه شيئاً من المال ..^(١)

وفي عهد عمر بن الخطاب امتدت فتوحات الدولة حتى شملت المجتمعات الغنية الثلاثة التي كانت أهم مصادر الثروة في الإمبراطورية العربية : مصر ، والشام ، والعراق .. وجاءت إلى عاصمة الدولة كنوز القياصرة والأكاسرة ، وفيها أكوام من التحف والعنلات الذهبية التي ذهل لمرآها كثيرون من الصحابة ، بل وبكى خشية من آثارها عمر بن الخطاب؟! ..

(١) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ص ١٧٥ .

وجاهد كثير من الصحابة لاقتناء الثروة وبناء الدور المريحة ، وجنى ثمار العمل المضني الذي بذلوه في المعارك سنين عديدة قضوها في تأسيس الدولة وتوحيدها ونشر الإسلام .. ولكن عمر بن الخطاب قد حال بينهم وبين ذلك بوعي الرجل الذي جاهد بإصرار واستماتة في أن يستبقى لهذه الدولة الفتية بناتها وحماها في صورة الجند والفرسان ، وبعيداً عن أن تفسدهم حياة الغنى والبذخ ، ومحولهم الترف إلى مجرد « مناضلين سابقين متقاعدين !؟ » وفي سبيل الاحتفاظ بهذا الوضع وتلافى المخاطر التي توقعها ، اتخذ عمر العديد من الإجراءات ..

١- فهو قد منع الجند الفاتحين من امتلاك الأرض الزراعية المفتوحة في مصر والشام والعراق ، وقرر جعلها ملكية عامة لبيت مال المسلمين ، يفلحها سكان البلاد الأصليون ويصرف من خراجها في مصالح الدولة وإصلاحاتها^(١) .

٢- ومنع كبار الصحابة من التفرق في الأمصار المفتوحة والاستقرار بها ، حتى يمنع اشتغالهم بجمع المال وتكوين العصابات واستغلال النفوذ... وكلما كان قدر الصحابي عالياً ومركزه في الإسلام سامياً كلما كان حذر عمر بن الخطاب منه- في موضوعنا هذا - أشد ... ومن هنا كان موقفه من بنى هاشم ، وهم أكثر الناس قرباً من الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن رؤوس قريش ، الذين استبقاهم بالمدينة تحت ناظره . ولقد قال يوماً لعبد الله بن عباس- في تعليل موقفه منهم- : « إن الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة ، وإن قريشاً اختارت لنفسها فأصابت^(٢) . وإنى رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - استعمل الناس وترككم .. والله ما أدري أصرفكم عن العمل ورفعكم عنه ، وأنتم أهل لذلك !؟ أم خشى أن تُعَاوَنُوا لمكانكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب !؟ »^(٣) .

٣- وهو قد أخذ الناس - ومن قبلهم أخذ نفسه - بحياة التقشف ، فاشتد على عماله وولاته شدة مشهورة تغني شهرتها عن الإفاضة فيها ، وكان نموذجاً في التقشف والاقتصاد .. ينفق - وهو أمير المؤمنين - في ذهابه وإيابه لرحلة الحج ستة عشر ديناراً ، ومع ذلك يقول لولده عبد الله : « لقد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا ! ! »^(٤) وعندما يودع

(١) انظر دراستنا عن : الأرض والفلاح من الفتح العربي إلى الإقطاع الحربي ، مجلة [الهلل] سبتمبر سنة ١٩٧٠ م .

(٢) محمد حسين هيكل (الفاروق عمر) ج ٢ ، ص ٢١٢ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ، ص ٢١٠ .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ، ص ٣٤٣ .

الدنيا يتركها مديناً ، قد أوصى ابنه أن يسدد ما عليه من الديون .^(١) .

ولكن زمام الأمر لم يبق مجتمعاً في اليد القوية على عهد عثمان كما كان الحال في عهد ابن الخطاب ، وذلك لأسباب كثيرة ، من بينها الفرق بين الشخصيتين ، ولشدة عمر ولين عثمان ...

ويبدو أن الفرع الأموي ، بزعامة أبي سفيان ، قد رأى في تولى عثمان الخلافة فرصة طالما انتظروها كي تعود لهم المكانة الأولى التي فقدوها منذ ظهور الإسلام على يد محمد بن عبد الله ، من الفرع الهاشمي الفقير من بني عبد مناف .. ولقد ذكر عمار بن ياسر أنه قد حدث « عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان ، ودخل داره ، ومعه بنو أمية » أن قال لهم أبو سفيان ، وكان قد كف بصره : « أفیکم أحد من غيرکم ؟ .. قالوا : لا .. قال : يا بني أمية ، تلففوها تلفف الكرة ، فوالذي يحلف به أبو سفيان ، ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثته ، فانتهره عثمان ، وساءه ما قال . ونمی هذا القول إلى المهاجرين والأنصار^(٢) . فهو إذا انقلاب سياسي قد حدث ، طالما رجاء وانتظره أبو سفيان وبنو أمية ، وهي إذاً بداية حقبة من الحكم الأموي يعدون أنفسهم لتلقفه كالكرة حتى تصير ملكاً وراثياً يتولاه الصبيان .. حتى ولو لم يكن معهم في هذا الرأي عثمان بن عفان .. لقد سنحت لهم الفرصة ، ورأوا في شخصية عثمان المناخ المناسب كي يحققوا ما يريدون ... ولذلك كان حكم هذا الخليفة الصالح بداية لأحداث وتطورات استحدثت في الحياة الاجتماعية الإسلامية ، سعى إليها البعض واغتنمها البعض وناضل ضدها البعض الآخر ومن ثم كانت الصراعات التي برز فيها أبو ذر الغفاري ، وكانت « الفتنة » (الثورة) التي شهدتها آخر عهد عثمان بن عفان ..

* فلقد انتشر كثير من الصحابة ، الذين استبقاهم عمر بالمدينة ، في الأمصار ، وأقطعهم عثمان مساحات من الأرض التي كانت ملكية عامة لبيت مال المسلمين ، فوزعت عليهم الأرض التي سبق أن صودرت لحساب بيت المال ، والتي كانت مملوكة لكسرى وقيصر والأمراء والقواد الذين حاربوا ضد الفتح العربي لهذه البلاد ، وهي التي كانت تسمى أرض « الصوافي » ، وكان دخلها على عهد عثمان ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، كما كان عثمان

(١) الفاروق عمر ج ٢ ، ص ١٧٦ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

أول من أقطع أرض العراق^(١) .

* وتغير حال العمال والولاة ، فاستخدم عثمان الكثير من أقربائه ، وحتى الذين كانوا يعملون على عهد عمر لم يعودوا يحشون شدة عمر ، واستبدوا بالأمر من دون عثمان . ومن حديث لعلي بن أبي طالب ، عشية الثورة على عثمان ، يعيب عليه في ضعفه إزاء الولاة والعمال ، يقول له فيه : « إن عمر كان يظاً على صِباخ^(٢) من ولى .. إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى العقوبة ، وأنت لا تفعل ، ضعفت ورققت على أقربائك » ، وعندما يقول له عثمان ، « وهم أقرباؤك أيضاً » ؟! يقول له علي : « أجل .. إن رحمهم مني لقريبة ، ولكن الفضل في غيرهم ! » وعندما يعترض عثمان ويحتج بأنه قد ولى معاوية بعد أن ولاه عمر من قبل ، يرد على قائله : « أنشدك الله !! هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من « يرفاً » ، غلام عمر له ؟! أما الآن « فإن معاوية يقطع الأمور دونك ، ويقول للناس : هذا أمر عثمان ، وأنت تعلم ذلك فلا تُغيّر عليه ؟! »^(٣) .

* وانعكست هذه التطورات السياسية والإدارية على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لدى عدد كبير من الولاة والصحابة والعمال .. فسعيد بن العاص وإلى عثمان على الكوفة ، يسير في الناس سيرة منكرة ، ويستبد بالأموال دونهم ، ويقول عن أرض العراق- التي جعلها عمر من قبل ملكاً للأمة - إنها بستان قريش ؟! فيعترض عليه الأشر مالك بن الحارث النخعي قائلاً : « أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك ؟! »^(٤) .

* وتبدي مظاهر الثراء والبذخ على عدد كبير من الصحابة ، فالزبير بن العوام يبنى له عدة دور فخمة بالبصرة ، والكوفة ، ومصر ، والإسكندرية ، وعندما تحضره الوفاة يحصون في ثروته ٥٠,٠٠٠ دينار ، وألف فرس ، وألفاً من العبيد والإماء .. الخ ..^(٥)

* وطلحة بن عبيد الله التيمي يبنى لنفسه هو الآخر إحدى الدور الفخمة بالكوفة وأخرى بالمدينة يشيدها « بالآجر والجص والساج » ، ويبلغ دخله من ممتلكاته بالعراق

(١) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ص ١٤٨ .

(٢) الصباخ : الأذن .

(٣) الكامل ، في التاريخ ، لأبن الأثير ج ٣ ، ص ٧٤ .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

(٥) المصدر السابق ج ٢ ، ص ٣٤٢ .

وحدها ألف دينار في اليوم الواحد!؟ « وقيل أكثر من ذلك ، وبناحية « الشراة » أكثر مما ذكرنا »!! (١) .

« وعبد الرحمن بن عوف الزهرى ، تصبغ ثروته مضرب الأمثال « فعلى مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف شاة من الغنم » وعندما توفى قدرته ثروته بأكثر من مليونين ونصف من الدراهم ، ولقد بلغ حجم القدر الذى أحضر منها إلى عثمان بن عفان فى « البدر » و « الأكياس » قدراً من العظم جعله يحجب رؤية عثمان عن الرجل الواقف أمامه!؟ (٢) .

« ويذكر سعيد بن المسيب أنه قد كان فى ثروة زيد بن ثابت - وكان من المدافعين عن عثمان حين ثار الناس عليه - يوم مات « من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفوس ، غير ماخلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار » (٣) .

« أما يعلى بن منية فإنه يخلف فى تركته ٥٠٠,٠٠٠ دينار ، تضاف إليها عقارات وديون له على الناس تقوم بمبلغ ٣٠٠,٠٠٠ دينار!؟ (٤) .

« ويشيع فى المدينة بناء الدور الفخمة الحديثة ، ويتخذون لها الأماكن الجميلة من « الضواحي » ، فعلى بعد أميال من المدينة بينى « المقداد » « بالجرف » داراً ، « مخصصة الظاهر والباطن » ، ويجعل فى « أعلاها شرفات » (٥) ، ويصنع مثله « بالعقيق » ، « سعد ابن أبي وقاص » (٦) .

« وتشهد الدولة الإسلامية أول خليفة من خلفائها يترك عند مماته ثروة طائلة ، فيحصون لعثمان ، رضى الله عنه ، يوم مقتله « عند خازنه من المال خمسين ومائة ألف دينار (١٥٠,٠٠٠) ، وألف ألف درهم » (١,٠٠٠,٠٠٠) وذلك غير قيمة « ضياعة بوادى القرى وحنين » ، تلك التى قدرت بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ دينار ، هذا عدا الخيل والإبل وغيرها من الممتلكات والمقتنيات (٧) .

(١) المصدر السابق ج٢ . ص ٣٤٩ .

(٢) المصدر السابق ج٢ . ص ٣٤٩ .

(٣) المصدر السابق ج٢ . ص ٣٤٢ .

(٤) المصدر السابق ج٢ . ص ٣٤٣ .

(٥) المصدر السابق ج٢ . ص ٣٤٣ .

(٦) المصدر السابق ج٢ . ص ٣٤٢ .

(٧) المصدر السابق ج٢ . ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

ونحن نود قبل أن نتنقل للحديث عن أثر هذه التحولات المستحدثة في المجتمع الإسلامي ، أن ننبه إلى أن صحبة هؤلاء الرجال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسبق الكثير منهم إلى الإسلام ، وبلاءهم الحسن في نشر الإسلام وإقامة دعوته ، لم يكن له أن يمنع سعيهم هذا الذي حدث في سبيل الدنيا ، لأن النفس البشرية عندما تتاح لها الفرصة لذلك دونما مانع من القانون وراذع من النظام ، فقلما تحجم عن السعي في هذا الطريق ... وهذه الموانع قد زالت ، أو كادت ، بوفاة عمر بن الخطاب ، ومن ثم استباح الكثيرون لأنفسهم واستحلوا هذا النمط من أنماط الحياة .. ولقد كانت للقوم شبهة حيل تجعل لهم هذا الأمر مباحاً لا حرج عليهم فيه .. يشهد لذلك قول عثمان بن عفان عن عبد الرحمن بن عوف عندما أحضر له ما أحضر من أكياس دنانيره ودراهمه بعد وفاته : « إني لأرجو لعبد الرحمن خيراً ، لأنه كان يتصدق ، ويقرى الضيف ، وترك ما ترون »^(١) ... أى أنه قد كانت هناك وجهة نظر تمثل موقفاً فكرياً يرى أنه لا حرج على الناس ولا على ضمايرهم من السعي في هذا السبيل ، وأن التقوى والإيمان لن يُنقص منها جمع الأموال ، بشرط أن يتصدق أصحابها ويكرموا الضيوف ويبدلوا منها قدرًا معلومًا في بعض وجوه البر والإحسان ...

بل لقد حدث أن استباح البعض ما حرمه الرسول على سبيل القطع في هذا الميدان ، وفي (صحيح مسلم) نقرأ هذا الحديث الشاهد لما نقول : - « حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب ، حدثنا سليمان » يعنى ابن بلال « عن يحيى » وهو ابن سعيد « ، قال : كان سعيد بن المسيب يحدث أن معمرًا قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من احتكر فهو خاطئ ، فقيل لسعيد : فإنك تحتكر !! قال سعيد ، إن معمرًا ، الذى كان يُحدِّث هذا الحديث كان يحتكر »؟! (٢) . فما بالنا باستحداث أمور كانت للبعض فيها شبهة حيل؟! ولم يكن في صف الذين أنكروها وحاربوها سوى سلاح الاجتهاد في تفسير النصوص وقياس الأمر على كليات التعاليم وروح الشريعة الغراء .. ؟ ! .

وعلى أى الوجوه قلبنا الأمر ، فلقد أثمرت هذه التحولات التى شهدها عهد عثمان بن عفان مناخاً اجتماعياً وُلد وشهد العديد من التناقضات والصراعات .. ومن الكلمات الجيدة التى تصف تلك الحالة الجديدة قول جمال الدين الأفغانى : إنه « فى زمن قصير من خلافة

(١) المصدر السابق ح ٢ . ص ٣٤٩ .

(٢) صحيح مسلم ، بشرح الودى ج ١١ ، ص ٤٣ .

عثمان ، تغيرت الحالة الروحية في الأمة تغيراً محسوساً ، وأشد ما كان منها ظهوراً في سيرة وسير العمال والأمراء وذوى القرى من الخليفة ، وأرباب الثروة بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى « أمراء » وطبقة « أشراف » وأخرى « أهل ثروة وثراء وبذخ » ، وانفصل عن تلك الطبقات : طبقة العمال وأبناء المجاهدين ، ومن كان على شاكلة من أرباب الحمية والسابقة في تأسيس المُلْك الإسلامي وفتوحاته ، ونشر الدعوة ، وصار يعوزهم المال الذى يتطلبه طرز الحياة ، والذى أحدثته الحضارة الإسلامية ، إذ كانوا مع كل جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمتمنين إلى العمال ورجال الدولة ، وقد فشت العزة والأثرة والاستطالة ، وتوفرت مهبات الترف في حاشية الأمراء وأهل عصبيتهم ، وفي العمال ، وبمن استعملوه وولوه من الأعمال .. الخ .. فتج من مجموع تلك المظاهر التى أحدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين من المسلمين ، تكوّن طبقة أخذت تتحسس بشيء من الظلم ، وتتحضر للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النص ، ومن سيقى الخليفة الأول والثانى : أبى بكر وعمر .

وكان أول من تنبه لهذا الخطر الذى يهدد المُلْك والجامعة الإسلامية ، الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى .. « (١) » .

اتهم مردود :

ولقد كان طبيعياً أن تُحدِث تطورات مثل هذه اختلافاً في الرأى وتبايناً في وجهات النظر بين كبار الصحابة وكثير من المسلمين في ذلك الحين ، وكان منطقياً وضرورياً أن تؤدى هذه التغيرات الاجتماعية إلى اختلاف وتباين في الزوايا التى ينظر منها الناس إلى الأمور .. ولذلك فإننا نؤيد النظر إلى اختلاف الآراء بين أبى ذر وبين عثمان ومعاوية على أنه أمر طبيعى ، وننكر المحاولات التى تريد الانتقاص من قدر أبى ذر ، بتصويره ضحية في مخطط يهودى استخدم الرجل في تنفيذ مؤامرة يهودية ضد الإسلام والمسلمين؟! ..

وأصحاب هذا الرأى الشاذ قد لجأوا إليه تحت وهم أنهم يدافعون بذلك عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فأوقعهم مسلكهم هذا في منحدر وعمر ، لأنهم قد جرّحوا صحابياً قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام : إنه أصدق أهل الأرض لهجة ومقالاً ... وتبناً بما

(١) الأعمال الكاملة لحال الدين الأفغانى . ص ٤٢١ دراسة وتحقيق د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

حدث له ، لأنه كان يعرف معدن الرجل ، ويستشرف ما ستجره عليه لهجته الصادقة عندما يلجأ القوم إلى الدعة وحب السلامة والرفه ، وعندما يثور عليهم أبو ذر لسلكهم هذا الطريق .

ولقد كانت دوافع أبي ذر إلى موقفه هذا موضع خلاف - منذ قرون - بين المؤرخين ، فالطبري يذكر أن المؤرخين الذين سبقوه قد ذكروا في أسباب نفي أبي ذر من الشام إلى المدينة بأمر من عثمان لمعاوية ، بعد أن كاتب معاوية الخليفة بصنع أبي ذر وتحريضه الفقراء على الأغنياء .. يذكر الطبري أن بعض المؤرخين قد ذكر لذلك «النفي» و«الإشخاص» أسباباً كثيرة و«أشياء كثيرة وأموراً شنيعة كرهت ذكرها» وفي مكان آخر يقول : - «كرهت ذكر أكثرها»^(١) ... لأنه كان متعاطفاً مع وجهة النظر التي وقف منها أبو ذر موقف العداء ...

أما ابن الأثير - وهو من الناقلين عن الطبري - فإنه يشير إلى هذه الأشياء التي ذكرها بعض المؤرخين ، والتي كره الطبري ذكرها ، مثل «سب معاوية» لأبي ذر ، «وتهديده بالقتل ، وحمله إلى المدينة من الشام بغير وطاء» - (فرش على ظهر الدابة) - ونفيه من المدينة على الوجه الشنيع .. يذكر ابن الأثير هذه الإشارة ، ثم يقف نفس موقف الطبري فيعلن كراهته للتفصيل في هذا الأمر ، لأنه «لا يصح النقل به ، ولو صح لكان ينبغي أن يُعتذر عن عثمان ، فإن للإمام أن يؤدب رعيته ، وغير ذلك من الأعداء لا أن يجعل ذلك سبباً للظلم عليه» .. ثم يمضي ليذكر وجهة نظر الذين أيدوا عثمان ومعاوية ضد أبي ذر ، ونسبوا موقف أبي ذر إلى مخطط يهودي ، كان ينفذه عبد الله بن سبأ - (ابن السوداء) - فيقول : أما الذين يعذرون عثمان في موقفه من أبي ذر ، «فإنهم قالوا : لما ورد ابن السوداء إلى الشام لقي أبا ذر ، فقال يا أبا ذر ، ألا تعجب من معاوية يقول : المال مال الله؟! ألا إن كل شيء لله؟! كأنه يريد أن يحتج به - (يختص به) - دون الناس ، ويمحوا اسم المسلمين؟! فأتاه أبو ذر ، (أى أتى معاوية) ، فقال : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله الساعة؟! قال : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله والمال ماله؟! قال : فلا تقله . قال : سأقول مال المسلمين .

وأتى ابن السوداء أبا الدرداء ، فقال له مثل ذلك ، فقال : أظنك يهودياً ، فأتى عباده بن الصامت ، فتعلق به عبادة ، وأتى به معاوية ، فقال : هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر .»^(٢) .

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ . ص ٦٧ ، ٦٦ . . (٢) الكامل ، في التاريخ ، ج ٣ . ص ٥٥ .

ونحن لا نميل إلى موقف ابن الأثير هذا ، بل نرفضه لأسباب كثيرة ، في مقدمتها :
أولاً : إنه لا يضع في اعتباره أن التطورات التي طرأت على الحياة العربية الإسلامية في ذلك التاريخ ، من الطبيعي ، بل ومن الضروري أن تثير اختلافات في وجهات النظر بين الناس ، وأن هذا الاختلاف طبيعي تماماً ، بل وضروري ، خصوصاً في بيئة يشجع الفكر الإسلامي فيها الناس على التفكير بجرية ، ويرى أن الإنسان فيها حر مختار ، وموقف ابن الأثير هذا يفضي - ضمن ما يفضي - إلى جعل التفكير الاجتماعي وقفاً على اليهود ، من دون العرب والمسلمين المخلصين لتعاليم الإسلام !؟ .
وثانياً : إن تصور ما حدث بين أبي ذر وعثمان على أنه اختلاف في وجهات النظر بين صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أكرم وأليق بهذه الصفوة من الناس ، من تصور أبي ذر - ومكانته عالية بشهادة الرسول - العوبة في يد بعض الذين أسلموا من اليهود .

وثالثاً : إن قصة عبد الله بن سبأ ، برمتها ومن أساسها ، موضع شك وجدل بين الباحثين في تاريخ هذه الفترة من فترات حكم الإسلام والمسلمين ، وهناك من يراها مجرد « مشجَب وهمي » ، اخترعها البعض ليعلق عليها الأخطاء ، ويصرف بها نظر البحث والباحثين عن رؤية التطورات التي حدثت في المجتمع والحلقات التي تارت فيه في ذلك الحين .. (١)

ورابعاً : إن قصة الخلاف بين أبي ذر وعثمان حول قضايا المال والفقر والغنى سابقة على ذهاب أبي ذر إلى الشام ، وعلى هذا اللقاء المزعوم بينه وبين ابن السوداء ، كما سيتضح ذلك - من الأحداث وترتيبها التاريخي - بعد قليل .. وهو أمر يهدم هذه الدعوى من الأساس .

ولذلك فنحن نميل إلى رأى الفريق الآخر من المؤرخين - المسعودي مثلاً - الذي يصور الأحداث التي وقعت بين أبي ذر وبين عثمان ومعاوية باعتبارها أموراً طبيعية أثمرتها تطورات شهدتها حياة المجتمع يومئذ .. فهو مجتمع ، وهم بشر ، والأليق بهم النظر إليهم وإلى خلافاتهم وصراعاتهم في هذا الإطار وبهذا المنظار .

* * *

(١) د . طه حسين ، كتاب الفتنة الكبرى ج ١ (عثمان) .

الصدام مع عثمان ومعاوية

في المدينة :

كان أبو ذر قد اتخذ لنفسه سبيلاً قرر أن لا يجيد عنها ، وهي الخروج من الدنيا فقيراً كحالهِ يوم ودع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما مات ، وكان دائم التردد لحديث الرسول الذي يقول فيه : « إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئته يوم تركته فيها » . وعندما كان أبو ذر يردد هذا الحديث ، كان ينظر إلى صحبه الذين أخذوا يجمعون الحظوظ من متاع الدنيا ، ويغمزهم ، ويقول لهم : « والله ما منكم أحد إلا وقد نشب فيها بشيء غيرى ! .. » .. وكان أيضاً دائم التحذير والإنذار للذين يجمعون الأموال ويصرفون في سبيلها جهداً كبيراً ، فيذكر لهم قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن المكثرين من المال وكيف « أن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة » ، إلا من انفق ما تحصل له من المال ذات اليمين وذات الشمال ، دون كتر أو إمساك أو احتكار» (١) .

ولقد أخذت أقوال أبي ذر هذه ومواقفه تؤذى الكثيرين ، ورفعت إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان العديد من الشكاوى ضد الرجل ، فأصدر عثمان ، رضى الله عنه ، أمراً إلى أبي ذر ينهيه فيه عن الجلوس « للفتوى » بين الناس .. ولكن أبا ذر عصى أمر عثمان ، واستمر في عقد المجالس للناس ، يروى فيها الأحاديث ويفتى فيما يعرض عليه من الأمر ، ويروى « ابن سعد » في طبقاته كيف وقف رجل على أبي ذر فقال له : ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا !؟ فقال له أبو ذر : والله لو وضعت الصمصامة - (السيف) - على هذه (وأشار إلى حلقه) ، على أن أترك كلمة سمعتها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأنفذتها قبل أن يكون ذلك ! » (٢) .

ولم يكن تصدى أبي ذر للفتيا بالأمر الذي يحدث فقط بعيداً عن حضرة أمير المؤمنين ، بل وفي مجلسه وحضرته كذلك .. ولقد ثار النقاش والجدل يوماً في مجلس عثمان رضى الله عنه حول أمرين يتعلقان بالأموال والثروات ..

(١) صحيح مسلم ج٧ ، ص ٧٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ، ج٢ ، ق٢ . ص ١١٢ .

أولها : خاص بما على الإنسان في ماله .. هل عليه الزكاة فقط ؟ أم ما هو أكثر من ذلك ؟؟

وثانيهما :مدى حرية الخليفة والسلطة الحاكمة في التصرف في أموال الدولة بالأخذ والإعطاء ؟؟

وكان رأى أبي ذر إلى جانب فرض ما هو أكثر من الزكاة في أموال الناس ، وضد إطلاق اليد لعثمان وولاته في التصرف بالأموال .. ووقف مع عثمان ، ضد رأى أبي ذر ، أناس تزعمهم «كعب الأحبار» الذي أغلظ له أبو ذر القول ، واستخدم ضده عصاه ، فدفع بها في صدر «كعب» !؟ وكان هذا الصدام أول موقف عنيف يقفه أبو ذر الغفاري من السلطة الممثلة يومئذ في عثمان بن عفان ، مما أدى إلى غضب عثمان منه وعليه ، فطلب منه مغادرة المدينة ، فخرج منها أبو ذر إلى الشام .. والمسعودي يحكى لنا ما حدث يومئذ في مجلس عثمان ، فيقول :

« قال عثمان : أرايتم من رزكى ماله ، هل فيه حق لغيره ؟؟

فقال كعب : لا ، يا أمير المؤمنين .

فدفع أبو ذر في صدر كعب ، وقال له : كذبت يا بن اليهودى .. ثم تلا : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ... الآية) ..

فقال عثمان : أترون بأساً أن نأخذ مالا من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا ، ونعطيكموه ؟

فقال كعب : لا بأس بذلك .

فرفع أبو ذر العصا ، فدفع بها في صدر كعب ، وقال : يا بن اليهودى ما أجراؤك على القول في ديننا !؟

فقال عثمان : ما أكثر أذاك لي !! غيب وجهك عنى فقد آذيتنا ... فخرج أبو ذر إلى الشام ...^(١)

(١) مروج الذهب ج ٢ ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

فهو إذاً أول قرار يصدره عثمان بن عفان « بنى » أبي ذر من المدينة .. ولم يحدد له عثمان المكان الذى يذهب إليه ... واختار أبو ذر الشام ، لحكمة لعلها أن الرجل قد كان يريد التشديد من حملته ضد التحولات الاجتماعية التى كانت آخذة فى الظهور والتفشى يومئذ ، وضد من كان يرى انحرافهم من ولاية عثمان على الأقاليم ، وفى مقدمتهم والى الشام معاوية ابن أبي سفيان .. فهو « نعى » عن المدينة العاصمة ، ولكنها رحلة نائر إلى ميدان أكثر خطراً واحتياجاً إلى الثوار .:

فى الشام :

وفى الشام وجد أبو ذر أن الأمر أخطر مما هو عليه فى المدينة فلم تكن بساطة الحياة العربية هى الأمر السائد كما هو حال المدينة ، ولم تكن القاعدة هى الجماعية ، والمساواة ، والشذوذ هو الاستثناء والتفاوت فى الثروات كما هو الحال فى العاصمة .. وإنما كان العكس هو السائد فى الشام .. فلقد كانت هذه الولاية قد تحولت إلى صورة « عربية إسلامية » لما كان عليه نظام الحكم ، أهبة وفخامة ، أيام قيصرية الرومان البيزنطيين . وكانت لمعاوية فى ذلك وجهة نظر يعلنها ، تتلخص فى أن ذلك هو المناسب لهيبة الحكم وجلاله فى بيئة تعودت ذلك منذ قرون ، وأن السلطة لن تحترم إلا إذا اتخذ الولى فى الشام أهبة الملك وحياة الملوك ..

ولم يكن ذلك موقفاً استحدثه معاوية فى عهد عثمان ، بل كان أمراً سعى إليه ونحا نحوه منذ عهد عمر بن الخطاب ، وعندما هم عمر بزيارة أقاليم الإمبراطورية العربية الإسلامية « قدم الشام راكباً حماراً ، فتلقاه معاوية بن أبي سفيان فى موكب عظيم ، ونزل معاوية وسلم على عمر بالخلافة ، ففضي فى سبيله ، ولم يرد عليه سلامه ..

فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ، يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته !؟

فالتفت عمر إلى معاوية وسأله : إنك لصاحب الموكب الذى أرى !؟

قال معاوية : نعم !

قال عمر : مع شدة احتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك !؟

قال معاوية : نعم .

قال عمر : ولم ، ويحك !؟

فأجابه معاوية : لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينا ، وأما الحجاب فإننا نخاف من البذلة جراً الرعية ، وأنا بعد عاملك ، فإن استقصيتي نقصت وإن استزدتني زدت ، وإن استوقفتني وقتت .

قال عمر : - بعد أن سكت هنية - ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه ! إن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب ، وإن كنت كاذباً فإنه خدعة أريب ، لا أمرك ولا أنك !» (١)

ولقد أتاح عهد عثمان لمعاوية في الشام أن يستكمل كل أهبة الملك ، وأن يبلغ بالأمر كل المدى الذي أراد ... ووجد أبو ذر أن القضايا التي كانت لا تزال محل جدل في المدينة قد حسمت في الشام ، فلقد كان معاوية يتصرف في مال الإمارة بحرية مطلقة ، ويسميه « مال الله » .. وكانت قد نبتت بذور تری في الخليفة - ومن ثم في نوابه - ظللاً لله في الأرض ، ومن ثم فإنهم أحرار في تصرفاتهم ، لا رقابة عليهم من البشر ولا قيود ... فاعترض أبو ذر على معاوية ، وطلب إليه أن يتصرف كأمرير قد وكلت إليه رعاية « أموال المسلمين » فهي لهم ، وهم أصحاب الأمر والنهي فيها ، وكان يعنف معاوية ويقول له : « يا معاوية ... لقد أغنيت الغني وأفقرت الفقير ! » .

ومضى أبو ذر يحدث الأغنياء من الناس عن أن جمعهم للمال وحجبه عن مصارفه إنما هو « كثر » و « احتكار » وإذا كان القرآن قد وعد (الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) بعذاب أليم ، فلقد أخذ أبو ذر يخطب في مجتمعات الشام ويقول : « يا معشر الأغنياء : واسوا الفقراء .. بَشِّرْ الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ، واستمر في دعايته وإثارته هذه للفقراء ضد الأغنياء ، حتى تبلورت حركة جاهيرية عمادها الفقراء ، ثم استمر الأمر في التصاعد حتى أخذ هؤلاء الفقراء بزعامة أبي ذر ينفذون أفكارهم وآراءهم بأيديهم ، ويضعون تعاليم أبي ذر في التطبيق والممارسة رغماً عن سلطة الدولة وجهاز حكم معاوية بن أبي سفيان .. وابن الأثير يذكر ذلك بقوله : « مازال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وشكا الأغنياء مايلقون منهم » .

وسلك معاوية مع أبي ذر سبيل التهديد ، وقال له : يا أبا ذر « خير لك أن تنتهي عما

(١) د . محمد حسين هيكل . الفاروق عمر . ج ٢ . ص ٢٢٣ .

أنت فيه ! » ولكن الرجل لم يعبأ بهذا التهديد وقال لمعاوية : « والله لا أنتهى حتى توزع الأموال على الناس كافة ؟! » ^(١) ... وعند ذلك لجأ معاوية إلى حيلة أخرى أراد بها أن يفسد ما بين أبي ذر وبين أنصاره وحزبه من الفقراء ، وذلك فى محاولة لإيهامهم أن الرجل ممن يتلقى منه الهدايا والصلوات ، فبعث فى جنح الظلام أحد رسله يحمل ألف دينار لأبى ذر . وفى الصباح ، بعث إليه ثانية نفس الرسول يخبره أن العطاء لم يكن له ، وأنه قد أخطأ الطريق إليه ، ويقول له : يا أبا ذر « انقذ جسدى من عذاب معاوية ، فإنه أرسلنى إلى غيرك ، وإنى أخطأت بك » .. ولكن أبا ذر كان قد أنفق الدنانير الألف على الفقراء قبل أن يطلع عليها عنده الصباح ، فطلب من رسول معاوية التأخير ثلاثة أيام حتى يجمعها له ممن أخذوها من الفقراء ... وعندما عاد الرسول إلى معاوية بالقصة ، أدرك أن الرجل عَصِيٌّ على أن تنال منه هذه الأساليب ، وذلك لأن « فعله يصدق قوله » فى قضايا الأموال والثروات .

وعند ذلك قرَّر قراره على ضرورة إخراجه من الشام ، فكتب إلى أمير المؤمنين يصوِّر له حال أبى ذر مع الفقراء ، وكيف أصبحت الشام فى حالة ثورة حقيقية ، فقال : « إن أبا ذر قد ضيق على ... وقد كان كذا وكذا ، للذى يقوله الفقراء تجمع إليه الجموع ، ولا آمن أن يفسدهم عليك . فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله إليك ؟! » ... فاستجاب عثمان لرجاء معاوية مخافة الثورة - (الفتنة) - فى الشام ، ووافق على عودة أبى ذر ثانية إلى المدينة ، وهو الذى طلب منه الخروج منها .. وكتب إلى معاوية يطلب معالجة الأمر برفق ، فالثورة التى أشعلها أبو ذر على وشك الاندلاع ، فقال : « إن الفتنة قد أخرجت خطمها - (أنفها) - وعينها ، ولم يبق إلا أن تثب ، فلا تنكأ القرح .. وكفكف الناس ونفسك ما استطعت .. !! » .. وطلب عثمان من معاوية أن يجهز أبا ذر ، وأن يبعثه إلى المدينة بصحبة « مرافق » ؟! ..

واتخذ معاوية من أمر عثمان سبيلاً للانتقام من أبى ذر ، فأركبه بعيراً ضامراً على ظهره فراش يابس يدمى فخذى الراكب - « قنب يابس » - وأوصى به خمسة من الجنود الصقالب ذوى المهارة فى العدو ومسابقة الريح « يطيرون به ، حتى أتوا المدينة وقد تسلخت بواطن أفخاذها ، وكاد أن يتلف .. !! » .. وأراد كذلك أن يسىء إلى سمعة الرجل ونزاهته ، فأخرج أهله ليلحقوا به ، وفى متاعهم جراب ثقيل يشد يد حامله ، وجمع الناس

(١) انظر كتابنا (مجر اليقظة القومية) ص ٧٤ - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

ليروا أهل أبي ذر ، حتى يوههم أن في متاع الرجل أموالاً يحملها ذووه ، وقال للحضور : « انظروا إلى هذا الذي يزهد في الدنيا؟! ما عنده؟! » ولكن امرأة أبي ذر خاطبت الناس قائلة : إن ما نحمل ليس دراهم ولا دنانير ، ولكنها « فلوس » - (فكة) بلغة عصرنا - كان أبو ذر يعطيها لبيته من عطائه الذي يناله من بيت مال المسلمين .

وعندما لقي الناس أبا ذر بالمدينة ، وهو على حافة الموت من رحلته القاسية هذه ، قال له بعضهم : « إنك تموت من ذلك » ، ولكن الرجل أنكر عليهم هذه النبوءة بالنهاية القريبة ، وقال لهم إن طريق الجهاد لا يزال طويلاً أمامه : « هيات .. لن أموت حتى أنفي؟! » ثم ذكر لهم أن أمامه من المتاعب أكثر من ذلك الذي وقع به حتى الآن ..! (١)

في المدينة .. مرة ثانية :

أغلب الظن أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رغم غضبه على أبي ذر ، لم يكن راضياً عن الطريقة التي أخرج بها معاوية أبا ذر من الشام منفياً إلى المدينة ، تلك الطريقة التي كادت أن تهلك الرجل وتذهب بحياته .. ولقد حاول عثمان أن يخفف عن أبي ذر ، فاستضافه في داره عدة أيام ، وأحسن إليه فيها ، حتى استرد شيئاً من عافيته ... وكان عثمان يرجو ويأمل أن يفتح بذلك صفحة جديدة مع أبي ذر .. ولكن ذلك لم يحدث ، فلقد تجدد النزاع وبدأ الصراع من جديد ..

ففي أول جولة لأبي ذر في المدينة بعد عودته إليها رأى تلك المباني الفخمة التي استحدثها الأغنياء في شكل دور وقصور ، ورأى امتدادات المباني وقد صنعت « ضواحي » للعاصمة ، يسكنها هؤلاء الذين كانت حياتهم الجديدة موضع نقده الشديد . وعندما تحقق أبو ذر أن المباني الجميلة لقصور الأغنياء قد بلغت إلى مكان « جبل سلع » قفزت إلى ذاكرته نبوءة الرسول - عليه الصلاة والسلام - التي قال فيها لأبي ذر إن ذلك سيكون إيداناً باختلافه مع القوم ، وإنكاره عليهم نمط حياتهم الجديد ، وتوالى الأحداث التي ستفضي به إلى منفاه حيث « يموت وحده » .. فأخذ أبو ذر في الطواف على مجتمعات العاصمة ، محذراً قائلاً : « بَشِّرْ أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار؟! » (٢) .. وقرر الرجل أن

(١) الكامل ، في التاريخ . ج ٣ . ص ٥٥ ، ٥٦ ومروج الذهب ج ٢ . ص ٣٤٩ .

(٢) الكامل ، في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٥٥ .

يكرر بذل النصيح لأمير المؤمنين ، فدخل عليه يوماً « فجلس على ركبته » ، واخذ يحدث عثمان عن تلك النبوة التي طالما حذرت من صنيع بني أمية إذا اجتمع لهم الأمر وزادت قوة عصبيتهم ، وبلغ « ولد أبي العاصي ثلاثين رجلاً » لأنهم عند ذلك سيتخذون « عباد الله خولاً » - (خدماً) -^(١) .

ووجد عثمان أن أبا ذر قد عاد إلى عهده القديم ، وأنه قد أصبح يمارس في المدينة ما كان يمارسه فيها قديماً ، وما مارسه في الشام من الإثارة والتحريض ، ففتح معه الحديث عن ما أحدثه بالشام ، وقال له : يا أبا ذر « ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك ؟ » وعندما أخبره أبو ذر بدوافعه إلى موقفه هذا .. قال عثمان : « يا أبا ذر ، على أن أفضي ما على وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد والاقْتِصَاد وما على أن أجبرهم على الزهد .. » ... ولكن أبا ذر لم يرض بقول عثمان هذا ، فلم يكن الأمر في نظره أمر « زهد » لا يستطيع الخليفة أن « يجبر » الناس عليه ، وإنما كان أمر أغنياء يزدادون غنى وفقراء يتسبب في فقرهم هؤلاء الأغنياء ، وأمر حقوق هؤلاء الفقراء في أموال الأغنياء تتعدى مقدار الزكاة ، فقال لعثمان : إنني أرى « ألا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ومحسنوا إلى الجيران والإخوان ويصلوا القربات »^(٢) .

وتصادف في لقاء أبي ذر هذا مع عثمان أن أحضرت إلى عثمان أكياس النقود التي أخذت من تركة عبد الرحمن بن عوف الزهري ، وكانت عظيمة بلغت من الكثرة حداً جعلها تحجب الرؤية بين عثمان وجلسائه .. ودار الحديث من حول هذه الثروة التي جمعها ابن عوف ، ومدى تطابق سلوكه هذا مع السلوك النموذجي لصحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ... وانحاز عثمان ومعه « كعب الأحبار » إلى صف الدفاع عن عبد الرحمن بن عوف ، لأنه كان يؤدي فريضة الزكاة « ومن أدى الفريضة فقد قضى ما عليه » .. واعترض أبو ذر على موقفهم هذا ، وعندما آمن « كعب الأحبار » على قول عثمان : إن الله قد أعطى لابن عوف خير الدنيا والآخرة ، فقال : « صدقت يا أمير المؤمنين » ، غضب أبو ذر ، وتحامل على آلامه ، ورفع عصاه فضرب بها رأس « كعب الأحبار » وقال له : « يا بن اليهودي ، تقول لرجل مات وترك هذا المال : إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة !؟ وتقطع على الله بذلك !؟ وأنا سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : ما يسرني أن

(١) مروج الذهب ج ٢ . ص ٣٤٩ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ . ص ٥٦ .

أموت وأدع ما يزن قبراًطاً؟! فغضب عثمان من أبي ذر ، واسترضى خاطر كعب الأحبار ، وطلب منه التنازل له عن ضرب أبي ذر له ، ففعل .. ثم طلب ، غاضباً ، من أبي ذر أن يغادر المدينة ، قائلاً له : « وارِ عني وجهك !! .. »

« فقال : أبو ذر : أسير إلى مكة ؟ »

قال : لا والله ..

قال : فتمنعني من بيت ربي أعبده فيه حتى أموت؟!

قال : أي والله .

قال : فألى الشام؟

قال : لا والله .

قال : البصرة؟

قال : لا والله ، فاختر غير هذه البلدان .

قال : لا والله ما أختار غير ما ذكرت لك ، ولو تركتني في دار هجرتي (المدينة) ما

أردت شيئاً من البلدان ، فسيرني حيث شئت من البلدان .

فقال : فإني مسيرك إلى الربذة ..^(١)

ورواية المسعودي هذه تختلف مع ابن الأثير.. ففيها أن عثمان هو الذي حدد لأبي ذر مكان منفاه ، أما ابن الأثير فإنه يمثل وجهة النظر التي ترى أن أبا ذر هو الذي اختار لنفسه هذا المكان ، وهو الذي « نفي نفسه إليه » احتجاجاً على الأوضاع التي ثار عليها .. وملايسات القضية وقرائن أحوالها تشهد لرواية المسعودي ضد ابن الأثير . وذلك لأسباب منها :

أولاً : إن تسلسل الأحداث التي جرت بين أبي ذر وعثمان في المدينة أولاً ، وفي الشام مع معاوية ، ثم في المدينة ثانياً .. كلها تحكي أن أبا ذر كان يجر - وأحياناً بالقوة القاهرة - على مغادرة المكان الذي يمارس فيه الموعظة والإثارة والتحريض .

وثانياً : إن شخصية أبي ذر النضالية ليست بالتي تنسحب من بين الناس إلى مكان منعزل في الصحراء ، حتى ولو كان هذا الانسحاب تعبيراً عن الاحتجاج والغضب والرفض لنمط الحياة الذي أخذ يسود في ذلك الحين .. فلقد كان الرجل ولوعاً

(١) مروح الذهب ج ٢ . ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

بجواهر الفقراء ، كما ولعت به هذه الجواهر.

وثالثاً : إن « الربذة » كانت قرية معزولة من قرى المدينة ، ولم تكن الحياة بها مرغوبة ولا محبوبة ، حتى لزاهد مناضل كأبي ذر .

ولقد روى ابن الأثير نفسه أن أبا ذر كان يخشى على نفسه من العيش في « الربذة » أن يرتد - بفعل بيئتها - أعرابياً قد انسلخ عنه التطور الذي ألحقه الإسلام بعقول الناس وحياتهم ، فكان يتردد على المدينة حتى يظل على صلة بحضارتها .. ويعبر ابن الأثير عن هذا الموقف بقوله : « وكان أبو ذر يتعاهد المدينة مخافة أن يعود أعرابياً ! » (١) .

* * *

ولقد تلقى أبو ذر قرار عثمان هذا ببشر يعبر عن التحدى .. وأخبر عثمان بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد تنبأ له بهذا المصير ...

ولقد أمر عثمان الناس في المدينة بتجنب أبي ذر حتى يغادرها ، وأن يتجافوه ، فلا يخرج أحد منهم لوداعه ، وأمر أحد أقاربه - مروان - أن يكون في صحبة أبي ذر وابنته حتى يوصلهم إلى مستقرهم الجديد . ولكن بعض الصحابة قد غضبوا من موقف عثمان هذا ، فخرج نفر منهم خلف علي بن أبي طالب ، وفيهم الحسن والحسين ، وعقيل بن أبي طالب ، وعبد الله بن جعفر ، وعمار بن ياسر - لوداع أبي ذر ، مخالفين بذلك أمر عثمان .. وعندما التقى ركب علي بن أبي طالب هذا بركب أبي ذر ، اعترض عليهم « مروان » فقال : يا علي ، إن أمير المؤمنين ، قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في مسيره ويشيعوه ، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك ... فحمل عليه علي بن أبي طالب بالسوط ، وضرب بين أذني راحلته ، وقال : تنحّ نحاك الله إلى النار ! ، ومضى مع أبي ذر فشيعة ، ثم ودعه وانصرف .. فلما أراد الأنصراف بكى أبو ذر تأثراً ، وهو يبصر غياب ركب ابن عم الرسول !! .

وذهب « مروان » فشكا إلى عثمان ما فعله به علي بن أبي طالب ، فغضب عثمان ، وشكا إلى من حضر مجلسه من المسلمين قائلاً : « يا معشر المسلمين .. من يعذرني من علي ؟! رد رسولاً عما وجهته له ، وفعل كذا؟! والله لتعطينه حقه !! » .. وذهب الناس

(١) الكامل في التاريخ ج ٣ . ص ٥٦ .

من عند عثمان إلى عليّ يخبرونه بغضبه عليه ، فوصف علي هذا الغضب بأنه « غضب الخيل على اللجم » . معللاً بذلك موقفه من القضية برمتها ، وكيف أن موقفه إنما هو موقف الناصح الأمين ، وفعله إنما هو فعل « اللجم » تمنع الخيل من الجموح ، فتحفظ للخيل سلامتها ! .
ويروى المسعودي قصة اللقاء العاصف بين علي وعثمان حول هذا الموضوع ، وهو اللقاء الذي اشتكى بعده عثمان من علي وقال : « إنه يعينني ويظاھر من يعينني » ... وحتى بعد أن تصالحا ، ظل عليّ على موقفه ، وقال لعثمان « ما أردت بتشيع أبي ذر إلا الله تعالى » (١) .

* * *

وأخيراً استقر المقام بالناثر الكبير والصحابي الجليل ، وأصدق الناس لهجة ومقالاً في « الربذة » منقاه الجديد والأخير ، ولم يعدم الأمر قافلة تمر فيلقاه ركبا لسمع منهم ويسمعون عنه ... فبنى « بالربذة » مسجداً ، وأخذ يتعيش من عطاء أجراه عليه عثمان بن عفان ، وعدة إبل منحها له ، ومملوكين جعلها لخدمته ... وهناك عاش من سنة ٣٠هـ حتى توفي في سنة ٣٢هـ ، محققاً بذلك نبوءة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما قال :
يرحم الله أبا ذر ، يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده ... ومحققاً بذلك أيضاً نموذج الإنسان المسلم الذي استطاع أن يوحد توحيداً نموذجياً ، ويمزج مزجاً رائعاً ما بين سلوكه العملي في الحياة والأفكار التي آمن بها والتي دعا إلى تطبيقها في هذه الحياة .

* * *

(١) مروج الذهب ج ٢ ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

- ٣ -

على بن أبى طالب

[٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ ٦٠٠ - ٦٦١ م]

ثورة الفكر الاجتماعى للإسلام

تمهيد

لا نعتقد ان بالامكان دراسة الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب ، ولا تقييم الجانب الثورى فى هذا الفكر ، الا فى ضوء الوضع الاجتماعى لهذا الإمام ، وهو الوضع الاجتماعى الوثيق الصلة بوضع الهاشميين الاجتماعى ، قياسا الى أوضاع غيرهم من «البطون»^(١) العشرة التى تتكون منها قبيلة قريش ، أى الاوضاع الاجتماعية لهذه «البطون» .. لا بعد الاسلام فحسب ، بل وقبيل ظهوره ، ذلك أننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا : إن الاوضاع الاجتماعية لهذه «البطون» كانت ذات تأثير كبير فى موقفها من دعوة الاسلام ، بمحتواها الاجتماعى المتقدم والمتعاطف مع الفقراء والعبيد وضحايا الربا الفاحش ، وكل المستضعفين فى الأرض ، أى مع الجماهير التى أراد الاسلام لهم ان يكونوا هم الأمة وهم الوارثون .. كانت المواقف الاجتماعية «لبطون» قريش العشرة ذات تأثير كبير على موقفها من الإسلام ، وأيضا كانت لها تأثيرات هامة على صراعات السلطة التى ظهرت بعد وفاة الرسول عليه السلام ، من حول منصب الخلافة والإمامة ، ومن تم كانت لها تأثيرات على موقف ممثلى هذه «البطون» من على بن أبي طالب وتولييه منصب الخلافة ، وايضا على موقفه الاجتماعى هو ازاء الثروات التى حازها ممثلو هذه «البطون» ، والمناصب التى تولوها ، والتغييرات التى أراد إحداثها عندما آلت اليه السلطة بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ..

ولما كان هذا الموضوع كبيرا ، وتلزم للاحاطة بمعالمه الرئيسية دراسة هامة وكبيرة ومقصورة عليه - وهو ما يخرج عن موضوعنا واطار بحثنا - فاننا نكتفى هنا بتقديم لمحة تكثف الفكرة التى نرى أن بحثها وتحديدها أمر ضرورى لفهم الاساس المادى الواقعى للفكر الاجتماعى والثورى عند أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وهذه اللمة تتمثل فى رؤيتنا

(١) البطن - فى اصطلاح الدراسات القبلية والعشائرية - هو الوحدة التالية - تارليا - للقبيلة ويابه فى التنازل «الفخذ» فالقبيلة تنقسم إلى بطون والبطن إلى أفخاذ .. الخ .. الخ ..

للسلطة العليا التي كانت تتربع على قمة النظام السياسي في شبه الجزيرة العربية عندما ظهر الإسلام في مكة .. أي - بتعبيرنا المعاصر - الحكومة القرشية التي اعترف العرب في شبه الجزيرة بتميزها وسيادتها .. وهي الحكومة التي احتكرت مناصبها ومسئولياتها وميزاتها البطون العشرة لقبيلة قريش .. أين كان الفرع الهاشمي - فرع الرسول عليه السلام وعلى بن أبي طالب - من هذه الحكومة ؟؟ .. وما وزن المسؤولية التي كان يتولاها إذا ماقيست بالمسئوليات الأخرى التي كانت تحتكرها باقي «البطون» ؟؟ وهو الأمر الذي يعكس الوضع الاجتماعي للفرع الهاشمي ، ومن ثم يلقي الضوء على طبيعة الفكر الاجتماعي الذي ساد في صفوف أبناء هذا الفرع ، لدى الرسول ، مثلًا في الفكر الاجتماعي الإسلامي المتقدم ، ولدى على بن أبي طالب ، وهو الموضوع الذي نعتد له هذه الصفحات ..

حكومة العرب قبل الاسلام

كانت هذه الحكومة تتألف من عشرة «وزراء» - إذا استعملنا مصطلحات عصرنا ، مع اعترافنا بالفوارق الكبيرة في المضامين - يمثل كل وزير منهم بطنا من «البطون» العشرة التي تتكون منها قبيلة قريش .. وأهم من ذلك فان التغييرات التي كانت تصيب هذه المناصب كانت منحصرة في تغيير الاشخاص ، أما اختصاص كل «بطن» من «البطون» بمسئولية محددة ، أي «وزارة» محددة ، فكان أمرا مستقرا ودائما ، لأنه مرتبط بوزن كل «بطن» من هذه «البطون» من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والحربية في محيط القبيلة القرشية العام ..

لقد كانت تتألف من عشرة «بطون» هي :

١ - هاشم : كان يمثله في الحكومة «العباس بن عبد المطلب» الذي كان يتولى منصب «سقاية الحجاج» الذين يحجون إلى الكعبة قبل الإسلام .. أي توفير الماء اللازم لشربهم ، والاشراف على توزيعه .

٢ - أمية : وكان يمثله في الحكومة «أبو سفيان بن حرب» وكانت مسؤوليته فيها هي القيادة الحربية لجيوش قريش في القتال ، اذ كانت عنده راية قريش المسماه «العقاب» .

- ٣- نوفل : وكان يمثله في الحكومة «الحارث بن عامر» وكانت مسؤوليته القيام على الاموال التي ترصدها فريش لانفاقات موسم الحج ، والتي يسمونها : «الرفادة» .
- ٤- عبد الدار : وكان يمثله في الحكومة «عثمان بن طلحة» وكانت مسؤولياته مرتبطة بالكعبة له سدانتها وحجابتها ، والقيام على دار الندوة ، التي كانت يومئذ بمثابة البرلمان .
- ٥- أسد : وكان يمثله في الحكومة «يزيد بن زمعة بن الأسود» وكانت مسؤوليته فيها «المشورة» ، اذ كان المرجع في الامور المشككة على هذه «البطون» .
- ٦- تيم : وكان يمثله في الحكومة «عبد الكعبة - أو عبد الله بن عثمان» ، أى «أبو بكر الصديق» كما اشتهر اسمه بعد ذلك - وكانت مسؤوليته فيها تقدير الديات والمغارم التي تلزم قريشا والتعهد بأدائها وتنظيم ذلك ، وكانوا يسمون هذه المسؤولية «الأشناق» ..
- ٧- محروم : وكان يمثله في الحكومة «خالد بن الوليد» وكانت مسؤوليته فيها القيام على الأموال المخصصة للحرب والقتال ، وكذلك قيادة الخيل والفرسان في الحرب وكانوا يسمون هذه المسؤولية «القبة والأعنة» ..
- ٨- عدى : وكان يمثله في الحكومة «عمر بن الخطاب» وكانت مسؤوليته فيها شبيهة بمسؤولية وزير الخارجية ، وكانوا يسمونها يومئذ «السفارة» .
- ٩- جمح : وكان يمثله في الحكومة «صفوان بن أمية» ، وكان مسئولاً عن «الايثار والازلام» ، يذهب القوم اليه كى يديرها ويستشيرها قبل اقدامهم على مهمات الامور ..
- ١٠- سهم : وكان يمثله في الحكومة «الحارث بن قيس» ، وكانت مسؤوليته «الحكومة» ، أى التحكيم ، وكذلك القيام على الاموال الموقوفة على الالهة التي يعبدونها ..

كانت هذه هي حكومة قريش ، التي مثلت أعلى سلطة عربية عرفتها هذه البقعة من شبه الجزيرة العربية عندما ظهر الاسلام ..

أين بنو هاشم من هذا البناء؟؟ :

وإذا كانت هذه هي المسئوليات الأساسية التي عرفتتها حكومة قريش ، والتي توزعتها « بطونها » ، حسب الوزن المادى والمالى والقتالى الذى اجتمع لكل « بطن » من « بطونها » ، فإننا نستطيع أن نقول : ان الفرع الهاشمى من قريش لم يكن يمسك بمسئولية من المسئوليات الهامة - ماديا واقتصاديا وحربيا - فى تلك الحكومة ، وان مسئولية «سقاية الحجاج» فى موسم حجهم لا تنهض كى توازى المسئوليات الاخرى التى كان يقبض اصحابها على رايات القتال أو ميزانياته ، أو أموال المغارم والديات أو السفارة الى الخارج حيث البلاطات والعروش فى القيصرية الرومانية والكسروية الفارسية .. الخ .. الخ ..

كان الهاشميون فقراء ، ومن ثم فلم تكن لهم المسئوليات الخطيرة ولا الهامة فى حكومة الأغنياء حكومة ملاً قريش وتجارها وملاك قوافل تجارتها وعبيدها ..

وعلى هذه الحقيقة ، ذات الدلالة الهامة فى موضوعنا تأتى الأدلة والشواهد الكثيرة ، والتي نكتفى هنا ببعضها ، من مثل :

١ - عندما أخذ الرسول الهاشمى يدعو بطون قريش ، بمكة فى بداية الاسلام ، الى تعاليمه ، انطلقوا يعارضونه من منطلق طبقى صريح وواضح لا لبس فيه .. فلقد كانوا يرون فى دعوته تلك طموحا ساسا واجتماعيا للقيادة ، ولبناء مجتمع جديد ، وكانوا يرون كذلك - وهو الأهم - ان انتساب محمد الى الفرع الهاشمى الفقير فى قريش يجعله غير جدير بتولى هذا المكان القيادى ، وتساءلوا ، من هذا المنطلق الطبقي : أليس الأحق بذلك غنى من الأغنياء فى شبه الجزيرة العربية ، وبالتحديد أحد العظماء فيها ، وخاصة : عظيم مكة «الوليد بن المغيرة» وعظيم الطائف «عروة بن مسعود الثقفى»؟!!

ولقد رد القرآن الكريم على هذا التساؤل الجاهلى بتقرير حقيقة اجتماعية ثورية وهامة ، تقول : ان هذا التمايز الطبقي الذى تؤمنون به ، وتجتهدون للمحافظة عليه ، وتريدون النبوة لعظيم من العظماء الذين اكتسبوا العظمة بمعاييرهم ومقاييسهم ، ان هذا النظام ليس ميزة تستحق المدح والتمسك بها ، بل هو سلبية من سلبيات الحياة الاجتماعية ، وبلاء أصاب الناس ، وما ثمرته الا تسخير بعض الناس للبعض الآخر ، ومن ثم فان ميزاته وامتيازاته لا تصلح معيارا على أساسه يختار الله من يختار لدينه الجديد ..

جاء هذا التساؤل الجاهلى ، ووقع عليه ذلك الرد القرآنى فى سورة الزخرف ، المكية ، فى آياتها التى تقول : (وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟؟ ..) ، ثم استنكر القرآن تساؤلهم ذلك فقال : (أهم يقسمون رحمة ربك ؟) ثم حدثهم عن واقع مجتمعهم الطبقي ، وكيف أن قسمة الاموال فيه ، وما هى عليه من امتيازات للبعض دون البعض ، انما تمثل واقعا بائسا أثمر اذلال بعضهم للبعض الاخر ، فقال : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) ثم حدثهم عن ذلك الدين الجديد ، ونبيه ، وما يناضل المسلمون من أجل بنائه وكيف انه افضل من ذلك الواقع السئ والمنهار الذى يتمسكون به ، فقال : (ورحمة ربك خير مما يجمعون) .. (١)

فهو اذن منطبق طبقى ، كان يحتاج اصحابه على دعوة الاسلام ، لا بنقدها ونقض جوهرها ، وانما بان الداعى اليها من الفرع الفقير فى قريش ، وليس من طبقة الأغنياء الموسرين .

٢- كان فى مقدمة الأسلحة التى استخدمها اغنياء قريش ضد المسلمين ، سلاح المقاطعة الاقتصادية ، عندما كتبوا وثيقة بهذه المقاطعة ، وأودعوها فى جوف الكعبة ، كى تكون لها الحرمة والقداسة فلا يتقضها بطن من البطون ، وتم عزل المسلمين ، اقتصاديا واجتماعيا ، فى «شعب بنى هاشم» لا يبيعهم احد طعاما ولا شرابا ولا لباسا ، حتى اضطر الكثير منهم الى الهجرة للحبشة الى أن يحين حين فك ذلك الحصار . ولو كان الهاشميون اغنياء ، ولو كان الذين انخرطوا فى الدين الجديد موسرين لما كان هذا الحصار ولا تلك المقاطعة سلاحا مؤثرا ، ولكن الملاء من قريش استغلوا فقر انصار الدين الجديد كى يوجعهم بهذه المقاطعة وذلك الحصار ..

٣- وكما لم ير القرآن فى فقر الرسول عيبا ولا منقصة ، كذلك لم يرفى فقر الذين أسلموا عيبا ولا منقصة للدين الجديد ، بل لقد ابصر فى ذلك ميزة وامرا طبيعيا يتفق مع موقف العداء الذى يتخذه هذا الدين من النظام الاجتماعى الظالم الذى كان سائدا فى ذلك الحين ... وحاول القرآن كثيرا ان يبصر أعداء الدعوة الجديدة بأن منطلقهم الطبقي هذا ليس جديدا ، فلقد تبناه من قبل كل الذين ابصروا المخاطر من التغييرات الجديدة على

(١) سورة الزخرف : ٣١ - ٣٢ . وانظر كذلك تفسير البضاوى ص ٦٧٨ ، ٦٨٩ - طعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .

مصالحهم التي حازوها بالاستغلال ، ورغم ذلك فان تيار التغيير الاجتماعي الذي تبشر به الدعوة الجديدة سيتصمر كما انتصر من قبل عبر التاريخ .. قال القرآن ذلك لأغنياء قريش ، وذكر لهم أمثلة من التاريخ لعلهم يتذكرون .. فقص عليهم موقف اسلافهم من أغنياء قوم نوح عندما اعترضوا على دعوته لان جمهور الذين اعتنقوها هم من الفقراء والعامه ، لا من السادة والصفوة والاغنياء . فقال حاكيا قول أغنياء قوم نوح عندما قالوا له (قالوا أنؤمن لك واتبعك الأردلون؟!)^(١) .. وقال المفسرون إن مرادهم «بالأردلين» هم العامة والفقراء «الاقلون جاها وما لا»^(٢) . وحكى القرآن ، في موطن آخر ، قول هؤلاء القوم ، الصادر من منطقتهم الطبقى ، عندما قالوا لنوح (ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا ..)^(٣)

كما تحدث القرآن إلى أغنياء قريش عن إرادة أخرى ، غير إرادتهم ، تنطلق من منطق آخر غير منطقهم الطبقى ، وتريد ان تحل في المجتمع مقاييس جديدة هي على العكس تماما من مقاييسهم ، فاذا كانوا يريدون السيادة والقيادة لعظيم من العظماء والاغنياء . فان ارادة الله تريد العكس ، ان تكون السيادة والقيادة لهؤلاء الفقراء المؤمنين .. وان هذه الارادة هي التي ستتصمر ، لانها هي التي انتصرت عبر التاريخ ، فنطقهم الطبقى هو منطق فرعون ، أما منطق القرآن و ارادة المؤمنين به فانها تسترشد بعبرة التاريخ التي تمثلت في قول القرآن ، وهو يتحدث عن رفض منطق فرعون الطبقى ، عندما قرر قول الله سبحانه وتعالى : (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين)^(٤) .

٤ - بل لقد كانت معركة الاسلام الرئيسية ضد قريش ، حاربوا أنصاره بمكة ، وعندما أراد الرسول عرض الاسلام على القبائل الاخرى أقاموا من حوله الحصار والموانع والعقبات .. وعندما هاجر الى المدينة غزوه فيها وحاربه .. وعندما تمكن من الانتصار عليهم وتطويحهم لسلطانه التحق كثير منهم بصفوفه لانه لم يعد أمامهم الا الاختيار بين الاسلام وبين السيف ! .. كان هذا هو موقف قريش من الدعوة الجديدة ، وموقف الدعوة الجديدة من مصالح أغنياء قريش ، والمرة الوحيدة التي ذكر فيها لفظ «قريش»

(١) الشعراء : ١١١ .

(٢) تفسير البيضاوى ص ٥٢١ .

(٣) هود : ٢٧ .

(٤) القصص : ٥ .

في القرآن كان ذكره في معرض الإنكار عليهم اعراضهم عن الدين الجديد بينما هم يتمتعون ويرتعون في نعم الله الذي وفر لهم مال التجارة والامن من الاعداء (لايلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) (١) .

فهو اذن منطلق جديد ، وثورى ، يتصر به القرآن للعامة والجمهور والمجموع ، ويعلن ان السيادة والقيادة لهم ، وان لهم الإمامة ، ولهم ميراث طيبات هذه الحياة ..

وكل ذلك - وغيره اكثر منه - يؤكد ان الفرع الهاشمي الذي انبعثت منه انوار الدعوة الجديدة لم يكن الأكثر مالا ولا الأعلى نفوذا ولا الأقوى سلطانا في مجتمع مكة عندما ظهر الاسلام .. وان وضعه الاجتماعي هذا كان مصدرا هاما لمعارضة الاغنياء لتلك الدعوة الثورية الجديدة ووقوفهم ضدها وضد تأثيراتها الاجتماعية على تراثهم ونفوذهم ..

* * *

ما بعد الرسول

ولكن الصراع السياسى والعسكرى والاجتماعى والفكرى قد انتهى . في شبه الجزيرة العربية ، بانتصار الدين الجديد وتوحدت هذه المنطقة تحت رايات الاسلام ، وخضعت لسلطان نبي من بنى هاشم ، الفرع الفقير في قريش ، والذي لم يكن سلطانه ملحوظا في حكومتها قبل الاسلام .. وترتبت على ذلك تغييرات اجتماعية جعلت من العبيد والرعاة والفقراء قادة يقودون الحروب ، ويؤمنون الناس في الصلاة ، ويجلسون للفصل في المنازعات كقضاة ، ويتولون الإمرة على الاقاليم ، ويروى الناس عنهم الأحاديث ويلتسمون عندهم علم الدين الجديد .. حدث ذلك وغيره من الآثار الاجتماعية الجديدة والثورية ، التي ليس هنا مكان الحديث عنها في هذه الصفحات .

ثم توفي الرسول عليه الصلاة والسلام .. وكان أبرز ابناء الفرع الهاشمي عندئذ على بن ابي طالب ، الذي كان يطمح الى منصب خلافة الرسول ، والذي كان يرى في نفسه ،

(١) قريش ١٠ - ٤ .

ويرى فيه عدد من الصحابة ، أو من فقراء الصحابة اذا شئنا الدقة ، الضمانة الاساسية لاستمرار المنهج الاجتماعى الذى شهدته شبه الجزيرة على يد دعاة الاسلام ، وأيضا الضمانة الأساسية كى لا يعود ملاً قريش وأغنياؤها ، الذين التحقوا بالاسلام عندما لم يجدوا طريقا لمقاومته ، كى لا يعودوا للامساك بالسلطة والسلطان من جديد تحت رايات الدين الجديد وأعلامه !؟ ..

كان على يطمح الى ذلك ، وتوهله لهذا الطموح مؤهلات كثيرة ، ليس مكان الحديث عنها هذه الصفحات .. ولكن قريشا - نعم قريش - كانت بالمرصاد ، فاجتمع رؤساؤها على اختيار أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وكان قبل الإسلام وريرا فى حكومتها ، يتولى فيها منصبا هاما - ومن بعده كان العهد الى عمر بن الخطاب - وكان هو الآخر وزيرا فى حكومة ما قبل الاسلام ، يتولى سفارتها الخارجية - ومن بعده عهد رؤوس قريش بالامر الى عثمان بن عفان - وهو من بطن أمية ذى السلطان العالى فى حكومة قريش الجاهلية - بينا استبعد حتى ذلك التاريخ ، على بن أبى طالب ، أبرز ممثلى الفرع الهاشمى فى ذلك التاريخ . وكان إخراج الخلافة من بيت النبوة - إبعادا لشبهة الوراثه والكهانة . حجة كثير من الذين حيدوا هذا الاختيار .

ولقد قالها عمر بن الخطاب صراحة لعبد الله بن عباس ، عندما حدثه عن ان « قريشا » قد قررت أن لا تعطى السلطة للهاشميين بعد وفاة الرسول ، فكفى الهاشميين شرف النبوة الروحى والمعنوى؟! أما السلطان السياسى والمادى والدينى فليدثر به قريش غير الهاشميين؟! .. قال عمر لعبد الله بن عباس : « ان الناس قد كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة ، وان قريشا اختارت لنفسها فأصابت ؟؟ »^(١) .

ونحن نعتقد أن نفرا من قريش ، قد مالوا بالخلافة عن على بن أبى طالب ، لأنهم كانوا يحشون من على نهجا اجتماعيا ثوريا ومتقدما - أو على الأقل كان هذا موقف قلته قليلة منهم لا يكون له المحبة ولا الولاء - ونعتقد كذلك ان هذا التيار القرشى القديم الذى يمثل هذا النفر من الاغنياء ، ومن سار فى طريقهم ، قد عجزوا عن ان يحققوا مطامعهم الاجتماعية والطبقية فى زمن أبى بكر وزمن عمر بن الخطاب ، لاسباب كثيرة ، ليس هذا مكان الحديث عنها ، ولكنهم قد حققوا مطامعهم الاجتماعية ، على حساب التعاليم

(١) د . محمد حسين هيكل (الفاروق عمر) ج٢ ص ٢١٢ طبعة القاهرة سنة ١٢٦٤ هـ .

الاجتماعية الثورية التي بشر بها الاسلام ، وعلى حساب جماهير الفقراء ، عندما تولى الخلافة عثمان بن عفان .. فلقد حدثت يومئذ التحولات الاجتماعية التي عارضها على وانصاره ، والتي استفاد منها أغنياء قريش القدامى ، ومن سار في طريقهم الاجتماعى ، وهى التحولات التي ثار عليها الناس حتى بلغوا في ثورتهم حد قتل الامام ، ثم فرضوا على بقايا رؤوس قريش مبايعة على بالخلافة كى يقوم بالتغيير لما وقع في ظل حكم عثمان بن عفان .. وحتى نصل الى الحديث عن التغييرات والافكار الاجتماعية عند على بن أبي طالب ، لا بد لنا من رؤية تلك الأوضاع الاجتماعية التي استحدثها الناس على عهد عثمان ، وهى التى ذكرناها في الفصل الخاص بأبي ذر الغفارى ..^(١) لأنها هى التى تفسر لنا الثورة عليها وفي ضوءها يمكن لنا أن نرى فكر على بن أبي طالب الاجتماعى في حجمه الطيبي وصورته الحقيقية ..

* * *

على يتصدى لتغيير هذا الواقع

ولقد كان صوت على بن أبي طالب في مقدمة الأصوات التى ارتفعت بالنقد والمعارضة لهذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية التى طرأت على المجتمع العربى الاسلامى على عهد عثمان بن عفان .. بل لا نغالى إذا قلنا إن صوت معارضته ونقده كان أعلى هذه الأصوات .. ومن ثم فإن حركة المعارضة والنقد ، تم الثورة ، ضد الأوضاع الجديدة قد اتخذت من على رمزا لها وقيادة تلتف من حولها كى تمارس الضغط والنقد والتجريح لأصحاب المصلحة الحقيقية في هذه الأوضاع التى طرأت على المجتمع في ذلك الحين .. حدث ذلك حتى قبل مقتل عثمان ومبايعة على بالخلافة . ومن هنا كانت الوقائع والأحداث التى سجلتها لنا مصادر التاريخ تحكى علاقة على بالثائرين على عثمان ، وموقف على من تصرفات عثمان ..

فعندما زحفت جموع الثائرين على ولاة عثمان والتغييرات الاجتماعية التى أحدثتها .. عندما زحفوا من الولايات - مصر ، والعراق ، واليمن ، والشام - على العاصمة المدينة - يطلبون التغيير ، ذهب هذه الجموع إلى على ، وكلموه ، وطلبوا منه ان يحمل مطالبهم إلى

(١) انظر الفصل الخاص بأبي ذر الغفارى في هذا الكتاب - وكان أبو ذر الغفارى من حرب على وشيعته .

عثمان ، تم يأتيهم بالجواب ، ويحكي على وقائع مقابلته لعثمان عندما دخل عليه فقال له : « إن الناس ورائي ، وقد استسفروني بينك وبينهم .. فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل .. وإن شر الناس عند الله إمام جائر . وإني انشدك الله أن لا تكون إمام هذه الأمة المقتول .. الذي يفتح عليها القتل والقتال .. ويث الفتن فيها .. فلا تكون لمروان - (بن الحكم) سيقه ^(١) يسوقك حيث شاء .. »

فطلب عثمان من علي أن يؤجله الثائرون وقتا من الزمن يغير فيه المظالم ويحجب فيه المطالب ويحقق ويمحص الشكايات ولكن علياً رفض التأجيل وطلب إليه التغيير الفوري لما بالمدينة من مظالم ، أما مظالم الأقاليم فأجل تغييرها هو الأجل الذي تصل فيه أوامر الخليفة إلى هذه الأقاليم .. وبعبارة (نهج البلاغة) . قال عثمان لعلي : « كلم الناس ان يؤجلوني حتى أخرج إليهم من مظالمهم ، فقال له علي : ما كان بالمدينة فلا أجل ، وما غاب فأجله وصول أمرك إليه .. » ^(٢)

وفي لقاء آخر بين علي وعثمان ينتقد فيه علي عثمان لميله لبني أمية ، وإطلاقه العنان لهم كي يستأثروا بخيرات الناس ويحتازوا حقوقهم ، وينهبه إلى خروجهم عن نهج الأمة الذي سار عليه أبو بكر وعمر ، وينكر أن يكون عثمان - في نهجه - مساويا لأبي بكر وعمر ، فيقول : .. أما التسوية بينك وبينها ، فلست كأحدهما؟! إنها وليا هذا الأمر فظلفا - (كفا) - أنفسها وأهلها عنه ، وعمت فيه وقومك عوم السابح في اللجة .. فحتى متى ، وإلى متى؟! ألا تنهى سفهاء بني أمية عن اعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم؟! والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان أثمه مشتركا بينه وبينك!!» ^(٣)

ويبدو ان عثمان قد ظن أن وراء ثورة علي ومعارضته أسبابا يتصل بعضها بجرمانه من الثروة التي يرتع فيها الامويون والملا من اغنياء قريش ، فاستدعاه يوما وعرض عليه « صرتان من ورق - (فضة) - وذهب » وقال له : « دونك خذ من هذا حتى تملأ بطنك ، فقد أحرقتني؟! .. ولكن عليا رفض وقال لعثمان : « إن كان هذا المال لك كنت أحد رجلين : إما آخذ واشكر أو أوفر واجهد .. وان كان من مال الله ، وفيه حق المسلمين واليتيم وابن

(١) السيقه - بفتح السين وكسر الباء المشددة وفتح القاف الذي يساق من الدواب .

(٢) (نهج البلاغة) ص ١١٨ ، ١٨٩ . طبعة « الشعب » القاهرة .

(٣) (شرح نهج البلاغة) ج ٩ ص ١٥

السبيل فوالله مالك أن تعطينيه ولا لى ان آخذه ! « فاحتد عثمان ، حتى لقد ضرب عليا بقضيب كان بيده !! وسكت على تم عاد إلى منزله وفد عزم على مقاطعة عثمان ، وقال : « الله بينى وبينك ان كنت أمرتك بمعروف أو نهيتك عن منكر »! (١)

ومن هنا نستطيع ان نفهم موقف على من الاحداث التى انتهت بقتل عثمان ، وتقييمه لهذه الثورة التى هاجم رجالها منزل الخليفة حيث قتلوه وهو يقرأ القرآن بعد أن حاصروه زمنا طويلا .. وليس أصدق فى التعبير عن موقف على من هذه الأحداث من قوله هو ذاته عندما يلخص القضية فى هذه الكلمات : « انه قد كان على الناس وال (عثمان) - أحدث أحداثا ، وأوجد للناس مقالا فقالوا ، ثم تقموا فغيروا .. » (٢)

أما عن حدث القتل ذاته ، وعلاقته به ، فإنه يتحدث عنه فيقول : « لو أمرت به لكنت قاتلا ، أو نهيت عنه لكنت ناصرا؟! » . أى أنه لم يأمر به ، ولم ينه عنه ، لأنه لو نهى عنه لكان ناصرا لعثمان على ما أحدث من أحداث .. ثم يقول : « وانا جامع لكم امره - (امر عثمان) - : استأثر فاساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ، ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع ! » (٣) .

هذا عن الموقف من عثمان وما أحدث وأحدث الامويون من تغييرات ..

وضد قريش

ونحن نعتقد ان موقف على ضد الفرع الأموى من قريش إنما هو جزء من موقفه العام ضد ملاً قريش واغنيائها ، أولئك الذين ناصبوا الفرع الهاشمى العدا منذ ظهر الاسلام ، وخاضوا ضده الحروب ، ثم تربصوا - حينما هزموا - حتى انقضوا على دولة الدين الجديد تحت رايته وأعلامه مؤملين أن يسلبوا هذه التجربة الثورية الجديدة مضمونها الاجتماعى المتقدم الذى اراد به الرسول أن يجعل الذين استضعفوا فى الأرض هم الأئمة والوارثين؟! .. ولذلك فاننا نلتقى كثيرا فى خطب على وأحاديثه بالشكوى من « قريش » .. فيقول مثلا عندما اختاروا عثمان للخلافة بدلا منه : « اللهم إني استعديك على قريش ومن اعانهم ،

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ١٦ .

(٢) نهج البلاغة ص ١٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٦ ، ٥٧ .

فانهم قطعوا رحمى ، وصغروا عظيم منزلى واجمعوا على منازعتى أمرا هو لى^(١) .
وعندما بويغ بالخلافة ، وعقد له عهدها أولئك الذين ثاروا على عثمان وسلطان
قريش ، تصدت قريش لسلطانه ، وتحركت من خلف الفرع الأموى ، تحت حجة الطلب
بدم عثمان وعن موقف قريش هذا يتحدث على فيقول : « مالى ولقريش !! والله لقد
قاتلتهم كافرين ، ولأقاتلتهم مفتونين ، وانى لصاحبهم بالامس ، كما أنا صاحبهم
اليوم ١٤ ..^(٢) ثم يكتب إلى اخيه عقيل بن أبى طالب فيقول : « .. دع عنك قريش
وتركاضهم^(٣) فى الضلال ، وتجوأهم فى الشقاق .. فانهم قد اجمعوا على حربى كاجماعهم
على حرب رسول الله قبلى .. »^(٤)

بل ان هذا العداء المستحکم بين الفرع الهاشمى - والممثل فى على يومئذ - وبين
قريش ، لم يكن ادراکه والحديث عنه مقصورا على الهاشميين ، فهذا عمر بن الخطاب
يشخصه بدقة عندما يتحدث عنه إلى عبد الله بن العباس فيقول : يا عبد الله ، انتم أهل
رسول الله وآله وبنو عمه ، فما تقول فى منع قومك منكم؟! قال (ابن عباس): لأأدرى
علتها ، والله ما أضمرنا لهم إلا خيرا .. قال (عمر) : .. إن قومكم كرهوا ان تجتمع لكم
النيوة والخلافة فتذهبوا فى السماء شمخا وبذخا .. ولعلكم تقولون : ان أبأ بكر أول من
أحركم .. أما أنه لم يقصد ذلك ، ولكن حضر أمر لم يكن بحضرته أحزم مما فعل ، ولولا
رأى أبى بكره لجلل لكم من الأمر نصيبا ، ولو فعل ما هناكم قومكم . إنهم ينظرون
إليكم نظر الثور إلى جازره ١٤ »^(٥) .

نعم .. إلى هذا الحد بلغت صراحة عمر فى التعبير عن العداء المستكين بين ملأ قريش ،
وبين الهاشميين ، حتى لقد فرر ان العلاقة بينها هى العلاقة بين « الثور وغازره » ١٤ . ذلك
أن الهاشميين - تحت أعلام الإسلام وبواسطته - قد أدالوا دولة قريش الجاهلية ، وكان سيف
على من أبرز السيوف التى طالما قطعت رقاب أشرف قريش الذين تصدوا لدعوة الاسلام
ودولته فى ساحات القتال ..

(١) المصدر السابق ص ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٠ .

(٣) التركاض - بمنع التاء وسكون الراء - الجرى والإسراع .

(٤) نهج البلاغة) ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

(٥) (شرح نهج البلاغة) ج ١٣ ص ٩ .

العزم والإصرار على التغيير الاجتماعي

ولم يكن على منجني - حتى على عهد عثمان وقبل توليه الخلافة - عداؤه للطبقة الجديدة التي احتازت الأموال ، وعزمه الاكيد - ان هو تولى أمور المسلمين - على تغيير هذا الواقع الطبقي الجديد ، والعودة إلى نظام المساواة الذي قرره الاسلام وطبقة الرسول ومن بعده أبو بكر.. ومن كلماته الشهيرة التي تعبر عن عزمه هذا قوله : « لو استوت قدماى من هذه المداحض - (المزائق) لغيرت أشياء؟! »^(١) وفي موقف آخر يبدى سخطه لاحتكار بني أمية لثروات الأمة ويتوعدهم قائلاً : « والله لئن وليتها لأنفضهم نفص اللحام الودام التربة »^(٢) أى لأزيلهم كما يزيل عامل اللحام التراب عن الحديد بواسطة النار!..

وعندما تحقق له ما أراد ، وبإيعه الناس بالخلافة ، أعلن ما يمكن ان نسميه - بلغة عصرنا - الثورة الشاملة ضد الأوضاع الاجتماعية والسياسية التي كانت محل نقده ومعارضته على عهد عثمان بن عفان .

١ - في السياسة : أعلن عزل عمال عثمان وولائه على الاقاليم .. ولم يتراجع عن ذلك عندما نصحه الناصحون وأشفق عليه المشفقون .. وهذا موقف شهير في كل كتب التاريخ لايحتاج إلى تقديم الادلة عليه ولا البراهين ..

٢ - وفي ميدان القواطع : كانت هناك الأرض التي جعلها عمر ملكا خالصا لبيت المال ، ثم جاء عثمان فأقطعها لاوليائه وأعوانه وولائه وأهل بيته ، وبصددها كان موقف على حازما وحاسما .. فلقد ألغى تصرفات عثمان هذه ، وقرر رد هذه الأرض إلى ملكية الدولة وحوزة بيت المال ، ورفض أن يعترف أو يقر التغييرات « والتصرفات العقارية » التي حدثت في هذه الأرض ، وقال عن هذا المال كلمته الحاسمة : « والله لو وجدته - (أى المال) - قد تزوج به النساء ، وملك به الإمام لرددته .. فان في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق؟! ..

ثم أعلن أن التمايز الذي رفع من لا يستحق ونخفض من لا يستحق قد جاء الوقت لتصفيته ، وان الحين قد حان لخفض الذين ارتفعوا ورفع الذين انخفضوا فقال : والذي

(١) (نهج البلاغة) ص ٤٠١ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٤ .

بعث محمدا بالحق إنه « لا بد أن يعود أسفلكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقن سابقون كانوا قصروا وليقصرن سابقون كانوا سبقوا؟! »^(١)

٣- وفي ميدان العطاء : أحدث على تغييرا ثوريا لعله كان من أخطر التغييرات الثورية التي قررها ، والتي اراد بها العودة بالمجتمع إلى روح التجربة الثورية الاسلامية الأولى.. بل لعل هذا التغيير ان يكون هو الموقف الذي جعل العديد من القوى والاطراف تجمع أمرها وتوحد صفوفها وتتصدى لمحاربتة ، لأنها قد رأت في موقفه هذا نذير خطر يهدد امتيازاتها الطبقية والاجتماعية بالزوال ..

ذلك ان النظام الذي كان قد استنه أبو بكر ، زمن حكمه فيما يتعلق بالعطاء - والعطاء هو نظام قسمة الأموال العامة بين الناس ، جنودا كانوا أم غير جنود - كان قائما على فلسفة التسوية بين الناس في قسمة الأموال بصرف النظر عن دور الفرد في النضال - سابقا - مع الاسلام أو ضده ، وبصرف النظر عن القبيلة العربية التي ينتمى إليها ، وسواء أكان من أصل عربي أو كان من الموالي .. الخ .. الخ ..

ولما جاء عمر بن الخطاب ، ووجد ان بيت المال قد أصبح راخرا بأموال و ثروات لم تكن به على عهد أبي بكر ، ألغى نظام التسوية بين الناس في العطاء ، واجتهد في ذلك رأيه ، ذلك ان الاسلام كدين لم يحدد شيئا من هذه الأمور ، والاسلام كدولة كان لا يزال في بداية الطريق ، فلم يكن لدى أهله تراث تشريعي في هذا المجال .. ورأى عمر أن تسوية أبي بكر في العطاء انما كانت موقفا وقفه أبو بكر لقللة المال يومئذ ، وأما وقد امتلأت خزائن بيت المال فان الغاء التسوية هو الموقف الأمثل ثم حدد المعايير التي على أساسها يكون التمييز بين الناس في العطاء ، فالسابقون إلى الاسلام ، وقريش ثم الاقربون من قريش ، يأتون في المقدمة ثم يكون الترتيب التنازلي في هذا الميدان ..

والأمر المؤكد - الذي نعتقه - ان عمر لم يكن يبغى إلا الخير من وراء هذا الاجتهاد الجديد الذي قرره ، وان هناك العديد من الاعتبارات التي دعتة إليه ، مثل الغائه نظام « المؤلفلة قلوبهم » ، وتصديه للمنافقين الذين كانت الدولة تغض الطرف عن نواياهم في فترات حياتها المبكرة .. الخ .. الخ . وهي اعتبارات وأسباب حتمت على عمر أن لا يسوى هذه الفئات بالسابقين إلى الاسلام في العطاء ..

(١) المصدر السابق ص ٤١ ، ٤٢ .

ولكن الأمر المؤكد كذلك ان هذا التمايز والتمييز فى العطاء قد افضى بالتبعية إلى بزوغ أوضاع طبقية لم يكن عمر يحسب حسابها ولا يريد لها . بدليل أنه قد عزم فى أواخر حياته على اعادة النظر فى هذا النظام الذى قرره ، وأعلن أنه ان عاش إلى العام القادم فسيعود بالمسلمين إلى نظام التسوية فى العطاء .. فروى لنا عنه « أبو يوسف » : « انه لما رأى المال قد كثر قال : لئن عشت إلى هذه الليلة من قابل - (أى من العام القادم) - لألحقن أخرى الناس بأولاهم حتى يكونوا فى العطاء سواء » .^(١) كما يروى « زين بن اسلم » عن أبيه قوله : « سمعت عمر بن الخطاب يقول : والله لئن بقيت إلى الحول لألحقن آخر الناس بأولهم ، ولاجعلنهم رجلا واحدا » .^(٢) .. وقوله : لو عشت من قابل لأخذت فضول أموال الاغنياء فرددتها على الفقراء ..

ولكن عمر لم يعيش حتى ينفذ عزمه ، بل اغتاله غلام المغيرة بن شعبة !؟ الذى كان يبكى لزوال دولة الفرس ويبيع اميرات البيت الكسرى فى سوق الرقيق !؟ .. ثم قتل أحد أبناء عمر قاتل أبيه ، ولم تتضح الابعاد الحقيقية لمؤامرة قتل أمير المؤمنين ، الذى كان قد قرر احداث تغييرات اجتماعية تناول بنية الحياة الاقتصادية من الاعماق ! ..

ثم كان عهد عثمان الذى كرس القانون الذى كان عمر عازما على الغائه ، ثم سار على دربه أشواطاً وأشواطاً .. حتى أصبح التمايز الطبقي نظاماً بشعاً ، بلغت بشاعته حدا جعل الناس يثورون عليه ، ثم انتهت ثورتهم بقتل عثمان وتولية على أميراً على المؤمنين ..

ومن هنا كان قرار على العدول عن تمييز الناس فى العطاء ، والعودة إلى نظام المساواة قراراً من أخطر قراراته الثورية ، لانه كان يعنى انقلاباً اجتماعياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من دلالات .. كما كان رد فعل الاغنياء - وفي مقدمتهم ملاً قريش وابنائهم - ضد على وقراره هذا بداية الثورة المضادة ضد حكمه ..

ولقد كانت هناك فلسفة اجتماعية تقف خلف موقف على هذا نستطيع أن نلمسها ونعيها اذا نحن أمعنا النظر فى كلماته التى يقول فيها : « ان الله ، سبحانه ، فرض فى أموال الاغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقيراً الا بما متع به غنى ، والله تعالى سألهم عن ذلك ! » .^(٣)

(١) (كتاب الخوارج) لأبي يوسف ص ٤٦ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٣ ق ١ ص ٢١٧ .

(٣) (نهج البلاغة) ص ٤٠٨ .

فهو يؤمن باشتراك الأمة في الثروة ، ويقرر ان جوع الفقير مصدره وسببه احتجاز الغنى
الثروة التي خلقها الله كي يشبع بها هذا الفقير؟! ..

ولقد كان قرار علي التسوية بين الناس في العطاء من القرارات الأولى التي أصدرها
عقب بيعته وجاء حديثه عنه في الخطبة التي خطبها في اليوم التالي لبيعته مباشرة ، وهي
الخطبة التي جاء فيها « .. الا لا يقولن رجال منكم غدا قد غمّرتهم الدنيا فالتخذوا العقار ،
وفجروا الانهار ، وركبوا الخيول الفارهة ، والتخذوا الوصائف الروقة - (الحسن) - ، فصار
ذلك عليهم عارا وشنارا ، إذا ما منعتم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم - (قيدهم) - إلى
حقوقهم التي يعلمون ، فينقمون ذلك ، ويستنكرون ويقولون : حرمتنا ابن أبي طالب
حقوقنا ! الا واما رجل من المهاجرين والانصار من أصحاب رسول الله يرى ان الفضل له
على من سواه لصحبته ، فان الفضل النير غدا عند الله ، وثوابه واجره على الله ، وأما رجل
استجاب لله وللرسول ، فصدق ملتنا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق
الاسلام وحدوده . فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، لا فضل فيه
لاحد على احد ، وللمتقين عند الله غدا أحسن الجزاء وأفضل الثواب . لم يجعل الله الدنيا
للمتقين أجرا ولا ثوبا ، وما عند الله خير للأبرار ، وإذا كان غدا - أن شاء الله فاغدوا
علينا ، فان عندنا مالانقسمه فيكم ، ولا يتخلفن أحد منكم ، عربى ولا عجمى ، كان من
أهل العطاء أو لم يكن ، الاحضر .. »^(١)

فنحن هنا بازاء موقف ثورى ، اجتهد فيه على لنفسه وللمسلمين ، وبما ان الاسلام -
دينا وتشريعا - لم يكن له موقف واضح ومقرر بالنصوص في هذا الموضوع - فلقد اتخذ فيه
أبو بكر موقفا .. ثم جاء عمر فاتخذ موقفا آخر .. ثم جاء علي فاتخذ هذا الموقف الجديد - وهو
الموقف الذى يعلن المساواة التامة بين الناس في العطاء ، سواء أكانوا عربا أم غير عرب ، وسواء
أكانوا من السابقين إلى الإسلام أم من الذين تأخروا في الدخول فيه .. والذى يلغى اتخاذ السبق
إلى الإسلام والفضل في الدين ستارا أو سبيلا لاحتياز الثروات والأموال ، والذى يدخل في
ديوان العطاء من لم يكن قد دخل من قبل فيه ..

وكما كان هذا الموقف الثورى أول قرارات علي عندما ولى الخلافة ، كانت معارضة
الاغنياء لهذا القرار أول معارضة حدثت لعلى في ذلك التاريخ .. وكما يقول أحد شيوخ

(١) (شرح - بيح البلاغة) ج ٧ ص ٣٧ .

المعتزلة ومؤرخيهم - أبو جعفر الاسكافي - : فلقد « كان هذا - (الأمر) - أول ما انكروه من كلامه .. وأورثهم الضغن عليه ، وكرهوا إعطاءه وقسمه بالتسوية » ..^(١) .. بل وثارَت بين المعارضين وبين على المناقشات والمجادلات حول هذا الموضوع إذ استنكر الاغنياء والاشراف ان يتساوا بالمولى وبمن كانوا غلمانا وارقاء عندهم بالأمس القريب؟! « فقال سهيل بن حنيف : يا أمير المؤمنين ، هذا غلامى بالأمس ، وقد اعتقته اليوم؟! فقال (على) : نعطيه كما نعطيك؟! فأعطى كل واحد منها ثلاثة دنانير ، ولم يفضل احدا على أحد » .^(٢)

ولقد كان في مقدمة الذين اعترضوا على موقف على هذا : طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم « ورجال من قريش وغيرها » .. بل لقد بلغوا في معارضتهم لقرار التسوية هذا حد نقض بيعتهم لعلى وعلان الحرب عليه ، تحت ستار الطلب بدم عثمان ، على حين كانوا هم الذين تقدموا الناس في الثورة على عثمان؟ ..

وازاء هذه المعارضة شن على بن ابي طالب حملة ضد هذا الفريق ، والقي عدة خطب أوضح فيها موقفه الفكري والاسس التي بنى عليها اجتهاده هذا .. فقال مثلا : « أما هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثره ، وقد فرغ الله من قسمته ، فهو مال الله وأنتم عباد الله المسلمون ، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا ، وعهد نبينا بين أظهرنا ، فمن لم يرض به فليتول كيف شاء ، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه .. »^(٣)

بل لقد دارت مناقشة مباشرة في مواجهة جرت بين على وبين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وهما اللذان قادا الحرب ضده - حول هذا الموضوع .. فقال لهما على : ما الذى كرهتما من أمرى حتى رأيتما خلافي؟ .. »

قالا : خلافك عمر بن الخطاب في القسم ، انك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا ، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله علينا بأسيافنا ورماحنا ووجفنا عليه بجحيلنا ورجلنا ، وظهرت عليه دعوتنا ، واخذناه قسرا قهرا ممن لا يرى الاسلام الا كرها .

(١) المصدر السابق ج٧ ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ج٧ ص ٣٨ .

(٣) المصدر السابق ج٧ ص ٤٠ .

فقال علي : أما القسم والاسوة ، فان ذلك أمر لم أحكم فيه بادىء بدء ! فقد وجدت أنا وانتما رسول الله يحكم بذلك ، وكتاب الله ناطق به ، وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .. وأما قولكما : جعلت فيثنا وما أفائتته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا فقدديما سبق الى الاسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم ، فلم يفضلهم رسول الله في القسم ولا آثرهم في السبق ، والله سبحانه موف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم ، وليس لكما ، والله ، عندى ولا لغيركما الا هذا !

فقال الزبير : فى ملأ من الناس - : هذا جزاؤنا من على ! فمنا له فى أمر عثمان حتى قتل فلما بلغ بنا ما اراد جعل فوقنا من كنا فوقه !! ..»^(١)

فقال علي : لما عاتبه بعض أصحابه على التسوية فى العطاء ، وطلب تمييز البعض ارضاء للخصوم - : «أأمرؤنى أن اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟! والله لا أطور - (أمر) - به . لو كان المال لى لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله ؟!»^(٢)

كانت هذه وقفة - بل تورة - على ضد التمايز الطبقي الذى استشرى ورسخ على عهد عثمان .. وهو الاستشراء والرسوخ الذى يتحدث عنه شارح (نهج البلاغة) «ابن أبى الحديد» ، فيقول : «فان قلت : ان أبا بكر قسم بالسواء ، كما قسمه أمير المؤمنين على ، ولم ينكروا ذلك كما انكروه أيام أمير المؤمنين على ، فما الفرق بين الحالتين ؟؟» .. ثم يجيب ابن أبى الحديد يقول : ان ابا بكر قسم محتذيا لقسم رسول الله ، فلما ولى عمر الخلافة ، وفضل قوما على قوم ، ألفوا ذلك ونسوا تلك القسمة الأولى ، وطالت أيام عمر ، واشربت قلوبهم حب المال وكثرة العطاء . وأما الذين اهتضموا فقنعوا ومرنوا على القناعة ، ولم يخطر لاحد من الفريقين ان هذه الحال تنتقض أو تتغير بوجه ما ، فلما ولى عثمان الأمر على ما كان عمر يجريه ، فازداد وثوق القوم بذلك ، ومن ألف أمرا شق عليه فراقه وتغيير العادة فيه ، فلما ولى أمير المؤمنين على أراد ان يرد الأمر الى ما كان فى أيام رسول الله وأبى بكر ، وقد نسي ذلك ، ورفض ، وتحلل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة ، فشق ذلك عليهم ، وانكروه واكبروه ، حتى حدث ما حدث من نفص البيعة ومفارقة الطاعة ..»^(٣)

(١) المصدر السابق ج ٧ ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) (نهج البلاغة ص ١٥١) .

(٣) (شرح نهج البلاغة) ح ٧ ص ٤٢ ، ٤٣ .

نعم .: كان هذا هو موقف علي - بل كانت هذه ثورة من الثورات التي فجرها في المجتمع العربي الاسلامي عندما ولى أمره - ولم تتن عزمه عن موقفه هذا تلك المخاطر التي لاحت أمامه في الشقاق الذي بدأه طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ثم في الحرب التي أشعلها ضده بعد ان نقضا بيعتهما اياه .. كما لم تشه عن موقفه هذا الحرب التي اعلنتها قريش - خلف الفرع الاموي بزعامة معاوية - ضده وضد سياسته الاجتماعية بل لقد ازداد استمساكا بفكره الاجتماعي هذا ، واصراراً على تطبيق روح الاسلام الداعية الى المساواة .. وحتى عندما جاءت الاخبار بان الاغنياء والاشراف الذين بايعوه في المدينة وفي الاقاليم قد اخذوا يتسللون الى الشام وينضمون الى جيش معاوية ، ظل مستمسكا بموقفه هذا المنحاز الى المساواة .. وفي هذا الصدد يجده يكتب الى «سهل بن الاحنف» الانصارى - عامله على المدينة - يقول : «.. أما بعد فقد بلغني ان رجالاً ممن قبلك يتسللون الى معاوية ، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ، ويذهب عنك من مددهم .. وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها ، .. قد عرفوا العدل ورأوه .. وعلموا ان الناس عندنا في الحق أسوة ، فهربوا الى الاثرة ، فبعدها لهم وسحقاً !!» (١).

وعندما بلغه أن عامله على «أردشير خرة» - مصقلة ابن هبيرة الشيباني - يفضل اهله على غيرهم في العطاء كتب اليه : «.. بلغني عنك أمر ان كنت فعلته فقد أسخطت الهك واعضبت إمامك .. ان حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء ..» (٢)

كما يكتب إلى الأسود بن قطيبة - صاحب جند «حلوان» : أما بعد ، فإن الوالى إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيراً من العدل فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء ، فإنه ليس في الجور عوض من العدل ..» (٣)

وعندما يولى امر مصر الى «الاشتر النخعي» يكتب في عهده فيقول : «.. وإياك والاستتثار بما الناس فيه أسوة فعما قليل تنكشف عنك اغطية الامور ، ويتنصف منك للمظلوم» (٤).

(١) المصدر السابق ج ١٨ ص ٥٢ .

(٢) (هيج البلاغة) ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥١ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٤٧ .

نعم .. كانت هذه سياسة علي بن أبي طالب ، موقفا أصيلا تمسك به ، ولم يرهب المخاطر الحقيقية التي تهددت سلطته بسببها ، وهي المخاطر التي أودت بسياسته ، بل وبحياته ، وهو الأمر الذي عبر عنه عبد الله بن العباس ، عندما كتب الى الحسن بن علي ، بعد موت علي والبيعة للحسن فقال : « .. واعلم ان عليا أبالك انما رغب الناس عنه الى معاوية لأنه اسى - (ساوى) - بينهم في الفء ، وسوى بينهم في العطاء فثقل عليهم ذلك .. »^(١)

على ان هناك حقيقة هامة في الفكر الاجتماعي الثوري لعلي بن أبي طالب لا بد من التنبية عليها ، وهي ان الرجل لم يتخذ موقفه الثوري هذا ضد جمع الثروة واحتيازها تحت تأثير الزهد في الدنيا والرغبة عن نعيمها - كما قد يظن البعض - فالرجل كان من أنصار أن يجعل الانسان لنفسه حظا طيبا من طيبات هذه الحياة ، بل وان تظهر آثار نعم الحياة على الناس ، فهو القائل : « .. ولير عليك أثر ما انعم الله به عليك .. »^(٢) كما كان عدوا للفقركارها له مدركا للأخطار التي يتهدد بها حياة الناس .. وذلك الأمر يتجلى في كلماته التي يقول فيها : « ان الفقر (هو) الموت الأكبر . الفقر يخرس الفطن عن حجته » وعن الفقر تحدث إلى ابنه محمد بن الحنفية فقال : يا بني ، اني اخاف عليك الفقر ، فاستعد بالله منه ، فان الفقر منقصة للدين ، مدهشة للعقل ، داعية للمقت .. » وعن موقفه هو من الفقر كان دعاؤه الى الله : « .. اللهم صن وجهي باليسار - (الغنى) - ولا تبذل جاهي بالاقتار ، فاسترزق طالبي رزقك ، واستعطف شرار خلقك ، وابتلى بحمد من اعطاني ، وافتنن بدم من منعني ! » بل لقد بلغت عبقرية الامام في هذا المقام الى الحد الذي ادرك فيه العلاقة الوثيقة بين حب الانسان لوطنه وبين ما يكفله هذا الوطن لاهله من حقوق مادية تيسر لهم فيه امور الحياة .. وهو ما نسميه الآن - بلغة عصرنا - « المضمون الاجتماعي والاقتصادي للوطنية » .. وعن هذا المعنى العميق تعبر كلمات الامام على الجامعة التي تقول : إن الغنى في الغربة وطن ، والفقر في الوطن غربة « !! ؟ » وان « المقل غريب في بلده .. »^(٣) !!

فهو موقف اجتماعي اذن .. وفكر منظم يستند الى فلسفة تؤمن بالمساواة بين الناس .. وليس بموقف الزاهد المحب للفقر الهارب من زينة الحياة الدنيا وزخرفها ، كما يتصور بعض الناس شخصية أمير المؤمنين ..

(١) (شرح نهج البلاغة) ج ١٦ ص ٢٣ .

(٢) (نهج البلاغة) ص ٣٥٩ .. من كلماته إلى « الحارث الهمداني » ..

(٣) المصدر السابق ص ٣٦٦ ، ٣٧٣ ، ٣٨٩ ، ٤٠٧ ، ٢٧٥ ، ٣٥٩ .

طبقات المجتمع ومكانها

بل إن هذا الموقف الاجتماعي الذي ألمحنا من خلال الحديث عنه إلى فكر الإمام على المتعلق بالتروة والمساواة بين الناس إزاءها ، ليس سوى جزئية من الجزئيات التي ينتظمها موقف عام وتصور كلي لدى الرجل إزاء المجتمع الذي حاول أن يقيم دعائه في ذلك التاريخ .. وهو تصور نستطيع أن نستشف قسماته وملاحمه إذا نحن أعمنا النظر في تلك الوثيقة الهامة التي كتبها إلى الأشر النخعي عندما ولاه على مصر ففينا نجد ، ضمن ما نجد :

- (أ) اعترافه بالواقع الذي يقسم المجتمع إلى طبقات ..
- (ب) وحديث عن العاملين بالأرض ، والموقف إزاءهم .
- (ج) ثم حديث عن طبقة التجار والصناع .
- (د) ثم حديث عن المساكين .
- (هـ) وأخيرا .. الحديث عن « الخاصة » ، والموقف الذي يجب على الوالي عندما يتعامل معهم ..

وفي كل ذلك نطالع ملامح واضحة لفكر اجتماعي متقدم نحلى به الإمام على في ذلك الوقت الموهل في التاريخ ..

١ - انقسام المجتمع إلى طبقات

وهو انقسام تحدث عنه الإمام على وأوضح معالنه بالتفصيل .. كما ذكر في ثناياه ما يرتبط ويتعلق بهذه الطبقات و « الفئات » .. فعنده أن من طبقات المجتمع وفئاته : الجنود والكتاب - والقضاة .. والعمال على الأقاليم والقائمون على شؤون جهاز الدولة .. والفلاحون الذين يدفعون الخراج عن الأرض مسلمون كانوا أم معاهدون .. والتجار وأهل الصناعات .. ثم أهل الحاجة من المساكين ، الذين يسميهم : الطبقة السفلى ...

وعنده كذلك ان هناك ارتباطاً بين هذه الطبقات والفئات يجعل من جميعها كلا متكاملا وجسما واحدا ، وان الرباط الذي يربطها ويحفظ توازنها هو العدل الذي يجب أن يتوافر لها من قبل الحكام ..

أما كلماته التي تحكى ذلك فهي التي يخاطب بها «الاشتر النخعي» فيقول: «.. واعلم أن الرعية طبقات ، لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها : جنود الله ، ومنها : كتاب العامة والخاصة ، ومنها : قضاة العدل ، ومنها عمال الانصاف والرفق ، ومنها : أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها : التجار وأهل الصناعات ومنها : الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة .. فالجنود حصون الرعية .. وسبل الأمن .. تم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج .. تم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب ... ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوى الصناعات ..» (١) .

٢ - الذين يفلحون الأرض

ولقد احتلت مكانة الطبقة التي تفلح الأرض وتستزرعها مكانا بارزا وهاما في الفكر الاجتماعى لعلى بن أبى طالب بل ان حديثه عنها ووصاياه بشأنها تجعلنا نقول : إن فكره الاجتماعى قد جعل مكان هذه الطبقة ابرز مكان وأهمه بالقياس إلى باقى الطبقات - فلقد كانت المجتمعات التي فتحت - في العراق والشام ومصر - مجتمعات رراعية بالدرجة الأولى ، وكان الخراج - ضريبة الأرض الزراعية - أهم مصدر من مصادر ثروة الدولة ، وكان المرتبطون بالأرض يمثلون الأغلبية العددية للسكان ، ومن هنا - مع فكر الرجل الاجتماعى المتقدم - كان المكان الهام والبارز لهذه الطبقة في فكره الاجتماعى .

فهو يطلب من واليه على مصران يرعاهم ويفقد امرهم ، لأن امر سائر طبقات المجتمع متوقف على أمرهم .. ويرسم له فلسفة تدعو إلى التعمير كوسيلة تثمر بالتبعية تحصيل ضريبة الخراج فالتعمير والاستصلاح أولا ، ثم التفكير بعد ذلك في تحصيل الخراج .. فيقول له : « وتفقدهم أمر الخراج بما يصلح أهله ، فان في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج واهله .. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم امره الا قليلا .. فان شكوا

(١) المصدر السابق ص ٣٣٧ .

ثقلا أو علة .. خففت عنهم بما ترجوا ان يصلح به امرهم .. فلا يثقلن عليك أى شىء خففت به المؤونة عنهم .. وإنما يؤتى خراب الأرض من اعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لاشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر!!» (١)

ثم يحدد لعمال الخراج وجباة الضرائب وظائفهم ، فهم ليسوا بمتسلطين ، وإنما هم القائمون على خزائن الأموال ، وهذه الخزائن إنما هى للرعية أصلا ، ومن تم فانهم « وكلاء الأمة » كما هم « سفراء الائمة » ، ولذلك فهو يدعوهم للانصاف ويقول لهم : « .. فانصفوا الناس من انفسكم ، واصبروا لحوائجهم ، اذا حل أجل خراجهم ولم يتيسر لهم الأداء .. » (٢)

وفيما يتعلق بسلوك الجهاز الحكومى القائم على جمع الضرائب وجباية الخراج ، يزخر الفكر الاجتماعى للإمام على بمجموعة من القواعد والوصايا التى ترسم العلاقة بين هذا الجهاز وبين الفلاحين ، وتحدد الحدود التى يجب ان لا يتعداها أهل هذا الجهاز ..

فهو يطلب من عامل الخراج ان لا يفزع الناس ولا يروعهم ولا يظهر لهم الكراهة .. وإذا دخل مكانا لجباية ضرائبه فليترزل بعيدا عن موضع أموال الناس ، ولا يذهب إلى مكان ثرواتهم إلا باذنهم ودعوتهم .. ولا يطلب خراجا إلا من يعترف راضيا بان لديه النصاب الذى يجب فيه الخراج .. وعند القسمة وتحديد نصيب بيت المال ، يقسم عامل الخراج ويدع الاختيار لصاحب المال ..

وفوق ذلك كله يقرر الامام على بان هناك حدا ادنى لمستوى المعيشة يلزم توفيره للانسان ، فلا يجوز الاستيلاء على شىء منه وفاء بدين أو خراج مستحق للدولة عند المواطنين ، وهذا الحد الادنى يتمثل فى : كسوة الإنسان ، صيفا وشتاء وادوات عمله فى الأرض ، بما فيها الدواب والعييد ..

ثم يعلن تحريم العقوبات البدنية ويمنع استخدامها كوسيلة للكشف عن الأموال التى يعتقد عمال الخراج انها مخبأة ومستورة لدى الناس .. ويقرر منع المصادرات على الاطلاق ، سواء أكان المواطن مسلما أم غير مسلم ، اللهم الا إذا تعلق الأمر بأدوات قتال يستخدمها البعض فى الاعتداء على الاسلام والمسلمين؟! ..

(١) المصدر السابق ص ٣٤٠ . ٣٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٢ .

وعن هذه المبادئ والقواعد والوصايا والقوانين يتحدث الامام على الى عماله على الخراج فيقول : « .. فأنصفوا الناس من انفسكم ، واصبروا لحوائجهم ، فانكم خزن الرعية ووكلاء الامة وسفراء الائمة ولا تحشموا - (تغضبوا) - أحدا عن حاجته ، ولا تجسوه عن طلبته ، ولا تتبعن الناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعملون عليها ولا عبيدا ، ولا تضربن احدا سوطا لمكان درهم ، ولا تمسن مال احد من الناس ، مصل ولا معاهد ، الا ان تجدوا فرسا أو سلاحا يعدى به على أهل الاسلام .. » (١)

وفي « بيان عام » كتبه وصية لمن كان يتولى أمر الخراج تحدث إلى عامل الخراج يقول : « .. ولا تروعن مسلما ، ولا تتجازن عليه كارها ، ولا تأخذ منه أكثر من حق الله في ماله ، فإذا قدمت على الحى فانزل بمائهم ، من غير ان تخالط ابياتهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار .. فتسلم عليهم .. ثم تقول : عباد الله ، ارسلنى اليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائل : لا ، فلا تراجع ، وان انعم لك منعم - (أى قال لك : نعم) - فانطلق معه من غير ان تخيفة أو توعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما اعطاك من ذهب أو فضة ، فان كان له ماشيه أو ابل فلا تدخلها الا باذنه ، فان أكثرها له ، فاذا اتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به .. ولا تنفرن بهيمة ولا تفرعنها ! ولا تسوون صاحبها فيها .. » (٢)

ثم يستطرد الامام على - في موطن آخر - فيحذر عمال الخراج من ظلم الرعية وخيانة الأمانة ، قائلا لهم ان « من استهان بالأمانة ، ورتع في الخيانة ، ولم يتره نفسه ودينه عنها ، فقد أحل بنفسه الذل والخزى في الدنيا ، وهو في الآخرة أذل وأخزى وإن أعظم الخيانة خيانة الامة ، وافظع الغش غش الائمة .. » (٣)

هذا عن الذين يفلحون الأرض من طبقات المجتمع .

(١) المصدر السابق ص ٣٣٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٠ .

٣ - طبقة التجار والصناع

أما اصحاب التجارات وأرباب الصناعات فلقد نبه الامام على عامله في مصر إلى أهمية دورهم ومكانهم في المجتمع ، فهم الذين يجلبون احتياجات الناس من مصادرها إلى حيث ييسرونها لمحتاجيها ، وهم الذين تقوم بهم وعليهم مرافق البلاد ، ومن ثم فإن على الولى أن يتفقد شئونهم ويرعى أحوالهم .. ولكنه يلفت نظر واليه إلى مافى هذه الطبقة من سلبيات وعيوب اجتماعية واقتصادية ، ففيهم يتفشى البخل والشح ، والرغبة في الاحتكار والاستغلال ، فعلى الولى ان يتصدى لمنع كل ذلك ومطاردة اصحابه ، بل والتنكيل بهم ، في غير إسراف؟! .. فيقول للاشتر النخعي : « .. ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات ، وأوصى بهم خيرا ، المقيم منهم والمضطرب بماله - (أى المتجول في البلدان) - والمتفرق ببدنه - (أى المتكسب بعمله اليدوى) - فانهم مواد المنافع . وأسباب المرافق ، وجلاها من المبادئ والمطراح ، في برك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، حيث لا يلتئم الناس لموضعها ولا يجترئون عليها .. فتفقد أمورهم بحضرتك.. ، وفي حواشئ بلادك .. وأعلم - مع ذلك - ان في كثير منهم ضيقا فاحشا ، وشحا قبيحا ، واحتكارا للمنافع ، وتحكما في البياعات ، وذلك باب مضرة للعامة ، وغييب على الولاة ، فامنع من الاحتكار ، فان رسول الله منع منه ، وليكن البيع بيعا سمحا ، بموازين عدل ، وأسعار لا تحجف بالفريقين : من البائع والمبتاع ، فن قارف حكرة - (احتكارا) - بعد نهيك اياه فنكل به وعاقبه ، في غير اسراف .. »^(١)

٤ - الطبقة السفلى

ثم يوصى عامله على مصر خيرا بالطبقة السفلى من طبقات المجتمع ، وهم الذين لا قدرة لهم على الكسب والتكسب ومن ثم فان لهم - في فكر على الاجتماعى - حقوقا مقرررة ومقدسة في بيت المال .. وفي هذه الطبقة يعد على : العاجزين عن العمل « من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى » - أى أصحاب الامراض والعاهات المزمنة .. وكذلك اليتامى وكبار السن ، من « أهل اليتم وذوى الرقة في السن ممن لاحلية

(١) المصدر السابق ص ٣٤٢ .

لهم .. وكذلك الذين يمنعهم الحياء عن سؤال الناس رغم حاجتهم .. ولكل هؤلاء يطلب الامام على تخصيص قسم من أموال « صوافى الاسلام فى كل بلد » .. أى من الأموال العامة الخاصة بالدولة - ، وان يتفرغ لرعاية امرهم وبحث أحوالهم ، وعرض شأنهم على الولى قوم أهل ثقة « ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الحشية والتواضع ، فليرفع اليك أمورهم .. » .. بل ، واكثر من ذلك ، فان على الولى أن يخصص من وقته قسما يتفرغ فيه لأمر هذه الطبقة بعد أن يبعد عنهم جنوده وحراسه وأعوانه ، حتى يتحدثوا إليه فى قضاياهم واحتياجاتهم ومظالمهم دون رهبة ، وفى طلاقة لاتحجب ألسنتهم دونها « تعتعة » مصدرها الخوف والارهاب ، فيقول له : « .. وتجلس لهم مجلسا عاما ، فتتواضع فيه .. وتقعدهم عن جندك وأعوانك .. حتى يكلمك متكلمهم غير متعنت فانى سمعت رسول الله يقول فى غير موطن : « لن تقدر أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متعنت .. »^(١)

طبقة « الخاصة »

ونحن نعتقد ان كلمات الإمام على التى تحدث بها إلى عامله على مصر - الاشرت النخعى - هى من أكثر الكلمات حسما ووضوحا فى الدلالة على الموقف الاجتماعى المتقدم والفكر الثورى الذى كان لدى هذا الامام العظيم .. فهو يطلب من واليه ان يكون اعتماده دائما وأبدا على « العامة » دون « الخاصة » ، لان « العامة » هم « عماد الدين » ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء .. بينما « الخاصة » لا هم لهم الا مصالحهم الذاتية الضيقة ، ومطالبهم الانانية الفردية ، ثم هم يضعون أنفسهم فى خدمة كل ظالم بصرف النظر عن الدول والعهود !! .. ثم يطلب إليه ان يكون يقظا إلى اطماع طبقة « الخاصة » ، فهم يريدون « الاستئثار » بالأموال والاحتكار للمزايا ، و « التطاول » على الرعية ، وهم ينجحون دائما إلى « قلة الانصاف » .. ثم ينهاه عن أن يهبهم اهبات أو يقطعهم الاقطاعات ، أو يسمح لهم بتسخير الناس لديهم أو الغفلة عن محاولاتهم الاستئثار بالمنافع العامة ، مما يجلب لهم المنفعة ، وبسبب النقد والسخط على الدولة والولاية ؟! .. وعن كل ذلك يقول الامام على للاشرت النخعى : « .. ثم ان للولى خاصة وبطانة ، فيهم استئثار وتطاول ، وقلة

(١) المصدر السابق ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

انصاف في معاملة ، فاحسم مادة أولئك بقطع اسباب تلك الأحوال؟! . ولا تقطن لأحد من حاشيتك وحاميتك - (خاصتك وقرابتك) - قطيعة - (اقطاعاً ومنحه من الأرض) ، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك ، يحملون مؤونته على غيرهم ، فيكون مهناً ذلك - (أى منفعتة الهنيئة) - لهم دونك ، وعيبه عليك في الدنيا والاخرة .. وليكن أحب الأمور اليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية ، فان سخط العامة يحسف برضا الخاصة ، وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة .. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة في الرخاء وأقل معونة في البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالالحاف ، وأقل شكراً عند الاعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملات الدهر ، من أهل الخاصة ، وإنما عماد الدين ، وجماع المسلمين والعدة للأعداء ، العامة من الأمة ، فليكن صفوك لهم وميلك معهم !!»^(١)

ثم ينصح واليه ان لا يتخذ له وزيراً قد شارك في خدمة سلطة ظالمة من قبل فيقول له :
 .. ان شر ووزرائك من كان للاشرار قبلك وزيراً ، ومن شركهم في الآثام ، فلا يكون لك بطانة .. وانت واجد منهم خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفادهم ، وليس عليه مثل آصارهم - (ذنوبهم) - وأوزارهم ، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آتما على اثمه ..»^(٢)

هذا عن الطبقات والفتئات الاجتماعية التي أبصر فكر الامام على الاجتماعى انقسام المجتمع اليها ، ودور كل منها في الحياة العامة ، وموقفه هو شخصياً وتقديره لكل طبقة من هذه الطبقات .. ولقد رأينا كيف انحاز فكره وموقفه إلى «العامة» ضد «الخاصة» ، لأن العامة هم «عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للاعداء» بينما «الخاصة» أثقل مؤونة في الرخاء ، وأقل معونة في البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالالحاف ، وأقل شكراً عند الاعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملات الدهر ..!؟

(١) المصدر السابق ص ٣٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٦ .

المال العام

وقسمة أخرى من قسّمات الفكر الاجتماعي المتقدم للامام على تطالعنا في موقفه من حق الحاكم وحرّيته ازاء المال العام فنحن قد اشرنا من قبل إلى تلك الفلسفة التي وجدت طريقها إلى فكر عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، والتي تبيح للامام أن يتصرف لحسابه الخاص في « فضول الأموال » ، أى ما زاد عن أعطيات الناس ، والا فلم كان إماما إذا؟! غير اننا نلتقي في الفكر الاجتماعي لعلى بن أبي طالب بفلسفة هي على النقيض من تلك تماما .

فهو الذى رفض أن يعطى أخاه « عقيلاً » شيئاً من بيت المال ، رغم حالة الفقر الشديد التي كان عليها ، عندما أصبح « صبيانه شعث الشعور غير الألوان من فقرهم ، رفض على أن يعطيه « صاعاً » من قمح بيت المال ، لأنه رأى أنه بذلك سيكون « ظالماً لبعض العباد وغاصبا لشيء من الحطام؟! » .^(١)

وهو الذى رفض ان يعطى احد شيعة - عبد الله بن زمعه - شيئاً من بيت المال ، وقال له : « .. إن هذا المال ليس لى ولا لك ، وإنما هو فى المسلمين » وانه تمرة لجنى أيديهم وقتلهم وماتجنيه الأيدي لأفواه أصحاب هذه الأيدي لا للذين لم يشاركوهم العمل والجهاد!!^(٢)

فنحن هنا بازاء فلسفة متميزة ونظرة خاصة للمال العام لاستتحل التصرف فيه الا لاهله ، حتى ولو كان مصدر هذا التصرف هو أمير المؤمنين ..

وذلك .. مع ماتقدم من التصدى للأقريش وأغنيائها .. وعزل عمال عثمان الذين حولوا ثروة المسلمين العامة إلى « بستان » خاص لقريش ، وجعلوا مال الناس العام « طعمة » خاصة لأفواه قلة قليلة .. والتغييرات الاجتماعية لنظام التمايز والتميز الطبقي الذى ساد واستشرى زمن عثمان بن عفان ، رضى الله عنه .. والانحياز إلى طبقة « العامة » ضد « الخاصة » عند التقييم لطبقات الأمة الاجتماعية .. ان ذلك كله ، وكثير مثله ، يضع يدنا ويفتح عقولنا على صفحة مشرفة من صفحات تراثنا الفكرى تتمثل في الفكر الاجتماعي الثورى والمتقدم لعلى بن أبي طالب ، وهي صفحة تبعث فينا الفخر والاعتزاز ، وتستحق منا التأمل والدرس والاعتبار .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٩ .

(١) المصدر السابق ص ٢٧٤ .

- ٤ -

ذات النطاقين

أسماء بنت أبي بكر

[٢٧ ق. هـ - ٧٣ هـ / ٥٩٧ - ٦٩٢ م]

أم الفداء

في مكة ، أهم مدينة في وسط شبه الجزيرة العربية ، وقبل أن ينزل الوحي على محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - بخمسة عشر عاماً [٢٧ ق. هـ - ٥٩٧ م] ولدت أسماء بنت أبي بكر الصديق ..

كانت مكة تعيش في الجاهلية .. وكان أبو بكر تاجراً من تجار قريش .. صحيح أنه ليس من كبار الأثرياء في هؤلاء التجار ، ولكنه يمتاز على الكثيرين بمكانته المرموقة في مكة كلها ، فهو أبرز علماء مكة في الأنساب ، أي تاريخ القبائل والسلالات العربية ، وهو واحد من العشرة الذي يمثلون الفروع الرئيسية لقبيلة قريش ، والذين تكونت منهم حكومة مكة في ذلك التاريخ ..

ومن زوجته : قُتَيْلَة بنت عبد العزى أنجب أبو بكر ابنته أسماء ..

وعندما ظهر الاسلام كان أبو بكر أول الرجال الذين استجابوا لدعوة النبي ، عليه الصلاة والسلام ، بل ونشط في سبيل نشر دعوته ، التي بدأت سرية ، تعتمد على اقناع المعارف والاصدقاء المخلصين .. وكان من بين الذين أسلموا على يد أبي بكر الزبير بن العوام (٢٨ ق. هـ - ٣٦ هـ - ٥٩٦ - ٦٥٦ م) وكان شاباً في الثامنة عشرة من عمره ، فأصبح رابع الرجال الذين آمنوا بالدين الجديد ... وكذلك استجابت أسماء لدعوة الإسلام ، فكانت الثامنة عشرة في ترتيب الذين دخلوا في الاسلام .

وعندما أراد الزبير بن العوام أن يتزوج اختار الزواج بأسماء .

وبعد أن جهر الرسول بدعوته ، أخذت اضطهادات المشركين تتوالى وتتكاثر على القلة المؤمنة بالدين الجديد ، حتى اضطر الكثيرون منهم إلى الهجرة من مكة إلى الحبشة ، فراراً بعقيدتهم ، واتقاء للاضطهاد ، وحفاظاً على القلة المؤمنة من الفناء .. وكان الزبير بن العوام

من الذين هاجروا الهجرة الأولى للحبشة في منتصف شهر رجب من السنة الخامسة لظهور الإسلام .. لكن أسماء بقيت مع أبيها وإخوتها في مكة ، وعرفت منذ ذلك الوقت المبكر ماتفرضه العقيدة والجهاد على المرأة المؤمنة .. آلام الفراق ومعاناة المشاق ..

وبعد عدة أشهر عاد الزبير إلى مكة .. وكانت أسماء فخورة بزوجها ، فهو ، مثلها ، من السابقين إلى الإسلام .. وهو قد هاجر في سبيل عقيدته .. ثم هاهو قد عاد ممتلئاً بالحماس لدينه وللنبي وللجماعة المؤمنة ، يكرس مواهبه في الفروسية للقضية الكبرى التي جاء لها الإسلام .. وعندما شاع بمكة أن المشركين قد اختطفوا الرسول ليجسوه أو يقتلوه ، ورغم أن المؤمنين كانوا قلة مضطهدة ، فلقد رأت أسماء زوجها يخرج من داره ، شاهراً سيفه ، يشق صفوف الناس في شوارع مكة ، جاداً في إنقاذ الرسول من أيدي المشركين .. سعدت أسماء بنجدة زوجها وشجاعته .. وزادت سعادتها عندما تلقاه الرسول ، وأعلمه أنه بخير .. وأثنى على شجاعته ، ودعا له ، وسجل تاريخ الإسلام أن سيف الزبير بن العوام كان أول سيف خرج من غمده للدفاع عن الدين الجديد !..

* * *

لكن المشركين يوالون الاضطهاد ويصعدونه ضد القلة المؤمنة .. فيبدأ المسلمون هجرتهم إلى يثرب (المدينة) ، ويهاجر الزبير مع المهاجرين .. وتبقى أسماء مع قلة قليلة حول الرسول ، حتى يأذن الله له بالهجرة إلى الموطن الجديد .. فأبوبكر وأولاده ، وعلى بن أبي طالب هم الذين بقوا بمكة مع الرسول .. وكان لأسماء دور بارز في العمل الموكول إلى هذه الجماعة كى تتم هجرة الرسول سالماً ، بعد أن عزم المشركون على اغتياله !..

وكان الرسول قد اعتاد الذهاب إلى منزل أبي بكر عند الصباح وعند المساء ، فلما عزم على الهجرة ذهب إلى منزل أبي بكر وقت الظهر ، مغيراً وقت ذهابه المعتاد ، ومستفيداً من حر مكة الشديد الذى يخلى طرقاتها من المارة في مثل ذلك الوقت ، .. فسأله أبو بكر : ما الخبر؟ وماذا حدث؟ .. فأخبره بأن لديه سراً يجب ألا يطلع عليه من ليس أهلاً له .. فطمأنه أبو بكر بأن الحضور هما ابتناه : أسماء ، وأختها الصغرى عائشة .. فأفضى إليه الرسول نبأ الهجرة ، وبأنه سيكون رفيقه في الطريق إلى المدينة ..

ومن الباب الخلقى لدار أبي بكر خرج الرسول وصاحبه ، فسارا إلى جبل ثور ، جنزلي

مكة ، فدخلوا غارا بهذا الجبل ، عازمين على الإقامة فيه ليلى ثلاث حتى تهدأ الضججة التى
ستثيرها هجرة الرسول وإفلاته من مؤامرة الاغتيال ، وحتى يبأس المشركون من العثور عليه
فيكفون عن البحث عنه والمطاردة له ..

وكانت أسماء واحدة من ثلاثة نهضوا بعبء حماية الاسلام ، بحماية رسوله فى فترة
الاختباء بغار ثور .. فأخوها عبد الله كان يمضى النهار بأحياء مكة وأنديتها ، يسمع الحديث
الدائر عن هجرة الرسول وخطط المشركين للبحث عنه .. ثم يذهب فى المساء إلى الغار
ليقص الأخبار على الرسول وصاحبه .. وأسماء كانت تعد الطعام والماء ، وتتنظر حلول
الظلام ، فتخرج متخفية إلى الغار بالطعام والماء ... أما عامر بن فهيرة ، راعى غنم أبى
بكر ، فكان يقود غنمه كل مساء إلى الغار ، فيحلب منها لبناً يشربه الرسول وأبو بكر ..
وأيضاً - وذلك هو الأهم - ليقود الغنم ثانية ، وهو عائد بها ، فتمحو أرجلها من على الرمل
آثار أقدام أسماء وأخيها ، كى لا يتبعها المشركون فيكشفون رسول الله وصاحبه فى الغار ! ..

وفى مساء اليوم الثالث ذهبت أسماء إلى الغار بالطعام المعتاد .. وبطعام الطريق ومائه ..
وعندما نهض الرسول وأبو بكر للخروج من الغار متوجهين إلى المدينة ، اكتشفت أسماء أنه
لا يوجد رباط يربط « صرة » الطعام ، وفوهة قربة الماء ، فأسرعت يدها إلى حزامها -
(النطاق) - ، وشقته اثنين ، ربطت بأحدهما « صرة » الطعام ، وبالأخرى قربة الماء ..
وكان الرسول ينظر إليها ، ويتبسم ، ويقول : « أما إن لك به - يا أسماء - نطاقين فى
الجنة ! .. فسميت ، لذلك : « ذات النطاقين » ! ..

وحملت أسماء ، فى مكة ، بعد هجرة أبيها نصيباً كبيراً من عبء الأسرة المؤمنة فى محيط
كله شرك وعداء .. فأمها كانت مشركة ، قد طلقها أبوها ، وقاطعتها أسماء .. وجدها
لأبيها : أبو قحافة ، لم يكن قد أسلم بعد ، فلما علم بهجرة ابنه ، دخل على أسماء - وكان قد
ذهب بصره - ينتقد هجرة ابنه وتركه لبناته دون رعاية أو مال - وكان أبو بكر قد أخذ معه
ماتبقى من ثروته ، وهو خمسة آلاف درهم كى ينفق منها على تأمين هجرة الرسول - لكن
أسماء دافعت عن أبيها ، وأوهمت جدتها أن أبها قد ترك لهم مالاً كثيراً ، وجاءت بقطع من
الاحجار فوضعتها فى المكان الذى كان أبو بكر يضع فيه أكياس الدراهم ، وغطتها
بثوب ، وقادت الجد الأعمى حتى وضع يده عليها ، كى يرضى عن ولده ، وحتى
لا تبدوا ، مع اختها عائشة ، امامه فى موضع الفاقة والاحتياج لمشرك ، حتى ولو كان هذا
المشرك هو جدتها لأبيها؟! ..

وأمصت أسماء بمكة عدة أشهر.. وكانت حاملاً ، تنظر مولودها الأول .. ولما عزمت على الهجرة صحبت معها أختها عائشة ، وزوجة ابنيها أم رومان .. ووصلت إلى المدينة ولقيت أباهما ، وانضمت إلى الجماعة المؤمنة والمجتمع الإسلامي الجديد ، وهناك ولدت ابنها عبد الله بن الزبير ، فكبر المسلمون جميعاً تكبيراً اهتزت لها أرجاء المدينة ، فلقد ولدت أسماء أول مولود للمهاجرين في وطن الاسلام الجديد !..

* * *

وكان زوج أسماء ، مثله كمثل الذين هاجروا بعقيدتهم ، وفي سبيلها ، تاركين ما يملكون من متاع وأموال ، كان يعيش في المدينة فقيراً ، يجاهد لنشر الاسلام ، والدفاع عن مبادئه السامية ، ويجد ليكسب له ولزوجه ولطفله ضرورات الحياة .. وعندما انضمت أسماء إلى زوجها الفارس في المدينة لم يكن يملك سوى فرسه !.. فهضت للعمل مع زوجها كي تدلل أمام الأسرة مصاعب الحياة ، ومارست من الأعمال ما لم تتعود ممارسته من قبل .. فهي ترعى منزلها وطفلها .. وأيضاً ترعى الفرس : تسوسه وتعلمه وتسقيه وتنظفه .. فإذا تحقرت الدلو التي يشرب منها - وكانت من الجلد - أتت أسماء بالخيط والخرز فأصلحتها !.. وكانت تعد عجين الخبز ، ثم تستعين بجمادات لها من نساء الأنصار على خبزها .. ولقد أعطى الرسول للزبير قطعة أرض ، بها نخلات ، وكانت تبعد عن المدينة ستة كيلو مترات فكانت أسماء تذهب إليها مشياً على قدميها ، في الذهاب والإياب ، كي تحضر النوى ، حاملة إياه على رأسها ، ثم تقوم بدقه - (صحنه) - كي تعلق به فرس زوجها ، الفارس المجاهد في سبيل الإسلام !..

وكانت تعلم أن في طبع زوجها شدة .. وأنه يغار عليها أكثر من المعتاد .. فكانت تحافظ على ما يجب ، وتتجنب ما يكره ، حتى لقد اعتذرت يوماً عن عدم الركوب خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما أشفق عليها إذ رآها عائدة حاملة النوى ، فدعاها لتركب خلفه .. فلقد استحييت أن تصحب الرسول في موكب من الرجال ، وخشيت أن يؤذى ذلك مشاعر زوجها الغيور !..

* * *

ومضت الحياة بأسماء في المدينة ، فنمت هي وأسرتها بنمو المجتمع الإسلامي الجديد وغناه .. فأصبح لها من البنين والبنات : ثمانية ، فيهم الفرسان ، والعلماء والصالحون والصالحات : عبد الله ، وعروة ، والمنذر ، وعاصم ، والمهاجر ، وخديجة الكبرى ، وأم الحسن ، وعائشة ..

واقتربت من الحياة الفكرية في المدينة ، فسمعت حديث الرسول ، وروته عنه ، ورواه عنها آخرون .. وتفقهت في الدين .. وحفظت الحكمة ، وروت شعر الشعراء .. وظلت على عاداتها في الحشمة والوقار ، حتى بعد أن فتح الله على المسلمين البلاد ، وجاءت الى مدينتهم كنوز الفرس والروم ، فكانت لا تلبس من الثياب ما يشف عن الجسم أو يصف اعضائه .. وكانت تحرض بناتها وأهلها على السخاء والكرم والانفاق في سبيل الله ومساعدة المحتاجين ، وتحذرهم من البخل بدعوى عدم وجود الفائض !.. لأن من يؤجل الانفاق حتى يجد الزيادة لن يجدها !.. ومن ينفق فلن يشعر بالاحتياج !؟..

وفي المدينة جاءت إليها أمها - وكانت مشرقة - كى تزورها بعد سنوات من الهجرة والفراق .. وكانت أسماء في شوق لرؤيتها .. ولكنها امتنعت من استقبالها لأنها مشرقة ، وقدمت عقيدتها على عاطفتها ، حتى أرسلت إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - تستفسر منه عن حكم الإسلام ، وطلبت من اختها عائشة - زوج الرسول - أن تسأله في ذلك ، فجاءها الجواب بأن الاسلام لا ينهى عن مودة المخالفين في الدين ، وإنما ينهى فقط عن مودة الاعداء الذين يقاثلون المسلمين ويخرجونهم من ديارهم ، أو يعينون ويساندون الذين يخرجون المسلمين من الديار [لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاثلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين : إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون] .. فاستقبلت أسماء أمها ، وقبلت هداياها ، وبأدلتها المودة والمحبة ، رغم الاختلاف في الدين ! ..

* * *

ولأن الزبير بن العوام كان واحداً من فرسان الإسلام الذين خاضوا غزواته وفتوحاته ، كانت زوجته أسماء بنت أبي بكر ممن شهد ساحات القتال في الكثير من هذه الغزوات والفتوحات - فلقد كانت تصحب زوجها عندما يخرج للقتال ، مثلها في ذلك مثل

الكثيرات من النساء العربيات .. وكانت تسهم مع النساء في الكثير من أمور الحرب ، مثل إعداد الطعام ، وإمداد المقاتلين بلوازم القتال وأدواته ، ورعاية الجرحى ، وجمع جثث الشهداء وحفر القبور لهم ودفنهم ، وتدريب الصبية والفتيان على هذه الأمور ، إعداداً لهم كي يكونوا في الغد مقاتلين أشداء !

وفي موقعة « اليرموك » ، بالشام - (١٥ هـ - ٦٣٦ م) - صحبت أسماء ، كالعادة ، زوجها الزبير ، في الجيش الذي قاده أبو عبيدة بن الجراح [٤٠ ق. هـ - ١٨ هـ - ٥٨٤ م] .. وفي جولة من جولات القتال ضد الروم البيزنطيين ، رجحت كفة الروم في القتال ، فانخرقوا معسكر المسلمين ، وفيه مضارب خيام النساء العربيات المسلمات ، وفيهن أسماء .. وعندها شاركت النساء مع الرجال في القتال ، فحملن السلاح وخضن المعركة كالرجال ، وتحدث المؤرخون فوصفوا ذلك اليوم ، وقاتل النساء العربيات فيه فقالوا : « لقد قاتل نساء قريش ، بالسيوف ، قتالاً شديداً .. حتى سابقن الرجال » في القتال ! .. وتحدثت أسماء إلى زوجها الزبير : كيف جعلت الحبال التي تشد خيمتها شراكاً تصيد جند الروم البيزنطيين ؟ ! ..

وحتى في غير ميادين القتال ، لم تغب روح الفداء عن أسماء .. فعلى عهد معاوية بن أبي سفيان ، كان الوالى على المدينة سعيد بن العاص (توفى سنة ٥٩ هـ - سنة ٦٧٩ م) .. وكثر في المدينة اللصوص ، وخافهم كثير من الناس .. فاتخذت أسماء لنفسها خنجرًا ، لا يفارقها ، حتى لقد كانت تضعه تحت وسادتها عندما تنام ! ..

* * *

ولقد ارتبطت حياة أسماء بحياة ابنها الأكبر عبد الله بن الزبير [١ - ٧٣ هـ - ٦٢٢ م] أكثر من غيره من أبنائها .. فهو عالم .. وفارس .. وخطيب .. وأكثر من هذا فهو صاحب طموح ، يسعى ليضع فكره عن الشورى والحرية والعدل موضع التطبيق ... ولذلك كانت ثورته ضد بنى أمية [سنة ٦٤ هـ - سنة ٦٨٤ م] بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية .. ولقد بايعه الناس بالخلافة ، وجعل مكة عاصمة لدولته التي ضمت مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر أجزاء الشام ... فكان طبيعياً أن يكون مكان أسماء مع الطموح العظيم لابنها الأكبر عبد الله ، وأن تكون عوناً له على تحقيق هذا الطموح . وكانت ثورة عبد الله بن الزبير ودولته في صراع دائم وقاتل مستمر مع الأمويين ، الذين

ظلت دولتهم قائمة في الشام .. وفي عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان [٢٦ - ٨٦ هـ
 ٦٤٦ - ٧٠٥ م] وبفضل قائده الحجاج بن يوسف الثقفي [٤٠ - ٩٥ هـ - ٦٦٠ - ٧١٤ م]
 رجحت كفة بني أمية في القتال على كفة عبد الله بن الزبير ، فاستولوا على الأقاليم التي
 كانت تابعة له ، إقليمياً بعد إقليم ، ثم زحف جيشهم ، بقيادة الحجاج بن يوسف . على
 مكة ، وضرب عليها الحصار من كل الجهات ، ونصب أدوات القتال - (المجانيق) - التي
 ترمى بالحجارة على أنحاء مكة المختلفة كي يدكها على عبد الله بن الزبير وأنصاره ، وجعل
 أكثر هذه المجانيق على الجبال المطلة على مكة ، مثل جبل « أبو قيس » ، في الشرق ،
 وجبل « قُعَيْقَان » ، في الغرب ..

وكانت أسماء ضمن من ضرب عليهم الحصار مع ابنها عبد الله .. سيدة عجوز قد بلغت
 من العمر مائة عام !.. ذهب بصرها ، ولكنها احتفظت بعقلها اليقظ الواعي ورأيها
 الصائب الحكيم بل وبقيت لها أسنانها جميعاً ، ولا يزال شعرها أسود كما كان وهي في سن
 الشباب !..

ويوماً بعد يوم أخذت وطأة الحصار تشتد على سكان مكة ، وعلى أنصار عبد الله بن
 الزبير .. وأعطى الحجاج بن يوسف الأمان ، وبذل الوعود والاعراء لمن يتخلى عن عبد
 الله .. فأخذ الأنصار يتناقصون ، حتى لقد تخلى عن الثورة عدد من أقارب قائدها ، ودخل
 في أمان الحجاج : عروة بن الزبير ، شقيق عبد الله !..

وكانت المجانيق تمطر المدينة بالحجارة فتدكها دكاً .. فلجأ عبد الله إلى المسجد الحرام ،
 فلم ينجح المسجد ولا الكعبة من حجارة المجانيق !..

ولم يصمد مع عبد الله سوى نفر قليل .. وأوشكت الساعة الحاسمة ، واقتربت لحظة
 اقتحام جيش الحجاج لمكة ... فتطهر القائد الناصر عبد الله بن الزبير ، وصلى ، ولبس ثياب
 القتال ، ودخل على أمه أسماء ليلقاها ، ويعرض عليها الأمر ، يأخذ مشورتها ، ويودعها
 الوداع الأخير .. وعندما أحست بوقع أقدامه في حجرتها ، سألت :

- أعبد الله ؟

- نعم ، يا أماه !

فسألها عن حالها .. فشكت إليه اعتلالاً في صحتها .. فحلدتها - وهو يريد أن يدخل في
 موضوعه - عن أن في الموت راحة مما يشكو منه الإنسان ! .. ففاجأته بأن قالت له : إنها لا تود

أن تموت حتى تراه في حال من اثنين : إما أن يموت شهيداً ، فيصبح ذخيرة وقرباناً عند الله ، أو أن ينتصر على أعدائه فتقر به عينها ! .. فحدثها عن انصراف الأنصار من حوله ، وتحلى الناس عن مناصرته ، حتى لقد خذله الأهل والأقربون .. فقالت له : إن كل ذلك لا يغير من الأمر شيئاً .. فالقضية : هل هو مع الحق ، والحق معه ؟ أم أنه قد ثار وقاتل للباطل والشهوات ؟ ! .. فإن كان مع الحق ، وللحق ثار ، وفي سبيله قاتل ، فلا بد من الاستمرار على الطريق ، حتى ولو انصرف كل الأعوان ، وتخاذل كل الأنصار ، وخان الأهل والأقربون .. فإن لم يفعل ذلك كان مفرطاً في الحق الذي ثار لأجله ، بل وخائناً للأرواح التي صعدت والدماء التي سالت في المعارك التي قادها منذ تسع سنوات ! ..

قالت أسماء .. الأم التي بلغت من العمر مائة عام ، لأحب أبنائها إليها :

- يا بني ! لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها ، خوفاً من القتل ! عش كريماً ومتم كريماً .. وإياك أن تؤسر فيلعب بك صبيان بني أمية ! .. إنك ، يا بني ، أعلم بنفسك ، فإن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ! .. وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ! أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك ! .. ولا تنقل : إني كنت على الحق ، فلما ضعف أصحابي ضعفت .. فإن هذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين .. فكم خلودك في الدنيا ؟.. القتل أحسن ، يا بني ! ..

فلما اطمأن عبد الله إلى رأى أمه أسماء ، وتيقن من أنها لن تجزع لاستشهاده ، قال لها :
- هذا ، والله ، رأيي ، يا أماه ! .. ولكني أحببت أن أعلم رأيك ، والحمد لله لقد زدني بصيرة على بصيرتي ! .. ولقد جئت مودعاً ، فإني أرى هذا اليوم آخر يوم من الدنيا يمر بي ! ..

- إذن فهذا وداع ؟! .. فاقترب مني ، أشمم ريحك ، ولا تتبعد ! ..

فاقترب عبد الله من أمه أسماء ، فقبلها وعانقها .. فلما تحسست جسمه وجدته قد لبس درعاً تحت ثيابه ، فخافت أن يكون قد فعل ذلك مخافة الموت في القتال ، فقالت له :

- ما هذا صنيع من يريد ما تريد ! ..

- ما لبست هذا الدرع إلا لأشد من عزمك !

- إنه لا يشد من عزمي ! ..

فأراد أن يستوثق من أنها لن تجزع إن مثل خصومه بجثته بعد استشهاده ، فقال لها :

- يا أمه !.. إني اخاف أن يمثلوا بي بعد القتل !..

فكان جوابها :

- يا بني !.. وهل تتألم الشاة من ألم السلخ بعد ذبحها؟!.. انهض ، وانزع درعك ،
والبس ثيابك مشمرة؟.. فإن من آباءك : أبو بكر ، والزبير.. ومن امهاتك : صفية بنت
عبد المطلب !..

فنهض عبد الله ، فنزع عن جسده الدرع ، ولبس ثيابه مشمرة ، كما يصنع الأبطال
الذين ودعوا دنيا الفناء واستقبلوا حياة الشهداء .. وخرج من عند أمه أسماء بطاقة من الفداء
جعلته ، ومعه نفر يسير من صفوة أصحابه ، يقاتلون جيشاً جراراً ، اقتحم عليهم المسجد
الحرام ، وزحفت جحافلهم من كل الأبواب .. ودارت بين القلة القليلة والكثرة الكثيرة
معركة فريدة ، أبلى فيها عبد الله - وظهره مستند إلى الكعبة - بلاء حسناً .. ولم يستطع
أعداؤه ، رغم كثرتهم ، أن يصلوا إليه ، حتى سقط عليه حجر من المنجنيق ، فوقع على
الأرض ، فأسرعوا إليه ، واحترقوا رأسه ، وحملوه إلى الحجاج بن يوسف في يوم الثلاثاء
١٤ جمادى الأولى سنة ٧٣هـ أول أكتوبر سنة ٦٩٢م).

● ففرح الحجاج لهزيمة الثورة التي هددت الدولة الأموية تسع سنوات .

● وقرت عين أسماء بنت أبي بكر لأن ابنها قد عاش كريماً ومات كريماً .. على الدرب
الذي سار عليه الشهداء . « فضرة سيف ، في عز ، خير من لطمة ، في ذل ! » - كما قالت
أسماء - !..

* * *

وبعد أن اطمأنت الأم القوية الصابرة إلى أن ابنها لم يضعف في مواطن الشدة ، ولم
يتردد في لحظات الهول .. وانه قد مات ميتة الشهداء الأبطال .. أحست أن بينها وبين الموت
مهمة عليها أن تقوم بها حيال هذا البطل الشهيد ..

فرأس ابنها ، بعد أن ذهبوا به إلى الحجاج ، أرسله الحجاج إلى الخليفة عبد الملك بن
مروان ، بدمشق ، فأرسله هو الآخر كمي يطوفوا به في المدن والأقاليم .. أما الجثمان فلقد
صلبه الحجاج ، قرابة الشهر ، دون أن يسمح بدفنه !..

ولقد خرجت أسماء ، تقودها جواربها ، فذهبت إلى قصر الحجاج ، لتطلب منه أن يأذن بدفن الشهداء .. وعندما دخلت عليه ، لم ترهب سطوته ، ولم تخش قسوته ولا جبروته ، ودار بينهما هذا الحوار :

- يا حجاج ! - قتلت عبد الله؟! ..

- يابنة أبي بكر! .. إني قاتل الملحدين !

- بل أنت قاتل المؤمنين الموحدين !

- كيف رأيت ما صنعت بابنك؟! ..

- رأيتك أفسدت عليه دنياه ، وأفسدت عليك آخرتك ! ولاضير أن أكرمه الله على يدك ، فقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى اسرائيل! ..

ثم طلبت إليه أن يأذن لها في دفنه .. فرفض! ..

وعادت أسماء إلى منزلها تنتظر ، حتى جاء إذن الخليفة عبد الملك بن مروان بإنزال عظام القتلى من على صلبانها ، والسماح لذويها بدفنها .. فأخذت أسماء عظام ابنها عبد الله ، وقد تقطعت أوصاله ، وذهبت رأسه ، فغسلته ، وكفنته ، وصلت عليه ودفنته بعد مضي مايقرب من شهر على استشهادة؟! ..

وهنا أحست الأم أنها قد أكملت رسالتها ، فانتقلت إلى جوار ربها بعد أن دفنت ابنها بأيام! .. ماتت كريمة ، كما عاشت كريمة .. ولا تزال كلماتها لابنها تدوى في الآذان :

[يابني ! لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها ، خوفاً من القتل! .. فإن كنت على الحق ، وإليه تدعو ، فامض إليه ، فقد قتل عليه أصحابك ! فليس الضعف فعل الأحرار ولا أهل الدين .. القتل أحسن من الضعف ، يا بني! ..] .

- ٥ -

غيلان الدمشقي

[استشهد بعد سنة ١٠٦ سنة ٧٢٤ م]

الحياة : موقف ثوري

حياته في سطور :

* هو : غيلان الدمشقي - وفي اسم أبيه خلاف ، فقبيل هو : غيلان ابن مسلم ، وقيل غيلان بن مروان ، وقيل غيلان بن يونس .. وكان أبوه مولى من موالى أمير المؤمنين عثمان بن عفان .

* من أصل مصرى ، ويستفاد ذلك من وصف المؤرخين والكتاب له بأنه كان « قبطياً » ، وهى تعنى « مصرى » .

* كان فى الفقه من أصحاب الحسن البصرى (٢١ - ١١٠ هـ) واشتهر أمره كصاحب فرقة سميت « الغيلانية » نادت بأن الإنسان حر مختار فى تصرفاته وصانع لأفعاله .. وكان غيلان ثانياً اثنيين أظهرها هذا الرأى وأعلنه فى ظل الدولة الأموية - وأولهم « معبد الجهنى » ، ولقد قامت « الغيلانية » بنشاط سياسى هام ضد الأمويين ، وفى عاصمتهم دمشق بالذات التى كان يسكنها غيلان .

* أخذ غيلان مذهباً فى « القدر والحرية والاختيار » عن « الحسن بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب » (المتوفى سنة ١٠٠ هـ ٧١٨ م) .

* كان من الوعاظ والكتاب والخطباء البالغاء .. قرنه الجاحظ « بابن المقفع » ، و« سهل ابن هارون » ، و« عبد الحميد الكاتب » .. وعده ابن النديم فى الكتاب المترسلين بعد « عبد الحميد الكاتب » ، وقال : إن رسائله المجموعة تقع فى نحو ألقى ورقة - وهى قد ضاعت جميعها ! -

* استعان به « عمر بن عبد العزيز » فى تصفية الأموال التى صادرها من أسرته الأموية وردها لبيت مال المسلمين .. ودارت بينها مناقشات - فكرية حول الموقف من الجبر والاختيار .

عندما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥هـ) طلب اعتقال غيلان ، ففر من دمشق ، تم اعتقاله ، وأحضر له هشام الفقيه « الأوزاعي » كى يناظره ، فأفقى بقتله .. فصلبه هشام بدمشق على باب « كيسان » .

✦ فرح خصومه الفكريون بقتله ، لموقفه المعادى من نظام بنى أمية ، وكتب أحدهم - « رجاء بن حيوة » - ، إلى هشام يؤيد قتله إياه ، فائلا : « إن قتله أفضل من قتل ألفين من الروم » !؟

✦ كان أستاذه « الحسن بن محمد بن الحنفية » يتنبأ له بهذه النهاية عندما كان يشير إليه إذ رآه فى موسم الحج ويقول : أترون هذا ؟.. هو حجة الله على أهل الشام (الأمويين) .. ولكن الفتى مقتول !؟^(١)

حياته موقف ثورى :

غيلان الدمشقي .. إنسان إذا شئنا أن نلخص حياته ، والعطاء الذى قدمته نفسه فى هذه الحياة ، فى كلمات شديدة الإيجاز ، استطعنا أن نقول : إنه كان موقفاً ثورياً من كل سلبيات الحياة فى العصر الذى عاش فيه ..

فالرجل قد شهد قمة التحولات الاجتماعية والسياسية والفكرية التى صنعتها الدولة الأموية بالمجتمع العربى الإسلامى ، التى انتقلت به من محاولة ثورية اجتهد بها روادها الأول كى تحقق على الأرض فى شبه الجزيرة أحلام الإنسان العربى فى العدل والتحرر والانطلاق ، إلى مجتمع إقطاعى أصبح امتداداً للقيصرية البيزنطية فى دمشق الشام ، رغم الثياب الإسلامية التى حرص الأمويون على بقائها زاهية كى تستر ما تحتها من تحولات ومضامين غريبة عن روح الإسلام ..

(١) راجع فى ذلك كله : عيون الأخبار . لابن قتيبة ج ٢ ، ص ٣٤٥ طبعة دار الكتب المصرية . ومفتاح السعادة . لطاش كبرى زاده . ح ٢ . ص ٣٥ طبعة الهند الأولى ، والحيوان للجاحظ ج ٢ . ص ٧٥ بتحقيق عبد السلام هارون طبعة الحلبي بالقاهرة والفهرست ، لابن النديم ص ١٧٧ طبعة المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، ولسان الميزان لابن حجر العسقلانى ج ٤ ص ٤٢٤ طبعة الهند الأولى ، واللباب فى تهذيب الأنساب ، لابن الأثير ج ٢ . ص ١٨٦ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٦ هـ ، والملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٢٢٧ طبعة مكتبة الحسين بالقاهرة ، والمنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل ، لابن المرتضى ، اللوحات ٤٨ ، ٤٩ من المخطوط المصور بدار الكتب المصرية ، وتاريخ العرب : (المطلوب) لفيليب حتى وآخرين ج ٢ . ص ٥١٨ طبعة بيروت سنة ١٩٥٣ م .

والمعلومات التي بقيت لنا عن غيلان الدمشقي في المصادر الأصلية المعتمدة في تاريخنا وفي كتب الفرق والعقائد والطبقات ، لا تكاد تنق بكتابة ترجمة مهما تكن موجزة عن حياة هذا الإنسان ، ولكن موقفه الثوري المتميز الذي اتخذته زمن حكم الخليفة الأموي العادل « عمر بن عبد العزيز » (٩٩ - ١٠٢ هـ ٧١٧ - ٧٢٠ م) هو أبرز ما بقي لنا من مواقفه وأحداث حياته ، ومن هذا الموقف نستطيع في هذه الصفحات أن نقدم بقايا ملامح حياة هذا الإنسان .. تلك الحياة التي كانت بحق تجسيدا لموقف ثوري اتخذته غيلان من سلبات المجتمع الذي عاش فيه .

النظرية والتطبيق :

فالحياة العربية الإسلامية كانت قد أصيبت يومئذ بحالة من الانقسام بين الفكرية التي يعلن المجتمع إيمانه بها وبين السلوك العملي لكثير من الناس في ذلك المجتمع .. حتى حسب البعض أن الدولة الأموية ، وبالذات مؤسسها معاوية بن أبي سفيان ، ليسوا بأكثر من جماعة قامت بانقلاب ضد الفكرية السياسية الإسلامية تحت ستار الإسلام ، وأن القوم قد دخلوا الإسلام مرغمين عندما اكتسحهم سيله الجارف ، فأظهروا الانقياد ، وتجنبوا الفرصة لاقتناص السلطة ، كى تعود لهم السيادة كما كانت لفرعهم الأموي في الجاهلية .. كتب في هذا المعنى نفر من الذين عاصروا الحكم الأموي ، ومن الذين أرخوا من بعد ذلك لتلك الحقبة . (ولقد مر بنا في الحديث عن عصر أبي ذر الغفاري طرف من هذا الحديث) .

ومن هنا نستطيع أن نقول : إن غيلان الدمشقي عندما كان يكتب ويخطب ويعظ مطالباً الناس بأن يتطابق قولهم مع فعلهم ، وسلوكهم مع فكرهم ، ونظريتهم التي يؤمنون بها مع التطبيق الذي يمارسون تجسيده في الحياة ، إنه عندما كان يفعل ذلك إنما كان يتخذ موقفاً ثورياً من قسمة هامة من القسمة السلبية التي واجهها المجتمع في ذلك التاريخ .

فالرجل كان يشهد تفشي تلك الظاهرة ، وخاصة بين العلماء الذين يتصدون للهداية والإرشاد ، ولقد سمى زمانه هذا « زمن الهرج » ، ونصح من يريد السلامة قائلاً : « لا تكن كعلماء زمن الهرج ، إن وعظوا أنفوا ، وإن وعظوا عنفوا »؟! لأنهم كانوا يقولون كاملاً عنيفاً عندما يعظون الغير ، فإن توجه إليهم أحد بالوعظ والحديث عن سلوكهم هم أنفوا من سماعه ، فضلاً عن الانصياع لما يقول .. وفي كلمات بليغة يزيد غيلان هذا الأمر إيضاحاً فيقول : « إني رأيت قلوب العباد في الدنيا تخشع لأيسر من هذا ، وتقسو عند هذا ، فانظر إلى

نفسك ، أعبد الله أنت أم عدوه؟ ! فيأرب متعبد لله بلسانه ، معادله بفعله ، ذلول في الانسياق إلى عذاب السعير ، في أمنيته أضغاث أحلام يعبرها بالأمانى والظنون !!» (١) .

ويرتبط بموقف غيلان من هذه القضية ، قضية العلاقة بين الفكر والعمل (النظرية والتطبيق) موقفه من قضية الإيمان .. ماهيته ، وشروطه .. فلقد كان الأمويون يشجعون نوعاً من فكر « الإرجاء » يفصل بين الإيمان بالله وبين سلوك الإنسان المؤمن ، فيعتبرونه مؤمناً ذلك الذى لا يلتزم فى سلوكه التزاماً نموذجياً بتعاليم الإسلام ، إذ اعتبروا التصديق بالقلب كافياً فى ذلك ، دونما اشتراط لمطابقة السلوك العملى لهذا التصديق ..

ولقد شجع الأمويون فكر (المرجئة) هذا لأنه كان يدعو إلى ترك الجدل حول أعمالهم وتصرفاتهم ، ويحكم لهم بسلامة العقيدة رغم السلوك العملى الذى كانوا يخالفون به الكثير من قواعد الإسلام .

أما غيلان الدمشقي ، والتيار الفكرى الذى تبعه - « الغيلانية » - فلقد وقفوا فى الطرف الآخر من هذا الصراع ، وقالوا : « إن الإيمان هو : المعرفة الثابتة بالله عز وجل ، والمحبة له ، والخضوع والإقرار بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند الله تعالى » ، فليست المعرفة فقط هى العنصر الوحيد الذى إذا تحصل تحصل الإيمان ، وإنما لابد معها من : « المحبة . والخضوع والإقرار » ، أى السلوك والانقياد العملى لما آمن به الإنسان .. بل لقد رأوا أن الإيمان متجسد ومتحقق بالسلوك والتطبيق أكثر من تحققه بمجرد المعرفة ، لأن هذه المعرفة الأولى التى يصل بها العقل الإنسانى إلى تصور ذات الخالق ، ليست وليدة الدين والرسالات السماوية ، بل هى ثمرة النظر العقلى ، ولابد من قيامها وحدوثها كشرط للتصديق بالرسالة والرسول المرسلين من عند الله ، ومن هنا رأت « الغيلانية » أن « المعرفة الأولى اضطرارية ، فلذلك لم يجعلوها من الإيمان » (٢) .

الإمامة والسياسة :

وفى مواجهة النظام السياسى الأموى الذى حول نظام الحكم فى المجتمع العربى الإسلامى من حكم شورى ، المرجع فيه للأمة بأسرها ، والحق فى توليه لمن تتوافر فيه

(١) عيون الأخبار ج ٢ ، ص ٣٤٥ .

(٢) اللباب فى تهذيب الأنساب ج ٢ ، ص ١٨٦ .

الشروط ، إلى نظام وراتى شبه ملكى ، وقف غيلان الدمشقى ضد الأفكار التى ترى لقبيلة « قريش » ميزة « عرقية » تمتاز بها عن القبائل الأخرى ، فعخالف الذين يريدون حصر منصب الإمامة فى « قريش » ، كما انتقد السلوك الأموى الذى يجعل من البيعة الصورية التى يعفدها نفر من الناس لأمير من الأمراء أمراً كافياً فى انتقال مصير الأمة ومقاليدها إلى هذا الأمير ، فاشترط غيلان وأصحابه لصحة انعقاد البيعة بالإمامة حدوث إجماع الأمة على تنصيب هذا الإمام .. ولقد لخص أصحاب كتب المقالات موقفه الفكرى من هذه القضية الهامة بقولهم : إن رأيه فى الإمامة كان : « أنها تصلح فى غير قريش ، وكل من كان قائماً بالكتاب والسنة فهو مستحق لها ، ولا تثبت إلا بإجماع الأمة »^(١) .

* * *

عقيدة الجبر والاستبداد السياسى :

ومن أبرز التحولات الفكرية ، ذات الصلة الوثيقة بالتحولات السياسية ، التى صاحبت الحكم الأموى ، ظهور الفكر الجبرى الذى يرى أن الإنسان لاحول له ولا طول فيما يصدر عنه من أفعال ، وأن أفعاله هذه مخلوقة لله ، ومقدرة من الله للإنسان ، ومحكوم بها عليه سلفاً ، ومن ثم استخدمت هذه العقيدة فى تبرير التحولات السياسية التى بدت غريبة عن نهج المسلمين الأوائل ، والتخفيف من وقع المظالم وبشاعة التطورات الظالمة التى زخر بها المجتمع فى ذلك الحين .. وكان الجبر عقيدة لكثير من العرب فى الجاهلية فجاء الإسلام ليقرر للإنسان الإرادة والاستطاعة والحرية والاختيار .. ثم عاد الأمويون يشجعون الفكر الجبرى كى يبرروا به ما أحدثوه فى حياة الإسلام والمسلمين .

ومن هنا كان انحياز غيلان الدمشقى إلى فكر « العدل » ومناداته بأن الإنسان حر مختار ومريد مستطيع ، وخالق لأفعاله ، كان موقفه هذا موقفاً ثورياً يتناول بالنقد والهجوم قسمة من أهم القسيمات السلبية التى شهدتها مجتمعه فى ذلك الحين ، ولقد كان لغيلان و « الغيلانية » فى هذا المضمار فضل السبق فى الجهر بهذا الفكر والنضال من أجل سيادته فى وجه فكر الجبر والجبرين .. فكثير من الصحابة والتابعين كانوا يؤمنون بحرية الإنسان واختياره ، وغيلان نفسه قد أخذ هذا اللون من ألوان التفكير عن أحد أحفاد على بن أبى

(١) الملل والنحل . للشهرستانى ج ١ . ص ٢٢٧ .

طالب ، وهو «الحسن بن محمد بن الحنفية» ، ولكن غيلان كان ثانياً اتنين جهرًا بهذا لفكر وأعلمناه وناضلا من أجله ، وذلك عندما علت أصوات الجبر والجبرية بتشجيع من الأمويين ، وإذا كان معبد الجهني قد سبق غيلان بإظهار هذا الرأي ، فإن «الغيلانية» كانت أول فرقة تكونت من حول هذا الاتجاه .. ومن بعد غيلان سلك كثيرون نفس طريقه ، حتى تبلورت لذلك مدرسة فكرية كبرى هي مدرسة «المعتزلة» أهل العدل والتوحيد .. وهم الذين تعد «الغيلانية» تراثهم الأول في هذا الميدان .

ولقد دارت بين غيلان وبين عمر بن عبد العزيز حول هذه القضية ، قضية فعل الإنسان ، من خلقه؟؟ الإنسان؟ أم الله؟؟ مناقشات ومجادلات ، وفي إحداها بينه غيلان عمر بن عبد العزيز إلى أن القول بالجبر يفضي بصاحبه إلى نسبة «الجور» إلى الله ، لأنه عندئذ سيحاسب الناس على فعله هو ، وسيدفع بهم إلى ما هاهم عنه ، وسيكون مكلفاً لهم مالا طاقة لهم به .. «فهل وجدت يا عمر ، حكيماً يعيب ما صنع؟! أو يصنع ما يعيب؟؟ أو يعذب على ما قضى؟! أو يقضى ما يعذب عليه؟! .. أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهدى ثم يُضِلُّ عنه؟! أم هل وجدت رحيماً يكلف العباد فوق الطاقة؟! ، ويعذبهم على الطاعة؟! .. أم هل وجدت عدلاً يحمل الناس على الظلم والتظالم؟! وهل وجدت صادقاً يحمل الناس على الكذب والتكاذب بينهم؟! .. كفى بيان هذا بياناً ، وبالعمى عنه عمى ..!!»^(١)

وهو هنا يدخل إلى عمر بن عبد العزيز من مدخل «العدل الإلهي» لأن الرجل كان صاحب ضمير ديني شديد الحساسية والتقوى ، ومن هذا المدخل استطاع غيلان الدمشقي أن يضع يده في يد عمر بن عبد العزيز- رغم ما بينها من خلافات- في تنفيذ عدد من المواقف الاجتماعية في فترة حكم هذا الخليفة العادل للبلاد .

* * *

مصادرة ممتلكات الأسرة الحاكمة :

عندما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة ، أتيحت للقوى السياسية والاجتماعية المعارضة لنظام الحكم الأموي فرصة من نوع جديد ، فهذا خليفة أموي ، ولكنه يتحلى بخلق ديني

(١) المنية والأمل .. اللوحة ٤٨ .

وسلوك ذاتي يجعل بالإمكان التعاون معه في سبيل إصلاح كثير مما أفسد الأمويون ، ورفع بعض المظالم التي فرضها أسلافه وآبؤه ، والاتجاه بسفينة الحكم في اتجاه مخالف لما أراده أمراء هذه الأسرة الذين حكموا منذ معاوية حتى ذلك التاريخ .

ومن هذه الزاوية ، وفي هذا المناخ السياسي المتميز أدار « الخوارج » حواراً فكرياً مع الخليفة الجديد ، في فترة زمنية هي أشبه ماتكون « بالهدنة » بين فترتي قتال ، ولما لم يتفق الطرفان بسبب رفض الخليفة إعلان لعن آبائه ، رغم اقتناعه بظلمهم ، سمح لهم الخليفة بمغادرة العاصمة بسلاحهم إلى حيث يواصلون القتال ضد جيش الدولة !؟

ومن هذه الزاوية ، وفي هذا المناخ الجديد كتب غيلان الدمشقي إلى عمر بن عبد العزيز ، واستخدم في كتابته إليه كل أساليب التأثير التي اعتقد أنها كفيلة بدفع الخليفة الجديد إلى الاقتراب أكثر فأكثر من مواقع القوى المعارضة والتيارات المناهضة لمظالم الأمويين .. كتب إليه يقول له : « اعلم ، يا عمر ، أنك أدركت من الإسلام خلقاً بالياً ورسماً عافياً .. وربما نجت الأمة بالإمام ، وربما هلكت بالإمام ، فانظر أي الإمامين أنت؟؟ فإنه تعالى يقول : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا)^(١) ، فهذا إمام هدى ، ومن اتبعه .. وأما الآخر فقال تعالى : (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون) .. »^(٢) فكأنما هو يقول له : إنك الآن في مفترق الطرق ، وبوسعك أن تكون امتداداً ظالماً لنظام ظالم ، كما أن بوسعك أن تكون انقلاباً عادلاً ضد ذلك النظام الظالم ..

وكما مد عمر يده إلى الخوارج ، مدها إلى غيلان الدمشقي ، فرد على رسالته رداً إيجابياً ، وقال له : يا غيلان « أَعِنِّي على ما أنا فيه » ، وعلى الفور حدد غيلان لنفسه الميدان الذي يريد العمل فيه ، فطلب من الخليفة أن يجعله قائماً على رد « المظالم » والأموال المغتصبة من الأمة ، والتي كان الخلفاء والأمراء الأمويون قد احتازوها منذ علا نجمهم في خلافة عثمان بن عفان .. فقال غيلان الدمشقي للخليفة : « ولئن بيع الخزان ورد المظالم » ، فولاه هذه المهمة ، وعهد إليه بتلك المسؤولية^(٣) .

وكان حجم الثروات المصادرة كبيراً ، فكان فيها مثلاً « قطائع » (إقطاعيات) ورثها

(١) الأنبياء : ٧٣ .

(٢) القصص : ٤١ .

(٣) المصدر السابق : اللوحة ٤٨ .

الخليفة عن آبائه ، فردها إلى بيت المال ، وقال لمولاه « مزاحم » : « إن أهلى أقطعوني ما لم يكن لى أن آخذه ، ولا لهم أن يعطونه » وكان منها إقطاع « فذك » ، وكانت ملكاً عاماً للدولة منذ عهد الرسول حتى عصر معاوية ، الذى أقطعها مروان بن الحكم الأموى .. كما كان منها « حلى » زوجته وجواهرها ؟! .. كما كان منها كذلك ملابس حريرية فيها « جوارب من خز » ، وأدوات وتحف « مُنكَّلة »^(١) .. وكذلك الثروات والإقطاعات التى احتازها الأمراء والمترفون .. الخ .. الخ .. فكان غيلان الدمشقى يقف لينادى عليها لبيعها ، بل لقد حول عمله هذا إلى ساحة شعبية يلتقى فيها عبارات الإدانة للظلم والظلمة ، وإلى مظاهرة سياسية واجتماعية تعرى نظام الحكم الأموى من ثيابه الزائفة التى حاول بها ستر الكثير والقبيح من العورات .. كان ينادى على بضاعته ، ويدعو إليها الناس ويقول : « تعالوا إلى متاع الخونة .. تعالوا إلى متاع الظلمة .. تعالوا إلى متاع من خلف الرسول فى أمته بغير سنته وسيرته .. من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى ، وهذا يأكل والناس يموتون من الجوع ؟! .. »^(٢) .

ونجحت كلمات غيلان البليغة فى أن تجعل من رد المظالم الأموية إلى بيت مال المسلمين عملاً سياسياً واجتماعياً ثورياً من الدرجة الأولى ، خصوصاً إذا أدخلنا فى اعتبارنا ظروف ذلك العصر الذى تمت فيه .

* * *

دفع حياته ثمناً لهذا الموقف :

وبالطبع ، فإن أمراء الأسرة الأموية لم يكونوا راضين عن فعل عمر بن عبد العزيز هذا ، فلقد بذلوا جهد الطاقة فى محاولة العدول به عن هذا الطريق ، فأرسلوا إليه عمته ، « فاطمة بنت مروان » كى تثنيه عن عزمه ، ففشلت .. وعقدوا لذلك اجتماعاً ، ولكنه لم يأبه لهم ، وأشار عليه البعض بأن مغبة ذلك عليه غير حسنة ، فالقوم ربما عجلوا بموته إنقاداً لثرواتهم التى صادروها ، وقالوا له : « إنما نخاف عليك العواقب » يا أمير المؤمنين ؟! فقال

(١) د . صياء الدين الرئيس (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية) ص ٢٣٢ - ٢٣٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م .
(٢) النية والأمل ، اللوحة ٤٨ .

لهم : « كل يوم أتقيه وأخافه ، دون يوم القيامة ، لا وقته ! » ،^(١) وعلى كل .. فإن عمر ابن عبد العزيز لم يعمر طويلاً بعد إنجاز هذه الأعمال؟! .. وعندما آلت الخلافة إلى « هشام ابن عبد الملك » (سنة ١٠٥هـ) قرر أن يصنى الإجراءات الثورية التي أنجزها الخليفة السابق ، وأن يصنى أيضاً الحساب مع العناصر الثورية التي أسهمت في اتخاذ هذه الإجراءات وتنفيذها ، وفي مقدمة هذه العناصر « غيلان الدمشقي » .

وكان الأمر فيما يتعلق بنية « هشام بن عبد الملك » نحو غيلان أشبه ما يكون بالتأثر والانتقام ، ففي زمن عمر بن عبد العزيز ، وعندما كان أمراء بني أمية في وضع لا يحسدون عليه ، سمع هشام يوماً ، أثناء مروره بأحد ميادين دمشق ، غيلان وهو ينادى على متاعهم المصادر ، وصكت مسامعه عباراته الثورية التي يتناول فيها باللعن والإدانة هؤلاء الأمراء وآباءهم من الخلفاء .. فأسرها هشام في نفسه ، وقال لخاصته : « هذا يعينني ويعيب آبائي؟! والله إن ظفرت به لأقطعن يديه ورجليه » ، ولذلك بادر هشام بطلب غيلان بمجرد انتقال مقاليد الحكم إلى يديه .. فهرب غيلان من دمشق ، بصحبة رفيق له يدعى « صالح » واجتهد الولاة والعمال وجند الدولة في البحث عنها ، حتى استطاعوا العثور عليها ، فجنئ بهما إلى دمشق ، فحبسها عدة أيام ، ثم أحضر هشام لغيلان الشيخ « الأوزاعي » كى يناظره ، ويصدر فتوى إعدامه . وكان له مادبر وأراد؟! .

وكما كانت حياة غيلان نموذجاً فريداً يجسد الموقف الثوري من سلبات مجتمعه ، كذلك كان مماته نموذجاً فريداً يجسد سلبات هذا المجتمع ويدين هذه السلبات . فعلى « باب كيسان » بمدينة دمشق صلب هشام بن عبد الملك غيلان الدمشقي ورفيقه صالح ، تم قطعوا ، أولاً ، أيديهما ، ثم ثنوا بقطع أرجلها .. وأراد أنصار الدولة الأموية من أصحاب فكرية « الجبر » أن يديروا مع غيلان حواراً فكرياً وهو على صليبه ، بعد قطع يديه ورجليه ، وأن يقولوا له : إن الله هو الذي خلق فعلهم هذا فيه ، فقالوا له : كيف صنع بك ربك؟! فالتفت إليهم من فوق الصليب ، وخاطبهم وقال : « لعن الله من فعل بي هذا » فنسب إليهم هذا الفعل المنكر الذي فعلوه به ، ونزه عنه وعن مثله الله سبحانه وتعالى! ..

وأحسن صالح صاحب غيلان بالعطش ، فطلب من القائمين حول صليبه شربة ماء ،

(١) الحراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ص ٢٣٣ .

فرفضوا ، وقال له بعضهم : « لانسقيكم حتى تشربوا من الزقوم » فى جهنم .. ولكن غيلان التفت من فوق صليبه إلى رفيقه ، وقال له : « يزعم هؤلاء أنهم لن يسقونا حتى نشرب من الزقوم » ، كذبوا .. إن الذى نحن فيه لبشير بالجنة ، وبروح الله الذى سنصير إليه بعد ساعة ، فاصبر يا صالح على ما أنت فيه !.. فصبر صالح على آلامه وعطشه ، وعندما أسلم الروح ، استدار غيلان نحوه ، وصلى عليه من فوق الصليب ؟!

وبعد أن فرغ غيلان من الصلاة على جثمان صالح ، استدار إلى الخضور ، وأخذ يمارس رسالته التى طالما قام بها ، من قبل أن يُصلب ، ضد الأمويين ، فقال لهم : قاتلكم الله ، كم من حق أماتوه ؟! وكم من باطل قد أحيوه ؟! وكم من ذليل فى دين الله أعزوه ؟! وكم من عزيز فى دين الله أذلوه ؟! ..

ويبدو أن بعضاً من الذين حضروا ذلك المشهد الفريد فى بشاعته وتأثيره وإيلامه ، قد أخذته الشفقة على غيلان ، فأخذت أسماعهم تنصت لما يقول ، وقلوبهم تحفق لما يلقى من مواعظ وحقائق تدين تصرفات الحكام الأمويين .. فخشى مغبة ذلك أنصار هشام بن عبد الملك ، فذهب بعض من حاشيته إليه ، وقالوا له : « قطعت يدى غيلان ورجليه .. وأطلقت لسانه !؟ .. إنه قد بكى الناس ونهبهم على ما كانوا عنه غافلين » ؟! فبعث هشام ابن عبد الملك من قطع لسان غيلان ؟! فارتفعت روحه إلى بارئها .. بعد أن ظل حتى آخر لحظات حياته قائماً برسالة الإنسان الذى تجسدت فيه وحدة الفكر بالسلوك ، والإيمان بالعدالة للإنسان ، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى من فوق خشبة الصليب ؟!

- ٦ -

الحسن البصرى

[٢١ - ١١٠هـ / ٦٤٢ - ٧٢٨م]

فيلسوف يُشبه الأنبياء

هو : أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصرى [٢١ - ١١٠ هـ - ٦٤٢ - ٧٢٨ م] .. واحد من أبرز العلماء الأعلام ، والمفكرين المصلحين ، والساسة الزهاد فى تراث أمتنا العربية الاسلامية وتاريخها .. وهو أبرز علماء عصره على الإطلاق !..

وإذا كان بعض أعلام التراث والتاريخ قد اختلطت وقائع حياتهم بالأساطير ، فإن واقع حياة الحسن البصرى ووقائعها تبلغ فى العظمة درجة الإغراب ، حتى ليحسبها البعض أسطورة من الأساطير !..

● فلم يكن عربى الأصل ، إذ كان أبوه - يسار - من سبي « ميسان » - وهى « كورة » بين البصرة وواسط - وكانت أمه : « خيرة » مولاة لأم سلمة ، زوج الرسول ، عليه الصلاة والسلام - ومع أنه لم يكن عربى الأصل ، فلقد بلغ فى علوم العربية والإسلام إلى الحد الذى أصبح فيه الانتساب إليه جواز مرور وإجازة اعتماد للعلماء !... وهو من التابعين - وليس من جيل الصحابة - ومع ذلك بلغ فى الفصاحة وجمال الترتيل للقرآن والحديث فى مسائل العلم إلى الحد الذى جعل أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، تقول ، عندما سمعته : « من هذا الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء !؟ » .

● وهو لم يكن ، فقط ، واحداً من ثقة المحدثين والرواة للحديث النبوى الشريف ، وإنما كان رأس أول مدرسة للتاريخ العربى الإسلامى على الإطلاق !.. فالناظرون فى كتب التاريخ القديمة ومصادره الأولى فى تراثنا وحضارتنا يرون ، عند التأمل ، أن الحسن البصرى وتلامذته هم نواة أول مدرسة روت أحداث هذا التاريخ .. وكانت أحداث التاريخ السياسى الإسلامى ، بما فيه من صراعات على الخلافة والإمارة ، فى مقدمة الأحداث التى حظيت بالرواية والنقد من قبل الحسن البصرى ومدرسته ... وكانت « الحروب » تسمى : « الدماء » ، و « الثورات » تسمى : « الفتن » ! ولزيادة الحسن البصرى وتبحره فى تاريخ

« الحروب » و « الثورات » ، تحدث عنه المؤرخون فقالوا : إنه كان عالماً في « الفتن » و « الدماء » .. أى عالماً في تاريخ « الثورات » و « الحروب »؟! ..

● وكان الحسن البصرى فى معسكر المعارضة لمظالم الدولة الأموية ، فلم يؤيد من خلفائها إلا عمر بن عبد العزيز [٦٢ - ١٠١ هـ - ٦٨١ - ٧٢٠ م] إذ تولى قضاء البصرة فى عهده ، وكان له ناصحاً ، يكتب إليه الرسائل قبل وبعد توليه إمارة المؤمنين .. لكن معارضة الحسن البصرى للدولة الأموية لم تصل إلى درجة الثورة وحمل السلاح ضد هذه الدولة ، لا لأنه كان ضد الثورة عليها ، وإنما لأنه كان - كمؤرخ - يدرك ماجرته الثورات الفاشلة من مآسى وآلام على الثوار ، بل وعلى عامة الناس .. فكان يشترط لتأييده للثورة ان تجتمع لأصحابها أسباب النصر ، أو ما يرجح الانتصار .. ولقد تعرض الحسن البصرى للمتاعب جمّة ، من قبل الثوار ، بسبب موقفه هذا : لأنهم كانوا يحرصون الحرص كله على كلمة تأييد منه لهباتهم وانتفاضاتهم ضد الأمويين ، ويرون فى ذلك حافزاً للعامة والجاهير على الانخراط فى الثورة ، كما يرون فيه ضغطاً أديباً يشل تردد المترددين! ..

ومع ذلك فلم يسلم الحسن البصرى من أذى بنى أمية واضطهاد عالمهم على العراق ، وخاصة أذى الحجاج بن يوسف الثقفى [٤٠ - ٩٥ هـ - ٦٦٠ - ٧١٤ م] .. فقطعوا عنه العطاء - (المعاش) - وأحاطوه بالعيون والجواسيس .. بل لقد هرب عندما هموا بسجنه ، حتى ماتت ابنته فلم يصل إليها ولم يحضر مواراتها التراب! ..

ولكن ذلك لم يمنعه من المعارضة والرفض لمظالم الدولة الأموية والإدانة لتجاوزاتها عن نهج الخلافة الراشدة .. فكان يدين حكم معاوية بن أبى سفيان [٤١ - ٦٠ هـ - ٦٦١ - ٦٨٠ م] ويسب الحجاج بن يوسف الثقفى ، علناً ، وعلى الملأ ، فيقول : « يا أخبث الأخبثين وأفسق الفاسقين .. أما أهل السماء فقتوك ، وأما أهل الأرض فغروك ! » .. وعندما كان فقهاء الدولة ووعاظ السلاطين ينهون الناس عن ذم الحكام ، بدعوى أن هذا الذم « غيبة » ينهى عنها الاسلام ، كان الحسن البصرى يفتى : « ليس للفاسق المعلن غيبة ! ولا لأهل الأهواء والبدع غيبة ! ولا للسلطان الجائر غيبة ! ! .. » فأعلمهم ملك للرأى العام ، يبحثها ويصدر فيها الأحكام؟! ..

وعندما كان فقهاء السلاطين هؤلاء يجتهدون لإهلاء الناس بالفروع عن الجوهر والأصول وسياسة الأمة وحكمها ، فيجعلون من « الفقه » عالماً يبحث فى طهارة أو نجاسة دم البراغيث! .. كان الحسن البصرى يعجب ويتعجب ويقول : « يا عجباً ممن يبلغ فى دماء

المسلمين كأنه كلب ، ثم يسأل عن البراغيث ؟! »^(١) .

● وعندما أخذت الدولة الأموية تبرر مظالمها وتحويلها للخلافة من « الشورى الراشدة » إلى « الملك العضود » بفلسفة « الجبر والخيرية » ، تصدى الحسن البصرى ، كإمام لمدرسة [أهل العدل والتوحيد] ، لفلسفة « الجبر » هذه ، فدافع عن حرية الإنسان واختياره ، وكشف الوجه المشرق للإسلام عندما انحاز إلى الحرية والاختيار .. وكانت رسالته في « القدر » أثرًا من آثار موقفه الفكرى هذا ، وشاهده عليه ، بل لقد ظلت أقدم شاهد على فكر الحرية والاختيار فى تراثنا العربى الإسلامى على الإطلاق !..

* * *

لكن بعض الناس يشكك فى انحياز الحسن البصرى إلى معسكر القائلين بالحرية والاختيار - (القدر) - رغم أن المعتزلة يؤكدون هذا الانحياز ، مستشهدين برسالته هذه التى كتبها فى (القدر) ، ومن ثم نراهم يضعونه فى الطبقة الثالثة - (الجيل الثالث) - من طبقات أعلامهم ، وهى الطبقة التى تضم التابعين .. يشكك البعض فى ذلك ويقولون : « كان أهل القدر ينتحلون الحسن بن أبى الحسن .. وكان قوله مخالفاً لهم .. وهناك من يقول : إنه قال بالقدر ثم عدل ورجع عن القول به^(٢) ! .. الأمر الذى يشكك فى نسبة (رسالة القدر) إليه ، أو على الأقل يلقى ظلال الشك على تمثيلها لموقفه الجديد فى هذا الموضوع !..

ولكن الدراسة لأسس هذا الخلاف حول الحسن البصرى تؤكد أن الرجل كان من أئمة الذين قالوا بالقدر - أى قدرة الإنسان وحرية واختياره - على مذهب أهل العدل والتوحيد .. أما الشكوك التى أحاطت بانحيازهم لهذا الموقف فإن مصدرها الشبهة ليس إلا؟!..

فابن سعد يروى فى (الطبقات الكبرى) عن « أيوب » قوله : « أنا نازلت الحسن فى القدر غير مرة ، حتى خوفته السلطان ، فقال : لا أعود فيه بعد اليوم .. » كما يقول « أيوب » : « أدركت الحسن والله وما يقوله .. أى ما يقول القدر .. ويروى مثل هذا الكلام عن « حميد الطويل » .. فلقد كان « أيوب » و « حميد » - وهما من الرواة أصحاب الحسن البصرى - يريان فى القول بالقدر « العيب الوحيد » الذى يمكن أن يعاب به الحسن ،

(١) د . محمد عمارة [الإسلام وفلسفة الحكم] ص ٦٥٤ - ٦٦٢ . طبعة بيروت - الثانية - سنة ١٩٧٩ م .

(٢) [طبقات ابن سعد] ج ٧ ق ١ ص ١٢٧ . طبعة دار التحرير القاهرة .

يقول «أيوب»: «لا أعلم أحدا يستطيع أن يعيب الحسن إلا به» - أى بالقدر.. ويتحدث «أبو هلال» فيقول: «سمعت حميداً وأيوب يتكلمان، فسمعت حميداً يقول لأيوب: لوددت أنه قسم علينا غرم وأن الحسن لم يتكلم بالذى تكلم به.. قال أيوب: يعنى فى القدر..» (١).

كما يروى «خامد» عن «أيوب» قوله: «ما أعيانى الحسن فى شىء ما أعيانى فى القدر، حتى خوفته بالسلطان» (٢).. «فأيوب» - الراوية، وصاحب الحسن - قد خوف الحسن، بعد أن أعياه أمره فى القول بالقدر، خوفه بالسلطان، حتى ترك القول به، وقال: لا أعود فيه بعد اليوم!..

تلك هى النصوص والوقائع التى فهم منها البعض رجوع الحسن البصرى عن القول بالقدر والحرية والاختيار.. لكن الأمر لم يكن على هذا النحو الذى فهمه هذا البعض!.. فأيوب وحميد.. مثل الحسن، يقولون جميعاً بالقدر!.. وهم جميعاً من أعلام مدرسة أهل العدل والتوحيد.. وأيوب قد خوف الحسن من القول بالقدر، أى من إعلان القول بالقدر وإذاعته والجهر به وإظهاره، اشفاقاً عليه من سطوة السلطان، سلطان بنى أمية، وليس عن مخالفة له فى الرأى وتهديد له بإبلاغ السلطان عنه، فهو يخوفه من السلطان لا بالسلطان!.. ويضع أبو القاسم البلخى يدنا على هذه الحقيقة عندما يقول: إن «أيوب لم يخوفه بالسلطان على سبيل السعاية به إليه. كان أعظم قدراً من ذلك. ولكنه خوفه لسطوة عليه إن علم به، هذا على جهة النصيح له، لأن بنى أمية كانت مجمعة على الإجبار - إلا من عصم الله! -» (٣).

وعلى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نفهم معنى قول الحسن البصرى: «لا أعود فيه بعد اليوم».. أى لا أعلنه الإعلان الذى يعرضنى لعقاب السلطان، وأن نفهم كذلك معنى قول أيوب: «أدركت الحسن والله وما يقوله!» فالحسن البصرى كان، بلا جدال ولا شك، من أوائل الذين قالوا بالقدر، على مذهب أهل العدل والتوحيد.. كل ما فى الأمر أنه قد اختلف مع المعتزلة - وهم التيار الأساسى، فى هذه المدرسة الفكرية، الذى انشق على الحسن البصرى - اختلف معهم فى أحد أصولهم الفكرية، وهو أصل: «المنزلة بين المنزلتين»..

(١) المصدر السابق. ج ٧ ق ١ ص ١٢٢.

(٢) القاضى عبد الجبار [فضل الاعترال وطبقات المعتزلة] ص ٨٣. تحقيق. فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م.

(٣) المصدر السابق. ص ٨٣.

لكن ظل الاتفاق قائماً وراسخاً بين أعلام تيار العدل والتوحيد ، بالمعنى الواسع لهذا التيار ، في هذين الأصلين : أصل [العدل] - الذى يعنى القول بالقدر والحرية والمسئولية والاختيار- وأصل [التوحيد] الذى يعنى الذهاب فى تنزيه الذات الإلهية عن مشابهة المحدثات إلى حد التجريد ..

وعلى ضوء هذه الحقيقة نفهم لماذا ذكر المعتزلة الحسن البصرى فى الطبقة الثالثة - (الجيل الثالث) - من طبقات رجالهم ، ونفهم كذلك قول الذين أرخوا لفرق المعتزلة عندما يذكرون « فرقة الحسينية » - نسبة للحسن البصرى - كإحدى فرق المعتزلة^(١) ..

وأيضاً .. نبلغ درجة الاطمئنان فى صحة نسبة [رسالة القدر] إلى صاحبها الحسن البصرى .. ذلك العلم الشامخ ، الذى يحسب المرء أن جميع علماء عصره قد خرجوا من تحت عباءته .. عباءة ذلك العالم الناسك العظيم ! ..

(١) الخوارزمى [مفاتيح العلوم] ص ١٨ طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ .

-٧-

عمرو بن عبید

[٨٠ - ١٤٤هـ / ٦٩٩ - ٧٦١م]

الزاهد .. الثائر .. الفيلسوف

- علامة بارزة على طريق تطور العقل العربي المسلم .. وعلم من الأعلام الذين صنعوا النهضة الأولى للتيار العقلاني في تراثنا ، قبل أن تعرف العربية حركة الترجمة عن اليونان ..
 - وثائري سبيل العدل والشورى ، تميز بنظرة خاصة لقضية الثورة ، ركزت على ضرورة الاستعداد والتحكّن والإعداد ، ورفضت الفوضى والتمردات ..
 - ومع ذلك فهو زاهد .. ناسك .. عابد سلكه الزهاد والمتنسكون في سلك أئمتهم ، كما تزينت باسمه صحائف الفلاسفة والمتكلمين والثوار !..
- فلقد ذهب إلى بيت الله الحرام - من البصرة - للحج ، ماشياً على قدميه أربعين مرة ، في أربعين سنة ، ومعه راحته - جملة - مخصصاً إياه لركوب الفقراء والضعفاء !
- وضرب الناس المثل بزهد في المال - رغم فقره وحاجته - فقبل أن يلي أبو جعفر المنصور (٩٥-١٥٨هـ - ٧١٤-٧٧٥م) الخلافة ، كان تلميذاً له ، وكان يجمع له نفقاته ، فلما أصبح المنصور خليفة ، اختلفا ، ورفض صاحبنا أموال المنصور .. ولما عرض عليه خالد بن صفوان - وهو من أصحابه - مالاً يقضى به حوائجه ، رفض ، ودار بينها هذا الحوار :
- لم لا تأخذ مني مالاً ، فتقضى ديننا ، إن كان عليك ، وتصل رحمتك !؟
- أما دين : فليس على .. وأما صلة رحمتي : فلا يجب على وليس عندي !
- فما يمنعك أن تأخذ مني !؟
- يعني : أنه لم يأخذ أحد من أحد شيئاً إلا ذل له !.. وأنا ، والله ، أكره أن أذل لك !؟ ..
- ووضعه البلغاء على رأس الذين أبدعوا في علوم العربية لوناً جديداً من ألوان البلاغة ..

بلاغة الموعظة والجدل والمناظرة التي نشأت مع نشأة الجدل بين علماء الكلام .. وهو قد عرف هذه البلاغة عندما سئل عنها فقال :

« إنها تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتخفيف المثونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعاني في قلوب المرئيين ، بالألفاظ المستحسنة في الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل في قلوبهم ، بالموعظة الحسنة ، من الكتاب والسنة ! .. » .. وهي بلاغة كان يبكي عند سماعها السامعون .

● وذكر له جامعوا الحكم والمواعظ درراً ازدانت بها صفحاتهم ، من مثل قوله : « ذكر غضب الرب يمنع من الغضب ! » .

وقوله :

« اللهم اغنى بالافتقار إليك ، ولا تفقرني بالاستغناء عنك ! .. اللهم اعنى على الدنيا بالقناعة ، وعلى الدين بالعصمة ! » .

وقوله :

« أعتني ثلاث خلال : تركي ما لا يعنيني ! .. ودرهم من حلال ! .. وأخ إذا احتجت إلى ما في يده بذله لي ؟ ! » .

● وتذكره مصادر التاريخ العربي الأولى ، واحداً من الرواة ، ونقاد الروايات التاريخية ، وعالمًا بالسير والملاحم وأنباء الثورات والحروب ..

● وذكر له الثوار كلماته الجامعة التي فالها عندما رأى رجال الشرطة في الدولة الأموية يسوقون إلى السجن رجلاً فقيراً هزيباً ، لأنه سرق مالا قليلاً ، ثم عادوا به يقطعون يده ، ومن حولهم تجمهر الناس يستطلعون .. فسأل صاحبنا :

- ما هذا !؟

- إنه سارق يقطعون يده ..

- لا إله إلا الله ! .. سارق السر يقطعه سارق العلانية !؟ ..

* * *

● أما صاحبنا هذا .. فهو : أبو عثمان ، عمرو بن عبيد « ٨٠ - ١٤٤ هـ - ٦٩٩ -

٧٦١م» . كان أبوه : عبيد بن باب . واحداً من الموالى ، الذين أتت بهم إلى « البصرة » فتوحت العرب المسلمين لمدن فارس ، ومدينة « كابل » . الافغانية على وجه التحديد .. كان من موالى بى العدوية ، من قبيلة تميم ..

● وأغلب الظن أن مولده كان بالبصرة .. ففيها كان أبوه أحد الذين احترفوا صناعة النسيج .. ثم ترك هذه الصناعة إلى التجارة .. ثم هجر التجارة ليعمل جندياً في شرطة طاغية العراق . على عهد بنى أمية : الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ - ٩٥ هـ - ٦٦٠ - ٧١٤ م) .. ومع الحجاج وتحت سلطته أصبح عبيد بن باب واحداً من جهاز الدولة الظالمة وسوطاً من سياط الحجاج التي تلهب ظهور المسلمين .. وفي مواجهة الحجاج وتسارعه برز عمرو بن عبيد عالماً زاهداً ورعاً ، وأيضاً ثائراً ينشد عوده « الشورى » إلى المجتمع ، ورجوع « العدل » أساساً للحكم بين الناس .. حتى لقد أصبح مع والده : التجسيد للنقيض مع النقيض ! .. وكان عبيد بن باب إذا ما مر على الناس وبصحبته ابنه عمرو ، أشار الناس إلى الأب وقالوا : هذا شر الناس ، أبو خير الناس !؟ ^(١) .

النشأة الأولى ..

وكما هي العادة .. فإن مصادر التاريخ ومراجعته لاتلبي حاجة الباحث عن النشأة الأولى لعمرو ابن عبيد .. ففجأة نلتقى به واحداً من أبرز اصحاب الحسن البصرى (٢١ - ١١٠ هـ - ٦٤٢ - ٧٢٨ م) ذلك الزاهد الثائر العالم الذى تنازعت فرق المسلمين ومدارسهم الفكرية عليه ، تريد كل واحدة أن تنسبه إلى أمتهما وعلامها .. والذى خرجت من تحت عباته ومن حلقة درسه بمسجد البصرة - ثورات وهبات وانتفاضات واحزاب وفرق وتيارات ! !

نلتقى بعمرو بن عبيد واحداً من ابرز اصحاب الحسن البصرى وشهود حلقتة ومدرسته في مسجد البصرة .. وكانت قد تبلورت لهذه المدرسة ، في النصف الثانى من القرن الأول

(١) انظر . ابن قتيبة (المعارف) ص ٢١٢ . تحقيق دكتور ثروت عكاشة . طعة دار المعارف القاهرة . و (عبرون الأخبار) مجلد ١ ص ٥٦ ومجلد ٢ ص ١٧٠ . ١٧١ . طعة دار الكتب . القاهرة . و : الشريف المرتضى (أمال المرتضى) ق ١ ص ١٦٩ ، ١٧٠ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . طعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م . (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ١٦١ ، ١٦٢ تحقيق عبد السلام هارون . طعة القاهرة . و (البيان والتبيين) - للجاحظ - ج ٣ ص ٢٧١ تحقيق عبد السلام هارون . طعة القاهرة سنة ١٩٤٩ م . و : ابن المرتضى (المية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل) (باب ذكر المعتزلة) ص ٢٢ . تحقيق توما ارنولد . طعة حيدر آباد - الهند - سنة ١٣١٦ هـ .

الهجرى ، ملامح فكرية ميزتها عن غيرها من التيارات التي كانت تتصارع فى الساحة بالاجتمع العربى على عهد الأمويين ..

● فالأمويون - منذ عهد معاوية بن أبى سفيان (٢٠ - ٦٠ هـ - ٦٠٣ - ٦٨٠ م) اشاعوا فكرة « الجبر » وشجعوا القائلين به ، كى يبرروا التغيرات التي احدثوها فى نظام الحكم ، الذى حولوه من الشورى والاختيار إلى الملك الوراثى .. وكى يبرروا كذلك المظالم الاجتماعية والسياسية والاضطهادات التي اصابوا بها خصومهم ، والتي بلغت قمتها فى القتل الجماعى للخوارج ، والحمة الدائمة للشيعه ، ومأساة استشهاد الحسين فى كربلاء ..

وأمام فكرة « الجبر » هذه ، أخذت مدرسة الحسن البصرى تشيع الفكر الإسلامى النقي ، الذى ينحاز بالكامل إلى حرية الإنسان واختياره ومسئوليته .. واتهمت دعاه « الجبر » بأنهم يلحقون شبهة « الجور » بالذات الإلهية ، إن هى حاسبت الناس على أعمال هى التي « أجبرتهم » على اتيانها .. « فالعدل » - وهو من صفات الله - يقضى تقرير الحرية والاختيار والمسئولية للإنسان ..

وفى تيار (أهل العدل) هذا نجد عمرو بن عبيد واحداً من ابرز الأعلام .. بل لقد أكدت المصادر الأولى لتاريخ هذا التيار أن رائده كان هو الفيلسوف الثائر معبد الجهنى ، عبد الله بن حكيم (المتوفى سنة ٨٠ أو سنة ٩٠ هـ) .. وإن الذى قاد هذا التيار ، بالبصرة ، بعد معبد الجهنى ، هو عمرو بن عبيد .. بل تذكر هذه المصادر أن تيار (أهل العدل) قد قوى وزاد أنصاره عندما تولى عمرو بن عبيد قيادته ، ذلك ان زهده وورعه ونبوغه قد اجتذب إلى صفوف ذلك التيار انصاراً كثيرين .. وبعبارة القدماء : فإن أهل البصرة قد اعتنقوا هذا الفكر « لما رأوا عمرو بن عبيد ينتحله ! »^(١) .

● والأمويون - كذلك - شجعوا تلك الفرقة التي سميت « بالمرجئة » ، والتي أرادت صرف الناس عن الجدل حول عقائد بنى أمية ، بصرفهم عن ربط الأعمال بالاعتقادات ، والفصل بين النظرية والتطبيق ! .. فلم يكن هناك من ينكر أن حكام بنى أمية يرتكبون الظلم ويقترفون السيئات ويفعلون الذنوب الكبائر .. وأمام هذه الحقيقة حكم الخوارج عليهم بالكفر .. فطالب (المرجئة) بإرجاء الحكم على العقائد ، والفصل بين العمل وبين الاعتقاد ، وإرجاء كل ذلك إلى حساب الله سبحانه يوم الدين !

(١) (صحيح مسلم) بشرح النووى . ج ١ ص ١٥٣ . طبعة القاهرة (ط محمود توفيق) بدون تاريخ .

ولقد تحفظ تيار العدل - وفيه عمرو بن عبيد - على تطرف الخوارج ، تم رفض تبرير (المرجئة) ، وحكم على مرتكبي الذنوب الكبائر ، غير التائبين منها ، بالفسق والنفاق .. ● ولقد شاعت في المجتمع يومئذ بقايا افكار المذاهب والديانات القديمة التي تميل إلى تشبيه الذات الإلهية بالمخلوقات والاشياء ، وتحدث عن « حلول » هذه الذات و « اتحادها » بغيرها من الاشياء ...

وأمام تيار « التشبيه » هذا قدم أهل (العدل) صياغاتهم الفكرية التي عرضت نقاء فكرة التوحيد كما جاءت في القرآن ، فرفضوا كل ما يؤدي إلى إلحاق شبهة التشبيه والتجسيد والحلول والاتحاد بذات المولى سبحانه ، وأرسوا دعائم فكر التنزيه والتجريد في العلوم الالهية ، لبنة أولى ودعامة اساسية من اللبنة والدعائم التي قام عليها علم التوحيد الاسلامي .. ومن هنا كانت شهرة هذا التيار باسم (أهل العدل والتوحيد) .. أي القائلون بالحرية والاختيار للإنسان ، والتنزيه للذات الإلهية عن مشابهة المخلوقات .. هكذا نلتقى بعمرو بن عبيد علماً من اعلام أهل (العدل والتوحيد) ..

في قيادة المعتزلة :

حتى إذا كان العقد الأول من القرن الثاني الهجري ، جاء إلى البصرة - من المدينة - واصل ابن عطاء (٨٠ - ١٣١هـ - ٦٩٩ - ٧٤٨م) وهو من دعاة (العدل والتوحيد) .. ولكنه جاء يبشر بإضافة جديدة فيما يتعلق بالموقف من بنى أمية وتقييم اعمالهم وما يترتب عليها .. فهو مثل رفاقه . يرفض تطرف (الخوارج) وتفريط (المرجئة) .. ولكنه يرفض كذلك الاكتفاء بوصف مرتكبي الذنوب الكبائر بصفة (النفاق) .. فهم ، عنده . ليسوا كفرة ، لأنهم يرثون ويورثون ، ويدفنون في مقابر المسلمين الخ .. وهم ليسوا منافقين ، لأنهم اصحاب مظالم معلنة .. وهم ليسوا بمؤمنين ، لأنهم افتقروا إلى الاتصاف بصفات المؤمنين كما حددها القرآن الكريم .. إذن فهم في موقف وسط بين الكافرين والمؤمنين ، وفي (منزلة بين المنزلتين) اللتين ينزلها أهل الكفر وأهل الإيمان ..

وفي حلقة الحسن البصرى ، بمسجد البصرة ، عرض واصل افكاره .. ودار من حولها الجدل .. فتبعه فريق من العلماء والطلاب .. ودارت بينه وبين عمرو بن عبيد مناظرة حامية وشهيرة ، افضت إلى انتصار واصل ، فتبعه عمرو ، وانخرط معه في قيادة تيار « المنشقين »

على حلقة الحسن البصرى « المعتزلين » مذهبه فى الموقف من بنى أمية ومرتكبى المظالم والذنوب الكبائر .. وسموا ، منذ ذلك الحين ، ولذلك السبب بـ (المعتزلة) أهل العدل والتوحيد .. وكان عمرو بن عبيد أبرز قادة المعتزلة فى البصرة .. والرجل الثانى فى مدرستهم الفكرية - بعد واصل - على الاطلاق ..

وعندما توفى واصل بن عطاء (١٣١هـ - ٧٤٨م) تولى عمرو بن عبيد القيادة السياسية والفكرية لتيار المعتزلة .. وكان ذلك التيار قد اجتذب إلى صفوفه - بعد وضوح تشدده فى معارضة مظالم بنى أمية وظلمهم - أنصاراً جديداً كثيرين ، وخاصة من شيعة آل البيت ، فانخرط فى (الاعتزال) شباب آل البيت وفتياهم . متخلين بذلك عن نهج الشيعة الإمامية الذى بشر به قائدها جعفر الصادق (٨٠ - ١٤٨هـ - ٦٩٩ - ٧٦٥م) فى القعود عن الثورة والتحذير من عواقبها .. كما انضم إلى الاعتزال أيضاً شباب بنى هاشم ، ومنهم العباسيون ، وكان ضمن الذين انضموا وتعلموا على يدى عمرو بن عبيد : أبو جعفر المنصور (٩٥ - ١٥٨هـ - ٧١٤ - ٧٧٥م) قبل أن يتولى الخلافة العباسية .. بل كان - كما قدمنا - يتولى جمع نفقات عمرو من المريدين ، ويظهر الميل الشديد له ، ويكن له أعظم الود والاحلال والتوقير ..

مع الثورة ضد بنى أمية :

ورغم أن عمرو بن عبيد ، وعددًا كبيراً من قادة (المعتزلة) كانوا ينحدرون من أصول عرقية غير عربية - (موالى) - إلا أن مواقفهم الفكرية والسياسية قد برئت من الفكر الشعبى المعادى للعروبة ، بل لقد بشروا ببواكير الفكر القومى العربى ، عندما رفضوا كلا من الشعبوية والعصية العربية الضيقة الأفق ، التى استثمرها بنو أمية ، واضطهدوا تحت ستارها ابناء الشعوب التى فتح العرب والمسلمون بلادها .. وقدم المعتزلة بديلاً جديداً لهذين الموقفين المتطرفين ، والخطائين ، عندما بشروا بمفهوم حضارى للعروبة ينظرون من خلاله للعادات والتقاليد والثقافة باعتبارها صلات ووشائج تفوق فى قوة توحيدها وتأليفها بين الناس قوة الأنساب والعروق والأرحام .. وبعبارة الجاحظ [١٦٣ - ٢٢٥هـ - ٧٨٠ - ٨٦٩م] - وهو من أعلام المعتزلة - فإن هذه الروابط الحضارية ، بالنسبة للعرب والذين تعربوا ، هى بمثابة الرحم الواحد ، ولدتهم منه العروبة وولادة جديدة ، كى يؤلفوا معا مجتمعهم الواحد والجديد !

ومن هنا فلم يتعصب عمرو بن عبيد ، ولم تتعصب المعتزلة ضد الأمويين .. عارضوهم .. نعم .. وثاروا ضدهم .. ولكن دون تعصب يطمس الايجابيات ويغفل عن نقاط الاتفاق والالتقاء ..

فعندما تولى الخلافة الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز (٦١ - ١٠٢ هـ - ٦٨١ - ٧٣٠ م) أيده المعتزلة ، وساندوه ، وتولى غيلان دمشق (المقتول بعد سنة ١٠٦ هـ) معاونته في مصادرة أموال أمراء بني أمية وبيعها في مزاد عام ، لحساب الأمة ، في ميادين دمشق .. وعندما تساءل البعض : كيف تعترف بإمامة عمر بن عبد العزيز ، وهو قد تولى الخلافة بالميراث ، ودون شورى ؟ .. كان جواب عمرو بن عبيد في تشخيص هذا الوضع « الدستوري » الفريد : لقد « أخذ عمر بن عبد العزيز الخلافة بغير حقها ، ولا باستحقاق لها - ولكنه استحقها بالعدل حين أخذها ! »^(١) فهو لم يصبح إماماً بالتفويض والبيعة المتقدمة من قادة الأمة ، ولكنه أصبح إماماً بالرضا المتجدد من أهل الفضل والحل والعقد ، الذين ناصروه ، واثنوا على ما أحدث في الدولة والمجتمع من تحولات^(٢) ..

وعندما انحط الأمير الأموي : يزيد بن الوليد (٨٦ - ١٢٦ هـ - ٧٠٥ - ٧٤٤ م) في تيار (المعتزلة) ، وعقدوا له البيعة بالاختيار ، ثم ثاروا تحت قيادته ضد حكم الخليفة الاموي الماجن : الوليد بن يزيد (٨٨ - ١٢٦ هـ - ٧٠٧ - ٧٤٤ م) لم يتردد عمرو بن عبيد - وهو بالعراق - في تأييد الثورة التي قامت بدمشق الشام ، ومساندتها ، فدعا اصحابه إلى تكوين جيش يقوده هو ، يخرجون به إلى الشام ، ثائرين ، ناصرين للثوار الذين يقودهم امير اموى .. وقال عمرو لاصحابه : « تهبأوا حتى نخرج إلى هذا الرجل فنعينه على امره ! .. »^(٣) .

وعندما سئل عمرو بن عبيد عن تقيمه لفترة حكم هذا الخليفة الأموي الثائر ، وعن استحقاقه صفة « الإمامة » بشروط المعتزلة لها وفيها ، كان جوابه : « انه الكامل ! عمل بالعدل ! وبدأ بنفسه ، وقتل ابن عمه في طاعة الله ، وصار نكالا على أهل بيته ، ونقص من اعطياتهم مازادته الجبابة ، وجعل في عهده شرطاً ، ولم يجعله جزماً .. »^(٤) .

فؤهلات هذا الأمير الثائر ، التي استحق بها الامامة على مذهب عمرو بن عبيد :

(١) المسعودي (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٥٢ . طبعة دار التحرير . اصداره سنة ١٩٦٦ م .

(٢) القاضي عبد الجبار بن أحمد (المغنى في أبواب التوحيد والعدل) ج ٢٠ ق ص ١٥٠ . طبعة القاهرة .

(٣) البلخي (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١١٣ . تحقيق فؤاد سيد . طبعة تونس سنة ١٩٧٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

- العدل .. وهو قد مارسه ، وبدأ فيه بنفسه ..
- وقاد الثورة ضد امراء بيته الأموى .. وقتل خليفتهم : ابن عمه ..
- واقتص للناس من بنى امية ..
- واعاد توزيع الثروات بالعدل ، وانقص الأعطيات التي زادها الجبابرة من خلفاء الأمويين ..

● وعندما بايعه الناس بالخلافة ، جعل عهد بيعته واستمرارها مشروطاً بطاعته لله ، وعدله في المجتمع ، وقيامه بالعدل بين الناس ، ولم يجعلها بيعه جازمة مؤبدة كما كان يفعل سابقوه !

ومن هنا فهو إمام .. وإمام كامل .. كما يقول عمرو بن عبيد ..
ومن هنا فهو محدود في سلسلة الأئمة الذين استحقوا الإمامة على مذهب المعتزلة ..

أزمة علاجها الشورى :

فلما دخلت الدولة الأموية في دور الاحتضار ، تحت الضربات القوية التي أثمرتها ثورة الخوارج ، وخاصة الخوارج الأزارقة ، بدأت الاطراف السياسية المختلفة تضع في جدول أعمالها قضية : من يخلف بنى أمية في منصب الخلافة وحكم الامبراطورية ؟؟ ..

أما القوى الشعبية ، وعلى رأسها جند خراسان الذين يقودهم أبو مسلم الخراساني (١٣٧ هـ - ٧٥٤ م) فإنهم انخرطوا في تيار الثورة يبعون الانتقام من العرب الذين فتحوا بلادهم وأذاقوهم مرارة التعصب ، الذي مارسه الامويون .. وأما شيعة آل بيت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ومعهم عامة بنى هاشم فإنهم ثاروا ، هم كذلك ، طالبين أن تكون الخلافة في « آل محمد » ، دون تحديد لشخص الخليفة المشود .. كما انخرطت في جموع الثورة ومواكبها وشاركت في معاركها المسلحة جموع وقبائل وتيارات تباينت غاياتها ، واتفقت فقط على الرغبة في التغيير ، طمعاً في أن يأتي فجر العدل بعد ليل الظلم الأموى الطويل !

وهنا تقدم المعتزلة - الذين شاركوا في الثورة ، بمشروع محدد ومدروس .. فلقد أعلنوا ، على لسان قائدهم عمرو بن عبيد ، أن آفة نظام الحكم الأموى قد بدأت مع معاوية بن أبي سفيان ، يوم أحدث انقلابه الدامي الوراثة .. ومن ثم فلا بد من إعادة « الشورى » فلسفة

لنظام الحكم ، واختيار خليفة تعقد له البيعة بالرضا والاختيار .. قرروا ذلك ، واعلنوه ، ودعوا إليه مختلف الفرقاء ..

ولقد تحفظ فريق من الشيعة الإمامية على هذا المشروع ، لأن المعتزلة هم الذين تقدموا به ، ولأن الخليفة المرشح كى تعقد له البيعة - محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية) (٩٣ - ١٤٥ هـ - ٧١٢ - ٧٦٢ م) - وإن يكن من آل البيت إلا أنه معتزلى .. وزعم هذا الفريق أن لديه « صحيفة » سماوية قد دونت بها أسماء الأئمة والخلفاء ، وليس النفس الزكية من بينهم !

ولكن المعتزلة ، ومعهم تيار قومي عربي مؤثر ، قد مضوا في سبيلهم رغم تحفظ رأس الشيعة الامامية : جعفر الصادق (٨٠ - ١٤٨ هـ - ٦٩٩ - ٧٦٥ م) لأنهم أبصروا الخطر الشعوبى الذى كان يحمل في السياسة فكراً « ملكياً » من مواريث الكسروية الفارسية ، ولا يذهب مذهب المعتزلة في « الشورى » و « الفكر القومى العربى المستنير » .. فدعا عمرو بن عبيد إلى مؤتمر جامع عقد بمكة ، وعرض فيه اقتراحه فقال : « .. إننا قد نظرنا ، فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروءة ومعدن للخلافة ، وهو محمد بن عبد الله بن الحسن .. فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه ، ثم نظهر أمرنا معه ، وندعو الناس إليه . فمن بايعه كنا معه وكان معنا ، ومن اعترلنا كففنا عنه ، ومن نصب لنا - (عادانا وحاربنا) - جاهدناه ونصبنا له على بغيه ، ونرده إلى الحق وأهله .. » (١) .

وباع جمهور الحاضرين في هذا المؤتمر (للنفس الزكية) بالخلافة ، وبدأت تعقد له البيعة في المدن والامصار والأقاليم .. وأخذت قوات أموية تطرق إليها اليأس في قتالها ودفاعها عن الدولة المحتضرة ، أخذت تفكر في البيعة للخليفة الجديد .. وكان أمراء البيت العباسى الهاشمى - ومنهم أبو العباس (السفاح) ، وأبو جعفر المنصور - من رجالات المعتزلة يومئذ ، ومن حضور مؤتمر مكة ، ومن الذين بايعوا (النفس الزكية) بالخلافة مع المبايعين (٢) .

ولكن التيار الشعوبى نجح في اجهاض مسعى المعتزلة وحلفائهم ، وعندما تخلص من القيادة القومية في حركة الثورة المقاتلة ، ممثلة في أبى سلمة الخلال ، باغتياله سنة ١٣٢ هـ ، ثم

(١) د . أحمد صبحى (نظرية الإمامية عند الشيعة الاثنى عشرية) ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م (وهو

ينقل هذا النص عن كتاب : المظفرى (الإمام الصادق) ج ١ ص ٢٣٢) .

(٢) (تاريخ الطبرى) ج ٧ ص ٦٠٧ ، ٦٠٨ (أحداث سنة ١٤٥ هـ) .

استقطب من الهاشميين فرعاً طامعاً في السلطة هو الفرع العباسي ، فعقدوا معاً صفقة سياسية : أن يزيحوا من طريق الثورة تيارها القومي وقيادتها المعتزلية العقلانية ، وأن يظل نظام الحكم ملكياً وراثياً ، مع استبدال بني العباس ببني أمية ، وأن تكون اليد العليا في النظام الجديد للجنود الخراساني الذي يقوده الشعوبيون ..

وتداعت الأحداث التي نصرت ذلك المخطط .. ووثب إلى منصب الخلافة « معتزلي مرتد » هو أبو العباس السفاح (١٠٤ - ١٣٦هـ / ٧٢٢ - ٧٥٤م) ثم لم يلبث ان توفي ليخلفه في الخلافة التلميذ القديم لعمر بن عبيد ! : أبو جعفر المنصور !؟

المقاومة السلمية :

ووجد عمرو بن عبيد تلميذه القديم يتولى الخلافة ، ويطارده ، بالسجن والقتل والتعذيب ، رجال المعتزلة ، وكل الذين ظلوا أوفياء لفكرة الشورى ، وأمناء للبيعة التي اعطوها للنفس الزكية .. ووجد التلميذ القديم نفسه في مواجهة التيار الفكري الذي انحرف فيه يوماً ، والذي يقوده الزاهد العابد الناسك : عمرو بن عبيد ، استأذنه الذي لم تزل الخلافات الجديدة ما استقر له بنفسه من اجلال واحترام وتوقير .. فبدأت مرحلة من الصراع العلن الصامت ، والأخذ والجذب ، والتوجس والريبة بين رجلين جمعتهما يوماً ووحدهما الفكرة والقضية والفلسفة والاتجاه ..

فالمعتزلة .. أخذ فريق منهم يستحث عمرو بن عبيد كى يعلن الثورة المسلحة ضد حكم المنصور العباسي .. ولكن الرجل - مع إيمانه بالثورة ، ضرورتها ومشروعيتها وتوافر دواعيها - كانت له تجارب ، مباشرة وغير مباشرة ، جعلته يستحضر ذكريات الثورات العديدة التي قامت ضد الأمويين ثم فشلت ، وما جرته على اصحابها من ويلات وآلام .. فدعا إلى نظرية في الثورة تطلب : « الإعداد والاستعداد » وسماها : (التمكن) .. فهو لا يجذب التمرد الذي يفضي إلى الفشل ، بل يطلب الاعداد الذي يضمن للثوار (التمكن) من بلوغ الغاية التي يريدون .. ولقد كانت عينه تريد وقلبه يبغى أن يتوفر للثورة نفر من ثابتي العقيدة اقوياء الايمان شديدي البأس يبلغون في العدد مبلغ الذين قاتلوا مشركي قريش يوم بدر مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .. فطلب ألا تعلن الثورة حتى يبلغ مقاتلوها ، في العدد والصفة ، مبلغ البدرين ! وفي هذا السبيل تحمل عمرو بن عبيد مرالنقد ، بل والهجوم والتجريح من نفر من

المعتزلة .. فأبو عمرو الزعفراني يتتقده ، ويدور بينها حوار يبدأه الزعفراني بقوله :

- « إني أخالك جباناً !

- ولم ؟!

- لأنك مطاع ، ولاتناجز هذا الطاغية !

- وبحك ! هل الجند أشد من جندهم ؟ .. ورجالي أشد من جاهم ؟ أما رأيت صنعهم بفلان ، وخذلانهم لفلان ؟؟؟ .. والله لوددت أن سيفين اختلفا في بطني حتى يبلغا منحري ، كلما انتهيا إلى ذلك أعيدا ، وأن الناس أقيموا على كتاب الله وسنة نبيه ! » (١) .

والمصور .. يتوجس خيفة من استاذة القديم ، ولكنه يفرح بعض الشيء ، ويطمئن بعض الاطمئنان لنظرية ضرورة (التمكن) هذه .. فأنى لعمر بن عبيد نيف وثلاثمائة مقاتل في عزمه وصلابته و يقينه ، كما كان لرسول الله يوم بدر عندما التقى الجمعان ؟!

وبحاول المنصور تضييق الفجوة بينه وبين المعتزلة ، سالكاً طريق علاقاته القديمة بعمر بن عبيد ، فهو يريد أن يجمع له نفقاته ، كما كان يفعل قديماً .. ولكن عمرا يرفض بإصرار عطاء الخليفة المنصور !..

ثم يدخل المنصور ، مباشرة ، إلى لب الخلاف في القضية ، فيطلب من عمرو أن تعترف المعتزلة بالأمر الواقع . فلقد أصبح الحكم بيد بني العباس ، وكثيرون ، حتى من الذين بايعوا للنفس الزكية ، قد أعطوا المنصور بيعتهم ، رغباً أو رهباً !.. ولم يبق - في نظر المنصور - إلا أن يتعاون المعتزلة مع النظام الجديد ، فيتولون المناصب ويدعمون الملك الجديد ، ويسهمون في نظام الدولة وحركة التغيير .. ولكن عمرو بن عبيد يرفض التعاون ، بل ولا يتسامح مع أى معتزلى يدخل جهاز الدولة الجديد (٢) !..

ولكن المنصور لا ييأس .. فاستدعى عمرو بن عبيد ، وأعلن له أنه يفوضه في أن يولى أصحابه المناصب التي يريد .. فرفض عمرو مرة أخرى ، وأنبأه أن وجود منصب الخلافة وجهاز الدولة في قبضة الجند الخراساني - (الشياطين) - عقبة لاتنفع في تذليلها مثل هذه التفويضات لأن الاساس خاطئ ، والقوة المهيمنة والصاربة تقف من فكر المعتزلة موقف

(١) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٣٦ .

العداء .. ودار بين الرجلين هذا الحوار الذى بدأه المنصور بقوله :

- « يا أبا عثمان ، اتنى بأصحابك استعين بهم .

- اظهر الحق يتبعك أهله ! ومر عمالك بالعدل والانصاف ..

- انى لأكتب لهم ، فأمرهم بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله . فإذا لم يعملوا فما عسانا

نفعل؟! ..

- إنك لتكتب إليهم فى حوائجك فينفذونها ، وتكتب إليهم فى طاعة الله فلا ينفذون؟! ..

إنك لو لم ترض من عمالك إلا بالعدل لتقرب به إليك من لانية له فيه .. إن الملوك بمنزلة السوق ، وإنما يجلب إلى السوق ما ينفق فيها! .. ان حاشيتك اتخذوك سلماً لشهواتهم ، فأنت كالآخذ بالقرنين ، وغيرك يجلب! .. إن هؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيئاً! ..

- هذا خاتمى - (ونزع المنصور خاتم الملك) - خذه ، وول من شئت ، وأئت بأصحابك

أولهم! ..

- إن اصحابى لا يأتونك وهؤلاء الشياطين - (الخراسانية الشيعية) - على بابك ، فإن

هم اطاعوهم اغضبوا الله ، وإن عصوهم اغروك وألبوك عليهم .. أدعنا بعدلك تسخ انفسنا بعونك! .. ببابك ألف مظلمة ، أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق؟! .. »

وعند هذا الحد من هذا الحوار الساخن بين الاستاذ الزاهد العابد الناسك الثائر ، وبين تلميذه القديم ، الذى أصبح ملكاً يعادى رفاق كفاحه ويتعقبهم بالسجن والنطع والسيف ومختلف صنوف العذاب .. عند هذا الحد أراد عمرو بن عبيد الانصراف .. فرغب المنصور أن يقبل عمرو منه مالاً ، ودار بينهما فصل جديد فى الحوار ، بدأه المنصور :

- « قد أمرنا لك بعشرة آلاف ..

- لا حاجة لى فيها!

- والله لتأخذنها ..

- لا ، والله لا آخذها! .. »

وكان المنصور - امعناً فى تكريس نظام الملك الوراقى ، قد عين ابنه « المهدي » ولياً للعهد .. وكان شاهداً لحوار أبيه مع عمرو بن عبيد .. فاستعظم أن يرفض رجل عطاء أبيه

الخليفة ، واستنكر أن يرد انسان يميناً حلفها المنصور ، فتدخل في الحوار ، مخاطباً عمرو بن عبيد ، ومستفهماً في انكار واستنكار .

- « يحلف أمير المؤمنين ، وتحلف أنت؟! »

- (فتساءل عمرو) : من هذا الفتى؟! ..

- هذا محمد ابني ، وهو المهدي ، وهو ولي عهدي !

- أما والله لقد ألبسته لباساً ماهو من لباس الأبرار ، ولقد سميت به باسم ما استحقه عملاً! ..
ولقد مهدت له امرأً - (ولاية العهد) - أمتع مايكون به ، اشغل مايكون عنه ! - (ثم التفت عمرو إلى المهدي ، ولي العهد ، وقال) : نعم ، يابن أخي ، اذا حلف ابوك احتته عمك ! لأن أباك أقوى على كفارات اليمين من عمك !! .. » .

ومرة ثانية .. أراد عمرو الانصراف ..

ولكن المنصور أراد أن يسبر غوره ، ويعلم موقفه من الثورة التي يعد لها النفس الزكية ، والتي اختفى عن العيون والجواسيس كي ينجز لها العدة والعتاد .. وكان المنصور على يقين من صدق عمرو واستحالة الكذب على لسانه .. فسأله :

- « بلغني أن محمد بن عبد الله بن الحسن - (النفس الزكية) - كتب إليك كتاباً !!

- قد جاءني كتاب يشبه أن يكون كتابه! ..

- أجبته؟! .. - (أى استجبت لرأيه في الثورة المسلحة ، وتجريد السيف ضدى؟) -

- أأست قد عرفت رأيي في السيف - (الثورة المسلحة) - أيام كنت معنا؟! ..

- أفتحلف؟! ..

- إن كذبتك تقية - (أى اتقاء للضرر) - لأحلفن لك تقية!! ..

- انت ، والله ، الصادق البار! .. »

عند هذا الحد من الحوار ، بدت رغبة عمرو بن عبيد شديدة في الانصراف .. فسأله المنصور :

- « فهل لك من حاجة؟ »

- نعم .. لا تبعث إلى حتى أجيئك !

- اذن لا تلقى ابداً!؟ ..

- هذه هي حاجتي ! «

ونفض عمرو منصرفاً ، تشييعه نظرات الاعجاب من المنصور ، ونظرات العجب والدهشة من حاشيته ، الذين شهدوا من جرأته ما لم يعهد مجلس الخليفة من قبل .. فأراد المنصور أن يبدد عجبهم ودهشتهم ، فنظر إليهم ، بعد أن ودع - واقفاً - استاذه القديم .. وقال لهم :

كلكم يمشى رويد كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد؟^(١) «

* * *

ولقد ظل المنصور قلقاً ، تتوزعه الافكار .. فهو يثق بصدق استاذه القديم فيما قاله من أن مذهبه في استخدام السيف - (أى القوة) - في تغيير النظم والدول معروف .. ولكن .. ما يدريه أن تجتمع لثورة النفس الزكية شروط الاستعداد والتمكن فيمنحها عمرو بن عبيد البركة التي تدعّمها بالقوة والانصار!؟ .. ومن هنا ، وحتى يطمئن قلبه ، زور كتاباً على لسان النفس الزكية ، وبعث به رسولاً إلى عمرو بن عبيد ، وهو يجلس ليعلم في مسجد البصرة ، كالمعتاد .. فلما نظر عمرو في الكتاب ، طواه ، وأدرك ما وراءه ، فرفع بصره إلى الرسول وقال له :

« قل لصاحبك : دعنا نجلس في هذا الظل ، ونشرب من هذا الماء البارد حتى تأتينا آجالنا في عافية!؟ »^(٢) .

وبقدر ما كان المنصور ينجح في حرمان قوى الثورة الاعترالية من شروط (التمكن) ، كما يراها استاذه القديم بقدر ما كان اطمئنانه لموقف استاذه يزداد .. فلقد قال له ، يوماً ، قائل :

- « إن عمرو بن عبيد خارج - (ثائر) - عليه .. - (فأجابه) - :

- هو لا يرى أن يخرج على إلا إذا وجد ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً مثل نفسه .. وذلك لا يكون!؟ »^(٣) ..

(١) المصدر السابق . ص ٢٣٢ - ٢٣٥ و (مروج الذهب) ج ٢ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ و (عيون الأخبار) مجلد ١ ص ٢٠٩ ومجلد ٢ ص ٣٣٧ و (أمالي المرتضى) ق ١ ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) (عيون الأخبار) مجلد ١ ص ٢٠٩ .

(٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٣٢ و (باب ذكر المعتزلة ، من كتاب المنية والأمل) ص ٢٤ .

ظلت هذه الافكار والنوازع والهواجس تتنازع المنصور .. وهو ذائب السعى لاجهاض استعداد المعتزلة للثورة .. بالسجن والتعذيب والقتل والحصار والمطاردة والتجويع .. بالترغيب وبالترهيب .. وأيضاً بحصار عمرو بن عبيد والحد من نفوذه الطاغى على أنصاره ومريديه .. وعندما أدركت الوفاة عمرو بن عبيد ، فى الطريق إلى مكة ، سنة ١٤٤هـ - ٧٦١م ، ودفن فى « مران » - على بعد مسيرة ليلتين من مكة - تنازعت المنصور مشاعر متباينة وأحاسيس شتى ..

● فهو قد حزن لموت انسان ليس كمثلته كثيرون ..

● ثم هو قد تخلص - بالموت - من خصم كان موقفه فى صفوف المعارضة عبثاً ثقيلاً على الدولة ونظامها ..

● ولكنه قد أصبح يخاف الثورة أكثر من ذى قبل .. فلقد مات صاحب نظرية (التمكن) وضرورة الصبر فى الإعداد والاستعداد .. وانفتح الباب أمام حماس الشباب المتعجل للثورة ضد نبي العباس ..

● ولكن .. لعل فى التعجل والتعجيل بالثورة الخير كل الخير للدولة .. فى ذلك حثف الثوار واجهاض الثورة الأکید .. لكن هذه الاحاسيس جميعها لم تدع أية شائبة تشوب الصورة القدسية لعمرو بن عبيد فى نظر تلميذه وخصمه أبى جعفر المنصور .. حتى إذا سافر إلى مكة ، وأبصر فى الطريق قبر استاذہ بـ « مران » ، توقف بركبه ، وصنع ما لم يصنعه خليفة من قبله .. إذ رثى - وهو أمير المؤمنين - رجلاً لم يتول فى يوم من الأيام منصباً من المناصب ، فضلاً عن أن يكون هذا المنصب مساوياً أو مقارباً لمنصب أمير المؤمنين .. وقف التلميذ أمام قبر استاذہ ، وقال :

صلى الآله عليك من متوسد قبراً مررت به على مران
قبرا تضمن مؤمناً متحنفاً صدق الآله ودان بالفرقان
فلو ان هذا الدهر ابقى صالحاً أبقى لنا حيا أبا عثمان^(١)

واندلعت ثورة المعتزلة ، بقيادة النفس الزكية ، ضد المنصور سنة ١٤٥هـ .. بعد عام من وفاة قديسهم وزاهدهم وناسكهم وعالمهم وقائلهم : عمرو بن عبيد .. رحمه الله ! ..

(١) (المعارف) ص ٤٨٣ .

- ٨ -

النفس الزكية

[٩٣ - ١٤٥هـ / ٧١٢ - ٧٦٢م]

الإنسان الثائر

● نجم من ألمع النجوم التي سطعت في سماء بيت النبوة .. وواحد من شمس آل البيت التي أشرقت في حياتنا العربية الإسلامية .. وحياتنا ازدانت سيرة صاحبها بألوان من العزم والبأس ، وصواب الرأي ، والتضحية والإيثار والاستشهاد بلغت وقائعها وحقائقها إلى الحد الذي جعلها ، في السيرة والتاريخ ، اسطورة من الأساطير ..

● ففي المدينة ولد محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب (سنة ٩٣ هـ - ٧١٢ م) ..

● وفيها نشأ ذلك الفتى الأسمر .. فنهل من مناهل العلم حتى أصبح من أغزر شباب آل البيت معرفة وعلماً ..

● ومنذ البداية اجتمعت في ذاته سمات النبيل العربي والشرف القرشي ، حتى لقد عرفوه بـ « صريح قریش » لأصالة العروبة ونقاها في أمه وجداته !

● ثم أضاف الفتى إلى علمه بأساً وشجاعة تحلى بها جسمه القوي .. حتى قالوا : إنه كان إذا صعد المنبر خطيباً أن المنبر وتضعضع من تحت قدميه ! .. وإذا مارس « الرياضة » رفع إلى منكبیه صخرة تزن ألفاً من الأرتال؟! ..

● وأيضاً تحلت نفسه بالسخاء الذي جعل من شجاعته وقوتها عطاء عاماً لا حلية ذاتية وفردية ، حتى لقد أعاد إلى أذهان عارفيه صورة « أسد الله » و « سيد الشهداء » : حمزة بن عبد المطلب ، من جديد !؟

● وكما وصف القرآن الكريم النفس الحبيبة إلى ربها ، عند عودتها إلى رحابه ، بـ « النفس المطمئنة » .. كذلك وصف الناس صاحبنا - لما تمتع به من سجايا ومزايا - بـ « النفس

الزكية ، ! حتى غلبت هذه الصفة على اسمه ولقبه .. فغدت له لقباً يشع في تاريخنا وتراثنا بما امتازت به هذه النفس من خصال وصفات ..

الانحياز المبكر لمعكسر الإنسان الثائر :

كانت الدولة الأموية في عنفوان قوتها وجبروتها .. وكانت قد مضت أعوام عدة على مأساة استشهاد الحسين في كربلاء .. وتصاعدت في هذه الأعوام حركة الاضطهاد لآل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ولبن ظهرت عواطفه نحوهم .. ولقد أحدث كل ذلك ردود فعل متعددة ومتباينة ..

● فالبعض قد أغرق نفسه - كى يعتزل تلك التجربة الظالمة - إما في التصوف والزهد ، وإما في الخلاعة والفسق ، والمجون !

● والبعض - مثل فرقة المرجئة - قد شرعوا يفسرون الدين ذلك التفسير الذير يبرر مظالم السلطة ، أو على الأقل يبعد اللوم والتجريم عن عقائد الحاكمين ..

● وآخرون - مثل الخوارج - استلوا سيوفهم ، وأعلنوا ثورتهم المستمرة ، وحكموا بالكفر على من عداهم ، حكاماً كانوا أو محكومين ! أمويين كانوا أم من آل بيت الرسول الذين يثنون تحت نير الاضطهاد !

● أما أهل البيت أنفسهم ، فلقد أرهب الاضطهاد وأرعب البطش رؤوسهم وقادتهم ، فساد فيهم الفكر الخائف ، الذى يؤثر السلامة ، ويثبط الهمم ، ويدعو إلى القعود عن الثورة ، ويبشر الخائفين القاعدين بفرج سيأتيهم لا محالة من عند الله ! .. ومن هنا طمست المعالم السياسية ، خاصة الثورى منها ، لحركة شيعة آل البيت ، وتحولت إلى رباط دينى ، يحتر أهلهم أحزان المأساة ، ويحلمون « بمخلص » يظهر لهم فجأة كى يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً !

وكان على رأس آل البيت فى ذلك التاريخ إمامهم الزاهد العابد العالم جعفر الصادق (٨٠ - ١٤٨ هـ - ٦٩٩ - ٧٦٥ م) الذى لم يدخر وسعاً فى تحذير شباب آل البيت من التصدى لبنى أمية أو الثورة عليهم ، بمثل قوله : « إن بنى أمية يتطاولون على الناس ، حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها ؟! وهم يستشعرون بغض أهل البيت .. ولا يجوز أن يخرج - (يثور) -

واحد من أهل البيت حتى يأذن الله بزوال ملكهم !» (١) .

● ولكن تياراً جديداً يولد ويتبلور في النصف الثاني من القرن الأول الهجري .. هو تيار (المعتزلة) أهل العدل والتوحيد .. وهو يعارض بني أمية ، ويرفض سلطتهم وتسلبتهم ولكن دون أن يذهب إلى تطرف الخوارج ، وأيضاً دون أن يرفض إعطاء آل بيت الرسول دورهم في ميدان العمل السياسي والثورى .. بل على العكس ، يحاول قاداته اجتذاب شباب آل البيت إلى الثورة والمعارضة ، وإخراجهم من السلبية الخائفة التي سيطرت عليهم بعد مقتل الحسين وماتبعه من تنكيل واضطهاد .

وفي سبيل ذلك ذهب قائد المعتزلة واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١ هـ - ٧٠٠ - ٧٤٨ م) إلى المدينة ، ودعا قادة آل بيت الرسول وشبابهم إلى مؤتمر عقده في منزل على بن إبراهيم بن أبي يحيى .. وكان من شهود هذا المؤتمر زيد بن علي بن الحسين (٧٩ - ١٢٢ هـ - ٦٩٨ - ٧٤٠ م) وعبد الله بن الحسن (٧٠ - ١٤٥ هـ - ٦٩٠ - ٧٦٢ م) والد « النفس الزكية » .. وكذلك جعفر الصادق .. الذي أدرك الميل الواضح والشديد لدى قطاع كبير من آل البيت ، وخاصة شبابهم وفتيانهم ، للانخراط في تيار المعتزلة ، والانحياز إلى طريق المعارضة والثورة ضد الأمويين فعرض جعفر رأيه ، وهاجم دعوة واصل بن عطاء ، متبها إياه بأنه قد جاء بأمر يفرق به كلمة آل البيت ويحدث فيهم الشقاق والانشقاق ، وأنه بذلك يطعن في سلوك قاداتهم الذين نأوا بأنفسهم وذويهم عن طريق الثورة وموكب الثوار .. لكن واصل رد الهجوم ، وأغلظ القول لجعفر ، واتهمه بأن وراء موقفه السلبي والمعادي للثورة وهن في الرأي وخور في العزم وركون إلى الدنيا وعشق لزينتها وزخرفها .. فقال : « إنك ، يا جعفر ، واني الهمة ، شغلك هم الدنيا ، فأصبحت بها كلفاً .. وما أتيناك إلا بدين محمد .. فإن تقبل الحق تسعد به ، وإن تصدق عنه تبوء بإثمك ! » .. واشترك في الجدل والمناظرة عدد من قادة أهل البيت وفتيانهم ، ثم تمخض المؤتمر عن انشقاق فكري وسياسي في آل البيت ، انحاز فيه قطاع مهم إلى تيار المعتزلة .. وكان في هذا القطاع عبد الله بن الحسن ، ومعه ابنه النفس الزكية ، وإخوته .. وكذلك زيد بن علي ، الذي قال لجعفر الصادق : « ... إنه ما منعك من اتباع واصل بن عطاء إلا الحسد لنا ! » (٢) .

(١) الشهرستاني (الملل والنحل) ج٢ ص ٨٥ طبعة القاهرة ١٣٢١ هـ .

(٢) قاصي القضاة عبد الجبار بن أحمد (فضل الاعتزال ، وطبقات المعتزلة) ص ٢٢٥ طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م .

وهكذا تبلور ، ثانية ، ومن جديد ، تيار ثائر من آل البيت وشبابه ، من خلف أولئك النفر الذين انحطوا في تيار المعتزلة ، يقودهم زيد بن علي .. وتضم صفوفهم ذلك الفتي الصغير : محمد بن عبد الله بن الحسن - (النفس الزكية) -

الثورة : خلف زيد بن علي :

وعندما بلغ النفس الزكية الثلاثين من عمره شارك ، عملياً في أولى الثورات التي قادها المعتزلة ضد بني أمية ، على عهد هشام بن عبد الملك في المحرم سنة ١٢٢هـ .. وهي الثورة التي شبت في الكوفة بقيادة زيد بن علي .. وكانت هذه الثورة تستهدف :

- ١ - التصدي للظلم ، وجهاد الظالمين ..
- ٢ - والدفاع عن المستضعفين والمظلومين ..
- ٣ - وتوزيع الأموال بالعدل والمساواة بين المستحقين لها ..
- ٤ - واغلاق المعسكرات التي حشد الأمويون فيها الرجال بدعوى الفتح والغزو في سبيل الله ، بينما كان الهدف الحقيقي فتح جبهات خارجية تصرف الناس عن الوضع المتردى في الامبراطورية !
- ٥ - والانتصار لآل البيت ، الذين بلغ التنكيل بهم ، على يد الأمويين ، حد المأساة .

فلقد حددت هذه الثورة مبادئها تلك في العقد « الاجتماعى الثورى » الذى أبرمته قيادتها مع الثوار ، والذى جاء فى شكل صيغة البيعة التى بايع الثوار عليها قائدها زيد بن علي .. تلك الصيغة التى تقول : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، - صلى الله عليه وسلم - وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفىء بين أهله بالسواء ، ورد الظالمين واقفال الجحمر - (المعسكرات النائية فى الثغور) - ونصرة أهل البيت على من نصب لهم وجهل حقهم .. » (١) .

ولقد حارب النفس الزكية خلف زيد بن علي فى هذه الثورة ، لا لأنه كان مثله معتزلياً ، فقط ، ولا لأنه مثله واحد من فتيان آل بيت الرسول فحسب ، بل - فضلاً عن ذلك - لأن

(١) (تاريخ الطبرى) ج٨ ص ٢٧٢ طبعة دار المعارف القاهرة .

زيد بن علي كان يعيد ، مرة أخرى ، تجسيد أسطورة الفداء في سبيل العدل التي صنعها الحسين على أرض كربلاء ..

● فكما رفض الحسين « نصائح » القاعدين عندما دعوه إلى القعود وإيثار السلامة .. رفض زيد ذلك ، وقال للناس : « إنه لو لم أكن إلا أنا وابني لخرجت على هشام .. فليس الإمام منا من أرخى عليه ستره ، وإنما الامام من شهر سيفه ! »^(١)

● وكما علم الحسين أهل الشهادة والفداء دروساً في الإقدام عندما تنقطع آمال المقاتلين في النجاة الحرة العزيزة ، كذلك صنع زيد عندما أقدم على الموت ، في خضم المعركة ، وهو يشد لرفاقه في القتال :

أذل الحياة وعز الممات وكلا أراه طعاما وبيلا
فإن كان لأبد من واحد فسيروا إلى الموت سيراً جميلاً !^(٢)
لكن الثورة هزمت ، والثوار قد قتلوا ، الا قليلاً منهم ، وذلك لأن هشام بن عبد الملك قد هدد ، الملاك والأشراف والاغنياء بمصادرة ثرواتهم ، فنقضوا بيعتهم لزيد بن علي ، وعادوا إلى شيعة القاعدين مع جعفر الصادق ولم يبق مع زيد سوى الفقراء الذين لا يخشون المصادمات !

وبعد مقتل زيد ، دفنه اصحابه سراً ، ولكن بنى أمية اكتشفوا مدفنه ، فنبشوا قبره ، وصلبوا جثته ، ثم اجتزوا رأسه فبعثوا به إلى هشام بن عبد الملك ، الذي علقها زمناً على باب دمشق ، ثم أمر بها فعرضت على الناس في المدن الكبرى ، كما أمر بجثمان زيد فأحرق . وألقي رماده في نهر دجلة ، زجراً للثوار ؟^(٣) .

ثم الثورة خلف يحيى بن زيد :

أما البقية الباقية من الثوار فإنهم انسحبوا بعدتهم إلى أرض خراسان ، يقودهم يحيى بن زيد بن علي (٩٨ - ١٢٥ هـ - ٧١٦ - ٧٤٣ م) الذي خلف أباه في القيادة .. وكان في مقدمة أعوانه : النفس الزكية ، وأخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن .. وهناك أقاموا في

(١) المصدر السابق ج ٧ ص ١٧٢ .

(٢) ابن قتيبة ، عيون الأخبار) مجلد ١ ص ١٩١ طبعة دار الكتب القاهرة .

(٣) قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد (المغني) ج ٢٠ ق ٢ ص ١٤٩ . طبعة القاهرة .

« الجورجان » ينكرون الظلم ، ويدعون إلى تغيير الجور الذى عم وفشا فى الناس .. حتى إذا كانت أواخر سنة ١٢٥هـ أو أوائل سنة ١٢٦هـ واكتملت له بعض القوة والعدة والانصار ، أعلنوا ثورتهم من جديد ضد بنى أمية وخليفتهم الماجن الوليد بن يزيد (٨٨ - ١٢٦هـ - ٧٠٧ - ٧٤٤م) .

ولقد لقيت هذه الثورة نفس مصير ثورة زيد بن على فى الكوفة ، فانهزمت ، وقتل الأمويون أغلب مقاتليها ، وصنعوا مع يحيى بن زيد ما صنعوا بأبيه .. بل لقد بلغ بهم البطش والإرهاب إلى الحد الذى حرموا فيه على الناس اظهار الحزن على مقتل الثائرين ، حتى لقد كتم الناس حزنهم على زيد وابنه إلى أن كان العام الذى انهار فيه حكم بنى أمية - (١٣٢هـ) - فانفجر حزن الناس عليهما ، حتى ان كل من ولد بخراسان فى ذلك العام ، من الذكور ، قد سماه أهله اما : زيد ، واما يحيى !^(١) .

وكان يحيى بن زيد ، قبيل مقتله ، قد عهد بالقيادة من بعده للنفس الزكية ، فأصبح قائد الثورة وحامل اماتها منذ ذلك التاريخ ، ومعه اخوه إبراهيم^(٢) .

مع الخلافة الشورية ضد الملك الوراى :

ومع حلول عام ١٣٢هـ - وبعد القضاء على ثورة أخرى للمعتزلة ، نجحت فى الشام لعدة شهور عام ١٢٦هـ - بدأت نذر الانهيار للدولة الأموية واضحة للعيان .. وأدرك المعتزلة - الذين كان يقود حزيم : عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤هـ - ٦٩٩ - ٧٦١م) - أن الظروف مواتية لتصحيح الخلل الذى أحدثه الامويون فى نظام الحكم الاسلامى ، فلقد آن الأوان لتدبير أمر السلطة التى ستخلف الدولة المنهارة أمام ثورات الخوارج والمعتزلة والشيعة - الخ .. وآن الأوان كذلك لإحداث التغيير الجذرى فى فلسفة الحكم ، والعودة بها إلى « الشورى » بدلاً من « الملك الوراى » الذى حدث منذ معاوية بن أبى سفيان ..

فشرع المعتزلة يعرضون على المدارس الفكرية والتيارات السياسية فكرهم هذا .. ثم دعوا إلى مؤتمر عقده فى مكة ، ورشحوا لمنصب الخلافة خليفة تم البيعة له بالرضا والاختيار ، فاستجابت اتجاهات عديدة وقيادات كثيرة - ليس من بينها شيعة جعفر الصادق - لهذه الدعوة

(١) المسعودى (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٦٧ طبعة القاهرة ١٩٦٦ م .

(٢) الشهرستانى (الملل والنحل) ج ٢ ص ٨٥ .

التي عرضها عمرو بن عبيد ، وكان النفس الزكية هو ذلك الخليفة الذي عقدت له البيعة في مكة .. ولقد قال عمرو بن عبيد وهو يرشح النفس الزكية لخلافة المسلمين : أيها الناس .. « إننا قد نظرنا ، فوجدنا رجلاً له دين ، وعقل ، ومروءة ، ومعدن للخلافة ، وهو محمد بن عبد الله بن الحسن ، فأردنا أن نجتمع معه فبايعه ، ثم نظرنا امرنا معه ، وندعوا الناس إليه ، فمن بايعه كنا معه ، ومن اعتزلنا كففنا عنه ، ومن نصب لنا جاهدناه ونصبنا له على بغيه ، ونرده إلى الحق وأهله .. »^(١)

ومنذ ذلك التاريخ انتشر الدعاة يدعون الناس لبيعة النفس الزكية بالخلافة ، وغطى انتشارهم كل المدن ومختلف الاقاليم .. وكان من بين الذين بايعوا للنفس الزكية ، وانخرطوا في سلك الدعاة لخلافته قادة الفرع العباسي من بني هاشم ، وفي مقدمته أبو العباس - (السفاح) - وأبو جعفر المنصور !.

الشعبوية تختار الملك .. وترفض الشورى :

وبعد أن اتسع نطاق الثورة ضد بني أمية وآخر خلفائهم مروان بن محمد ، تبلور في قيادة هذه الثورة تياران :

أولهما : تيار عربي يقوده أبو سلمة حفص بن سليمان الهمداني الخلال (١٣٢ هـ - ٧٥٠ م) .. وهو تيار قومي ، يدعمه المعتزلة بفكرهم القومي العربي المستنير ، الذي يرفض الشعبوية المعادية للعروبة ، ويشجب العصبية العربية الضيقة الأفق التي فرق بها الأمويون بين أبناء الأمة الواحدة ، ويدعو إلى مضمون حضاري وإنساني لعروبة تؤلف بين كل الذين تجمعهم المصلحة في الثورة ضد الظلم والجور والاستبداد .. وهذا التيار كان يجد في اتجاه تنصيب النفس الزكية خليفة بالبيعة والعقد والاختيار .

وثانيهما : تيار شعوبي ، يكن للعرب كراهية شديدة ، ويضمر للعروبة حقلاً أعمى ، ويقوده أبو مسلم الخراسان (١٣٧ هـ - ٧٥٤ م) .. وكانت وراء هذا التيار الشعوبي موارد في الفلسفة السياسية جاءت من النظام الكسروي ، تزكى نظم الملك والوراثة ، وتنفر من الشورى والاختيار .. وأيضاً فلقد كانت القضية الأولى لهذا التيار هي الانتقام من العرب الذين فتحوا بلادهم بالسيف ، وأذلوا جماهيرهم بعصبية الأمويين ..

(١) د . أحمد محمود صبحي (نظرية الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية) ص ٣٦٦ / ٣٦٧ طبعة القاهرة ١٩٦٩ م

وهنا وجد الفرع العباسي الفرصة فانتزها .. فعقدت الصفقة بين أبي العباس - (السفاح) والمنصور وبين هذا التيار الشعبي ، وعم الإتفاق على أن ينتقل « الملك » من بني أمية إلى بني العباس ، وأن يزاح من الطريق ذلك الخليفة الذي جمعت وتجمع له البيعة وتعقد له العقود - النفس الزكية - وأن يزاح معه التيار القومي في الثورة - بقيادة المعتزلة - فيستأثر العباسيون « بالملك » وتكون القبضة القوية في الدولة الجديدة للجند الخراساني الذين يقودهم شعوبو فارس بزعامة أبي مسلم الخراساني ..

ولما استشعر أبو سلمة الخلال أبعاد الموقف ، وسعى في احباط ذلك المخطط ، ذهب المنصور إلى لقاء أبي مسلم ، وأخبره الخبر .. فبعث أبو مسلم إلى أبي سلمة من قتله غيلة ، واتهموا الخوارج باغتياله ! وسعوا إلى بقايا الجند الأموي الذين كانوا يقاومون الثورة ، ويفكرون في نقل ولائهم إلى خلافة النفس الزكية ، فأفلحوا في تحويل رياح ولائهم إلى أبي العباس السفاح .. وهكذا اختطف العباسيون ثمرة الثورة ، بعد أن أجهضوا فلسفتها الاصيلية - الشورى - فبقى نظام الحكم ملكاً وراثياً ، بعد أن تغير بيت الملك ، فأصبح عباسياً يعتمد على القبضة الحديدية للجند الخراسانيين^(١) !

إذن .. فالثورة مستمرة :

لكن المعتزلة لم يسلموا بهذه النتائج التي وصلت إليها ثورة الأمة ضد بني أمية ، ولم يستسلموا لهذه النهاية .. فاستقر الرأي فيهم على رفض كل ذلك ، وعلى الإعداد لثورة جديدة تحقق للأمة أهدافها التي ابتغتها عندما ثارت على الأمويين . وظل النفس الزكية على موقفه : خليفة عقدت له البيعة ، وهو لا يزال يجد في استكمال البيعة والعقد من مختلف المدن والاقليم ..

أما العباسيون - بقيادة خليفهم الأول : أبو العباس السفاح (١٠٤ - ١٣٦ هـ - ٧٢٢ - ٧٥٤ م) - فإنهم قد وجهوا جورهم واضطهادهم ، لا إلى بقايا الدولة الأموية فقط ، بل وإلى الرافضين لسلطتهم وسلطانهم على البلاد .. حتى لقد بلغت مظالمهم وتجاوزاتهم الحد الذي جعل النفس الزكية يردد دائماً وأبداً :

(١) ابن أبي الحديد (شرح سهج البلاغة) ج ٣ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ج ١٥ ص ٢٩٣ طبعة القاهرة ١٩٥٩ م . (تاريخ الطبري) ج ٧ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٤ ، ج ٩ ص ١٠٦ ، ١٢٣ .

يأليت جور بنى مروان دام لنا يا ليت عدل بنى العباس ماكانا !
ولم يعمر السفاح طويلاً - فخلفه أبو جعفر المنصور (٩٥ - ١٥٨ هـ - ٧١٤ - ٧٧٥ م) الذى أدرك حرج الموقف الشرعى لسلطة بنى العباس ..

● فللنفس الزكية فى أعناق الناس بيعة شرعية بالخلافة ، قامت على الشورى والاختيار ، بل إن المنصور ذاته هو واحد من المبايعين ! صحيح أن الكثيرين من الذين بايعوا النفس الزكية قد أكرهوا - بوسائل كثيرة ، خشنة أو ناعمة - على البيعة للمنصور .. ولكن ها هو الإمام مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩ هـ - ٧١٢ - ٧٩٥ م) يفتى ببطان بيعة المكره ويمين الإكراه ! ويفتى بأن البيعة الحققة هى بيعة الاختيار التى عقدت للنفس الزكية .. ولا يرجع عن فتواه هذه حتى بعد أن تعرض للأذى والاضطهاد !^(١)

● وثورة النفس الزكية المنتظرة قد تحولت من أمل يرتجى إلى حقيقة تؤكد الاساطير حتمية وقوعها .. فالتاس قد غدوا يلقبونه « بالمهدى » الذى سينهض يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً .. وشاعت بين الناس اعتقادات بأن هذه الثورة المنتظرة قد تحدثت عنها كتب الأولين ورواياتهم ومأثوراتهم القديمة !^(٢)

● والنفس الزكية وأخوه إبراهيم قد اختفيا عن عيون الطالبين من الجند والأنصار .
فعندما حج المنصور فى عام ١٣٦ هـ ، بعد توليه الخلافة ، صحبه أولقيه وجوه القوم وأمراء بنى هاشم .. ولكنه بحث عن النفس الزكية أو أخيه إبراهيم فلم يعثر لها على أثر ولم يسمع عنها أى خبر وأخذ يستشير خاصته فهون من أمرهما البعض ، وحذره من ثورتها الأكثرون .. وزاد من همه أن الذين هونوا من أمرهما عللوا اختفاءهما بما سبق للنفس الزكية من بيعة بالخلافة .. فهى إذن السلطة يبيتون الأمر لثورة تنتزعها من بنى العباس .. وهكذا لم يعد للدولة العباسية هم - بعد تصفية بقايا جهاز بنى أمية العسكرى والسياسى - إلا رصد تحركات النفس الزكية وثورته المحتملة ، وبث العيون على المعتزلة ، وإحكام الخطط لاجهاض هذا الخطر قبل أن تكتمل له مقومات النجاح ..

ولقد بلغ المنصور ، يوماً ، أن النفس الزكية قد هبط إلى البصرة ، سراً ، فى أربعين من أنصاره ، فأسرع بجنده كى يحاصر المدينة .. فاستشعر المعتزلة هجومه ، فبعثوا للقاتل إمامهم

(١) (تاريخ الطبرى) ج ٧ ص ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٥٦٠ .

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٥٥١ .

عمرو بن عبيد - وكان أستاذاً للمنصور أيام كان من رجالات المعتزلة - ولقد أتاح خروج عمرو إلى المنصور واستقباله له الوقت لخروج النفس الزكية من البصرة ، حتى إذا سأل المنصور عمراً عن وجود النفس الزكية بالمدينة كان صادقاً في نفيه لهذا الوجود ؟ ! .. فعاد ثانية إلى بغداد ..

وعندما أراد المنصور سبر نوايا عمرو بن عبيد تجاه ثورة النفس الزكية ، زيف رسالة على لسان النفس الزكية إلى عمرو ، وأرسل بها رسولاً قدمها إليه وهو في مجلسه بمسجد البصرة ، فنظر فيها عمرو ، وأدرك الحيلة ، فتطلع للرسول ، وأعاد إليه الرسالة قائلاً : قل لصاحبك : دعنا نجلس في هذا الظل ونشرب من هذا الماء البارد حتى تأتينا آجالنا في عافية^(١) .. فإذا ما استدعاه المنصور وسأله ، صراحة ، عن موقفه من النشاط الثوري للنفس الزكية ، قال له : لقد سبقت لك معرفة رأيي في استخدام السيف - (القوة) - أيام كنت معنا .. فقال له المنصور : أتخلف ؟ فأجابه : « إن كذبتك تقية - (أى خوف الضرر واتقاء له) - لأحلفن لك تقية » ؟ ! ..

والأمر الذى طمأن المنصور إلى موقف عمرو بن عبيد ، وموقف المعتزلة في حياته وتحت قيادته ، أن المعتزلة ، وفي مقدمتهم عمرو بن عبيد ، كانوا يشترطون - خاصة بعد الفشل المتكرر لعدد من ثوراتهم ضد بني أمية - يشترطون لإعلان الثورة أن يبلغ الثوار حد التمكّن من احراز الانتصار .. وكان عمرو يبالي ، أو يمتاط ، في ذلك ، حتى قيل إنه كان يشترط للثورة وجود عدد من الرجال يساوي عدد المسلمين يوم غزوة بدر ، على أن يكونوا من نوعيته هو ، في الصلابة والاخلاص والتجرد والفداء .. ولقد اطمأن المنصور ، وقال لمن أخبره أن المعتزلة بقيادة عمرو خارجون عليه خروجاً وشيكاً : « إن عمرا لا يرى أن يخرج عليّ إلا إذا وجد ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً مثل نفسه .. وذلك لا يكون !؟^(٢) .

أما النفس الزكية .. فلقد أقام المنصور لمطاردته ورصد نشاطه الثوري جهازاً جديداً خاصاً .. فاستأجر العديد من رقيق الأعراب وغلماهم ، وأعطى كلا منهم البعير أو البعيرين ، وجعلهم يتشرون في المواطن والمظان التي تأتيه الأنباء بدخول النفس الزكية إليها . فكانوا يردون مواطن الماء ومضارب القبائل يتجسسون ويتحسسون الأخبار والآثار .. الأمر الذى فرض على النفس الزكية ألا يقيم بمكان ما إلا بمقدار الزمن الذى يبلغ فيه البريد من هذا المكان إلى بغداد ! ..

(١) عيون الأخبار مجلد (١) ص ٢٠٩ .

(٢) فضل الأعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢٣٢ .

وهو بذلك قد عز على الوقوع في يد الجواسيس ، ولكنه حرم من الروبة اللازمة للعمل الثورى الذى يجد فى سبيله^(١) .

بل لقد اضطرته المطاردات إلى أن يجوب ارجاء البلاد متخفياً .. فاعتصم زمناً بـجبال نجد والحجاز ، حتى لقد سقط منه ولده الرضيع من فوق قمة الجبل ، فى إحدى المطاردات ، فمات ! .. وذهب إلى عدن .. ومنها استقل سفينة ذهبت به إلى بلاد السند ، وركابها لا يعلمون أن بينهم امير المؤمنين « الشرعى » ، هارباً من أميرهم « الرسمى » أبى جعفر المنصور ! .. تم عاد ثانية إلى الكوفة .. ثم إلى المدينة . وفيها استشعر الخطر فى أحد الأيام ، وسرعان ما تنكر فى زى واحد من الغلمان الذين يستخرجون الماء من الآبار ، وانخرط بالبرير يرفع دلاء الماء مع العمال !

المنصور يتعجل الثورة :

ولما فشل المنصور فى الايقاع بالنفس الزكية قبل قيامه بالثورة ، اتخذ لبلوغ هدفه سبيلاً آخر .. فقرر العمل على التعجيل بقيام الثورة قبل أن يكتمل لقادتها وأنصارها الاستعداد ! ..

● فأوحى إلى قواده ورجال دولته أن يرسلوا الرسائل السرية إلى النفس الزكية يبلغونه فيها أن قلوبهم معه ، وأنه عندما يعلن خروجه وظهوره ، وتلتقى الجيوش فى القتال فإنهم سيميلون معه بقواتهم ضد المنصور . فجازت هذه الحيلة على النفس الزكية فى كثير من الأحيان ، فصدقها^(٢) ..

● وألقى المنصور القبض على عبد الله بن الحسن - والد النفس الزكية - وإبراهيم بن الحسن ، وأبو بكر بن الحسن ، وعدد من أهل بيته فيهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفان .. فكبلوا بسلاسل الحديد ، وحملوا من المدينة إلى الربذة ، ومنها إلى سرداب تحت الأرض بالقرب من قنطرة الكوفة على شاطئ الفرات .. وفى هذا السرداب انقطعت عنهم أخبار الحياة والاحياء ، ولم تعد لهم معرفة بمواقيت الليل أو النهار ، بعد أن غاب عنهم ضوء الشمس فاختلط الليل عليهم بالنهار ، وسادت الظلمة بين كل الأوقات ..

وفى هذا السرداب ، واجهت هذا نفر من آل بيت الرسول - عليه الصلاة والسلام - تجارب انسانية هريدة وغريبة .. فلقد أرادوا تقسيم الزمن إلى أجزاء حتى يمكنهم تأدية الصلاة

(١) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٥١٩ ، ٥٣٤ .

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٥٥٩ .

في موافقتها ، فلم يجدوا غير تقسيمهم القرآن إلى خمسة أجزاء ، يتناوبون قراءتها ، وعند الفراغ من الجزء ينهضون لأداء إحدى الصلوات؟!..

وكانوا يقضون حوائجهم في نفس السرداب المظلم ، فاشتدت عليهم الروائح الكريهة ، وزحف المرض إلى أبدانهم ، فأخذت الأورام في الظهور بأقدامهم ، ثم شرعت تزداد وترتفع حتى إذا بلغت قلب أحدهم أنهت حياته!.. وكانت أوامر المنصور أن تظل جثث موتاهم معهم في السرداب .. حتى لقد صعق داود بن الحسن ، فمات من هول رائحة الجيفة .. جيفة إسماعيل بن الحسن (١) !

وكانت أنباء تلك المأساة - التي أودت بحياة هذا نفر من آل البيت - تصل إلى النفس الزكية - فأسهمت - كما أراد المنصور - في التعجيل بثورته قبل الأوان .

● ولقد أمر المنصور رجلاً فانتزعوا من السرداب ، محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فقتلوه ، واجتزوا رأسه ، ثم طافوا به في المدن والأقاليم ، يقسمون للناس أنه رأس محمد بن عبد الله .. موهمين إياهم أنه النفس الزكية ، حتى يتحلل الناس من بيعتهم له ، ويقبلون عن تعلقهم به وانتظارهم لخروجه وثورته على المنصور !

ولقد أثرت هذه الخطة التي رسمها المنصور ، فدفعت النفس الزكية إلى اعلان ثورته ، مضطراً ، قبل أن يكتمل له الاعداد والاستعداد .. وبعبارة الطبرى « فإن محمداً - النفس الزكية - قد أخرج ، فخرج - (ثار) - قبل وقته الذي اتفق عليه مع أخيه إبراهيم » (٢) .

الثورة والاستشهاد :

وعندما ظهر النفس الزكية في شوارع المدينة ودروبها في اليوم الأول من شهر رجب سنة ١٤٥هـ اضطربت المدينة واهترت جنباتها لظهوره فيها .. وكان الناس ينادون عليه صائحين : المهدي! .. المهدي!.. وأسرع الناس لشراء الطعام ، حتى لقد باع البعض ، لذلك ، حلى نسائه! ..

وفي البداية اقتحم النفس الزكية مع انصاره سجن المدينة فأفرج عمن فيه من الثوار والمعارضين لبني العباس ، ووضع مكانهم الوالى وأصحابه .. تم استولى على بيت المال ..

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) (تاريخ الطبرى) ج ٧ ص ٥٥٢ .

وخطب في الناس ، فادان استبداد بني العباس ، واغتصابهم أمر المسلمين دون مشورة أو رضا ، وأعلن أن الأحق بهذا الأمر هم أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين .. وعلى حين كان اللون الأسود شعار بني العباس ، فلقد كان البياض شعار النفس الزكية وانصاره .. وعلى أعلام ثورته وراياتها كتب شعار النبي يوم غزوة حنين : « أحد ، أحد ، أحد ! » ورتب جهاز الحكومة والحكم بالمدينة .. وشرع يرسل الولاة إلى الأمصار والأقاليم ، بعد أن أعلن في الناس أن له في اعناق الأمة بيعة بالخلافة شرعية ، فقال : « والله ماجئت وفي الأرض مصر يعبد الله فيه الا وقد أخذ لي فيه البيعة » .. ودخل في بيعته آل أبي طالب : العلويون ، وولد جعفر ، وعقيل ، وولد عمر بن الخطاب ، وولد الزبير بن العوام ، وسائر قریش ، وأولاد الانصار .. وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة .. ومنها : جهينة ، ومزينة ، وسليم ، وبنو بكر ، وأسلم ، وغفار ..

- وولى على مكة : الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ..
- وعلى المدينة : القاسم بن اسحاق ..
- وعلى الشام : موسى بن عبد الله ..
- وولى أمر السلاح : عبد العزيز بن الدراودي^(١) .. كما بعث بإخوته وأولاده إلى الامصار والأقاليم ، دعاة ومبشرين ..

- ففي البصرة كان : إبراهيم بن عبد الله بن الحسن .
- وإلى مصر ذهب : على بن محمد ..
- وإلى خراسان : عبد الله بن محمد ..
- وإلى اليمن : الحسن بن محمد ..
- وإلى الجزيرة : موسى بن عبد الله
- وإلى الري : يحيى بن عبد الله ..
- وإلى المغرب : ادريس بن عبد الله^(٢) ..

ولما وصل خبر ظهور النفس الزكية وعلان ثورته إلى المنصور ، استشار خاصته ورجال دولته ، فهونوا عليه الأمر إن هو أحكم التدبير .. ولقد أرسل المنصور يهدد النفس الزكية ،

(١) المصدر السابق ج ٧ ص ٥٦١ .

(٢) (مروج الذهب) ح ٣ ص ٢٣٤ .

فكان جوابه فى كلمات : لك عهد الله إن دخلت فى بيعتى أن أومنك على نفسك وولدك ! .. وهنا بدأ المنصور فى التدبير..

فالمدينة موطن قليل الرجال ، تحيا على الزاد الذى يجلب إليها من خارجها ، وخاصة من مصر.. فاستقر الرأى على حصارها اقتصادياً .. فنع عنها الطعام والحبوب التى كانت تأتىها من الشام ، بفرض الحصار عند وادى القرى^(١) .. وحتى لا يسهم انصار النفس الزكية بمصر- وكانوا كثرة غالبية - فى إمداد عاصمته بالغذاء ، عن طريق « خليج أمير المؤمنين » الذى حفره عمرو بن العاص سنة ٢٣هـ وأمد المدينة عن طريقه بالحبوب عام الرمادة - (المجاعة) - فى خلافة عمر بن الخطاب .. أمر المنصور والى مصر فسد هذا الخليج وعى آثاره^(٢) !

ثم حشد الحشود الكبرى من حول البصرة ، باعتبارها أكثر مواطن أنصار النفس الزكية قوة فى الثورة وقدرة على الصمود ..

ثم أرسل إلى المدينة جيشاً من جند خراسان ، يقوده عيسى بن موسى بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس ، ومعه محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، ومعه محمد بن أبى العباس السفاح .. وكان فى هذا الجيش المجهز تجهيزاً عالياً ، بالمال والمؤن والسلاح والخيل والبغال ، أربعة آلاف من الفرسان .. وأحكم هذا الجيش حصار المدينة فى اليوم الثانى عشر من رمضان سنة ١٤٥هـ وترك لها منفذاً واحداً ، كى يستخدمه من يريد الفرار !..

وعندما وضع للنفس الزكية حرج الموقف الاقتصادى ، ومن ثم العسكرى ، للمدينة استشار خاصته وأنصاره . فأشار عليه نفر منهم بترك المدينة والذهاب إلى مصر ، حيث أنصاره كثيرون ، وحيث مقومات الصمود متوافرة ، وإمكانات الإقليم مضاهية لامكانيات عراق المنصور .. وقالوا له :

- « ألسنت تعلم أنك أقل بلاد الله فرساناً وطعاماً وسلاحاً ، وأضعفها رجالاً ؟

- فقال : بلى ..

- فقالوا : أتعلم أنك تقاوتل أشد بلاد الله رجالاً وأكثرها مالاً وسلاحاً ؟

- فقال : بلى ..

(١) (تاريخ الطبرى) ج ٧ ص ٢٣٤ .

(٢) القلقشندى (صبح الأعشى) ج ٣ ص ٢٩٨ . طبعة دار الكتب - القاهرة .

- فقالوا : الرأى أن تسير بمن معك حتى تأق مصر ، فوالله لا يردك راد ، فتقاتل الرجل -
(المنصور) - بمثل سلاحه ورجاله وماله ..

ولكن نفرأ من أهل المدينة تملكهم قصر النظر ، واستولت عليهم الخرافة . فعارضوا هذا الرأى ، واستعاذوا بالله من الخروج من مدينة رسول الله .. وروى أحدهم عن الرسول حديثأ يقول فيه : « رأيتنى - فى المنام - فى درع حصينة ، فأولتها : المدينة » .. وطلبوا من النفس الزكية البقاء بالمدينة .. فهى الدرع الحصينة كما رووا عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

وبمرور الوقت أخذت تتضح للنفس الزكية وأنصاره آثار افتقار المدينة لامكانيات الصمود أمام جيش المنصور .. وعندما ازداد الحرج بالمدينة ، واشتدت عليها وطأة الحصار ، وظهرت آثاره .. خطب النفس الزكية فى أنصاره ، فقال : « أيها الناس ، إن هذا الرجل - (عيسى بن موسى) - قد قرب منكم فى عدد وعدة ، وقد حللتكم من بيعتى ، فمن أحب المقام فليقم ، ومن أحب الانصراف فليصرف ! » فأخذوا يتسللون إلى خارج المدينة ، حتى لم يبق معه من المائة ألف إلا ثلاثمائة قد صدقوه البيعة ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه من الفداء حتى النصر أو الاستشهاد ! .

تم .. دار القتال شديدا وبالغ العنف والقسوة بين الفريقين .. النفس الزكية ومعه الثلاثمائة .. وعيسى بن موسى فى أربعة آلاف من الفرسان يدعمهم المترجلون المشاة .. وأبلى النفس الزكية فى قتاله بلاء حسناً ، وأعاد على أرض المدينة قصة فداء الحسين فوق أرض كربلاء .. حتى كان يوم الاثنين ، الرابع عشر من رمضان سنة ١٤٥ هـ (سنة ٧٦٣ م) عندما استطاع جيش المنصور أن يجهز على القلة الصامدة المستبسلة .. فقتل النفس الزكية - بعد أن قتل بيده سبعين فارسأ فى معركة الأخريرة - وقطع رأسه ، وأرسل إلى المنصور ، حيث طيف به فى الآفاق .. وقتل أصحابه جميعأ ، دون استثناء .. ثم صلبوا صفيين على جانبي الطريق ، بالمدينة ، ما بين « ثنية الوداع » ودار عمر بن عبد العزيز ! ..

ورفض قادة الجيش الغازى السماح بإنزال الجثث من فوق صلبانها لمواراتها التراب ، فأوقفوا أمام كل صليب حارسأ يحول دون الجثة ودون أهلها .. ودام الحال كذلك ثلاثة أيام ، حتى تأذى الناس من الرائحة ! فأمر عيسى بن موسى جنوده فألقوا بالجثث من فوق « جبل سلع » لتسقط فى « المفرح » مقبرة اليهود (١) ؟ ! ..

(١) (تاريخ الطبرى) ج ٧ ص ٥٧٧ - ٥٨٥ - ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ - ٦٠١ ، ٦٠٣ .

وهكذا استطاع أبو جعفر المنصور أن يقضى على ثورة المدينة .. وأن يهزم قائدها : النفس الزكية ، الذى عقد الناس - وفيهم المنصور - له البيعة بإمارة المؤمنين .. فدفت مع جثث هؤلاء الشهداء فلسفة الشورى الإسلامية ، وظل الحكم ملكاً عضوداً فى بنى العباس كما كان من قبل فى الأمويين! ..

ورجعت إلى بارئها تلك النفس الزكية راضية مرضية ، بعد أن وفّت دينها لربها وقومها .. عندما انكرت المنكر ، وأمرت بالمعروف .. واقتحمت المخاطر .. وحققت وصية جدها ، عليه الصلاة والسلام ، لأمته عندما قال : « ليس لعين ترى الله يعصى أن تطرف ، حتى تغير ، أو تنتقل ! » .. ووضعت فى التطبيق ما أوصى به الرسول عليه الصلاة والسلام حذيفة بن اليمان عندما سأل الرسول :

- « يارسول الله ، أيكون بعد الخير الذى أعطيناها شر ، كما كان قبله ؟ !

- قال : نعم .

- فقال حذيفة : فبمن نعتصم ؟

- فقال الرسول : بالسيف ! . »

رجعت النفس الزكية إلى بارئها راضية مرضية ، بعد أن غرست ذلك الغرس ، وجسدت تلك المعاني كى تظل ، دائماً وأبداً ، هامة الإنسان المسلم عالية ، وكى يظل العدل ، دائماً وأبداً ، أساس الملك والحكم بين الإنسان وأخيه الإنسان .

- ٩ -

على بن محمد

[٢٧٠هـ / ٨٨٣م]

ثورة « الزنج » العربية

تقديم

عندما أكتب اليوم عن ثورة الزنج ، وقائدها على بن محمد (٢٧٠هـ - ٨٨٣م) فإننى أحقق بذلك أمنية تمنيتها منذ ما يزيد على ربع قرن من الزمان !.. فلقد قرأت يومها صفحات كتبها المرحوم الدكتور طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م) عن هذه الثورة ، قارن فيها بينها وبين ثورة اسبارتاكوس Spartacus (٧٣ - ٧١ ق..م) لتحرير العبيد من مظالم الدولة الرومانية واستعبادها .. وتمنى فى بحثه ذلك أن تحظى ثورة الزنج بما حظيت به ثورة اسبارتاكوس ، فى حقل الأدب والفن ، عندما استلهمها عدد من عمالقة هذا الميدان فى حضارة الغرب ، فقدموا لشعوبهم تراثها القديم فى الثوب الذى يعين هذه الشعوب على تحقيق المزيد من الحرية والتقدم لحاضرها الذى تعيشه ولستقبلها المأمول ..

فئذ ذلك اليوم تمنيت أن أكتب عن ثورة الزنج .. وكبرت الأمنية ونمت مع السنوات ، وخاصة بعد أن أصبح التراث العربى الاسلامى ، وصفحاته المشرقة بالثورة ، وبأحلام العدل الاجتماعى ، وبعلاء سلطان العقل كى يطارد الخرافة ، هى الميدان الذى وقع عليه أغلب الجهد الذى قدمته وأقدمه فى التأليف والتحقيق ..

صحيح أنى أشرت إلى هذه الثورة فى صفحات قليلة تضمنها كتاب لى صدر فى ١٩٦٨م^(١) .. ولكنها كانت مجرد اشارة لا تشفى غليل الباحث ولا تروى عطش القارئ ، ومن ثم فإنها لم تحقق ما تمنيته عندما طالعت ، مبكراً ، حديث الدكتور طه حسين عن هذه الثورة وقائدها على بن محمد (٢٧٠هـ - ٨٨٣م) ..

وإذا كنت أتقدم لكاتبه هذه الصفحات عن ثورة الزنج ، بعد أن قدمت عدداً من

(١) انظر (عجّ اليقظة القومية) ص ٨٧ - ٨٩ . طبعة القاهرة سنة ١٦١٨ م . وص ١٤٩ - ١٥٣ من الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

الدراسات عن هذه القسمة - قسمة الثورة - في تراثنا الإسلامى وتاريخنا العربى - غير هذا الكتاب الذى تقدم فى سياقه هذه الصفحات ، فإن الأمانة تستوجب التنبيه على أن الكتابة عن ثورة الزنج ربما كانت أصعب من الكتابة عن غيرها من ثورات تاريخنا وتراثنا .. فثورات الشيعة ، وإن كانت قد ظلمت من خصومها ، إلا أنها قد وجدت الإنصاف من انصارها وكتابها .. وكذلك الحال بالنسبة لثورات المعتزلة ، إلى حد ما ، وثورات الخوارج ، وكذلك ثورات الموأى .. وغيرها من تيارات الفكر والسياسة فى تراثنا .. أما ثورة الزنج فإنها تكاد أن تفرد بالافتقار إلى المؤرخ المنصف أو المحايد ، فضلا عن الناصر !.. فخصومها - وكلُّ المؤرخين كانوا خصومها لها - قد نسبوها ، على سبيل الذم والاتهام ، إلى تيارات فكرية كانوا يناصبونها العداء ..

● قالوا إنها كانت على مذهب الخوارج .. ولم يقدموا على ذلك دليلا تطمئن إليه النفس .. تم جاء الخوارج فأنكروا أنها من ثوراتهم ، ومن ثم فإنهم لم يدافعوا عنها ، ولم يهتموا بحفظ تراثها ومادة أحداثها على النحو الذى ييسر مهمة الباحثين عنها وفيها ..

● وقالوا إنها إحدى ثورات « العلويين » - أبناء على بن أبى طالب - ضد « العباسيين » .. ثم قطعوا بأن انتساب قائدها إلى « العلويين » هو محض ادعاء ! - ثم جاء الكتاب والمؤرخون من أنصار « العلويين » ، والشيعة بعامة ، فأهملوها عندما أرخوا لثوراتهم فوافقوا ، فى التجاهل على الأقل ، خصوم هذه الثورة ! ..

ويكنى كى ندرك مصاعب الكتابة الجادة والوافية عن هذه الثورة ، أن نعلم المصدر الأول والأساسى والأوفى فى الحديث عنها هو تاريخ الطبرى - (تاريخ الرسل والملوك) - .. فلقد أفرد لها أكثر من مائتى صفحة^(١) ، وهو مالم يصنعه مع ثورة أخرى من الثورات التى تحدث عنها .. وهو قد عرض بتفصيل وافٍ لأحداث القتال فيها ، حتى ليكاد يرسم ، بالكلمات ، خريطة مواقع القتال وقادته واحداثه ! .. وإن يكن قد اغفل إلى حد كبير ما قامت لأجله من أهداف .. تم إن الطبرى ، محمد بن جرير (٢٢٤ - ٣١٠ هـ - ٨٣٩ - ٩٢٣ م) قد عاصر هذه الثورة ، وكان فى بغداد ، على مقربة من ميادين قتالها ، يسمع الأخبار ويعيش الأحداث ، ثم إنه قد روى الكثير عن شاهد عيان عاش أحداث هذه الثورة .. ومع كل هذا تظل الصعوبة قائمة أمام الباحث عن المادة الوافية لفكر هذه الثورة وآراء اصحابها .. فالطبرى الذى يقدم أهم أخبارها وأكثرها ، ينطلق فى تأريخه لها من منطلق العداء ، بل والعداء الشديد .. فهو

(١) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٤١٠ - ٦٦٣ . طبعة دار المعارف . القاهرة .

يطلق على قائدها : علي بن محمد ، أوصافاً من مثل : « الخبيث » ! و« اللعين » ! و « الخائن » ! و« الفاسق » ! .. بل ويكتفى بصفة من هذه الصفات ، أو أكثر ، عندما يريد الحديث عن قائد ثورة « الزنج » ، ولا يذكر اسمه إلا في القليل ، وفي مجال تفنيد ادعائه الانتساب إلى « العلويين »؟! ..

بل لقد تصاعد العداء لعلي بن محمد ، فتجاوز اتهامه « بادعاء النسب العلوي » إلى اتهامه « بادعاء أن النبوة قد عرضت عليه ! » فيروى الطبري عن محمد بن الحسن^(١) أن محمد ابن سمعان حدثه أن قائد الزنج قال له في بعض أيامه :

- لقد عرضت على النبوة فأبيتها !

- ولم ذلك؟! ..

- لأن لها اعباء خفت ألا أطيق حملها ! ..^(٢) .

فأية صعوبة يجدها الباحث عن حقيقة هذه الثورة في مثل هذه الصفحات من مصادر التاريخ؟! .. بل : أية صعوبة لايجدها الباحث في هذه المصادر وذلك التاريخ؟! ..!

* * *

لكن .. لعل في المنهج العلمي الذي نلتزمه في البحث مايعين على النقد والتحجيص للروايات والمأثورات ، ولعل في مقارنة هذه المرويوات والمأثورات ، وعرض بعضها على البعض الآخر ، ما يساعد على تلمس الصواب بين ركام من الاتهامات التي أفرزها الخلاف الفكري والعداء السياسي والصراع الطبقي والاجتماعي .. الأمر الذي يتيح للقارئ العربي المعاصر أن يرى اليوم صفحة من صفحات الثورة في تاريخه وتراثه ، فيدرك : كيف تطلع أسلافه إلى العدل ، وكيف سعوا إلى مجتمع تحف فيه القيود وترتفع فيه عالية انسانية الإنسان .. ففي ذلك زاد لانساننا المعاصر ، يعينه على اقتحام العقبات لصنع الحاضر المشرق والغد الأكثر إشراقاً ، بقدر ما يعينه على أن يرتبط بتراث أمته وحضارتها .. فعندما يصبح التراث روحاً سارية في

(١) محمد بن الحسن بن سهل ، المعروف بشيلمة (كان حيا قبل ٢٨٩ هـ - ٩٠٢ م) وهو المصدر الرئيسي للطبري في أخباره عن ثورة الزنج . أديب ومؤرخ ، صحب قائد ثورة الزنج زمنا ، ثم انضم إلى الدولة في عاصمتها بغداد طالبا الأمان ، فأعطى له .. ولقد أحرقة الخليفة المعتضد حيا لأنه ، كما قيل ، سعى إلى بعض الحوارج ا ومن كتبه (كتاب أخبار صاحب الزنج ووقائعه) . انظر : ابن النديم (المهرست) ص ١٢٧ طبعة لبيزج سنة ١٨٧١ م .

(٢) تاريخ الطبري . ج ٩ ص ٤٩٩ .

جسد الأمة وضميرها عبر العصور ورغم القرون ، تصبو ، ولاشك ، أجيالها الحاضرة إلى مواصلة مسيرة الأسلاف العظام ، وذلك حتى يكونوا خير خلف هؤلاء الأسلاف !..
لمثل هذا الهدف تطيب مشاق البحث ، وتصبح معاناته إحدى الملذات !..
ثم .. متى كان البحث عن الحقيقة ، والسعى لإبراز الحق واطهاره على الباطل أمراً هيناً أو ميسوراً؟! ..

لماذا .. الثورة؟؟

لقد بلغت الحضارة العربية الإسلامية سن رشحها ، ووصل عطاؤها إلى كثير من أركان المعمورة ، وكان عصرها الذهبي على عهد الخلفاء العباسيين المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ - ٨١٣ - ٨٣٣ م) والمعتمد (٢١٨ - ٢٢٧ هـ - ٨٣٣ - ٨٤٢ م) والواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ - ٨٤٢ - ٨٤٧ م) .. أى فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى ..

ولقد كان هؤلاء الخلفاء الثلاثة من انصار التيار العقلانى فى الفكر الإسلامى ، إذ كانوا على مذهب (المعتزلة) ، أهل العدل والتوحيد .. وفى ظل حكمهم استخدم التيار العقلانى جهاز الدولة فى اشاعة مفاهيمه ، وتدعيم القسماى التى تميزت بها حضارتنا فى عصرها الذهبى هذا ..

والمعتزلة كانوا ، فى النشأة والتطور ، تياراً سياسياً ، لهم جمهور واسع وعريض .. ولكن الاهتمام المتزايد بالمباحث العقلية ، وخاصة بعد ترجمة الفلسفة اليونانية ، قد تحول بهم ، أكثر فأكثر ، إلى تيار فلسفى ، وفلاسفة إلهيين ، فغدوا ، بالقياس إلى « الجمهور » و « العامة » ، يمثلون « الارستقراطية الفكرية » إلى حد كبير ..

أما خصوم المعتزلة ، من الفقهاء وأهل التقليد ممن يقفون عند المأثورات وظواهر النصوص فإنهم كانوا أقرب إلى مستوى « العامة » وفكر « الجمهور » .. ومن هنا شعر المعتزلة ، رغم وجود السلطة فى أيديهم بأن قوة خصومهم ، المستندة إلى « العامة » ، قد غدت تهدد سلطانهم الفكرى وتعوق السيطرة المذهبية التى يريدون .. وبدلاً من حل هذه المعضلة عن طريق حصر الجدل حول « الإلهيات » و « المقولات الفلسفية » فى اطار « الخاصة » ، وافساح المجال لحرية الخلاف والاختلاف ، سعى فريق من المعتزلة إلى صبغ كل المجتمع بمذهبهم العقلانى المتقدم والمستنير ، واستخدموا لذلك : « العقل » و « السلطة » معاً؟! .. وعندما حدثت بعض التجاوزات ووقع بعض الاضطهاد على نفر من خصومهم ، وخاصة بصدد

القول بخلق القرآن ، لجأ خصومهم إلى « العامة » ، واستنفروها للدفاع عن عقائدها الموروثة ومفاهيمها الشائعة وتصوراتها البسيطة والساذجة ، ثم انتقلوا بها من مواقع الدفاع إلى مواقع التريص للهجوم ..

فمثلاً .. يشكو الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ هـ - ٧٨٠ - ٨٦٩ م) من قلة « العوام » في صفوف المعتزلة ، وكثرتهم في معسكر الخصوم^(١) .. وينبه إلى أن خصوم المعتزلة ، من الفقهاء ، قد جمعت بينهم وبين « العامة » النفرة من الفكر الفلسفي العقلاني المركب ، والاستئمامة إلى ظواهر النصوص وتبسيط المعتقدات والأفكار ، واختيار « التشبيه » ، مثلاً ، بدلاً من « التنزيه والتجريد » .. الخ .. الخ .. كما ينبه إلى أن هؤلاء الخصوم قد استهدفوا قيادة « العامة » واستخدامها في تحقيق طموحاتهم ، فهم قد « أقلوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوى لهم الرياسة على طعام الناس ورعاعهم ! »^(٢) .. كما حذر الجاحظ أعلام المعتزلة وعلماءها من الاغترار بكثرة المهادين والمسارين « لأن ذلك لا يعدو خلق النفاق ومظاهرة ، ولم ينقص من عدد الخصوم » فإن عدد الجاهل على حاله ! وضميراً أكثرهم على ما كان عليه ، والذين ماتوا قليل من كثير؟! ونحن لا ننتفع بالمنافق ! ولا نستعين بالمرتاب ، ولا نثق بالجانح ! وإن كانت المبادأة قد نقصت فإن القلوب أفسد ما كانت ! .. وهم اليوم إلى المنازعة أميل ، وبها أكلف ! ! »^(٣) ..

وعندما وضحت للمعتزلة ، ودولتهم ، أن قيادة خصومهم للعامة تتدعم وتتأكد استشعروا الخطر « فالعوام إذا كانت نشراً - (متفرقة) فأمرها أيسر ، ومدة هيجهما أقصر ، فإذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر ، وإمام مقلد ، فعند ذلك يموت الحق ، ويُقتل الحق ؟! »^(٤) .. وحتى لا « يموت الحق ، ولا يُقتل الحق » - كما قال الجاحظ - ارتكبت المعتزلة ودولتها خطأها الأكبر ، فاستخدمت جهاز الدولة في محاولتها « اقناع » الخصوم بما لها من آراء .. وأمام القلاقل المنتظرة والسخط المتوقع والغضب الموشك على الانفجار سعت الدولة إلى زيادة الاعتماد على القوة العسكرية - الجيش - واتخذت الخطوات إلى تنمية حجم هذه الأداة من ادوات الحكم والسلطان ..

(١) القاضي عبد الحار بن أحمد (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٧٣ . طبعة تونس سنة ١٩٧٢ .
(٢) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٣٣٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
(٣) المصدر السابق ج ٢ - ص ١٢٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
(٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٨٣ .

وكانت الحضارة والرفاهة والازدهار قد ابتعدت بالعصر العربي عن خشونة الجند التي عرف بها في عصر الفتوحات .. كما أن احلام الموالى ، ذوى الاتجاه الشعبي ، قد صرفت الدولة عن أن يكونوا هم القوة الاساسية فى الجيش الذى سعى الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ) إلى تكوينه كى يواجه به هذه الظروف وما خلفها من احتمالات ..

لقد كون المعتصم ، ضمن جيشه ، فرقة (الجند المغاربة) من موالى حوف مصر وحوف اليمن وحوف قيس .. وفرقة (الفراغنة) من أهل فرغانة .. وفرقة (الأشروسية) من أهل اشروسنة .. ولكنه سعى فارتكب اعظم أخطاء الدولة فى عصره عندما اخذ يكثر من شراء المماليك الأتراك ، وقيم لهم المعسكرات ، ويجعلهم القوة الكبرى والرئيسية فى جيش الدولة .. حتى لقد أقام لهم مدينة كاملة وجديدة هى « سامراء »^(١) ..

لقد ظن المعتصم أنه باتخاذ الجند الغريب ، حضارياً وقومياً ، عن المجتمع ، سيحصل على أداة القمع الأسهل قياداً ، والتي لا أمل لها فى السلطة ، ولا مصلحة لها فى الصراعات الناشئة من حولها ، وأنه بذلك سيقم القوة الضاربة التي يحافظ بها على التوازن بين العرب والموالى وغيرهما من العناصر والأجناس المتصارعة والمتنافسة .. ولكن تضخم هذه القوة العسكرية الجديدة سرعان ما جعلها مركز ثقل وقوة جذب ومصدر توجيه .. فالمدينة التي بنيت لها معسكراً تابعاً للعاصمة بغداد تحولت منذ (٢٢١هـ - ٨٣٦م) إلى عاصمة للدولة . انتقلت إليها الخلافة ، وأصبحت بغداد تابعة لها ! .. وهؤلاء الجند الذين أرادهم المعتصم قوة بيد الخلافة ، سرعان ما أصبحت الخلافة لعبة بيدهم ، يولون من اطاع ويعزلون من عصى ، بل ويسجنون ويقتلون من يتمرّد على أوامر المماليك الأتراك؟! ..

وبسبب من أن هذه المؤسسة الجديدة والكبيرة هى : جند وجيش .. كانت بعيدة عن الاهتمامات الحضارية .. وبسبب من غربتها عن العروبة وتخلّف قادتها ، بداهة ، عن نمط التفكير العقلى والفلسفى كانت أميل إلى « العامة » وأمعن فى عدائها للفكر الفلسفى والآراء المستنيرة والتيار العقلانى .. وهكذا تحولت الاداة التي ارادها المعتصم حصناً للحضارة العقلانية ، ضد « العامة » ، تحولت الى حصن للفكر المتخلف انطلقت منه « العامة » وفقهاؤها ليصيبوا ذلك المد الحضارى العقلانى ، بالتوقف ، فالجمود ، فالتراجع ، وذلك بمجرد استيلاء الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ - ٨٤٧ - ٨٦١م) على السلطة بعد موت الخليفة الواثق ! ..

(١) المسعودى (مروج الذهب) ج٢ ص ٦٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

ولقد رضيت العامة ، وفقهاؤها ، من النصوصيين لقصر نظرها ، عن هذا الانقلاب .. ولكن سرعان ما أفاق على صوت ناقوس الخطر الأشد .. فلقد استأثر الجند الأتراك بخيرات المجتمع المادية ، بعد أن أحكموا قبضتهم على سلطة الدولة السياسية .. وتركوا العامة وفقهاءها يسعدون بزوال دولة المعتزلة وأنجسار فكرها العقلاني ، ويتشرفون في خصوم الأئمة الذين أصبحوا رهن المنافي وغيابات السجون !..

لقد عم الاضطهاد ، منذ عهد المتوكل ، كلا من المعتزلة والعلويين ، ومن لم يوضع في السجن من قادتهم جرد من « حقوقه المدنية » . بلغة عصرنا - عندما اسقطت شهاداتهم أمام القضاء وسلبت حقوقهم الاقتصادية ، وأصابهم الكثير من التمييز في المراسم الاجتماعية والعلاقات الانسانية^(١) .. وذلك فضلاً عن تجريم فكر المعتزلة وتجرمه بمراسيم هي أشبه ما تكون بقرارات المجمع الكنسية الكهنوتية ، الغربية عن روح الإسلام^(٢) !..

وفي ظل هذا الاضطهاد كانت قيادات الدولة بيد رجال أسماؤهم من مثل : « وصيف » و« بغا » و« كيغلع » و« ياجور » و« بايكباك » و« بكالبا » و« يارجوخ » و« اصغجون » و« طاشتمر » و« كنجور » و« تكين » و« اغرتمش » و« ابن كندا جيق » و« اساتكين » ؟ ! .. واستأثرت هذه القيادة ، مع مماليكها وأعوانها بإقطاعات الدولة وثرواتها ، دون العامة ، بل وزادت اثرها فاستأثرت بهذه الثروة أحياناً دون عامة الجند المالك ؟ ! ..

ولقد تصاعدت سطوة قادة الجند الأتراك فبلغت الذروة عندما قتلوا الخليفة المتوكل في ٣ شوال سنة ٢٤٧هـ (١٠ ديسمبر سنة ٨٦١م) ، فأصبح منصب الخلافة لعبة مستباحة ، يتناولونها بالعزل والتولية ، وأيضا بالسجن ، بل وبالسم والقتل لمن غضبوا منه أو عليه من الخلفاء !

وبعد المتوكل ولى الخلافة : المنتصر بالله ، محمد بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٧ - ٢٤٨هـ - ٨٦١ - ٨٦٢م) .. وكان شاباً في الخامسة والعشرين من عمره ، ذا طموح لاستعادة سلطات الخليفة والعودة بالخلافة إلى سلطانها وسلطاتها .. ويعبارات المسعودي : « فلقد كان المنتصر واسع الاحتمال ، راسخ العقل ، كثير المعروف ، راغباً في الخير ، سخياً ،

(١) انظر فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ - ٣٦٧ . و . المقرئ (الخط) - ح ٣ ص ٢٧١ . طبعة دار التحرير ، القاهرة .

(٢) آدم متر (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) ج ١ ص ٣٨١ - ٣٨٣ . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

أديباً ، عفيفاً ، وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق ، وكثرة الإنصاف ، وحسن المعاشرة ، بما لم يسبقه خليفة إلى مثله ! « (١) ..

وكان المنتصر يدرك جيداً أن أية سلطة يرغب في استردادها لنفسه كخليفة لابد من انتزاعها من بين قبضة قادة العسكر الاتراك ، وأنه ، لكي يصنع ذلك ، لابد له من قوى بديلة يعتمد عليها ويستمد منها العون والتأييد .. فشرع يتقرب إلى العلويين ، ورفع عنهم مظاهر المحنة التي كانوا يعيشون فيها منذ انقلاب المتوكل ، فلم تعد زيارة قبر الحسين ، وغيره من مشاهدهم ، أمراً محرماً ، ورد إقطاع « فدك » - بالقرب من المدينة - إلى ذرية الحسن والحسين ، بعد ان كانوا قد حرّموا منه ، وأعاد أوقاف آل أبي طالب إلى ذويها .. وأعلن في الناس ، عامة « الأمان » ! .. وحتى عندما انتصر جيشه على الخوارج الذين ثاروا وسيطروا على اليمن والبوازيح (١) والموصل ، وجاءوا إليه بقائد الخوارج ، أبو العمود الشاري ، اسيراً عفا عنه ، « وأخذ عليه العهد وخلي سبيله .. وقال : إن لذة العفو اعذب من لذة التشفى ، وأقبح افعال المقتدر الانتقام » ! ..

وسار المنتصر ، في جمهور الناس ، سيرة العدل والانصاف ، فحقق الكثير من الأهداف التي ابتغاه من وراء هذا الانعطاف الجديد ، وبعبارة المسعودي ، فإنه « اظهر الانصاف في الرعية ، فالت إليه قلوب الخاصة والعامة ، مع شدة الهيبة منها له ! » ..

ولقد بلغ من ضوح هذه التحول الذي احدثه المنتصر إلى الحد الذي اصبح فيه موضوعاً للمدائح الشيعة العلوية ، الذين كانوا بالأمس خصوماً للخلافة وثواراً عليها .. وشاعرها يزيد ابن محمد المهلبى يعبر عن ذلك عندما يخاطب المنتصر فيقول :

ولقد بررت الطالبة بعدما ذموا زمانا بعدها وزمانا
ورددت ألفة هاشم فرأيتهم بعد العداوة بينهم اخوانا
آنت لياهم وجدت عليهم حتى نسوا الأحقاد والأضغانا
لو يعلم الأسلاف كيف بررتهم لرأوك اثقل من بها ميزانا
ولقد أراد المنتصر أن يستثمر تلك القوة التي حققها له « السلام » مع المعارضين والثوار ، والعدل مع الرعية في تحرير جهاز الدولة من استبداد قادة الجند الاتراك .. فطلب الى « وصيف » - وهو احد اثنين تركزت بأيديهما السلطة والسلطان - ان يترك العاصمة ، على

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٢٦ .

(٢) البوازيح لد بالقرب من تكريت ، قريب من مصب نهر الزاب الأسفل .

رأس جيش ، لقتال الروم !.. وأسر إلى خاصته أنه عازم على التخلص من قادة الجند الأتراك ، وعندما أبصر « بغا » - صنو « وصيف » وشريكه - يَخْتال في قصر الخلافة ومن حوله الأتراك ، قال للفضل بن المأمون : « قتلني الله إن لم اقتلهم وأفرق جمعهم ! »^(١) .. هؤلاء قتلة الخلفاء !^(٢) .

ولكن الأتراك عاجلوا الخليفة المنتصر قبل أن يعاجلهم .. وكما يقول المسعودي : « فلما نظرت الأتراك إلى مايفعل بهم ، وما قد عزم عليه ، وجدوا منه الفرصة » بأن أوعزوا الى طبيبه « الطيفورى » فقتله باستخدام مشروط مسموم فى اجراء « حجمة » له ، فلقى مصير المتوكل فى « ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ بعد خلافة لم تتعد ستة أشهر »^(٣) !.

وبعد التخلص من المنتصر ، أجلس الأتراك على عرش الخلافة خليفة ضعيفاً مستسلماً هو المستعين بالله ، احمد بن محمد بن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٨ - ٢٥٢هـ - ٨٦٢ - ٨٦٦م) واستعادوا تحت رايته ما حاول المنتصر أن ينتزع منهم من السلطة والسلطان ، حتى لقد وصف الشاعر الخليفة المستعين ، وصور مكانه بين « وصيف » و « بغا » فأجاد الوصف عندما قال :

خليفة فى قفص بين وصيف وغب
يقول ما قال له كما يقول الببغا!

ولقد امنت يد الأتراك بالاضطهاد ، قتلاً ونفياً وسجناً رحماناً ، إلى حاشية الخليفة السابق ، المنتصر ، فنى وزيره : أحمد بن الخصيب إلى اقريطش - (كرت) - ونفى عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى برقة^(٤) .. واعتقلت جماعة من هذه الحاشية ببغداد .. وكان من بين هؤلاء المعتقلين : على بن محمد^(٥) ، الذى سيقود ثورة الزنج !.. والذى كان واحداً من المقربين للخليفة المنتصر ، والمعاونين له على تحرير الخلافة من استبداد الأتراك ، وعلى إشاعة العدل ، بدلاً من الظلم ، بين الناس !؟ ..

ذلك هو أول خيط يمسك الباحث بطرفه كى يتتبع بدايات الفكر الاصلاحى ، ثم الثورى ، عند على بن محمد !.. ويسهم على بن محمد ، نفسه ، فى إلقاء الضوء على هذا

(١) (مروج الذهب) ج٢ ص ٤٢٦ - ٤٢٨ .

(٢) (تاريخ الطبرى) ج٩ ص ٢٥٢ .

(٣) (مروج الذهب) ج٢ ص ٢٢٦٦ .

(٤) المصدر السابق . ج٢ ص ٤٣٣ .

(٥) ابن خلدون (العبر) مجلد ٤ ص ١٩ . طبعة بولاق ، القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ .

الحيط بأبيات شعره التي يدين بها أوضاع الخلافة المتهاوية ، واستبداد الترف والمترفين ببلاط بغداد ونظام الحكم فيها :

لهف نفسى على قصور ببغدا دوما قد حوته من كل عاص
وخمور هنا تُشربُ جهرا ورجال على المعاصى حراس
لست ابن الفواطم إن لم أجل الخيل حول تلك العراض !
فهو يدين ذلك النظام ، ويعلن أنه لن يكون جديراً بنسبه العلوى إن لم يقتحم بحيل الثورة
تلك الساحات التي استبد بها الأتراك المنتشون بالسلطة ، والمترفون المحمورون ، والمقترفون
للمعاصى في وضح النهار!.. فلقد كان الرجل، كما قالوا: «بعيد الهمة، تسمو نفسه إلى
معالي الأمور!..»^(١) .

ولقد تصاعدت مظالم الأتراك ، وزاد استبدادهم بالخلفاء .. فلم يكنهم ما أظهره الخليفة
المستعين من ضعف وخضوع ، فخلعوه ، ثم قتلوه ، فشاع في الناس رعب وفرع ، عبر عنها
الشاعر البحترى (٢٠٦ - ٢٨٤ هـ - ٨٢١ - ٨٩٨ م) عندما قال :

لله در عصابة تركية ردوا نواب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكسوا جميع الناس ثوب الخوف
وطغوا فأصبح ملكنا متقسما وإمامنا فه شبهه الضيف!^(٢)

فالملك قد اقتسمه كل من «وصيف» و«بغا» ، أما نصيب الخليفة (الإمام) فهو
نصيب الضيف!.. أما الرعية فنصيبها الرعب والفرع والحرمان!..

وبعد المستعين تولى الخلافة : المعتز بالله ! الزبير بن جعفر المتوكل (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ -
٨٦٦ - ٨٦٩ م) فكان مصيره نفس مصير المستعين ، خلعه ، وسجنوه ، ثم قتلوه في سجنه
بعد خلعه بستة أيام!.. وقال الشعراء في رثائه ، ضمن ما قالوا :

أصبح الترك مالكي الأمر والعيا لم ما بين سامع ومطيع^(٣) !
وبعد المعتز ولى الخلافة : المهتدى بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ - ٨٦٩ - ٨٧٠ م) فراودته مطامح
التغيير والعدل التي راودت الخليفة المنتصر ، بل لقد تطلع إلى أن يكون في بني العباس كما كان

(١) (شرح نهج البلاغة) ج ٨ ص ١٠٢٧ - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة القاهرة ١٩٥٩ م .

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٣) المصدر السابق . ج ٤ ص ٤٥٧ ، ٤٦١ .

عمر بن عبد العزيز (٦٢ - ١٠١ هـ - ٦٨١ - ٧٢٠ م) في بني أمية ! وقال لخاصة أقربائه : « يا بني هاشم ، دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز ، في بني أمية .. » .

لكن عمر بن عبد العزيز قد سلك مسلكه بالتغيير الجذرى العميق ، بل بالثورة^(١) .. على حين كان المهتدى أسير الاستبداد الذى جعل السلطة حكراً على قادة الجند الأتراك .. ولقد جادلوه محذرين إياه من السعى في هذا السبيل ، لأنهم وجنودهم لا يرغبون في العدل ولا يبيحون لأحد السعى نحو تحقيقه ! .. ودار بينهم وبينه حوار بدأوه متسائلين :

- أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ؟

- أريد أن أحملهم على سيرة الرسول وأهل بيته والخلفاء الراشدين !

- إن الرسول كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة ، كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم ، وأنت إنما رجالك ما بين تركي وخزري وفرغانى ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم ، لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة؟!^(٢) .. »

ولما استشعر الناس بما يبىيت قادة الأتراك ضد المهتدى حاولوا الحركة لمساندة الخليفة الراغب في العدل والتغيير ، وكان توزيع الرقاع - (المنشورات) - الداعية لمساندة الخليفة واحداً من مظاهر حركتهم هذه ! وفي واحد من هذه المنشورات التي وزعت عندما شرع الأتراك في خلعه وتعذيبه كتبوا ! :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. يامعشر المسلمين ، ادعوا الله لخليفتمكم العدل الرضى ، المضاهى لعمر بن الخطاب ، ان ينصره على عدوه ، ويكفيه مؤنة ظالمه ، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه ، فإن الموالى قد أخذوه بأن يجلع نفسه ، وهو يعذب منذ أيام ... رحم الله من أخلص النية ، ودعا وصلى على محمد ، صلى الله عليه وسلم .

بل إن قطاعاً كبيراً من عامة الجند قد حاولوا الدفاع عن الخليفة المهتدى ، ضد قادتهم الذين استأثروا ، دونهم ، بالعطاءات والإقطاعات ، ووجه هؤلاء الجنود « رسالة إلى المهتدى شكوا فيها سوء حالهم ، وتأخر ارزاقهم ، وما صار من الاقطاعات إلى قوادهم التي اجحفت

(١) انظر دارستنا عن (عمر بن عبد العزيز) .
(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٦٦ - ٤٦٣ .

بالضياع والخراج ، وما صار لكبرائهم من المعادن والزيادات من الرسوم القديمة مع ارزاق النساء والدخلاء الذين استغرقوا أكثر أموال الخراج ! » ...

ثم تجمهروا وتقدموا بمطالبهم :

- رد السلطة للخليفة .
- ورد رسومهم إلى ما كانت عليه أيام المستعين بالله .
- ووضع نظام جديد لتنظيمهم .
- واسقاط أنصبة النساء والزيادات والمعاون من عطاء القواد .
- وأن لا يدخل المولى في سلك « المتترمين » - (القبالات) - أي الوسطاء بين الدولة والفلاحين ، وكانوا بمثابة الاقطاعيين .
- وأن يكون عطاء الجند كل شهرين .
- وإبطال الإقطاعات التي منحت للقواد^(١) ..

لكن قادة الترك نجحوا ، فأوقفوا تحرك العامة ، واحتنوا حركة الجند وتجمهرهم .. ثم قتلوا الخليفة المهتدى بالله بعد خلافة لم تتعد أحد عشر شهراً !؟

على هذا النحو كانت حال الدولة .. وإلى هذا الحد بلغ تجبر قادة الأعاجم الأتراك .. لقد سدوا على الخلفاء المصلحين مسالك الإصلاح ، وأغلقوا النسل أمام كل من راودته آمال الإصلاح من خلال جهاز الدولة ، بعد أن سيطروا عليه السيطرة كلها واستبدوا بشئونه كل الاستبداد !..

وعندما تغلق الأبواب أمام الإصلاح ودعائه يبصر الناس سبلاً كثيرة تفتح أمام الثورة والثوار !! .. لقد بدأت ساحات المجتمع وأقاليمه تشهد ، منذ تخلص الأتراك من الخليفة المنتصر ، اندلاع الانتفاضات والتمردات والثورات التي قادها ، على وجه الخصوص ، ثوار علويون ..

● ففي سنة ٢٤٨هـ ثار ، بالكوفة ، أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

(١) (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٤٤٣ - ٤٤٦ .

- وفي سنة ٢٥٠هـ ثار ، بطبرستان ، الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وامتدت ثورته إلى جرجان ، واستقرت دولته بهما حتى سنة ٢٧٠هـ .
- وفي سنة ٢٥٠هـ ثار ، بالرى ، محمد بن جعفر بن الحسن ، كى يضم «الرى» إلى الدولة العلوية التي تأسست بطبرستان .
- وبعد فشل ثورة الرى ، التي تزعمها محمد بن جعفر بن الحسن ثار بها ، ثانية ، أحمد ابن عيسى بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ..
- وفي سنة ٢٥٠هـ ثار ، بقزوين ، الكركى (الحسن بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب) .
- وفي سنة ٢٥٠هـ ثار ، بالكوفة ، الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ..

* * *

وفي هذا المد قامت ثورة الزنج ، بزعامة علي بن محمد .. فلقد بدأت جولته الأولى ضد الدولة التي سيطر عليها الأتراك سنة ٢٤٩ هـ ، بعد أن تخلص من الاعتقال مع حاشية المنتصر ببغداد ، وذلك عندما ذهب إلى البحرين ، ودعا ، إلى الثورة ، فتبعه الكثير من العرب القاطنين بمدينة «هجر»^(١) ، حيث بدأ بهم صداماته الأولى مع جيوش الدولة ، العباسية الخاضعة لسيطرة قادة الجند الأتراك ..

لقد رفض علي بن محمد ، بالثورة ، المقام على الضيم الذي ساء به القادة الأتراك الأمة في ذلك التاريخ ، وعبر شعره ، كما عبر موقفه ، عن هذا الرفض عندما قال :

رايت المقام على الاقتصاد قنوع به ذلة في العباد
إذا النار ضاق بها زندها ففسحتها في فراق الزناد
إذا صارم قرَّ في غمده حوى غيره السبق يوم الجلال

إنها النار ضاق بها مكنها .. والسيف يرفض ان يقيم في الغمد ، كى لا يجوز سواه قصب السبق يوم الجلال !..

(١) المصدر السابق . ج ٩ ص ٤١٠ . و(العبر) مجلد ٤ ص ١٩ .

القائد .. والثورة

مصادر التاريخ لا تشفى غليل الباحث عن حياة علي بن محمد قبل أن يقود ثورته ، وقبل أن تصبح هذه الثورة خطراً يهدد الخلافة العباسية ، أوبالأحرى الدولة العسكرية التركية التي كانت تحكم في «سامراء» من تحت عباءة الخلفاء العباسيين .. والرجل ليس بدعاً في ذلك ، فهكذا ، دائماً ، كان حال أعلام التاريخ والفكر والتراث العربي الاسلامي ، تندر المعلومات عن حياتهم فيما سبق شهرتهم من سنوات .. بل إن علي بن محمد يشارك عدداً من هؤلاء الاعلام في خلو مصادر التاريخ من تحديد العام الذي ولد فيه ! .. وما تقوله لنا هذه المصادر عن تلك المرحلة من حياته لا يعدو :

● إن اسمه : علي بن محمد بن احمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .. فجدّه الرابع هو زيد بن علي ، الذي تنسب اليه فرقة الزيدية ، أبرز فرق الشيعة التي اتخذت الثورة سبيلاً لتحقيق اهدافها ، تلك الاهداف التي اتفقت اصولها تمام الاتفاق مع فرقة المعتزلة .. بل لقد كان زيد بن علي معتزلياً ، وأول إمام من أئمة المعتزلة يقود أولى ثوراتهم ضد بني أمية على عهد هشام بن عبد الملك (سنة ١٢٢ هـ - ٧٤٠ م) . أما أمه فهي من بني اسد - (اسد بن خزيمه) - وجدها هو محمد بن حكيم الاسدي ، من اهل الكوفة ، وأحد الثوار الذين ثاروا خلف زيد بن علي ، ضد بني أمية ، أيضاً؟! (١) .

● وانه ولد ونشأ في «ورزنين» ، وهي قرية كبيرة ، تقرب من ان تكون مدينة ، كانت من اعمال «الري» ، وهي مدينة كبيرة في شمال ايران ، الى الجنوب الشرقي من طهران .. ولقد كان اهل «الري» - كما يقول «الاصطخري» (٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م) - ذوى شهرة في التمدد بالمذاهب المتصارعة ، وإقدام على القتال في سبيل المذاهب التي يعتقدون (٢) ! ..

● ولقد اشتغل علي بن محمد في فترة من حياته معلم اطفال ، هكذا تقول المصادر .. وان كنا نستنتج منها انه كان معلماً لغير الاطفال ايضاً ، فهذه المصادر تقول إنه كان «يعلم الخط

(١) (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٤١٠ . وفي تاريخ ابن خلدون (العبر) . مجلد ٤ ص ١٨ - أن اسمه هو : علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي .. فزيد بن علي ، هنا ، هو جدّه الثالث . وانظر - في نسبه لأمه - (شرح نهج البلاغة) ج ٨ ص ١٢٧ .

(٢) صفى الدين عبد المؤمن البغدادي (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) ج ١ ص ٦٥١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م . و(مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٧٠ . و(تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٤١٠ .

والنحو والنجوم»^(١) .. ولا نعتقد ان اطفال ذلك العصر كانوا يتعلمون النجوم ! ..

● وعندما يظهر- بمصادر التاريخ- في « سامرا » نعلم أنه أحد القريبين من آل الخليفة الطامح للعدل والمعادى للمؤسسة العسكرية التركية : المنتصر بالله .. فلقد اشبه أن يكون واحداً من اتباعه وأنصاره وحاشيته .. توثقت صلاته « ببشير » ، خادم المنتصر ، وبغاثم الشطرنجي ، وسعيد الصغير ، وغيرهم من رجال حاشيته وكتاب الدولة .. وعندما نجح قادة العسكر الأتراك المماليك في التخلص ، بالسهم ، من الخليفة المنتصر بالله ، وشتتوا ، بالقتل أو النفي أو الاعتقال ، انصاره ، كان علي بن محمد ضمن الذين اعتقلوا - (حجبوا) - ببغداد^(٢) ..

● وفي سنة ٢٤٩ هـ سنة ٨٦٣ م ، أي بعد عام من موت المنتصر بالله ، وسجن من سجن من حاشيته اشترك عامة أهل بغداد مع فرقة من الجند ، هم « الجند الشاكرية » ، في تمرد وشغب ضد الأتراك الذين استبدوا بمقدرات الخليفة والخلافة .. تم اقتحم الجمهور سجون العاصمة واطلقوا سراح المسجونين فيها !^(٣) ..

وبعد أن تخلص علي بن محمد من الاعتقال ظهر في مدينة « هجر » ، بالبحرين ، داعياً الناس الى الثورة في نفس العام (سنة ٢٤٩ هـ سنة ٨٦٣ م)^(٤) ..

● ومن مصادر التاريخ نستشف ايضاً ان علي بن محمد كان من العلماء ! .. فالطبرى يحكى أنه أثناء قتاله ، وهو يعبر نهر « برد الخيام » اخذ « اصطراباً » - (آلة لقياس ارتفاعات الاجرام السماوية) - فقياس به الشمس ، وحدد الوقت ، فتنبأ باتجاه الريح فيما سبلى من الوقت ، ثم رسم خطته في المعركة على هدى منها ، ومستفيداً من آثارها .. فبعد قليل من نشوب القتال هبت الريح من غربي نهر « دجيل » فدفعت سفن اعدائه نحو الشاطئ فاندفع إليها جنوده فقتلوا من فيها ؟ !^(٥) ..

وكذلك صنع عند اقتحامه للبصرة ، عندما « نظر في حساب النجوم ، ووقف على

(١) (شرح بهج البلاغة) ج ٨ ص ١٢٧ .

(٢) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٤١٠ . و (العبر) مجلد ٤ ص ١٩ و (شرح بهج البلاغة) ج ٨ ص ١٢٧ .

(٣) محمد مختار باشا المصرى (التوفيقات الإلهامية) ص ١٢٥ : طبعة بولاق سنة ١٣١٠ هـ .

(٤) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٤١٠ . و (العبر) مجلد ٤ ص ١٩ .

(٥) المصدر السابق . ج ٩ ص ٤٢٣ .

انكساف القمر ليلة الثلاثاء ١٤ شوال سنة ٢٥٧ هـ.. «فتنبأ بتوقيت نصره على مخالفيه !؟» (١) ..

- وانه كان فصيح اللهجة «مطبوعاً على الشعر» تنسب اليه ابيات ومقطوعات تانترت في بعض مصادر التاريخ والتراث ، خصوصاً ما تعلق منها بالثورة وأعان الثوار على الصمود في القتال ..

من مثل البيتين اللذين يتحدث فيهما عن بسالة المقاتلين من انصاره ، وعن اتجاه ثورته وعداؤها للملوك :

وإننا لتصبح اسيافنا اذا ما انتضين ليوم سفوك
منابرهن بطون الأكف وأغادهن رءوس الملوك !
ومن مثل قوله في الغزل :

ولما تبينت المنازل بالحمى ولم اقض منها حاجة المتورد
زفرت اليها زفرة لو حشوتها سراييل أبدان الحديد المسرد
لرقت حواشيها وظلت متونها تلين كما لانت لداود في اليد (٢)

* * *

أما مذهب علي بن محمد، واتجاهه الفكرى، والتيار الذى انتمى إليه من تيارات الفكر الاسلامى ، وتياراته الثورية بالذات ، فإن مصادر التاريخ لا تذكر عنه شيئاً إلا في معرض الذم والقدح والهجوم ! .. ولحسن الحظ فإن الروايات في هذا المجال لا تستعصى على النقد ، من خلال المقارنة والتحصيص ..

● فالطبرى والمسعودى وابن خلدون يقولون إنه كان على مذهب الخوارج ، والخوارج الأزارقة بالذات .. ولكن ادلتهم لا تنهض للبرهنة على صدق هذه الدعوى ..

فإن ادلة المسعودى على ذلك انه قال فى احدى خطبه :

: «الله اكبر ، الله اكبر ، لا اله الا الله ، والله اكبر ، ألا لا حكم إلا لله ! ..» لكن الخوارج ، رغم قولهم : لا حكم إلا لله ، وتسميتهم لذلك (بالحكمة) ، إلا انهم لا ينفردون بهذا القول ، فكل المسلمين يتلون آيات القرآن الكريم التى تقول : (إن الحكم

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٤٨١ .

(٢) (شرح نهج البلاغة) ج ٨ ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، (والأندلس ، مفرداً : بدن ، وهى : الدرر القصيرة) .

إلا لله! (١) .. والخوارج لم يكونوا يرددون عبارة : « لا حكم الا لله » ، على هذا النحو ، إلا في وقت «التحكيم» ، الذى انكروه ورفضوه ، فى النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ..

ويستدل المسعودى كذلك ، على أن على بن محمد كان على مذهب الخوارج ، بأنه كان يقتل خصومه ، بمن فيهم النساء والأطفال والشيوخ !..

لكن الطبرى ، فى الكثير من الصفحات التى يسجل فيها وقائع الثورة والقتال بينها وبين الدولة يتحدث عن الأسرى الذين أسرتهم الثورة ووضعتهم فى سجونها ، وبينهم الكثير من المقاتلين ، فضلاً عن حديثه الكثير عن استرقاق النساء .. الأمر الذى ينبى عن الثورة الالتزام بمذهب الخوارج فى قتل الخصوم ..

كما يذكر الطبرى فى مواطن عدة - عرضاً وفى ثنايا الأخبار - ما ينبى عن ثورة الزنج تهمة سفك الدماء دون تمييز والمغلاة فى القتل عند القتال .. فى طريق جيش الثورة للاستيلاء على « القادسية » ، خرج رجل من هذه القرية فقتل رجلاً من الثوار ، فهم الثوار أن يأخذوا أهل القرية بجرمة ذلك الرجل ، فهاهم عن ذلك على بن محمد .. ولما قالوا له :

- ائذن لنا فى انتهاب القرية ، وطلب قاتل صاحبنا ... - (قال لهم :) -

- لاسبيل لى ذلك دون أن نعرف ما عند القوم ، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم ؟ ... ونسألهم أن يدفعوه لينا ، فإن فعلوا ، وإلا ساغ لنا قتالهم ! « (٢) .

وعندما دخل قرية « الجعفرية » ، وأسرا أصحابه نفرأ من أهلها ، ونهبوا شيئاً من متاعها ، عارض هذا المسعى ، الذى لم يكن له ما يسيغه ، فأطلق سراح الأسرى ، بعد أن « ونجهم » ، ورد ما نهب من قريتهم ، وقال لأصحابه : « ألا برئت الذمة ممن انتهب شيئاً من هذه القرية أو سبى منها أحداً ، فمن فعل ذلك فقد حلت به العقوبة الموجعة (٣) » ! .

ولقد ظفر رجاله بألف وتسعمائة سفينة ، عليها حجاج يقصدون مكة ، عن طريق البصرة ، فلم يأسرهم ، ولم يستول على أموالهم ومتاعهم ، وإنما « ناظرهم » ، وعرض عليهم أفكاره ومبادئ ثورته ، وبحث بينهم عن جنود للدولة أو أموال تخصها ، إذ « استحلّفهم أنه لا

(١) الأنعام : ٧٥ ، يوسف : ٤٠ ، ٦٧ .

(٢) تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٤١٥ .

(٣) المصدر السابق : ج ٩ ص ٤٢٠ .

مال للسلطان معهم ولا تجارة» ، فلما قالوا له : «معنا رجل من أصحاب السلطان !» لم يأخذ الرجل بشهادة زملائه عليه ، بل اطلق سراحه هو الآخر عندما حلف له أنه ليس من رجال الدولة وانصار السلطان «فحلى سبيله ، واطلق الحجاج فذهبوا .. !»^(١) .. وعندما عدل أهل «عبادان» عن قتال الزنج ، بعد تجربة «الأبله» وهزيمتها ، قام الزنج بتحرير ما في «عبادان» من الرقيق ، واستولوا على ما فيها من سلاح ، ولم يتعرضوا للناس بمكروه^(٢) .. فقتال الثورة كان ضد الدولة وانصارها ، وعداؤها كان للسلطان ورجاله ، ولم يكن هناك خلط بين جهاز الدولة وجيشها ومالها وبين عامة الشعب وجمهور الناس !..

أما العنف والقسوة في معاملة الخصوم ، والتي حكها المؤرخون عن ثورة الزنج ، فعلاوة على أنها كانت طابع العصر وسنته - وخاصة في الحروب والثورات - فإنها لم تكن خاصة باختصاصها الثوار .. وروايات هؤلاء المؤرخين تتحدث عن تعذيب أسرى الزنج الذين رفضوا خيانة قائدهم وإفشاء ما يعرفون عن دفاعاته وحصونه من أسرار ، وكيف كانوا يصلبون أحياء !.. وكيف كانت جثثهم تعلق حتى تنتفخ وتتقشر جلودها وتركم راحتها الأنوف !.. وكيف كانوا يذبحون ذبح الشاه !.. بل وتحكى هذه الروايات كيف أن الموقف وابنه أبو العباس كانوا «يشوون» أسرى الزنج على النار ، وهم احياء ، كما يشوى «الكباب» !.. صنعوا ذلك مع القائد الزنجي «قرطاس» ، فوضعوا في دبره سيخاً من حديد ، وأخرجوه من فيه ، وشووه على النار مثل «الكباب» .. وكانوا يسمونه «كردناج»^(٣) !؟ .. فلم يكن العنف وقفاً على الثوار ، وإن تكن البشاعة قد اختصت بأعداء هؤلاء الثوار !..

وأيضاً يستدل المسعودي على دعواه أنهم كانوا خوارج بأن (المهلبى) على بن ابان ، وهو من قادة الثورة ، خطب الجمعة يوماً فدعا لقائده : على بن محمد ، وترحم على أبي بكر وعمر ، ولم يذكر عثمان ولا علياً .. ولعن جابرة بنى العباس ، وأبا موسى الأشعري ، وعمرو ابن العاص ومعاوية بن أبي سفيان !^(٤) .

ونحن نقول : إن هذا الموقف هو أقرب إلى مذهب كثير من المسلمين الذين «توقفوا» في

(١) المصدر السابق . ج ٩ ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٢) (شرح نهج البلاغة) ج ٨ ص ١٤٣ .

(٣) المصدر السابق . ج ٨ ص ٢١١ ، ٢١٢ . (وتذكر بعض الروايات - مثل المسعودي - أن العباسيين صنعوا ذلك

بعلى بن محمد .. انظر نفس المصدر .. ذات الصفحات) .

(٤) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٧٠ ، ٤٧٨ . وانظر كذلك : بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) ص ٢١٥ . طبعة

بيروت سنة ١٩٦٨ م .

الحكم على كل من عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وعلى ما حدث في عهدهما من أحداث وصراعات .. وليس هذا « التوقف » بمذهب أى من فرق الخوارج ، وفرقة الخوارج الأزارقة بالذات .. فهم يؤيدون وينتسبون - (يتولون) - أبا بكر وعمر ، وأيضاً عثمان في الشطر الأول من سنوات حكمه ، وعلياً قبل حادثة « التحكيم » ثم يتبرؤون منها بعد ذلك ، من عثمان بعد ما حدث في سنوات حكمه الأخيرة من أحداث رأوها خارجة عن نهج الاسلام في العدل ، ومن على بعد قبوله « التحكيم » .

فخطبة « المهلبى » هى إلى مذهب « التوقف » أقرب منها إلى مذهب الخوارج .. فليس فيها دليل على دعوى المسعودى .. ثم ان الطبرى يذكر ان على بن محمد قد كانت داره ، في عاصمة دولته وثورته (المختارة) بالقرب من سوق اسمها : « سوق الحسين »^(١) ، ورأى الخوارج في آل البيت لا يعقل معه أن يطلقوا أسماء أئمتهم على الأسواق والأحياء في عواصمهم !

ونفس المصادر التى تقول : إن على بن محمد وثورته كانوا على مذهب الخوارج ، والأزارقة - الغلاة - منهم بالذات ، تناقض نفسها وتنقض دعواها عندما تقول إن على بن محمد لم يكن صادقاً في انتسابه إلى آل البيت وإلى العلويين منهم على وجه التحديد^(٢) .. فلو كان خارجياً لما انتسب ، زورا ، إلى العلويين ، فرأى الخوارج في العلويين غير طيب ، وهم لا يقيمون للنسب وزناً حتى يسعون لادعائه ! .. وأيضاً فلو كان على بن محمد « مدعياً » في انتسابه للعلويين ، لكان ذلك دليلاً على اعلائه لشأن هذا النسب ، وذلك ينفي تمذهبه بمذهب الخوارج ! ..

وهم يذكرون أن على بن محمد وثورته كانوا يسيئون معاملة الأسيرات من آل البيت ، ويسترقونهم في منازل الزنج^(٣) .. ولو صح هذا - وليس بغريب على العصر وحدة الصراع - فهو ينقض تهمة « ادعاء » النسب العلوى ، فمن يحرص على ادعاء هذا النسب ويسعى لاستثماره لا يصنع ذلك بالحرائر من نسل الحسن والحسين ! ..

وتذكر هذه المصادر كذلك أن جماعة من العلويين ، فيهم على بن احمد بن عيسى بن زيد

(١) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٦٣١ .

(٢) (العبر) مجلد ٤ ص ١٩ .

(٣) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٤٩ .

ابن علي ، وعبد الله بن علي ، قد انضموا ، في البصرة ، إلى ثورة الزنج وقائدها^(١) .. وذلك ينفي عن هذه الثورة دعوى تمذهبها بمذهب الخوارج !.. ودعوى انتحال قائدها للنسب العلوي !..

ونحن نميل إلى أن علي بن محمد صادق في انتسابه إلى العلويين ، فليس في أحداث ثورته ، كما ذكرتها المصادر - وهي غير متعاطفة معه ، بل معادية له - ما يشتم منه أنه كان « مستغلاً » لهذا النسب في شد أزر دعوته وتدعيم قوة ثورته .. كما أنه ليس في أحداث هذه الثورة ما يدل على تمذهبها أو تمذهب قائدها بمذهب الخوارج ..

ونحن نلمح في الطبري عبارة عابرة ، لعل فيها المفتاح لكشف مذهب هذه الثورة واتجاهها الفكرى .. يقول الطبري : « وكانت اعلام صاحب الزنج بيضاء .. وكانوا مبيضة ؟! »^(٢) ..

أعلام الثورة كانت بيضاء اللون .. وعليها كتبوا ، بالأحمر والأخضر : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله)^(٣) .. وكتبوا كذلك اسم : علي بن محمد^(٤) واللون الأبيض كان لون نياح هؤلاء الثوار ؟.. ومعروف ان اللون الأسود كان شعار العباسيين - كانوا مسودة - منذ ثورتهم على بني أمية .. ونحن نجد في تراث الثورة وتاريخها منذ بداية العصر العباسي ان اللون الأبيض كان شعار الثورة التي قادها النفس الزكية ، محمد بن عبد الله بن الحسن (٩٣ - ١٤٥ هـ - ٧١٢ - ٧٦٢ م) ضد أبي جعفر المنصور (٩٥ - ١٥٨ هـ - ٧١٤ - ٧٧٥ م) .. وهي ثورة قام بها المعتزلة ، وقادها إمام من أمتهم كان في ذات الوقت علويًا ، وكان أيضاً ممن قاتلوا في ثورة زيد بن علي ضد الأمويين^(٥) .. فاللون الأبيض كان شعار التيار الذي ثار اصحابه ضد العباسيين ، والذي كانت قياداته ، غالباً ، لأئمة علويين ، ومن نسل زيد بن علي بالذات ، لأن هذا الفريق من آل البيت قد ارتبط بفكر المعتزلة ورأيهم المنحاز للثورة ، على عكس الشيعة الإمامية الذي أحجموا عن الثورة ، منتظرين « المهدي » و« الغائب المنتظر » !.

فهل كان علي بن محمد ، وكانت ثورته حلقة في سلسلة ثورات العلويين الزيدية الذين

(١) (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٤٨٧ .

(٢) المصدر السابق : ج ٩ ص ٦٣٢ .

(٣) التوبة : ١١١ .

(٤) (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٤١٣ .

(٥) انظر كتابنا (المعتزلة والثورة) طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م . وكذلك دراستنا عن « النفس الزكية » ..

تمذهبوا بمذهب المعتزلة في الأصول الخمسة ، التي كانت هي نظريتهم الفكرية ؟؟ .. إننا نميل الى ذلك ، خاصة وان «التوقف» في الحكم على كل من عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب ، كان موقفاً معروفاً في صفوف الاعتزال^(١) .. وهو الموقف الذي تشير اليه الخطبة التي أوردتها المسعودي للمهلي ، احد قادة ثورة الزنج ..

* * *

ويسبب من حجم العنصر البشري الزنجي في هذه الثورة ، جمهوراً وقادة ومقاتلين ، وهو الحجم الذي جعلها تشتهر « بثورة الزنج » ، شاع في عدد من الدراسات واستقر في إلفهام الكترة من الناس انها كانت ثورة زنجية ، اي عنصرية ، أشعلها الزنج ضد سادتهم من العرب الأثرياء وملاك الرقيق .. ومن هنا كان منطلق بعض النقد الذي وجه لها والرفض الذي حط من القدر الذي بلغته ومثلته في تراثنا الثوري وتاريخنا النضالي .. ومن هنا ايضاً جاء تشبيهها بثورة «اسبارتاكوس» ، التي كانت ثورة عبيد ضد السادة الأحرار وضد دولتهم ..

وبادىء ذى بدء .. فإن هذه الثورة لو كانت «ثورة الزنج» ، اشتعلت لتحريرهم من مظالم سادتهم وقسوة مالكيهم لما انتقص ذلك شيئاً من قدرها ولما وضع من مكانها في التاريخ الثوري عند العرب والمسلمين ، فكفاها شرفاً ، بل وتشريفاً لتراثنا الحضارى أن جعلت له ولأهله ثورة كبرى قامت لتحرير العبيد ! .

غير أن حقائق هذا الجانب من جوانب هذه الثورة تضيف اليها قسمات تعطيها طابع الشمول الانساني ، وتتعدى بها اطار الطموح العنصرى للزنج والعبيد .. فهي ثورة عربية اسلامية ، نهض بها عرب مسلمون ، زونجاً كانوا أم غير زونج .. ومصادر التاريخ حاسمة في الدلالة على هذا الذي نقول ..

● فعلى بن محمد قد بدأ الدعوة الى الثورة سنة ٢٤٩ هـ ضد الدولة العباسية ، وكانت هذه الدولة ، يومئذ ، دولة اترك اعاجم ممالك ، تستر قبورها ومظالمها وعجمتها بعباءة الخلافة العباسية التي لم يكن لخلفائها من السلطة والسلطان ما يتعدى التوقيع على الرقاع والمراسيم! .. فلم تكن دعوته للثورة ، إذن ، موجهة ضد العرب أو الدولة العربية ..

● وهو عندما دعا الى الثورة بدأ بدعوة العرب من أهل مدينة «هجر» ، عاصمة

(١) الخياط (الاتصار والرد على ابن الراوندى الملحد) ص ٩٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م . وانظر كتابنا (المعتزلة وأصول الحكم) طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

البحرين .. فكان المستجيبون الأول لدعوته الثورية ، وكانت الطلائع الأولى لهذه الثورة من العرب اهل البحرين .. ومن «هجر» انتقل الى «الاحساء» ، بمحاذاة «هجر» ، وهي موطن للعرب أيضاً ، فدعا الى الثورة قبائلها العربية ، «ونزل بحى من تميم ، ثم من بنى سعد ، يقال لهم بنو الشمال» فاستجاب هؤلاء العرب لدعوة على بن محمد ، وانخرطوا فى صفوف الثورة ، وقاتلوا معه عمال الدولة واعوان السلطان ، وبعبارة الطبرى التى يصف بها انتشار الثورة ، فى مراحلها الاولى هذه ، بين هذه القبائل العربية : «.. واحله أهل البحرين من انفسهم محل النبي ! حتى جبي له الخراج هناك ، ونفذ حكمه بينهم ، وقاتلوا أسباب السلطان بسببه !» .. اى أن الشكل الأولى والنموذج الأول لدولة هذه الثورة قد قام بين العرب ، وبواسطتهم .. ولم يكن لعنصر «الزنج» حتى ذلك الوقت وتلك المرحلة اى دور أو ذكر فى احداث هذه الثورة .. وعندما تصدت الدولة لحرب على بن محمد واتباعه من عرب المدن فى البحرين تحول من المدن الى البادية .. اى الى محيط عربى كذلك .. وظل ينتقل فى البادية من حى عربى الى حى عربى آخر .. ولا ذكر فى هذه المرحلة لدور الزنج فى هذه الثورة ولا وزن لهم فى احداثها ..

ولقد استمرت هذه المرحلة من حياة هذه الثورة ، بطبيعتها العربية هذه ، خمس سنوات ، اى حتى معركتها ضد جيش الدولة عند «الردم» - (موقع بالبحرين) - ، وهى المعركة التى انتصرت فيها الدولة على الثورة ، فقتل كثير من انصار على بن محمد ، وهم عرب ، فترجعوا عن نصرته ، وبعبارة الطبرى : «.. فنفرت منه العرب !»^(١) .

● وبعد هزيمة «الردم» انتقل على بن محمد الى البصرة .. وفيها كان توجهه بالدعوة الى العرب ، ايضاً ، كى ينخرطوا فى الثورة على الدولة .. فلقد نزل فى بنى ضبيعة - وهى قبيلة عربية من نزار بن معد بن عدنان - فكان له فيهم انصار ، اصبح بعضهم زعماء فى الثورة وقادة فى جيشها وأبطالاً مبرزين فى معاركها ، من مثل الاخوة : على بن ابان - (المعروف بالمهلبى) - وكان قائد القواد وامير الأمراء فى الثورة - ومحمد بن ابان - والحليل بن ابان .. وغيرهم^(٢) ..

● وفى البصرة طاردت الدولة ، وعاملها محمد بن رجاء الحضارى ، على بن محمد وانصاره ، ودخل السجن عدد من اتباعه ، وفيهم ابنه الأكبر وابنته وزوجته .. فترك البصرة ، مع عدد من قادة الثورة ، ذاهبين الى بغداد ، وفى الطريق اليها وقعوا بيد عامل السلطان على

(١) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٤١٠ ، ٤١١ .

(٢) المصدر السابق . ج ٩ ص ٤١١ .

« واسط » : محمد بن أبي عون ، تم استطاعوا التخلص من قبضته ، وواصلوا رحلتهم إلى بغداد ، فأقاموا بها عاماً كاملاً^(١) ..

● ثم حدثت في البصرة أحداث جعلت علي بن محمد يعود إليها من بغداد فلقد حدث صراع وشبت فتنة بين طائفتين من جنود الدولة بها : «الجند البلالية ، والجند السعدية» ، وفي هذا الصراع أطلق سراح السجناء في سجون البصرة ، ومنهم انصار علي بن محمد ! .. فرجع ليقودهم ، ويواصل بهم ثورته ، لقد وصل وقت السحر ليلة السبت ٢٩ رمضان سنة ٢٥٥ هـ (١٠ سبتمبر سنة ٧٦٩ م) .. فنزل مع اصحابه بمكان من أرض البصرة يسمى «برنخل» على النهر المسمى «عمود بن المنجم» ..

● وفي هذه المرحلة من مراحل الثورة ، أي بعد قرابة السبع سنوات على بدئها ، بدأ انعطافها نحو الزنج .. وكان ريجان بن صالح ، اول زنجي ينخرط في الثورة^(٢) .. فن معسكر الثوار حول البصرة «وجه علي بن محمد دعوته الى العبيد من الزنوج .. فاجتمع اليه بشر كثير من الغلمان» الذين كانوا يعملون في ظروف عمل بالغة القسوة ، بمواطن سيل الماء ، يكسحون السباخ والأملاح عن الأرض ، كى تخصب وتجود وتزرع ، في نواحي الفرات الجنوبية .. وقام علي بن محمد خطيباً في هؤلاء الزنوج فحدثهم عن أهداف ثورته بالنسبة لهم ، وتتلخص في تحريرهم من الرق ، وتحويلهم الى سادة لأنفسهم ، يتولون الرئاسة ويمتلكون الاموال .. بل ويمتلكون ظالمهم ومستغلبهم ! .. ولقد اجتهد كى يكتسب ثقتهم ، فأقسم لهم «ألا يغدر بهم ، ولا يخذلهم ، وأن يملكهم الاموال والضياع ، ولا يدع شيئاً من الاحسان إلا أقى اليهم !» .

ولقد توافدت الى معسكر الثوار أفواج من العبيد .. وبعبارة ابن خلدون : «تسايل اليه الزنوج واتبعوه !» .. وشرع يطوف على مواقع عمل الزنوج ، في مسايل الماء ، حيث يكسحون الملح ، فيقبض على وكلائهم ، ويوثقهم ، ويضم الى جماعته ما بعهدتهم من الغلمان ، وانزعج السادة ملاك العبيد ، فذهب وفد منهم إلى قائد الثورة يساومونه على رد عبيدهم إليهم لقاء مال يدفعونه إليه .. ولقد دار بينه وبين سادة العبيد ومواليهم ووكلائهم حوار بدأه بقوله :

— لقد أردت ضرب اعناقكم لما كنتم تأتون الى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم

(١) المصدر السابق . ج ٩ ص ٤١٢ . و(شرح نهج البلاغة) ج ٨ ص ١٣١ .

(٢) (شرح نهج البلاغة) ج ٨ ص ١٣٢ .

وقهرتموهم ، وفعلتم بهم ما حرم الله عليكم أن تفعلوه بهم ، وجعلتم عليهم ما لا يطيقون . فكلمني أصحابي فيكم ، فرأيت إطلاقكم ..

ولكنهم ارادوا مساومته ، فقالوا له :

- إن هؤلاء الغلمان أبق - (فارون من سادتهم) - وهم يهربون منك ، فلا يبقون عليك ولا علينا؟! فخذ منا ما لا واطلقهم لنا! ...

فغضب علي بن محمد ، وأمر الغلمان باحضار سعف النخل الأخضر ، وبأن يطرح كل جماعة من العبيد سيدهم السابق أو مولاهم او وكليهم ويضربونه خمسمائة جريدة؟! .. وبعد أن ادبهم ، اطلق سراحهم ، بعد ان اخذ عليهم الأيمان ان لا يكشفوا لقواد الدولة عن مكان معسكره ولا قوة عسكره! ..

ثم عبر بمن اجتمع إليه من الغلمان نهر « دجيل » .. وفي يوم عيد الفطر رفع لواء ثورته الأبيض ، وعليه قد كتبت ، بالأحمر والأخضر آية : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله) ... واسمه واسم ابيه .. وصلى بهم صلاة العيد ، وخطبهم خطبته فأكد لهم أهداف ثورته في تحريرهم « وذكر لهم ما كانوا عليه من سوء الحال ، وأن الله قد استنقذهم ، به وبالثورة ، وإنه يريد أن يرفع أقدارهم .. ويبلغ بهم أعلى الأمور ، وحلف لهم على ذلك ! .. » .

ويدوانه قد كانت للزنج تجارب مريرة مع ثوار وثورات سبقت ثورة علي بن محمد ، الأمر الذي جعل الحصول على ثقتهم أمراً غير يسير . ولقد علموا أن أحد أركان الدولة قد بعث إلى قائد الثورة يعرض عليه أن تكف الدولة عن مطاردته وحربه ، وان تؤمنه هو وأصحابه في أى مكان توجهوا إليه ، شريطة أن يرد العبيد إلى سادتهم وملاكهم ، وله عن كل عبد خمسة دنانير! .. « أنت آمن على نفسك حيث سلكت من الأرض ، لا يعرض لك أحد ، واردد هؤلاء العبيد على مواليتهم ، وأخذ لك عن كل رأس خمسة دنانير! » .

فغضب علي بن محمد ، واقسم ليعاقبن صاحب هذه الرسالة .. « ليحرقن داره ، ويبقرن بطن امرأته ، وليخوضن الدماء هناك! .. واجتهد لطمأنة العبيد على صدقه وصدق الثورة في تحريرهم .. وأعلمهم أنه لا يردهم ولا أحد منهم الى مواليتهم ، وحلف لهم على ذلك بالأيمان الغلاظ ، وقال : ليحط بي منكم جماعة ، فإن احسوا منى غدرأ فتكوا بي؟! .. واعلمهم انه لم يخرج لغرض من أغراض الدنيا ، وما خرج إلا غضباً لله ، ولما رأى عليه الناس من الفساد في

الدين .. وقال لهم : ها انا معكم في كل حرب ، اشرككم فيها بيدي ، واخاطر معكم فيها بنفسى ! » .

ولقد كان الغلمان الذين انخرطوا في الثورة طوائف ، جمعهم الرق أو الفقر أو هما معاً ، وميزت بينهم الاصول .. ففيهم : الزنج ، وفيهم النوبة ، وفيهم القرماطيون ، وفيهم الفراتيون العرب .. ومن عدا الزنج كانوا يفهمون العربية ويتكلمونها ، فكانوا ينقلون احاديث على بن محمد وخطبه الى الزنوج ..

ولقد أدرك الغلمان ، بعد تجاربهم المطمئنة مع هذه الثورة وقائدها ، أنهم بإزاء ثورة قد صدقتهم الوعد ، وقائد يعنى ، حقاً ، ما اعلن لهم من مبادئ واهداف «فرضوا عنه . ودعوا له بالخير !..» .

ولقد طارت انباء تلك الثقة التي توطدت بين الزنج والثورة الى مختلف مواقع العمل التي يعمل بها العبيد ، فشرعوا في الهرب من سادتهم واللحاق بمعسكرات الثورة ، حتى لقد كان سادتهم يجسسونهم في البيوت ويسدون عليهم أبوابها بالبناء أو بالطين كي يحولوا بينهم وبين الهرب إلى معسكرات الثوار؟! .

وكان بجيش الدولة فرق وحاميات زنجية ، اخذت تنسلخ عن الجيش وتنضم إلى الثوار كلما حدث قتال بين جيش الدولة وبين الثوار ، حتى أصبحت هذه المعارك وكأنها عملية «تسليم» للعبيد إلى الثورة يقوم بها جيش الدولة؟! .. وحتى قال على بن محمد لاصحابه : «إن من امارات تمام امركم ماترون من اتيان هؤلاء القوم بعيدهم فيسلمونهم إليكم ، فيزيد الله في عددكم»^(١) ! .

هذا عن مكان الزنج في الثورة .. لقد دعيتهم فالتحموا بها في المرحلة الثانية من مراحلها .. وكانت بالنسبة لهم : تحريراً من الرق وانقاذاً من استغلال السادة والموالى والوكلاء ، بصرف النظر عن جنس هؤلاء السادة والوكلاء ، وأيضاً ، فإن هذه الثورة لم تكن وقفاً عليهم ولا خاصة بهم .. لقد كان لهذه الثورة شرف القتال لتحرير العبيد ، وإن لم يكن هذا هو هدفها الوحيد .. فلم تكن ثورة عنصرية قام بها الزنج ضد

(١) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٤١٠ - ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ . و(السير) مجلد ٤ ص ١٨ ، ١٩ و(تاريخ الشعوب الإسلامية) ص ٢١٥ . وييلب حتى (تاريخ العرب) «مطول» ص ٥٦١ . طبعة بيروت سنة ١٩٥٣ م .

العرب ، وإنما كانت ثورة عامة للذين اختاروا الصراع العنيف طلباً للعدل والحرية ورفضاً لسيطرة الاعاجم الاتراك على الخلفاء العباسيين واستئثارهم بحيرات البلاد ..

ولم يعن هذا الدور المتعاضم للزنج في الثورة انحسار دور غيرهم ، وخاصة العرب ، في قيادتها وجيشها .. ففي كثير من احداثها واخبارها نطالع دور العنصر العربي ، بل ودوره القيادي ..

● ففي اقتحام الثوار للبصرة (شوال سنة ٢٥٧هـ - ٧ سبتمبر سنة ٨٧١م) نهضت الاعراب بدور رئيسي في الاقتحام ، وكان علي بن محمد قد عهد إلى سليمان بن موسى الأشعري - من قادة جيشه - بتمرينهم وقيادتهم .. وبعد يومين من القتال انحاز أهل البصرة - وهم عرب - إلى صفوف الثوار! (١) ..

● وكذلك تذكر الروايات دور العرب في الثورة وقاتلهم في صفوفها ، بمناسبة الحديث عن معركتها ضد جيش الدولة عند الخزيرية ، على نهر جبي ، تلك المعركة التي قتل فيها من جيش الثورة خلق كثير وبعبارة الطبري : قتلت فيها الدولة « من البيضان والزنج خلقاً كثيراً! .. » (٢) .

● كما تذكر اخبار الثورة دور القبائل العربية في نصرتها والقتال بجيشها ، من مثل « الباهليين » و « بني تميم » ، فلقد كانوا يقاتلون مع الزنج جنباً إلى جنب (٣) ! ..

● كما لعبت الاعراب - من التجار - دوراً بارزاً في إمداد الثورة ، مدناً وجيوشاً ، بالموث ، وخاصة في شدائد القتال والحصار (٤) ..

فلم يكن دور العرب بأقل من دور الزنج في الثورة ، كما لم يكن دور أى من العنصرين منفصلاً عن دور الآخر ، لأنها كانت ثورة واحدة ، وعامة ولم تكن العنصرية ملحوظة ، بأى حال من الأحوال ، في مبادئها أو في صنوف الثائرين بها .

* * *

(١) (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٤٨٢ .

(٢) المصدر السابق . ج ٩ ص ٤٩١ .

(٣) المصدر السابق . ج ٩ ص ٥٢٢ ، ٥٣٢ ، ٦٠٧ .

(٤) المصدر السابق . ج ٩ ص ٦٠٣ - ٦٠٦ . و (تاريخ الشعوب الإسلامية) ص ٢١٦ .

ولقد استطاعت جيوش الثورة ان تلحق الهزائم الشديدة بجيوش الدولة فى عشرات المعارك التى دارت بينهما ، وثمرة لهذا القتال الضارى امتدت رقعة الدولة والسلطة التى اقامتها الثورة إلى مساحات كبيرة ومدن وقرى عديدة فى كل من العراق والخليج وفارس .. من مثل :

- البحرين ، مدناً وبادية .. وهى ولاية على الشاطئ الغربى للخليج .
- والبصرة .. وهى من اشهر المدن وأهمها بجنوبى العراق ..
- والأبله .. على شاطئى دجلة البصرة ، فى زاوية الخليج عند دخوله إلى البصرة .
- والأهواز .. بفارس ، وكانت تشمل عدة «كور» - (قرى) - كبيرة .
- والقادسية .. قرب الكوفة ..
- وواسط .. بين البصرة والكوفة ..
- وجنبلاء .. بين واسط والكوفة ..
- وبأذورد .. مدينة قرب واسط ..
- والنعمانية .. على دجلة ، بين واسط وبغداد ..
- والمنصورة .. بطهيتا .. وهم قد بنوها ضمن ما بنوا من مدن جديدة حصينة ..
- وجرجرايا .. من اعمال النهروان الأسفل ، بين واسط وبغداد ، من الجانب الشرقى .
- وجبل .. على جانب دجلة من الجانب الشرقى ، بين النعمانية وواسط .
- ورامهرمز .. احدى مدن خوزستان ..
- والمنبجة .. بنهر الخميس وكانت ثانية مدن الزنج ، بعد عاصمتهم (الختارة) .. وهى من انشائهم ، مثل العاصمة ..
- والمدار .. بين واسط والبصرة ..
- وتستر .. اعظم مدن خوزستان ..
- والبطيحة .. وهى منطقة بها عدة قرى متصلة بين واسط والبصرة ..
- وخوزستان .. وهى مقاطعة ببلاد فارس ..

● وعبادان .. وهى جزيرة مثلثة فى فم دجلة البصرة ..

● واغلب سواد العراق ، أى ريفها ..

وأنشأت الدولة الثورية عاصمة لها سمّتها (المختارة) ، بنوها أولاً باللبن ، فى منطقة تتخللها القنوات وفروع الانهار وتمتلىء بالمستنقعات ، ثم حصنها وجهازها بما غنموه اثناء القتال .. حتى لقد اصبحت ، بمنعتها وحصانيتها ، وما احاط بها من خنادق واسوار ، وما نصب على اسوارها من ادوات الحرب والحمامة ، عنواناً وبرهاناً على ان ثورة الزنج هذه ليست كغيرها من الهبات والثورات التى تكررت فى ظل حكم بنى العباس .. وبعبارة ابن أبى الحديد ، فإن « أبو احمد » ، قائد جيش الدولة واخو الخليفة ، لما رأى أسوار (المختارة) وتجهيزاتها « رأى مالم ير مثله ممن تقدم من منازعى السلطان ! .. » ولذلك اعد لقتال هذه الثورة جيشاً قال شهوده يوم خروجه من بغداد : « لقد رأينا جيوشاً كثيرة للخلفاء ، فما رأينا مثل هذا الجيش ، احسن عدة ، واكمل عتاداً وسلاحاً ، وأكثر عدداً وجمعاً ! .. » (١) .

* * *

وفى هذه الدولة ، التى اقامتها الثورة ، وضعت أهداف الثورة وتعاليمها موضع الممارسة والتطبيق .. ولم يشغلها القتال المستمر ، الذى لم يهدأ ، تقريباً ، منذ بدء الثورة سنة ٢٤٩هـ وحتى هزيمتها سنة ٢٧٠هـ ، عن إقامة العدل الذى بشرت به ، والمساواة التى دعت إليها ، وتحرير الرقيق من استعباد الاشراف .

وبالرغم من أن أحداث القتال الدامى بين الثورة والدولة قد استأثرت باهتمام المؤرخين فغاب من صفحاتهم الحديث عن النظام المتميز الذى اقامته الثورة على أرضها وفى دولتها ، إلا اننا نستطيع ان نستخلص من اشاراتهم ان هذه الثورة قد اقامت :

* فى السياسة :

دولة قوية وكبيرة .. وإذا كانت « دنيا » الناس يومئذ كانت هى الامبراطورية العباسية ، فإن المؤرخين يقولون : ان الزنج قد « اقتسموا الدنيا ! » .. و « اجتمع إليهم من الناس مالا

(١) (شرح نهج البلاغة) ح ٨ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ! ٨٥٢ .

ينتهي العد والحصر إليه .. وكان عمال الدولة الثائرة يجمعون لقائدها ، على بن محمد ، الخراج « على عادة السلطان » .. حتى « لقد عظم الخطب وجل ، وخيف على ملك بن العباس ان يذهب وينقرض ! »^(١) ..

وكان على بن محمد هو « أمير المؤمنين » في هذه الدولة التي قامت متحدية لخلافة بني العباس التي سيطر عليها القادة الأتراك المماليك ..

* وفي الاجتماع :

كان نظام الدولة « جماعياً » ، يقوم على التكافل بين ابناء المجتمع ككل ، رافضاً الفلسفة الفردية وما أثمرت من مظالم واستغلال في الاقتصاد والاجتماع .. ويشهد لذلك ما كتبه نظام الملك عن النظام الاجتماعي والمالي لهذه الثورة ودولتها ، فلقد شبهها « بالزديكية » التي قررت « الاشتراك » العمومي في الثروة والمال بين الجميع^(٢) ! ..

كما قامت هذه الثورة بتحرير العبيد ، سوداً وغير سود ، من الرق ، وحررت كل الفقراء الذين انخرطوا فيها من القهر الذي رزحوا تحته وهم يسخرون للعمل في كسح المياه المالحة من أرض جنوب العراق والخليج وتجهيز هذه الأرض لتدر الحصب والرخاء للسادة والاشراف .. فبذ اللحظة الأولى لانعطاف هذه الثورة نحو الزنج وسعيها لتحريرهم كان همها دراسة أحوالهم البائسة والعمل لخلاصهم من البؤس الذي يرزحون تحت نيره .. ويحكى « ريحان بن صالح » ، وهو أول زنجي ينخرط في الثورة ، يحكى عن لقائه الأول بقائدها على بن محمد فيقول : « لقد سألتني عن غلمان الشورجيين - (العاملين في مجارى المياه) - وما يجري لكل جماعة منهم . من الدقيق والسويق والتمر ، وعمن يعمل في الشورج - (مسائل المياه) - من الاحرار والعبيد ، فأعلمته ذلك ، فدعاني إلى ما هو عليه - (أى إلى الثورة) - فأجبته . فقال لى : احتل فيمن قدرت عليه من الغلمان ، فأقبل بهم إلى ، ووعدنى ان يقودنى - (يجعلنى قائداً) - على من آتبه به منهم ، وان يحسن إلى ! »^(٣) ..

(١) المصدر السابق . ج ٨ ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) نظام الملك « سياسة نامه » ص ٢٨٥ . (انظر دراسة د . فاروق عمر فوزى عن « حركة الزنج وموقعها من الأصالة الثورية العربية » مجلة « آفاق عربية » العراقية . عدد ١١ لسنة ٧٧ .

(٣) (شرح نهج البلاغة) ج ٨ ص ١٣٢ .

الصراع .. والنهائية

التاريخ العربي الإسلامي حافل بالثورات التي اشتعلت ضد كل من بني أمية وبني العباس .. ولكنه لا يعرف نظيراً لثورة الزنج في القوة والاستمرار والعنف الذي تميز به صراعها مع الدولة منذ نشبت حتى اليوم الذي هزمت فيه ..

● فتورة زيد بن علي (٧٩ - ١٢٢ هـ - ٦٩٨ - ٧٤٠ م) ضد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك قد اعلنت في الكوفة قبل خمسة أيام من انتهاء شهر المحرم سنة ١٢٢ هـ (يناير سنة ٧٤٠ م) .. ثم هزمت بعد يومين من القتال ! ..

● وثورة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن (٩٣ - ١٤٥ هـ - ٧١٢ - ٧٦٢ م) قد قامت بالمدينة ، ضد المنصور العباسي في أول رجب سنة ١٤٥ هـ (٢٦ سبتمبر سنة ٧٦٢ م) .. ثم هزمت في ١٤ رمضان من نفس العام ، أي بعد شهرين ونصف من قيامها ! ..

● وثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن (٩٧ - ١٤٥ هـ - ٧١١ - ٧٦٣ م) اخو النفس الزكية ، اعلنت ، في البصرة ، ضد المنصور العباس ، في أول رمضان سنة ١٤٥ هـ (٢٣ نوفمبر سنة ٧٦٢ م) .. ثم هزمت في ٢٥ ذى القعدة من نفس العام ، أي بعد أقل من ثلاثة أشهر من قيامها ! ..

وعلى هذا النحو كانت أغلب الثورات ، بل لقد كانت هزيمة الكثير من هذه الثورات تتم في المعركة الأولى التي يلتقي فيها ثوارها بجيش الدولة الزاحف عليها لسحقها وتصفيتها .. وحتى ثورات الخوارج ، التي كانت شبه مستمرة ، فإنها قد استمرت لما مثلته من حلقات متتالية من الانتفاضات والتمردات والهبات .. كلما هزمت هبة تبعتها ، بعد فترة ، هبة اخرى وهكذا ..

ومن هنا تتميز وتمتاز ثورة الزنج عن كل هذه الثورات تقريباً ، وتكاد أن تنفرد في تراثنا الثوري بالقوة والتأييد الذي ضمن لها البقاء ، في صراع شديد وبالغ العنف مع جيش الدولة ، منذ اندلاعها في سنة ٢٤٩ هـ (سنة ٨٦٣ م) وحتى هزيمتها في سنة ٢٧٠ هـ (سنة ٨٨٣ م) .. أي ما يزيد على العشرين عاماً .. كما تتميز بالدولة التي اقامتها ، والتي استمرت تقاوم منذ قيامها في سنة ٢٥٥ هـ (سبتمبر سنة ٨٦٩ م) وحتى الهزيمة في سنة ٢٧٠ هـ (سنة ٨٨٣ م) ..

ولقد بلغ الصراع بين الثورة وبين الدولة العباسية ، طوال هذه السنوات ، حداً من العنف والقسوة لم يحدث ما يشبهه في اية ثورة اخرى .. ولقد ظلت جيوش الدولة تمنى بالهزيمة تلو الهزيمة على يد الثوار حتى اضطر الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ - ٨٧٠ م) إلى تكريس كل موارد الدولة لحرب الزنج ، بل وإلى وضع السلطة الحقيقية في البلاد بيد اخيه أبو احمد الموفق في شهر ربيع الأول سنة ٢٥٨ هـ .. ومنذ ذلك التاريخ بدأت الدولة تسخر كل ماديها لخدمة الجيش الذي شرعت في إعداده لمحاربة الثوار .. بل لقد أصبحت العاصمة الحقيقية للخلافة هي (الموفقية) التي بناها الموفق تجاه (المختارة) كى يمارس منها الاستعداد والقتال ، وأصبح الموفق هو الخليفة الفعلى والحاكم الحقيقى فى البلاد .. فلقد كتب إلى عمال الأقاليم والأمصار « بأن يحملوا الأموال إلى بيت ماله فى (الموفقية) ، وألا يحمل إلى بيت مال العاصمة الرسمية درهم واحد ! » .. حتى لقد هم الخليفة « المعتمد » بالهرب من « سامراء » ، والذهاب إلى مصر كى يعيش عند واليها أحمد ابن طولون ، فغادر عاصمته مع عدد من امراء حاشيته وخاصة عماله ، ولما علم « الموفق » بذلك ، كتب إلى « ابن كنداجيق » ان يعترض طريقهم ، ويلقى القبض على الخليفة ويعيده إلى دار الخلافة شبه سجين^(١) ! .. وتم له ذلك ، وكان فيه التعبير عن المدى الذى بلغته الدولة فى تكريس كل امكانياتها لحرب ثورة الزنج .. لقد غدت السلطة الفعلية فى كل مناحى السلطة وكل انحاء الدولة لقائد الجيش ، كما أصبحت كل ثروة الدولة موقوفة على الاستعداد لقتال الثوار ! ..

وكانت الحرب بين الثورة والدولة تدور فى البروفى الانهار معاً لأن عاصمة دولة الثورة - (المختارة) - كانت مبانيها تتناثر على شواطئ فروع نهر ابى الخصيب ، وكانت الجسور - (الكبارى) - تربط أوصال العاصمة ، وعليها ، براً وبحراً ، تدور المعارك لفك ترابط هذه الأوصال ! .. وإلى جانب الخنادق كانت المياه تستخدم لإعاقة تقدم المحاربين ، عندما تفتح لها الفتحات فتغرق السباح ! .. وكانت فرق من الزنج تحارب حرب عصابات بحرية ! .. يستخدمون فيها القوارب الصغيرة الملائمة للقنوت الضيقة ، فإذا اشتدت المطاردة حملوا القوارب على ظهورهم واحتموا بالغابات أو المستنقعات ! ..

كذلك كانوا يحفرون فى طريق جيش الدولة الآبار ويضعون فيها السفايفد - (اسياخ الحديد التى يشوى عليها اللحم) - ثم يغطونها بالحصير المنسوج من القصب ، ويجعلون هذه

(١) (شرح نهج البلاغة) ج ٨ ص ١٨٥ ، ٢٠٠ - ٢٠٢ .

الفخاخ حيث اعتادت الخيل ان تسير ، كى تسقط بفرسائها طعماً للسفايد !^(١) .
وأمام الحسائر التى منيت بها الدولة ، والتى بلغت فى معركة البصرة وحدها ثلاثمائة ألف
قتيل (٣٠٠,٠٠٠)؟! .. فرض على مختلف الولايات والأقاليم ان تضع كل امكانياتها فى
خدمة القتال .. فجاءت الإمدادات ، من الرجال والأموال والعتاد ، وبنيت سفن الحصار
والنقل والقتال ..

ودارت بين الفريقين معارك يومية متصلة حلقات القتال فيها ، لاتعرف التوقف أو الهدنة
أو الانقطاع .. وقدم الثوار نماذج من البطولة اضطر خصومهم إلى الاشارة إليها من خلال
الهجوم الذى شنوه عليهم والسباب الذى التزموه اثناء وصفهم لأحداث الصراع .. فى
تاريخ الطبرى نلتقى بعبارات كثير مثل :

● « وقاتل الفسقة اشد قتال ! » .. و « صبر الفسقة وقاتلوا ! » .. و « صبر الفسقة أشد
صبر ! » ..

● واشتدت محاماة الفسقة !^(٢) ..

● وفى احد المواطن يتحدث الطبرى عن بسالة الثوار فى الدفاع عن احد مساجد
عاصمتهم (المختارة) ، فيقول بأسلوب شديد العداء للزنج : « امر أبو العباس الموفق - قائد
جيش الدولة - اصحابه بالقصد إلى الموضع الذى كان الخبيث ! - (على بن محمد) - اتخذ
فيه بناء سماه مسجد الجامع ، فاشتدت فيه محاماة الفسقة عن ذلك والذب عنه ، بما كان
الخبيث يحضهم عليه ، ويوهمهم أنه يجب عليهم نصره المسجد وتعظيمه ! .. فيصدقون قوله
فى ذلك ، ويتبعون فيه رأيه ، وصعب على اصحاب الموفق ما كانوا يرومون من ذلك ،
وتناولت الأيام بالحرب على ذلك الموضع ! وصمد مع الفاسق يومئذ نخبة اصحابه وابطالهم
والموطنون انفسهم على الصبر معه ، فحاموا جهدهم ، حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب
احدهم السهم أو الطعنة أو الضربة فيسقط ، فيجذبه الذى إلى جنبه ويقف موقفه اشفاقاً
من أن يخلو موقف رجل منهم ، فيدخل الخلل على سائر أصحابه ! !^(٣) .

هكذا كانت تدور الحرب .. ايام من القتال الضارى على موقع واحد وصغير ، ومقاتلوا

(١) المصدر السابق ج ٨ ص ١٦٩ .

(٢) تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٦٢٩ ، ٦٢٥ ، ٦٣٥ ، ٦٥١ .

(٣) المصدر السابق . ج ٩ ص ٦١٨ .

الثورة لا يتزحزح احدهم عن موقعه قيد أنملة ، والحلى يأخذ مكان من مات « حتى لا يخلو موقف رجل منهم فيدخل الخلل على سائر اصحابه ! » ..

ووسط هؤلاء المقاتلين كان قائدهم على بن محمد « في دراعة وعمامة ونعل وسيف ، وترسه في يده ! » يحارب معهم ، ويشد من ازهرهم ، ويجمع من يتفرق منهم بالبوق !^(١) .. فلقد كان على بن محمد ثائراً لم يقف ثورته عند «الرفض النظرى» لمظالم عصره ، بل وضع هذا «الرفض» في التطبيق عندما لم يكنف ، ككثيرين غيره ، بلقب «المهدى» و«الإمام» ، مع الجلوس خلف الاستار! .. لقد كان بطلاً وطناً نفسه على ان مكانه الملاثم والطبيعى إما أن يكون فوق اعواد المنبر ، إماماً وثائراً ، وإما في احضان الثرى شهيداً من الشهداء! .. وطن نفسه على ذلك ، وعندما استشعرت نفسه في موطن الخطر وساحات الحرب ما تستشعره نفس الانسان ، اى انسان فى مثل هذه المواطن ، حدثها عن عزمه فقال :

وإذا تنازعى اقول لها قرى موت يريحك أو صعود المنبر
ما قد قضى سيكون فاصطبرى له ولك الأمان من الذى لم يقدر!^(٢)

هكذا كان القائد .. وهكذا كان الرجال ..

بل لقد شاركت المرأة فى هذه الثورة ، واسهمت فى القتال .. ويذكر الطبرى ان نساء الزنج قد اشتركوا فى معارك اقتحام البصرة ، فكن يجمعن الآجر ويمددن به الرجال^(٣) ! ..

والى جانب القتال كان على بن محمد يمارس الدعوة الى ثورته وينشر بين الناس مبادئها ، فيرسل من اصحابه «من يعظ الناس ويعلمهم بالذى دعاه الى الخروج - (الثورة)^(٤)» .. وياشر رعاية اليقظة والانضباط فى صفوف انصاره وجنوده .. فبعد فتح «القادسية» جاءه الخبر أن نفراً من جنوده قد انشغلوا بما وجدوه فيها من خمر ونيذ «فأتاهم ، واعلمهم ان ذلك لا يجوز لهم ، وحرّم النيذ فى ذلك اليوم عليهم ، وقال لهم : إنكم تلاقون جيوشاً تقاتلونهم ، فدعوا شرب النيذ والتشاغل به ، فأجابوه لذلك ! ..»^(٥)

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ٤٣٣ (والدراعة : نوع من الثياب هى عبارة عن جبة مشقوقة من الامام).

(٢) (شرح سجع البلاغة) ج ٨ ص ١٢٨ .

(٣) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٤٣٦ .

(٤) المصدر السابق . ج ٩ ص ٤٣٣ .

(٥) المصدر السابق . ج ٩ ص ٤٢٢ .

فهو قد حرم النبيذ على جنوده ، مبالغة في اليقظة ، ومراعاة لضرورات القتال ، على الرغم من ان المذاهب الاسلامية ، التي حرمت الخمر ، قد احلت شرب النبيذ ! ..

وكان للثورة مجلس حرب ، وقيادة عسكرية ، تتألف من قواد ستة ، يجتمعون بقائد الثورة ، للتخطيط ولمتابعة تطورات القتال^(١) .. وكان في مقدمة قادة هذا المجلس ، بعد علي بن محمد : علي بن ابان المهلبي ، قائد القواد وامير الامراء ، كما ضم هذا المجلس : سليمان بن موسى الشعراني ، وسليمان بن جامع ، واحمد بن مهدي الجبائي ، ويحيى بن محمد البحراني ، ومحمد بن سلم ..

كما كان لقائد الثورة «كاتب» يتولى ما يشبه منصب «الوزارة» ، هو محمد بن سمعان .. وكان علي بن محمد نموذجاً للقائد الذي يرضى حقوق معاونيه وقادة جيشه .. وعندما اصيب القائد احمد بن مهدي الجبائي في القتال ، وحمل الى «المختارة» رعى علي بن محمد تطبيقه فلما مات حزن عليه حزناً شديداً « وتولى غسله وتكفينه والصلاة عليه والوقوف على قبره إلى أن دفن .. ثم أقبل على اصحابه فوعظهم ، وحدثهم عن موت الجبائي فقال : لقد سمعت وقت قبض روحه زجل الملائكة بالدعاء له والترحم عليه !؟ ..^(٢) » .

لقد كان الترابط وثيقاً بين قائد الثورة وبين اركانها ، كما كانت ثقة هؤلاء القادة في اميرهم لا تعرف الحدود ..

وبعد ان اكتملت لجيش الدولة استعدادات لم يسبق لها مثيل في تاريخ تصديها للثورات ، استطاعت ان تهرز أول انتصاراتها ضد الثوار بانتزاع مدينة «المنبعة» ، ثانية مدنهم ، من ايديهم .. وبعدها دارت معارك ضارية في إقليم خوزستان .. ثم بدأت الدولة حصاراً محكمًا ، برياً وبحرياً ، عسكرياً واقتصادياً ، لمدينة (المختارة) عاصمة الثوار .. ولقد بدأ الموقف حصاره للمختارة بجيش قوامه ٥٠,٠٠٠ مقاتل ، و١٥٠ سفينة حربية عليها أكثر من ١٠,٠٠٠ ملاح مقاتل ! .. ثم أخذت تتوالى إليه الإمدادات ، جنوداً وسفنًا وعتاداً ، من مختلف الأقاليم .. جاءه من سامراء ١٠,٠٠٠ جندي بسلاحهم ، وكذلك فعلت الأهواز والبحرين وفارس وغيرها من الأقاليم .. واستمر هذا الحصار مايقرب من اربع سنوات ! (من شعبان سنة ٢٦٧ حة صفر سنة ٢٧٠هـ)^(٣) .

(١) المصدر السابق . ج ٩ ص ٤٢١ .

(٢) (شرح نهج البلاعة) ج ٨ ص ١٧٤ .

(٣) (العبر) مجلد ٤ ص ٢٠ ، ٢١ .

واستمرت المعارك طوال هذه السنوات الأربعة ، واتخذت اشكالاً ضارية ، وجديدة ، بل وطريفة في بعض الأحيان ..

● ولقد بنى الموفق ، قبالة (المختارة) ، مدينة جديدة عالية التجهيز ، كى يمارس منها حصاره وقاتله ضد الثورة ، سماها : (الموفقية) ..

● وعندما كانت سفنه تقترب من (المختارة) كان الثوار يرمونها بأدوات قتالهم ، بل ويصبون عليها الرصاص المذاب بالنار ، فاضطر إلى تغطية سفنه بسقوف من الخشب ألبسها جلود الجواميس وغطاها بالخيش المطلى بصنوف الادوية والعقاقير التي تمنع الاحتراق^(١) ! .

● وسدت المنافذ على (المختارة) فتوقفت امداداتها بالاغذية والملابس والعتاد .. ثم احترقت ، اثناء الغارات ، مخازن الحبوب التي كانت بها .. حتى اضر الحصار بإمكانيات المقاومة والصمود لدى الثوار .. ويذكر الطبرى كيف كان الأسير منهم يؤسر ، فيسأل عن عهده بالخبز ، فيعجب من ذلك ! ويذكر ان عهده بالخبز منذ ستة وستين^(٢) !؟ « ويستطرد ، في موطن آخر ، فيقول : « .. حتى لقد أكلوا لحوم البشر منهم ومن أولادهم ، ونبشوا قبور الموتى ، فيبيعون اكفانهم ويأكلون لحومهم !؟ » ..

ولا ينسى الطبرى ان يذكر ان ذلك كان محرماً في قانون الثورة ، ولكن الضرورة جعلت عقوبته الحبس فقط ! يقول : « وكان الخبيث - (أى على بن محمد) - لا يعاقب أحداً ممن فعل شيئاً من ذلك إلا الحبس ، فإذا تطاول حبسه اطلقه !! »^(٣) .

ومع ذلك ظلوا صامدين !! .

ومع القتال ، بأدوات الحرب ، وبالحصار ، وبالجوع .. اخذت الدولة تغرى أنصار الثورة وجنودها كى يهربوا من عاصمتها ، إلى حيث الأمان وإغداق العطاءات .. وكانت تساعد من يريد الهرب على الهروب ، ثم تطعمهم بعد جوع ، وتكسوهم بعد عرى ، وتركبهم الخيول المطهمة وتحملهم على السفن المزينة وتعرضهم أمام أسوار (المختارة) كى يراهم الثوار الجياع المحاصرون الصامدون ، اغراء لهم على الهروب مما هم فيه إلى حيث يطعمون من الجوع ويأمنون من الخوف !^(٤) ..

* * *

(١) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٦٢٣ .
(٢) المصدر السابق . ج ٩ ص ٦٠٨ .
(٣) المصدر السابق . ج ٩ ص ٥٨٨ ، ٦٠٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ .
(٤) المصدر السابق . ج ٩ ص ٦٠٨ .

وكان لابد من نهاية لهذا الصمود الثورى الذى أصبحت له (المختارة) نموذجاً نادر المثال .. مدينة محاصرة ، تصمد أمام امبراطورية ذات جيش جرار ، على التجهيز ، قرابة الأربع سنوات !..

وكانت مصر قد اعلنت استقلالها «الذاتى» عن الخلافة العباسية ، تحت حكم احمد ابن طولون (٢٢٠ - ٢٧٠ هـ - ٨٣٥ - ٨٨٤ م) وكان لابن طولون جيش بالشام يقوده لؤلؤ (غلام أحمد بن طولون) .. فخان لؤلؤ قائده أحمد بن طولون ، وسار بجيشه - وكان عظيماً وجراراً يضم جنوداً من الفراغنة ، والأتراك والروم والبربر والسودان ، بلغوا عشرة آلاف « من نخبة الفرسان وانجادهم »^(١) ! - فانضم إلى جيش الموفق الذى يحاصر الثوار فى (المختارة) .. وعند ذلك أيقنت الدولة من قدرتها على اقتحام عاصمة الثورة .. فبدأ الهجوم ، من الجانب الشرقى للمدينة ، يوم الاثنين ٧ ذى القعدة سنة ٢٦٩ هـ^(٢) (١٨ مايو سنة ٨٨٣ م) .. ودارت المعارك فى (المختارة) من موقع إلى موقع ، ومن شارع إلى شارع ، ومن جسر إلى جسر ، واستطاع لؤلؤ وجيش مصر ان يكسر بقايا مقاومة الثوار ..

وعندما أوشكت مقاومة الثوار على الانهيار ، واخذت جموعهم فى التفرق ، وطلب الكثيرون منهم الأمان .. هرب على بن محمد ، إثر معركة ، مع نفر من أصحابه إلى نهر السفينى ، فلحقه لؤلؤ وجيشه ، فهرب منهم إلى نهر القيرى ، فتبعوه ، فأفلت منهم ووصل إلى نهر المساوان ، فعبره ، واعتصم بجبل وراءه .. ولم ينس الثائر القائد عندما دفعته جموع خصومه إلى الفرار من منزله أن يلتفت إلى هذا المنزل ، وان يتحدث إليه ! :

عليك سلام الله ياخير منزل خرجنا وخلفناه غير ذميم
فإن تكن الأيام أحدثن فرقة فن ذا الذى من ربهن سليم؟^(٣) !
وعندما انسحب جيش الدولة إلى (الموقية) عاد على بن محمد مع أصحابه إلى (المختارة) من جديد .. فعاد جيش الدولة للهجوم عليه مرة أخرى يوم الجمعة أول صفر سنة ٢٧٠ هـ^(٤) - (١٠ اغسطس سنة ٨٨٣ م) ، فكانت المعركة النهائية ، حيث تبددت

(١) (شرح نهج البلاغة) ج ٨ ص ٢٠٧ .

(٢) هكلنا يذكر الطبرى فى تاريخه ج ٩ ص ٦٤٧ . ولكن يوم السابع من ذى القعدة يوافق السبت لا الاثنين . انظر

(التوقيقات الإلهامية) ص ١٣٥ .

(٣) (شرح نهج البلاغة) ج ٨ ص ١٢٧ .

(٤) هكلنا فى تاريخ الطبرى . ج ٩ ص ٦٥٩ . وفى (التوقيقات الإلهامية) أن أول صفر سنة ٢٧٠ هـ يوم السبت ،

لا الجمعة .

بقايا جيش الثورة ، ولما ضاق الحصار على قائدها قذف بنفسه في نهر الأمير ، يريد الإفلات من الأسر ، فلققوا به وقتلوه ، واحتزوا رأسه ، فرفعوها على المعسكر ، ثم أرسلوها إلى بغداد فوصلتها يوم السبت ١٨ جمادى الأولى سنة ٢٧٠هـ (٢٣ نوفمبر سنة ٨٨٣م) (١) .
وسط الزينات والأفراح !..

لكن هذه الزينات لم يكن الشعب هو الذى اقامها .. وتلك الأفراح كانت أفراح السلطة والدولة فى الأساس .. فالناس كانوا يدركون أن الذى حسم المعركة ضد الثورة هو الجند المصرى بقيادة لؤلؤ ، وليس الموفق ، على الرغم مما سخر للحرب من سلطات وسلطان وأموال .. ويحكى المؤرخون ان أهل بغداد لما رأوا رأس على بن محمد قد رفعت على سارية يحيط بها الجيش الذى يقوده أبو العباس بن الموفق ، صاحوا هاتفين : « ماشتم قولوا .. كان الفتح للؤلؤ؟! (٢) » ..

بل ويحكى هؤلاء المؤرخون كيف ان العامة صاحت بعبارات معادية لبني العباس فى ذلك اليوم الحاشد والمشهود .. صاحوا قائلين : « رحم الله معاوية وزاد » ! ولقد تعجب أبو العباس من هذه الصيحات الاستفزازية ، وتساءل : أما كان الأوفق والأنسب أن يترحموا على « العباس » وابنه « عبد الله » ومن ولد من الخلفاء؟! .. ثم همَّ بتأديب عامة أهل بغداد « حتى لا يعاودون بعد هذا الفعل مثله ! » ، فأصدر إلى « النفاطين » - (عمال الحريق بالنفط) - بأن يحرقوا أحياء الجماهير التى هتفت تلك الهتافات المعادية اثناء هذه الاحتفالات .. ولكن العلاء بن صاعد ابن مخلد نصح أبا العباس بالعدول عن إشعال النار فى الدور ، وقال له : « أيها الأمير اطل الله بقاءك ! لاتفسد هذا اليوم بجهل عامة لا أخلاق لهم (٣) ! »

وما نحسب إلا ان هؤلاء « العامة » كانوا يعبرون عن مصالحهم التى اغتالها الدولة ، وعن عواطفهم التى اجتذبتها تلك الثورة التى عاد الجيش يرأس قائدها بعد ان قاتل فى سبيل مبادئها أكثر من عشرين عاماً !..

وبذلك انتهت أطول ثورات التاريخ الإسلامى فى العصر العباسى وأشدّها عنفاً وأكثرها ضحانا .. فلقد فاقت ضحاياها حد الحصر لدى المؤرخين الذين أكثروا من عددها وتعدادها

(١) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٦٦٠ .

(٢) (شرح نهج البلاغة) ج ٨ ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٣) المصدر السابق . ج ٨ ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

وبلغت عند أقلهم مبالغة وأشدهم تحفظاً نصف مليون قتيل؟! .. وبعبارة المسعودي ، في (مروج الذهب) ، « فلقد تكلم الناس في عدد من قتل ، فالمكثرون يقولون : أفني من الناس ما لا يدركه العدد ! والمقلل يقول : أفني من الناس خمسمائة ألف نفر ! وكلا الفريقين يقول في ذلك ظناً وحسناً ، اذ كان شيئاً لا يدرك ولا يضبط !؟ »^(١) ..

نعم .. انتهت ثورة الزنج ، وطافت الدولة العباسية برأس الناثر الشاعر العالم على بن محمد في المدن والأمصا والآفاق .. ولكن حلم الإنسان العربي المسلم بالعدل لم ينته بنهاية هذه الثورة .. ولم يتوقف عن اتخاذ « الثورة » سبيلاً لتغيير النظم الظالمة والأوضاع الجائرة .. ولم يصده عن هذا السبيل وعورة الطريق ، ولا فداحة الثمن الذي يدفعه الثوار مهراً لقيام العدل بين الناس؟! ..

* * *

وبعد أن طوى التاريخ صفحة هذه الثورة ، وسطر المؤرخون ، من أعدائها ، ما سطرُوا عنها من أخبار وروايات ، رأينا إمام الشيعة والبلاغة في مطلع القرن الخامس الهجري : الشريف الرضي (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ - ٩٧٠ - ١٠١٦ م) يجعل هذه الثورة وقائدها احدي الملاحم التي تنبأ بها الإمام علي بن أبي طالب عندما خاطب « الأحنف » فقال : « يا أحنف ، كأتى به وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا لب ، ولا قعقعة لحم ، ولا حمحمه خيل ، يثرون الأرض بأقدامهم كأنها أقدام النعام ! » .

فتلك كانت صفات جيش ثورة الزنج ، لأنه كان جيش فقراء ، وليس جيش أشراف وفرسان يمتطون الخيول التي تثير أقدامها الغبار وتحث لجمها القعقعة وتنبعث الحمحمه من حناجرها !

ويستطرد الشريف الرضي ، وهو يشرح (نهج البلاغة) للإمام علي ، فيتحدث عن أن هذه الثورة كانت العقاب الحق للمجتمع الذي خرج عن جادة الصواب وتكب الطريق الذي حدده روح الاسلام .. مجتمع الترف والاسراف ، والدور المزخرقة ذات الاجنحة ! .. جاءته ، لتعاقبه ولتغيره ثورة الفقراء الذين نذروا أنفسهم لقضيتهم دون سواها .. فقتيلهم : شهيد ، لا يندبه ذووه ولا يبكي عليه الأحياء ، ومن غاب منهم لا أثر لغيبه ، لأن غيره

(١) (مروج الذهب) ج ٤ ص ٤٧٩ .

يأخذ مكانه كيلا تكون ثغرة في صفوف الثوار يستفيد منها الاعداء! ..

ولقد جعل الشريف الرضى أوصاف ثوار الزنج هذه ، أيضا ، إحدى نبؤات الأمام على عندما قال : « ويل لسكككم العامرة ، والدور المزخرقة التي لها اجنحة كأجنحة النسور ، وخراطيم كخراطيم الفيلة ، من أولئك الذين لايندب قتيلهم ، ولايفقد غائبهم ! » .. لأنهم الكثرة والعامّة والجمهور « وكلما قتل منهم قتيل سد غيره مسده ، فلا يظهر أثر فقده ! »^(١) ..

ونحن إذا قبلنا منطق التنبؤ بأحداث ما يستقبل من الزمان ، استناداً إلى وحدة القوانين والسنن التي تحكم الظواهر الاجتماعية وتطور الصراعات في المجتمعات ، فإن علينا ان نضيف إلى « لحظة » الشريف الرضى كلمات تقول :

إن نبوءة على بن أبي طالب لا تزال قائمة تنتظر التحقيق ! .

(١) (شرح نهج البلاغة) ج ٨ ص ١٢٥ .

- ١٠ -

الموردى

[٣٦٤ - ٩٧٤/هـ٤٥٠ - ١٠٥٨ م]

طور جديد فى الفكر السياسى

أبو الحسن الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ - ٩٧٤ - ١٠٥٨ م)
واحد من مفكرى العرب وعلماء الإسلام الذين يمثلون علامة من العلامات البارزة والمتميزة
على درب تطورنا الحضارى وتبلور تراثنا ، خاصة ما تعلق منه بالسياسة والتشريع ..

ولد بالبصرة ، وأخذ عن علمائها المشاهير فى عصره الفقه والحديث وعلومه .. ثم انتقل
إلى بغداد ، فواصل فيها تفقّهه على أعلام الفقه بها .. ثم أخذ يلقى هناك دروس الفقه
والتفسير .

وكانت خلافة بغداد العباسية تعيش عصر ضعفها فى ظل سلطان الدولة البويهية المهيمن
عليها .. وكانت المحافظة الفكرية التى التزمتها الخلافة العباسية منذ عهد المتوكل (٨٤٧ -
٨٦١ م) فى مقدمة أسباب ضعف هذه الدولة ، وهو الضعف الذى جعل سلطانها شكلياً ،
ثم أسلمها للزوال ..

وكان البويهيون شيعة يميلون إلى المذهب الزيدى ، الذى يتفق مع المعتزلة فى أصولهم
الفكرية الخمسة ، ولذلك قامت فى دولتهم للمعتزلة صحوة فكرية تمثلت فى جهود قاضى
القضاة عبد الجبار بن أحمد (٤١٥ هـ) وتلاميذه .. بينما اضطر مفكر الماوردي - وهو
معتزلى - إلى كتمان مذهبه ، والتورية فى مؤلفاته إن هو أراد الإشارة إلى أهل الاعتزال
وآرائهم ! ، لأنه قد اختار - رغم صلواته الحسنة بالأمرء البويهيين - أن يعيش فى بغداد
ويعمل فى دولة العباسيين ، التى كانت قد حرمت منذ عهد خليفتها القادر (٣٨١ -
٤٢٣ هـ) فكر المعتزلة ، وأصدرت بذلك مرسوما يشبه قرارات المجامع الكنسية ، وأسمته
(الاعتقاد القادرى) ! .

وفى ظل هذه الدولة عمل الماوردي وتولى منصب القضاء فى عدد من البلاد ، ثم رأس

القضاة في كورة (مقاطعة) «استوا» التي ضمت ثلاثاً وتسعين قرية، عاصمتها مدينة «جيوشان».. وفي سنة ٤٢٩هـ، على عهد الخليفة القائم بأمر الله، تولى الماوردي منصب «أقضى القضاة»، وهو منصب يلي منصب وزير العدل - قاضي القضاة - في ذلك التاريخ.

وإلى جانب التقاليد التي أرساها الماوردي في عمله بالقضاء، فلقد ترك في مكتبة التراث العربي الإسلامي بناءً شامحاً تمثل في اثني عشر كتاباً، يزيد واحد منها - (الحاوي الكبير - في الفقه) - عن ثلاثين جزءاً.. وفي هذا التراث نجد فكر الماوردي إضافة مبدعة ومبتكرة في عدد من القضايا الفكرية، وعلامة متميزة تتمثل فيها إحدى نقاط التطور في حركة التأليف والتفكير في تراثنا..

فله في الحكمة والأدب تراث يمتاز بسهولة الأسلوب ورقة العبارة، مع بلاغتها، وبغزارة المعرفة ورفق المضامين التي تحملها هذه العبارات، ويكفي أن ننظر في كتابه (أدب الدنيا والدين) لنرى أرق المعاني والحكم والمثل، في عبارات سهلة وبليغة - حتى لقد ظل هذا الكتاب «كتاب مطالعة» في المدارس المصرية لسنوات طويلة!..

وله في الفقه، وفي القضاء والتشريع آثار قنن فيها وبها الشريعة، وسجل عبقرية علماء الفقه الإسلامي في صناعة القانون، هذا إلى لمحات تعلو من قدر القاضي عندما يضع لذوى السلطان والتسلط الحدود والمعايير!

وله في التفسير.. والنبوت.. والنحو آثار...

في علم السياسة:

غير أن أهم الآثار الفكرية التي تركها الماوردي، هي في تقديري، آثاره الفكرية السياسية فله - من حيث الكم - في هذا الميدان:

١ - كتاب الأحكام السلطانية..

٢ - ونصيحة الملوك.

٣ - وتسهيل النظر

٤ - وقوانين الوزارة وسياسة الملك.

كما أن كتاباته الفقهية والقضائية ، وكذلك كتابة (أدب الدنيا والدين) ذات صلة وثيقة بالفكر السياسى والتشريع ، وأخطر من «الكم» فى هذا الميدان ، فإن الماوردى يمثل طليعة مدرسة فى الفكر السياسى بترائنا ، وانتقالة جديدة متميزة على درب تطورنا فى هذا الميدان .. فقبل الماوردى كانت مباحث السياسة والإدارة والولايات ، وفى مقدمتها الولاية العامة ، وهى الإمامة والخلافة ، كانت هذه المباحث - رغم أنها من الفروع وليست من الأصول فى نظر كل فرق الإسلام ، باستثناء الشيعة - كانت تأتى فى كتب علم الكلام ، يوردها مفكرو الشيعة فى صلب كتب علم الكلام - وموضوعه أصول الدين . ويوردها مفكرو المعتزلة وكل أهل السنة فى نهاية كتب الأصول - علم الكلام - وقبل الانتقال إلى كتب الفروع - الفقه - ..

وكان السبب فى ذلك أن بداية التأليف فى مبحث الإمامة قد كان لمفكرى الشيعة ، وهى عندهم من أركان الدين وأصوله ، فذكروها فى كتب الأصول .. فلما انبرى المعتزلة ، ومن بعدهم باقى الفرق ، للرد عليهم ، جرت عاداتهم بذكر هذا المبحث فى نهاية كتب الأصول - علم الكلام - وبعبارة الإمام الغزالى (١٠٥٩ - ١١١١ م) «فإن نظرية الإمامة ليست من المهمات ، وليست من فن المعقولات فيها ، بل من الفقهيات ... ولكن إذ جرى الرسم باختتام المعتقدات به أردنا أن نسلك المنهج المعتاد ، فإن القلوب عن المنهج المخالف للمألوف شديدة النفار! »^(١) .. وكما يقول الإيجى والجرحانى «فإن الإمامة ليست من أصول الديانات والعقائد ، بل هى من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين ... وإنما ذكرناها فى علم الكلام تأسيساً بمن قبلنا ، إذ جرت عادة المتكلمين بذكرها فى أواخر كتبهم! ..»^(٢) .

ولقد ظلت هذه العادة جارية ومتبعة .. كما ظلت تحدث اللبس الذى يفيد مذهب الشيعة بسبب وضع المباحث السياسية فى كتب أصول الدين ، الأمر الذى يلقى ظلالاً لا توحى بأن الإمامية ونظم الحكم والولايات إنما هى أمور دينية ، الفصل فيها للوحى لا للبشر ، وهى ظلال وشبهات تفيد القائلين «بالسلطة الدينية» والحكم وفق نظرية «الحق الإلهى» ..

ومن هنا تأتى أهمية الماوردى عندما جاء فصيح هذا الخطأ ، بعدوله عن هذه «العادة» ، وتمثيله دور الرائد فى هذا المجال .. ولقد كان تصحيح الماوردى واضحاً

(١) [الاقتصاد والاعتقاد] ص ١٣٤ . طبعة صبيح - القاهرة .

(٢) [شرح المواقف] ج ٣ ص ٢٦١ طبعة القاهرة سنة ١٣١١ هـ .

وعميقاً ، فهو لم ينتقل بمبحث الإمامة ونظام الحكم من كتب علم الكلام إلى كتب الفقه ، بل أفرد لهذا الفن كتاباً خاصاً ومؤلفاً منفرداً ، هو كتابه عن (الأحكام السلطانية) الذى جاء أول مؤلف فى تراثنا يؤرخ لاستقلال هذا الفن عن الفقه وعن الكلام .. ذلك الاستقلال الذى أبرز الطابع المدنى لهذا المبحث وأسهم فى تبديد الظلال التى أضفت الطبيعة الدينية على مباحث السياسة فى تراث المسلمين السنين ..

والموردى يحدثنا عن إنجاز هذا فى مقدمة (الأحكام السلطانية) فيقول : « ولما كانت الأحكام السلطانية بولاة الأمور أحق ، وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها ، مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير ، أفردت لها كتاباً .. »^(١) ... وهو هنا لا يصحح فقط سنة خاطئة فى التصنيف ، بل يشير إلى اتساع مجالات هذا الفن فى الحياة العربية الإسلامية ، الأمر الذى استحالت معه امكانية اطلاع أهله وأربابه على مجالاته ومباحثه وسط مباحث غيره من الفنون ..

الإنسان : اجتماعى .. والسلطة : مدنية :

وإذا أغنت هذه الإشارات ، فى مثل هذا المقام ، عن التفصيل ، ودلت على تميز فن السياسة عن غيره ، ومحى الموردى وكتابه علامة على هذا التميز والاستقلال ، فإن قولنا عنه بأنه كان البداية والطليعة لمدرسة فى الفكر السياسى العربى الإسلامى أبرزت الطابع المدنى للسياسة ، إن قولنا هذا له شواهد كثيرة ، وعليه أكثر من دليل ..

● فالماوردى فى كتابه هذا يفرد فصلاً للأمر السياسية [وفيها : السلطة العليا (الإمامة) - والوزارة - وإمارة الأقاليم - والحرب - والقضاء - والشئون الاقتصادية] .. ثم يفرد فصلاً للولايات الدينية ، والتى تأتى تبعاً للولايات السياسية [مثل إمارة الحج ، وتقدم الإمام للصلاة إماماً] .. وهو بذلك يميز بين هذين النوعين من الولايات .. بل لقد جعل عنوان كتابه [الأحكام السلطانية والولايات الدينية] .. مثبتاً المغايرة بينهما ..

● وهو ، قبل ابن خلدون [١٣٣٢ - ١٤٠٦ م] وقبل مفكرى عصر النهضة الأوروبى أبرز وأكد الطابع الاجتماعى للإنسان ، فهو حيوان اجتماعى ومدنى بطبعه ، وذلك هو سر تكون المجتمعات ، صغيرها وكبيرها ، والسبب فى نشأة السلطة فى هذه المجتمعات .. فهى

(١) ص ٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م

سلطة مدنية تعالج المشكلات الناشئة عن « مدنية » الإنسان الطبيعية .. وكما يقول « فإن الإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه ، واستعانتة صفة لازمة لطبعه ، وخلقه - [بكسر الخاء وسكون اللام] - قائمة في جوهره ... » (١) .

● والإنسان ، عند الماوردي ، ليس الفرد معزولاً عن مجتمعه ، لأنه قد قرر أن « اجتماعيته » طبع وجبلة في جوهره .. كما أنه ليس المجموع والجمع دونما نظر للفرد وذاتيته ، بل نراه يؤكد النظرة المتوازنة ، التي ترعى مالفرد وما للمجموع ، ليس على نحو من التوازن السطحي الذي يفصل بينهما ويناقض ، بل على أساس أن صلاح الفرد مرتبط ومشروط بصلاح المجموع ، وصلاح المجموع لا يتحقق إلا بصلاح الأفراد كأفراد ! .. يطرق الماوردي هذه الفكرة الأهم والأكثر تقدماً وتطوراً فيقول : « ... واعلم أن صلاح الدنيا يعتبر من وجهين :

أولها : ما ينتظم به أمور جملتها ..

والثاني : ما يصلح به حال كل واحد من أهلها ..

فهما شيان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه ، لأن من صلحت حاله ، مع فساد الدنيا ، واختلال أمورها ، لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها ، ويقدم فيه اختلالها ، لأنه منها يستمد ، ولها يستعد . ومن فسدت حاله ، مع صلاح الدنيا ، وانتظام أمورها ، لم يجد لصلاحها لذة ، ولا لاستقامتها أثراً ، لأن الإنسان دنيا نفسه ، فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له ، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه ، لأن نفسه أخص ، وحاله أخص ، فصار نظره إلى ما يخصه مصروفاً ، وفكره على ما يمسه موقوفاً .. » (٢) .

● على هذا النحو ربط الماوردي بين الإنسان الفرد ومجتمع الناس المكون من الأفراد : مصلحة ، وسعادة وشقاء .. وعلى نحو جديد ومبتكر وعميق ربط بين الفرد والجمع عندما تناول قضية « الشكل » الأمثل الذي يحقق للأمة الاستفادة المثلى من مبدأ « الشورى » في السياسة ، كفلسفة لنظام الحكم في الإسلام ..

فهو يعرض للمذاهب الأهم وآراء المفكرين في هذا « الشكل » .. فيذكر - بعد تحييده للشورى وحديثه عن ضرورتها للحاكم والأمة - أن مذهب الفرس وفكرهم السياسي يرى أن

(١) [أدب الدنيا والدين] ص ١٣٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

(٢) المصدر السابق . ص ١٣٤ .

تكون للشورى جمعية يلتقى فيها ذوو الرأي ، حتى إذا عرض أحدهم فكرة كان المجال قائماً وفسيحاً للنقد والتعديل والتوضيح .. تم يذكر مذاهب أعم أخرى جذب مفكروها السياسيون أن تكون الشورى فردية ، حيث تتاح للخبير ذى رأى فرصة التأمل ووصف الدواء للداء ، كما يفعل الدارس والعالم إزاء القضايا التى يعرض لها بالبحث والتحصيل ، وهو نمط فى الشورى يضمن براءة المشورة من تملق الجمع ومن الطمع فى «الخطوة بالصواب» ، فإن القرائح إذا انفردت استكدها الفكر ، واستفرغها الاجتهاد ، وإذا اجتمعت فوضت « وغالباً ماتتبع الرأى البراق الذى يلقى إليها فى الابتداء !

وبعد عرض مذاهب الأعم ومفكرها ، يدلى الماوردى بدلوه ، فيجذب « شكلاً » للشورى يجمع بين هذين « الشكلىين » ، على أن يختص كل « شكل » بنمط محدد من القضايا والمشكلات ، أو بمرحلة معينة من مراحل المشورة والاجتهاد ..

فإذا كانت القضايا المعروضة للتشاور واضحة ، لا يصعب تبين الفساد فيها من الصلاح ، وكان المطلوب الحكم : « هل هى صواب ؟ أم خطأ ؟ » كان اجتماع أهل الشورى هو الأمثل .. أما إذا كانت الأمور والقضايا مهمة ، تستدعى الدراسة والتحصيل ، فانفراد المستشار بالقضية مطلوب ، حتى إذا اهتدى فيها إلى رأى مدروس ، كان الوضع مهياً لاجتماع المستشارين لعرض ثمرات بحثهم والانتهاة إلى الرأى الذى قرروه .. وبعبارة ، فإن الأفضل فى مثل هذه الحالة « انفراد كل واحد بفكره ، وخلوه بخاطره ، ليجتهد فى الجواب ، ثم يقع الكشف عنه : أخطأ هو ؟ أم صواب ؟ فيكون الاجتهاد فى الجواب منفرداً ، والكشف عن الصواب مجتمعاً لأن الانفراد فى الاجتهاد أوضح ، والاجتماع على المناظرة أبلغ ! » (١) .

والماوردى عندما يقدم لنا هذه الإضافة التى أضافها للفكر السياسى فى عصره ، إنما يجمع مزايا الفرد إلى مزايا المجموع ، وهو بذلك ينبىء عن أصالته التى تنبع من أرض الحضارة التى اتخذت الموقف المتوازن ورفضت التطرف ، على اختلاف مواقعه ، وفى كل الميادين .. وهو بهذا الفكر ، أيضاً ، يسبق عصرنا ، فما حدثنا عنه هنا هو نفس ما نجده اليوم فى مجالس الشورى بمختلف الديمقراطيات .. خبراء ولجان محدودة العدد تدرس وتستجلى الأمور ، ثم اجتماع موسع لتقرير الأصح والأأنفع وتحديد الخطأ والصواب ..

(١) المصدر السابق . ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

لقد كان الماوردي ، ولا يزال ، خاصة في الفكر السياسي ، عالماً ينتظر كوكبة من المستكشفين ، وذلك حتى تتأصل لأمتنا نظرتها المستقبلية ، وتدعم وتثبت خطواتها على درب التقدم الطويل .

* * *

الماوردي - وقواعد الإصلاح الاجتماعي :

عالم الفكر السياسي عند الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب [٣٦٤ - ٤٥٠ هـ - ٩٧٤ - ١٠٥٨ م] حافل بالنظريات والنظرات التي تكشف للباحث عن عمق وأصالة وإبداع صاغها هذا المفكر في أسلوب سهل رشيق وبلغ - ويشهد لصدق هذه المقولة أن السياسة عند الماوردي لم تأت كلها في صورة أفكار مباشرة ونظم وقواعد وتشريعات بل إن بين ثنايا آثاره التي قد لا يحسبها البعض ذات صلة بالفكر السياسي نجد أصولاً وقواعد للإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي يقدمها الرجل للعرب والمسلمين .. وكتاب الماوردي [أدب الدنيا والدين] نموذج في ذلك . فبينما هو معقود لترغيب القارئ في الأخلاق والفضائل الدينية والآداب الاجتماعية ، وتركيتها - بعد عرض مزاياها - بإيراد ما يرشحها من قرآن ، وسنة ، وأدب عربي ، وترات أجنبي ، إذا نحن في هذا الكتاب ، وبين ثناياه ، حيال نظرات ونظريات عبقرية في السياسة والإصلاح ..

قواعد الإصلاح الديني :

ففي صفحات من هذا الكتاب يتحدث الماوردي عن القواعد التي يراها ضرورية لإصلاح الحياة الدنيا وصلاح الإنسان فيها .. وهذا الصلاح يراه الرجل الشرط والمقدمة لصلاح الدين ، فالقاعدة التي استقرت لدى مفكري الدين والدنيا في تراثنا وحضارتنا هي : إن صلاح الأبدان مقدم على صلاح الأديان .. وبعبارة الإمام الغزالي [١٠٥٩ - ١١١١ م] « فإن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا .. فنظام الدين ، بالمعرفة والعبادة ، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات ، من : الكسوة ، والمسكن ، والأقوات ، والأمن ... فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهات

الضرورية... إن نظام الدنيا شرط لنظام الدين؟»^(١).

ومن هذا المنطلق الفكري «الواقعي» الذي ساد الحضارة العربية الإسلامية كان اهتمام الماوردي، المفكر الإسلامي والسياسي والمشرع، بالقواعد اللازمة لإصلاح المجتمع والحياة الدنيوية للإنسان..

وعند الماوردي أن القواعد الأصلية والأصيلة التي يتوقف على قيامها في المجتمع صلاح هذا المجتمع وسعادة الناس فيه هي ست قواعد كلية: الدين.. والسلطة.. والعدل.. والأمن.. والخصب.. والأمل..!

وهي قواعد عامة، تدرج تحتها تفصيلات وتفريعات، وترتبط ببعضها بعلائق وأسباب... والوقوف على مدى تحقيقها لصلاح المجتمع وسعادة الإنسان، وعلى دلالتها على عبقرية الماوردي، كمصلح اجتماعي، يتطلب وقفات قصيرة ونظرات متأملة أمام كل قاعدة منها على انفراد..

القاعدة الأولى: الدين المتبع:

والماوردي يشترط أن يكون الدين كمي يؤتي ثماره - متبعاً، أي أن يتدين به الناس، بمعنى أن يمارسوه في سلوكهم، لا أن تكون تعاليمه ووصاياه حبيسة الكتب والشعارات أو مادة لستر المنكرات وبضائع للتجارات!

وعنده أن التدين بالدين ليس تعبداً فقط ولا هو بالأمر المقطوع الصلة بالغايات وأهداف الإصلاح، وإلا لما كان له مكان بين قواعد الإصلاح.. فالتدين لابد وأن يصرف أصحابه عن الشهوات ويكبح جماح الإرادات أن تتعدى حدود الاعتدال..

وهو لا ينسى أن ينبه، على لسان بعض الحكماء، على أن الآداب اللازمة لصلاح المجتمع لا ينفرد بتقريرها الدين، وليست بقاصرة على شريعته، لأن حياة الناس لها جانب مدني، أي سياسي، وكما أن للدين أدباً يتمثل في شريعته فإن للسياسة هي الأخرى آداباً، وأدب الشريعة يدعو الإنسان لأداء الفروض، ويجعله عادلاً مع نفسه، بينما يختص الأدب السياسي بعارة الدنيا وزينتها، والتخلق به يجعل الإنسان عادلاً مع الآخرين.. ذلك أن

(١) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ١٣٥ طبعة صبيح، القاهرة.

«الأدب أدبان : أدب شريعة ، وأدب سياسة ، فأدب الشريعة : ما أدى الفرض ،
وأدب السياسة : ما عمر الأرض ... ومن ترك الفرض فقد ظلم نفسه ، ومن خرب الأرض
فقد ظلم غيره !...» .

وينبه الماوردي إلى أن الأدبين «كلاهما يرجع إلى العدل» - الذى هو القاعدة الثالثة من
قواعد الإصلاح - لأن العدل هو الشرط لتحقيق «سلامة السلطان وعمارة البلدان» ..

والقاعدة الثانية : السلطان القاهر :

والسلطان القاهر ، عند الماوردي ، هو السلطة القوية المهابة ، لا بمعنى المستبدة الجائرة ،
إذ العدل عنده ، كما قدمنا وكما سنذكر ، هو الأساس . وإنما بمعنى السلطة التى توفر لأهل
العمل والصلاح وللإنسان الخير فى المجتمع أن ينمى قدراته وملكاته ويزيد من ثمرات
أعماله ، وذلك بتوجيه القوة والهيبة ضد الفئات والأفراد الجانحة إلى الظلم والإجرام
والانحراف عن قواعد العدل وأسس الإصلاح ..

فعلى السلطة أن تعمل على التآليف بين التيارات والأهواء المختلفة والقلوب المتفرقة ، وأن
تأخذ على أيدي المتغلبين والمتعادين ، وأن تهذب أو تكبح الجامح من الغرائز كى لا يجلب
الأضرار ..

وفى حديث الماوردي عن السلطة والسلطان ينبه إلى دور العقيدة الدينية فى بناء الدول
عند نشأتها ، ويتحدث عن إسهام الدين فى تأليف قلوب الجماعة التى تبنى دولتها الواحدة ،
وكيف «أن السلطان إن لم يكن على دين تجتمع به القلوب ، حتى يرى أهله الطاعة فيه
فرضاً ، والتناصر عليه حتماً ، لم يكن للسلطان لبث - [أى دوام] - ولا لأيامه صفو ،
وكان سلطان قهر ومفسد دهر !...» .. وهذه لمحة ذكية من مفكر فى عمران المجتمعات وقيام
دولها ، تنبىء عن المكانة العالية التى أحلها للفكر والنظريات والعقائد بين الأسس
الضرورية لبناء السطة والسلطان فى أى مجتمع من المجتمعات .. والماوردي بفكرته هذه
يسبق ابن خلدون [١٣٣٢ - ١٤٠٦ م] الذى تحدث هو الآخر عن هذه القضية فى مقدمة
تاريخه^(١) ..

(١) [المقدمة] ص ١٢٤ ، ١٢٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ

والقاعدة الثالثة : العدل الشامل :

والعدل عند الماوردى مأخوذ من « الاعتدال » ، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل .. كما نقول فى الموقف السلم إنه الوسط المعتدل بين الإفراط والتفريط .. وهو عنده ، وبعبارة : « لإحدى قواعد الدنيا التى لا انتظام لها إلا به ! .. » ولهذا كانت قاعدة العدل سبباً تتوقف عليه أشياء عديدة هى من ضرورات الصلاح للمجتمعات .. فالألفة والتآلف مرجعها إلى العدل ، إذ أن الظلم والمظالم تمزق الجماعات والمجتمعات ... والطاعة من المحكومين لحكامهم لا تتأتى إلا فى المجتمع العادل ، لأن الظلم يوجد الانقياد الجبرى ، أما الطاعة الاختيارية - ولا بد أن تكون اختيارية كى تسمى طاعة - فلا مكان لها فى البيئات التى يسودها الظلم ويتسلط عليها الظلمة ... وعمران البلاد .. ونمو الأموال ... وكثرة النسل بل وقيام الأمن لصاحب السلطة والسلطان .. كل ذلك موقوف على قيام العدل بين الناس ..

والعدل الذى عناه الماوردى هنا ليس لفئة أو قلة ، أو طائفة ، لأنه يقيد بـ « الشامل » ! أى العام بين الجميع ..

ثم هو يقسم العدل إلى قسمين - فهناك عدل الإنسان مع نفسه ، فلا يظلمها برضاه عند ظلمها ، ولا يرضى لها تجاوز حدود الاعتدال .. وهناك عدل الإنسان مع من سواه .. عدله مع من هم أدنى منه ، كالحاكم مع المحكوم ، والرئيس مع المرؤوس ، باتباع الأمور المسورة ، واجتناب ما هو عسير ، والبعد عن التسلط بالقوة ، والتخلق بالحق فى السيرة والسلوك ..

وهناك عدل الإنسان مع من فوقه ، كالمحكوم مع حاكمه العادل ، والصحاب مع رئيسهم ، وهو يتحقق بإخلاص الطاعة ، وتقديم أسباب النصر ومقوماته ، وصدق الولاء ..

وهناك ، أخيراً ، عدل الإنسان مع أقرانه وأنداده ، وهو يتحقق بالامتناع عن الاستطالة والاستعلاء ، والبعد عن الإدلال والمن ، وكف الأذى والضرر عن هؤلاء الأقران ..

ويخلص الماوردى إلى الحديث عن المضار التى تنجم عن تنكب طريق العدل والانحراف

عن هذه القاعدة الرئيسية من قواعد الصلاح والإصلاح ، فيقول : « ... ولست تجد فساداً إلا وسبب نتيجته الخروج فيه عن حال العدل إلى ما ليس بعدل ، من حالى الزيادة والنقصان . فإذا : لاشيء أنفع من العدل ، كما أنه لاشيء أضر مما ليس بعدل ! » .

والقاعدة الرابعة : الأمن العام :

والموردى يشترط لتحقيق قاعدة الإصلاح هذه أن يكون أثرها عاماً وشاملاً للجميع ، لأن للأمن عنده أهدافاً ولقيامه ثمرات ، ذلك أن آثاره لاتقف عند طمأنة الناس واطمئنانهم - وهى فى ذاتها هامة ومطلوبة - بل تتعدى هذه الطمأنينة ، التى هى بدورها - عند الموردى - ذات أثر فعال فى الحياة المادية لمجتمع الإنسان الآمن ..

فإذا تحققت ، بالأمن ، الطمأنينة للنفوس ، انبعثت وانتشرت الحمم والطاقت الكامنة فى الناس تبحت عن تحقيق ذوات أصحابها فى مختلف الميادين والمجالات وحلت السكينة بنفس الإنسان البرىء ، وخفف الأمن من الإحساس بالضعف لدى الضعيف ، فنمت بذلك أسباب الثروة والقوة فى هذا المجتمع الآمن ، ذلك « لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ، ويحجزهم عن تصرفهم ، ويكفهم عن أسباب المواد - [الثروة] - التى بها قوام أودهم ، وانتظام جملتهم ! .. » .

وعند الموردى أن قاعدة الأمن ، هى الأخرى فى كثير من جوانبها نتيجة من نتائج قاعدة العدل ، كما أن « الجور من نتائج ما ليس بعدل ! .. » .

والقاعدة الخامسة : الخصب الدار :

أى مصادر الخصب والنماء المادى التى تدر الخيرات فى المجتمع المطلوب له الصلاح والإصلاح ..

والموردى يجدد مصادر هذا الخصب فى مصدرين :

١ - المواد الأولية : وأغلبها يأتي من الأسباب الإلهية ، وعمل هذه الأسباب وآثارها فى الطبيعة ، فلا دخل فيها لإرادة الإنسان ، من حيث الإيجاد ، اللهم إلا من حيث

العدل الإنساني ، إذ في ظلال العدل تنمو هذه المواد الأولية ، بينما تلحق أضرار الجور والظلم حتى موارد الطبيعة وموادها ! ..

٢- المكاسب : المتمثلة في الجهود والأعمال التي يبذلها الناس في هذا المجتمع ، وبها يتم التشكيل والتصنيع والتجميل ، وكذلك التنمية للموارد التي أفاضها الخالق في الطبيعة لأجل الإنسان ..

وعند الماوردى : إن هذا الخصب ، المتمثل في ثروة المجتمع ، طبيعية وإنسانية ، يجب أن تعم ثمراته وتشمل مجموع الناس ، لأن تستأثر به قلة منهم كائنة من كانت ، وعن طريق التكافل والمساواة يتم تعميم هذه الثمار .. وبعبارة هو ، فإن هذا الخصب يجب أن « تتسع النفوس به في الأحوال ، ويشترك فيه ذوو الإكثار والإقلال » .

وهذا الخصب ، الذي هو ثروة مادية ، يبينه الماوردى إلى أن له آثاراً خلقية وسلوكية في حياة الناس ! إذا هو عم الجميع ، فهنا تلعب الثروة دوراً في تقويم السلوك والرقى بقواعد الأخلاق في المجتمعات ، لأن الاشتراك في الثروة بين « ذوى الإكثار والإقلال » ينشأ عنه أن « يقل في الناس الحسد ، ويتنى عنهم تباغض العدم - [أى حقد وبغضاء المعدمين] - وتتسع النفوس في التوسع ، وتكثر المزاولة - [المساواة والمعاونة والمساهمة] - والتواصل ، وذلك من أقوى الدواعى لصالح الدنيا وانتظام أحوالها » ... ثم يحمل الماوردى وجهة نظره هذه عندما يحدد أن الغنى الحق هو الذي تنبعث عنه آثار طيبة في اخلاقيات الأمة ، فيقول معللاً : « ... لأن الخصب يؤول إلى الغنى ، والغنى يورث الأمانة والسخاء ! .. » .

والقاعدة السادسة : الأمل الفسيح :

وبحديث الماوردى عنها يضع يدنا على لمحة من لمحات عبقريته الفكرية .. فهو يريد للمجتمع شباباً دائماً لا يعرف اليأس ولا القنوط ، ولا يقع فريسة « للقناعة » إذا ما تعلق الأمر بالتقدم والطموح والبناء والتجديد والاختراع ..

فلا بد لبناء المجتمع من أمل يدفعهم لمواصلة البناء ، ولا بد أن يكون هذا الأمل فسيحاً حتى يتخطى بهم حدود حاجاتهم الآنية ومستلزمات حياتهم القصيرة ، فهم يعملون عمل الخالدين ، لأنهم ، وإن قصرت بهم الأعمار عن الخلود ، بمثابة قطرات في بحر الحياة الخالد

دائماً وأبداً ، وهم بالعمل الذى ينميه الأمل يحققون هذه القطرات فى هذا البحر مقومات الخلود !

ولولا هذا الأمل لما كتب الأقدمون لقراء جاءوا بعد عصرهم بقرون وقرون ، ولما أبدع المبدعون تلك الآثار الخالدات على مر الدهور ، ولما غرس الشيخ الفانى غراسه الذى يعلم يقيناً أن ثمراته لن يحين قطافها إلا بعد رحيله عن هذه الحياة .. فالكل يعطى ، ولسان حاله يقول : أعطى من قبلنا ، فنعمننا ، فلنعط نحن ، لينعم من يأتى من بعد .. فذلك هو الشرط الضرورى لاستمرار وعمران الحياة ... وهو شرط لا يتحقق إلا بالأمل الفسيح !..

وبعبارات الماوردى فإن هذا الأمل الفسيح هو الذى « يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه ، ويبعث على اقتناء ما ليس يؤمل فى دركه بحياة أربابه ، ولولا أن الثانى يرتفق بما أنشأه الأول ، حتى يصير به مستغنياً ، لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه من منازل السكنى ، وأراضى الحرث ، وفى ذلك من الإعزاز وتعذر الإمكان ما لا يخفى به فلذلك ما أرفق الله تعالى خلقه من اتساع الآمال حتى عمر الدنيا ، فتم صلاحها ، وصارت تنتقل بعمرانها إلى قرن- [جيل]- بعد قرن ، فيتم الثانى ما أبقاه الأول من عمارتها ، ويرم الثالث ما أحدثه الثانى من شعنها ، لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمة ، وأمورها على ممر الدهور منتظمة . ولو قصرت الآمال ، ماتجاوز الواحد حاجة يومه ، ولا تعدى ضرورة وقته ، ولكانت تنتقل إلى من بعده خراباً ... ثم تنتقل إلى من بعده بأسوأ من ذلك حالاً ، حتى لا ينمى بها نبت ، ولا يمكن فيها لبث !... » .

وصدق رسول الله ﷺ ، إذ يقول : إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم غرسة فليغرسها ، إن هو استطاع !؟ .

هكذا عرض الماوردى قواعده الإصلاحية الست ، التى رآها ضرورة لصلاح أحوال الدنيا وانتظام أمورها .. وذلك عندما خاطب الإنسان فى كتابه [أدب الدنيا والدين] قائلاً : « أعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة ، ستة أشياء .. وهى : دين متبع ... وسلطان قاهر ... وعدل شامل ... وأمن عام ... وخصب دائم ... وأمل فسيح !..... فإن كملت فيها كمل صلاحها .. » (١) .

* * *

(١) ص ١٣٥ - ١٣٨ ، ١٤١ - ١٤٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

الموردى .. والمصادر المادية لحياة الإنسان

من السمات البارزة التي تميز بها الفكر الإسلامي : سمة الموقف المتوازن الذي اتخذته في العديد من القضايا والمشكلات بين موقفين مغرقين في التطرف ، ومن ثم ملتقيان على الخطأ والفساد !

وليس مبعث هذا الموقف المتوازن في الفكر الإسلامي هو التلفيق بين المتناقضات ، ولا « الوسطية » بمعنى الهروب من مواجهة جوهر المعضلة وإغماض الأعين وتعطيل العقول عن العمل لإيجاد الحلول ، ولامبعثه كذلك التقليد للقاعدة التي أرساها أرسطو : عن أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين ! ..

ذلك أن هذا الموقف المتوازن التي اتسم به الفكر الإسلامي حيال قضايا عديدة ، منها مثلاً : المادة والروح ، و : الفرد والجماعة ، و : الحرية والمسئولية (الضرورة) .. الخ .. الخ .. إن هذا الموقف إنما ينبع من نظرة واقعية وإدراك تجريبي علمي لما بين هذه « الأقطاب » من علاقات ، والفكر الإسلامي يدرك ويؤكد ، ويؤسس نتأجه ، على حقائق ترى أن وجود تناقض بين هذه المحاور والأقطاب لايعني انتفاء العلاقات بينها ، فالعلاقات والروابط قائمة ، بل وكثيرة إلى الحد الذي يجعل استقلال طرف منها أو انفراده دون الآخر هو أمر داخل في نطاق المستحبات ، ولذلك فإن النظرة الواقعية المقدره لقدرة هذه العلاقات وخطرها تزكي اتخاذ الموقف الذي يوازن بين هذه المحاور ، ويتخذ منها جميعاً ، بالتوفيق - بالتلفيق - موقفاً وسطاً ، أى حقاً ، يضمن البعد عن التطرف الخاطي في أى اتجاه من الاتجاهات ..

ولقد كانت العلاقة بين المادة والروح أحد الميادين الفكرية التي اتخذ فيها الفكر الإسلامي موقفه المتوازن بين طرفي الصراع ، فهو قد رفض تعذيب الجسد لحساب تنمية الروح ، ومن ثم رفض الإغراق في الزهد ، وعزف عن الرهبة ، وطلب إلى رهبان الليل أن يكونوا فرسان النهار ! ، وأدخل العمل والكد والجهاد في إطار الشعائر والعبادات ! .. وهو ، أيضاً ، رفض الشهوانية المادية ووضع القيود والحدود التي تهذب الغرائز الحيوانية ، وأباح لهذه الغرائز طرقاً ومسالك تستفرغ بعض طاقتها وتتسامى ببعضها الآخر .

ولقد نبه القرآن الكريم ، في مواطن كثيرة ، إلى هذا الموقف المتميز ، وقدمه على أنه الموقف الوحيد المتفق مع « الطبيعة » التي خلق عليها الإنسان : « وما جعلناهم جسداً لا

يأكلون الطعام وما كانوا خالدين»^(١) .. ومن هنا دخلت مباحث الحياة المادية للإنسان المسلم ، وللإنسان عموماً ، دائرة الدراسات الإسلامية ، ورأينا فقهاء الإسلام ومشرعى قوانينه يطرقون من مباحث هذا الحقل مازل دائماً ، فى الحضارات الأخرى ، غريباً عن مباحث مثل هؤلاء الرجال ... فقهاؤنا ومشرعونا ليسو رجال دين ، يقتصر اهتمامهم على مباحث الروح أو الأخلاق ، لأن ديننا لا يعرف للدين رجالاً يختص به ، وإنما عرفت حضارتنا علماء فى الدين وفى الدنيا معاً .. ومباحث هؤلاء الفقهاء والمشرعين فى الجوانب المادية للحياة لا تأتى ولا تساق بمعزل عن فكرهم الدينى ، لأن الإدراك لعلائق الطرفين قد أثمرت فكراً واقعياً زواج بينهما عندما استخدم أصحابه المنهج العلمى الذى ربط الظواهر ونظر للقضايا من كل الزوايا وعلى ضوء ما اكتشفها من عوامل ولابسها من ظروف ..

وفى مجال التطبيق ، وضرب الأمثلة ، سنجد الكثير والكثير .. وسنجد ، أيضاً ، من بين هذا الكثير ذلك الموقف الذى تناول به مفكر ومشرع وفقه إسلامى عملاق ، مثل أبى الحسن الماوردى ، على بن محمد بن حبيب [٣٦٤ - ٤٥٠ هـ - ٩٧٤ - ١٠٥٨ م] البناء المادى فى المجتمع ، ومصادر الثروة ، الطبيعى منها والإنسانى ، والوسائل الإنسانية لتنمية هذه الثروة ، وترتيب هذه الوسائل ، من حيث الشرف والرفعة ، ثم حدود مطامح الإنسان وآفاق مطامعه ، فى حيازة الثروات ، وأياها مشروع ؟ وأياها يتجاوز نطاق المشروع ؟! ... بل وأياها يقل عن المشروع ؟! ..

ونحن نستطيع - كى نضع يدنا على تصور الماوردى هذا - أن نسير مع فكره فى تسلسل يكتمل لنا باكتمال حلقاته هذا التصور .. ولعل أفضل سبيل لذلك هو أن نقدم فكره فى عدد من النقاط :

١ - دور الطبيعة : عند الماوردى أن دور الطبيعة ، فى ميدان الحياة المادية للإنسان ، أى ثروته واقتصاده - بلغة عصرنا - هو دور من يقدم « المادة الخام » (الأولية) ، ويضع « الأسباب » التى تنتظر « الطلب » و « الكسب » والجهد الإنسانى الذى يخرجها من دور إلى دور ومن حال إلى حال ..

٢ - ودور الإنسان : أما دور الإنسان فيسميه « الطلب » بمعنى السعى والكسب والعمل الذى يستثمر المادة الأولية ويصوغها وفقاً للاحتياجات .. وأداة الإنسان الأولى فى سعيه هذا

(١) الأنبياء : ٨ .

هي : العقل ، فهو سبيل الإنسان إلى تحصيل المادة وصياغتها من جديد ..

وأيضاً فإن أسباب هذا التحصيل وسبل تلك الصياغة هي متعددة ومتنوعة ، فالإنسان لا يلي احتياجاته المادية بنمط إنتاجي واحد ، بل تتعدد لديه مصادر الرزق وتنوع عنده الحرف وسبل الانتاج ... وهذا التنوع لا يجب أن يكون سبب فرقة بين الذين يجتفون هذه السبل ، بل يجب أن يكون سبب ائتلاف ، فللائتلاف كان التنوع وللتكامل كان التعدد ، لا للتناقض والتناحر والاختلاف ..

تلك هي قاعدة الحياة المادية للإنسان ، وعلى سلامتها تقوم سلامة ديناه ، بل وسلامة دينه أيضاً ... يقول : إن « من أسباب الألفة الجامعة : المادة الكافية ، لأن حاجة الإنسان لازمة ، لا يعرى منها بشر ، قال الله تعالى : « وما جعلناهم جسداً لياً كلون الطعام وما كانوا خالدين » . فإذا عدم المادة ، التي هي قوام نفسه ، لم تدم له حياة ولم يستقم له دين ، وإذا تعذر شيء منها عليه ، لحقه من الوهن في نفسه ، والاختلال في ديناه ، بقدر ما تعذر من المادة عليه ، لأن الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ، ويختل باختلاله ... وأسباب المادة مختلفة ، وجهات المكاسب متشعبة ، ليكون اختلاف أسبابها علة الائتلاف بها ، وتشعب جهاتها توسعة لطلابها ... هداهم إليها بعقولهم ، وأرشدهم إليها بطباعهم ... حكمة منه سبحانه وتعالى ... » .

٣ - مصادر المادة : أما المصادر التي تمثلت فيها مادة الطبيعة الأولية ، فإنها - على عصر الماوردى وفي تراثه - قائمة في النبات ، والحيوان .. أى في النبات الذي ينمو نمواً ذاتياً لا دخل فيه لجهد الإنسان ، وكذلك الحيوان البرى الذي لا يدخل في تربيته عمل الإنسان .. فهما مصدران طبيعيان يندرجان تحت « فيض » الخالق ويتميزان عن « كسب » الإنسان ..

٤ - وكسب الإنسان : يضيف إلى مصادر المادة ، تارة بالخلق وأخرى بالتنمية والتحسين . فهو ينمى ويحسن النبات بجعل « الزراعة » صناعة تقوم على الجهد الإنساني والفكر المنظم ، بعد أن وقفت بها الطبيعة عند مادتها الأولى ومستواها الذي لم يعد كافياً لتلبية احتياجات الإنسان ..

وهو ينمى ويحسن كذلك « الحيوان المتناسل » ، مستخدماً الأصول والهبات التي قدمتها له الطبيعة في هذا الميدان .. ثم هو يضيف إلى مصادر الطبيعة هذه مصادر أخرى ترتبط بها ،

وذلك عندما ينشئ : « التجارة » و « الصناعة » فتصبح بذلك حرفه وصنائه ومصادر حياته المادية أربعة :

أ - الزراعة : التي أصبحت ، بمادتها الطبيعية وجهد الإنسان فيها ، صناعة ، بعد أن كانت مجرد مادة أولية محدودة ..

ب - والحيوان .. الذى أضاف العمل الإنسان إلى ثروته وقيمه الأولية كما وكيفاً جديداً ، فأصبحت تربيته صناعة أيضاً ..

ج - والتجارة .. التي أنشأها الإنسان مستخدماً في إنشائها مواد الطبيعة وإضافاته إليها ، ثم جهده في المبادلة والتنظيم ..

د - والصناعة .. التي تعددت حرفها وكثرت مجالاتها ، وتنوعت أسماؤها .. والتي نشأت لتلبى الحاجات وتطور الحياة ..

هكذا يرسم الماوردى هيكل الحياة المادية والاقتصادية لمجتمعه وعصره ، فيقول : « ... فأما المادة فهي حادثة عن اقتناء أصول نامية بدواتها ، وهى شيان : نبت نام ، وحيوان متناسل ... وهى أصول الأموال . وأما الكسب فيكون بالأفعال الموصلة إلى المادة والتصرف المؤدى إلى الحاجة ، وذلك من وجهين : أحدهما : تقلب في تجارة ، والثاني : تصرف في صناعة ، وهذان هما فرع لوجهي المادة . فصارت أسباب المواد المألوفة ، وجهات المكاسب المعروفة ، من أربعة أوجه : نماء زراعة ، ونتاج حيوان ، وربح تجارة ، وكسب صناعة ... » .

ه - مصادر المادة وأصناف الناس : وبعد ذلك يتحدث الماوردى عن ارتباط كل مصدر من مصادر الحياة المادية هذه ببيئة معينة واختصاصه بطبقة أو فئة من الناس ..

أ - فالزراعة .. هى المصدر الأول لحياة الإنسان المتحضر ، أى غير البدوى ، لأنها ترتبط بالاستقرار وبناء القرى والأمصار ، ومن ثم فإنها تمثل طوراً متقدماً ومتحضراً في سلم التقدم الإنسانى إذا ماقيست بحياة البدو والبدواة .. ثم إن نفعها أعم ، لأن ثمراتها تتعدى حدود من يمارسها لتشمل كل الناس .

ب - والانتاج الحيوانى .. هو مصدر الحياة لسكان البادية - على عهد الماوردى - ومن يعيشون فى الحيام ، لأن سهولة تنقل الحيوان جعلته الأنسب لحياة الرحل الذين لا يقر لهم

قرار ، كما ناسبت قلة حاجاته ، وأيضاً نوع إنتاجه ، والطابع الفقير والجاف لحياة البدو في الصحراء ..

جـ- أما التجارة .. التي هي فرع تفرع عن الزراعة والإنتاج الحيوانى معاً ، فإن الماوردى يقسمها إلى قسمين ، وذلك من حيث شرفها ونفعها للناس .. فهي إذا كانت في الحواضر والأمصار ، وتمت بلا انتقال أو مخاطرة ، فهي غالباً ماتعتمد ، في الريح ، على تخمين الفرص ، وادخار السلع حتى تشح فيرتفع ثمنها ، أو جمعها من الأسواق واحتكارها حتى ترتفع أسعارها .. ومثل هذه التجارة ضارة ، والاحتراف بها احتراف المهنة رديئة ، ولذلك « فقد رغب عنها ذوو الأقدار ، وزهد فيها ذوو الأخطار ! » .

أما إذا جاء ربح التجارة من السفر والمخاطرة ، فإن سبب الربح عندئذ يكون مشروعاً ، واحترافها ، لذلك ، يكون مرغوباً « وهذا أليق بأهل المروءة ، وأعم جدوى ومنفعة » للناس !

د- أما عن الصناعة .. والتي تتعلق بمواد : الزراعة ، والحيوان ، والتجارة .. فإن شرفها ، ومن ثم شرف العاملين بها يرجع إلى مكان « الفكر » فيها ، ودوره في خلق ثمراتها وتطور وسائلها؟! ..

فالماوردى يحدثنا عن أن الصناعة تعتمد على عنصرين رئيسيين يقدمهما الإنسان كى تكون لديه صناعة من الصناعات .. عنصر : الفكر ، وعنصر : العمل والجهد البدنى .. وعلى ضوء العلاقة بين هذين العنصرين ، ووفق النسب التي تحدد قدر كل منهما للآخر ، جاء تقسيم الماوردى للصناعة ، وجاءت فروع كل قسم من أقسامها ..
فهي عنده ثلاثة أقسام :

أ- صناعة فكر : مادتها الفكر ، ولا علاقة لأهلها بممارسة « العمل » [البدنى واليدوى]- كما نقول - .. وهذه الصناعة « الفكرية » منها ما يقف عند « الأفكار النظرية » .. ومنها ما يختص بالنتائج التي تؤدي إليها هذه الأفكار النظرية ! « فالمفكر » السياسى ، هو من النوع الأول .. و« المشتغل » بالسياسة ، هو من النوع الثانى .. فالأول - بعبارة الماوردى - : « ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة ، كسياسة الناس ، وتدبير البلاد ... » والثانى : هو المشتغل « بما أدت إليه المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية ... » .

ب - وصناعة عمل : وهى التى يمارس أهلها بذل « الجهد البدنى » فى صناعتهم . وتنقسم ، هى الأخرى ، إلى قسمين ، وفق مقدار الفكر والعلم والتعليم فيها .. فمنها ما هو : « عمل صناعى » .. ومنها ما هو « عمل بهيمى » .. والذى رفع قدر « العمل » الأول هو اعتماده واسترشاده بالفكر والعلم ، والذى هبط « بالعمل » الثانى إلى الحد الذى وصف معه « بالبهيمى » ، هو تجرده من الفكر ، واقتصره على الجهد البدنى الذى يستوى فيه الحيوان ، حتى غير الناطق منه ! .. فالعلم والفكر والمعرفة ليست ، فقط ، مصادر لتنمية ثمار الصناعة ، بل ومقياس لشرفها ، عند الماوردى ، الذى يقول : إن « العمل الصناعى هو الأعلى رتبة ، لأنه يحتاج إلى معاطاة فى تعلمه ، ومعاناة فى تصوره ، فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية .. أما العمل البهيمى فهو صناعة كد ، وآلة مهنة .. تقتصر عليها النفوس الرذلة ، وتقف عندها الطبائع الخاسئة ! .. » .

ج - أما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل .. والتى هى « حرف » يتجاور فيها « الفكر » و« العمل » ، فهى تنقسم ، أيضاً ، إلى قسمين ، تبعاً لنسبة الفكر إلى العمل لدى أصحابها .. فحرفة « الكتابة » - أى كتابة الدواوين - مثلاً تعلقو فى مرتبتها على حرفة « البناء » لأن دور الفكر فى « الكتابة الديوانية » أكبر وأخطر من دوره عند من يحترف صناعة « البناء » ..

وإذا كانت حياة الناس المادية ، وتنقسم العمل فى مجتمعاتهم قد تطلبت ذلك التنوع ، فإن التكامل والائتلاف هو الغاية ، لا التنافر والاختلاف .. فالله سبحانه قد أراد ذلك للناس « فى طلب مكاسبهم .. ليكون ذلك سبباً لألفتهم » ..

٦ - الإنسان .. وحياسة الثروة : واخيراً .. وبعد أن عرض الماوردى لمصادر ثورة المجتمع ، وفضل الطبيعة فيها ، ودور الإنسان فى التحسين والتنمية ، ومكان الصناعات من الفكر ، وتوزيعها على أهلها .. بعد ذلك كله عرض لقضية هامة تتعلق بنصيب كل إنسان من هذه الثروة ، ومقدار ماتجوز له حيازته ، الأمر الذى تتفاوت فيه مذاهب الناس ، ومن ثم تتفاوت بسببه الأوصاف والنعوت التى يطلقها الماوردى على أهل هذه المذاهب والمواقف والآراء ..

ومفكرنا الماوردى ينطلق هنا ، أيضاً ، من موقف المفكر الواعى بضرورة الموازنة بين حاجات الفرد وحاجات الآخرين .. ومن ثم كان المعيار الذى حدده للمذهب الذى يجبذه فى حيازة الثروة هو معيار « الحاجة والكفاية » .

أ - فمن الناس من يطلبون من الثروة قدر « الكفاية والحاجة » .. وهؤلاء هم أصحاب الموقف الأمثل .. لأنهم أصحاب الموقف « المتوسط » بين الإفراط والتفريط .. فهم إيجابيون ، يطلبون حظهم من ماديات الحياة ، وهم لا يتجاوزون في طلبهم هذا حدود الكفاية والحاجة ، ومن ثم لا يتجاوزون حدود الاعتدال .. والماوردي يمتدح هذا الموقف ، ويسنده بالسنة النبوية ، وبالحكم المأثورة .. فيقول : إن حال من يطلب من « أسباب المواد وجهات الكسب قدر كفايته ، ويلتمس وفق حاجته ، من غير أن يتعدى إلى زيادة عليها ، أو يقتصر على نقصان منها ، هي أحمد أحوال الطالبين ، وأعدل مراتب المقتصدين . وقد روى عن رسول الله أنه قال : أوحى الله تعالى إلى كليات ، فدخلن في أذني ، ووقرن في قلبي : من أعطى فضل ماله فهو خير له ، ومن أمسك فهو شر له ، ولا يلوم الله على كفاف ... وحكى عن ابن المعتز السلمى ، قال : الناس ثلاثة أصناف : اغنياء ، وفقراء ، وأوساط . فالفقراء موقى ، إلا من اغناه الله بعز القناعة ، والأغنياء سكارى ، إلا من عصمه الله تعالى بتوقع الغير - [بكسر الغين وفتح الباء : المتغيرات والحوادث] - وأكثر الخير مع أكثر الأوساط ، وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والأغنياء ، لسخط الفقر وبطر الغنى ! » .

هذا عن الذين يطلبون « الكفاية والحاجة » ..

ب - ومن الناس من لا يطلبون الكفاية ، ولكنهم يقنعون بالكفاية ، ويتركون « الفضول » أى الزيادة عن كفايتهم ، وهم يشتركون مع أصحاب الموقف الأول فى الوقوف عند حدود « الكفاية » ، ولكنهم لا يتساوون معهم فى الشرف ، لأن الأولين عملوا وطلبوا الكفاية ، أما هؤلاء فإنهم لم يعملوا أو لم يطلبوا ، بل جاءتهم الثروة اتفاقاً ، فاكثفوا منها بقدر كفايتهم ، ولذلك كانوا - لكنهم غير عاملين - أدنى مرتبة من الأولين .. فهم وسط ! وموقفهم هو الموقف الأوسط !

ج - ومن الناس من يقصرون فى تحصيل أسباب المواد ويديرون ظهورهم لجهات الكسب والتكسب ، فلا يحصلون كفايتهم ولا يحصلون على حاجاتهم ، وهم يعللون قصورهم وتقصيرهم بالكسل ، أو التواكل ، أو الزهد فى الدنيا ومادياتها - وهؤلاء ، عند الماوردي ، هم أهل العجز والحرمات .. فهم عجزوا عن الوفاء بسنة الله فى خلقه ، وهم بذلك قد حرموا أنفسهم طيبات هذه الحياة ..

د - ومن الناس من هم أدنى مرتبة من متعمدى الزهد والتواكل هؤلاء .. أولئك هم الذين لا يسلكون سبيل التخطيط لحياتهم المادية وعلاقتهم بالثروة ووجوه الكسب ، بل يقفون

عندما يأتيهم ، قل أو أكثر ، ويكتفون بما سنح لهم من مواد الحياة .. ومترلة هؤلاء ، عند
المالوردي ، هي أدنى منازل القانعين !

هـ - وأخيراً .. فهناك من يطلبون من الثروة والمادة ووجوه الكسب ما يزيد عن كفايتهم
وحاجتهم .. وجميع هؤلاء مذموم ، في نظر المالوردي ، ولكن درجاتهم ومنازلهم تتفاوت تبعاً
لمقاصدهم من طلب الزيادة عن الكفايات ..

● فن يطلب الزيادة عن كفايته وحاجته لشهوة .. كان في المرتبة المذمومة من بين فرقاء
هذا الصنف ، لأنه « ليس للشهوات حد متناهٍ » تقف عنده ، الأمر الذي يجعل من تقوده
شهواته إلى جمع المزيد كمثل « الهيمة التي قد انصرف طلبها إلى ماتدعو إليه شهواتها ، فلا
تنزجر عنه بعقل ، ولا تنكف عنه بقناعة .. ! .. » .

● ومن يطلب الزيادة عن كفايته وحاجته كي ينفقها في وجوه الخير .. هو الوحيد المعذور
من بين طالبي الزيادة عن الكفايات والحاجات .

● ومن يطلب الزيادة كي يدخرها لورثته ، فهو الشقي ! .. « شقي بجمعها ، مأخوذ
بوزرها ، قد استحق اللوم من وجوه لانتحى على ذى لب ! » .. كما يقول المالوردي .

● أما صاحب الموقف الأسوأ بين طالبي الزيادة عن الكفاية ، فهو ذلك الذي يجمع المال
حباً في جمعه .. فن « يجمع المال ويطلب المكاثرة ، استحلاء لجمعه ، وشغفاً باحتجانه -
[الاستئثار به] ، فهذا أسوأ الناس حالاً فيه ، وأشدهم حرماناً له ! .. » لأنه غالباً ما يجرم نفسه
حتى من حدود كفايته وحاجته ! (١)

* * *

هكذا عرض المالوردي تصوره لحياة المجتمع المادية .. مصادرها .. وسبل الكسب والعمل
فيها .. ومقادير الفائدة منها والشرف فيها .. وكذلك للحدود التي يجب أو يحسن بالإنسان أن
يقف بمطامحه عندها .. وهو بذلك قد برهن على أصالة المنهج العلمي في تراث العرب
المسلمين ، ذلك المنهج الذي جعل أسلافنا يضعون دراساتهم لحياة المجتمع المادية ، إلتاحه ،

(١) انظر في فكر المالوردي حول كل تلك القضايا كتابه [أدب الدنيا والدين] ص ٢٠٨ - ٢٢٤ طبعة القاهرة سنة
١٩٧٣ م .

وعلاقات المنتجين لثروته ، يضعونها ضمن تصور الإسلام ، كدين وحضارة ، لكل ما يخص الإنسان ويتعلق به من شئون ..

كما برهن على وضوح الموقف المتوازن الذى ميز فكر هذه الحضارة حيال القضايا التى تطرف حياها أطراف ابتعد بهم تطرفهم عن الموقف العلمى الصحيح .

- ١١ -

أبو الوليد بن رشد

[٥٢٠ - ٥٩٥ هـ - ١١٢٦ - ١١٩٨ م]

العقل العربي في القمة

حياته في سطور :

- * هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد .
- * ولد سنة ١١٢٦ م (٥٢٠ هـ) في مدينة قرطبة بالأندلس ، وكانت أسرته ذات نفوذ سياسي وعلمي وإداري كبير ، وكان جده قاضياً لقرطبة ، ومن كبار فقهاء المذهب المالكي ، وصاحب محاولات في التوفيق ما بين الحكمة والشريعة .
- * درس الطب على أبي جعفر هارون ، وأبي مروان بن جريول البلبيني ، واستفاد في الفلسفة من ابن باجة وابن طفيل .
- * وبرع كذلك في علم الكلام ، وتعد آثاره الكلامية الثلاثة ، (تهافت التهافت) و(مناهج الأدلة) و(فصل المقال) أبرز آثار عصره في هذا الباب .
- * بدأ التأليف والكتابة عندما بلغ السادسة والثلاثين من عمره .
- * تولى قضاء «أشبيلية» سنة ١١٦٩ م (سنة ٥٦٤ هـ) ، ثم تولى منصب قاضي القضاة - وهو يعادل منصب وزير العدل - بقرطبة سنة ١١٧١ م (سنة ٥٦٦ هـ) .
- * حل محل ابن طفيل عندما تقدمت به السن في بلاط مراکش كطبيب خاص للسلطان سنة ١١٨٢ م (سنة ٥٨٢ هـ) .
- * استمرت علاقته بالسلطان المنصور أبو يوسف يعقوب بعد وفاة أبيه السلطان أبو يعقوب سنة ١١٨٤ م (سنة ٥٨٠ هـ) .
- * حدثت محنته سنة ١١٩٥ م (سنة ٥٩١ هـ) ، ففني إلى مدينة أليسانة ، على مقربة من قرطبة ، مع عدد من المشتغلين بالحكمة والعلوم ، وأُحرقت كتبه ، وحرمت على الناس دراسة الفلسفة ، لكن هذه المحنة لم تستمر طويلاً ، فعاد ثانية إلى بلاط السلطان ، كما عادت للفلسفة مكانتها الأولى .
- * توفي في أول دولة «الناصر» ، في ١١ ديسمبر سنة ١١٩٨ م ٩ صفر ٥٩٥ هـ ، وحمل

جثائه من مراكش إلى بلاد الأندلس ، على ظهر جمل ، الجثان في ناحية ، وفي الأخرى آثاره وكتبه ومؤلفاته .

* * *

١ - عصر السليبيات والإيجابيات :

في كل الفترات التاريخية التي عاشتها الإنسانية - وفي أى مجتمع من المجتمعات - كانت هناك دائماً تناقضات وصراعات بين التيارات الفكرية والمدارس ووجهات النظر التي يتنصر كل منها لموقف من المواقف أو نظرية من النظريات ، وليس في سيادة إحدى هذه المدارس ما يعنى غياب سواها عن الوجود ، وإن كان يعنى تراجعها عن مكان الصدارة فوق مسرح الفكر والأحداث .

فعندما اجتمع أمر السياسة «لعاوية بن أبي سفيان» سنة ٦٦١ م (سنة ٤٠ هـ) ، وتأسست الدولة الأموية ذات الفكرية المحافظة ، ظل المجتمع العربي الإسلامى يزخر ، بل ويغلي ، بمحركات فكرية وثورية أخرى عديده ، شيعية تارة ، وخارجية تارة أخرى ، حتى تبلورت حركة المعتزلة أهل «العدل والتوحيد» ، واستطاعت أن تساهم مع غيرها من الحركات في تفويض ملك بنى أمية ، ونقل السلطة للعباسيين سنة ٧٥٠ م (سنة ١٣٣ هـ) .

وعندما بلغت حركة المعتزلة قمة سلطتها في عهد الخليفة المأمون (سنة ٨١٣ م سنة ١٩٨ هـ) والمعتمد (سنة ٨٣٣ م سنة ٢١٨ هـ) والواثق (سنة ٨٤٢ م سنة ٢٢٨ هـ) وحتى بداية عهد المتوكل (سنة ٨٤٧ م سنة ٢٣٢ هـ) ، كانت أحشاء المجتمع تشهد مقاومة عنيفة لفكر المعتزلة ومحاولاتهم الانفراد بالحكم والهيمنة على مقدرات الناس ، وكانت حركات المقاومة هذه صادرة من أوساط نفر من الفقهاء وجمهرة رواة الحديث والجهات المحافظة في أوساط المفكرين ، تلك الأوساط التي نجحت في عهد «المتوكل» في شن حملة إرهابية ضد المعتزلة وراثهم العقلي ، وهي الحملة التي أودت بالأغلبية الساحقة من كنوز هذا التراث .

ولقد كان الجوفكري المحافظ الذى ساد الحياة الثقافية للمجتمع العربى الإسلامى منذ عهد «المتوكل» ، والذى ساعد عليه ودعم من أركانه تلك السيادة السياسية والإدارية والعسكرية التي أصبحت للعنصر التركى المملوكى الذى سيطر على قصور الخلفاء ، وهو العنصر

الذى امتاز بضيق في الأفق ، والغربة عن الحياة العقلية والفكرية ، لقد كان هذا الجوم من الثقل والكتابة بحيث أثقل العقلية العربية الإسلامية بالكثير من القيود والأغلال ، وحتى عندما استطاع « الفارابي » (٢٦٠ - ٣٣٩ هـ - ٨٧٤ - ٩٥٠ م) و « ابن سينا » (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ - ٩٨٠ - ١٠٣٧ م) أن يبدا الكثير من غيوم هذا الفكر المحافظ ويفتحا من جديد نوافذ الحياة العقلية على مختلف الحضارات والثقافات ، فإن التأثير الإرهابي للفكر المحافظ قد استطاع أن يحملها على التخلي عن الالتزام الكامل والجيد بالمنهج العقلي الذى تمثل فى فكر « أرسطو » وجعلها يستعيران من الأفلاطونية المحدثة حينًا ، ومن فلسفة المتصوفة الإشرافية أحيانًا ، وهما بصدد تفسيرهما للكون والإنسان والطبيعة ، وعلاقة الإنسان بما وراء الطبيعة ، ومحاولة التوفيق ما بين نواميس الحكمة وتعاليم الدين ، يستعيران منها الكثير مما لا يقره المنهج العقلي فى البحث والتفكير .

على أن الصحوة النسبية التى أحدثها « الفارابي » و « ابن سينا » فى ميدان الحياة العقلية للفكر العربى الإسلامى ، لم تلبث أن اصيبت بضربات شديدة وموجعة ، وذلك بفعل الأثر الفكرى الذى خلفه الحلاج (٢٤٣ - ٣١٠ هـ - ٨٥٧ - ٩٢٢ م) ، وخصوصًا بعد استشهاده الذى جعل منه أسطورة طاغية ، وخدم فكره الصوفى المتنكر لمعايير العقل ، والمعتمد على « الذوق » و « الشهود » .

حتى إذا جاء الإمام الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١ م) فظلل بجانبه على الحياة الفكرية الإسلامية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وأثمرت حياته الحصبة وعقله الفذ العديد من الآثار الفكرية التى تنحون نحوًا من التصوف الشرعى ، وتلتزم مذهب الأشاعرة العقائدى ، وتهاجم الفلسفة والفلاسفة ، وتنكر ارتباط المسببات بالأسباب ، ولا تدع لأصحاب الفكر الفلسفى ، وخاصة الفارابي وابن سينا ، بابًا إلا أغلقته ، ولا نافذة إلا أوصلتها ، حتى حسب الناس أنه لن تقوم للفلسفة والفلاسفة فى بلاد العرب المسلمين ، دولة ولا قائمة بعد الآن .

ولقد كان الأثر الفكرى الذى أودعه الغزالي خلاصة هجومه على الفلسفة والفلاسفة هو كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة) .

وإذا كانت سيادة هذه الفكرية التى مثلها الغزالي فى المشرق العربى الإسلامى ، هى مسألة ليست محل جدل أو نزاع ، فإن طبيعة المجتمع المغربى والأندلسى المحافظة فقهيًا ، بحكم سيادة المذهب المالكى وحده ، واتساع سلطان الفقهاء واستبدادهم بمقاليد الحياة الفكرية على

عهد دولة المرابطين (٤٤٨ - ٥٤١ هـ - ١٠٥٦ - ١١٤٦ م) وإغراقهم في التفريعات والتفصيلات التي كرهت إلى الناس حياة الفكر والبحث والإبداع ، كل ذلك قد سار بالحياة الفكرية في المغرب العربي الإسلامي في طريق شديد المحافظة ، بل والرجعية أحياناً ، حتى أن آثار الغزالي المعادية للفلسفة والفلاسفة كانت في نظر هؤلاء الفقهاء ، وفي أعين سلاطين المرابطين ، آثاراً تقدمية أكثر مما يصح استحقت التمزيق والتحريق ؟ !

فإذا ما تأسست دولة الموحدين ، فكثيراً ، على يد داعيتها « المهدي » محمد بن تومرت (٤٨٥ - ٥٢٤ هـ - ١٠٩٢ - ١١٣٠ م) ، وإدارياً وسياسياً على يد خليفته « عبد المؤمن » ، لتخلف دولة المرابطين في المغرب ، وقفت هذه الدولة ، على وجه الإجمال ، على أرضية محافظة ، وكان فكرها الرسمي أقرب إلى فكر الإمام الغزالي منه إلى فكر المعتزلة مثلاً أو فكر الفارابي وابن سينا وأمثالهما من الفلاسفة المسلمين .

ولقد جعل كل ذلك من العالم العربي الإسلامي منطقة نفوذ شبه مغلقة لحساب فكرية الإمام الغزالي ، وبالذات كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة) ، وعلى مدى ثلاثة أرباع القرن ، تنفس العرب المسلمون في مختلف الدول والدويلات والإمارات هذا الهواء الفكري المعادي بشدة وضراوة للفلسفة والمتفلسفين .

غير أن هذا الذي كان يبدو للعيان على سطح الحياة الفكرية للعرب المسلمين ، لم يكن ليعكس كل ما في أحشاء هذا المجتمع من تيارات وتناقضات وصراعات ، ذلك لأن مكانة العقل وسلطانه في الفكر العربي الإسلامي هي مكانة بارزة ، وقسمة الفكر العقلي في الحضارة العربية الإسلامية إنما تستعصى على الطمس ، فضلاً عن الاقتلاع والزوال ، وذلك لأن تمجيد العقل واعتماده سبيلاً في البحث من أجل استخراج المجهول من المعلوم ، إنما هو أمر يعود إلى منابع الإسلام الأولى ، إلى القرآن الكريم ، وهو لو كان موقفاً عارضاً ، وأثراً من آثار التفاعلات التي اكتسبتها الحضارة العربية بمزاملة غيرها من الحضارات ، لكان من الممكن طمس هذه القسمة ، أو زحزحتها نهائياً من الميدان ، ولكن ارتباطها العضوي بالمصدر الأول المقدس للفكر الإسلامي ، بالقرآن ، ثم تركية الرسول ، - صلى الله عليه وسلم - للعقل في كثير من الأحاديث ، وانتصار الفكرية العربية البسيطة له ولثمراته كل ذلك قد جعل من الفكر العقلي ، ومن ثم الفلسفي ، قسمة أصيلة في الحياة الفكرية ، يمكن أن تتراجع حيناً من الدهر ، أو تتخلف حقبة من الزمن ، أو يصيبها الجزر فترة من الفترات ، ولكنها تستحيل على الاقتلاع والزوال .

وإذا كان سلطان الإمام الغزالي ، والتأثيرات القاهرة لكتابه (تهافت الفلاسفة) قد بحيث في إقصاء الفلسفة والفلاسفة ردحاً من الزمن عن صدارة مسرح الأحداث ، فإن جذور الفكر العقلي وأصالته في الحياة الفكرية العربية الإسلامية ، مستفيدة من التفاعل الثقافي والحضارى الذى تجسد في بلاد الأندلس وجامعاتها الفكرية العملاقة ، قد أخذت تجاهد لصدد الهجوم ، وتعمل لتحويل التيار العاصف ، ولقد أثمرت هذه المحاولات ، وذلك الجهاد نصراً حاسماً رد للفلسفة اعتبارها ، وأعاد للفكر العربى الإسلامى قسمته العقلية كأبرز ما تكون وكأنصع ما تكون ، بل لا نغالى إذا ما قلنا : إن حياة أبى الوليد ابن رشد ، قد كانت أجود برهان على أن أصالة الفكر العقلى فى حضارتنا ، ومكانته فى تراثنا ، إنما هما أمران لا يخضعان للجدل ، فضلاً عن التشكيك أو الإنكار .

وهذه الموجة العقلية الفلسفية الجديدة ، قد مرت فى طريقها إلى ابن رشد ، وهو قتها وشهابها اللامع ، بالفيلسوف الطيب والعالم الموسيقى «أبو بكر محمد بن باجه» (٥٣٣ هـ - ١١٣٩ م) ، كما مرت كذلك بالطيب الفيلسوف «أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل» (٤٩٤ - ٥٨١ هـ - ١١٠٠ - ١١٨٥ م) ، وهو الذى مهد فى سنة ١١٦٩ م لابن رشد الطريق فى بلاط السلطان المستنير أبو يعقوب يوسف ، الذى كان «يتشكى من عبارة أرسطو طاليس - عبارة المترجمين عنه - ويذكر غموض أغراضه ، ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها ، بعد أن يفهمها فهماً جيداً ، لقرب مأخذها على الناس» . وعند ذلك اتفقت كلمة السلطان وابن طفيل على أن تعهد الدولة إلى ابن رشد بإنجاز هذا المشروع الكبير ، وقال له ابن طفيل : «إنى لأرجو أن تبنى به ، لما أعلمه من جودة ذهنك ، وصفاء قريحتك ، وقوة نزوعك إلى الصناعة» (الفلسفة) ^(١) .

وهكذا شرع ابن رشيد ، وبتكليف من السلطان ، فى دراسة أرسطو ، وقدم أعماله العملاقة فى ثلاثة أثواب :

- ١ - جوامع صغار ، للذين يرومون الاختصار والاقتصار .
- ٢ - تلخيصات تلى الجوامع فى الحجم ، ويتجاوز بعضها أحياناً حجم عمل أرسطو نفسه ، مثل تلخيص الخطابة ، لما فيه من إضافات رشدية ، وتطبيقات لقواعد أرسطو على المجتمع الذى عاش فيه أبو الوليد .

(١) عبد الواحد المراكشى (المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) تحقيق سعيد العريان ص ٣١٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

٣- الشروح والتفسيرات ، وهي مسهبة في تناول أعمال حكيم اليونان .

وبذلك انتصر الفكر الفلسفي ، وأعاد ابن رشد للحضارة العربية الإسلامية وضوح قسماها العقلية ولعانها من جديد ، بل وبشكل فذ وخلاق وفريد .

٢- علاقة الحكمة بالشرعية :

على الرغم من أن الميدان الكبير الذي عمل فيه ابن رشد بالبحث والدرس كان هو ميدان الفلسفة الأرسطية ، وعلى الرغم من إعجاب به بحكيم اليونان إعجاباً منقطع النظير ، جعله يرى في أصول مذهبه « منتهى ما وقفت عليه العقول الإنسانية »^(١) ، وعلى الرغم من أن الفلسفة كانت دائماً متهمه من قبل الفقهاء وجمهور الناس البسطاء ، مما سبب الكثير من الامتحانات ، بل والمتاعب والمحن لكثير من الفلاسفة والحكماء ، وعلى الرغم من الطابع المحافظ للمجتمع الأندلسي والمغربى في قاعدته العريضة ، ونفور هذه القاعدة من الفكر الفلسفي بوجه عام .. على الرغم من كل ذلك ، فإن ابن رشد قد تقدم لحمل الراية ورفع اللواء في هذا الميدان ، لا على أساس دراسة أرسطو وشرحه فقط ، ولا كفيلاسوف ينتج للخاصة من المتفلسفين ودارسى الحكمة فحسب ، بل متصدياً لأخطر قضية اعترضت رواد هذا الميدان ، وهي محاولة التوفيق ما بين نواميس الحكمة وأصول العقائد التي جاءت بها الأديان .

ونحن نستطيع أن نقول ، دون ما مبالغة أو تزويد ، أن ابن رشد كان صاحب أنضج محاولة قدمت في هذا السبيل من بين فلاسفة العرب المسلمين ، وأن فكره الخلاق الذي خلفه لنا حول هذه المعضلة غير الهيئية ، هو أجدر الأتماط الفكرية ، الخاصة بهذا الموضوع ، باحترام الفلاسفة الإلهيين ، واحترام المستنيرين من علماء الدين ، على حد سواء .

ولقد كان ابن رشد مدركاً لوعورة الطريق الذي سلكه ، ومقدراً تقديراً جيداً لا استعصاء الكثير من قضايا هذا الميدان على مدارك أوساط المفكرين ، فضلاً عن عامة الناس وجمهورهم ، ولذلك نجده يحدد منذ البداية أن كثيراً من مباحث العلوم الإلهية ، إذا شئنا أن نقدمها في ثوب مقنع لعقول الحكماء فلا بد من تأويل ظواهر نصوصها تأويلاً يتفق مع المعايير التي تقيس بها العقول الأمور والأشياء ، وأن وحدة الحقيقة لا تعنى أن يكون تصور الحكماء لها

(١) ابن رشد (تهافت التهافت) ص ٥٠ ، ط القاهرة سنة ١٩٠٣ م .

هو نفس تصور العامة والجمهور ، لأن الرمز ، والعبارة ، والآية ، توحى لكل مستوى فكري إيجاء مختلفاً ، وتعطى لكل عقل من الأبعاد والمفاهيم والمعطيات بحسب ما يناسب مرتبة هذا العقل وقدراته على البحث والتخيل والتحصيل ، وذلك لأن « طباع الناس متفاضلة في التصديق ، فمنهم من يصدق بالبرهان ، ومنهم من يصدق بالأقوال الجدلية تصديق صاحب البرهان ، إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك ، ومنهم من يصدق بالأقوال الخطائية كتصديق صاحب البرهان بالأقوال البرهانية »^(١) .

أى أن هناك ثلاثة مستويات من الناس في البحث والدرس والتفكير :

- * الفلاسفة الحكماء ، وأداتهم في البحث هي البرهان ، وهو سبيلهم إلى اليقين .
- * العامة والجمهور ، وسبيلهم للاقتناع الأدلة الوعظية والخطابية ، وهي سبيلهم إلى اليقين .
- * المتكلمون (الجدليون) - وخاصة الأشعرية - وهم في مرتبة وسطى بين العامة وبين الحكماء .

وإذا كان ابن رشد قد قدم لنا هذه المراتب الثلاث لمستويات التفكير والبحث المختلفة ، فإننا نجده منحازاً إلى صف الفلاسفة الحكماء ، لأنه واحد من أبرزهم في حضارتنا العربية الإسلامية ، كما نجده متعاطفاً مع الجمهور ، بشرط ألا يتعدوا حدود إمكانياتهم العقلية والفكرية ، بل هو يحمد لهم التقليد في الأسس والأصول الدينية التي يستعصى تفسيرها وتعليلها بمعايير العقل والبرهان ، ويرى أنه « يجب على كل إنسان أن يسلم بمبادئ الشريعة ، وأن يقلد فيها .. إن مبادئها هي أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية ، فلا بد أن يعترف بها مع جهل أسبابها »^(٢) .

وهو يحمل على المتكلمين ، (وخاصة الأشاعرة) ، لأنهم لم يبلغوا مرتبة أصحاب البرهان ومع ذلك تناولوا العديد من القضايا الإلهية التي لا تدرك إلا بالبرهان ، وياليت الأمر وقف بهم عند هذا ، « بل أذاعوا ذلك بين العامة والجمهور ، فأوقعوا الناس من قبيل ذلك في شتآن وتباغض وحروب ومزقوا الشرع وفرقوا بين الناس كل التفريق »^(٣) .

(١) ابن رشد (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٧ ، ط محمود على صبيح . ولقد فطنا بعد كتابتنا لهذا الفصل بتحقيق كتاب (فصل المقال) تحقيقاً علمياً . انظره في طبعة دار المعارف ، بمصر ، سنة ١٩٧٢ . كما نشرنا كتاباً عن (المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد) دار المعارف ، بمصر ، سنة ١٩٧١ م .

(٢) تهافت التهافت ص ١٢٤ .

(٣) فصل المقال ص ٢٣ .

وهو يرى أن سلوك الجمهور إلى الحقيقة طريق الأدلة الخطائية والوعظية ، وسلوك الخاصة إلى نفس الحقيقة طريق البرهان إنما هو السبيل الأمثل الذى يجعل «الحكمة هى صاحبة التشريعة والأخت الرضيعة .. وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجواهر والغريزة»^(١) .

وابن رشد لا يسلك هذا السبيل فى التمييز ما بين الجمهور والمتكلمين والحكام بدافع من التعالى الفكرى والانفصام عن جمهور الناس ، واحتقار ماعدا الفلاسفة ، كما قد يظن البعض ، وإنما هو ينطلق إلى هذا الموقف من على أرض المسؤولية التى يستشعرها المفكر المؤمن بالتخصص ، والذى ينزهه حرمان العلوم والثقافات عن أن تبتذل فى ميادين غير ميادينها ، فهو لا يقول بأن الحكمة وقف على طبقة خاصة أو سلالة بعينها ، وإنما يقول : إن لها أدوات يجب أن يحصلها الباحث فيها ، ولها مهر يجب أن يدفعه الذين يرومون إدراك الحقيقة بوسائلها .. إن ميادينها مفتوح للجميع ، بشرط أن يتسلح الذاهبون إلى هذا الميدان بالأسلحة التى تكفل لهم النصر فى معركة البحث عن اليقين بواسطة البرهان ، وذلك لأن الفلاسفة كما يقول ، هم الذين ، طلبوا معرفة برهان^(٢) كما أنه « ليس يوجد فى هذا النوع من المعارف مقدمات محمودة يتأتى من قبلها الإقناع فيها للعقل الذى فى بادئ الرأى ، أعنى عقل الجمهور ، لأن كثيراً من هذه ليس تُلقى لها مقدمات من نوع المقدمات التى هى معقولة عند الجمهور ، يعشقون بها فى أمثال هذه المعانى ، بل لا سبيل إلى أن يقع بها لأحد أتباع ، وإنما سبيلها أن يحصل بها اليقين لمن يسلك فى معرفتها سبيل اليقين»^(٣) .

وإذا كان ابن رشد يسوق هذه العبارات وأمثالها ليقنع الذين قصرت بهم أدواتهم عن أن تؤهلهم لخوض غمار الفلسفة ، ومن ثم بحث العلوم الإلهية بأداة الفلاسفة ، أى البرهان ، فإنه يرسم للذين يتصدون وأمثال هذه المهام الطريق الأمثل عندما تعترضهم بعض المقولات والأحكام التى تستنكرها عقولهم وتنكرها مداركهم ، ويحذرهم من الجموح والرفض والإنكار ، ويرسم لهم كيف يصلون إلى فهم ما لا يفهمون ، وذلك عندما يقول إنه « ينبغى لمن آثر طلب الحق ، إذا وجد قولاً شنيعاً ، ولم يجد مقدمات محمودة تزيل عنه تلك الشنعة ، أن لا يعتقد أن ذلك القول باطل ، وأن يطلبه من الطريق الذى يزعم المدعى له أنه توقف منها عليه»^(٤) .

(١) المصدر السابق ص ٦٧ (طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م) .

(٢) تهاوت التهاوت ص ٥٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٥٤ .

وابن رشد بعد أن ساق في العديد من كتبه ورسائله وآثاره الفكرية ، الكثير من القواعد والمقدمات التي رسم بها الإطار الذي يستطيع « الحكيم المتأله » أن يضع بداخله أصول العقائد الدينية على ضوء من البرهان العقلي ، قدم لنا العديد من النماذج للعديد من القضايا التي وفق ما بين موقف الحكمة والشريعة بصدد دراستها ، بل وأصاب في ذلك من النجاح والتوفيق ما لم يسبقه إليه أحد من حكماء الإسلام ، ونحن سنختار هنا ، ونحن نعرض لتوفيق ابن رشد بين الحكمة والشريعة ، من بين ما عرض له ، قضيتين من القضايا لعلها أخطر ما في هذا الميدان ، ومن أشهر ما دار حوله الجدل والصراع ، وأكثر القضايا إلحاحًا على عقول الذين يريدون التوفيق ما بين معطيات الفلسفة وعقائد الأديان .. وهما المتعلقة بتصور كل من :

(أ) الذات الإلهية .
(ب) والعالم بين القدم والحدوث .

(أ) الذات الإلهية :

وابن رشد لا يشعر بخرج عندما يتقدم ليقدم لنا تصوره الخاص والفلسفي للذات الإلهية ، وعلّة الوجود ، والمؤثر في هذا الكون ، لأنه على الرغم من أن روح التعاليم الإسلامية لا تحبذ التفكير في ذات الخالق ، بل وتنتهي عن ذلك ، إلا أن طريق التأويل قد سوغ للمفكرين المسلمين أن يجعلوا هذا النهى موجّهًا للعامة الذين لا يملكون أدوات البحث في هذا الميدان ، وذلك بالإضافة إلى أن « ابن رشد » كان صاحب موقف منحاز إلى معسكر الذين لا يرون أن هناك مناطق محرمة أمام رحلات العقل الإنساني الحكيم ، ولا حواجز يستحيل على هذا العقل تحطيتها ، كما أن التراث العربي الإسلامي قد حفل بالعديد من وجهات النظر حول تصورات عديدة ومتعددة لذات الله ، ولقد تراوحت وجهات النظر هذه ما بين موقف « المحسمة المشبهة » ، الذين أخذوا بظاهر آيات القرآن الكريم ، فقرروا أن لله جسمًا وأعضاء ، وبلغوا في هذا التصور الساذج حدًا يدعو إلى الإغراب والاستغراب ، وما بين موقف « المعتزلة » الذين نزهوا الذات الفاعلة عن مشابهة أي شيء مُحدث يتصوره الإنسان ، وجعلوها « فكرة مجردة » عكست قدرتهم على التنزيه والتجريد ، إلى موقف « الأشاعرة » الذين وقفوا موقفًا وسطًا ، وإن كانوا ، موضوعيًا ، أقرب إلى التشبيه .

كل ذلك قد جعل ابن رشد في حِلٍّ من أن يقدم لنا تصوره هو عن الذات الإلهية ، دون أن يستشعر الحرج أو التجافي مع روح البحث والولاء لهذا التراث ، وهو عندما طرق هذا الباب ، فإنه قد قدم لنا تصورًا مختلفًا تمامًا عن تصور « المحسمة المشبهة » ، وعن تصور

العامّة ، وكذلك عن تصور المتكلمين بفرقهم المختلفة ، وإن كان قد جاء تصوّره متفقاً مع تصور الفلاسفة القدماء إلى حد كبير... ومع تصور المعتزلة في الجوهر والأساس ..

١ - فهو يقدم لنا الذات الإلهية على أنها « عقل محض » و « علم » خالص ، فيتحدث عن أن الفلاسفة « لما رأوا أن النظام الموجود ها هنا في العالم وأجزائه هو صادر عن علم متقدم عليه ، قضوا أن هذا العقل والعلم هو مبدأ العالم الذي أفاده أن يكون موجوداً وأن يكون معقولاً ، وهذا بعيد عن المعارف الإنسانية الأولى ، والأمور المشهورة ، بحيث لا يجوز أن يفصح للجمهور عنه ، بل للكثير من الناس »^(١) .

ومادام هناك اتفاق على وجود علة لهذا الوجود ، وأن هذه العلة ليست بجسم ، وأن وجودها في غير مادة ، فإن ابن رشد يصل بهذه المقدمات إلى نتائجها الطبيعية ويقول : إنه « إذا وجدت موجودات ليست في مادة وجب أن يكون جوهرها علماً أو عقلاً »^(٢) والفلاسفة قد أجمعوا على أن الموجودات المفارقة لغيرها إنما هي عقول محضة ، فإذا كانت علة هذا الوجود هي ذات مفارقة لغيرها ، لا مفارقة نسبية فقط ، بل مفارقة للكل وبشكل مطلق ، فإن « ما هو مفارق بإطلاق أخرى أن يكون عقلاً »^(٣) ، ومن تم فإن ابن رشد ينتقد الإمام الغزالي الذي يرى أن في تسمية الذات الإلهية ، أو المبدأ الأول : عقلاً ، معنى سلبي ، فيقول ابن رشد ، بعد حديث عن أشياء يوافق فيها الغزالي .. « لا كلام معه في هذا . إلا ما ذكر من تسميته عقلاً ، أنه يدل على معنى سلبي ، وليس كذلك ، بل هو الاسم الأخص بذاته عند الفلاسفة المشائين ، بخلاف ما يراه أفلاطون من أن العقل غير المبدأ الأول ، وأنه لا يوصف بأنه عقل »^(٤) .

كما يرى ابن رشد « أن ذاته (أى ذات الفاعل) التي يسمى بها صانعاً ليست شيئاً أكثر من علمه بالمصنوعات ... » وأن القوم (الفلاسفة) يضعون أن الموجود الذي ليس بجسم هو في ذاته علم فقط ، ، وذلك أنهم يرون أن الصور إنما كانت غير عالمة لأنها في مواد ، فإذا وجد شيء ليس قائماً في مادة « علم أنه عالم وعلم ، وذلك بدليل أنهم وجدوا أن الصور المادية إذا

(١) د . محمود قاسم (نظرية المعرفة عن ابن رشد) ص ٢١ . ط . القاهرة نقلاً عن : تهافت التهافت ، ط . بيروت ص ٢٢٦ .

(٢) تهافت التهافت ص ٤٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٦ .

(٤) تهافت التهافت ص ٧٩ .

تجردت في نفس من مادتها صارت علمًا وعقلًا ، وأن العقل ليس شيئًا أكثر من الصورة المتجردة من المادة ، وإذا كان ذلك كذلك فيما كان ليس متجردًا في أصل طبيعته ، فالتى هي في العقل مجردة في أصل طبيعتها أخرى أن تكون علمًا وعقلًا» (١) .

كما يتحدث عن الفلاسفة فيرى أنهم « وقفوا على أن ها هنا موجودًا هو عقل محض ، ولما رأوا أيضًا أن النظام ، ها هنا في الطبيعة ، وفي أفعالها ، يجرى على النظام العقلي الشبيه بالنظام الصناعي ، علموا أن ها هنا عقلًا هو الذى أفاد هذه القوى الطبيعية أن يجرى فعلها على نحو فعل العقل ، فقطعوا من هذين الأمرين على أن ذلك الموجود الذى هو عقل محض هو الذى أفاد الموجودات الترتيب والنظام الموجود في أفعالها» (٢) .

وجميع هذه النصوص ومثيلاتها حاسمة في دلالتها على أن ابن رشد قد تصور علة هذا الكون عقلًا محضًا ، وعلمًا خالصًا .

٢ - وبعد هذا التصور للذات الإلهية التي رآها أبو الوليد متحققة في العقل المحض ، نجده يرى هذا الوجود لهذه الذات قائمًا ومتحققًا في تركيب أجزاء الوجود ، وهو هنا يفكر تفكيرًا جديًا يجتذب أعمق مشاعر التقدير والإعجاب فيرى أن « العلة » الموجودة في الكون ليس فعلها الخلق ، بمعنى الإيجاد من العدم ولا الإعدام للموجود ، وإنما هي علة تركيب أجزاء العالم ، وهو بذلك يعطى مصطلحات الفعل و « الإيجاد » معنى جديدًا يقرب من معنى « النظام » وذلك عندما يقول : « فإن كان الأول ، سبحانه ، علة تركيب أجزاء العالم ، التي وجودها في التركيب ، فهو علة وجودها ولا بد ، وكل من هو علة وجود شيء ما فهو فاعل له » (٣) .

ثم هو يزيد هذا التصور إيضاحًا عندما يقول : « إن الارتباط الذى بيننا (أى المبادئ المفارقة) هو الذى يوجب كونها معلولة بعضها عن بعض ، وجميعها من المبدأ الأول ، وإنه ليس يفهم من الفاعل والمفعول والخالق والمخلوق في ذلك الوجود إلا هذا المعنى فقط .. وهذا المعنى هو الذى يرى الفلاسفة أنه عبرت عنه الشرائع بالخلق والاختراع والتكليف ، فهذا هو أقرب تعليم يمكن أن يفهم به مذهب هؤلاء القوم .. وليس يفهم من مذهب أرسطو غير

(٤) المصدر السابق ص ٨٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٢ .

هذا ، ولا من مذهب أفلاطون ، وهو منتهى ما وقفت عليه العقول الإنسانية» (١) .
وهكذا نجد أبا الوليد ابن رشد يتصور الذات الإلهية « نظاماً » أفاد الموجودات النظام التي
هى عليه ، و « علة تركب أجزائها » وارتباطها بعضها ببعض الآخر ، و « قانوناً » يحكم
الأجزاء التي يتكون منها الوجود ، كما سبق وتصورها « عقلاً محضاً وعلماً خالصاً » .
٣- أما العنصر الثالث الذى به يكتمل لنا تصور ابن رشد للذات الإلهية ، فهو تصويره
إياها محركاً أول للموجودات ، وذلك عندما يقول : « وإذا كانت الأجرام السماوية لا يتم
وجودها إلا بالحركة ، فمعطى الحركة هو فاعل الأجرام السماوية » (٢) وذلك لأن « الفلاسفة
لما كانوا يعتقدون أن الحركة فعل الفاعل ، وأن العالم لا يتم وجوده إلا بالحركة قالوا : إن
الفاعل للحركة هو الفاعل للعالم ، وأنه لو كلف فعله طرفة عين عن التحريك لبطل
العالم » (٣) .

وإذا كان هذا « العقل » و « العلم » و « النظام » و « المحرك » هو علة تركب الكائنات
والوجود كله ، وعلة نظامه وعقله ، ومن هذه الزاوية وبهذا المعنى علة وجوده ، فإن وجوده
وفعله محكوم أيضاً بفعل وتقبل هذه الأجزاء المكونة للوجود ، وعلاقتها بعضها ببعض الآخر ،
ومن ثم فإن تصور ابن رشد لحرية « العلة » ليس من نوع « الحرية المطلقة » بل الحرية المحكومة
بالقانون والنظام والعلاقات القائمة بين أجزاء الوجود ، ولذلك فإنه « لا يتعلق فعل الفاعل
بالعدم المطلق ، ولا بعدم شيء ما ، لأنه ليس يقدر القادر أن يصير الموجود معدوماً أولاً
وبالذات ، أى يقبل عين الوجود إلى عين العدم » (٤) ، وذلك بسبب من أن « ترتب الأسباب
هو الذى يقتضى وجود الشيء فى وقت ما أو عدمه فى ذلك الوقت » (٥) ، وليست الحرية المطلقة
للمبدأ الأولى هى التي تصنع ذلك .

وإذا كان هذا هو التصور الذى ارتآه ابن رشد للذات الإلهية ، فلقد كان طبيعياً جداً أن
يدرك هو ، كما ندرك نحن ، تميز هذا التصور عن التصورات الأخرى التي ارتآها المتكلمون ،
وخاصة الأشاعرة منهم ، وبالأخص المشبهة ، لذات الباري - سبحانه وتعالى - ومن هنا كان

(١) المصدر السابق ص ٤٩ . ٥٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٠ .

(٥) ابن رشد - مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، ص ٣٢٧ تحقيق د . محمود قاسم . ط . القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

طبيعياً أن يهاجم ابن رشد تصور المتكلمين لهذه الذات ، عندما يقول : « إن المتكلمين ، إذا حُقِّق قولهم ، وكُشف أمرهم مع من ينبغي أن يكشف ، ظهر أنهم إنما يجعلوا الإله إنساناً أزلياً ، وذلك أنهم شبهوا العالم بالمصنوعات التي تكون عن إرادة الإنسان وعلمه وقدرته ، فلما قيل لهم : إنه يلزم أن يكون جسمًا ، قالوا : إنه أزلي ، وأن كل جسم مُحَدَّث ، فلزمهم أن يضعوا إنساناً في غير مادة فعلاً لجميع الموجودات ، فصار هذا القول قولاً مثاليًا شعريًا ، والأقوال المثالية مقنعة جدًا ، إلا أنها إذا تُعقِّبَتْ ظهر اختلالها »^(١) .

فهو هنا لا يشير إلى وجود تصورات متعددة للذات الإلهية ، في نطاق الفكر العربي الإسلامي ، فقط ، بل ويرفض تصور المتكلمين ، وذلك لأنه صاحب تصور خاص رأى من خلاله الذات الإلهية ، « عقلا س محضًا » و « علمًا خالصًا » و « نظامًا » و « محرِّكًا » ، أفاد الوجود الحركة والنظام .

على أنه ينبغي لنا أن نشير إلى أن ابن رشد عندما كان يجادل المتكلمين ويفند الكثير من وجهات نظرهم ، فإنما كان يعنى مدارس المشبهة والأشاعرة في أغلب الأحيان ، ولقد كان الإمام الغزالي أبرز فرسان الأشاعرة الذي أولى ابن رشد آراءه العناية الكبرى في البحث والمناقشة والتفنيد . ومن هنا فإن نظرة أبي الوليد إلى « المعتزلة » إنما كانت في جملتها ، نظرة مشبعة بالود والاحترام ، ويكفى أن نعلم هنا أنه قد رأى أن « مذهب الفلاسفة في المبدأ الأول هو قريب من مذهب المعتزلة »^(٢) . وأنه قد تبنى العديد من وجهات نظرهم في العديد من الموضوعات .

العالم بين القدم والحدوث :

وإذا أردنا أن نشير إلى واحدة من أهم الإضافات الخلاقة التي قدمها ابن رشد للفكر العربي الإسلامي ، بل للفكر الإنساني عامة ، والتي جسد فيها ، بعبقريه فذة ، محاولته الجريئة للتوفيق ما بين الحكمة والشريعة ، فإننا يجب أن نشير إلى مفهومه عن العالم ، وموقفه من الخلاف القديم المتجدد الذي دار ويدور حول ما إذا كان هذا العالم قديماً ؟ أم محدثاً ؟

(١) تهافت التهافت ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٩ .

ذلك أن الفكر الإنساني ، فيما قبل أبي الوليد ابن رشد ، قد كان يتوزعه ، أساساً ، معسكران فكريان ، أحدهما : معسكر الفلاسفة القدماء ، ومن ارتضى مقدماتهم ونتائجهم ، وهم يرون أن العالم قديم ، لأنه من مادة قديمة ، وإذا كانت المادة قديمة لا تستحدث ، أى أنه لا أول لها ، فإنه لم يسبق وجود هذا العالم موجود أوجده ، لأنه لا أول لوجوده ، ومن العسير ، إن لم يكن من المستحيل على فرسان هذا المعسكر أن يوفقوا بين فكرتهم هذه وبين فكرة الاعتراف بوجود «خالق» لهذا «العالم» ، مهها حفلت كتبهم وأثارهم ببعض العبارات والصيغ التي نعتقد أن مدلولاتها أقرب إلى المجازات - المقصود بها التخلص والمداراة - منها إلى الحقائق في هذا الباب .

وثانيهما : معسكر المفكرين المؤمنين بالأديان السماوية ، وفي مقدمتهم المتكلمون من علماء هذه الأديان ، وكانوا ، فيما قبل أبي الوليد ، تجمعهم فكرة أساسية تؤكد أن هذا العالم لم يكن ثم كان ، وأن الذات الإلهية كانت زمناً ولا شئ معها ، ثم أوجدت هذا العالم وخلقته من العدم .

وكانت صورة هذا الصراع الفكري ، تبدو بغير أمل في اللقاء بين مختلف الأطراف ، وظلت الحال كذلك حتى قدّم ابن رشد فكرته العبقريّة في هذا الموضوع .. فماذا قال ؟ لقد قال ابن رشد : إن العالم قديم ومُحدَث - (بفتح الدال) - في ذات الوقت ؟ وأنه لا أول لوجوده ، ولم يُخلَق من العدم ، ولكن له مُحدَثاً (بكسر الدال) وخالفاً وموجداً ؟! أما تفسير هذه المقولة التي تبدو وكأنها وعاء اشتمل على مجموعة من الأضداد المتناقرات ، فإن أبا الوليد يسطه بسطاً يجذب إليه العقول والقلوب والأفهام .

فهو يتحدث إلى المتكلمين ، بمنطقهم ، ليقنعهم فيقول لهم : إنكم تقولون بأن الخالق قديم ، لا أول لوجوده ، ولم يسبق وجوده زمان ، وأن العالم فعله ، فلا بد أن يكون مثله قديماً ، لا أول لوجوده ، ولم يسبق وجوده زمان ، وذلك لأن « من لا يساوق وجوده الزمان ولا يحيط به من طرفيه : يلزم ضرورة أن يكون فعله لا يحيط به الزمان ، ولا يساوقه زمان محدود ، وذلك أن كل موجود فلا يتراخى فعله عن وجوده إلا أن يكون ينقصه من وجوده شئ ، أعنى أن لا يكون على وجوده الكامل ، أو يكون من ذوى الاختيار»^(١) وأنه لا تراخى بين وجود الفاعل ووجود فعله ، في حالة ما إذا كان الفاعل قديماً ، لأن « الفاعل

(١) المصدر السابق ص ٣٠ .

الواحد ، إن كان أزلياً ، ففعله ... هو فعل دائم أزل ، لا في وقت دون وقت ، فإن الفاعل الذى يتعلق فعله بالمفعول فى حين خروجه من القوة إلى الفعل هو فاعل مُحدَث - (بفتح الدال) - ضرورة ، ومفعوله مُحدَث - (بفتح الدال) - ضرورة ، وأما الفاعل الأول ففيه تعلق بالمفعول على الدوام «^(١)» .

وهو ينبنى نفيًا قاطعاً أن يكون العالم قد خلق من لا شيء ، أو أنه كان عدماً ثم وجد ، لأن عنده أن الوجود لا يتعلق بالعدم مطلقاً ، وأن الشكوك التى ترد فى هذا المقام إنما هى «أمر يلزم ضرورة من قال : إن الفاعل إنما يتعلق فعله بإيجاد مطلق ، أعنى بإيجاد شيء لم يكن قبل ، لا بالقوة ولا كان ممكناً . فأخرجه الفاعل من القوة إلى الفعل ، بل اخترعه اختراعاً»^(٢) . بل ويهاجم الإمام الغزالي ، ومن ورائه الأشاعرة الذين يقولون بالخلق من العدم ، ويقول لهم : إن مفهومكم هذا غريب عن الإسلام ، وذلك عندما يقول : «وأما ما تزعم الأشعرية من أن طبيعة الممكن مخترعة وحادثة من غير شيء ، فهو الذى مجالفهم فيه الفلاسفة ، من قال منهم بحدوث العالم أو لم يقل . فما قالوه إذا تأملته بالحقيقة ليس هو من شريعة المسلمين ولا يقوم عليه برهان»^(٣) .

ولكن ... إذا كان الأمر كذلك ، فما هو كنه «الخلق» و«الفعل» ، كما يتصوره ابن رشد؟ وما هو «دور» (الفاعل) و«العلة» و«الخالق» فى عالم لا أول لوجوده ، ولم يخلق من العدم؟

إن ابن رشد يقدم لنا مفهوماً جديداً ومبتكراً عن معنى «الخلق» و«الفعل» ، عندما يقسم الوجود إلى «وجود بالقوة» ، وهو الممكن ، و«وجود بالفعل» ، وهو مرتبة فى الوجود تلى الوجود «بالقوة» ، وعندما يرى أن «الفعل والخلق» ليس شيئاً آخر غير الانتقال بالوجود من مرحلة «الوجود بالقوة» إلى مرحلة «الوجود بالفعل» ، هذا فى الإيجاد ، أما فى الإعدام فإن الذى يحدث هو الانتقال بالموجود من مرحلة «الموجود بالفعل» إلى مرحلة «الوجود بالقوة» ، وعند ذلك يعرض للوجود الإعدام ، «وذلك أن فعل الفاعل عند الفلاسفة ليس شيئاً غير إخراج ماهو بالقوة إلى أن يصيره بالفعل ، فهو يتعلق عندهم بوجود فى الطرفين ، أما فى الإيجاد فينقله من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل ، فيرتفع عنده ، وأما فى الإعدام فينقله

(١) المصدر السابق ص ٨٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٨ .

من الوجود بالفعل إلى الوجود بالقوة ، فيعرض أن يحدث عدمه» (١) .

وإذا كانت هذه العملية هي «الخلق» و«الفعل» و«الإحداث» عند ابن رشد ، وإذا كانت ، كما هو الواقع ، عملية دائمة ولا تنتهى فى العالم ، فإننا نكون بإراء عملية خلق وإحداث لا ينقطع أبداً ، أى أن هناك دائماً وأبداً وباستمرار أشياء توجد وأشياء تعدم أو تتحول ، ومن ثم فإن «الفاعل والمحدث» هنا هو «فاعل ومحدث» باستمرار ، لا كما يتصور الأشاعرة أنه قد خلق العالم من العدم مرة واحدة ودفعة واحدة ثم فرغ من ذلك ، ومن ثم فإن المُحدث - (بكسر الدال) - عند ابن رشد أحق باسم المُحدث - (بكسر الدال) - منه عند الأشعرين ، وكأنه بذلك يسحب من تحتهم الأرض وينتزع اللواء .

وبهذه المفاهيم ينكر ابن رشد ذلك التقسيم الجامد الذى يوزع جهات الفكر والصراع حول هذا الموضوع ، ويقدم لنا مفهوماً جديداً لا أعتقد أنه قد سبق إليه ، وهو يعلل سر ذلك الصراع الذى ظل زمناً طويلاً دون لقاء أو توفيق بأن العالم قد «أخذ شهباً من الوجود الكائن الحقيقى ، ومن الوجود القديم ، فن غلب عليه مافيه من شبه القديم على مافيه من شبه المحدث سماه قديماً ، ومن غلب عليه مافيه من شبه المُحدث سماه مُحدثاً ، وهو فى الحقيقة ليس مُحدثاً حقيقياً ولا قديماً حقيقياً ، فإن المُحدث الحقيقى فاسد ضرورة والقديم الحقيقى ليس له علة» (٢) .

ولا نعتقد بعد تقديم هذين النموذجين - تصور ابن رشد للذات الالهية ، وحديثه عن العالم بين القِدَم والحَدُوث - إلا أن فيلسوفنا الكبير قد نجح حيث أخفق الكثيرون ممن طرَقوا قبله باب التوفيق بين نواميس الحكمة وعقائد الأديان .

٣ - ابن رشد والمجتمع ..

هناك عيب يصيب الدراسات التى تقدم عن بعض فلاسفتنا أحياناً ، وهو خاص بإغفال ، متعمد أو غير متعمد ، لعلاقة هؤلاء الفلاسفة بمجتمعاتهم ، وتفاعلهم مع هذه المجتمعات ، ودورهم فى دفع عجلة التقدم السياسى والاجتماعى والحضارى لهذه المجتمعات ، والاقْتِصَار من صور حياتهم وأحداثها على ما هو متعلق ، مباشرة أو بصورة غير مباشرة ،

(١) المصدر السابق ص ٣٨ .

(٢) فصل المقال ص ١٣ .

بالفكر الفلسفي ، والطب أو الفلك أو الرياضيات أو غيرها من العلوم والفنون التي اسهموا فيها وتركوا فيها الآثار .

وهذا العيب قد أصاب بعض الدراسات التي قدمت عن أبي الوليد ، حتى لقد كادت قضاياها الفلسفية أن تحجب عن قارئه قسماته الأخرى ، فلا يبصره العملاق المتعدد الجوانب والكفاءات والنشاطات ، وبالذات رجل المجتمع ، المدلى بدلوه فيما حفلت به حياة مجتمعه من قضايا وأحداث .

والأمر الذي يجعل هذا العيب أكثر شذوذاً في فكرنا العربي الإسلامي ، أن هذا الفكر وعما لفته لم يعرفوا ذلك الانفصام الذي عرفته بعض المجتمعات ما بين « الفكر » و « العمل » ، وإنما جسدت حياة هؤلاء المفكرين ، ونواحي هذه النشاطات العقلية ، أروع تجسيد تلك الوحدة ما بين اهتمامات المفكر وسلوكه ، ما بين مشاغله العقلية وآماله في تطبيق نظرياته في المجتمع الذي يعيش فيه ، وذلك لأنهم قد اشترطوا ذلك الربط المتين بين هاتين الناحيتين في كل الحالات ، وقالوا إنه « إنما تكون الأقاويل التي يبحث بها على السنن مقنعة ، إذا كان المشيرون بها ذوى صلاح وحسن فعل ، حتى تكون هذه الأشياء المذكورة هاهنا معلومة لنا وموجودة فينا ، فإنه إذا وجد فينا الخلق الذي نحث عليه ، كان قولنا في الحث عليه أشد إقناعاً »^(١) .

وابن رشد نموذج من النماذج الجيدة في صدق هذا القول الذي نقول ، ونحن نستطيع أن نقدم العديد من الأدلة على ذلك وخاصة إذا ما تناولنا موقفه من بعض القضايا التي شغلت حيزاً كبيراً من اهتماماته ، والتي ربطت فكره وربطته بحياة المجتمع والناس ، وذلك مثل :

(أ) نظريته في المعرفة .

(ب) موقفه من السياسة .

(ج) نظريته في الحرية .

(د) موقفه من المرأة .

(أ) نظريته في المعرفة :

وابن رشد وإن لم يفرد مبحثاً من مباحثه تحت عنوان (نظرية المعرفة) إلا أنه قد أعطانا مفهوماً في المعرفة لا أعتقد إلا أننا فخورون به أيما فخر ومعتزون به أيما اعتزاز وخاصة بعد أن

(١) ابن رشد (تلخيص الخطاة) ص ١٤٠ ، ١٤١ تحقيق د. محمد سليم سالم . ط . القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

وجدناه سابقاً لأحدث النظريات العلمية التي تبلورت حديثاً في هذا الباب وتراثاً لها في كثير من الجوانب والعناصر الخاصة بهذا الموضوع .

فهو في خلال مناقشاته لقضية « العلم الإلهي » و « علم الإنسان » والفرق بين العلم القديم والعلم المُحدَّث - (بفتح الدال) - وهي مناقشات عرضت أصلاً خلال الحديث عن العلم الإلهي ، وهل يعلم الله الجزئيات ، إذا كان علمه « كلياً » ؟ - نجده يفرق تفرقة حاسمة بين العلم الإلهي القديم والعلم الإنساني المُحدَّث .

وإذا كنا قد سبق وأشرنا إلى أن ابن رشد قد تصور الذات الإلهية « علماً خالصاً » فإننا نزيد هنا فنقول : إنه رأى أن علاقة هذا العلم القديم بالموجودات هي علاقة الإيجاد « إذ كان علة لها لا معلولاً عنها » (١) .

أما علمنا نحن ومعرفتنا فلقد أبصر ابن رشد منذ قرون أنها معلولة للوجود ، ونابعة مما يحيط بالإنسان من أشياء وحقائق موضوعية مستقلة عن ذهنه وفكره ، فلنستمع إليه وهو يتحدث عن تفرقة الفلاسفة المشائين بين العلمين : القديم ، والمُحدَّث - (بفتح الدال) - فيقول : إنهم « ليس يرون أنه (أى الله) لا يعلم الجزئيات فقط على النحو الذي نعلمه نحن ، بل ولا الكليات ، فإن الكليات المعلومة عندنا معلولة أيضاً عن طبيعة الوجود ، والأمر في ذلك (أى في العلم القديم) بالعكس » (٢) . وهو موقف جدير بالاهتمام والإبراز ، وذلك لأنه إذا كان علم الإنسان ومعرفته ، سواء منها ماهو كلي أو جزئي ، إنما ينشأ عن الوجود والموجود ، وهي معلولة له وصادرة عنه ، فمعنى ذلك أن الوجود الموضوعي للأشياء إنما هو أمر سابق لوجودها في الأذهان ، وأن ابن رشد قد حدد هنا موقفاً واضحاً وحاسماً من قضية العلاقة بين « الفكر » و « المادة » يعطى السبق والأولية في الوجود والتأثير للوجود الموضوعي للموجودات .

وهو يزيد هذه المسألة حسماً ، ويدعمها بدليل جديد عندما يتحدث عن أن علمنا ومعرفنا إنما تتطور وتتغير بتغير الموجودات الموضوعية ، وذلك أن علمنا معلول للمعلوم به ، فهو مُحدَّث بحدوثه ، ومتغير بتغيره » (٣) ، وذلك لأن « وجود الموجود هو علة وسبب لعلمنا » (٤) ، وأن تغير علمنا إنما هو حتمى عندما تتغير الموجودات الموضوعية « لأن حدود

(١) ابن رشد (ضميمة في العلم الإلهي) ص ٢٩ ط . صبيح « ضمن مجموعة » .

(٢) فصل المقال ص ١١ .

(٣) المصدر السابق ص ١١ .

(٤) ضميمة في العلم الإلهي ص ٢٨ .

التغيير في العلم عند تغير الوجود إنما هو شرط في العلم المعلول عن الوجود ، وهو العلم المحدث^(١) .

بل إننا لنجد لابن رشد صياغات نظرية جيدة في امتيازها ووضوحها يتحدث فيها عن العلاقة ، علاقة التفاعل ، ما بين « الفكر والعمل » وذلك عندما يتحدث عن الغايات التي من أجلها يقدم أهل « المشورة » مشورتهم ، وكيف أن هذه الغايات إنما هي نتائج الأفكار وثمره العمل ، وكيف أن « الأشياء » النافعة إنما هي مقدمات للأفكار فيقول : « ومن أجل أن المشير إنما غرضه المقدم في فكره هو أن يشير بالشئ النافع الذي تلزم عنه واحدة واحدة من هذه الغايات ، وذلك أن هذه الغايات هي أول الفكرة وآخر العمل ، والأشياء النافعة هي آخر الفكرة وأول العمل وأعنى بأول الفكر النتيجة ، وبآخر الفكر المقدمات »^(٢) .

وهذه النصوص التي أشرنا إليها ، والتي أوردنا بعضها ، وإن تكن قليلة ، إلا أن وضوحها وحسمها ، إنما يجعلنا نؤكد ، ونحن على ثقة بما نقول : أن ابن رشد قد وضع لنا أساساً متيناً لنظرية متقدمة في المعرفة ، وهي مازالت تنتظر منا البلورة والتطوير والاستكمال .

(ب) موقفه من السياسة :

والحديث عن موقف ابن رشد من السياسة ونشاطاته في هذا الميدان ، واهتماماته بهذا اللون ، وإن تكن قد أهملت دراستها من قبل عديد من دراسيه ، إلا أن هذا الإهمال لا يمكن أن يعكس ضيقاً في حيز النشاط الذي بذله ابن رشد في نطاقها ، ولا قلة في الأفكار السياسية التي خلفها لنا ، وحفظتها آثاره التي بين أيدينا ، على الرغم من أنها لا تمثل كل ما خلف لنا من آثار .

وإذا كانت الدراسة المتخصصة في هذه الجزئية من جزئيات أفكار ابن رشد ونشاطاته تستطيع أن تقدم الكثير من الصفحات ، بل والفصول عن فكره السياسي ومواقفه السياسية ، فإن هذا الحيز الذي تقدم فيه هذا الحديث يسمح لنا أن نسوق ، فقط ، بعض الإشارات في عدد من النقاط :

(١) المصدر السابق ص ٢٩ .

(٢) تلخيص الحطالة ص ٩٠ .

* فابن رشد قد ألف في السياسة ، وترك لنا أثراً أوقف الحديث فيها ، أساساً ، على الفكر السياسي ، وذلك مثل شرحه لجمهورية أفلاطون ، وجوامع سياسة أفلاطون ، وسواء أكان هذا النص الذي استخدمه هو لأفلاطون أم لأرسطو أم خليطاً من نصوصهما ، إلا أنه حديث في السياسة يعكس إضافة ابن رشد وآراءه ، كما أنه قد شرح عقيدة الإمام المهدي محمد بن تومرت ، إمام دولة الموحدين ، وهي عقيدة ، بسبب من أن صاحبها ، (مهدي) ومؤسس دولة ، ذات جانب سياسي ملفت للأنظار ، كما أنه قد كتب حول الإمامة ، وفي مخطوطة بمكتبة « الأسكوريال » بأسبانيا ، حديث عن بعض مؤلفات ابن رشد ، نجد فيها ذكر لإحدى مقالاته التي يوحى اسمها ، رغم عدم وضوحه بالكامل ، أنها في هذا الموضوع ، موضوع السياسة ، وهي : « مقالة في كيفية دخوله في الأمر ... جل من علوم الإمام ... » .

* كما أن ابن رشد قد أفاض في كثير من ثنايا شروحه على أرسطو وتلخيصاته لآثاره في الحديث عن الأمور السياسية ، ونحن نجد ، مثلاً يتحدث عن أنواع السياسات ، ويقول : إنها « بالجملة أربع : السياسة الجماعية ، وسياسة الحسة ، وسياسة جودة التسلط ، وسياسة الوجدانية ، وهي الكرامية » ، ثم هو يرى أن الهدف من السياسة دائماً إنما هو تنظيم شؤون المجموع لا الفرد « وهذه السياسات كلها المقصود بالسنة الموضوعة فيها ، إنما هو المدينة والكل لا الشخص » ، وبعد أن يتحدث عن كل نوع من أنواع هذه السياسات ، يقول إن « الجماعية هي التي تكون الرياسة فيها بالاتفاق والبخت (الانتخاب) .. إذ كان ليس في هذه المدينة لأحد على أحد فضل » ، وإن سياسة « حسة الرياسة هي التي يتسلط فيها المتسلطون على المدنيين بأداء الأتاوة والتغريم ... على جهة أن تحصل الثروة للرئيس الأول » وأن سياسة « جودة التسلط هي التسلط الذي يكون عن طريق الأدب والافتداء بما توجه السنة » أي التي تكون القوة فيها للقانون ، وإن « وجدانية التسلط هي الرياسة التي يجب الملك أن يتوحد فيها بالكرامة الرياسية ، ولا ينقصه منها شيء بأن يشاركه فيها غيره » .

إن ابن رشد إلى جانب حديثه هذا عن أنواع السياسات ، يزكي بعضها ويشير به ، ويذم بعضها وينفر منه ، فهو يرى في « جودة التسلط » التي يكون « السلطان فيها للقانون وأحكامه النوع » الذي يحصل به صلاح حال أهل المدينة ، والسعادة الإنسانية ، ولذلك كان هؤلاء أهل فضائل واقترار على الأفعال التي تصلح المدينة ، وأهل حزم وتحرز مما شأنه أن يفسد المدينة من خارج أو من داخل ، وإنه إذا كانت الرياسة فيها للأخير ذوى الأفعال الفاضلة عرفت (بالإمامية) وعلى الضد منها تماماً (وجدانية التسلط) والانفراد بالسلطان .

ثم نجده يحكم على كل سياسة ، أولها ، بناء على الهدف منها والغاية المبتغاة من ورائها ، لأنه « ليس ينبغي أن يخفى علينا من هذا الذي رسمنا به هذه السياسات غاية كل واحدة منها ، لأننا إذا عرفنا الغاية علمنا الأشياء المختارة من أجل الغاية ، فغاية السياسة الجماعية : الحرية ، وغاية حسة الرياسة : الثروة ، وغاية جودة التسلط : الفضيلة والتمسك بالسنة ، وغاية الوحدانية : الكرامة ، أى كرامة الحاكم الفرد » .

وإذا كان قد مدح لنا « جودة التسلط » القائمة على سيادة « السنن والقوانين » وسلطانها ، فإنه لاينسى أن يحدد أى نوع من « السنن والقوانين » يجذب ويريد ، وذلك عندما يقول إن « السنن النفيسة الخطيرة هى السنن العادلة ، أعنى الموضوعة فى العدل » ، بل إنه يذهب إلى ما هو أبعد فى العمق والعبقرية عندما يقول : إن مفهوم العدل يختلف من سياسة إلى أخرى باختلاف الهدف من هذه السياسة ، لأن « هذه السنن النفيسة ، أعنى السنن العادلة ، تختلف فى السياسات بحسب اختلاف غايتها .. مثال ذلك أن العدل فى سياسة التغلب : أنه لاشيء على الرئيس إذا لطم الرؤوس ، وفى سياسة الحرية : العدل فى ذلك أن يُلَطَم الرئيس اللطمة التى لطمها » ، أى أن العبرة بالمضمون ، مضمون القانون وكيف يطبق لا بالنصوص والشعارات والصياغات .

ثم لاينسى ابن رشد أن يشير ، بمنطقه الجدلى ، إلى أنه من الخطأ أن يحسب الإنسان أن هذه الأنواع من السياسات التى عددها وأشار إليها ، هى منفصلة عن بعضها تمام الانفصال ، وأن الحدود بينها وبين بعضها والآخر واضحة المعالم والتغاير والتمييز وذلك لأن « هذه السياسات ... ليس تُلقَى بسيطة ، وإنما تُلقَى أكثر من ذلك مركبة ، كالحال فى السياسة الموجودة الآن ، فإنها إذا تُؤمِّلتْ توجد مركبة من فضيلة وكرامة وحرية وتغلب » ،^(١) وهو بذلك يوجه الباحث إلى التنقيب عن المضمون والعناصر التى تتكون منها أنظمة الحكم والقواعد التى تقوم عليها السياسات ، ويحذره من الاكتفاء بمجرد معرفة العنوان .

« ولم يكن حديث ابن رشد فى السياسة مقصوراً فقط على تعليقاته وإضافاته الذكية والمتعددة على شروحه وتلخيصاته ومجاميعه على آثار حكيم اليونان ، بل لقد تعدى الأمر إلى نطاق التطبيق على ظروف عصره ، وتراث السياسة والحكم عند العرب والمسلمين ، ولقد سبق وأشرنا إلى ملاحظته الذكية على تقسيمات أرسطو لأنواع السياسات ، وكيف أبصر ابن رشد أن التفاعل والعلاقات الجدلية والتداخل بين الأنظمة والأنواع المختلفة هو سمة السياسة فى

(١) تلخيص الخطابة ص ١٣٥ - ١٤٠ .

عصره وطابع الأنظمة التي أبصرها وتمثلها في ذلك الحين .

وإذا كان أبو الوليد قد عاش في مجتمع تميز بنفوذ للفقهاء المحافظين غير قليل ، وباستبداد لقادة الجند ، مهدت له ودعمت من أركانه الصراعات المسلحة الدائمة التي كانت قائمة بين العرب في الأندلس وبين أعدائهم في شمال البلاد ، فإنه قد تحدث عن الأضرار السياسية لهذين العنصرين ، « طغيان الكهنة » ، و « طغيان الجند » واستبادهم وتعديهم الحدود التي في إطارها يؤدون للوطن ما عليهم من واجبات ، فهو يتحدث عن أن « طغيان الكهنة هو أسوأ طغيان » وعن أن للجيش اختصاصات محددة يجب أن لا ينحرف عنها أو يتعداها ، إذ « ليس على الجيش واجب غير السهر على حرس الأمة » ، فإذا ما تعدى ذلك ، وتنكر لمسؤولياته المقدسة ، واستبد باقتصاديات البلاد ، وأقطع السلاطين الأرض والقرى ، قال ابن رشد « وتعد إقطاعات الجيش آفة الدول » . ثم لخص هذه الحالة من الخلل في المجتمع بكلمته القاسية عندما قال : « وما يحدث لو أكلت كلاب الراعى غنمه »؟! .

أما النموذج الجيد من أنظمة الحكم والسياسة التي يجيئها ابن رشد ويمنحها إعجابها ، فهو النظام الشورى الذي أقامه العرب المسلمون في شبه الجزيرة العربية قبل أن تسيطر قوانين الوراثة الأموية على معالم التجربة الإسلامية الثورية البكر ، فهو يقول : « وتعد جمهورية العرب القديمة نسخة تامة المطابقة لجمهورية أفلاطون » ، ثم يدين الحكم المطلق والانقلابات التي جاء بها النظام الأموي بقوله : « وقد أفسد معاوية هذا المتل الأعلى الرائع بإقامته حكم بني أمية المطلق ، وفتح تاريخ الانقلابات التي لم تخرج جزيرتنا من نطاقها »^(١) .

* بل إن المحنة الفكرية والاجتماعية والشخصية التي تعرض لها ابن رشد من قبل السلطان في سنة ٥٩١هـ - ١١٩٥م ، والتي نفي فيها من العاصمة ، وأحرقت كتبه ، وحرّم على الناس ، أثناءها ، دراسة الفلسفة ، لتعد هي الأخرى دليلاً جيد البرهنة على مكانته في عالم السياسة ، لا كمفكر فقط ، بل وكقطب من أقطاب النشاط العملي لهذا اللون من ألوان اهتمامات الناس ونشاطاتهم:-

فهو قد كان يومئذ المفكر الكبير صاحب النفوذ في بلاط السلطان ، والذي عهدت إليه الدولة منذ سنة ٥٦٤هـ - ١١٦٩م بإنجاز أكبر مشروع فكري عرفه عصره ، وهو التفسير والتلخيص والتقديم لآثار أرسطو ، ووضعها بين يدي حضارة العرب المسلمين .

(١) ارنست رينان (ابن رشد والرشدية) ص ١٧٠ ، ١٧١ ترجمة عادل زعبيتر . ط . القاهرة سنة ١٩٥٧ م .

وهو الذى قيل « إن من أسباب نكبته هذه اختصاصه » بأبي يحيى « أخى المنصور ، والى قرطبة »^(١) أى أنه كان صاحب وجهة نظر ، وجزءاً من تيار سياسى يعمل على نقل السلطة من المنصور إلى أخيه أبى يحيى ، ومن ثم علماً من أعلام أحد الأحزاب السياسية المتصارعة على السلطة والسلطان .

وهو الذى كان يتحدث إلى السلطان بثقة وكبرياء مستمدين من مكانته الفكرية ، وعندما يناديه يقول له يا أخى ، ويسميه أحياناً : « ملك البربر » مما أحقد عليه السلطان ، لإغفاله « مايتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلو الكتاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق » ولأنه لم يكن ممن « عرف زمانه فَمَانَه ، وميز مكانه فكانه ! »^(٢) ، كما يقولون .

بل إن توقيت وقوع هذه المحنة ليعد كذلك دليلاً على اشتغال أبى الوليد بأمر السياسة العملية فى مجتمعه ، فهى قد حدثت من جانب سلطان لايعادى علوم القدماء وصناعة الحكمة ، ولكنه كان ذاهباً لقتال الأعداء فى شمال البلاد ، ومن ثم كان فى حاجة إلى استرضاء حزب « الفقهاء النصوصيين » وهو حزب كانت له مواقع فكرية ذات صلة وثيقة بمواقف السياسة والإدارة والمصالح والصراعات التى تحفل بها البلاد فى ذلك الحين ، أما رفع هذه المحنة ورد الاعتبار لابن رشد ، فلقد حدث بعد عودة « المنصور » إلى مراكش من رحلة القتال هذه ، وعند ذلك ألغيت مراسم المحنة وعادت لابن رشد حظوته ومكانته فى البلاد من جديد^(٣) .

وإذا كان فى ذلك الدليل ، كل الدليل على أن ابن رشد قد كان صاحب موقف سياسى ، سواء فى مجال النظرية أو التطبيق ، فى الصراع الداخلى بمجتمعه فى بلاد المغرب والأندلس ، فإن مجموع آراء هذا الفيلسوف الكبير ، ومذهبه المتبلور فى مختلف الفروع الفكرية التى انتج فيها ، لتمثل موقفاً سياسياً متعلقاً بصراع الحضارات الذى شهدته عصره ، وعلى أرض الأندلس بالذات ، فالحضارة العربية الإسلامية ، بأفقتها المستنير وطابعها العقلانى وروحها الواقعية ، كانت تخوض صراعاً بلغ حد امتشاق الحسام ضد بقايا التخلف والرجعية وضيق الأفق التى كانت تمثلها الرجعية الكنسية فى أوروبا ، صاحبة محاكم التفتيش وحرق العلماء وتحريم الطب ، ومنع النواخذ الفكرية من الانفتاح على مختلف تيارات الحياة ، ولقد كان ابن رشد

(١) المرجع السابق . ص ٤٣٨ (نقلا عن سيرة ابن رشد التى كتبها الانصارى) .

(٢) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب . ص ٣٨٤ .

(٣) ابن رشد والرشدية . ص ٣٨ .

صاحب موقف محدد وواضح من هذا الصراع ، فلقد وقف إلى جانب الحضارة العربية الإسلامية العقلانية الواقعية ، ضد الكهنوت والتخلف ، وزود ترسانة الفكر العربي الإسلامي بالعديد من الأسلحة في هذا الصراع .

وإن مقارنة بسيطة بين موقفه هذا ، وموقف فيلسوف متصوف كبير ، ومعاصره كمحيي الدين بن عربي (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ - ١١٦٥ - ١٢٤٠ م) الذي وقف من الأديان والحضارات والصراعات موقفاً لا أحسبه ، في النهاية ، إلا مبعأً لمعالم هذه الصراعات بين ما هو متقدم وما هو رجعي ، والذي يلخص مذهبه في ذلك بقوله :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أتى توجهت ركائبه فالجب ديني وإيماني
كما يقول :

عقد الخلائق في الالة عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما عقده^(١)
ولا نحسب الباحث ، رغم إعجابه وإعجابنا بشعرا بن عربي ، إلا واجداً في موقفه هذا ، الذي يقبل كل شيء وكل عقيدة وكل موقف ، موقفاً يطمس معالم التيارات والمعسكرات التي كانت تتصارع في شبه الجزيرة الأيبيرية - « الأندلس » - في ذلك الحين .. وهو موقف متخلف ، ساقى ابن عربي إليه أرضية « الذوق » و « الشهود » التي وقف عليها كمتصوف عملاق ، بينما قاد العقل ، أداة الفيلسوف الأولى ، ابن رشد إلى موقف محدد وواضح المعالم ، إلى جانب كل ما هو متقدم وخير في هذه الصراعات .. وهو موقف حضاري وثيق الصلة بالسياسة إلى حد كبير ..

(ج) موقفه من الحرية :

وقبل ابن رشد كان هناك في الفكر العربي الإسلامي تياران أساسيان أصيلان ، فيما يتعلق بمشكلة الحرية الإنسانية : تيار « الاختيار » الذي يقر للإنسان بحريته ، ويراه صانع أعماله وحياته وتاريخه ، والمسؤول الأول والأخير عن تبعات كل ذلك ، ويمثله في المدارس

(١) ابن عربي (فصوص الحكم) ، ص ٢٨٩ ، تحقيق ودراسة : د. أبو العلا عفيفي ط. القاهرة سنة ١٩٤٦ م .

الفكرية : المعتزلة ، أصحاب العدل والتوحيد ، والثاني : تيار « الجبر » ، الذى يجرد الإنسان من قدرته على الاختيار والفعل وينسب أفعاله إلى الله . ولقد كان هذا التيار « الجبرى » تنوزعه مدرستان ، تغالى إحداهما فى الجبر ، فترى الإنسان كالريشة المعلقة فى مهب الريح ، لاحيلة لها فى الميل فى أى اتجاه من الاتجاهات ، وتخفف المدرسة الجبرية الثانية من صياغتها للقضية . فتنسب للإنسان فعلاً على سبيل المجاز ، وتنسب حقيقة هذا الفعل إلى الله ، وتسمى نصيب الإنسان فى ذلك (بالكسب) ، ولكن تتبع المعتزلة لحجج هذه المدرسة « الجبرية المتوسطة » ، وإتباتهم أن « الكسب » هو لفظ لا معنى له ، ولا حقيقة لوجوده فى هذا المقام ، قد أكد أن أرض الجبرية واحدة ، وموقفهم فى النهاية واحد ، وأن الأشاعرة ، وهم جبرية متوسطة وكذلك علاة الجبرية ، يجمعهم جميعاً موقف معاد لحرية الإنسان ، ونابع من إنكارهم فعالية الأسباب ، وعلاقة المسببات بالأسباب^(١) .

وإذا كان ابن رشد قد هاجم الجبرة عموماً ، وأفرد لتنفيذ حجج الإمام الغزالي كتاباً مستقلاً ، وهو من أئمة الأشاعرة ، فإن موقفه من قضية الحرية لم يكن فى إطار مدرسة الاعتزال كما حددته هذه المدرسة خلال عدة قرون ، فلقد اختلف معهم ابن رشد ، جزئياً ، فى هذا الموضوع .

فنحن نجد يفرق ما بين « الإرادة » المنبثقة من داخل الإنسان ، والصادرة عن شوق للفعل أو الترك ، نابع من تخيل أمر ما أو تصديقه ، وبين تحقيق هذه الإرادة فى الواقع والتطبيق ، فالإنسان حر مختار فى الإرادة ، أما تطبيق الإرادة وفعل المراد فهو محكوم بما يحيط بالفاعل من ظروف موضوعية وحقائق مادية فى الحياة^(٢) .

بل إن هذه الإرادة المنبثقة من الداخل قد رآها ابن رشد ثمرة لعاملين : أحدهما داخلى مرتبط بالتكوين الداخلى للإنسان ، والثانى انعكاس للظروف الخارجية المحيطة بالإنسان المرید^(٣) .

وإذا كانت هذه « القيود » و « الإلزامات » التى رآها ابن رشد مثقلة لإرادة الإنسان الحر المختار ، إنما ترجع أساساً للوزن الذى أعطاه للظروف الموضوعية المحيطة بالإنسان المرید ، وإلى

(١) انظر فى تصويلات هذه القضايا ، وآراء الفرق فيها كتابنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) طبعه بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - سنة ١٩٧٢ م .

(٢) مناهج الأدلة فى عقائد الملة ص ٢٢٢ - ٢٣٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٦ .

إيمان ابن رشد المطلق بالعلاقة القائمة بين الأسباب والمسببات ، فإنه لا يمكن أن نتوهم أن موقفه هذا « يقترب من حل الأشاعرة » لهذه القضية ، وأن نظرتة هذه « تقترب من نظرة الأشعرى والغزالي »^(١) ، كما تصور ذلك بعض الدارسين ، لأن « القيود » التي أبصرها ابن رشد على حرية الإنسان إنما تنبع من إبطاره لفعاليات الظروف الموضوعية على تصرفاته ، وعلاقة الأسباب بالمسببات ، بينا « إلغاء » الأشاعرة ، عملياً ، لحرية الإنسان ، نابع من إنكارهم لفعاليات الأسباب وعلاقتها بالمسببات ، فهما على طرفي نقيض .

ولعل الذى زحج ابن رشد جزئياً ، عن أرض المعتزلة ، بصدد هذه القضية الهامة ، إنما هو الوزن الكبير ، نسبياً ، الذى أعطاه للظروف المحيطة بالإنسان ، على حساب حرية هذا الإنسان وقدرته على الفعل والاختيار ، وهو الذى قرّبه كثيراً من أصحاب « الحتمية فى الطبيعة »^(٢) .

فهو لم يكن معتزلياً تماماً ، وإن كنت اعتقد أن شقة الخلاف بينهم وبينه فى هذا الباب من الممكن أن تضيّق جدلاً بعد دراسة مقارنة ما بين « الأسباب الموضوعية » المؤثرة على حرية الإنسان ، عند ابن رشد ، وما بين « الألفاظ » الإلهية عند مدرسة الاعتزال^(٣) كما أن ابن رشد قد رفض الموقف الأشعرى بكل إصرار ، عندما رأى أن « الإنسان ليس مختاراً مطلقاً ، ولا مقدراً عليه مطلقاً ، أى أن الاختيار تام غير مقيد فى النفس ، وإنما هو محدد بقدر الأحوال الخارجية ، وتكون العلة الفاعلة لأعمالنا فى أنفسنا ، ولكن العلة الموجبة خارجة عنا »^(٤) ، وهو موقف متميز ، وإضافة من إضافات ابن رشد إلى فكرنا السياسى الذى أغناه بكثير من الاجتهادات .

(د) موقفه من المرأة :

أما عن موقفه من المرأة ، ومن رأى المجتمع فيها ، ونظرة الرجل إليها ، وقضية تحررها من القيود التى تراكمت على فعاليتها وضميرها بمرور القرون والحضارات ، فإنه موقف بالغ درجة قصوى من العمق والنضوج .

(١) عبده الحلو (ابن رشد فيلسوف المغرب) - ص ٨١ . ٠٨٢ ط . بيروت سنة ١٩٦٠ م .

(٢) مناهج الأدلة فى عقائد الملة ص ٢٢٦ .

(٣) القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمداني (الغنى فى أبواب التوحيد والعدل) ج ١٣ تحقيق د . أبو العلا عفيفى . ط . القاهرة .

(٤) ابن رشد والرشدية ص ١٦٩ .

فهو يفرق ما بين الاختلافات « الطبيعية » وما بين الاختلاف في « الدرجة » بين من يتفوقون في « الطبيعة الواحدة » ، ويرى أن للإنسان ، رجلاً كان أو امرأة ، « طبيعة واحدة » ، وأن الاختلاف بينهما إنما هو في « الدرجة » فقط ، وأنه إذا كانت هذه الاختلافات في « الدرجة » قد جعلت للرجل امتيازاً في بعض المجالات فإنها قد جعلت للمرأة ميزات تفوقت بها عليه في أنحاء أخرى ، وذلك عندما يقول : « وتختلف النساء عن الرجال درجة لا طبيعة ، وهن أهل لكل ما يفعل الرجال من حرب وفلسفة .. الخ .. الخ .. ولكن على درجة دون درجتهم ، وهن يفقهن أحياناً كما في الموسيقى »^(١) .

أما عن الأوضاع المزرية التي وصلت إليها المرأة في عصره الإقطاعي ، فإنه يرى أن سببها ميراث حالة من العبودية دامت قروناً طويلة ، وهي حالة اجتماعية ، ومن ثم فإن تغيرها هو أمر ممكن . بل إن ابن رشد يدعوننا إلى هذا التغيير عندما يبنه على أن وضع المرأة هذا إنما هو سبب في « البؤس الذي يلتهم مدننا » بسبب كثرة النساء العاجزات عن الإسهام في الحضارة بما يمكن أن يكون لديهن من قدرات وإمكانات ، وليس هذا فحسب ، بل لقد تحولن إلى عبء على كد الرجال وكسبهم . وهو في هذا الباب يقول : « لا تدعنا حالنا الاجتماعية نبصر كل ما يوجد في إمكانات المرأة . ويظهر أنهن لم يخلقن لغير الولادة وإرضاع الأولاد ، وقد قضت هذه الحال من العبودية فيهن على قدرة القيام بجلائل الأعمال ، ولذا فإننا لا نرى بيننا امرأة مزينة بفضائل خلقية ، وتمر حياتهن كما تمر حياة النباتات ، وهن في كفالة أزواجهن أنفسهن ، ومن هنا أيضاً أتى البؤس الذي يلتهم مدننا ، وذلك أن عدد النساء فيها ضعف عدد الرجال ، ولا يستطيعن كسب الحاجي بعملهن »^(٢) .

وهذا موقف من أعمق المواقف الفكرية التي تناولت قضية المرأة وتحريرها منذ عدة قرون وربطتها بالإنتاج والاقتصاد ، وهو دليل على شمول الموقف الرشدي لأنحاء كثيرة من المجتمع ، وإسهامه إسهامات هامة في محاولات التغيير والتقوم والإصلاح لحياة الناس ومجتمعهم في ذلك الحين .

(١) المرجع السابق ص ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧١ (والنص منقول عن « طبيعيات » ابن رشد « ص ٥٠١ ») .

٤ - ابن رشد بين الشرق والغرب :

في الصراع الفكري المرير الذي شهدته العصور الوسطى بين الرجعية الكنسية في أوروبا وبين الاتجاه العقلاني الناضج في البحث والتفكير، كانت حملات الرجعية لا تفتأ تنصب وتوجه ضد ابن رشد وآرائه ، باعتباره الروح التي بعث من خلالها أرسطو ، وصاحب الإضافات الحثافة التي تمجد العقل وتستنكر الخرافة وتعلمي من قدر الإنسان .

وعندما سادت العالم العربي والإسلامي روح التعصب التركي وضيق الأفق العثماني أخذت الدوائر الفكرية الرسمية من ابن رشد نفس الموقف ، وامتدت على طول الجبهة الفكرية العالمية خطوط المواجهة ما بين فلسفة أبي الوليد العقلية وبين الرجعيين ورجال الكهنوت والشعوذة والخرافات .

وليس غريباً أن يكون كتاب (خنجر الإيمان) الذي ألفه « ريمون المرتيني » ضد الإسلام ونظراته العقلية ، وضد العروبة وحضارتها ، ولا سيما نظريات ابن رشد ، تكاد براهينه كلها أن تكون « مقتبسة من الغزالي ، وذلك لقوله : أنه يحسن تفنيد الفلاسفة بفيلسوف »^(١) .
وليس غريباً أن تقف « باريس » و « الآستانة » لعدة قرون نفس الموقف من مؤلفات ابن رشد وآرائه ونظرياته ، فتقف الأولى مترعمة الحملة ضد أبي الوليد :

* فيحرم مجلس أساتذة دراسات اللاهوت المسيحي في سنة ١٢٦٩ م برئاسة « اتيان تانبيه » على الناس ثلاث عشرة قضية ، جميعها من قضايا فلسفة ابن رشد^(٢) .
* ويشهد نفس القرن إحراق كتبه وتحريم تدريس آثاره العقلية في جامعة باريس^(٣) .
* وتترجم حملة من الهجوم على ابن رشد وفلسفته بواسطة اللوحات « الفنية » التي أخذت تشهدها الكنائس ، و « بيدعها الفنانون » مثل لوحة « اندره أركانيا » سنة ١٣٣٥ م ، ولوحة « بوفلماكو » ، ولوحة « فرنسيسكو تريني » سنة ١٣٤٠ م وغيرهم من الرسامين^(٤) .
* ويمر قرن من الزمان (١٤٨٠ - ١٥٨٠ م) فلا تطبع فيه باريس لابن رشد سوى كتاب

(١) المرجع السابق . ص ٢٥٨ .

(٢) المرجع السابق . ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٣) ابن رشد فيلسوف المغرب ص ٨٧ .

(٤) ابن رشد والرشدية ص ٣١١ - ٣١٦ .

واحد ، بينما تطبع « ليون » وحدها أعماله الكاملة خمس طبعات خلال ثمانية عشر عاماً (١٥٢٤ - ١٥٤٢ م) .

فإذا جاء دور « الآستانة » ، عاصمة آل عثمان ، وجدناها لا تعرف ابن رشد ولا تحفل به ، ولا ترى فيه محافلها الفكرية ما يستحق الدرس أو الذكر أو التنويه :

« فهي تصنع معه ما صنعه « ابن خلكان » و « الصفدى » و « عبد اللطيف البغدادى » عندما أغفلوه وتحاشوا ذكره فى تأليفهم عن عظماء رجال الإسلام .

« وهى لا تطبع له كتاباً واحداً خلال قرون عدة تربعت فيها على قلب الزعامة للعرب والمسلمين .

« فاذا ما أرخ مؤرخها الفذ « حاجى خليفة » للفكر العربى الإسلامى فى « بيبليوجرافيته » القيمة (كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون) لم نجد ذكراً ابن رشد إلا بطريق العرض فى موضعين :

(أ) عندما جاء ذكر أرجوزة « ابن سينا » فى الطب ، قال : إن ابن رشد شرحها .
(ب) وعندما عرض لكتاب الغزالى (تهافت الفلاسفة) تحدث عنه فى ١٣٢ سطراً ، وأشار إلى رد ابن رشد عليه فى (تهافت التهافت) فى ستة أسطر فقط لا غير^(١) .

وليس ذلك بالغريب على « باريس » مهد النشاط الكنسى المعادى للحضارة العربية والمؤجج لنار الحروب الصليبية - ولا هو بالغريب على عاصمة التخلف الفكرى التى حكم منها العثمانيون .

وكما رأينا الحملات الشديدة القسوة والاتهامات الباطلة التى وجهتها الأوساط الرجعية الكنسية فى أوروبا ضد فلسفة ابن رشد ، فإننا نجد نفس النغمت ترددها أوساط شرقية ، بصرف النظر عن اختلاف المذاهب والحضارات ، فىرى البعض فيه منكرًا لعالم ما بعد الموت وما فيه من ثواب وعقاب ، كما يرى فيه البعض « أبعد فلاسفة العرب عن الإسلام بعد أبى العلاء »^(٢) ومنهم من رأى فيه فيلسوفًا مادياً ملحدًا منكرًا لكل الأديان^(٣) .

ولكن ابن رشد قد وقفت إلى جواره ، ودافعت عنه وعن فلسفته قوى كثيرة آمنت بالعقل

(١) كشف الظنون ج١ ، ص ٦٣ ، ٥٠٩ - ٥١٣ .

(٢) الأب يوحنا قر (ابن رشد) ج٢ ، ص ٢٢ ، ٣١ ط . بيروت .

(٣) فرح أنطون (ابن رشد وفلسفته) ط . الاسكندرية سنة ١٩٠٣ م .

وناضلت من أجل سيادة معاييرها ومعطياتها ، سواء في أوروبا أو في بلاد العرب المسلمين .

في كثير من المدن الأوروبية طبعت أعمال ابن رشد ، وخاصة شروحه على أرسطو ، طبعت كثيرة ومتعددة ، لم تشهد العربية ما يقارنها أو يدانيها بالنسبة لهذه المؤلفات .

وفي قلب المجتمعات الأوروبية قامت ونمت تلك الحركة الفكرية التي بذرت بذور عصر النهضة ، والتي صارعت فكريات العصور الوسطى ، وهي الحركة التي اتخذت من أبي الوليد قائداً لها - حيناً ، وستاراً لفكرها حيناً آخر - ، والتي عرفت باسم «الرشديين اللاتين» ، والتي نسبت حتى آراءها الخاصة في بعض الأحيان ، لمذهب أبي الوليد .

بل إننا نجد الحركة الدينية التي مثلتها «المدرسة الفرنسيسكانية» ، والتي وقفت في الطرف الآخر من «الحركة الدمينيكانية» ، نجدتها تتبنى الفلسفة العربية وتحتضن الكثير من قضايا ابن رشد ، وتنازل في سبيل ذلك «غليوم الأفرني» و«البرت الكبير» (١٢٠٦ - ١٢٨٠ م) والقديس «توما الأكويني» (١٢٢٥ - ١٣٧٤ م) وغيرهم من متكلمي اللاهوت المسيحي في القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي - وذلك هو الأهم - قد عكست في نشاطها العملي روح الحضارة العربية ، فارتبطت بأصول شعبية ، ونمت في صفوفها الأفكار «الديموقراطية» وعلاقات «الإخاء والمساواة» ، واهتمت بجاهير الفقراء والمستضعفين ، مما يعطى الصراع بين أنصار ابن رشد وخصومه أبعاداً اجتماعية تحتاج إلى مزيد من الدراسة والاستيعاب .

وعلى الجبهة العربية الإسلامية ، نجد سنوات عصر البعث والإحياء في القرن التاسع عشر ، تشهد عودة اسم أبي الوليد ابن رشد وبعض كتبه إلى مجرى الفكر العربي الإسلامي .

كما نجد تعاطف جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) مع فلسفته وملاحظاته الذكية عن دوره في الفكر العربي الإسلامي^(١) ، ومعه ومن بعده يقف نفس الموقف ، ويجلاء أوضح ، الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) في دفاعه عن أبي الوليد^(٢) .

إلا أن الإنصاف والموضوعية ، وتبعتهما التي يحملها ضمير المثقف العربي ، لا يمكن أن

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ١٠٥ دراسة وتقديم د. محمد عارة . ط . القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(٢) مجلة (المنار) سنة ١٩٠٣ م . سلسلة مقالات الشيخ محمد عبده التي رد بها على فرح أنطون حول فلسفة ابن رشد . ولقد نشرناها ضمن (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) طبعة بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - سنة

تجعلنا نستشعر الرضى عن أنفسنا قبل أن نرى الأعمال الكاملة لابن رشد فى المكتبة العربية وبين يدي مفكرينا ومثقفينا ، تذكى فيهم الروح العقلى ، وتنمى فيهم التيار العلمى ، وتستحث خطاهم إلى ارتياد المجهول واقتحام المناطق الفكرية البكرواستخراج المجهول من المعلوم ، ذلك لأن الدور الذى مثلته أفكار ابن رشد ، والعبء الذى نهضت به فى عصر الإحياء الأوروبى لازلنا فى انتظار إتاحة الفرصة لابن رشد كى يقوم به فى حضارتنا المعاصرة حتى الآن .

وقديماً ، عندما أخذت أوروبا تتحسس خطاها نحو عصر النهضة ، اتخذت من ابن رشد قائداً وإماماً إلى تراثها اليونانى ، حتى إذا ما أخذت فى النضج وأحست بالاستقلال الفكرى والحضارى تخطت ابن رشد وشروحه على أرسطو ، وعادت تعترف من المنابع الأصيلة لليونان والإغريق ، وبشكل مباشر ، دون ما واسطة من العرب والمسلمين ، ووجدنا من يكتب فى القرن السادس عشر ، فى تقديمه لأعمال ابن رشد ، قائلاً : « كان أجدادنا لا يجدون أمراً بارعاً فى الفلسفة أو الطب إلا والعرب مصدره ، أما جيلنا فيدوس على علم العرب ، ولا يعجب بغير ما يستخرج من كنوز اليونان ، وهو لا يريد غير اليونان أساتذة فى الطب والفلسفة والبرهنة » (١) .

وعلى الرغم من أن كاتب هذه الكلمات إنما كان ينتقد ذلك الغلو فى التعلق المباشر باليونان ، إلا أنه قد عكس لنا صنيع ذلك الجيل من الأوربيين .

ونحن اليوم لا نريد أن ندوس علم أوروبا ، ولا أن نرفض ما فى حضارتها من جوانب إيجابية متقدمة وعملاقة ، ولا أن نتعصب لتراثنا تعصباً أعمى ، يلهينا عن نقده وفرزه ، والتمييز ما بين الطيب وغير الطيب من صفحاته وكنوزه ، وإنما الذى نريده هو أن نصل عصر بعثنا وإحيائنا الراهن بعصر حضارتنا الذهبى ، والذى كان ابن رشد كوكباً من ألمع كواكبه ، وعلماً من أكثر أعلامه وضوحاً وجلاءً وتأثيراً فى عقل الإنسانية جمعاء ، لأن ذلك هو الضمان لثبات خطانا على الدرب ، ولصنع « النكهة الخاصة » بحضارتنا ، ولجعل الجماهير العربية تواكب فكرنا العلمى والفلسفى الذى لا بد لمتقفينا ومفكرينا من إشاعته فى صفوف الجماهير (٢) .

* * *

(١) ابن رشد والرشدية ص ٣٩١ (والكلمات لتوما جيوتنا) سنة ١٥٥٢ م .

(٢) انظر القائمة التى أحصينا فيها آثار ابن رشد فى نهاية كتابنا (المادية والمتالية فى فلسفة ابن رشد) وكذلك دراستنا عن

(الموقف من التراث العقلانى لابن رشد) مجلة (الكاتب) عدد أغسطس سنة ١٩٧٣ م .

- ١٢ -

العز بن عبد السلام

[٥٧٧ - ٦٦٠ هـ - ١١٨١ - ١٢٦٢ م]

ضد الخرافة والظلم والجمود

حياته في سطور :

- * هو : أبو محمد عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمى .
- * ولد بدمشق في سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) وتوفى بالقاهرة في العاشر من جمادى الأولى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) فامتدت حياته من عصر صلاح الدين الأيوبي حتى مضي سنة ونصف على حكم الظاهر بيبرس البندقدارى في دولة المماليك .
- * كان شافعى المذهب الفقهى ، أشعري المذهب الكلامى ، ولقد درس الفقه على الإمام « فخر الدين بن عساكر » ، وقرأ الأصول على « الآمدى » ، وسمع الحديث من مجموعة من العلماء المحدثين ، منهم الحافظ « أبو محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم بن عساكر » ، وشيخ الشيوخ « عبد اللطيف بن إسماعيل بن أبي سعد البغدادى » ، وعمر بن محمد بن طبرزد ، وحنبل بن عبد الله الرصافى ، والقاضى عبد الصمد بن محمد الحرسانى ، كما حضر على بركات بن إبراهيم الخشوعى ، والشيخ المتصوف شهاب الدين السهروردى .
- * وأخذ عنه العلم وتلمذ عليه كوكبة من علماء عصره ، منهم شيخ الإسلام ابن دقيق العيد ، والإمام علاء الدين أبو الحسن الباجى ، والشيخ تاج الدين بن الفركاح ، والحافظ أبو محمد الدمياطى ، والحافظ أبو بكر محمد بن يوسف بن مسرى ، والعلامة أحمد أبو العباسى الدشناوى ، والعلامة أبو محمد هبة الله القفطى ، والعلامة أحمد بن إدريس القرافى .
- * هاجر من الشام إلى مصر سنة ٦٣٩ هـ ١٢٤١ م بسبب مناهضته للسلطان « الصالح إسماعيل » ، الذى تعاون مع الصليبيين ضد مصر وسلطانها « الصالح نجم الدين أيوب » .

* كان أبرز علماء عصره ، وأشهر من تصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه ، ولقب بألقاب عدة من أشهرها لقب « شيخ الإسلام » ولقب « سلطان العلماء » ، وقيل عنه إنه كان أفقه من الإمام الغزالي .

* اشتغل بتدريس الفقه والعلوم الإسلامية في « الزاوية الغزالية » بدمشق ، وتولى الخطابة والإمامة بالجامع الأموي بها ، وذلك إلى جانب قيامه بمنصب مفتي الشام ، وفي مصر بعد هجرته إليها تولى التدريس لفقه الشافعي بالمدرسة الصالحية التي أنشئت بين القصرين سنة ٦٣٩ هـ ، وتولى منصب الإفتاء بمصر ، إذ تنازل له عنه الشيخ عبد العظيم المنذرى ، وقال : « كنا نفق قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما بعد حضوره فمُنصب الفتيا متعين فيه » ، كما تولى مناصب الخطابة والإمامة بجامع عمرو بن العاص ، والقيام على عمارة المساجد بالدولة ، وقاضي القضاة بمصر والوجه القبلي في ١٠ جمادى الأولى سنة ٦٣٩ هـ . إلى جانب مواقفه الوطنية والقومية كانت له مواقف اجتماعية تجلت في عدد من المناسبات التي تعرضت فيها البلاد للغلاء أو الأزمات .. ففي دمشق ، مثلاً ، وقعت مرة أزمة شديدة « حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل ، فأعطته زوجته مصاعاً لها ، وقالت : اشترى لنا به بستاناً نصيِّف به ، فأخذ ذلك المصاغ وباعه وتصدق بثمانه ، فقالت : يا سيدي ، اشترت لنا ، قال : نعم ، بستاناً في الجنة !! إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمانه » .. كما كان داعية للمساواة بين العامة والحكام في تحمل عبء الجهاد في سبيل تحرير الوطن من التتار .

* وإلى جانب جرأته في الحق ، وشدته في معاملة الحكام ، كان شديداً على نفسه في تطبيق نفس المقاييس ، فلقد أفتى مرة بشيء ، ثم ظهر له أنه قد أخطأ في فتياه ، فأخذ ينادى بنفسه على نفسه في مصر والقاهرة ، فيقول : من أفتى له العزيز عبد السلام بكذا فلا يعمل به ، فإنه قد أخطأ ! ، وهو نوع من « النقد الذاتي » طبقه بأسلوب عصره .. لم تشغله مناصبه العديدة ، ونشاط حياته العملي عن العمل الفكري ، فدخل في معارك فكرية كثيرة وخصبة ضد فئة رجعية من الحنابلة بدمشق ، وضد شيخ دار الحديث الإمام أبي عمرو بن الصلاح ، وضد راعي الطريقة الحريرية الشيخ علي الحريري ، كما ترك العديد من المؤلفات والمصنفات منها :

(٢) مختصر القواعد الكبرى .

(١) كتاب القواعد الكبرى

(٤) مختصر مجاز القرآن .

(٣) كتاب مجاز القرآن .

- (٥) شجرة المعارف .
 (٦) كتاب الدلائل المتعلقة بالملائكة
 والنبين والخلق .
 (٧) التفسير .
 (٨) الغاية في اختصار النهاية .
 (٩) مختصر صحيح مسلم .
 (١٠) مختصر رعاية المحاسبي .
 (١١) الإمام في أدلة الأحكام .
 (١٢) بيان أحوال الناس يوم القيامة .
 (١٣) بداية السؤل في تفضيل الرسول .
 (١٤) الفرق بين الإيمان والإسلام .
 (١٥) فوائد البلوى والحنن .
 (١٦) الجمع بين الحاوى والنهاية .
 (١٧) الفتاوى الموصلية .
 (١٨) الفتاوى المصرية .

* لعب دوراً هاماً في تحقيق النصر على التتار في « عين جالوت » ومن قبل ذلك على الصليبيين في « دمياط » و « المنصورة » .
 * كان العز مرهوباً من سلاطين عصره ، مطاع الكلمة فيهم ، وعندما مرت جنازته من تحت أسوار القلعة ، وشاهد الملك الظاهر بيبرس الجاهير الغفيرة التي تشيع جثمانه قال لبعض خواصه : « اليوم استقر أمرى في الملك ! »..^(١)

* * *

عصر جامد يضيق بالمحافظين :

كثيراً ما يلح في ذهن الباحث وصدره سؤال يتململ طالباً الجواب : لماذا كان صلاح الدين الأيوبي ، وهو البطل القومي الذي دفع عن العالم العربي الإسلامي أطول عملية من عمليات الغزو والاستعمار والاستيطان ، لماذا كان هذا البطل الذي تحقق لذكريات انتصاراته قلوب الأمة العربية والشعوب الإسلامية ، ويتغنى باسمه المناضلون العرب حتى في عصرنا الحديث ، والذي نال احترام الأعداء في مواقف بطولية وإنسانية تغلب فيها على شهوات النفس في الانتقام ، لماذا كان هذا الرجل محافظ التفكير فيما يتعلق بشؤون الفكر والبحث والاعتقاد . ولماذا استمر هذا الطابع من بعده في الدولة الأيوبية ودولة المماليك ؟؟ .

(١) راجع في ذلك كله : طبقات الشافعية الكبرى ، للسبكي ج ٥ الطبعة الأولى بالقاهرة ص ٨٠ ، ١٠٥ ، وطبقات الشافعية ، لأبي بكر بن هداية الله الحسيني الملقب بالمصنف . طبعة بغداد سنة ١٣٥٦ هـ . ص ٨٥ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٧ . طبعة دار الكتب المصرية ص ٢٠٨ ، ومفتاح السعادة ج ٢ لطاش كبرى زاده . طبعة الهند الأولى ص ٢١٢ .

ألأنه كردى الأصل ؟ .. كلا ، الحضارة العربية الإسلامية قد طوعت كل الأجناس والعروق بالنسبة للذين دانوا بها وارتضوها نمط حياة ومنهج تفكير ، ونحن نجد فى الفارابى (٨٧٤ - ٩٥٠ م ٢٦٠ - ٣٣٩ هـ) ، وهو من أصل تركى ، عقلاً أكثر تقدماً من الغزالى (١٠٥٨ - ١١١١ م ٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) الذى كان من أصل فارسى ، ومن سلالة شعب عريق الحضارة . بما لا يسمح بالمقارنة بينه وبين الأتراك .

ألأنه من رجالات السيف الذين استهوتهم صناعة الحرب ؟ .. كلا ، فى التاريخ العربى الإسلامى كثير وكثير جداً من فادة الزنج والخوارج والمغزلة الذين حاضوا عمار الحروب ، وبعضهم كانت حياته سلسلة متصلة من الهجوم والدفاع ، ومع ذلك كانت نظرتهم الفكرية وموقفهم الاعتقادى متقدماً بالسببة لعصرهم ، ومنحازاً إلى معطيات العقل والبرهان .

إذن ، لماذا كان صلاح الدين ، البطل القومى ، إنساناً محافظاً فى تفكيره ؟ ، ولماذا كانت الدولة الأيوبية بأسرها صاحبة موقف منحاز للتيار المحافظ فى الفكر العربى الإسلامى ؟ ..

إن حقيقة هذا السبب ، وجواب هذا السؤال ، فى تقديرنا ، إنما يكمن فى طيات ذلك الأثر الذى أحدثته الأخطار الصليبية فى الوطن العربى فى ذلك الحين . ذلك لأن تجربة عالمنا العربى الإسلامى مع هذا الخطر الصليبي الذى استمر نحو قرنين من الزمان ، والذى تحول من خطر خارجى وافد من خارج المنطقة ، فى البداية ، إلى خطر داخلى أكثر فاعلية فى إمكانات تدميره لعوامل وحدتنا وتقدمنا ، إن تجربة عالمنا العربى الإسلامى مع هذا الخطر قد أثبتت أن على نتائج صراعنا ضده تتوقف نوعية الإجابة على سؤال يتلخص فى كلمتين : نكون ، أو لا نكون ؟ .. ذلك لأن القوى الإقطاعية الأوروبية الباحثة وراء التوسع والاستعمار والاستيطان ، فد أرادت تصفية الحساب فى العالم العربى ، فسعت لذلك متحالفة مع بورجوازيات المدن التجارية الأوروبية الساعية للسيطرة على الطرق الشرقية للتجارة العالمية التقليدية ، مستعينين جميعاً بالرجعية الكنسية الكهنوتية التى زلزل الأرض من تحت أقدامها الفكر العربى التقدمى المستنير الذى عبر إليها البحر المتوسط وسلط إشعاعاته على أوكارها من خلال جامعات الأندلس ، وقذف فى صدورنا بالفكر اليونانى المتطور بعد أن قبرت أصوله بحجة محاربة الوثنية ، فإذا بها تجد العرب قد بعثوا لها أرسطو وأفلاطون وغيرهما متمصين للفارابى وابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧ م - ٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) وابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨ م ٥٢٠ - ٥٩٥ هـ) ، وغيرهم من الذين عكروا عليها صفو الاستمتاع بالخرافات ، وهدوء قيادتها لموكب القطيع البشرى الذى سيطرت على مقدراته عدة قرون .

إن كل هذه القوى قد رأت في الحروب الصليبية تكراراً لزحف الإسكندر الأكبر على الشرق ، وكما كان زحفه هذا مدناً صد تم طارد موجة الغزو الفارسي القديم تجاه الغرب . فإنها قد رأت أن حملاتها الصليبية على بلاد العرب المسلمين إنما هي ثار من تلك الفتوحات الإسلامية التي انتزعت من الروم مستعمراتهم ، وبنت فيها للعرب إمبراطورية واسعة الأرجاء .. ومن هنا كان إحساس العالم العربي تجاه هذه الحملات هو إحساس الكيان المههد بخطر أن لا يكون ، بخطر الفناء والزوال بفعل الإبادة الجماعية التي كان يمارسها الصليبيون البرابرة في المناطق التي احتلوها في الشام ، وأقاموا فيها استعماراً استيطانياً لاتينياً .

وعندما يواجه مجتمع من المجتمعات خطر الإبادة والزوال ، فنادرًا ما يلجأ إلى العقل والمنطق والفلسفة والبحث في العلوم الإلهية والإبداع في الإنسانيات ، ونادرًا ما يتبع لكل هذه العلوم الجو الملائم لها كي تزدهر ، والحريات الواسعة كي تؤتي أشهى أنواع الثمار ، وإذا جاز لنا أن نفكر اليوم في مثل هذا الطريق ، طريق الحضارة ، وسيلة يلجأ إليها المجتمع الذي تحدى به الأخطار الكبار ، فما نظن أن في عصورنا الوسطى من كان لديه الخيال الجامح كي يرى في هذا الطريق السبيل الأمثل لمواجهة أخطار الصليبيين ، فلم يكن أمام العرب المسلمين سوى الجيوش والسلاح ، ومن ثم إسكات كل الأصوات حتى لا يتعمر الجو على صليل السيوف ووقع حوافر الجياد ، ومن ثم النظر برؤية وشك وحذر ، بل وعداء ، إلى كل الذين يريدون للعقل أن يفكر طويلاً وعميقاً وكثيراً ، فضلاً عن أن يسود ! .

فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن القوات الضاربة المسلحة لعالمنا العربي الإسلامي كانت قد أصيبت بداء الاعتماد الأساسي ، وأحياناً الكلي ، على الجنود الغرباء المرتزقة ، الغرباء : عن روح الحضارة العربية الإسلامية العقلانية المتقدمة ، والمرتزقة : الذين لا يرون في الوطن أكثر من إقطاع يتيح لهم الترف وقضاء الأوطار ، وأن ذلك قد ساد هذه الساحات منذ خلافة الخليفة العباسي المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢ م) ، ثم دعمت منه في هذه المرحلة التي نتحدث عنها أن اليقظة التي بدأت تأخذ زمام المبادرة في مواجهة الصليبيين قد جاءت على يد دولة « الأتابكة » في الموصل ، مما جعل للعنصر التركي في هذه القوات الضاربة اليد العليا ، إذا وعينا كل ذلك أدركنا لماذا خلقت الدولة الأيوبية ، ومن بعدها المماليك ، أوسع حركة قامت بأعظم نشاط على الجبهة العسكرية ، فأحرزت العديد من الانتصارات ضد الصليبيين ، ولماذا صنعت أكبر قدر من السكون القاتل على الجبهة الفكرية ، فكثبت بذلك السيادة للمذهب السني - في صورته الجامدة المحافظة - الذي يكتفي بما هو ظاهر من النصوص ، دون أن يجتهد

ليجهد العقل وملكاته في التأويل لهذه النصوص ، فضلاً عن أن يبدأ التفكير والتفلسف من منطلق آخر غير منطلق النصوص ! .

ونحن ، وعياً منا لمنطق ذلك العصر ، وإدراكاً منا لعمق الأخطار التي كانت تمثلها حملات الصليبيين وكياناتهم في وطننا العربي ، لا نجد غرابة في حدوث الذي حدث ولا في الطابع الذي طبع عصر الأيوبيين والمماليك بالجمود الفكري ، إلى حد كبير .. بل ما لنا نذهب بعيداً ونرى أن هذا الطابع الفكري هو فقط ثمرة أخطار الصليبيين ، أليست الدولة الأيوبية ذاتها ثمرة لهذه الأخطار ؟ لقد بدأت في مصر جيشاً من « الغز » و « الأتراك » ، جاءوا وأقطعوا أرضها لأنفسهم كي يحموها من الصليبيين ! ، وعاشت حتى نهاية عهدها في معارك شبه متصلة مع الصليبيين ، بدأت بانتصار أسد الدين شيركوه على جيش الصليبيين الذي جاء قاصداً القاهرة سنة ٥٦٤ هـ ١١٦٨ م ، وانتصار صلاح الدين على أسطولهم الذي جاء دمياط سنة ٥٦٥ هـ ١١٦٩ - ١١٧٠ م ، وانتهت كذلك بانتصار أحرزته بواسطة المماليك على لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠ م في المنصورة .

ولعله مما يعطينا ثقة أكثر في صدق تحليلنا هذا ، ذلك العموم شبه المطلق الذي جعل هذه الحالة تنسحب على تاريخنا العربي الإسلامي قرونًا طويلة بعد العصر الأيوبي ، فخلال ما يقرب من نصف قرن (٦٥٦ - ٧٠٠ هـ ١٢٥٨ - ١٣٠٠ م) عرف العالم العربي ، إلى جانب الخطر الصليبي ، خطر المغول القادم من الشرق والشمال الشرق ، والذي تحالف قاده حيناً من الدهر مع الصليبيين ، مما جعل الوضع في العالم العربي يتطلب موجة جديدة وفتية من الفرسان والجنود لصده هذه الأخطار ، ولقد تمثلت هذه الموجة يومئذٍ في دولة المماليك .. ونحن لا نغالي إذا قلنا : إن هذا المناخ الفكري الشديد المحافظة إلى حد الجمود ، الذي بدأ دورته هذه مع الدولة الأيوبية ، قد ظل سائداً ، على وجه الإجمال ، حتى دخول بلادنا العصر الحديث في النصف الأول من القرن الماضي .

* * *

ولقد بلغ من شدة بروز هذه القسيمات الجامدة والمحافظة . وسيادتها في العصرين الأيوبي والمملوكي ذلك الضيق الذي استقبلت به هذه البيئة فكر العزيز عبد السلام ونشاطه العملي لتطبيق ما يعتنق من أفكار .. فالرجل لم يكن فيلسوفاً عقلياً حتى نلتمس الأعداء لضيق هذا المناخ الفكري الإسلامي بفلسفته العقلية . ولم يكن مفكراً يرى رأى المعتزلة حتى يقال إنه قد تناقض مع مجتمع تسوده فكرية « أهل السنة » و « أصحاب الحديث » .. ولم يكن من علماء

الشيعة الذين ناصبوا الدولة الأيوبية العداء منذ قيامها على أنقاض حكم الفاطميين .. لم يكن الرجل شيئاً من ذلك ، وإنما كان أشعرياً ، شافعيًا ، يفكر كما تفكر الأغلبية الساحقة من علماء ذلك العصر في دولة بني أيوب ودولة المماليك ...

فإن يكون الفكر الأشعري – وهو محافظ بالقياس إلى فكر المعتزلة وفكر الفلاسفة – أن يكون هذا اللون الفكرى محل سخط البيئة الفكرية الأيوبية في دمشق على عهد السلطان الأشرف بن الملك العادل الأيوبي ، وخليفته الصالح إسماعيل ، وأن يكون نطاق الحرية التي شهدتها القاهرة الأيوبية على عهد الصالح نجم الدين أيوب – بعد هجرة العز بن عبد السلام إليها مما يضيق هذا الضيق الشديد بهذا العالم الفقيه ، فذلك ما يؤكد صدق ما نذهب إليه ، من أن الجوالجامد فكريًا وعقائديًا كان هو الطابع الغالب والقسمة الأساسية ، إن لم تكن الوحيدة على عهد الأيوبيين .

ولقد دعم من قسبات الجمود هذه ، وتصاعد بدرجاتها ، وصول عدد من السلاطين إلى مقاعد الحكم دون أن يكون لهم مثل رصيد صلاح الدين في الكفاح والجهاد ، فخلت حياتهم إلا من الاشتغال بدعم الفكر الرجعي والجمود في التفكير . وزاد الطين بلة أن بعضهم – مثل الصالح إسماعيل – قد تعاون مع الصليبيين ضد مصر ، فلم يجد لنفسه مؤيدًا ومعينًا في موقف الخيانة هذا إلا أكثر العناصر رجعية وجمودًا ... وهنا كانت قمة المأساة التي صارعها وناضل ضدها العز بن عبد السلام .

* * *

في دمشق :

معركة ضد الجمود والاستبداد والخيانة :

ففي دمشق كان للعز بن عبد السلام شأن لا يدانيه شأن آخر عند تلاميذه وعارفي فضله ومريديه ، كما كان خطيبًا لجامع دمشق الكبير ، ومفتيًا للشام ، وحجة في العلوم الشرعية يرجع إليها الجميع .. ولكن البيئة الفكرية الرجعية التي كان يعيش السلطان الأشرف فيها ، ويتنفس هواءها ، قد رأت في هذا الفقيه الأشعري خارجًا عن السنة وظاهر النصوص ، وكان فقهاء الحنابلة وأهل الظاهر ، والذين قصرت بهم مداركهم وملكاتهم عن إعمال العقل في نصوص الدين وأعمال السلف ، هم الذين يحيطون بالسلطان ، ويمثلون بطانته الفكرية التي تلازمه وتشير عليه صباح مساء ، وكان الأشعرية ، وفكر أهل السنة التقليدي ، في نظر هذه الفئة من

الحنابلة فكرياً متطرفاً يجب النضال ضده ، واضطهاد معتنقيه . وساعدهم السلطان فانتصروا على أهل السنة ، وعلت كلمتهم ، بحيث صاروا إذا خلوا بهم في المواضع الخالية يسبونهم ويضربونهم ويذمونهم» (١) .

ومن بين الكتابات العديدة والمواقف الفكرية الخلافية التي وقعت ومثلت وثائق ذلك الصراع الفكرى بين العزبن عبد السلام وهذه الطائفة الجامدة من الحنابلة ، نلتقى بإحدى فتاوى العزلى التى لخص فيها آراءه الأشعرية فى عدد من مسائل الخلاف بينه وبين هؤلاء الخصوم . وهى فتوى دبر هؤلاء الخصوم أمر انتزاعها من العز ، بهدف عرضها على السلطان الأشرف ، حتى يثبتوا له صحة مزاعمهم واتهاماتهم لهذا العالم الجليل .. والرجل قد كتبها وهو يعلم بذلك التدبير ، ومن هنا تأتى أهميتها وأهمية القضايا الفكرية التى اشتملت عليها كأداة إدانة لهذه البيئة بالرجعية والجمود .

فهذه الفئة من الحنابلة كانوا يرون - على عكس المعتزلة - أن القرآن قديم ، وأنه ليس بمخلوق ولا هو بكلام للرسول - عليه الصلاة والسلام - وكان العز ، وكل أهل السنة من الأشعرية ، يرون هذا الرأى . ولكن هذه الفئة المحيطة بالسلطان الأشرف كانت ترى أن « حروف كلمات القرآن وأصواتها » هى أيضاً قديمه ، من عند الله ، وأنها ليست فعلاً للإنسان الكاتب للقرآن أو القارئ لآياته ، وهذا ماخالفهم فيه العزبن عبد السلام ، عندما قال : إن الله سبحانه « يتكلم بكلام قديم أزلى ، ليس بحرف ولا صوت ، ولا يتصور فى كلامه أن ينقلب مداداً فى الألواح والأوراق ، شكلاً ترمقه العيون والأحداق ، كما زعم أهل الحشو والنفاق ، بل الكتابة من أفعال العباد .. ومذهبنا أن كلام الله سبحانه قديم أزلى قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذات الخلق ، ولا يتصور فى شىء من صفاته أن تفارق ذاته ، إذ لو فارقت لصار ناقصاً .. وهو مع ذلك مكتوب فى المصاحف محفوظ فى الصدور مقروء بالألسنة ، وصفة الله القديمة ليست بمداد للكاتبين ولا ألفاظ للفظين .. ومن قال بأن الوصف القديم حال فى المصحف لزمه إذا احترق المصحف أن يقول بأن وصف الله القديم احترق ! » (٢)

ولكن هذا الموقف الأشعرى ، الذى يقف « على يمين » نظرية المعتزلة فى « خلق القرآن » لم يعجب فئة الحنابلة هذه ، ورأت فيه دليلاً على زندقة العزبن عبد السلام ! .

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج ٥ . ص ٩٧ طبعة القاهرة الأولى .

(٢) المصدر السابق ج ٥ . ص ٨٦ ، ٩٤ ، ٨٩ .

« والموقف من الفعل الواقع من الإنسان .. هل هو فعله ، أم هو فعل الله خالصاً من دون الإنسان ؟ وعلاقة الأسباب بالمسببات هل هي قائمة ؟ أم غير موجودة ؟ ، هذه القضية كانت هي الأخرى محلاً للجدل بين العز بن عبد السلام وهؤلاء الخصوم .. والرجل قد وقف فيها نفس الموقف الأشعري التقليدي المحافظ بالنسبة إلى موقف المعتزلة القائلين بالحرية والاختيار ... ولكن هذا الموقف كان في نظر خصومه هرطقة يجب الكفاح ضدها ، لا لشيء إلا لأنه قد اعترف بوجود الأسباب ، وإن كان قد نسب التأثير لله دون هذه الأسباب ! ، وهو في ذلك يتحدث عن هؤلاء الخصوم ، فيقول : « والعجب أنهم يذمون الأشعري بقوله : إن الحبز لا يشيع ، والماء لا يروى ، والنار لا تحرق ، وهذا كلام أنزل الله معناه في كتابه ، فإن الشيع والرى والإحراق حوادث انفرد الرب بخلقها ، فلم يخلق الحبز الشيع ، ولم يخلق الماء الرى ، ولم يخلق النار الإحراق ، وإن كانت أسباباً في ذلك ، فالخالق هو المسبب دون السبب ، كما قال تعالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)^(١) ، نقي أن يكون رسوله خالقاً للرمى وإن كان سبباً فيه ، وقد قال تعالى : (وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا)^(٢) ، فاقنطع الإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء عن أسبابها ، وأضافها إليه ، فكذلك اقتطع الأشعري رحمه الله ، الشيع والرى والإحراق عن أسبابها وأضافها إلى خالقها ، لقوله تعالى : (خالق كل شيء)^(٣) ، وقوله : (هل من خالق غير الله)^(٤) .. »^(٥)

حتى هذا الموقف الفكري التقليدي لم يعجب حاشية السلطان الأشرف في بلاط دمشق الأيوبي في ذلك الحين ..

« وهذه الفئة من الحنابلة كانت تقدم للذات الإلهية تصوراً « تجسيمياً تشبيهاً » ، يبعد هذه الذات كثيراً عن فكر الإسلام في التوحيد والتنزيه .. وعلى الرغم من أن تصور الأشعرية لهذه الذات ليس في نقاء التنزيه الذي قدمه المعتزلة ، إلا أنه كان قريباً منه بقدر ما هو بعيد عن التشبيه والتجسيم الذي نادى به خصوم العز بن عبد السلام ، ولقد أطلق العز عليهم اسم : « الحشوية » ، وهو الاسم الذي أطلقه عليهم من قبل المعتزلة والقائلون بالعدل والتوحيد ،

(١) الأنفال . ١٧ .

(٢) النجم : ٤٣ .

(٣) الأنعام : ١٠٢ ، الرعد : ١٦ ، الزمر : ٦٢ ، عاقر : ٦٢ .

(٤) فاطر : ٣ .

(٥) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩١ .

فقال : إن « الحشوية المشبهة ، الذين يشبهون الله بخلقه ضربان : أحدهما لا يتحاشى من إظهار الحشو ، ويحسون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون ، والآخر يتستر بمذهب السلف لسحت يأكله أو حطام يأخذه .. ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه دون التجسيم والتشبيه ، ولذلك جميع المبتدعة يزعمون أنهم على مذهب السلف .. ومن أنكر المنكرات التجسيم والتشبيه ومن أفضل المعروف التوحيد والتنزيه » (١) .

« والموقف من العقل ، كان هو الآخر أحد النقاط الهامة التي دار من حولها النقاش ، ووقع بسببها الخلاف بين العزبن عبد السلام وبين هؤلاء الخصوم .. فالرجل كان يرى أن مرجع الكثير من التخلف والجمود الذى عليه هؤلاء الناس إنما جاء من تنكرهم للعقل كطريق من طرق الاحتجاج والاستشهاد ، وأنه « إنما أتى القوم من قبل جهلهم بكتاب الله وستة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وسخافة العقل وبلادة الذهن » (٢) . وأنهم لذلك قد أهملوا الاحتجاج بالعقل والاستدلال به ، حتى فيما يتعلق بإثبات صفات الله ، مثل القدم ، مثلاً ، وذلك « لأنهم لا يسمعون شهادته ، مع أن الشرع قد عدل العقل ، وقبل شهادته ، واستدل به في مواضع من كتابه ، كاستدلال على الإعادة ، وقوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا) (٣) وقوله : (وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض) (٤) ، (أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء) (٥) ؟ . فيا خيبة من رد شاهداً قبله الله ، وأسقط دليلاً نصبه الله ! .. » (٦)

ولقد نجح خصوم ابن عبد السلام فى إيهام الملك الأشرف أن آراءه هذه إنما هى محض الهرطقة والزندقة والخروج عن مذهب السلف فى التفكير والاعتقاد ... وصوروا له فتواه هذه على أنها الدليل المادى على صدق كل الوشائيات التى قالوها للملك منذ زمن طويل ضد « سلطان العلماء » ، فعلق الملك الأشرف على هذه الفتوى ، غاضباً ، فى حضور جمع غفير من علماء دمشق ، قائلاً : لقد « صح عندى ما قالوه عنه ، وهذا رجل كنا نعتقد أنه متوحد فى زمانه فى العلم والدين ، فظهر بعد الاختبار أنه من الفجار ، لا .. بل من الكفار ! .. » (٧)

(٦) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩٠ .

(٧) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩٢ .

(١) المصدر السابق ج ٥ . ص ٨٩ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩٠ .

(٣) الأنبياء : ٢٢ .

(٤) المؤمن : ٩١ .

(٥) الأعراف : ١٨٥ .

وأمام غضب السلطان هذا على ابن عبد السلام ، أحجم الكثير من الحضور عن الدفاع عن هذا العالم الجليل ، وهمهم البعض يطلب العفو عنه من السلطان ! . ولكن « سلطان العلماء » لم يرهبه غضب « سلطان دمشق » ، فكتب إليه مؤكداً إصراره على موقفه الفكري ، وماضيًا في تحديه لخصومه ، وقال للملك الأشرف : إن « الفتيا التي وقعت في هذه القضية يوافق عليها علماء المسلمين من الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الخنابلة ، وما يخالف في ذلك إلا رعا ع لا يعبأ الله بهم »^(١) ، وطلب من السلطان « أن يعقد مجلسًا للشافعية والخنابلة يحضره المالكية والحنفية وغيرهم من علماء المسلمين » ، لتتم المناظرة بينه وبين خصومه في حضرتهم ، وقال : إن تحت يده تأييدات بأقلام العلماء لموقفه الفكري هذا ، بما فيهم العلماء الذين حضروا مجلس السلطان الذي اتهمه فيه بالكفر والفجور .. بل وطلب الاحتكام إلى العالم الإسلامي بأجمعه . وخطب السلطان قائلاً : « .. ومع ذلك فتكتب ما ذكرته في الفتيا ، وما ذكره الغير ، وتبعث به إلى بلاد الإسلام ، ليكتب فيها كل من يجب الرجوع إليه ويعتمد في الفتيا عليه ، ونحن نحضر كتب العلماء المعترين ليقف عليها السلطان »^(٢) .

ولكن السلطان لم يستجب لهذا المطلب المشروع الذي طلبه العزيز عبد السلام .. ويبدو أنه كان قد عزم ، بوحى من خصوم العز ، على أن ينتقل بالمعركة من مجال الصراع الفكري إلى مجال الاضطهاد « لسلطان العلماء » ، فكتب في رفضه للمناظرة واستشارة علماء المسلمين ، يقول : « قد وقفنا على خطه وما أفتى به ، وعلمنا من عقيدته ما أغنى عن الاجتماع به . »^(٣)

وأمام هذا الموقف المتصاعد بالغضب السلطاني على العزيز عبد السلام ، تصاعد العز بموقف الشجاعة والصمود والفداء ، وذهب الرسل من لدنه إلى السلطان بالرسائل ، ومن عنده إلى الناس بالكلمات التي خلقت في الفكر الإسلامي صفحة من أنصع الصفحات وأكثرها إشراقًا بالمعاني والقسمات التي يجب أن يتحلى بها العلماء وأصحاب المواقف الفكرية ، وهي صفحة تؤكد الأهمية القصوى « للقدوة » و « النموذج » و « السلوك العملي » في إعطاء الفكر حرارته وفاعليته وتأثيراته في الممارسة والتطبيق ..

« فابن عبد السلام يكتب للملك الأشرف ، يرد عن نفسه تهمة « إثارة الفتن » التي رماه بها الخصوم ، قائلاً له : « وليس رد البدع وإبطالها من باب إثارة الفتن ، فإن الله سبحانه أمر

(١) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩٣ .

العلماء بذلك ، وأمرهم ببيان ما علموه»^(١) .

وبعد أن ينفي عن نفسه صفة « مشيرالفتن » يحدد دوره ومهمته ، فيراه دور العضو المخلص في حزب الله ، ويرأها مهمة الجندي المقاتل في ساحة المعركة ، فيخاطب السلطان متحدياً موقفه منه ورأيه فيه فيقول : « ... فإننا نزعم أنا من جملة حزب الله وأنصار دينه وجنده ، وكل جندي لا يخاطر بنفسه فليس بجندي ؟ ! .. »^(٢) .

* ويكتب متحدئاً عن دور « عالم الدين » وواجبه في نصرة الحق والصواب ، ومشروعية تحمله الأذى ، بل « الذل والحمول » في سبيلها ، وبدلاً منها ، ومشروعية مخاطرته بنفسه - على درب الفداء ومذهبه - في هذا السبيل ، فيقول : إنه « ينبغي لكل عالم إذا أُذِل الحق وأُهْمِل الصواب أن يبذل جهده في نصرهما ، وأن يجعل نفسه بالذل والحمول أولى منهما ، وإن عز الحق فظهر الصواب أن يستظل بظلمها .. والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين ، ولذلك يجوز للبطل من المسلمين أن ينغمر في صفوف المشركين ، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة ، فمن خشى على نفسه سقط عنه الوجوب وبقى الاستحباب »^(٣) .

ففي كل الحالات يرى العزبن عبد السلام أن على العالم بالحق والصواب أن يخاطر في سبيل الانتصار لها والعمل في سبيلها ، حتى وإن خشى على نفسه مغبة هذا السعى وذلك النضال . فهذا الأمر واجب عند أمن العاقبة ، ومستحب مرغوب عند قيام المخاطر وإحداقها بالمناضلين في هذا السبيل .

« وهو يعلمنا قيمة العلم كسلاح ، وفعالية الكلمة وسلطانها ، عندما يحدد لنا أن العلم والكلمة هما عدة « العلماء » في هذا النضال ، وهي أسلحة لا بد من الحفاظ عليها والصقل الدائم لها ، والبعدها عن « الأغفاد » والإهمال . « فسلح العالم علمه ولسانه ، كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه ، فكما لا يجوز للملوك إغفاد أسلحتهم عن الملحددين والمشركين لا يجوز للعلماء إغفاد ألسنتهم عن الزائفين والمبتدعين ، فمن ناضل عن الله وأظهر دين الله كان جديراً بأن يحرسه الله بعيه التي لا تنام ، ويعزه بعزه الذي لا يضام ، ويحوطه بركنه الذي لا يرام ، ويحفظه من جميع الأنام ، ولو شاء الله لا تنصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض »^(٤)

(٣) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩١ .

(٤) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩٠ .

(١) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩٥ .

ولكن السلطان الأشرف كان قد قرر أن يمضى فى غيه وصلفه ، فأرسل إلى العزيز عبد السلام من يبلغه قراراً باعتقاله وتحديد محل إقامته فى بيته ، وقراراً آخر يمنعه بمقتضاه من الاجتماع بأحد من الناس ، وقراراً ثالثاً يحرم عليه أن يفتى فتوى أو يدلى برأيه فى أمر من أمور الدين ..

وكان ابن عبد السلام يومئذٍ مقيماً فى « بستان » قد استأجره فى مكان بعيد عن مدينة دمشق ، فاستفهم من رسول السلطان .. هل يمكنه العودة لبيته فى المدينة ، فأجابه بالنفى ، قائلاً : « البستان هو الآن بيتك ! » أى أن القرارات السلطانية الثلاثة قد أُضيف إليها رابع ، وهو أن يكون مع الاعتقال « نفى » ، وأن يكون « المنفى » ذلك البستان البعيد عن عاصمة البلاد^(١) .

لكن دمشق قد اهتزت لهذا الموقف المتعسف ضد «سلطان العلماء» ، فتحركت مظاهرة مهيبة تنذر بالخطر يقودها شيخ علماء الحنفية الشيخ جمال الخضيرى ، ركباً حماره ، ومن خلفه الأتباع والأنصار ، واقترحوا على السلطان قلعته عصر يوم من أيام رمضان ، وعندما توجه السلطان خيفة من هذا التحرك الجماهيرى الذى قاده العلماء ، أمر باستقبالهم استقبالاً حسناً ، وجلس العلماء ومن خلفهم الأتباع فى حضرة السلطان حتى جاء وقت الإفطار بعد صلاة المغرب ، فقدم السلطان للشيخ الخضيرى بيده شراباً يتحلل به من صيامه ، ولكنه رفض ، وأخبره أن الحضور ليس لطعام السلطان وشرايه ، وإنما هو للحدث فى أمر اعتقال السلطان للعزيز عبد السلام . وأعلن أن جميع المسلمين هم على عقيدة العز ورأيه ، وأن ما كتبه فى فتياه الشهيرة هو «اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين وبقين المؤمنين ، وكل ما فيها صحيح ، ومن خالف ما فيها وذهب إلى ما قاله الخصم من إثبات الحرف والصوت فهو حمار ! ..» وكان الشيخ الخضيرى يعلم أن السلطان قد خالف هذه الفتيا ، وذهب إلى ما قاله الخصم ، ومن ثم فإنه داخل تحت وصف «الحمار» .. ولكن القوة التى كان يمثلها هذا الحق الذى نطق به هذا الشيخ ، والتأييد الشعبى الذى دعم هذه القوة ، جعلت السلطان يتراجع ، ويسترضى الشيخ الخضيرى ، ويتلطف معه فى الحديث .. بل ويصدر أمره بالعتق عن العزيز عبد السلام ، الذى لم تدم مدة اعتقاله أكثر من ثلاثة أيام^(٢) ..

* * *

(١) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩٦ ، ٩٧ .

ونحن نعتقد أن هناك سبباً قد غاب حتى الآن في حديثنا هذا الذي عرضنا فيه لأسباب الجفوة والخلاف والصراع بين «سلطان العلماء» المسلمين في عصره العزيز عبد السلام وبين سلطان بني أيوب في دمشق الأشرف بن العادل الأيوبي ... ذلك أن الخلافات الفكرية بين العزيز وبين فئة من الحنابلة ، لو أخذت مجردة ، ما كان لها أن تتصاعد بهذا الخلاف إلى ذلك الحد البعيد .. ومن ثم فإننا نعتقد أن وراء تلك الأحداث كان يقف خلاف أساسي في الرأي والموقف بين العزيز وبين السلطان حول موقف الأخير من الدولة المصرية ومن أخيه الملك الكامل الجالس على عرشها في ذلك الحين .. فلقد كان الود مفقوداً بين الأشرف والكامل ، ولقد تصاعد الأشرف بهذه الجفوة إلى حد العداء ، بل وأهمل قتال الأعداء الصليبيين ووجه همه للاستعداد لقتال مصر وسلطانها ! .. وكان العزيز عبد السلام قلقاً لهذا الاتجاه ، وزاد من قلقه أن العالم العربي والإسلامي كان قد أخذ يتعرض لخطر جديد وشديد زحف عليه من المشرق في شكل أرجال الحيش التتري المدمر ، وكان العزيز عبد السلام يريد من سلطان دمشق أن يحل الوفاق بينه وبين نظام الحكم في مصر محل الخلاف ، كسبيل للوحدة التي تدفع هذه الأخطار ، وذلك ما لم يكن في عزم السلطان الأشرف وحاشيته من أعداء العزيز عبد السلام .. ويشهد لرأينا هذا ما ذكره السبكي في [طبقاته] عن اللقاء الأخير الذي حدث بين السلطان وبين ابن عبد السلام ، عندما استدعاه السلطان وهو على فراش الموت . وطلب منه النصيحة ، فكانت نصيحة العز للسلطان أن يجعل وجهة جيشه المشرق ، تجاه التتر ، وذلك بدلاً من توجيهه صوب مصر وأخيه السلطان الكامل . ولقد استجاب يومئذ السلطان الأشرف لنصيحة العزيز عبد السلام ، وأمر بتحويل «الدهليز» من منطقة «الكسوة» في اتجاه مصر ، إلى منطقة «القصيرة» تجاه الخطر التتري الزاحف من المشرق على بلاد العرب والمسلمين .. وعندما أمر السلطان للعز في نهاية هذه المقابلة بهدية مقدارها ألف دينار مصرية رفض العز ، قائلاً : «هذه اجتماعة لله ، لا أكدرها بشيء من الدنيا !» (١) .

ولعل هذا الموقف «القومي» المخلص لمبادئ الإسلام ومصالح بلاد المسلمين وشعوبهم هو الذي جعل الصلة قوية والمحبة عارمة بين العزيز عبد السلام والنظام الأيوبي في مصر يومئذ ، ممثلاً في الملك الكامل ومن بعده في الصالح نجم الدين أيوب بنفس القدر الذي سبب تلك الجفوة وذلك الصراع الذي أشرنا إلى طرف منه في الحديث عن علاقة العز بالنظام الأيوبي الذي كان قائماً يومئذ في بلاد الشام .

(١) المصدر السابق ج ٥ . ص ٩٩ .

: وعندما تولى سلطنة دمشق الملك الصالح إسماعيل بن العادل ، واستعان بالصلبيين ضد أخيه الصالح نجم الدين أيوب ، سلطان مصر ، وتنازل لهم في سبيل نصرتهم له على أخيه عن عدد من المواقع الهامة ، منها : قلعة «صفد» وبلادها ، وقلعة «الشقيف» ، وبلادها ، واقتسم معهم «صيدا» و«طبرية» وأعمالها ، وغير ذلك من بلاد الساحل ، وسمح لهم بدخول دمشق لشراء السلاح ، عند ذلك سأل تجار السلاح الدمشقيون العزيرين عبد السلام : هل يجوز لهم بيعه للعدو ، وهى تجارتهم الوحيدة ومصدر رزقهم ؟ .. فصعد ابن عبد السلام منبر جامع دمشق يوم الجمعة ، وهاجم من فوقه السلطان ، وأفتى بتحريم بيع السلاح للأعداء ، ولم يدعُ للسلطان يومها في الخطبة كالمعتاد ، بل دعا عليه في عبارة واضحة قال فيها : «اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد ، تعز فيه أولياؤك ، وتذل فيه أعداؤك ويعمل فيه لطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك» بينما المصلون يهدرون خلف هذا القائد بقولهم : آمين^(١) .

عند ذلك عزله السلطان من منصب الخطابة ، واعتقله ، واعتقل معه الفقيه المالكي أبو عمر بن الحاجب ، الذى وقف هو الآخر ضد السلطان . ثم أفرج عن العز ، وحكم عليه بأن يلزم بيته ، ولا يلتقى بأحد سوى الطبيب والحلاق ، ولا يغادر منزله إلا إلى صلاة الجمعة أو الذهاب للحمام ! ..

وعندما ضاقت عليه دمشق بما رحبت ، ولم يستطع أن يؤدي فيها رسالته قرر الرحيل إلى مصر بصحبة ابن الحاجب ، ومر في طريقه «بالكرك»^(٢) فدعاه صاحبها للإقامة فيها ، فاعتذر له قائلاً : «بلدك أصغر من علمي» ، لأنه كان يريد القاهرة كى يؤثر من خلالها ويواصل الجهاد .. وفى الطريق إليها عرَّج على القدس ، ولكن جيش السلطان المتحالف مع الصليبيين قد لحق به ببيت المقدس ، فجدد السلطان اعتقاله بها مرة ثانية ، وعندما عرض البعض عليه تقبيل يد السلطان عسى أن يفك قيوده ، أجابه بقوله : «والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدى فضلاً عن أن أقبل يده ! ، يا قوم ، أنتم فى واد وأنا فى واد ، والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به .»^(٣) .

وكانت خيمته التى اعتقل فيها قريبة من خيمة السلطان ، وسمعه يرتل القرآن ، فقال لحضور مجلسه من ملوك الصليبيين : «تسمعون هنا الشيخ الذى يرتل القرآن ؟ ، فقالوا :

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ، ص ١٠٠ . ١٠١ .

(٢) حصن شهر كان جنوبي فلسطين .

(٣) المصدر السابق ج ٥ ، ص ٨٠ ، ٨١ ، ١٠١ والنجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٣٣٨ .

نعم ، فقال : هذا أكبر « قسوس » المسلمين ، قد حبسته لإنكاره على تسليمي لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن الخطابة بدمشق ، وعن مناصبه ، ثم أخرجته ، فجاء إلى القدس ، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم ! .. وكان السلطان الخائن يريد بذلك التقرب وارتفاع أسهمه لدى الأمراء الصليبيين ، ولكنهم أجابوه بقولهم : « لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجله وشربنا مرقها ! » (١) .

وظل ابن عبد السلام معتقلاً بالقدس حتى فك قيوده الجيش المصرى الذى عاجل الصالح إسماعيل وأدار الدائرة عليه مع حلفائه الصليبيين ، وعند ذلك واصل العز رحلته إلى مصر فوصلها فى سنة ٦٣٩ هـ سنة ١٢٤١ م .

* * *

فى القاهرة :

وفى القاهرة قضى العزيز عبد السلام ما تبقى من عمره ، قضى بها أكثر من عشرين عاماً ، تسع منها فى ظل الأيوبيين والباقي فى ظل حكم المماليك ، ولقد كانت شخصيته الفذة وعلمه الواسع وجرأته غير المعهودة فى الحق ، مضافاً إليها المناصب الكبرى العديدة التى تولاها ، مثل : الخطابة بجامع عمرو بن العاص ، والإشراف على عمارة المساجد ، ومنصب قاضى القضاة - وهو بمثابة وزارة العدل - ، ومنصب الإفتاء ، الذى تنازل عنه الشيخ « المندرى » عرفاناً بفضلته وأحقيته ، لقد كان كل ذلك خلف تلك الآثار والمواقف المشهودة التى سجلها لنا التاريخ فى مصر عن ذلك العالم العملاق ، تلك المواقف التى كانت صفحات هامة استطاع الذين سجلوها أن يضعوا أيدينا بواسطتها على قسماة هامة من حياة مصر وتاريخها فى ذلك الحين .

ذلك أن « سلطان العلماء » قد واصل فى مصر جهاده الذى مارسه فى دمشق ، ووفى بحق دينه عليه فى الأمر المعروف والنهى عن المنكر ، ومن تم كانت له مواقف ومعارك بطولية ، بل وأسطورية ، ضد مظاهر الانحراف والبدع والاستبداد التى شاهدها بمصر فى ذلك التاريخ .

* * *

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ . ص ١٠١ .

الموقف من بدع المتصوفة :

فلقد كان التصوف أحد المسالك التي شجعها الأيوبيون كي تكون بديلاً لتلك الأيديولوجية الشيعية التي عرفتها مصر زمن الفاطميين ، وإذا كانت الحركات الشيعية عموماً قد اهتمت بالأبحاث العقلية والفلسفية ، وإذا كانت « دار الحكمة » التي أنشأها « الحاكم بأمر الله » قد أشاعت وحرست وعمقت هذا اللون من ألوان التفكير في حقل الدراسات الإسلامية ، وإذا كان هذا اللون قد مثل القسمة الهامة في الحياة الفكرية المصرية على عهد ازدهار الحكم الفاطمي ، فإن التصوف غير الفلسفي ، في العصر الأيوبي ، قد أصبح له المكان الأرفع لدى الحكام ولدى عامة الجماهير ، ونعني بالتصوف هنا « التصوف العملي » المتجلى في حركات الطرق الصوفية ، ومجاهدات النفس وترويضها لدى قادته وشيوخه ، وانخراط العامة بوعى أو بدون وعى خلف الرايات والطبول والبيارق التي يصنعها ويلونها بالألوان الزاهية والمتعددة هؤلاء القادة والشيوخ .

وفي الوقت الذي نجد فيه الدولة الأيوبية تعلق الجامع الأزهر وتعطله ، كجامعة علمية ، حيناً من الدهر ، حتى تغير مناهجه ومقرراته ، كما تعلق دار الحكمة نهائياً ، وهما من آثار الفاطميين ، نجدها تحتفظ من هذه الآثار بالمشاهد والمزارات التي خلفها الفاطميون في القرافة ، والتي كانت عالماً يموج بالزوار وصناع الحرفايات ومحترفي الحيل المنسوبة زوراً وبهتاناً إلى «كرامات» الصالحين ، بل لقد رتبت الدولة الأيوبية الأموال لهذه المزارات . من قبل السلطان ، في كل شهر^(١) ، كما احتفظت في المشهد الحسيني ، وهو أحد المزارات الشيعية ، بكثير من المظاهر والطقوس الفاطمية التي نعتقد أنها غريبة عن روح الإسلام ونقاء عقيدة التوحيد فيه ، وأنها أقرب إلى المظاهر الوثنية منها إلى جوهر التوحيد في الإسلام . « وابن جبير » [٥٤٠ - ٦١٤ هـ - ١١٤٥ - ١٢١٧ م] يصف لنا ما شهدته هناك ، فيقول : « ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص ، يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندية الحديدية الصقل ، ووجدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، وإحداقهم به وانكبابهم عليه ، وتمسحهم بالكسوة التي عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه ببركة التربة المقدسة ومضرعين ، ما يذيب الأكباد ويصدع الجواد والأمر فيه أعظم ، ومرأى الحال أهول »^(٢) .

(١) رحلة ابن جبير - طبعة دار التحرير بالقاهرة - ص ٥١ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٨ .

فهذه الصورة التي حكاها ابن جبير هي ولا شك من بقايا العصر الفاطمي ، أما الصور الأخرى والآثار الأخرى المرتبطة بالدراسات العقلية فلقد اجتهد لمحوها من مصر حكم الأيوبيين .

ولقد اتخذ ازدهار التصوف في هذا العصر عدداً كبيراً من المظاهر ، وتجلي في الكثير من الآيات ، فالدولة قد افتتحت «التكايا» و«الخوانق» والبيوت العامة التي يقيم فيها المتصوفون ، وكان من أشهرها «الخانكاة الصلاحية» وأجرت عليها الرواتب والمخصصات والأرزاق . والحركة الصوفية قد شهدت كوكبة عظيمة من الرجال والأعلام ، منهم على سبيل المثال «السيد أحمد البدوي (٥٩٦ - ٦٧٥ هـ ، ١١٩٩ - ١٢٧٦ م) وإبراهيم الدسوقي [٦٣٣ - ٦٧٦ هـ ١٢٣٥ - ١٢٧٧ م] والشاعر المتصوف الشهير عمر بن الفارض (٥٧٧ - ٦٣٣ هـ ، ١١٨١ - ١٢٢٥ م) ، وشرف الدين محمد البوصيري (٦١٠ - ٦٩٦ هـ ، ١٢١٣ - ١٢٩٦ م) ، صاحب «البردة» ، وأبو الحسن الشاذلي «المتوفى سنة ٦٥٦ هـ سنة ١٢٥٨ م) ؛ والسيد عبد الرحيم القنائي [٥٩٢ هـ ١١٩٦ م] وتلميذه أبو الحسن الصباغ ، وغيرهم كثيرون انتشرت حركتهم واتسعت قاعدة مرديهم واتصلت حلقات تسلسلهم إلى ما بعد عصر الأيوبيين .

ولقد عرف هذا المدد الصوفي العملاق ألواناً من التحلل من تكاليف الشريعة ، ومن ثم التحلل - عند البعض - من أخلاقيات الدين ، لأن رفع التكاليف عند هؤلاء «المتصوفة العمليين» لم يكن كما هو عند «متصوفي الفلاسفة» أو «الفلاسفة المتصوفين» تعبيراً عن الدخول إلى ميدان أصعب في المجاهدات والرياضات والتكاليف تفوق في الصعوبة والتبعات تلك التكاليف الشرعية التي يتساوى فيها الجميع ، وإنما كان هذا التحلل الذي عرفه نفر من متصوفة هذا العصر لوناً من التخفف من قيود الشرع تحت ستار التصوف ، ومن ثم ارتكاب المعاصي والموبقات ، وهنا نجد للعزبن عبد السلام موقفاً حازماً ، فهو الذي أنكر على «الطريقة الحريرية» ، وشيخها السيد على الحريري سلوك هذا الطريق الغريب عن تقاليد الإسلام .

وعندما حول المتصوفة الملابس والأزياء والأعلام إلى ألوان تتميز بها كل طريقة عن الأخرى حتى لقد أخذ البعض في فلسفة هذه الألوان ، أنكر ذلك العزبن عبد السلام ، بل وذهب في ذلك إلى ما هو أبعد عندما كان يصعد المنبر ليخطب الجمعة دون أن يرتدى

السواد ، وهو الشعار الرسمي لخلفاء بني العباس ، فلقد كان الرجل يحس إحساس المسلم الذي يتسبب إلى الإسلام لالفرقة من الفرق أو حزب من الأحزاب .

* * *

التصدي لاستبداد المماليك :

وعندما تطورت الأمور في الدولة الأيوبية لتؤكد من قبضة الجند المرتزقة ، من المماليك المحليين ، على أزمة الأمور في الدولة ، وعندما ساعدتهم الحروب المتصلة ضد الأخطار الصليبية على أن يتخطوا نطاق الجندية ليصبحوا هم الوزراء والولاة وحكام الأقاليم ، حتى أصبح نائب السلطان بمصر واحداً منهم ، وعاثوا في الوطن فساداً ، فكر ابن عبد السلام في أمر يميز به جهاز الدولة هذا هزة تعيد لأصحابه بعض التعقل ، وتترك بكبريائهم وعنجهيتهم إلى الحضيض ، وهدهد تفكيره إلى فكرة طريفة وعبقرية وشجاعة : إن هؤلاء المماليك قد اشتريتهم الدولة ، وهم صغار ، بالمال ، كعبيد ، ثم علمتهم ودربتهم على السلاح ، إذن فهم أرقاء لم يعتقوا ، ولم يحررهم أحد ، وإن ارتفع مناصب بعضهم ، حتى ولو كان نائباً للسلطان ، لا يغير من هذه الحقيقة «الفقهية» أو ذلك الوضع «القانوني» شيئاً ، إذاً فلا بد من بيع هؤلاء الحكام والأمراء المتجبرين ، كما يباع الرقيق ، ولا بد من عرضهم في الأسواق والمناذاة عليهم في المزاد ! ..

وكانت فتوى أذهلت الجميع وأطارت صواب المماليك والأمراء ، بل وأغضبت السلطان نفسه ، لأنه قد اعتبر أن العزيز عبد السلام قد تجاوز اختصاصاته وتعدى حدوده ، ووصل بتصعيد المعركة إلى نائب السلطان ، فإذا عساه يصنع غداً مع السلطان ؟ ! ، وكان البعض قد نصح السلطان بعزله عن الخطابة ، قائلاً : «اعزله عن الخطابة وإلا شنع عليك على المنبر ، كما فعل في دمشق ..»^(١) .

ورفض السلطان الانصياع لرأي العزيز ، وأصر ابن عبد السلام على ضرورة بيع هؤلاء الأمراء لحساب بيت مال المسلمين ، ثم تحريرهم من رقهم بطريق شرعي ، ولما لم يستجب له السلطان قدم استقالته من القضاء ومن مناصبه الأخرى ، وعزم على الرحيل عن مصر ، ولكن الشعب في القاهرة قد لحق به في الطريق ، وأحاط به الرجال والنساء والأطفال في مظاهرة

(١) رضوان على الندوى : العزيز عبد السلام ص ٤٦ ، طبعة دمشق سنة ١٩٦٠ م .

شعبية أدرك السلطان عواقب تطوراتها ، فابتلع غصته ، وركب هو الآخر ليلحق به ، واسترضاه وطيب خاطره ، وعاد به إلى القاهرة ، ورفض قبول استقالته .

وأحس المماليك أن الأمور تجري في غير صالحهم ، فأرادوا إرهابه ، وقال نائب السلطان : «كيف ينادى علينا هذا الشيخ ، ويبيعنا ، ونحن ملوك الأرض ، والله لأضربنه بسيفي هذا» ، وزحف ومن خلفه الأمراء والمماليك إلى منزل الشيخ وأحاطوا به ، وعندما أخبره ابنه بحصار المنزل ، وأن القوم يطلبون حياته ، قال له : «يا ولدى أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله !» ، وخرج عليهم في جلال الحق وقوته وجبروته ، «وحين وقع بصره على النائب (نائب السلطان) ييست يد النائب ، وسقط السيف منها ، وارتعدت مفاصله ، فبكى ، وسأل الشيخ أن يدعوه ، وقال : يا سيدى ، خبر ، أى شىء تعمله ؟ قال الشيخ : أنادى عليكم وأبيعكم ، قال النائب : فيم تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين ، قال النائب : من يقبضه ؟ قال : أنا ، فتم له ما أراد ، ونادى على الأمراء واحداً واحداً ، وغالى في ثمنهم ، وقبضه ، وصرفه في وجوه الخير»^(١) .

* * *

الجرأة على السلطان :

بل إننا نستطيع أن نقول : إن العزبن عبد السلام قد بلغت جرأته في مصر ، كما كانت في دمشق ، ما هو أبعد وأهم من نائب السلطان ، ووصل نقده الجريء إلى ذات السلطان ، فهو الذى أنكر على السلطان «الصالح نجم الدين أيوب» أساليب الجور في الحكم ، وفرض الضرائب الباهظة على الرعية ، وإباحة الخمر والمسكرات ، ولقد حدثت له حادثة مع السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، جعلت السلطان يوجس خيفة من أن يعامله هذا الشيخ كما عامل أقاربه من سلاطين دمشق منذ سنوات ، ففي يوم من أيام الأعياد صعد العزلى الفلعة حيث السلطان قد تبدى في زينته وعظمته «فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، ومجلس المملكة .. وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان» فقرر الرجل أن يحطم هذا الكبرياء الذى شاهده ، وأن يعيد إلى رأس السلطان الخمر والعظمة والجبروت صوابه ، فالتفت إلى السلطان وناداه بأعلى صوته : «يا أيوب ، ما حاجتك عند الله إذا قال لك : ألم

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ . ص ٨٤ . ٨٥ .

أبوئ لك ملك مصر ، ثم تبع الحمور .. ؟ !

فقال السلطان : هل جرى هذا ؟ ..

قال العز : نعم - الحانة الفلانية تباع فيها الخمور ، وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ! .

فقال السلطان : يا سيدي هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي ..

فقال العز : أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة ؟ ! « .

وعند ذلك انقطعت حجة السلطان وتحطم كبرياؤه . وأصدر مرسوماً بإغلاق تلك الحانة ومنع ما فيها من المنكرات . ولما سأل بعض أصدقاء الشيخ عن سر خطابه الغليظ هذا للسلطان ، أجابه « يا بني ، رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لثلاث تكبر عليه نفسه فتؤذيه » ! فلما قيل له : « أما خفته ؟ قال : والله يا بني ، استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان قدامى كالقط » ! ^(١) .

ولقد استن العز بن عبد السلام في مصر لخطباء المساجد سنة جريئة عندما كان لا يثنى على الملوك في خطبته ، وإنما يدعو لهم بالهداية والرشاد ^(٢) .

إزالة المنكر باليد :

وموقف ثالث من مواقف هذا العالم الجليل نختاره من بين مواقفه المعاصرة لحكم الأيوبيين يمتاز بأنه تجسيد حي لفهم هذا الشيخ لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام ، فلقد بلغ التحلل في الدولة حداً جعل الوزير فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ سنة ١٢٤٥ م) يبني لنفسه ولندمائه «مقصفاً» (نادياً للموسيقى) «طبلخانة» فوق أحد مساجد القاهرة !! ، فغضب العز بن عبد السلام ، ولم يرهبه منصب الوزير الذي كان يتولى منصب (أستاذ دار) السلطان ، كما لم يرهبه مكان هذا الوزير الذي كان قد فتح دمشق وأحرز على عصيانها الانتصارات ، فحزم أمره ، وخرج بتلاميذه ومريديه في مظاهرة شعبية في أواخر سنة ٦٤٠ هـ سنة ١٢٤٣ م ليزيل بنفسه ويده هذا المنكر ، وليهدم هذا النادي الذي أقيم للوزير ، ولم يكف بذلك ، بل أفتى بإسقاط شهادة هذا الوزير الفاسق ، وسلب منه صلاحيات الإنسان العادل المؤمن ، ولما اصطدم موقفه هذا بالسلطان ، قدم استقالته من

(١) المصدر السابق ج ٥ . ص ٨١ . ٨٢ .

(٢) العز بن عبد السلام ص ١١٩ ، ١٢٢ .

القضاء ، ولقد قبلها السلطان هذه المرة على مضض ، لأنه كان ، رغم كل ذلك ، يحل الشيخ ويحترمه ، ولكنه قد أبصر أن الشيخ قد بلغ من الجرأة والشجاعة حداً جعله ينفذ الأحكام والفتاوى بيده ، وهذا ما كان يحشاه السلطان .

غير أن استقالة ابن عبد السلام لم تحجبه في دائرة الظل ، فلقد ظل يمارس التدريس والتعليم حتى عاد فيما بعد ذلك إلى الميدان من جديد ، بل إن أثر فتواه الخاصة بالوزير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ظلت تلاحق الوزير وهو في السلطة ، رغم أن القاضي قد استقال ، فعندما ذهب رسول السلطان برسالة إلى الخليفة العباسي ببغداد ، سأله هناك : هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ، فقال : لا ، وإنما حملنيها عن السلطان الوزير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، أستاذ الدار ، فقال الخليفة العباسي : « إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام ، فنحن لا نقبل روايته ! »^(١) .

فهى إذاً قوة الحق تلك التي جعلت الجالس خارج السلطة يسقط من في السلطة ، حتى ولو كان في منصب الوزير وأستاذ الدار ! ..

العدالة في تحمل عبء القتال :

ولقد ظلت حياة ابن عبد السلام سلسلة متصلة النضال في سبيل الحق والعدل ونقاء الضمير ، وعندما بلغ الثمانين من عمره ، كان الزحف التتري قد وصل بتهديده إلى أبواب مصر الشرقية ، وقدم القاهرة الصاحب كمال الدين عمر بن القديم ، رسولاً من صاحب حلب والشام الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، يطلب النجدة على قتال التتار ، فعقد المالك والأمراء والعلماء والأعيان مؤتمراً في قلعة الجبل « وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والقاضي بدر الدين السنجاري قاضي الديار المصرية ، وغيرهما من العلماء .. وأفاضوا في الحديث ، فكان الاعتماد على ما يقول ابن عبد السلام ونخلاصة ما قال : إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتلهم ، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم ، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء ، وتبيعوا مالكم من الخوائص المذهبة^(٢) والآلات النفيسة ، ويقتصر كل الجند على مركوبه (فرسه) وسلاحه ، ويتساووا هم والعامّة ،

(١) طبقات التنافية الكبرى ج ٥ . ص ٨١ .

(٢) حوائص الذهب : هدايا يوزعها السلطان على من يحضر لعبة الكرة بالميدان .

وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في يد الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا»^(١) .

وعندما دار الحديث بين السلطان «قطز» وبين العز حول حرب التتار ، قال له الشيخ : «اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر ، فقال السلطان له : إن المال في خزانتى قليل ، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار ، فقال له الشيخ عز الدين : إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك ، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلى الحرام ، وضربته سكة ونقداً وفرقته في الجيش ، ولم يقيم بكفالتهم ، ذلك الوقت اطلب القرض ، وأما قبل ذلك فلا ، فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ»^(٢) ، وتم تجهيز الجيش الذى خرج ليصد الزحف التترى ويدمر جحافل أرجاهم ، وينقذ العالم العربى والإسلامى بالنصر الذى أحرزه في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ سنة ١٢٦٠ م ، ولم يمنع العز من شهود هذه المعركة إلا كبر سنه ، فلقد كان يومئذ شيخاً فانياً قد بلغ الثمانين .. ولكن تحضيره لهذه المعركة وتأثيره فيها كان يفوق جهد الشباب .

وأغلب الظن أن الرجل عندما مات بعد هذا النصر بعامين ، قد مات متفائلاً قرير العين ، فلقد عاش عصراً شهد فيه تصاعد الكفاح والنضال لصد الموجة الاستعمارية للصليبيين والتتار ، من صلاح الدين حتى بيبرس .. كما خاض نضالاً فكرياً وعملياً ضد سلبات ذلك العصر وجموده وانحرافاتة ، فتحول إلى نموذج رائع للفقيه المناضل في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعالم العامل في مختلف ميادين الإصلاح .

* * *

(١) النجوم الزاهرة ج٧ . ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ج٥ . ص ٨٣ .

- ١٣ -

عمر مكرم

[١١٦٨ - ١٢٣٧ هـ - ١٧٥٥ - ١٨٢٢ م]

شيخ يقود الأمة

هو «السيد» عمر مكرم بن حسين . السيوطى ... «سيد» لأنه من أسرة «شريفة» ، يتصل نسبها بالإمام الحسن بن علي بن أبي طالب ، زوج السيدة فاطمة الزهراء ، بنت رسول الله ، - صلى الله عليه وسلم - ، رضى الله عنهم .. وكما كان لقب «السيد» سابقا لاسمه . كذلك كان لقب «أفندى» أو «الأفندى» تالياً له ! .. وكذلك صفة «النقيب» منذ توليه نقابة السادة الأشراف سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣ - ١٧٩٤ م) ..

ولد في «أسيوط» ، بصعيد مصر ، وتعلم في الجامع الأزهر الشريف ... وأغلب الظن أن مولده كان في عام ١١٦٨ هـ ١٧٥٥ م ..

وبسبب من نشأته في «أسيوط» ، بمحيط أسرة «شريفة» ذات مكانة مرموقة ، ولما أمضى بالقاهرة من سنوات يدرس فيها بالأزهر ، برز دوره القيادى متجاوزا المحيط المحلى .. ووجدنا تاريخ الأحداث والصراعات على السلطة في مصر يشير إليه حتى قبل أن يتولى نقابة الأشراف .. فأتناء الصراع على السلطة بين أمراء المماليك الذين تحصنوا بصعيد مصر - الوجه القبلى - والذين لقبوا ، لذلك ، بالقبليين - وبين «شيخ البلد» والمشايخ والوالى التركى محمد عزت باشا - المستقرين بالقاهرة - يذكر الجبرتى أن السيد عمر أفندى مكرم الأسيوطى قد حضر إلى العاصمة «بمكاتبة» من «الأمراء القبليين» خطابا إلى شيخ البلد والمشايخ وللباشا سرا ..^(١) وإن ذلك كان في شوال سنة ١٢٠٥ هـ يونيه سنة ١٧٩٠ م .

وفي أواخر العام التالى لتوليه نقابة الأشراف - [وأواخر سنة ١٢٠٩ هـ سنة ١٧٩٥ م] - تفاقمت مظالم المماليك ، وخاصة ضد مواطنى شيخ الأزهر الشيخ الشرقاوى ، بإقليم الشرقية ، فاجتمع العلماء ، وفيهم السيد عمر مكرم ، محتجين ، وقرروا الإضراب عن التدريس

(١) [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] . ج ٤ ص ١٣٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

بالأزهر، ودعوا التجار لإغلاق الحوانيت، الأمر الذى جعل المالك يتراجعون، ولو مؤقتا، ويقرون العهد الذى كتبه العلماء « برفع المظالم ، ومراعاة العدل ، وإلغاء الضرائب المستحدثة ، وإرسال أموال الحرمين الشريفين إلى مستحقيها .. الخ .. »^(١)

لقد كانت السلطة فى مصر يومئذ ، ومنذ حكم الأتراك العثمانيين لها سنة ٩٢٣ هـ سنة ١٥١٧ م موزعة بين قوى ثلاث :

- الولى التركى - [الباشا] - الذى لا يدعه السلطان يعمر طويلا فى الولاية ، كى لا يفكر فى الاستقلال بها .. ومن ثم فلم يكن له هم إلا جباية الأموال ، للدولة ، كى يحسن صورته لديها ، ولنفسه ، كى يعوض الرشاوى التى قدمها لرجال الدولة حتى يولوه مصر .. ولتأمين نفقاته الحاضرة والمستقبله ! ..
- والجند .. الذين كانوا أخلاط شتى وألوانا متنافرة تنافر الأجناس الذين ضمهم امبراطورية مترامية الأطراف ، افتقرت قيادتها إلى مزاج حضارى واحد يؤلف ويوحد هذه الأجناس ! .. ولم يكن لهؤلاء العسكر هم إلا السعى لتحصيل الرواتب والنفقات لأنفسهم « والعلوفات » لدوابهم ، وبالتعدى والسلب والنهب فى أغلب الأحيان ! ..
- وأمراء الممالك .. الذين دالت دولتهم المستقلة ، منذ الحكم العثمانى ، وظلوا ركنا فى مثلث السلطة هذا ، ينافسون الولى والجند على اغتصاب ما بأيدي الفلاحين والتجار والحرفيين من أسباب المعاش ! ..

بيد هؤلاء كانت السلطة فى مصر .. وعامة أهلها كانوا الضحايا ، موضوع السلب والنهب والتعديت ! .. ولقد كان طبيعيا ، فى مواجهة ثلوث السلطة والتسلط هذا ، أن يولد الظلم غليانا فى صدور العامة يحرك صفوفهم لمقاومة المظالم التى تعدت الحدود وفاقت التخيلات .. ولما كان الإسلام هو «أيديولوجية» الأمة والفكر الفاعل فى تكوينها النفسى وتحديد القيم التى تقدسها والمعايير التى تحتكم إليها ، فلقد كان علماء وشيوخه وحملته شريعتة - ومنهم السيد عمر مكرم - هم قادة العامة والأمة فى مواجهة مظالم الولى والجند والممالك ! ..

وزاد من دور السيد عمر مكرم فى هذه القيادة الشعبية ، وجعله أقرب من كثير من أقطابها إلى جمهور الأمة ، وأكثر من غيره تمثيلا لمطامح هذا الجمهور ، أن الرجل كان على رأس نقابة

(١) أمين سامى باشا [تقوم الليل] ج ٢ ص ١١٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

الأشراف ، الوثيقة الصلة واللصيقة عضويًا بالتنظيمات الصوفية ، تلك التي تضم في صفوفها « العامة » و « الجماهير » ؟ ! .. فهو إلى الشعب أقرب ، وبه الصق ، ولطالبه أكثر تمثيلاً ، على حين كانت المصالح الخاصة والمواقف العارضة والتوازنات المتحركة هي التي تحكم مواقف عدد غير قليل من الشيوخ والعلماء ! ..

ولقد تبدى هذا التمايز واضحاً في صفوف القيادة الشعبية عندما داهم الاستعمار الفرنسي البلاد مثلاً في حملة بونايرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] سنة ١٢١٣ هـ سنة ١٧٩٨ م ..

لقد دعت هذه القيادة ، دون استثناء ، إلى مقاومة الغزاه ، وساندت الوالى والجند والماليك في القتال ضد جيش بونايرت .. لكن الأمر اختلف بعد انتصار بونايرت على جيش الماليك .. « فالديوان » الذي كونه بونايرت من أهل البلاد ، ليتخذ « صورة » حكومتها ، قد ضم العديد من شيوخ الأزهر ، أقطاب القيادة « الشعبية » ! .. وبيانات هؤلاء الشيوخ التي تحدثت عن صداقة الفرنسيين للإسلام وللسلطان ، وعدائهم « للمسكوف » - الذين هم أعداء السلطان والإسلام - والتي دعت الشعب للطاعة والانصراف إلى أمور معاشه وشعائره دينه . مع تأدية الخراج .. والتي اجتهدت سطورها لتخذيل الجماهير عن الثورة ضد الفرنسيين .. هذه البيانات قد حملت توقعات شيوخ بالأزهر كبار ، وامتألت بها مصادر تاريخ تلك الأيام ! ..

لكن السيد عمر مكرم ، والتيار الذي يمثله في هذه القيادة الشعبية ، لم يكن من هذا القبيل ! .. لقد قاد العامة والجماهير في المقاومة المسلحة لجيش الحملة الفرنسية « وصعد - كما يقول الجبرتي - إلى القلعة ، فأنزله منها بيرقاً كبيراً - [علماً] - أسمته العامة البيرق النبوى ، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق ، وأمامه وحوله الألوف من العامة » بأسلحتهم التي هبوا ليقاوموا بها الغزاة (١) !

فلما هزمت المقاومة المسلحة للشعب ، وفر الماليك ، وانسحب العثمانيون ، انسحب معهم السيد عمر مكرم إلى مدينة يافا ، بفلسطين ، يرقب الموقف من هناك .. ورفض عضوية الديوان .. ولقد نهب الفرنسيون داره واستولوا على أملاكه ، وفصلوه من نقابة الأشراف ، وأحلوا بها أحد الشيوخ « المتعاونين » وهو الشيخ خليل البكرى ! ..

وعندما جرد بونايرت حملته على الشام ، ودخل مدينة يافا ، وأذن لمن بها من المصريين -

(١) [عجائب الآثار] ج ٤ ص ٢٩٣ .

وفيهم السيد عمر مكرم - بالعودة إلى بلادهم ، عاد الرجل إلى القاهرة ، عن طريق دمياط ، بعد ثمانية أشهر من رحيله عنها .. لكنه لم يشارك الشيوخ الذين تعاونوا مع الفرنسيين فيما ارتضوا لأنفسهم ، بل «اعتزل كل عمل» ، وظل يرقب الأحداث ، حتى حان للثورة على الفرنسيين حين في ٢٣ شوال سنة ١٢١٤ هـ (مارس سنة ١٨٠٠ م) - عندما ساندت القوات العثمانية عزم المصريين - وساعتئذ وجدنا السيد عمر مكرم يتزعم ثورة القاهرة هذه ، ويقود العامة والجواهر في قتالها لجيش الجنرال كليبر سبعة وثلاثين يوما ! .. فلما تراجع العثمانيون ، وفشلت الثورة ، انسحب الرجل مع المنسحبين .. ومرة ثانية نهبت أملاكه وفصل من نقابة الأشراف .. ودام انسحابه هذا حتى جلا الفرنسيون عن البلاد ، فعاد إلى القاهرة في ٤ ربيع أول سنة ١٢١٦ هـ ١٥ يوليه سنة ١٨٠١ م .. فاستعاد ما سلب منه ، وتقلد ، مرة أخرى ، نقابة الأشراف ! ..

لقد عمدت هذه الأحداث قيادة السيد عمر مكرم للجواهر الشعب ، فلاحها وتجارها وحرفيها ، وجمهور شيوخها والغالبية من طلاب العلم بالأزهر الشريف ، أولئك الذين كانوا وقود المقاومة والثورة على جيش الاحتلال ، والذين قاوموا رصاص الفرنسيين وبيانات شيوخ «الديوان» التي صبت اللعنات على قادة «الفتنة» - كما كانوا يسمون الثورة على الغزاة - ! - ..

وعندما عاد مثلث السلطة والتسلط - الوالى ، والجند ، والماليك - إلى سابق عهده في التنافس على السلب والنهب والتعدى ، كانت قيادة السيد عمر مكرم للجواهر الشعبية قد بلغت في التبلور والتنظيم ، من خلال أحداث المقاومة للفرنسيين ، إلى الحد الذى جعل منها قوة رأى الرجل جدارتها بأن تكون طرفا من أطراف السلطة التى تسيّر أمور البلاد ، فسعى إلى أن تكون الأمة شريكا - مجرد شريك - فى تقرير شئونها .. وعبر معارضته ومقاومته لمظالم المالك بالثورة على البرديسى فى مارس سنة ١٨٠٤ م ولظلم الوالى خورشيد باشا بالثورة عليه فى مايو سنة ١٨٠٥ م ، بلغ عمر مكرم موقع الريادة السياسية والدستورية عندما سعى ، فى ذلك التاريخ وفى تلك الظروف ، إلى أن تكون جواهر الشعب هى مصدر السلطة فى اختيار حاكمها ، ومبايعته على شروطها ، ومراقبتها تنفيذها لشروط البيعة ، وحقها فى عزله إن هو حاد عن الالتزام بتلك الشروط .. وهو الموقع الريادى الذى مثلته الثورة التى قادها لعزل الوالى التركى خورشيد باشا ، وتولية محمد على باشا [١٧٦٩ - ١٨٤٨ م] على مصر بدلا منه ، بأمر الأمة أولا ، لا بأمر السلطان العثمانى ، كما كان الحال من قبل .. إذ كان المطلوب من

السلطان ، عندئذ ، هو التصديق على قرار الجماهير ! .

لقد كان جديدا ، بل وغريبا على ذلك العصر وعلى المناخ الفكرى للسلطة العثمانية أن تتقدم جماهير ولاية من الولايات لتشارك فى السلطة ، بل وتكون مصدر السلطة فى تعيين السلطة التنفيذية بولايتها - وعلى حين كان «المنطق» العثماني يستنكر هذا الأمر ، كان عمر مكرم يذهب فى الدفاع عنه إلى الحد الذى يجعله حقا للأمة مطلقا ، لا بالنسبة «للوالى» فى الإقليم فقط ، بل وبالنسبة «للخليفة» و«السلطان» ! .. وفى حوار دار بين واحد من أنصار الوالى خورشيد باشا - عندما حوصروا فى القلعة ، من قبل الجماهير الشعبية المسلحة ، ومنعت عنهم إمدادات السلاح والطعام والماء - فى حوار بين عمر بك - الضابط الأرنؤدى ، والمستشار المقرب من الوالى - وبين السيد عمر مكرم يتجلى هذا الفكر «السياسى - الدستورى» الذى سعى عمر مكرم لسيادته ووضعه فى التطبيق منذ ذلك التاريخ ، والذى قدمه على أنه هو الفكر «السياسى - الدستورى» لشريعة الإسلام ، والذى وضعه المسلمون الأوائل موضع التطبيق ! والجبرتى يحكى وقائع هذا الحوار فى رصده لأحداث تلك الثورة الدستورية التى تمت فى شهر صفر سنة ١٢٢٠ هـ مايو سنة ١٨٠٥ م فيقول :

«عمر بك : كيف تعزلون من ولاءه السلطان عليكم ، وقد قال الله تعالى : [أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم] .

السيد عمر مكرم : أولوا الأمر : العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل - وهذا - [خورشيد باشا] - رجل ظالم . وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شئ من زمان ، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه ! .
عمر بك : وكيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل ، وتقاتلوننا؟! نحن كفره حتى تفعلوا معنا ذلك؟! !!

السيد عمر مكرم : نعم ! .. لقد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم ، لأنكم عصاة ! ..»^(١)

لقد تحركت الثورة كى تضع هذا الفكر الدستورى فى التطبيق ، فاجتمع زعماء الشعب ، وعلى رأسهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم ، بدار المحكمة - بيت القاضى - يوم الأحد ١٢ صفر سنة ١٢٢٠ هـ ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ م - ومن حولهم جماهير الثوار التى بلغ عددها

(١) المصدر السابق . ج ٦ ص ٢٢٣ .

أربعين ألفا ، والتي تصيح داعيه : « يارب يا متجلى ، إهلك العثماني ! » .. اجتمعوا وقرروا مطالب الشعب :

- ألا تفرض من اليوم ضريبة على الناس إلا إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان .
- أن تجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل حامية المدينة إلى الجيزة .
- ألا يسمح بدخول أى جندي إلى المدينة حاملا سلاحه .
- أن تعاد المواصلات في الحال بين القاهرة والوجه القبلي .^(١)

فلما رفض الوالى مطالبهم قرروا عزله ، واجتمعوا في اليوم التالي ، بدار المحكمة أيضا ، وأعلنوا قرار العزل هذا ، واختاروا محمد على باشا واليا على البلاد .. لقد عزلوا من عينه السلطان العثماني .. وولوا من عزله هذا السلطان وجعله واليا على جدة ! .. ونادوا في المدينة بقرارهم هذا .. ووضعوه في التطبيق .. ولم يأبها بمنطق خورشيد باشا الذي قال : « إني مولى من طرف السلطان ، فلا أعزل بأمر من الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر السلطنة ! »^(٢) .. ثم أرسلوا إلى السلطان طالبين التصديق على قرارهم هذا ! ..

ولأكثر من شهر ، حتى ورود مرسوم السلطان بالمصادقة على قرار زعماء الشعب ، في ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٢٠ هـ - ١٨ يونيو سنة ١٨٠٥ م كان السيد عمر مكرم هو السلطة الثورية الفعلية في البلاد ، والذي تتقدم فاعليته على محمد على باشا ! ...

فالوالى التركي خورشيد باشا متحصن مع صنفوة أتباعه بالقلعة .. والذين يحاصرونهم جماهير الشعب المسلحة المؤتمره بأمر السيد عمر مكرم ... وفي مواجهة فوضى الجند وسلهم ونهبهم وتعدياتهم تصدر «المراسيم» من عمر مكرم بأن يحمل الشعب السلاح ليحرس الدور والمتاجر والمنشآت ويردع الأجناد ، وبين يدي «المحتسب» يسير «المنادى» في العاشر من ربيع الأول سنة ١٢٢٠ هـ - ٨ يونيو سنة ١٨٠٥ م ليعلن على الملأ مرسوم القيادة فيقول : «حسبنا رسم السيد عمر الأفندي والعلماء لجميع الرعايا ، بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ويحترسوا في أماكنهم وأخطاطهم ، وإذا تعرض لهم عسكري بأذية قابلوه بمثلها ، وإلا فلا يتعرضوا له» .. وتفيدنا لهذا المرسوم أخذ الناس يقيمون المتاريس في الأخطاط - [الأحياء] ! ..

(١) الراجعي [تاريخ الحركة القومية] ج٢ ص ٣٣٤ . ٣٣٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

(٢) المصدر السابق . ج٢ ص ٣٣٨ .

يحكى الجبرتي ذلك ويقول : «وحضر أيضا «شخص» من قبل محمد على ونادى بمثل ذلك^(١) ؟ ! ..

وحتى بعد ورود المرسوم السلطاني بإقرار تولية محمد على باشا على مصر في ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٢٠ هـ - ٨ يونية سنة ١٨٠٥ م ظل عمر مكرم ركنا من أركان «جهاز الدولة» ، استنادا إلى زعامته الشعبية ، وليس مجرد زعيم شعبي .. ففي المحرم سنة ١٢٢٢ هـ مارس سنة ١٨٠٧ م ينعم السلطان على قادة «الدولة» بالرتب ، فنجد اسمه بينهم .. ويتكرر ذلك في رمضان - نوفمبر - من نفس العام ... وعندما يريد محمد على جباية الأموال ، فيعجز ، يطلب من عمر مكرم القيام بالجباية والإشراف على صرف الأموال المجموعة ، يحكى ذلك الجبرتي في أحداث ليلة الأحد ٣ صفر سنة ١٢٢٢ هـ - ١٢ إبريل سنة ١٨٠٧ م^(٢) ... ويظل ذلك وضعه ، ركنا من أركان «الدولة» حتى أوائل صفر سنة ١٢٢٤ هـ مارس سنة ١٨٠٩ م عندما نجد اسمه بين قادة الدولة الذين يشكرون للسلطان تجديده ولاية محمد على باشا على مصر ! ..

لكن القيادة الشعبية التي ضمت كبار العلماء وشيوخ الأزهر مع السيد عمر مكرم قد أصاب جدار وحدتها شرخ كبير بعد يومين اثنين من ورود المرسوم السلطاني بتولية محمد على شتون مصر ، ذلك أن أغلب «المتعممين» - وفق تعبير الجبرتي - قد اعتبروا أن مهمة هذه القيادة قد انتهت ! وأن على الشعب أن يلقى سلاحه ، تاركا الأمر كله لمحمد على وحده .. رأت الأغلبية من كبار الشيوخ ذلك ، وسعوا في سبيله ، منصرفين إلى مصالحهم الخاصة ، بل وطالبين من الوالي الجديد ثمن هذا الموقف الذي رفضه عمر مكرم ، والذي كان يتوق إليه الوالي الجديد ! ..

ويحكى الجبرتي أحداث هذا الانشقاق الذي انحاز فيه معظم كبار الشيوخ إلى محمد على - وكثير منهم كانوا قد تعاونوا من قبل مع «الحاكم» حتى عندما كان هذا «الحاكم» هو بونابرت ! .. والذي وقف فيه عمر مكرم مع جماهير الشعب ، فاتسق بذلك مع تاريخه وعلاقاته التاريخية الوثيقة بطوائف الأمة وجماهيرها ! ... يحكى الجبرتي أحداث هذا الانشقاق ، الذي نفذ من ثغره محمد على فحضر القيادة الشعبية وصنى أركانها ، فيقول : «ويوم الخميس ٢٣ ربيع أول سنة ١٢٢٠ هـ - ٢١ يونيه سنة ١٨٠٥ م - اجتمع الشيخ الشراوى والشيخ الأمير وغالب المتعممين ، وقالوا : إيش هذا الحال ؟ ! وما تداخلنا في هذا

(١) [عنايف الآثار] ج ٦ ص ٢٢٥ .

(٢) المصدر السابق . ج ٦ ص ٣٦٣ .

الأمر والفتن ؟ ! ، واتفقوا أنهم يتباعدون عن الفتنة - [الثورة] - ، وينادون بالأمان ، وأن الناس يفتحون حوانيتهم ويجلسون بها ، وكذلك يفتحون أبواب الجامع الأزهر ويتقيدون بقراءة الدروس وحضور الطلبة . وركبوا إلى محمد على ، وقالوا له : أنت صرت حاكم البلدة ، والرعية ليس لهم مقارشة - [مداخلة] - في عزل الباشا ونزوله من القلعة ، وقد أتاك الأمر فنفذه كيف شئت . وأخبروه برأيهم ، فأجابهم إلى ذلك . وركب الأغا - [مندوبا عن محمد على] - وصحبته بعض المتعممين ، ونادوا في المدينة بالأمن والأمان والبيع والشراء ، وأن الناس يتركون حمل الأسلحة بالنهار ، وإذا وقع من بعض العسكر «قباحة» رفعوا أمره إلى محمد على ، وإن كان من الرعية رفعوه إلى بيت السيد عمر النقيب ! ، وإذا دخل الليل حملوا الأسلحة وسهروا في أخطاظهم على العادة وتحفظوا على أمانهم ! »

لقد نادوا بذلك في الناس في وقت كان الولى المعزول خورشيد باشا لازال عاصيا متحصنا بالقلعة ، والجند يسعون في البلاد فسادا .. لكن الناس لم يستجيبوا لهذا النداء .. وكما يقول الجبرتي : « ... ولما سمع الناس ذلك أنكروه ، وقالوا : إيش هذا الكلام ؟! حينئذ نصير طعمة للعسكر بالنهار وغفراء بالليل ! والله لا نترك حمل أسلحتنا ولا نتمثل لهذا الكلام ولا هذه المناداة ! ... »

ولما أراد محمد على وضع هذا الأمر في التطبيق ، وهم بنزع سلاح العامة نهارا حتى لا يمتازوا به عن وضع الخفراء ! .. ونزل «الأغا» فألقى القبض على «بعض العامة المتسلحين وأخذ سلاحهم» ضج الناس بالشكوى ، وزحفت جموعهم إلى دار عمر مكرم ، فأخبرهم «بأن هذا الأمر على خلاف مراده»^(١) .

وأمام معارضة الشعب وقائده عمر مكرم لصيغة «الأمان» هذه ، تلك التي تقضى بنزع سلاح الشعب ، تعدلت الصيغة ، بحيث يبقى السلاح مع الناس نهارا وليلا ، وإن منعوا من الاستعراض به أثناء النهار .. ونادى المنادى بصيغة «الأمان» المعدلة في اليوم التالي : الجمعة ٢٤ ربيع الأول سنة ١٢٢٠ هـ ٢٢ يونيه سنة ١٨٠٥ م نادى «بالأمان ، وفتح الحوانيت والبيع والشراء ، ولا يرفعون معهم السلاح ، بل يجعلونه معهم في حوانيتهم تحذرا من غدر العسكر» . وفتحوا أبواب الأزهر ..

لكن سلوك كبار شيوخ الأزهر قد أحدث استرخاء أضر بالتعبئة الشعبية للجهاير ، فهم قد

(١) المصدر السابق . ج ٦ ص ٢٣٣ . ٢٣٤ .

انصرفوا إلى إلقاء دروسهم بالأزهر ، وألحوا على الناس كي يرموا أسلحتهم ، ففترت الهمم ورمى الكثيرون أسلحتهم « فشمخ عليهم العسكر ، وشرعوا في أذيتهم ، وتعرضوا لقتلهم وإضرارهم ! » الأمر الذى جعل الناس - كما يقول الجبرتي - « يسبون المشايخ ويشتمونهم لتخذيهم إياهم ! » .. فلما تفاقمت تعديت الجند ذهب الناس شاكين إلى السيد عمر مكرم . فقال لهم : « اذهبوا إلى الشيخ الشرفاوى والشيخ الأمير ، فهما اللذان أمرا الناس برمي السلاح ! . فلما زادت الشكوى نادوا في الناس بالعودة إلى حمل السلاح ! .. »^(١)

هكذا بدأ الشرخ الذى أصاب جدار القيادة الشعبية .. فالشيوخ الكبار رأوا أن الثورة قد انتهت مهامها بموافقة السلطان على تغيير الوالى ، ومن ثم فلا مكان لهم في عالم السياسة ، ولا محل لأن يحمل الناس السلاح ، والسلطة كل السلطة للوالى الجديد ... وعمر مكرم وأنصاره وجهاير العامة كانوا يرون أن مهام الثورة لم تنته بعد ، فهي قد قامت ، في الأساس ، لتجعل من الشعب ركنا من أركان السلطة والدولة ، وتلك مهمة مستمرة ، بل إنها لم تتبلور بعد ولم يستقر لها حال ... وهي قد نجحت في أن تجعل ولاية الوالى غير مطلقة ، بل مقيدة ومشروطة ، فلقد كانت توليتهم ل محمد على مشروطة « بسيره بالعدل ، وإقامة الأحكام والشرائع ، والإقلاع عن المظالم ، وألا يفعل أمرا إلا بمشورته - [أى مشورة السيد عمر مكرم] - ومشورة العلماء ، وأنه متى خالف الشروط عزلوه ! »^(٢) ... وتلك مهمة شاققة ، ودائمة ، تتطلب استمرار رقابة القوى الشعبية وقيادتها على الوالى وجهازه الجديد .

كما أن فوضى الجند وتعدياتهم ، واستمرار عصيان الوالى التركى المعزول ، وتريص أمراء المالك بالعاصمة وبالوالى الجديد ... جميعها مهام تجعل من تصفية الثورة ونزع سلاح الجهاير غباء يصل إلى حد الخيانة والانتحار ! ..

لكن قضى الأمر ، وانشق جدار القيادة الشعبية ، لينفذ من ثغره محمد على ، الذى كان لا يخفى نفوره من رغبة عمر مكرم جعل الشعب ركنا من أركان « السلطة والدولة » ، لأن عينه كانت على الهدف الذى قرر السعى لتحقيقه ، وهو الانفراد بالسلطة ، وتصفية ثالوثها القديم .. فهو يريد جهاز دولة يأتمر بأمره وحده ، وعلى الجميع أن يطيعوا ، وأن يتحلوا « بالولاء » ، دون الطموح لمكانة « الشركاء » ! .. ذلك أنه كان يرى في جهاز دولة من هذا

(١) المصدر السابق . ج ٦ ص ٢٣٥ .

(٢) الرافعى [تاريخ الحركة القومية] ج ٢ ص ٣٣٧ .

القبيل السبيل الوحيد لبناء مجتمع مصرى عصرى وحديث ! .. ومن هنا بدأت الصراعات ، ومظاهر الشد والجذب بين محمد على وبين عمر مكرم .. بدأت حذرة ، وبالتدريج ... لكن الانشقاق الذى أصاب صفوف العلماء قد أتاح الفرصة الذهبية لمحمد على كى يضرب زعامة عمر مكرم بقفاز هؤلاء الشيوخ والعلماء ! ..

لقد سعى محمد على إلى تكوين «جهاز دولة» يكون أدواته فى تصفية القوى الأخرى ، وفى تنفيذ النهضة الإصلاحية التى كان يحلم بها كى تحول مصر إلى امبراطورية تراث الدولة العثمانية التى كانت شمسها قد مالت إلى الغروب .. وكان استصفاء «جند منظم» فى مقدمة أركان جهاز الدولة هذا - بل لقد أراد لهذا «الجهاز» أن يكون على صورة «الجند» فى «الضبط والربط» والولاء والانقياد ! .. وكانت التشريعات والتنظيمات المالية والاقتصادية فى مقدمة أسباب الاحتكاك بينه وبين قيادة عمر مكرم .. فهو يفرض الضرائب كى يدفع رواتب الجند ويؤلف قلوبهم ويضمن انقيادهم .. والذين تفرض عليهم هذه الضرائب هم من الطوائف التى منحت ولاءها لقيادة عمر مكرم ، يذهبون إليه شاكين ، فيتدخل لرفعها أو تخفيفها^(١) ! ... وعندما اصطدمت الإصلاحات الاقتصادية «بالمترمين» ونظام «الالتزام» - وهو الشكل الذى كان سائدا فى الاستغلال الاقطاعى للأرض الزراعية - وقف عمر مكرم مع المترمين ! .. لأن «العائلات» كانت قوة من القوى التى تستند إليها زعامته .. فمحمد على يستند إلى «الجند» وإلى «جهاز الدولة» ، على حين تستند زعامة عمر مكرم إلى الطوائف وأهل الحرف والتجار والعائلات والعصبيات ! .. وهكذا حدثت المفارقة الغريبة والعجيبة .. فالثورة ، عندما افتقرت إلى القوة المنظمة والمسلحة ، استعانت فى صراعها مع الوالى وجنده وجهاز دولته ، بكل من تناقضت مصالحهم مع إنجازات النظام الجديد ، حتى ولو كانوا من أركان العهد القديم ! .. ولقد زاد من معالم هذه المفارقة أن «الأيدولوجية» الإسلامية للسيد عمر مكرم جعلته ، وإن تناقض مع النمط العثمانى وعارضه ، إلا أن هذا التناقض وتلك المعارضة لم تصل إلى درجة العداء ، على حين كان محمد على طامحا إلى بناء نموذج جديد لمجتمع عصرى وحديث .. فوجدنا زعامة عمر مكرم لا تقف عند حدود الدفاع عن التجار وأصحاب الحرف ، بل وتدافع عن «المترمين» .. وأيضا «تغازل» أمراء المماليك ! .. لقد أرادت للشعب أن يكون ركنا وشريكا فى «السلطة والدولة» ، فجعلت همها الأول الحيلولة دون انفراد محمد على «بالسلطة والدولة» ، ومن ثم دافعت عن «الشركاء» ،

(١) [عجائب الآثار] ج ٦ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ص ٧ ص ٣ .

حتى ولو كانوا من بقايا العهد القديم .. ذلك هو المأزق الذى وقعت فيه هذه القيادة .. وتلك كانت مأساتها؟ ! .. قوة ثورية ، تضطر ، حفاظا على وجودها ، إلى موالاة أعدائها ، على حين هى تعادى الذين يطمحون إلى تحقيق الإصلاحات الثورية ، بأسلوب علوى ، وبأدوات لا تقيم وزنا للشعب وقواه الثائرة !! ..

وفى إطار هذا المأزق ، الذى بلغ حد المأساة ، سار الصراع ، حذرا وتدرجيا ، بين محمد على وبين السيد عمر مكرم ... تلجأ إليه الطوائف ليخفف عنها قسوة ضرائب النظام الجديد .. وتفرغ إليه الجماهير كى يعبىء المقاومة المسلحة للغزو الانجليزى لرشيد فى المحرم سنة ١٢٢٢ هـ - إبريل سنة ١٨٠٧ م - فيأمر الناس بحمل السلاح ، ويوقف دروس العلم بالأزهر ليشترك الطلاب والشيخوخ «بالجهاد فى الانكليز»^(١) ..

وعندما تصاعدت معارضة السيد عمر مكرم لما فرضه محمد على من ضرائب وما أحدثه فى الاقتصاد الزراعى من تغييرات ، جمع عمر مكرم المشايخ يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى سنة ١٢٢٤ هـ - أول يوليو سنة ١٨٠٩ م - «وكتبوا عرضحالا إلى الباشا يذكرون فيه المحدثات من المظالم والبدع ، وختم الأمتعة - [تسجيلها نظير «دمعة»] - وطلب مال الأوسية والرزق ، والمقاسمة فى مال الفائض - [الذى كان الملتزمون تستصفونه لأنفسهم] - ... وذلك بعد أن جلسوا مجلسا خاصا ، وتعاهدوا وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة؟! ! - كما يقول الجبرتي^(٢) - ... - وكثير من هؤلاء الشيخوخ الكبار كانوا ملتزمين يتضررون من هذه الإجراءات ! -

لكن عين محمد على كانت على الثغرة التى بدأت فى جدار القيادة الشعبية منذ أربع سنوات ، وكان النفاذ منها هو قراره لضرب القيادة الشعبية لعمر مكرم ، وتصفيتها حتى قبل تصفيته قوة المالك ... لقد امتلك جندا شبه منظم ، فتخلص من أحد الأخطار ، ولقد حان الحين كى يتخلص من قيادة عمر مكرم ، عن طريق كبار الشيخوخ .. وبعبارة الجبرتي «... فلقد أخذ الباشا يدبر فى تفريق جمعهم ، وخذلان السيد عمر مكرم . لما فى نفسه منه من عدم إنفاذ أغراضه ، ومعارضته له فى غالب الأمور ، ويخشى صولته ، ويعلم أن الرعية والعامه تحت أمره ، إن شاء جمعهم وإن شاء فرقهم ، وهو الذى قام بنصره وساعده وأعانه وجمع له

(١) المصدر السابق . ج ٦ ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

(٢) المصدر السابق . ج ٧ ص ٦٧ .

الخاصة والعامّة حتى ملكه الإقليم ، ويرى أنه إن شاء فعل بنقيض ذلك ! ..» (١) .

وطلب محمد على السيد عمر مكرم ، فرفض مقابلته والصعود إليه في القلعة .. فلما ألح في طلبه وافق على أن يلقاه شريطة أن يتم اللقاء في بيت الشيخ السادات ، فازداد غضب محمد على ... وكان المأمول أن يحدو الشيخ حذو السيد عمر مكرم ، فذلك هو تعاهدهم معه ، لكنهم أسرعوا فلبوا الدعوة التي وجهت إليهم للقاء محمد على بمنزل ابنه إبراهيم .. حضر القاضي والمشايخ .. وأحضروا شيخ السادات الوفائية ، والشيخ الشرفاوى .. وأرسلوا للسيد عمر مكرم كى يحضر للتحقيق فيما بينه وبين محمد على ، فاعتذر عن عدم الحضور بتناوله دواء يمنعه من ذلك .. فضى محمد على فيما خططه ، وأعلن خلعه من نقابة الأشراف ، وتولية الشيخ السادات مكانه ، وأمر بنفيه من القاهرة في ذات اليوم - [الأربعاء ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٢٤ هـ ٩ أغسطس سنة ١٨٠٩ م] - وتطوع من الشيخ من تطوع لتهوين شأن السيد عمر مكرم والخوض في حقه ، بل وكتبوا محضرا افتروا عليه فيه ، ورعموا أنه أدخل في سجل «الأشراف» أقباطا ويهودا دخلوا دين الإسلام ! .. وطلب بعضهم إمهاله ثلاثة أيام ليصنّف شتونه بالقاهرة ..

أما الرجل ، الذى فرض عليه النفي من قبل مرتين ، فإنه لم يجزع ، بل قال : الآن قد استرحت من هذا العباء - ولعله قد سعد للتخلص من المأزق الذى وقعت قيادته فيه ! - لكنه طلب أن يكون نفيه إلى أرض لا سلطان عليها لمحمد على : «الطور» ، أو «ورنة» - وذلك بعد أن رفض محمد على أن تكون بلدته «أسيوط» هى منفاه .. لكن محمد على رفض أن يجيب رغبته ، وخيّر بين الاسكندرية وبين دمياط ، فاختار دمياط ..

وفى دمياط أمضى من سنة ١٢٢٤ هـ سنة ١٨٠٩ م حتى سنة ١٢٢٧ هـ سنة ١٨١٢ م .. ثم انتقل إلى مدينة طنطا فأقام بها حتى سنة ١٢٣٤ هـ سنة ١٨١٨ م ، عندما تآقت نفسه أن يجح إلى بيت الله الحرام ، وكان محمد على قد انتصر في حربه ضد الحركة الوهابية ، فأرسل إليه عمر مكرم حفيده مهثا ، وملتمسا الإذن له بالحج ، فأذن له ، وأثنى عليه ، وتحدث عنه كوالد له ، وأمر بأن تكون عودته من الحجاز إلى منزله بالقاهرة ، فعاد إليها ، واحتفل به الناس أياما ، مدحه فيها الشعراء ، ثم اعتكف عن لقاء الجمهور ..

فلما كانت فتنة من الفتن التي تعرض لها نظام محمد على باشا ، خشى أن يكون لعمر مكرم

(١) المصدر السابق . ج ٧ ص ٦٨ .

ضلع فيها ، فطلب إليه العودة إلى منفاه بطنطا سنة ١٢٣٧ هـ سنة ١٨٢٢ م . فلم يلبث ، بعد عودته إليها ، أن انتقل إلى جوار ربه فيها ... مات مودة الأسد الذي تحولت أخطاؤه هو وجرائم الآخرين نحوه إلى أعواد قفص حبست فيه قوته حتى أصابها الذبول ! ..

لكن .. هيهات أن يطوى الموت صفحة كهذه ، زاخرة بالأحلام النبيلة ، مليئة بالمساعي الحميدة ، تفيض ، أبدا ، على الذين يفقهون التاريخ بالعبء والعظات ! .

- ١٤ -

رفاعة الطهطاوى

[١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣ م]

رائد التنوير فى العصر الحديث

هو رفاعه بن بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع .. يتصل نسبه ، لأبيه ، بالحسين بن على بن أبى طالب ، - رضى الله عنها - .. ولأمه بـ «الخزرج» - من الأنصار - .. وكان مولده بمدينة «طهطا» ، بمحافظة «سوهاج» ، بصعيد مصر فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٠١ م (٧ جمادى الثانية سنة ١٢١٦ هـ) فى ذات اليوم الذى جلت فيه حملة بونابرت عن الديار المصرية ! ..

وبسبب الإصلاحات الاقتصادية التى أنجزتها حكومة محمد على باشا [١٧٦٩ - ١٨٤٩ م] فقدت أسرة الطهطاوى امتيازات «الالتزام» - شكل الاستغلال الاقطاعى الزراعى الذى ساد حتى ذلك التاريخ - الأمر الذى اضطر والده إلى الزواج عن طهطا سنة ١٨١٣ م ، عندما كان رفاعه فى الثانية عشرة من عمره ، فأقام بعدة قرى ، بالصعيد ، طالبا العيش لأسرته ، ومهيئا لولده السبيل لحفظ القرآن الكريم .. وعندما انتقل الوالد إلى جوار ربه عاد رفاعه إلى «طهطا» ليواصل نشأته فى كفالة بيت من بيوت العلم هو بيت أخواله - آل الأنصارى - .. حيث تعلم على علماء هذا البيت «المتون» التى كانت متداولة فى ذلك العصر ، فى الفقه والنحو وفنون المعقول والمنقول ! ..

وفى السادسة عشرة من عمره [١٨١٧ م ١٢٣٢ هـ] ركب النيل إلى القاهرة ، فى رحلة شاقة ، استغرقت أسبوعين ، ليلتحق بالأزهر الشريف ، وفيه ظهرت أمارات نجابته ، تلك النجابة التى أعانته على إتمام التحصيل السريع ، فتخرج من الأزهر بعد ست سنوات - سنة ١٨٢١ م - وانتقل من موقع الطالب إلى مكان المدرس فى نفس المعهد العتيق ! .. لقد تتلمذ الطهطاوى ، بالأزهر ، على شيوخ أجلاء كثيرين : الشيخ الفضال ، والشيخ حسن القويسنى ، والشيخ البخارى ، والشيخ البنا ، والشيخ الدمنهورى ، والشيخ محمد حبيش ، والشيخ

البيجورى ، والشيخ أحمد الدهوجى الخ.. الخ.. ثم أصبح واحداً من هؤلاء الشيوخ.. لكن أبرز شيوخه وأكثرهم تأثيراً على فكره وعقله كان هو الشيخ حسن العطار [١١٨٠ - ١٢٥١ هـ - ١٧٦٦ - ١٨٣٥ م] ذلك الذى أوصله العلم إلى كرسى مشيخة الأزهر ، وأوصلته استنارته إلى إدراك ما فى الحضارة الأوربية القادمة مع علماء الحملة الفرنسية من أسباب للقوة العلمية تتطلب من الأمة أن تنهض وتترقى ، سالكة سبيل التغيير واليقظة والتجديد .. وكما كان للشيخ العطار عند الطهطاوى - التلميذ - مكانة خاصة ، كان للتلميذ - الطهطاوى - مكان متميز عند الشيخ العطار ! .. بل لقد استمرت هذه التلمذة الفكرية حتى بعد أن أصبح الطهطاوى واحداً من الشيوخ فى الأزهر الشريف ، إذ كانا يشتركان فى مطالعة الكتب « الغريبة » التى لا تتداولها أيدي الشيوخ ! ..

وبعد عامين من التدريس فى الأزهر - [١٨٢٢ - ١٨٢٤ م] دخل الطهطاوى سلك الوظائف « الميرية » واعظوا وإماما فى الجيش .. فلما كانت سنة ١٨٢٦ م طلب محمد على باشا من شيخ الأزهر الشيخ حسن العطار ترشيح شيخ يتولى الإمامة الدينية لأكبر بعثات مصر العلمية المسافرة إلى باريس ، فرشح العطار تلميذه رفاعه ، وأوصاه أن يكتب مشاهداته فى باريس ، ليقدم لأبناء أمته كتابا فى أدب الرحلات كما فعل من قبل ابن بطوطة وابن جبير ! ..

ومنذ إقلاع الباخرة بطلاب البعثة ، ومعهم رفاعه ، من الاسكندرية فى ٦ رمضان سنة ١٢٤١ هـ - ٢٤ إبريل سنة ١٨٢٦ م - شرع الشيخ فى تعلم اللغة الفرنسية ، فأنبأ بذلك عن طموحه لما هو أكثر من إمامة البعثة فى الصلاة وتعليمها أمور الدين ! وفى باريس واصل دراسة الفرنسية ، فاقتطع من مخصصاته ، التى لم تتعد ٢٥٠ قرشا ، أثمان الكتب والدروس ، مركزا على إجادة القراءة والفهم ، كى يترجم إلى العربية ، التى كان يجيدها ، علوم الحضارة الأوربية التى تألفت فى الفكر الفرنسى فى ذلك التاريخ .. وعندما لفتت مبادرته هذه أنظار المشرفين على البعثة ، فكتبوا عنها إلى الحكومة المصرية ، قررت إضافته إلى أعضاء البعثة ، كدارس ، فضلا عن إمامته لها فى أمور الدين ! ..

وبعد عشرين شهرا - فى ٢٨ فبراير - أول مارس سنة ١٨٢٨ م - اجتاز الطهطاوى ، بنجاح أول امتحان . وتقرر أن يتخصص فى الترجمة من الفرنسية إلى العربية . بل وأنجز ترجمة كتاب [مبادئ العلوم المعدنية] وتقويما لمصر وسورية ، وأرسلها للحكومة المصرية ليطبعا فى مطبعة بولاق ! .. ومنذ ذلك التاريخ قرر رفاعه أن ينهض فى حياة أمته بذات الدور الذى لعبه المترجمون فى العصر العباسى ، فهو يريد تجديد فكر الأمة وحياتها بإتاحة الفكر الحضارى الفرنسى

لعقول أبنائها ، كما فتح المترجمون الأوائل نوافذ للعقل العربي الإسلامي على مختلف الحضارات .. لقد تتلمذ في باريس على علماء أجلاء ، منهم «جومار» و«سلفستردى ساسي» و«كوسان دي برسفال» .. الخ .. الخ .. وقرأ لأعلام بارزين ، من مثل : «متسكيو» و«جان جاك روسو» .. الخ .. الخ .. وترجم ، قبل أن يعود إلى مصر سنة ١٨٣١ م سنة ١٢٤٧ هـ ، أكثر من اثني عشر نصا فرنسيا ، ما بين رسالة ومقالة وكتاب ، كما ألف كتابه الفذ [تخليص الإبريز في تلخيص باريز] في صورة بحث اجتاز به الامتحان النهائي الذي عقد في ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٠ م ، وهو الكتاب الذي أراد به - كما قال أحد أساتذته - «أن يوقظ أهل الإسلام ، ويدخل عندهم الرغبة في المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعلم اللغات الأخرى ، والترقي في صنائع المعاش ..» ! .. أما هو فقد سأل الله في مقدمته «أن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام ، من عرب وعجم ، إنه سميع مجيب ، وقاصده لا يحيب !» .. وبعد عودة الطهطاوى إلى مصر ، قدم إلى أستاذه الشيخ حسن العطار كتابه هذا ، فقرظه ، وقدمه إلى محمد علي باشا ، الذي أعجب به ، وأمر بقراءة نسخته المخطوطة في «قصوره وسراياته» ، وبعد طبعه وترجمته إلى التركية وزعت نسخته على الدواوين والوجوه والأعيان ، وترتبت مطالعته في المدارس المصرية ، فكان بداية الريادة لذلك الجهد الفكرى العملاق الذى أيقظ به الطهطاوى الأمة ، ونقلها به من العصور المظلمة إلى أعتاب عصرها الحديث ! ..

ومن خلال المناصب العديدة التى تولاها الطهطاوى ، وبواسطة الأعمال الفكرية الكثيرة التى ترجمها أو أشرف على ترجمتها ، وكذلك المؤسسات التعليمية والمنابر الثقافية التى أنشأها وأشرف عليها أو أسهم فيها ، من خلال كل هذه السبل والأدوات رسخت قدم الطهطاوى في النهضة الفكرية والتعليمية والتحديثية ، كرائد لأمتة في العديد من الميادين ..

● بعد أن عمل مترجما بمدرسة الطب واجهته مشكلة المصطلحات ، فنقب في تراثنا العلمى عنها حتى بعثها ، وعند افتقادها كان يلجأ للعامة ، ثم كان يستعير المصطلحات الفرنسية إذا لم تسعه العربية الفصحى ولا العامية .. ثم كانت «مدرسة الألسن» التى قامت ، بناء على اقتراحه ، سنة ١٨٣٥ م سنة ١٢٥١ هـ ، والتى أقامها «جامعة» على غرار «مدرسة اللغات الشرقية» بباريس «لينتفع بها أبناء الوطن ، ويستغنى بها عن الدخيل ، ولتقليل التغرب في بلاد أوروبا ..» .. كانت هذه المدرسة مع «قلم الترجمة» الذى أنشأه سنة ١٨٤١ م الناقدتان اللتان أطل منها العقل العربى على الحضارة الأوربية بعد عزلة استمرت عدة قرون ! ..

● وفي ميدان البعث الوطنى والقومى كان الطهطاوى رائدا بما أبدع من أناشيد وطنية ، وبما

نظم من قصائد سجلت انتصارات الجيش الوطني ضد الأتراك والأوربيين .. وبأول متحف للآثار الوطنية ، اقترحه وأقامه ، ليلفت نظر الأمة إلى عمقها الحضارى ، وليجعل لآثارها دورا فى شحن أجيالها الحاضرة بالكبرياء المشروع ، كى تنهض للبناء وتواجه التحديات ! ..

● وفى الصحافة ، تحول بـ [الوقائع المصرية] - رائدة الصحافة العربية - من نشرة تركية ركيكة تترجم للعربية ، إلى صحيفة عربية تترجم إلى التركية ، عندما أشرف عليها سنة ١٨٤٢ م سنة ١٢٥٧ هـ .. كما أشرف على مجلة [روضة المدارس] التى صدرت سنة ١٨٧٠ م ١٢٨٧ هـ فجعل أسرة تحريرها أشبه ما تكون بالمجمع العلمى الذى ضم أبرز العلماء فى مختلف التخصصات .. هذا إلى [المجلة العسكرية] التى أصدرها ، بالعربية والفرنسية ، كدورية متخصصة للعسكريين ! ..

● وفى ميدان «صنع الرجال» رعى الطهطاوى تكوين أجيال ثلاثة . تعلموا منه ، ثم عملوا معه ، وقدموا للحركة الفكرية ، بواسطة مطبعة بولاق كنوزا فكرية بلغ عدد كتبها أكثر من ألفى كتاب ، خلال أربعين عاما فقط .. على حين لم تقدم مطابع الامبراطورية العثمانية ، خلال قرن من الزمان - ١٧٢٨ - ١٨٣٠ م - سوى أربعين كتابا ، أغلبها شعوذة وخرافات ! ..

● وفى التأليف انعطف الطهطاوى إلى ميادين كانت غريبة على المثقف والمفكر التقليدى يومئذ ، فكتب عن التمدين فى الميادين العملية ، زراعية وصناعية .. الخ .. الخ .. وفى التاريخ انتقل من «نمط الحوليات» إلى التأريخ لحضارة الأمة فى ترابطها بغيرها من الأمم والحضارات ، وكذلك فعل عندما كتب مؤرخا للإسلام ودولته ورسوله - عليه الصلاة والسلام - ! ..

فإذا علمنا أن الطهطاوى قد ترجم فى التاريخ والجغرافيا ، وفى الطب ، والعلوم ، والقانون ، والهندسة ، وأيضا فى الأدب والشعر... كما ألف فى فنون شتى ، وأتسمت مؤلفاته بالطابع الموسوعى ، وتحلت بما تميز به عصره من الترويج عن القارىء بالمليح والتنوع والاستطرادات .. وإذا علمنا أن مؤلفاته و مترجماته قد تعدت الستة والعشرين ، وأن بعضها قد اشتمل على عدة مجلدات ، أدركنا حجم التأثير الرىادى الذى أحدثه الرجل فى هذا الميدان .

ويزيد من قيمة الطهطاوى ويؤكد عظمته التنبيه إلى أن الطريق الذى سلكه إلى النهضة والتجديد لم يكن ممهدا ، بل لقد حفل بالعديد من العقبات ، ولقيت الرجل عليه محن ومصاعب كانت كفيلة ببعث اليأس فى نفسه من الإصلاح ! ...

لقد عاصر الطهطاوى خمسة من حكام مصر الحديثة: محمد على باشا [١٧٦٩ - ١٨٤٩م] وإبراهيم باشا [١٧٨٩ - ١٨٤٨ م] وعباس باشا الأول [١٨١٣ - ١٨٥٤ م] وسعيد باشا [١٨٢٢ - ١٨٦٣ م] وإسماعيل باشا [١٨٣٠ - ١٨٩٥ م] .. ورغم ملاحظاته الانتقادية لبعض التطبيقات في تجربة محمد على الإصلاحية إلا أن عهد محمد على ، با شهد من تحولات عظمى انتقلت بمصر من العصور المظلمة إلى العصر الحديث ، قد أتاح كل الفرص كى يحقق الطهطاوى الكثير مما فى عقله وقلبه من طموح .. ولم يختلف الأمر فى الشهور التى تولى الحكم فيها إبراهيم باشا .. لكن الأمر قد اختلف بعد تولى عباس باشا الأول خديوية مصر فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م (٢٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ لقد كان عباس حفيدا لمحمد على ، وليس ابنا له مثل سعيد .. لكنه كان أكبر سنا من سعيد ، فسبقه إلى منصب الخديوية ، الأمر الذى كان موضع معارضة من كثير من رجالات الدولة الذين عملوا مع محمد على .. وكان عباس نفورا من الانفتاح على الحضارة الأوربية ، ومن ثم مجافيا لنهج الرجال الذين تربوا وعملوا فى إطار هذا الانفتاح .. ثم إنه قد تولى السلطة فى مرحلة الانكماش ، إن لم تكن التصفية ، لكثير من جوانب تجربة محمد على الإصلاحية ، ومن ثم فلقد كان توليه السلطة إيدانا بموقف عدائى من كثير من الكوادر الذين مثلوا أركان الاستنارة والإصلاح فيما تقدم حكمه من عقود .. وهكذا بدأت متاعب الطهطاوى مع النظام الجديد ! .. لقد أغلق عباس مدرسة الألسن ، وعطل الصحف ، وخفض حجم المدارس والبعثات العلمية ... فما كان من الطهطاوى إلا أن أعاد طبع كتابه [تخليص الأبريز فى تليخيص باريز] ؟ .. كموقف ضد هذا التحول الرجعى الذى يقوده عباس ، وعندما غضب عباس على الطهطاوى أنزله من مكانه البارز فى جهاز الدولة ، وجرده من مناصبه ، ونفاه إلى السودان فى صورة ناظر مدرسة ابتدائية ومعه كوكبة من أبرز علماء مصر ، نفوا هم الآخرون ، فى صورة مدرسين فى هذه المدرسة الابتدائية ! فقفى رفاعه فى منفاه أربع سنوات [١٨٥٠ - ١٨٥٤ م] غالب فيها عوامل اليأس والحمول والإحباط .. لقد حاول الهرب من المنفى ، فلما عز عليه ذلك تغلب على سلبيات واقعه بما قدم لأبناء السودان من خدمات تعليمية ، وبما عكف عليه من المطالعة ، وبالعمل الفذ ، والموحى ، الذى ترجمه وهو [مغامرات تلامك] تلك الرواية الرمزية التى ألفها القس الفرنسى «فنون» Fénelon بقصد تقويم الحاكم والنصح للأمير ! ... وفى المنفى تفجرت شاعرية الطهطاوى ، فتوجه بالقصيدة إلى أولى الأمر حينما ، وإلى الرسول ، - صلى الله عليه وسلم - ، حينما آخر ، لكنه عدل عن إرسال ما نظم إلى الحكام ، بل لقد جاءت قصيدته التى توجه بها إليهم من نفس البحر وعلى نفس القافية التى نظمت عليه وعليها القصيدة الشهيرة التى مطلعها :

لقد أسمعت إذ ناديت حيا ولكن لاحياة لمن تنادى؟! ..

وعندما توفى الخديو عباس ، مقتولا ، وخلفه سعيد باشا في ١٤ يوليو سنة ١٩٥٤ م أعاد الرجال الذين نفاهم عباس ، فرجع رفاعة إلى القاهرة ، ليعاود نشاطه ، لكن دون كامل طاقاته .. لقد تولى عددا من الوظائف ، فانتقل من وظيفة عضو و مترجم بمجلس المحافظة إلى ناظر «المكاتب» ، إلى ناظر ثان للمدرسة الحربية ، وناظر لمدرسة الهندسة الملكية والعمارة ، وتفتيش مصلحة الأبنية .. ومن أهم إنجازاته في تلك الفترة مشروعه لإحياء التراث العربي الإسلامي ...

لكن السلطة عادت فتكرت له ، بل وفصلته من الخدمة في ٧ مارس سنة ١٨٦١ م ؟ ! .. وظل الرجل عاطلا عن العمل لأكثر من عامين حتى رحل عهد الخديو سعيد ، وجاء عهد الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٣ م فانفتحت الأبواب واسعة أمام الطهطاوى ، في ظل حكم حاكم أراد مواصلة تجربة محمد على ، كى يواصل تحقيق مشروعاته الفكرية والتعليمية التي بدأها منذ سنوات .. لقد شغل وظيفة «قومسيون» ديوان المدارس - الذى كان بمثابة وزارة التربية والتعليم - .. ورأس مجلس المكاتب الأهلية .. وأنشأ قلم الترجمة ، وأصبح ناظره ، وأنجز ترجمة القانون المدنى والقانون التجارى .. ورأس تحرير مجلة [روضة المدارس] .. وتأكدت ريادته للحركة الفكرية بمؤلفاته التي ألفها في تلك الفترة ، والتي مثلت نضجه الفكرى ، وفي مقدمتها كتابه [مناهج الأبواب] الذى خصصه لمعالجة قضية «التمردن» ، وأودع فيه فكره الاجتماعى .. وكتابه [المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين] الذى حوى فكره فى التربية ، والوطنية ، والمدنية .. ومشروعه الطموح لكتابة تاريخ الحضارات من خلال كتابته لتاريخ الحضارة المصرية ، فى علاقاتها بالحضارات التي احتكت بها وتفاعلت معها ، وهو المشروع الذى أنجز منه قسمين ، أولهما فى التاريخ القديم - [أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل] - ، وثانيهما [سيرة الرسول ، - عليه الصلاة والسلام - ، وتاريخ الدولة الإسلامية الأولى - [نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز] - ...

لكن الأجل لم يمهل رفاعه الطهطاوى حتى يكمل مشروعه الطموح ، ويحقق كل أمانيه ، فاختره ربه إلى جواره يوم الثلاثاء غرة ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ هـ - ٢٧ مايو سنة ١٨٧٣ م ، عن اثنين وسبعين عاما ، حقق فيها لمصر خاصة وللعروبة والإسلام عامة فتوحا مبنية فى ميادين الفكر والتربية والتعليم ، جعلت منه الرائد العملاق الذى لم يكذب أهله فى كل هذه الميادين ! ..

لقد أراد إيقاظ العرب والمسلمين من غفلة العصور المظلمة .. وحقق الكثير مما أراد .. حتى
لقد أصبح الأب الشرعى لحركة اليقظة والإحياء التى أدخلت أمتنا إلى عصرها الحديث ..
وصديق أمير الشعراء أحمد شوقى عندما خاطب ابنه على فهمى رفاة ، قائلا :
يابن من أيقظت مصرًا معارفه أبوك كان لأبناء البلاد أبا ؟ ! ..

* * *

نعم .. لقد قدم رفاة ومدرسته الفكرية نموذج : « المثقف - رجل الدولة » ، الذى مارس
كل أنشطته التنويرية من خلال الدولة وأجهزتها ، لأن دولة محمد على كانت هى جهاز التنوير
الوحيد فى البلاد ! .. ومن ثم فلقد جاء فكر هذه المدرسة ، إلى حد كبير ، تعبيرا عن اتجاهات
هذه الحركة التنويرية والتحديثية التى بدأت بالشرق العربى مع قيام الدولة المصرية المدنية الحديثة
سنة ١٨٠٥ م ، وهو التاريخ الذى دخل بالمنطقة إلى رحاب العصر الحديث .

ولقد كان نصيب الطهطاوى ، الكاتب والمترجم والمعلم ، فى هذا البناء كبيرا .. فهو قد ألف
عشرين كتابا ، وترجم ستا وعشرين ، وفيها ارتاد الآفاق الجديدة ، وبها عبرت الثقافة العربية
من العصور الوسطى إلى عصر اليقظة والاحياء والتنوير ..

وعلى عكس حركات التجديد «السلفية - النصوصية» التى كانت تحذر مخالطة الأوربيين ،
فضلا عن التفاعل معهم والأخذ عنهم ، لأنها كانت تعيش فى إطار الفكر القديم الذى استقر منذ
العصور الوسطى ، والذى يقسم الناس إلى «مؤمنين» و «كفار» ، على عكس هذا الموقف دعا
الطهطاوى إلى مخالطة الأوربيين ، والتفاعل مع حضارتهم ، والافتداء بهم ، والأخذ عنهم فيما
لا يخالف القيم والثوابت والشريعة والدين .. ولقد قدم لهذه النتيجة بمقدمات قسم فيها البشر
تقسما جديدا ، لا يقوم على معايير «الكفر» و «الإيمان» ، وإنما يقوم على معايير «التحضر»
و «الحشونة» ! .. فالناس عنده مراتب ثلاث :

١ - الهمل المتوحشون ...

٢ - والبرابرة الحشونون ...

٣ - وأهل الأدب والظرافة والتحضر والتقدم والتحصير^(١) ..

وهو يضع عددا من الشعوب «المؤمنة» بالإسلام فى مرتبة «البرابرة الحشونين» ، بينما يضع

(١) «الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى» ج ٢ ص ١٦ .

الأوربيين في مرتبة « أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر » .. وهو يعتبر مخالطهم والتفاعل معهم « المغناطيس الذى يجلب المنافع .. فمخالطة الأعراب ، لا سيما إذا كانوا من أولى الألباب ، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجيب العجيب .. »^(١) .. وهو يعتبر أن الصلات التي عقدت بين مصر وبين الحضارة الأوربية ، في عهد محمد على باشا ، واحدة من أهم الانجازات .. ولو لم يكن لمحمد على فضل سواها لكفاه فخرا ، لأنها هي التي جددت شباب الأمة وأعانتها على الانتصار على ذلك التحدى المتمثل في فكر العصور المظلمة فلو لم يكن محمد على من المحاسن إلا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبية ، بعد أن ضعفت الأمة المصرية بانقطاعها المدد المديدة والسنين العديدة ، لكفاه ذلك ، فلقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد ، وآنسها بوصول أبناء الممالك الأخرى والبلاد ، لنشر المنافع العمومية ، واكتساب السبق في ميدان التقدمية ! .. »^(٢) .

والطهطاوى إذ يواجه فكرية العصور الوسطى ، بالتفاعل مع الحضارة الأوربية ، والأخذ عنها ، يمضى ناقدا قيم تلك الفكرية القديمة .. فهو يدعو إلى حماية الدين ، والاعتزاز به ، ولكنه يكره التعصب له ، وخاصة إذا كان هذا التعصب من الدولة ، ذلك « أن الملوك إذا تعصبوا لدينهم ، وتداخلوا في قضايا الأديان ، وأرادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفين لهم ، فإنما يحملون رعاياهم على النفاق ، ويستعبدون من يكرهونه على تبديل عقيدته ، ويتزعون الحرية منه ، فلا يوافق الباطن الظاهر ، فمحض تعصب الإنسان لدينه ، لاضرار غيره ، لا يعد إلا مجرد حماية ، أما التثبيت بحماية الدين لتكون كلمة الله هي العليا فهو المحبوب المرغوب .. »^(٣) .

والأمر الذى لا شك فيه أن الطهطاوى ، وهو يبشر بهذا الفكر ، إنما كان يدين فكرية العصور الوسطى وسلوك سلاطينها ، ويعبر عن تأثره بجزئية من جزئيات « العلمانية الأوربية » ، وإن يكن فكره هذا ، عند التأمل ، هو الفكر الأصيل لشريعة الإسلام ، المنحازة تماما إلى حرية الضمير في الاعتقاد ، والمعادية تماما للإكراه في الدين ! ..

* * *

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٤٤١ ، ٤٤٢ .

(٣) المصدر السابق . ج ١ ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

وهو يحدث قومه عن قضية أنستهم إيّاها عصورهم المظلمة .. قضية : من هم «العلماء» ؟ .. فهم لم يعودوا يعرفون من العلم إلا علم الدين ، و «العلماء» عندهم هم شيوخ الأزهر فقط ، وهؤلاء الشيوخ لا يدرسون إلا «العلوم الأدوات» ، ولاحظ لهم من «علوم المقاصد والغايات» ، وخاصة العقلية منها .. وهو يستخدم إبراز الواقع الحضارى للحضارة الفرنسية فى هذه القضية لنقد الواقع المحلى ، والاشارة إلى ما هو أمثل ، فيقول لقارئة : « .. ولا تتوهم أن علماء الفرنسيين هم القسوس ، لأن القسوس إنما هم علماء الدين فقط ، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا ؟ ! .. وأما ما يطلق عليه اسم العلماء فهو من له معرفة فى العلوم العقلية .. فإذا قيل فى فرنسا : هذا الإنسان عالم ، لا يفهم منه أنه يعرف فى دينه ، بل إنه يعرف علما من العلوم الأخر .. وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى فى العلوم عن عداهم ، وبذلك تعرف خلوبلادنا عن كثير منها ، وأن الأزهر وجامع بنى أمية ، بالشام ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين ، بفاس ، ومدارس بخارى ، ونحو ذلك ، كلها زاخرة بالعلوم النقلية ، وبعض العلوم العقلية . كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية ..» (١) .

ويقتحم الطهطاوى على الشرق عالم «الحريم» ! .. فيبشر بتساوى المرأة والرجل إلا فى ذلك «الفرق اليسير الذى يظهر فى الذكورة والأنوثة وما يتعلق بهما ..» (٢) .. ويطلب تعليم المرأة منذ سنة ١٨٣٦ م .. بل ويدعو إلى إشراكها فى العمل الذى تطيقه ، مثلها فى ذلك مثل الرجال ، لأن عملها يصونها عن الانحراف ، ويقربها من الفضيلة ، على عكس فكرية العصور الوسطى فى هذا الموضوع «... فيمكن للمرأة ، عند اقتضاء الحال ، أن تتعاطى من الأشغال ما يتعاطاه الرجال ، على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة .. فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة !» (٣) .

بل لقد جعل الطهطاوى من احترام المرأة فى المجتمع ، وحصولها على حقوقها كإنسانة ، معيارا لما عليه المجتمع من التمدن والتحضر ، «فكلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أديهم وظرافتهم . فعدم توفية النساء حقوقهن ، فيما ينبغى لهن الحرية فيه ، دليل على الطبيعة المتبربرة ! ..» .

(١) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٥٦ .

(٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٩٣ .

ومن نظم العصور الوسطى وقيمه ، التي كانت تمثل تحديا لحركة الاستنارة والتطور يومئذ : النظام الإقطاعي ، الذي كانت تتربع على قته بمصر يومئذ طبقة الشراكية المعادية للعروبة والعنصر الوطني .. ولقد كانت قيم هذه الطبقة عقبة في طريق حركة التنوير واليقظة ، كما كان الاقطاع كنمط إنتاجي في الزراعة ، وما يرتبط به من علاقات ظالمة بين الفلاح المصرى الكادح بين الاقطاعى المتبطل ، كان هذا الاقطاع عقبة أمام دخول المجتمع إلى رحاب النمو الرأسمالى ، الذى عرفته أوروبا ، والذى صنع ، بروح العلم والعقلانية والاستنارة ، الحضارة التى أعجب بها الطهطاوى . وعلى الرغم من أن الطهطاوى قد أملاك من الأرض مساحة كبيرة إلا أنه انحاز إلى صف العمل الزراعى ورجح كفته على كفة حق الملكية الزراعية : فسأله : « هل منبع الغنى والثروة هو الأرض ؟ .. أو أن الشغل هو أساس الغنى ومنبع الأموال المستفادة ؟ » .. وكانت أجابته حاسمة فى الانحياز إلى العمل ، الذى رآه العنصر الذى يعطى الأشياء قيمتها : « .. إن الشغل يعطى قيمة لجميع الأشياء التى ليست متقومة بدونه .. فالمدار على العمل فى الرواج .. وهو منبع السعادة الأولى .. ولو زرعنا أرضا خصبة ، وميزنا ما يمكن أن ينسب من إيراداتها للعمل ، وما ينسب للخصوبة منه ، وفرزنا كلا على حدة وجدنا العمل أقوى من محصول الخصوبة »^(١) .

ولم يكن الطهطاوى ، بهد الحديث المنحاز للعمل الزراعى ضد عائد الملكية الزراعية ، مفكرا اشتراكيا ، كما توهم البعض ، لأنه قد انتقد ، صراحة ، الفكر الاشتراكى عندما هاجم سان سيمون Sant simon (١٧٦٠ - ١٨٢٥ م) وأفكاره الاشتراكية ، وعندما عمم هجومه على كل الفكر المائل فى التاريخ ، عند القرامطة والمزدكيين^(٢) ! .. وإنما كان داعية لإزاحة الاقطاع ، الذى أصبح عقبة فى طريق النظام الذى رآه - بصدق - أكثر النظم تقدما يومئذ بالنسبة للمجتمع ، وهو التنمية على أساس رأسمالى .. فهو يدعو إلى إقامة الشركات المساهمة - «الشركات السلمية» - وإلى إنشاء البنوك - «جمعيات الاقتراضات العمومية» - التى «بها تتقدم التجارة والزراعة ، وترقى الدولة والملة ..»^(٣) .. كما يعتبر الحرية الاقتصادية - (الليبرالية الاقتصادية) - كما كانت عليها فى أوروبا يومئذ - أعظم الحريات التى يطمح إليها المجتمع ، فيقول : «إن أعظم حرية فى المملكة المتمدنة : حرية الفلاحة ، والتجارة ، والصناعة ، فالترخيص - (الإباحة) - فيها من أصول فن الادارة الملكية ، وقد ثبت بالأدلة

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ٣١٠ - ٣١٢ .

(٢) المصدر السابق . ج ٣ ص ٥٣٦ ، ٥٣٧ .

(٣) المصدر السابق . ج ١ ص ٥٧٩ .

والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنافع العمومية ، وأن النفوس مائلة إليها من القرون السالفة ، التي تقدم فيها التمدن ، إلى هذا العصر ..»^(١) .

فهو مع «العمل» أكثر مما هو مع «الملكية» إذا كان الحديث عن «الأرض» . لأنه ضد الاقطاع ، يريد أن يزحجه من الطريق بعد أن أصبح عقبة أمام التطور الرأسمالي الذي دعا إليه ، قاعدة مادية للمجتمع في الاقتصاد . وإلى التنوير الذي صاحبه ، قبا وبناء علويا للمجتمع الحديث .. وهو ، بهذه الدعوة ، إنما كان مبشرا بعصر جديد ، وداعية لإزالة آثار العصور الوسطى والمظلمة . في الاقتصاد وفي القيم والأفكار .. وعندما دعا بدعوته هذه كانت التجربة الأوروبية تملأ منه السمع والعقل والفؤاد ..

وتبعاً لهذه الليبرالية الاقتصادية ، ولزوما لها ، دعا الطهطاوى إلى الليبرالية السياسية ، وهو في هذا الميدان قد تصدى - وإن على الاستحياء - لنمط الحكم الشرقى في التفرد بالسلطة والاستبداد بمقاليد الأمور .. فهو يغرى الحاكم بحكم شعب من الأحرار الطائعين اختياراً ، لأنهم أفضل وأنفع من العبيد الذين يخضعهم الخوف من السلطان .. «فن ملك أحرارا طائعين كان خيرا ممن ملك عبيدا مروعين!»^(٢) .. وهو يدعو فومه إلى نمط الحرية كما عرفته المجتمعات الأوروبية المتحضرة والمتقدمة يومئذ ... «ذلك لأن حقوق جميع أهالى المملكة المتمدنة ترجع إلى الحرية .. والإنسان الحرياح له أن ينتقل من دار إلى دار ، ومن جهة إلى جهة . بدون مضايقة ولا إكراه مكره ، وأن يتصرف كما يشاء من نفسه ووقته وشغله ، فلا يمنعه من ذلك إلا المانع المحدود بالشرع - (القانون) - أو السياسة ، مما تستدعيه أصول مملكته العادلة .. ومن حقوق الحرية الأهلية : أن لا يجبر الإنسان أن ينشأ من بلده ، أو يعاقب فيها إلا بحكم شرعى - (قانونى) - أو سياسى ، مطابق لأصول مملكته ، وأن لا يضيق عليه في التصرف في ماله كما يشاء ، ولا يجبر عليه إلا بأحكام بلده ، وأن لا يكتم رأيه في شىء ، بشرط أن لا يخل بما يقوله أو يكتبه بقوانين بلده ...» .

تم يمضى الطهطاوى فيقسم الحرية إلى : حرية طبيعية ، في أمور الفرد المعاشية الخاصة ، كالأكل والشرب .. وحرية سلوكية ، تتعلق بالأخلاق ... وحرية دينية ، في العقيدة والمذهب .. وحرية مدنية ، تحكم علاقات أعضاء المجتمع بعضهم مع بعض ... وأخيرا الحرية السياسية التي تنظم علاقات الرعية والدولة والمحكومين بالحكام ... وهو في حديثه عن هذه

(١) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٧٥ .

(٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٧٤ .

الحرية يربط بين أساسها الاقتصادي وبين مظاهرها وقواعدها القانونية .. « .. فالحرية السياسية هي : تأمين الدولة لكل أحد من أهلها على أملاكه الشرعية المرعية ، وإجراء حرته الطبيعية بدون أن تتعدى عليه في شيء منها ، فهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية ... »

والطهطاوى عندما يبشر بالنفط الأوربي المتحضر ، ويدعو إلى أن نبدأ من حيث انتهت أوروبا ، لا يغلف دعوته هذه ولا يداريها .. فهو يريد أن « يوقظ سائر أمم الإسلام من نوم الغفلة .. كى يبحثوا عن العلوم البرانية ، والفنون والصنائع ، وهى التى كمالها ببلاد الإفرنج ثابت شائع ، والحق أحق أن يتبع ؟ ! .. » (١) .

والذين يرفضون الأخذ عن أوروبا ، بحجة رفض الاستيراد للعلوم الأجنبية ، واهمون ، لأن الحضارة دورات وأطوار ، وهذه العلوم قد كانت إسلامية عندما كنا نعيش عصر نهضتنا ، فأخذتها أوروبا وطورتها ، وواجبنا الآن أن نتلمذ عليهم كما تتلمذوا على أسلافنا ... وهو يطلب إلى الأزهر أن يضيف إلى علوم الشريعة « معرفة سائر المعارف البشرية المدنية ، التى لها مدخل فى تقدم الوطنية .. فهذه العلوم الحكيمية - (أى المعللة بحكمة وعلّة) - العملية (٢) ، التى يطهر الآن أنها أجنبية ، هى علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة ! .. » (٣) .

والدستور الفرنسى ، وإن لم يكن مستلهما من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة إلا أن قاعدة العدالة التى حكمت مواده وأصوله ، قد جاءت به على وفاق الكتاب والسنة ! .. « فلقد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وانقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم . والعدل أساس العمران ، وما يسمونه الحرية هو عين ما نسميه العدل والانصاف ، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان . بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة ... » (٤) .

(١) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٢ .

(٢) «إقبالها علوم الدين ، المأخوذة من الوحي ، والتى نتعبد بها ، نظرا وتطبيقا ..

(٣) «الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى» ج ١ ص ٥٣٤ .

(٤) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٠٢ .

ومثل الدستور في ذلك مثل القوانين والتشريعات .. فالحقوق الطبيعية والنواميس الفطرية التي حكمت قوانين أوروبا وتشريعاتها توازي عندنا أصول الفقه وفروعه ، وهم قد تأثروا بتراثنا في التشريع أيضا ، ذلك « أن الذي جاء به الإسلام من الأصول والأحكام هو الذي مدن بلاد الدنيا على الإطلاق .. ومن زاول علم أصول الفقه ، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول أهالي باقي الأمم المتقدمة إليها ، وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم ، قل أن تخرج عن تلك الأصول التي بنيت عليها الفروع الفقهية التي عليها مدار المعاملات ، فما يسمى عندنا بأصول الفقه يسمى ما يشبه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية ، وهي عبارة عن قواعد عقلية ، تحسنا وتقيحا ، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية . وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية ، وما نسميه بالعدل والاحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية .. »^(١) .

* * *

لكن الطهطاوى ، وهو غرى قومه بأن يبدأوا من حيث انتهت أوروبا يومئذ ، قد وضع عددا من التحفظات . ونبه على فروق بيننا وبين أوروبا ، وحدد أن ميدان الأخذ والاستلهام هو علوم الدنيا وفنونها ، دون علوم الدين وفلسفة الحياة ..

- فإعجابه بالعلوم والمعارف الأوروبية لم ينسحب على فلسفتهم ، فتحفظ عليها قائلا : « ... غير أن لهم في العلوم الحكيمية - (الفلسفية) - حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، وقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردها ؟ !^(٢) .. وهو يعبر بهذا التحفظ الراض عن تكوينه الإسلامى السلفى ، فيما يتعلق بعلوم الدين ، وهو تكوين لم يكن يستعين يومئذ بما في تراث الإسلام من فكر عقلانى إسلامى .. فتحفظه على فلسفة غير المسلمين موقف مفهوم .. ولو أن الطهطاوى قد درس ما في التراث الإسلامى من قسبات للفكر العقلانى لما وقف هذا الموقف العاجز أمام الفلسفة الأوروبية ! .. ولاستطاع نقدها نقدا إسلاميا ! ..
- وترجمة الطهطاوى للقوانين الأوروبية - والفرنسية خاصة - بطلب من الدولة ، لم تجعله يغفل عما في التراث الإسلامى من فقه في المعاملات ، جدير بأن نحييه ، ونطوع قواعده لظروف الزمان والمكان وما حملت من تجدد في المصالح وتغيرات في العادات والأعراف .. فيتحدث

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٢) المصدر السابق . ج ١ ص ١١٤ .

عن هذا الجانب من تراث الأمة فيقول : «... والمعاملات الفقهية ، لو انتظمت ، وجرى عليها العمل ، لما أخلت بالحقوق ، بتوفيقها على الوقت والحال ، مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة الأمور المستقيظين .. ذلك أن من أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية ، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للأحكام التجارية ، كالشركة ، والمضاربة ، والقرض ، والمخبرة ، والعارية ، والصلح ، وغير ذلك ...» (١) .

● ثم - وهذا هام جدا - فإن إعجاب الطهطاوى بنمط التطور والتحضر الأوربي ، لم يحمل شبهة دعوة إلى أن يتبع الشرق الغرب ... بل لقد كان الرجل يقظا إلى خطر تلك النعمة الاستعمارية التي تريد احتواء الشرق واستعماره بواسطة التبعية الحضارية ... وهو وإن لم يرفض مدينة الغرب والاستفادة من حضارته ، تبعا لرفضه استعماره ، فإنه ميز بين العلاقات الحضارية وبين الضم والتبعية والإلحاق .. لقد دعا إلى التفاعل مع أوروبا في الحضارة وتحويل الزايلة الحضارية (جنسية) - (قومية) - قسماتها : «الود والصفاء» وفي ذات الوقت رفض أن تكون العلاقات الحضارية علة وسببا للضم والإلحاق الاستعماري ... وحذر أبناء الغرب ، الذين يمينون أنفسهم بذلك ، من أن الشرق لن يستسلم ، بل سيقاوم ، فعنده هو الآخر مراح يحمي بها حياه ؟ ! ..

ولقد عرض الطهطاوى لهذه القضية وهو يعقب على كلمات أحد علماء الحملة الفرنسية ، الذي علق تطور مصر وتحضرها ونهضتها على سيطرة فرنسا على مقدراتها ! .. فقال الطهطاوى : «إن كلامه مبنى على شبهة واهية ، يريد أن يسوغ بها امتلاك فرنسا أو أى مملكة تكون مضاهية لها لمصر ، وهذا الاعتقاد هو من الشهيات الفاسدة ، وإنما يقتل النفوس التشهى ! نعم ، بيننا جنسية الود والصفاء ولكنى لم ألفها علة للضم» ثم يحذر الغرب من مقاومة الشرق لأطماعه ، فيورد قول الشاعر :

جاء شقيق عارضا رحمه صوب بنى عم يروم الكفاح
قيل : أما تخشى انكسار القناة ؟ إن بنى عمك فيهم رماح ! (٢)

فهو يدعو قومه إلى أن يبدأوا ، فى التمدن العملى وعلومه العملية الدنيوية ، من حيث انتهى

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٤٤٧ .

الغرب الأوربي ، كما بدأ هذا الغرب من حيث انتهى أسلافنا الذين أخذ عنهم علوم حضارتنا المزهرة وفنونها ... مع تحديد ميدان التأثير بعلوم الدنيا ، دون علوم الدين وفلسفته وقيمه .. داعيا كذلك إلى استلهاهم تراثنا الصالح للعطاء ، بعد ملاءمته لظروف الزمان والمكان ... ومنها على أن التلمذ على الغرب في الحضارة لا يعنى ، ولا يمكن أن يبرر التبعية له أو التفريط في أى جانب من جوانب الحرية والسيادة والاستقلال .. بل لقد رأيناها يؤكد على أن الحرية الحقيقية للأمة لا يشهد بها تتمتعها هى بالحرية ، بل إن الشاهد الا صدق عليها هو احترام هذه الأمة لحریات غيرها من الأمم والشعوب .. « .. فن محاسن حرية الأمة أنها تفرح أيضا بجمرة غيرها من الأمم ، وتأذى من استعباد أم المالك الذين لا حرية لهم ! .. » (١) .

* * *

ولقد كانت «السيطرة العثمانية» واحدة من العلاقات التي تشد العرب إلى فكرية العصور الوسطى ، وتحول بينهم وبين الانعتاق من أسار التخلف واللاحق بالعصر الحديث ، ولذلك لم يكن غريبا أن نلمح لدى الطهطاوى - رغم علاقته العضوية بجهاز الدولة الذى كان مرتبطا ، على نحو ما ، بالسلطنة العثمانية - أن نلمح لديه تركية للعروبة ، وثناء كثيرا على العرب ، ونقدا للهيمنة العثمانية ، وفرحا بالضربات التي وجهها محمد على والجيش المصرى للعثمانيين ...

● فيوم كان العثمانيون يسعون إلى «تترك» العرب الخاضعين لسلطانهم ، كتب رفاعة : «إن العرب هم خيار الناس .. وقبائلهم أفضل القبائل .. ولسانهم أفصح الألسن ... ولقد اشتهرت أمة العرب ، جاهلية وإسلاما ، بالفضائل ...» .

ولقد استشهد على فضل العرب بكلمات عميقة للإمام الشافعى ، محمد بن ادريس (١٥٠ - ٢٠٤ هـ - ٧٦٧ - ٨٢٠ م) تجعل الشريعة عربية ، والدين عربيا ! .. يقول الشافعى : «إن أمة العرب أولى الأمم ، لأنهم المخاطبون أولا ، ولأن الشريعة عربية ، والدين عربيا !» (٢) ...

ولعمري ، ماذا يبقى للعثمانيين رباطا يشدون به الأمة العربية إلى قوائم عرش سلطنتهم وتسلطهم ؟ ! .. لقد كان الدين هو هذا الرباط .. لكن رفاعة - مع الشافعى - يجعل الدين عربيا ، وكذلك الشريعة أيضا ! ..

● وهو ينه على المضمون الحضارى ، وليس العرقى ، للعروبة ، وذلك عندما يتحدث عن أن

(١) المصدر السابق . ج ٢ . ص ٤٧٥ .

(٢) المصدر السابق . ج ٣ ص ٥٨٦ .

علماء مثل سيويه (١٥٢ هـ - ٧٦٩ م) وأبو علي الفارسي (٢٢٩ - ٣٧٧ هـ - ٨٤٣ - ٩٨٧ م) والزمخشري (٤٤٩ - ٥٣٩ هـ - ١٠٥٧ - ١١٤٤ م) إنما هم عرب ، لتحصيلهم ملكة البلاغة العربية ، وذلك على الرغم من أنسابهم الأعجمية ، « فهم ، وإن كانوا عجمًا في النسب ، فليسوا بأعجم في اللغة والكلام » ..

● وأخيرًا نراه فرحًا بانتصارات الجيش المصري ضد العثمانيين ، تلك الانتصارات التي كانت جزءًا من عملية قومية كبرى استهدفت قيام دولة عربية ، تجدد شباب هذه الأمة ، وتسد الثغرات التي أتاحها التخلّف العثماني للاستعمار الأوربي كي ينفذ منها فيلتهم بلاد العرب وأقطار الإسلام .. فعنده أن فتوحات محمد علي باشا في المشرق العربي « لم تكن من محض العبث ، ولا من ذميم تعدى الحدود ، إذ كان جل مقصوده : تنبيه أعضاء ملة عظيمة ، تحسبهم أيقاظًا وهم رقود ؟ ! .. »^(١) .

كما نقرأ له شعرا يشيد فيه بانتصار الجيش المصري على جيش العثمانيين ، الذين يسميهم الاروام ؟ ! ..

وتقلب الاروام عدل شاهد كم منه قد نالوا شديد طعان
حتى لقد باؤوا بوافر خزيهم وتقاسموا حظا من الخسران!^(٢)
هكذا كان رفاة : رأس تيار متميز واجهت به الأمة ، في مطلع عصرها الحديث ، ما فرضه عليها أعداؤها من التحديات ...^(٣)

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ٤١٤ .

(٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ٧٢ .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر كتابا [رفاة الطهطاوى - رائد التنوير في العصر الحديث] طبعة بيروت والقاهرة سنة ١٩٨٤ م .

- ١٥ -

خير الدين التونسي

[١٢٢٥ - ١٣٠٨ هـ - ١٨١٠ - ١٨٩٠ م]

إسهام إسلامي للتنظيمات الأوربية

في تونس ، بالمغرب العربي ، كان خير الدين التونسي أصدق ممثل لذلك التيار الذي
قاده رفاعة رافع الطهطاوى ...

ولقد جمع هذا المصلح ، في حياته وجهوده الاصلاحية ، شها من النبي يوسف
الصديق ، ومن المفكر عبدالرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ - ١٣٣٢ -
١٤٠٦ م) ؟ ! .. فهو قد ولد في إحدى القرى الصغيرة بجمال القوقاز ، بقبيلة «أباطة»
الشركسية ، واختطفه تجار الرقيق صغيرا . وجاءت به قافلتهم إلى الأستانة حيث بيع كما يباع
الرقيق ! .. وتناقلته الأيدي ، بالبيع والشراء ، رقيقا ، إلى أن وصل إلى قصر حاكم تونس
الباى أحمد باشا (١٢٥٢ - ١٢٧٢ هـ - ١٨٣٦ - ١٨٥٦ م) فتعلم القراءة والكتابة .
وفرائض الدين ، وفنون العسكرية ، والسياسة ، والتاريخ ، وأجاد الفرنسية ، مع العربية
والتركية .. وتدرج - لألمعيته ومثابرته وذكائه - في المناصب حتى أصبح «الوزير الأكبر» في
البلاد ! ..

وفي أزمة من أزmate مع الباي محمد الصادق (١٢٧٥ - ١٢٩٩ هـ - ١٨٥٩ - ١٨٨٢)
اعتزل خير الدين جميع مناصبه لعدة سنوات (١٨٦٢ - ١٨٦٩ م) ، واعتكف في بستان
له - كما أعتزل ابن خلدون من قبل في إحدى قلاع تونس فكتب مقدمته - اعتزل خير الدين
في بستانه ، فكتب كتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) ، الذى طبع ، بتونس ،
للمرة الأولى سنة ١٨٦٧ ، والذى أودع مقدمته خلاصة آرائه في التمدن والاصلاح - تماما
مثلا فعل ابن خلدون في مقدمته ؟ ! - ...

* * *

وفي عصر خير الدين ، وموقعه ، كان تجاهل التأثير الأوربي ضربا من المحال .. ففرنسا
كانت قد شرعت في احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ م وشرعت في مد نفوذها الاقتصادى .

بتقديم القروض ، إلى تونس ، وأخذت ، تتداخل في شئوننا المالية ، تمهيدا للسيطرة
فلاحتلال ! ..

والباى أحمد باشا كانت له محاولات للإصلاح ، يرسم فيها خطى محمد على باشا في
مصر ، فأنشأ في « باردوا » ، بفرنسا ، سنة ١٨٤٠ م « مكتب العلوم الحربية » ، ليتعلم فيه
الجنود التونسيون علوم الهندسة والمساحة والحساب ، وغيرها ، وعهد إلى خير الدين
بالإشراف على هذا المكتب - (المدرسة) - الذى رأسه المستشرق الإيطالى كالفاريس ..
وهناك عايش خير الدين الحضارة الأوربية ولمس تأثيراتها ، ولقد اكتلمت معرفته بها في
سفاراته للباى لدى عديد من ممالك أوروبا ، مثل فرنسا والسويد وبروسيا وبلجيكا والدنمارك
وهولندا .. (١) .

وكان خير الدين ، مثل رفاة الطهطاوى ، من دعاة الخروج بالبلاد من عزلة القرون
الوسطى ، وكسر حاجز العزلة عن الحضارة الحديثة ، ونصيرا للتلمذ على الحضارة الأوربية
فيما لا يتعارض مع أصول الشريعة الإسلامية وثوابت الدين الإسلامى وقيمه ، وداعية
للاجتهاد فى الشريعة كى تواكب المصالح المتجددة للمسلمين ... فهو يدعو إلى الاختلاط
بالأوربيين والتعلم منهم ، لأنه « لا يتبأ لنا أن نميز ما يليق بنا إلا بمعرفة أحوال من ليس من
حزبنا ! .. فالدنيا بصورة بلدة متحدة ، تسكنها أمم متعددة ، حاجة بعضهم لبعض
متأكدة ! .. (٢) .

بل لقد كان خير الدين يرى أن لا مفر ولا منجاة من التأثير بالحضارة الأوربية ، فلقد
خرجت هذه الحضارة ، بعد الثورة الصناعية ، فى ركاب المد الاستعماري زاحفة على البلاد
الأخرى ، وكاسحة أنماط الحضارات الأخرى من طريقها ، ومهما يكن فى ذلك من مدعاة
للحزن والأسى فلا سبيل إلى تجاهله كحقيقة ظاهرة للعيان .. فهو يقول : « لقد سمعت من
بعض أعيان أوروبا ما معناه : أن التمدن الأورباوى تدفق سيله فى الأرض ، فلا يعارضه شىء
إلا استأصلته قوة تياره المتتابع ، فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار ، إلا إذا
حدوا حذوه وجروا مجراه فى التنظيمات الدنيوية ، فيمكن نجاتهم من العرق ؟ ! .. » .. وعلى
هذه الكلمات يعلق خير الدين ويعقب فيقول : « .. وهذا التمثيل ، الحزن لمحب الوطن ، مما
يصدقه العيان والتجربة ! .. » (٣) .

(١) المنجى الشملى «خير الدين باشا» طبعة تونس سنة ١٩٧٣ م . (٣) المصدر السابق . ص ١٦٦ .

(٢) «أقوم المسالك» - المقدمة - ص ٨٢ . تحقيق : د . المنصف الشنوفى . طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م .

لكن خير الدين لا يدعو إلى الاستسلام أمام هذا التيار الحضارى الأوربي الزاحف .. وإنما يطلب لقومه أن يقفوا منه موقفا انتقائيا ، يأخذون به عن أوروبا من «التنظيمات الدنوية» ما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية ، وما يحقق لهم مصالحهم المتجددة والمتطورة ... وعلاوة على العلوم العملية والمعارف الدنوية ، نجده يلح على أن نأخذ عن أوروبا :

١ - التنظيمات السياسية :

التي هي . فى الحقيقة ، السبب فى تقدم الأوربيين فى المعارف .. وهذه التنظيمات لا بد أن تكون مؤسسة على العدل والحرية ... وهو ، لذلك ، يدين الاستبداد بالسلطة ، وحكم الفرد ، ويدعو فى كتابه إلى إحياء هيئة «أهل الحل والعقد» الإسلامية . وفى مذكراته يركى ، صراحة ، تكوين المجالس النيابية بالانتخاب العام .. ويلح على تقييد جهاز الدولة بالقوانين ، سواء منها تلك التى تنظم علاقة الرعية بالدولة ، أو العلاقة بين المواطنين وبعضهم البعض .. ويطلب أن تكون مباشرة الحكم التنفيذى من اختصاص الوزراء ، لا الحاكم الأعلى ، وأن يكون الوزراء مسئولين أمام وكلاء الأمة المنتخبين .. ويقول إن أوروبا إذا كانت قد صنعت ذلك انطلاقا من القوانين الطبيعية العقلية ، غير الإلهية ، فإن المسلمين أولى منها بذلك ، لأن هذه التنظيمات مما يحقق غاية الشريعة الإسلامية أو مقاصدها .. «فالشريعة لا تنافى تأسيس التنظيمات السياسية المقوية لأسباب التمرد ونمو العمران .. وإن ملك الإسلام مؤسس على الشرع ، الذى من أصوله وجوب المشورة ، وتغيير المنكر . والعلماء أعرف الناس به ، كما أن الوزراء أعرف بالسياسة ومقتضيات الأحوال .. وإن الذين يطلبون من الدولة إطلاق الحرية ، بمقتضى فوائن يكون تأسيسها وحمايتها من مجلس مركب من أعضاء تنتخبهم الأهالى ، ويلحون فى ذلك .. إنما يطلبون أمرا هو من أعظم الوسائل فى حفظ نظام الدول ، وقوة شوكتها ، ونمو عمران ممالكها ، ورفاهية رعاياها ، خصوصا فى هذه الأزمان . ونحن نسلم بأن مقصد هذا الحزب ، طلبهم لما ذكر ، إنما هو إصلاح حال الدولة والرعية ..»^(١) .

(١) المصدر السابق . ص ٨١ - ٩٤ - ١٣٧ - ١٣٩ - ١٤٣ - ١٤٤ ، ١٦٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ .

٢٢٥ .. والمراد «بالدولة» : الدولة العثمانية ، صاحبة السيطرة - الفعلية أو الاسمية - على أغلب الشرق العربى

والإسلامى فى ذلك التاريخ .

وخير الدين وهو يتحدث عن التنظيمات السياسية للدولة لم يتناول بالحديث ، صراحة . منصب الحاكم الأعلى للبلاد ، من حيث كونه ملكا أو سلطانا أو خليفة أو «الباي» - كما كان في تونس يومئذ - وما كان له أن يصنع ذلك وهو الذي شغل منصب الوزير الأكبر في تونس ، وشغل في الآستانة ، بعد أن هاجر إليها من تونس ، منصب «الصدر الأعظم» (١٨٧٨ - ١٨٧٩ م) .. ولكنه عندما عرض فكر مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥ م) وتقسيمه لنظم الحكم ، عرضه « عرضا موحيا »؟ ! .. فلقد قال إن مونتسكيو قد قسم حالة الدول إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الدولة الوراثية المطلقة التصرف بلا قيد ..

والثانية : الدولة الوراثية المقيدة بالقوانين ..

والثالث : الدولة الجمهورية المقيدة بالقوانين ..

ثم عقب بقوله : « والجمهورية عندهم كناية عن انتخاب الأمة رئيسا لدولتهم ، يتصرف في إدارتها بمقتضى القوانين ، مدة حياته ، أو لمدة معلومة . ثم ينتخب غيره » .. وعلى كل فخير الدين لم يدخر وسعا ، في الفكر والممارسة ، لإدانة استبداد الفرد بالسلطة والسلطان ، فهو يورد التمثيل البديع الذي ذكره مونتسكيو عندما شبه المستبد ، في تصرفاته ، « بمن يتوصل لاجتماع الثمرة بقطع الشجرة من أصلها ؟ ! .. » .. ويورد قول الحكيم اليوناني الذي خرج من وطنه مهاجرا عندما عزت الحرية فيه ، فلما سألوه : أين تصلح السكنى ؟ أجاب : « في بلد تكون الشريعة - (القانون) - فيه أقوى من السلطان ! .. » .. ولا شك أنه قد أدان نمط الحكم العثماني ، في الآستانة وولاياتها ، عندما قال : « هذا زمان : قلّ فيه العرفان ، وكثر الطغيان ؟ ! .. »^(١) .

٢ - الحرية السياسية :

والغاية من التنظيمات السياسية ، عند خير الدين التونسي ، هي تحقيق العمران للبلاد ، وأساس هذا العمران هو العدل ، أي الحرية السياسية للمواطنين .. كما أن اتساع نطاق المعارف في المجتمع إنما يرجع كذلك إلى اتساع نطاق الحرية .. وإذا كانت الحرية الشخصية ضرورية ، ليتصرف الإنسان في ذاته وكسبه وهو آمن على نفسه وعرضه وماله ، مطمئن إلى

(١) المصدر السابق . ص ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٢٤ ، ١١١ .

تساويه مع أبناء جنسه .. فإن الحرية السياسية أدخلت في الضرورة واللزوم ، لأنها هي التي تحقق اشتراك الرعية في توجيه سياسة الدولة ، كى تأتى على وفق المصلحة العامة للمجموع .. ويدخل في الحرية السياسية : حرية نشر الأفكار ، التي يسميها التونسي : «حرية المطبعة» ! حيث لا يمنع الإنسان من أن يكتب ويذيع ما يعتقد صوابا ومصلحة ، أو يعرض ذلك على أجهزة الدولة ومجالسها حتى ولو تضمن ذلك الاعتراض على منهاجها^(١) ...

٣- الحرية الاقتصادية :

وكما هو الحال عند رفاة الطهطاوى ، فلقد ارتبطت عند خير الدين كذلك الحرية السياسية بالحرية الاقتصادية ، على النحو الذي تكاملت به «الليبرالية» في أوروبا القرن التاسع عشر.. فلقد ربط بين نمو المعارف ، المؤسسة على الحرية السياسية ، وبين نمو الصنائع ، التي تعود إلى الأنشطة الاقتصادية الحرة في الفلاحة والتجارة والأعمال البدنية والفكرية .. فالرخاء لا يتحقق بالخصوبة وتوافر الإمكانيات وحدها ، وإنما بالحرية الاقتصادية التي تجعل أرباب النشاط الاقتصادي والاستثمار المالى آمنين على ثرواتهم وأموالهم .. «فكمال الحرية هو الذى يجعل المحترف آمنا من اغتصاب شىء من نتائج حرفته .. فإما ينفع الناس كون أرضهم خصبة كريمة المئبأب اذا كان الباذر فيها لا يتحقق حصاد ما زرع .. ولا شك أن العدوان على الأموال يقطع الآمال ، ويقدر انقطاع الآمال تنقطع الأعمال ، إلى أن يعم الاختلال المفضى إلى الاضمحلال ..» أما الحرية الاقتصادية فإنها تفضى إلى «تعاضد الجمعيات المتجرية - (الشركات التجارية) - والإقبال على تعلم الحرف والصنائع . فبالجمعيات - (الشركات) - تتسع دوائر رءوس الأموال ، فتأتى الأرباح على قدرها .. أما غياب هذه الحرية فإنه يفضى إلى الانكماش الاقتصادى ، «فإن الناس إذا فقدوا الأمان على أموالهم يضطرون إلى إخفائها ، فيتعذر عليهم تحريكها .. وبالجملة ، فالحرية اذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى ، ويستولى على أهلها الفقر والغلاء ، ويضعف ادراكهم وهمتهم ، كما يشهد بذلك العقل والتجربة ..»^(٢) .

(١) المصدر السابق . ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٠٩ - ٢١١ .

٤ - والتقدم في المعارف والعلوم :

وكما حدث في التجربة «الليبرالية» الأوروبية عندما تكاملت الحرية السياسية ، التي تجسدها ونظمها المؤسسات السياسية ، والحرية الاقتصادية الرأسمالية ، وحرية التفكير والتعبير والبحث العلمي ، التي أسهمت إسهاما خلاقا في تنمية المعارف وتقدم العلوم .. كما حدث في هذه التجربة المتكاملة ، أراد خير الدين لدعوة الحرية التي بشر بها أن تكون متكاملة كذلك .. بل لقد جعل نمو المعارف وتقدم العلوم ثمرة طبيعية لقيام الحرية السياسية والاقتصادية المستقرتان بواسطة التنظيمات الدستورية والقانونية .. وضرب للناس مثلا طريفا ، وبالغ الدلالة في ذات الوقت ، عندما حدثهم عن (المكتبة القومية في باريس) ، وكيف ارتبط غناها بالكتب أو فقرها منها بسيادة الحرية أو غيابها في فرنسا؟! .. فقبل الثورة الفرنسية التي جاءت بالحرية إلى فرنسا، وخلال أربعائة وعشرة أعوام (١٣٨٠-١٧٩٠ م) لم يزد رصيد هذه المكتبة عن ٢٠٠,٠٠٠ مجلد ، أما بعد الثورة ، وخلال أربع وسبعين سنة فقط (١٧٨٩ - ١٨٦٣ م) فلقد بلغ رصيد هذه المكتبة ٨٨٠,٠٠٠ مجلد ، وذلك غير الرسائل الصغيرة .. وبهذا التفاوت الكبير، الواقع في مواد المعارف والعلوم ، يعلم مقدار تأثير الحرية في الممالك .. وعلى هذا تقاس سائر أسباب التقدم^(١) ..

هكذا أراد خير الدين التونسي لامته أن تواجه التحدي الحضاري لأوروبا المتصرة ، بأن تتسلح بسلاحها ، وأن تبدأ المسيرة الناهضة من حيث انتهى الأوروبيون ، فتغادر ، بالإصلاح ، عصور الإقطاع ، وتدخل ، بالإصلاح أيضا ، إلى رحاب التطور الرأسمالي ، بما يستلزمه من حرية في الاقتصاد ، والسياسة ، والتفكير والتعبير ..

وإذا كان هذا هو الموقف من «أوروبا الحضارة» ، فلقد اختلف الحال إزاء «أوروبا الاستعمار» .. فهنا لا بد من اليقظة للأطباع ، والحذر من الشرك ، والتصدي للزحف الاستعماري .. بل لعل مذهب خير الدين في الأخذ عن أوروبا حضارتها إنما كان محاولة للتجدد والبعث القومي ، حتى لا نقع في قبضة «أوروبا الاستعمار» ! ..

ولقد كان الرجل - وهو رجل دولة بارز في تونس حيث حباثل الديون والقروض الأوروبية تسعى لسلب استقلال البلاد - كان داعية لرفض الاقتراض من الأجانب ، وأن تتجه الحكومة إلى الاقتراض الداخلي ، حتى ولو زاد سعر «الفائدة» ، لأن الممولين الوطنيين

(١) المصدر السابق . ص ٢٠٢ .

لن يمثلوا خطراً استعمارياً خارجياً ، كما أن أرباحهم لن تغادر السوق الوطني الداخلى .. ولقد صارع الرجل التيار المناهض لمذهبه هذا ، وهو التيار الذى كان يقوده الوزير مصطفى خزنه دار .. ومن كلمات خير الدين فى هذا المقام : «إن من الأفضل أن ندفع غالياً ثمن اقتراض نفترضه فى بلدنا ، ونحافظ بذلك على حريتنا ، من أن نربح بعض الفوائد المادية على حساب استقلالنا !» (١) .

بل لقد أدرك خير الدين وعى الاستعمار بأن أخذنا تجربة «أوروبا النهضة» سيجعلنا نفلت من «أوروبا الاستعمار» ، فكشف عداء الاستعمار الأوروبى لأخذنا تنظيماته السياسية والدستورية ، فالمستعمرون الأوربيون لا يرحبون بأن نقلدهم فيما يفيد ، وخاصة إذا كان أخذنا وتقليدنا سيسد الثغرات التى حرصوا على بقائها وتوسيعها كى ينفذوا منها إلى الاحتلال ، وهى ثغرات كان حكم الفرد والاستبداد من أهمها ، لأنه هو الذى ضمن لهم ضعفنا ، فأتاح لهم التهام استقلالنا الوطنى .. تنبه خير الدين لهذه الحقيقة الهامة ، فأشار إلى دور المستعمرين الطامعين فى إعاقة قيام التنظيمات السياسية والدستورية بتونس ، حتى تظل الثغرات أمامهم مفتوحة لاحتلالها (٢) ! .. وهو نفس الشيء الذى صنعوه بمصر .. فعندما نهضت لتسد ثغرة تدخلهم وتداخلهم ، تسدها بالدستور والمجلس النيابى على عهد العربيين ، أسرعوا باحتلالها قبل أن تفلت الفرصة ، فيعز عليهم ، ويستحيل تنفيذ المخطط المرسوم ! ..

* * *

وغير الاستعمار الأوروبى ، كان هناك التحدى المتمثل فى فكرية العصور الوسطى ، والتى مثلها جمود الجامدين من علماء الدين وفقهائه .. فهم يعيشون عصرهم مادياً ، وبالاجساد ، أما فى الفكر فتراهم أسرى خرافات العصور المظلمة وجمودها ، ولذلك تراهم معرضين عن وعى حقائق العصر ، سياسية كانت أو اقتصادية ، فإذا استشارهم الحاكم أشاروا بما يوافق هواه ، أو بما لا يمكن الأخذ به من الآراء ؟ ! .. وعن هؤلاء يقول خير الدين : «.. ومما يسوء المرء أن يرى بعض علماء الإسلام معرضين عن استكشاف الحوادث الداخلية ، وأذهانهم عن معرفة الخارجية خلية ... أفيحسن من أساة الأمة الجهل بأمراضها ؟ ! ..» .

(١) المصدر السابق . ص ٣٦ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٤٦ - ١٤٨ .

وهو يعيب عليهم الجمود عند نصوص عاجت مصالح عصور نخلت ، والإحجام عن الاجتهاد بأحكام تعالج المصالح التي جددت بعد عصر الأسلاف .. فليس كل ما جد في واقع الحياة المعاصرة له نصوص وأحكام في الكتب القديمة ، بل « هناك شئون كثيرة لا يشهد لها من الشرع أصل خاص ، كما لا يشهد بردها ، بل أصول الشريعة تقتضيها إجمالاً ، وتلاحظها بعين الاعتبار .. وإدارة أحكام الشريعة ، كما تتوقف على العلم بالنصوص ، تتوقف على معرفة الأحوال التي تعتبر في تنزيل تلك النصوص ... ومن العيب على العالم ، شرعاً وعقلاً ، التكلف في الدين ، والتمحل في النصوص ! .. » .

وهو يضرب لعلماء الشرع في عصره أمثلة من السلف الصالح المجتهد ، كمن يحتذوها .. فالشيخ محمد بيرم الأول (١١٣٠ - ١٢١٤ هـ - ١٧١٨ - ١٨٠٠ م) قد عرف السياسة الشرعية بأنها : « ما يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به الوحي .. » .

وعندما قال قائل : « لا سياسة إلا ما وافق الشرع » .. أجابه المجتهد السلفي ابن عقيل (٤٣١ - ٥١٣ هـ - ١٠٤٠ - ١١١٩ م) : « إن أردت : أن السياسة الشرعية لا تخالف ما نطق به الشرع ، فصحيح .. أما إن قصدت أن السياسة الشرعية هي فقط ما نطق به الشرع ، فغلط وتغليط للصحابة .. » فالنصوص لم تحط بكل شيء ..

والمفكر السلفي ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ - ١٢٩١ - ١٣٣٠ م) هو القائل : « إن أمارات العدل إذا ظهرت بأي طريق كان فهنا شرع الله ودينه . والله تعالى أحكم من أن يخص طرق العدل بشيء ثم ينفي ما هو أظهر منه وأبين .. »^(١) .

فالتونسي قد دعا علماء الشرع المعاصرين له - ونحن نعلم ما بلغوه في ظل التخلف العثماني - إلى أن يواكبوا العصر ، ويحتدوا لمصالحه المتجددة ، ويشاركوا السياسة في إتخاذ التنظيمات السياسية والدستورية سبلاً لتحقيق الحرية بكل صورها ، للعرب والمسلمين ...

* * *

بقيت نقطتان لأبد من الإشارة إليهما ، كمن لا يظن ظان أن دعوة خير الدين التونسي لأن نبداً من حيث انتهت أوروبا ، ولأن نؤسس مدينتنا الدنيوية على معارف أوروبا وإنجازاتها في هذا الميدان ، كانت تعني التخلي عن مميزات هذه الأمة ، أو ما نسميه « أصالتها » ، أو

(١) المصدر السابق . ص ٨٣ ، ١٥١ - ١٥٥ .

أنها كانت تعني الأخذ عن الأوربيين في كل الأمور ..

● ذلك أن الرجل ، كما سبقت إشارتنا ، قد جعل الشريعة الإسلامية ، المتطورة مع المصالح المتجددة ، معيارا لما نأخذ وما ندع من الحضارة الأوربية .. وأكثر من هنا ، فهو قد نبه على أن بتراث أمتنا في التمدن عناصر أصيلة ، صالحة للاستلها ، ومن المفيد والضروري والواجب أن تفعل فعلها في النهضة الحديثة المبتغاه ، وكما يقول : « فإن الأمة الإسلامية تقتدر أن تكتسب ، بما بقي لها من تمدنها الأصلي ، وبعاداتها التي لم تنزل مأثورة عن أسلافها ، ما يستقيم به حالها ، ويتسع به في التمدن مجالها . ويكون سيرها في ذلك المجال أسرع من غيرها كائنا من كان ، اذا أزيكت حربتها الكامنة بتنظيمات مضبوطة تسهل لها التدخل في أمور السياسة .. »^(١) .

فالعناصر الأصيلة في التمدن الأصلي ، والحرية الكامنة التي أقرتها وقررتها الشريعة ، مع التنظيمات التي لا بد من أخذها عن أوربا . كقيلة يجعل هذه الأمة تحطو على درب النهضة بأسرع مما صنع ويصنع الآخرون ! ..

● والنقطة الثانية ، تتعلق بتحذير خير الدين من أن نقف بالأخذ عن أوربا عند حدود الاستهلاك والاستمتاع بثمرات حضارتها من المصنوعات والأدوات ؟ ! .. فالذين يتصدرون موكب المعارضة للأخذ عن أوربا هم أكثر الناس إقبالا على سلع الصناعات الأوربية وأدواتها ! .. إنهم نهمون لاقتناء الثمار ، دون الأصول ، والمسببات ، دون الأسباب ، والأعراض ، دون الجواهر ، والسلع ، دون الفكر ! .. وعن هذا الفريق يتحدث خير الدين فيقول : « .. على أننا إذا تأملنا في حالة هؤلاء المنكرين لما يستحسن من أعمال الإفرنج نجدهم يمتنعون فيما ينفع من التنظيمات ونتائجها ، ولا يمتنعون منها فيما يضرهم ؟ ! .. وذلك أنا نراهم يتنافسون في الملابس وأساس المساكن ونحوها ، وكذا الأسلحة وسائر اللوازم الحربية ، والحال أن جميع ذلك من أعمال الإفرنج ! .. »

وينبه خير الدين إلى خطر هذا « التلمذ السلعي - الاستهلاكي » - إن جاز التعبير - على الاقتصاد الوطني ، ومن ثم على استقلاله ، لأننا اذا وقفنا عند الاستيراد السلعي ، ولم نتمثل الفكر والحضارة ، فنسئل سوقا استهلاكية ، غير صانعة ولا منتجة ، ومن ثم سنظل مربوطين بأسواق أوربا ، لاني الاستيراد فقط ، وإنما في تصدير خاماتنا بأرخص الأسعار ..

(١) المصدر السابق . ص ١٥٨ .

« نبيع ما تنتجه للأفريقي بثمن يسير ، ثم نشتره منه بعد اصطناعه ، في مدة يسيرة ، بأضعاف ما بعناه به .. وهذا الخلل سيقودنا إلى وضع اقتصادي تزيد فيه قيمة ما نستورده على قيمة ما نصدره .. » وإذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لا محالة ! .. » وهذا الخلل الاقتصادي سيؤدي حتماً إلى خلل سياسي ، يتمثل في رباط الحاجة ، ومن ثم التبعية ، لهذه البلاد المتحضرة الصناعية ، فتقع الكارثة ، وهي فقدان الاستقلال ، ذلك « لأن احتياج المملكة لغيرها - وهو الخلل السياسي - موهن لقوتها ومانع لاستقلالها .. »^(١)

* * *

هكذا فكر خير الدين التونسي ... وهكذا مثل في المغرب العربي الامتداد للنهج الذي بشر به رفاة الطهطاوي في النهضة والإصلاح ...

« أن نبدأ من حيث انتهت أوروبا ، آخذين في الاعتبار أصول شريعتنا ، وما هو أصيل وصالح للعطاء من عناصر تمدننا القديم ..

« وأن تكون الأصول المنتجة للتمدن الأوربي هي غايتنا ، وليس الثمرات والنتائج والمصنوعات ..

« وأن نزوج بين ما هو كامن في النفس العربية ، وصادقت عليه الشريعة الإسلامية ، من عشق الحرية ، وبين التنظيمات السياسية والدستورية التي أبدعتها الحضارة الأوربية ، حتى تشترك الأمة في إدارة شئونها السياسية ، فتخرج من استبداد الفرد إلى عالم الحرية ، الذي يفجر طاقات الأمة في ميادين الاقتصاد والمعارف والعلوم والفنون والآداب ..

« وفي كلمات : أن نحدو - في أمور الدنيا - حدو أوروبا ، فنخرج ، كما خرجت ، من عصر الإقطاع لندخل عصر التطور الرأسمالي ، بما ارتبط به من يقظة وتقدم وتحرر وتنوير ..

« فأهل الغفلة وحدهم هم الذين يعرضون عما يحمد من سيرة الغير ، لمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم ينبغي أن يهجر .. فكل مستمسك بديانة ، وإن كان يرى غيره ضالاً في ديانته ، فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية .. »^(٢)

(١) المصدر السابق . ص ٩٢ - ٩٤ .

(٢) المصدر السابق . ص ٩٠ .

فلنقتد بأوروبا المتحضرة في أمور الدنيا ، وإن خالفناها واعتقدنا ضلالها في أمور الدين ! ..

* * *

هكذا فكر هذا التيار لعصره ... ذلك العصر الذي كان الجمود على فكرية العصور الوسطى والمظلمة ، ورفض الاستفادة من تجارب الآخرين ، هو الخطر الأكبر الذي يهدد وجود الأمة ومستقبلها .. ولذلك فإن تعميم مقولات هذا التيار على العصر الذي أعقب سيطرة الاستعمار الأوربي على الشرق العربي الإسلامي ، عندما أصبح «التغريب» ، وتسوّه الذاتية الحضارية للأمة ، وذوبان قسماتها المميزة - بالتقليد والذوبان - في حضارة الغزاة ... عندما أصبح ذلك هو الخطر الأول ... إن تعميم مقولات تيار الطهطاوى والتونسي على عصرنا نحن هو خطأ يجب التحذير من الوقوع فيه ؟ ! ..

لقد فكروا لعصرهم ... الذي كان خطره الأكبر هو «الجمود» .. وليس لعصرنا .. الذي أصبح خطره الأعظم هو «الذوبان والانسحاق في حضارة الغزاة» ؟ ! ..

مع بقاء «الجمود» - في واقعنا وحياتنا الفكرية - خطرا لا يستهين به الراصدون للعقبات التي تعوق الأمة عن النهضة والانطلاق ! .

- ١٦ -

جمال الدين الأفغانى

[١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م]

ثورة البعث والإحياء

حياته في سطور

- * ولد في سنة ١٢٥٤ هـ ١٨٣٨ م في قرية «أسعد آباد» في خطة «كز» من أعمال «كابل» عاصمة بلاد الأفغان ، لأسرة ذات نفوذ سياسى وإدارى في المنطقة ، وتنحدر من أصول عربية حجازية ، يرجع بها النسب إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ، مروراً براوية الحديث المشهور الإمام «الترمذى» .
- * وفي الثامنة من عمره انتقل مع الأسرة إلى العاصمة «كابل» ، عندما خشي حاكم البلاد «دوست محمد خان» تمكن نفوذ أسرته في المنطقة التي تعيش فيها ، وفي نفس العام بدأ والده السيد «صفترا» الأشراف على برنامج تعليمه .
- * عندما بلغ الثامنة عشرة كان قد درس مبادئ العلوم العربية . والتاريخ ، وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول وكلام وتصوف ، والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية ، وحكمة نظرية طبيعية وإلهية ، والعلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك ، ونظريات الطب والتشريح !!^(١)
- * أجاد اللغات العربية ، والأفغانية ، والفارسية ، والتركية ، والفرنسية ، مع إلمام بالانجليزية والروسية .
- * بلغ منصب الوزير الأول - رئيس الوزراء - في وطنه في حكم الأمير الوطنى «محمد أعظم خان» ، ثم رحل عن البلاد بعد هزيمة هذا الأمير أمام خصمه «شيرعلى» الموالى للانجليز .
- * في الهند حاربه الانجليز ، وأحاطوه بالجواسيس ، وطلبوا منه مغادرة البلاد .
- * في مصر أقام أول مرة أربعين يوماً ، وهو في طريقه إلى الآستانة ، درّس فيها للطلبة

(١) محمد عبده (مقدمة الرد على الدهريين) ص ٤ .

الشوام بالأزهر دروساً في النحو والحكمة ، ثم أقام بها في الزيارة الثانية من سنة ١٨٧١ حتى سنة ١٨٧٩ م عندما اتخذت حكومة الخديوي توفيق قراراً بنفيه بحجة «أنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا ؟ !» .

* أقام حزباً سياسياً سرياً بمصر سمي (الحزب الوطنى الحر) وهو الذى قاد ونظم الثورة العراقية .

* كانت له ندوة يومية يلتقى فيها بمريديه ، ومقالات ينشرها باسم مستعار ، أو بأسماء تلاميذه ، وكان من بين تلاميذه ومريديه من ينتسبون إلى الأديان السماوية الثلاثة .

* زار تركيا مراراً ، وتولى عضوية مجلس المعارف بها زمناً ، ودخل في صراعات كثيرة مع الأوساط الرجعية فيها ، وخاصة الشيخ أبوالهدى الصيادى ، الذى حارب النديم والكواكبي ، وكل الأحرار .

* فى إيران دخل فى صراع مع الشاه المستبد «ناصر الدين» ، وأجبره على سحب امتياز شركة «التمياك» الإنجليزية (ريجى) بعد أن نجح فى جعل الشعب يقاطع إنتاجها ، مما جعل الشاه يرسل خمسمائة من فرسانه يقتحمون عليه فراش مرضه فى مكان مقدس عند الإيرانيين هو «شاه عبدالعظيم» ، ليقودوه على محفة خشنة ، وهو ينتفض من الحمى ، إلى خارج الحدود .

* كان يعتبر نفسه سلطة للحق أعلى من سلطات السلاطين ، وعندما طلب منه السلطان عبدالحميد وقف الهجوم على الشاه ناصر الدين ، أجابه إجابة أفرغته ، إذ قال : «امتثالاً لإشارة أمير المؤمنين فى الآن قد عفوت عن الشاه ناصر الدين ؟ !» .

* وفى روسيا القيصرية أقام بيطرسبرج أربع سنوات ، نشر فيها عدة أبحاث عن العالم الشرقى والسياسة الدولية ، والتقى بالقيصر ، واختلف معه حول تقدير كل منهما لدور الجماهير الشعبية فى تسيير دفة الأمور فى البلاد .

* زار لندن ثلاث مرات ، وكتب عدة أبحاث فى صحيفة (ضياء الخافقين) بتوقيع «السيد الحسينى» ، وكانت تصدرها شركة إنجليزية ، بالعربية والانجليزية ، بغرض حصول التواصل والتعارف بين الغربيين والشرقيين» .

* مكث مدة فى باريس بعد فشل الثورة العراقية، وأصدر بها ، بمساعدة الشيخ محمد

عبده ، جريدة (العروة الوثقى) التي توقفت بعد ثمانية عشر عدداً ، بسبب محاربات الإنجليز .

* زار مكة والحجاز ، كما زار فينا وميونخ ، وفكر في زيارة أمريكا ولكنه لم يتم المشروع .

* استدعاه السلطان عبد الحميد في أخريات حياته حيث مكث ، شبه محدد الإقامة ، بالآستانة خمس سنوات ، فضاها - كما قالوا - في «سجن النعمة ، خلف القضبان الذهبية» .

* لم يتزوج ، تخففاً من أعباء الأسرة وتفرغاً للنضال ، وعندما أهداه السلطان إحدى جواريه الجميلات ، ليقيد حريته بالزواج ، رفض ، وعندما أحس بضغط الحاشية هدد بأن يزيل من نفسه مؤهلات الرجل للزواج؟؟ ! وعندما قال له الطبيب : إنك بذلك تعاند الطبيعة ، قال له : إن الطبيعة أفدر منك على تنظيم نفسها بنفسها ؟ !

* توفي في الآستانة في ٩ مارس سنة ١٨٩٧ م بمرض السرطان الذي أصاب فكه ، وقيل إن السلطان عبد الحميد قد دس عليه من ساعد على موته . ودفن في قبر متواضع جداً بمقبرة «شيخلر مزارغى» في «نشانطاش» تم نقل رفاتة إلى بلاد الأفغان سنة ١٩٤٤ م ، عبر البلاد العربية في موكب رسمي وشعبي مهيب .

* على الرغم من أنه أقام من الأحزاب والجمعيات ، وأقعد من الطغاة والحكومات ، وأشعل من الثورات والانتفاضات ما لم يتيسر بعضه لكثير من عظماء عصره وغيره من العصور ، فإنه عندما طلب منه البعض ترجمة موجزة لنفسه وحياته قال : «وأى نفع لمن يذكر أنى ولدت سنة ١٢٥٤ هـ وعمرت أكثر من نصف عصر .. واضطرت لترك بلادى (الأفغان) مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض .. وأكرهت على مبارحة الهند .. وأجبرت على الاتعاد عن مصر ، أو إن شئت قل : نفيت منها .. ومن الآستانة .. ومن أكثر عواصم الأرض .. كل هذه الأحوال «خاطرات» لا تسرنى وليس فيها أدنى فائدة للقوم .

أما القول بأنها لا تسرنى لا بمعنى أنى نفيت من البلاد أو سجنت ، كلا .. لأنى أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العتاه «رياضة» والنفي في ذلك السبيل «سياحة» والقتل «شهادة» وهى أسمى المراتب . فأنا عن نفسى غير راض .. ذلك لأن الحمول قد قعد بي فلم

يوصلني إلى أسمى مرتبة وهي « مرتبة الشهداء » وخطني في مصاف المنفيين من أرض إلى أرض ،
والمسجونين فيها .

فما أبعدني في كل هذا عن أولى الهمم ، ومن قام بالأعمال الخطيرة أو المطلب الجلل » .

* * *

العاصفة .. والإعصار :

في تاريخ الصراع الذي دار بين الشرق والغرب ، هناك دورات قد رصدها التاريخ ،
وجولات شهيرة لونت نتائجها الكثير من صفحات هذا الصراع ، وحددت الكثير من ملامح هذا
التاريخ .

ففي الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد حسم الاسكندر الأكبر ، لصالح الغرب ،
تلك الحرب السجال التي دارت طويلاً بين الفرس والروم ، وبسط السيطرة الاغريقية ، ثم
البيزنطية لأكثر من تسعة قرون على الكثير من بلاد الشرقيين .

وفي النصف الأول من القرن السابع الميلادي لبست روح المقاومة الشرقية ثياب الإسلام ،
واتخذت من العرب والعروبة رأس حربة لها ، وخاضت العديد من المعارك التي أزاحت نتائجها
سلطان الغرب ، بل والفرس ، عن تلك الرقعة التي غدت إمبراطورية للعرب المسلمين .

ومنذ سنة ١٠٩٦ م حاول الغرب ، ثانية ، تحت شعارات زائفة ومستعارة من صليب المسيح
ودينه ، أن يعيد الكرة على العرب ، وأن يورث أرضهم وديارهم لأمرء إقطاعه البرابرة
الصليبيين .

وبعد صراع دام قرنين من الزمان استطاعت الحضارة العربية الإسلامية ، بعد أن استعانت
على الصليبيين بجنود من « الأتراك المماليك » ، أن تحسم هذه الجولة لحسابها ، بانتصارها على
الحصن الصليبي الأخير في بلاد العرب « عكا » سنة ١٢٩٢ م .

غير أن الغرب قد عاد مرة ثالثة في نهاية القرن الثامن عشر ، وفي القرن التاسع عشر ، رافعا
أعلام التجارة ، متبعاً إياها بالبوارج والجيوش ، مرتدياً ثياب المدنية والتقدم والحضارة ،
مدفوعاً بالتوسع الإمبريالي لتحقيق ذات الهدف الأول ونفس الحلم القديم .

ولقد كانت هذه الثياب الجديدة التي لبسها الغزاة ، مضافاً إليها روح العصر الذي جاءوا

فيه ، تتطلب من شعوب الشرق العربي الإسلامى أن تبحث عن أدوات للمقاومة غير تلك التى واجهت بها غزوات الصليبيين ، غير سيوف المالك وآفاقهم الضيقة المحدودة ، غير جيوش الأتراك وفكرياتهم المحافظة ، كما كان على هذه الشعوب ، كى تنتصر ، أن تصل حاضرها الحديث بعصر حضارتها الذهبى ، فتبدأ لنفسها عصر الإحياء ، وأن تفتح عقلها وقلبها لكل ما هو جديد ومفيد ، وأن تقدم إلى صدر مسرح الأحداث ، أولئك الأبناء البررة الذين يمثلون بالنسبة لها التجسيد الحى لكل هذه الشروط والمتطلبات ، شروط البعث والإحياء ، ومتطلبات الانتصار فى هذه الجولة الجديدة من جولات الصراع الحضارى بين الشرقيين والغربيين .

وإذا كان القرن التاسع عشر قد شهد ذروة الزحف الإمبريالى على بلادنا ، وقمة عواصفه التى تمثلت فى الغزو والضم والاحتلال ، فلقد كان جمال الدين الأفغانى ، والتيار الذى مثله فى الفكر العربى الإسلامى خاصة ، والفكر الثورى عامة ، وفى نضال الشرقيين ضد الاستعمار ، هو الإعصار الذى أجاب به الشرق على هذا الزحف الإمبريالى الجديد .

* فى سنة ١٨٣٢ ، وقبل ميلاد الأفغانى بسنوات ست ، كان الاستعمار الفرنسى قد أنجز أولى خطواته الناجحة فى استعمار الجزائر ، الذى شرع فيه سنة ١٨٣٠ م .

* وفى عام ولادته ، سنة ١٨٣٨ م كان الاستعمار الانجليزى قد اتخذ لنفسه أولى القواعد العربية فى «عدن» ، التى أخذ يمد منها الحبال حول عنق اليقظة العربية الحديثة التى كانت قد بدأت فى مصر ذلك العهد تحت قيادة محمد على باشا .

* وفى سنة ١٨٤١ تمكن الإنجليز بالتعاون مع السلطنة التركية العثمانية ، من النزول إلى أرض الشام ، وإجبار الجيش المصرى الذى قاده «إبراهيم باشا» ، والذى بنى دولة كبرى وحدت الشام الكبير والحجاز ومصر والسودان ، ودانت لطلائع نفوذه إمارات كثيرة على الخليج ، وغدت قوته عاملاً هاماً فى سياسة العراق ، تمكن الإنجليز والعثمانيون من إجبار هذا الجيش على الانسحاب ، لتعود الرايات العثمانية إلى هذه البلاد وتحت ظلها المصالح الإمبريالية للمستعمرين الإنجليز .

* وفى سنة ١٨٦٠ نجحت دسائس الاستعماريين الانجليز والفرنسيين فى خلق قواعد لارتكازها فى المشرق العربى ، واستطاعت أن تفجر النزعات الطائفية ، فتريق الدماء العربية الغزيرة ، دماء الدرزيين بدماء المارونيين ، ودماء المارونيين بيد الدرزيين ، والانجليز من خلف الدرزيين ، والفرنسيون من خلف المارونيين ! .

وإذا كانت هذه الأحداث الاستعمارية ، والانتصارات الإمبريالية قد دارت وحدثت بعيداً . نسبياً . عن بلاد الأفغان ، التي ولد بها جمال الدين ، فإن حدودها في بلاد عربية إسلامية . جعلها قريبة من وجدان الرجل الذي ينحدر نسبه من أصلاب عربية حجازية . والذي انخرط منذ صغره في محيط الثقافة الإسلامية وعداد المثقفين المسلمين . فقد كانت تعيش على حدوده وتطل على قلبه وعقله . ومثلها مأساة فارس (إيران) التي كان يتصارع على أرضها نفوذ الانجليز ونفوذ القيصرية الروسية الآتي من الشرق والشمال .

ولم يأت عام ١٨٦٨ م . والأفغانى في عنفوان شبابه ، وبدايات حياته العملية وتجاربه في الحكم والسياسة . إلا وأتى معه دخول النفوذ الاستعماري إلى قلب بلاده الأفغان ، فلقد ساند الانجليز الأمير الأفغانى «شير على» ضد الأمير الوطني «محمد أعظم خان» ، ودارت حرب بين الأميرين . كل بجيشه ، واستعان الأمير الوطني بجمال الدين الأفغانى ، الذى وصل إلى منصب الويرير الأول في البلاد - أى رئيس الوزراء - والذى شارك مشاركة فعلية في هذه الحرب الوطنية . ولكن النصر في هذه الجولة قد كان من نصيب «شير على» ، ومن خلفه النفوذ الانجليزى . فاضطر جمال الدين إلى مغادرة وطنه ، ليواجه في كل مكان نفوذ الاستعمار ، وليكون في كل مكان حرباً على هذا الاستعمار والاستبداد : الحيطان اللذان نستطيع أن نسلك فيها كل المواقف والصفحات التي صنعها وسجلها هذا المناضل الفيلسوف .

الثقة .. والثورية :

وعندما خرج الأفغانى من وطنه - أفغانستان - ورأى الهند بمئات ملايينها تزرع في قيود المأساة المروعة تحت حكم الانجليز . وعندما ساح في بلاد المسلمين والعرب ورأى امتدادات الأخطبوط الاستعماري ، وبالذات الانجليزى ، في كل مكان . أحس أن هول المصائب قد أفقد الكثيرين حتى القدرة على تصور آمال التحرير وأحلام الخلاص من الاستعمار ، وشهد حركات فكرية بعضها يستعير من الغرب ، وبعضها يمزج مزجاً عشوائياً ما بين معطيات الغرب ومعطيات الإسلام . شهدها تفكر وتخطط جميعاً للتعايش والعيش في كنف سلطات الغرب وسلطان المستعمرين الانجليز ، فاندفع الأفغانى إلى ساحة المعركة . لا داخل بلاد الأفغان فحسب ، كما كانت بدايته . وإنما في طول البلاد الشرقية وعرضها ، وأحس بضرورة العمل لزرع الثقة التي تزعزت ، من جديد ، في نفوس هذه الأمم وهذه الشعوب . الثقة في التراث التي تجري عمليات تشويهه ، والثقة في النفس التي تجري عمليات إذلالها . والثقة في المستقبل الذى ولا بد أن يكون

بجانب هذه الشعوب ، ومن تم فلقد رأيناها يؤذّن في الناس بأن «قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق ، فقد ادهمت فيه ظلمات الخطوب ، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج»^(١) ، تم يتحدث إلى جماهير الشرقيين منكرًا عليهم استكانتهم وخصوعهم ، قائلاً : «أنرضي ، ونحن المؤمنون ، وقد كانت لنا الكلمة العليا ، أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ؟ ! أو أن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة ؟ ! بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته ؟ !!»^(٢) ، فإذا ذهب إلى بلاد الهند ، وشاهد مأساتها ، توجه إلى ملايينها بهذا الحديث الثوري الذي يقول لهم فيه : «يا أهل الهند ، وعزة الحق ، وسر العدل ، لو كنتم ، وأنتم تعدون بمئات الملايين ، ذباباً ، مع حاميتكم البريطانية ، ومن استخدمتهم من أبنائكم فحملتهم سلاحاً لقتل استقلالكم واستفاد ثروتكم ، وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف ، لو كنتم أنتم مئات الملايين ، كما قلت ، ذباباً ، لكان طينيتكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ويجعل في آذان كبيرهم «علاستون» وقرا ، ولو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود ، وقد مسخكم الله فجعل كلاً منكم «سلحفة» ، وخضتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجرتموها إلى القمر ، وعدتم إلى هندكم أحراراً»^(٣) ، ثم يمضي الأفغانى في مهمة بعث الثقة في شعوب الشرق حتى يسلمها بأولى ضرورتها في المعركة ضد الاستعمار ، وضد الانجليز بالذات ، الذين قطع الأفغانى بأنه «لا توجد نفس تشعر بوجود الحكومة الانجليزية على سطح الأرض إلا وقد مسها منهم شيء من الضر !»^(٤) .

وإذا كنا في هذا العصر الذى تنفكك فيه القبضة الاستعمارية عن إمبراطورياتها القديمة الواسعة ، نجد الجراءة لنصف الاستعمار - أحياناً - بأنه قد أصبح «نمراً من ورق» ، فإن الأفغانى قد تحدث إلى شعوب الشرق باعتماداً فيها الثقة بوصفه للمستعمر الانجليزى بأنه : «ضعيف يسطو على حقوق الأقوياء ، صوت عال وشبح بال... كالودودة الوحيدة ، على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية !»^(٥) .

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى . مع دراسة عن حياته وآثاره ص ٢٣ . دراسة وتقديم د . محمد عمارة . ط .

القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٥١٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٦٩ .

ولم يكن الأفغانى فى صراعه هذا ضد الانجليز ، وفى حديثه هذا الملتب ضدهم ، بالذى يخلط ما بين «الأمة الانجليزية» وبين «الاستعمار الانجليزى» فهو لم يكن عدواً للانكليز كأمة ، بل لقد رأى فيها أمة «من أرقى الأمم ، تعرف معنى العدل ، وتعمل بها ، ولكن فى بلادها ، ومع الانكليز أنفسهم ، وتنصف المظلوم إذا كان من الانكليز... والإنسان فى عرفهم هو الانكليزى ، وغيره من البشر ليس بإنسان !» ، وهو يسوق هذا الحديث الإنسانى الواعى بصدد تأكيد أن عدااء هؤلاء القوم ليس إلا فيما يتعلق «بسوء أعمالهم .. واستعمارهم ، وتدخلمهم فى الممالك الشرقية كاهند ومصر ، وسومهم أهلها بسوء التصرف ومنتهى العسف والجور»^(١) ، وهو موقف يذكر للأفغانى بالمزيد من التقدير .

ولعل هذا الموقف المبرأ من «التعصب الضيق الأفق» هو الذى جعل موقف الأفغانى من الاستعمار موقفاً «ثورياً» مبرأ من «المهادنة» ، فضلاً عن «التصالح» ، كما سبق أن برئ من التعصب المذموم . وهى الثورية التى نستطيع أن نلمسها ونلمسها فى المواقف العديدة التى وقفها الرجل فى هذا المقام :

« فعندما تفشل الثورة العربية ، وتصاب الكثرة الكثيرة من قياداتها باليأس والقنوط ، يرى الأفغانى ضرورة مواصلة النضال الثورى ، بينما يشير عليه الشيخ محمد عبده بالذهاب «إلى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة تعرقل سيرهما» ، وذلك لإنشاء «مدرسة للزعماء» ، ولكن الأفغانى يرى فى هذا الاقتراح «الطوباوى الخالم» والموقف «المهادن» «خوراً فى العزيمة ، وجنوحاً إلى السلامة ، ومبالغة فى التشاؤم من الحاضر» . وقال للشيخ محمد عبده عندئذ : «إنما أنت مثبط !» ، كما عاب عليه قعوده عن مقاومة الانجليز ، وعدم تأليفه حزباً يناهضهم رغم وفرة تلاميذه وأعدائه ، الذين منهم «سعد زغلول وإخوانه»^(٢) ، وذلك بعد الاحتلال .

« وعندما يعرض الانجليز عليه ، بعد ثورة المهدي فى السودان ، أن يتوجه سلطاناً عليها ، يجيبهم بأن عرضهم هذا إنما هو «تكليف غريب» وسفه فى السياسة ما بعده ! ثم يعنف اللورد الانجليزى «سالىسرى» ، الذى قدم إليه هذا العرض ، قائلاً : «اسمع لى يا حضرة اللورد أن أسألك : هل تملكون السودان ، حتى تريدون أن تبعثوا إليه بسطان»^(٣) ؟ ! .

(١) المصدر السابق ص ٤٦٤ .

(٢) د . أحمد أمين (زعماء الإصلاح فى العصر الحديث) ص ٨١ ط . القاهرة سنة ١٩٤٩ - والأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٥٠٥ ، ٤٧٩ .

(٣) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ٥٠٥ .

« وعندما يناقش العلاقة ما بين الشعب ومستعمره ، ويحدد معالم «الحيانة» ، فإنه لا يراها قاصرة على «المتعاونين» مع الأعداء . بل ويراها كذلك عاراً لاصقاً بالسليين والمتهادنين في المعركة ضد هؤلاء الأعداء ، فيقول : «لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بثمن نجس أو بغير نجس - وكل ثمن تباع به البلاد فهو نجس - بل خائن الوطن من يكون سبباً في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن ، بل من يدع قدماً لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها»^(١) . إلى غير ذلك من المواقف والضياعات التي تؤكد قسمة «الثورية» في موقف الأفغانى تجاه الاستعمار .

بل لقد أبصر الأفغانى دور «حرب الشعب» في الصراع ضد الاستعمار ، ففي سنة ١٨٨٣ م ، وبعد أن احتل الانجليز مصر ، وسرحوا جيشها الوطنى الذى قاده «عربى» ، كتب الأفغانى في (العروة الوثقى) مقالاً تحت عنوان (فرصة يجب أن لا تضيع) تحدث فيه عن دور الجماهير المسلحة بأسلوب حرب الشعب ، وكيف أنها أجدى في ظروف معينة ، من الحرب النظامية التي تنهزم جيوشها بانهمزام القيادات ... وضرب لذلك أمثلة منها الحرب الوطنية الشعبية التي خاضها الشعب الأفغانستانى ضد ٦٠.٠٠٠ من قوات الإنجليز ، فانتصر عليها بعد عامين من الاحتلال .

وفي هذا المقال ، يقول جمال الدين :

«إن مقاومة الأهالى أشد بأضعاف مضاعفة من القوى العسكرية المجتمعة في أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين تنهزم بانهمزامهم ، وما جرى لحكومة انجلترا مع الأفغانين أعظم شاهد على ما نقول ، دخلت الحكومة الانكليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكري ، واستولت على المدن ، وكاد قدمها يرسخ في البلاد . فلما قام الأهالى من كل صقع ، والتحمت المقاتل في جميع أنحاء أفغانستان ، عجز الستون ألفاً عن الوقوف موقف الدفاع ، واضطرت حكومة انجلترا بعد تسلطها ستين ، وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه استرليني إلى ترك البلاد» .

ثم يتحدث الأفغانى في مقاله هذا مدافعاً عن حرب الشعب مهاجماً الذين يصفونها بأنها فتنة (إرهاب) ، فيقول : «إن على المصريين أن يقتدوا بالأفغانين لينفذوا بلادهم من أيدي أعدائهم الأجانب ... وليس من الفتنة أن ندعوهم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن ، كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة ، وإنما ننادى على صاحب البيت أن يدافع

(١) المصدر السابق ص ٢٦ . ٥٠٢ .

عن حريمه وماله وشرفه ، وأن يخرج مخالف عدوه من أحشائه ، وهي سنة جرى عليها دعاة الحق في كل أمة وعلى المصريين عموماً ، والفلاحين خصوصاً أن يجمعوا أمرهم على أن يبنعوا الحكومة (الانكليزية) كل ما تطلب منهم ، وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد قائلين : لا نطيع إلا حاكماً وطنياً... فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصاراً ، بل ومن الجنس الانكليزي نفسه» (١) . .

* * *

زلة قدم :

على أن الدراسة الموضوعية لصفحات نضال الأفغاني ضد الاستعمار لا تستطيع أن تغفل للرجل زلة قدم حدثت منه إزاء الأطلاع الاستعمارية التي كانت تراود القيصرية الروسية يومئذ في كثير من المناطق الآسيوية ، وبالذات بلاد الهند ، فلقد منح الأفغاني هذه الأطلاع شيئاً من رضاه وموافقته ، شريطة أن تقتسم القيصرية الروسية ثمارها مع دولة فارس وإمارة الأفغان ، وذلك عندما يقول إن «الروس في حاجة للمواصلة مع أمراء الهند ، وفي ضرورة للوقوف على أخلاقهم ومجاري ميلهم ومواقع أهوائهم ، ولا سبيل يوصلهم إلى ذلك إلا إشراك الفارسيين والأفغانين في أعمالهم الحربية والسلمية . ليس من السهل على الروسية أن تستعين بدولة فارس وإمارة الأفغان على فتح أبواب الهند ، إلا أن تساهمها في الغنيمة وتشركها في المنفعة ، وإلا كانا سداً محكماً دون أهم غاياتها» (٢) .

على أن الأمر الذي يجعلنا نضع هذا الموقف الخاطئ في دائرة «الخطأ والزلة» فقط ، ولا نذهب به إلى ما هو أبعد من ذلك ، ليس سلوك الرجل العام فحسب ، ولا مواقفه النضالية الثورية التحررية المتسقة والمتواصلة فقط ، وإنما - بالإضافة إلى ذلك كله - رؤيتنا للسبب الذي جعل الأفغاني المناضل ضد الاستعمار يقف هذا الموقف من الاستعمار الروسي القيصري لبلاد الهند ، وهو السبب الذي نراه نابغاً من ذلك الكره المقدس ، الذي ملك على الأفغاني كل شيء ، للاستعمار الانكليزي ، والذي جعله يتلمس الحليف ، أي حليف ، ضد هذا الاستعمار ، حتى ولو كان هذا الحليف هو القيصرية الروسية ، ويسعى جهد الطاقة لإقامة الجبهات ضد احتلال الانكليز ومؤامراتهم ونفوذهم ، حتى ولو كانت هذه الجبهة مع طامع جديد في هذه

(١) مجلة العروة الوثقى . ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .

(٢) المصدر السابق ص ٣١٩ .

البلاد ، فهو إذن سوء التقدير وخطأ الحساب هما اللذان جعلنا رجال الدين يقف هذا الموقف الذى يحسب عليه ، لاله ، والذى لا يمكن لباحث منصف أن يفعله ، كما لا يمكن للباحث غير المغرض أن يتعدى به هذه الحدود . حدود الاجتهاد الخاطئ في البحث عن التحالفات المرحلية ضد العدو الرئيسى ، المتمثل في الاستعمار الانجليزى .

* * *

الجامعة الإسلامية :

إذا كان العداء للاستعمار ، والنضال الذى لا هوادة فيه ضد الاستعمار الانجليزى بالذات ، قد كان القسمة الأولى في حياة الأفغانى ونشاطه وفكره ، وإذا كان هذا الأمر قد قاده إلى موقف لا نرضاه ولا يتسق مع جوهر مواقفه ، وهو الموقف من الأطماع القيصريّة لروسيا ببلاد الهند ، فإن عداء الأفغانى هذا للاستعمار ، وكفاحه المقدس ضده ، قد جعله يستخدم في هذه المعركة أسلحة أساء البعض من الباحثين تقييمها والحكم على صلاحيتها ، وخصوصاً في عصرنا هذا الذى نضح فيه الفكر القومى العربى ، وتأكدت فيه القسمة التقدمية وسط الحركة الفكرية في وطننا العربى الكبير.. وفي مقدمة هذه الأسلحة التى حارب بها الأفغانى الاستعمار الغربى ، والتى أسىء تفسيرها وتقييمها سلاح «الجامعة الإسلامية» - الذى كان يرفع لواءه - أيضاً - يومئذ السلطان العثمانى عبد الحميد - .

ونحن نعتقد أن الأفغانى قد ظلم ظلماً كبيراً من قبل كل الذين عابوا عليه استخدامه هذا السلاح في الحرب ضد الاستعمار ، كما نعتقد أنه قد ظلم كذلك من قبل بعض الذين هلّلوا وكبروا لاستخدامه هذا السلاح ..

ذلك لأن الذين هلّلوا وكبروا لرفع الأفغانى علم «الجامعة الإسلامية» قد انطلقوا إلى موقفهم هذا من فوق أرض فكرية تعادى الحركة القومية عموماً ، وحركة القومية العربية على وجه الخصوص ، وهم قد حسبوا أن الأفغانى يظايرهم في محاولاتهم الفكرية الرامية إلى تقديم الإسلام من زواياها العالمية فقط ، مغفلين تلك الملامح القومية التى تبدى بها الإسلام منذ نشأته بين العرب ، والتى جعلت عالميته تمتزج بالواقع القومى لكل شعب من الشعوب التى دانت به ، بحيث لم تعد هناك حوائل بين أن يكون له جانب عالمى ولكنه يتبدى في إطار قومى لدى كل قومية من القوميات . بحيث تصبح هذه القوميات المتعددة التى يدين أصحابها بالإسلام أشبه

ما تكون بالجزر وسط محيط من التضامن الأخوى الذى تحكمه العقيدة الإسلامية السمحة مما ينفي التناقض العدائى بين القومية - بالمعنى الحضارى - وبين العقيدة الملية العالمية للإسلام .

كما أن أصحاب هذا الموقف الخاطىء والمحافظ قد خلطوا ما بين فكرة «الجامعة الإسلامية» عند الأفغانى ، وبين دعوتهم «للوحدة السياسية» - وحدة الدولة - بين كل الدول التى تدين بالإسلام ، لأنهم لم يفرقوا ما بين التضامن وبين الوحدة أو الاتحاد ، وحيث لم يبصروا هم هذا الفرق الجوهرى ، أو تعمدوا عدم رؤيته ، نجد الأفغانى يشير إليه صراحة عندما يقول : «إننى لا التمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً ، إن هذا ربما كان عسيراً ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه ، إلا إن هذا ، بعد كونه أساساً لدينهم ، تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجات فى هذه الأوقات .»^(١) فهو هنا يدعو إلى التضامن ووحدة النضال ، الذى «تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجات» ، فضلاً عن أصول الدين التى يعتنقها المسلمون .

وإذا كانت هذه هى الخلفية الفكرية المرفوضة لأصحاب هذا الموقف الخاطىء المحافظ فإن هناك الكثير من الملابس التى دعت بعض المفكرين القوميين والتقدميين إلى إساءة فهم قضية «الجامعة الإسلامية» عند الأفغانى ، ومن ثم النظر إليها بعداء ، أو بشك وارتياب على أقل تقدير .. ولعل فى مقدمة هذه الأسباب :

« تعذر الرؤية الصادقة والواضحة والموضوعية للجوانب الثورية والعقلية والعلمية التى يتضمنها الفكر الإسلامى فى أصوله النقية وجوهرياته الكلية ، والذى تمثل وتجسد على مر التاريخ فى الكثير من الأعلام والثوار والمصلحين المسلمين ، والذين كان الأفغانى واحداً من أبرزهم فى تاريخنا الحديث . إذ أن التفسيرات الخاطئة والمتخلفة والمحافظة لأسس الفكر الإسلامى ، كثيراً ما حجبت عن المفكرين التقدميين العرب ما فى هذا الفكر من كنوز ثورية وطاقة محركة لا بد منها لشعوب هذه الأمة فى تطورها السياسى والاجتماعى إلى الأمام .

« إن الكثيرين من المفكرين المسلمين المحافظين ، أو المتهادنين مع الاستعمار ، أو أصحاب المواقف السياسية المشبوهة ، قد بذلوا الكثير من النشاط الفكرى والعملى تحت شعار «الجامعة الإسلامية» .. فهناك «أحمد خان» (١٨١٧ - ١٨٩٨ م) الذى قاد بين مسلمى الهند حركة

(١) المصدر السابق ص ٣٤٥ .

إصلاحية مدنية وتعليمية وصلت فكر الهنود المسلمين بروح العصر- كما تمثل في الحضارة الغربية- . والذي هادن- رغم ذلك الاستعمار الإنجليزي ، وفتح له الكثير من الأبواب والعقول والقلوب هناك^(١) . وهناك كذلك «أغاخان» . راعي طائفة الإسماعيلية السابق . وصاحب المواقف السياسية القريبة جداً من مواطن الشبهات^(٢) .

: إن السلطان العثماني الطاغية «عبد الحميد» قد ظل قرابة الثلاثين عاماً يدعو إلى الجامعة الإسلامية ، ليحكم من قبضته على العالم العربي باسم الإسلام ، حتى لقد قيل عنه إنه أقام «بناء الجامعة الإسلامية وشيد أركانها»^(٣) .

وإذا كان هذا المفهوم الرجعي والمحافظ الذي تبدى لشعار «الجامعة الإسلامية» في هذه المواقف ، وعند هؤلاء قد ألقى الظلال والشبهات على موقف الأفغانى حياله . فإننا نود أن نقول : إن موقف جمال الدين من هذا الشعار إنما كان مختلفاً جذرياً عن هذه المواقف ، كما كان نابعاً من إدراك سليم لدور الرابطة الإسلامية ، وما تحدثه من تضامن بين الشعوب الإسلامية في المعركة ضد الاستعمار الغربي الزاحف على البلاد . كما كان مسوقاً في هذا الوقت إلى عقد التحالفات التي رآها ضرورية . من وجهة نظره . ضد الاستعمار الغربي . وهي التحالفات التي قادته إلى أن يضع يده لفترة من الزمن في يد السلطان عبد الحميد ، وأن يعقد على هذا السلطان الكثير من الآمال . وهنا ، وفي هذه الحدود فقط ، كان الخطأ الذي وقع فيه الأفغانى والذي عاد فرجع عنه . كما وقع فيه أيضاً وعاد فرجع عنه الزعيم المصري محمد فريد^(٤) فهو اجتهاد صائب في رفع شعار «الجامعة الإسلامية» . وخاطيء في تعليق الآمال على السلطان عبد الحميد ، قائداً للجهاد المحقق لهذا الشعار .

أما الفروق الموضوعية والجوهرية التي تميز ما بين مفهوم شعار «الجامعة الإسلامية» عند الأفغانى ، ومفهومه عند غيره . فإننا نستطيع أن نوجزها في عدد من النقاط . أهمها :

١- أنه قد كان لشعار الجامعة الإسلامية عنده مضمون تحررى واضح وحاسم . يتناول أهم جوانب المعركة التي تخوضها شعوب الأمة الإسلامية ضد الاستعمار الغربي . الذي كان يمثل الخطر

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث . ص ١٢١ - ١٣٨ .

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٣٣ .

(٣) لوثرروب ستودارد (حاضر العالم الإسلامى) المجلد ١ . ص ٣٠٨ ترجمة عجاج توبهض . ط . القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

(٤) مذكرات محمد فريد المنشورة بالمجلد الثاني من كتاب محمد صبيح (مواقف حاسمة في تاريخ الدعوة العربية)

ص ٢٢٩ - ٣٨٠ . القاهرة سنة ١٩٦٤ .

الأساسي عليها في ذلك الحين ، فلقد كانت تعني هذه الدعوة تحرير الأرض الإسلامية المحتلة ، وخاصة مصر والهند ، ومنع التدخل الأوروبي في شؤون الأجزاء الأخرى التي يزحف عليها الاستعمار ، وخاصة فارس وبلاد الأفغان ، كما كان لهذه الدعوة مضمونها الاقتصادي الذي يجتذب إعجاب الدارسين وتقديرهم ، عندما قصد الأفغانى من ورائها تحقيق شعار (ثروة المسلمين للمسلمين) و «نفض اليد من رؤوس الأموال الغربية . والاستعاضة عنها برؤوس مال إسلامية ، وفوق جميع هذا ، هي تحطيم نواجذ أوروبا ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والحجارك ، العقود التي مادامت خارجة عن أيدي العالم الإسلامي فهو يظل عالة على الغرب^(١) .»

٢ - أن هذه الدعوة لم تكن ذات مضمون طائفي عند جمال الدين . بل إن الرجل لم يكن يتحدث عن بلاد المسلمين فقط ، وإنما عن بلاد الشرق ، حتى لقد لقب بحكيم الشرق وليس بحكيم الإسلام ، ووجدناه يكتب عن الهند أكثر مما كتب عن الحجاز . وحتى أننا نجد عنده أمتع دراسة وأعمقها ، وكذلك أهم نشاط عملي شهده عصره . في سبيل فكرة وحدة الأديان ؟ ! وخاصة الأديان السماوية الثلاثة التي رآها «على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية . وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية» كما رأى أن الاختلافات الطائفية إنما هي غريبة عن أصول هذه الأديان ، وأن التناحر والتنافر الذي يحدث بين معتنقيها ليس من جوهرياتها ولا «هو من تعاليمها ، ولا أثر له في كتبها ، وإنما هو صنع بعض رؤساء أولئك الأديان ، الذين يتجرون بالدين ، ويشترون بآياته ثمناً قليلاً ، ساء ما يفعلون»^(٢) . حتى لقد رأى في صراع الغرب ضد الشرق جذوره الاستعمارية ، ولم يره فقط ، كما صنع الكثيرون على عهده . في إطار الصراع الديني ، فقال : «إن مسألة الدين لم تكن هي وحدها الفاعلة في أمر المسألة الشرقية» . وإنما السبب هو الأطماع الاستعمارية التي استغلت عقم الحكم العثماني وضعفه وتفريطه . ومن ثم فإن هذه الحالة «ستمتد إلى غير تركيا ، وستعم كل قارة وكل حكومة تتفق في شكلها وحكمها وتفريطها مع حكومة تركيا»^(٣) .

(١) حاضر العالم الإسلامي . مجلد ١ . ص ٣٢٨ .

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٢٩٠ - ٢٩٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

٣ - أن الأفغانى لم يكن يرى فى دعوة الجامعة الإسلامية نقيضاً معادياً للدعوات القومية لدى شعوب الأمة الإسلامية ، كما أن فكره إزاء العلاقة ما بين روابط «المللة والعقيدة» وروابط «القومية والجنسية» قد اتصف بالمرونة والتطور الفكرى والعملى الذى أصاب الكثير من مواقف جمال الدين .. ونحن نستطيع أن نقول : إن فكر الرجل إزاء هذه القضية قد مر بمرحلتين أساسيتين :

الأولى : تلك التى تجسدت فى فكر مجلة (العروة الوثقى) التى أصدرها بياريس بعد فشل الثورة العربية فى الفترة ما بين ١٣ مارس ، و١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م ، وهى مرحلة مبكرة فى فكره ونضاله ، ولقد رأى فيها الفكر القومى مُتَضَمِّناً وموجوداً فى الفكر الاعتقادى لدى المسلمين ، وأن فى الإسلام غناء عن القومية ، وليس عداء لها .

وأحياناً أخرى كان يرى أن الروابط الملية والروابط القومية كلاهما ضرورى ، ولكن الأولى لدى المسلمين أقوى من الثانية ، كما كان يضيف بعض قسّمات القومية ، مثل اللغة ، إلى الروابط الملية ، وذلك بسبب من مكان اللغة العربية فى القرآن والدين .

وإذا كان اشتراك الشيخ محمد عبده مع الأفغانى فى تحرير (العروة الوثقى) ، وعدم توقيع بحوثها ومقالاتها باسم كاتبها ، قد ساهم لفترة من الزمن ، فى شيوع هذه البحوث والمقالات بينها^(١) . كما ساهم فى وجود بعض الاختلافات فى أبحاثها حيال هذه القضية فإننا نستطيع أن نقول ، ونحن مطمئنون تماماً لما نقول : إن الأفغانى لم يهمل آثار الفكرة القومية فى هذه المرحلة من تفكيره ونضاله ، بل رأى فى كل من «الوشيجة الدينية» و«علاقة الجنس والرابطة الجنسية (القومية) ..» سبباً للالتحام بين المواطن ومجموع الأمة ، والدليل على ذلك أنه لم يكن - كما قدمنا - يرى فى وحدة العقيدة الدينية ، وحدها ، سبباً يرقى بأصحابها إلى الوحدة السياسية ، كما لم يكن يرى فى الخلافات المذهبية الاعتقادية سبباً يحول دون الوحدة القومية التى هى جوهر الروابط التى تجمع ما بين الشعب الواحد^(٢) .

والثانية : من المراحل التى مر بها فكر الأفغانى بهذا الصدد ، هى تلك التى نضج فيها فكره القومى ، حتى شهدناه يقدم لنا صياغات فكرية فى غاية من النضج والحسم والوضوح فى هذا

(١) فى تحقيقنا للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده حسمنا هذه القصة . انظر تقديمنا للجزء الأول من هذه الأعمال ص ٢٢٩ - ٢٤٠ ، طبعة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى . ص ٣١٨ .

الموضوع ، والتي تخلص فيها من ذلك الازدواج الذى جمع فى كتاباته ومواقفه ما بين الروابط الملية والروابط القومية - على مستوى واحد - وذلك عندما وصل إلى ترجيح كفة الروابط القومية ، وأدرك أن روابط اللغة هى السبيل الوحيد لجمع شتات الأمم التى مزقتها الاستعمار ، وأنه بدونها فإن شخصية الأمة تغيب وتفتنى ، وأن الأمم إنما تغير معتقداتها وأديانها بطريقة أسهل وأسرع مما تغير رابطة اللسان التى هى أهم مقومات الشخصية القومية ، مع توظيفه هذه الروابط القومية العربية فى سبيل النهوض الإسلامى فى العام ! .

الأفغانى والخلافة والعثمانية :

وإذا كان أمر الموقف الفكرى للأفغانى إزاء شعار «الجامعة الإسلامية» قد اتضح ، وتأكد ما أشرنا إليه من أن أرضيه النضال ضد الاستعمار الغربى كانت هى المطلق إليه ، وأنه لم يخرج عن كونه سلاحاً أراد المفكر المناضل من خلفه جمع شعوب هذه الأمة الإسلامية لصعد الزحف الإمبريالى على بلادها ، فإن الموقف العملى للأفغانى من الخلافة العثمانية ، وهو بمثابة التطبيق لشعار الجامعة الإسلامية ، على نحو من الأنحاء ، يفسر لنا هو الآخر الموقف الخاص للأفغانى ، والتميز ، خيال هذا الموضوع .

فى الفترة الأولى من حياته ، كانت لديه آمال كبار علقها على كفاءة السلطان عبد الحميد ودهائه وقدراته ، ولقد حفلت هذه الفترة بعدد من عوامل الاحتكاك بين السلطان وبين الاستعمار الانجليزى ، الذى أخذ يغير على ممتلكات الإمبراطورية العثمانية ، ويسلبها الإمارات والولايات ، ولقد راودت الأفغانى فى ذلك الحين فكرة استغلال هذه التناقضات ودفع الخلافة فى طريق تصعيد هذه الاحتكاكات من أجل إقامة تماسك إسلامى خلف منصب السلطان العثمانى ، يلم شعث المسلمين فى المعركة ، ويخيف الغرب من دخول معركة لها جوانبها الروحية المقدسة ، فضلاً عن الجوانب الوطنية والقومية المرتبطة بالتوسع والاحتلال .

وهذه المرحلة هى التى بايع فيها الأفغانى السلطان عبد الحميد بالخلافة ، وهو يعلل لنا أسباب تلك البيعة فى قوله : «أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره ، وإعدادة العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا ، وحسن نواياه واستعدادة للنهوض بالدولة (التي فيها نهضة المسلمين عموماً) فقد دفعنى إلى مد يدي له ، فبايعته بالخلافة والمملك عالمًا علم اليقين أن المالك الإسلامية فى الشرق لا تسلم من شركاء أوروبا ، ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدرداها

واحدة بعد أخرى ، إلا بيقظة وانتباه عمومي ، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم»^(١) ، فهو إذن السعي وراء إبطال مكائد أوروبا ، وإنقاذ الممالك الإسلامية من شرورها ، والوصول إلى «اليقظة والانتباه العمومي» لبلاد الشرق ، الذي دفع الأفغانى لمبايعة السلطان عبد الحميد ، والدعوة للانضواء تحت راية «الخليفة الأعظم» .. على أنه ينبغي لنا أن ننبه إلى أن هذه الثقة إنما كانت نتيجة خداع من السلطان عبد الحميد لجمال الدين ، وآمال مدحها هذا الطاغية للفيلسوف الكبير ، ونحن نستطيع أن نلمس ذلك عندما نقرأ كلمات الأفغانى التي يتحدث فيها عن انطباعاته من أحاديث السلطان ومناقشاته ، فيقول : « رأيت من السلطان ارتياحاً لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستورى ، وأن الإسلام أول من عمل به فى سلطانه .. وأعظم ما أدهشنى ما أعد من خفى الوسائل وأمضى العوامل كى لا تتفق أوروبا على عمل خطير فى الممالك العثمانية »... !^(٢)

ولكن غشاوة هذه الدهشة سرعان ما تنقشع عن عيني الأفغانى ، عندما تنمو تجربته مع السلطان ونظام حكمه ، وعندما يدرك أن أحاديث الرجل ليست أكثر من البراعة فى الذكاء والدهاء والسياسة التي حدقها «خصوصاً فى تسخير جلسيه» ، وأنه حتى إذا اقتنع ببعض مشورات جمال الدين ، فإنه لا يجرؤ على التنفيذ ، إذ «أن عيب الكبير كبير ، والجن من أكبر عيوب الملوك !»^(٣) .

وعندما يدرك الأفغانى ، وخاصة بعد اشتداد قره من السلطان ، وإقامته الدائمة فى الآستانة ، أن هذه الراية التي ظن فى يوم من الأيام صلاحيتها لإرهاب أوروبا وتجميع شمل الشرقيين قد أصبحت المظلة التي يزحف الاستعمار الغربى إلى الشرق تحت كنفها ، ومن خلال ثغراتها التي أصبحت مستعصية على الترقيع ، عند ذلك يحسم الأفغانى موقفه العملى ، كما حسم من قبل موقفه الفكرى ليتخطى رحاب هذه الساحة ، ساحة الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية ، إلى ساحة الفكر القومى الناضح والقومية العربية بذاتها ، وتراوده أفكار عن الخلافة العربية على وجه التحديد .

والأفغانى عندما حسم موقفه العملى هذا كانت لديه الجرأة لإعلانه ، كما أعلن بيعته من قبل للسلطان ، وعندما طفق به كيل اليأس مما يدور فى البلاط العثمانى قال : « ما هذا الهذيان فى هذا

(١) المصدر السابق ص ٢٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

الزمان ؟ ! وفى أى مقام جليل خطير هم يتلاعبون ؟؟ خلافة عظمى ! وإمامة كبرى !!
لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها ، وحتى سامها كل مفلس»^(١)
ولم يرهب بطش السلطان الذى «يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على هواه» ، فدخل عليه
ليقول له : «أتيت لأستميح جلالتك أن تقبلنى من بيعتى لك ، لأنى رجعت عنها ... نعم ..
بايعتك بالخلافة ، والخليفة لا يصح أن يكون غير صادق الوعد»^(٢) .

وعلى الرغم من الخيوط الذهبية والحربية التى ظلت تربط ما بين السلطان والأفغانى حتى
وفاته فى سنة ١٨٩٧ م ، التى استخدمها السلطان فى تكييل نشاط المفكر المناضل ، إلا أننا
نستطيع أن نقول : إن فكر الرجل ومواقفه العملية قد برئت تماماً من كل آثار «الولاء» لهذه
الخلافة ولهذا السلطان منذ ذلك الحين الذى أدرك فيه أن الخلافة العثمانية قد أصبحت عقبة أمام
التحرر الوطنى لبلاد الشرق ، وأن هذه السلطة قد غدت قيلاً على محاولات «اليقظة والانتباه
العمومى» التى ناضل فى سبيلها فى كل مكان .

على أنه ينبغى لنا أن نشير فى ختام الحديث عن موقف الأفغانى من الجامعة الإسلامية إلى أن
تجاوزه لهذا الشعار ، وسحب ولائه من الخليفة العثمانى لا يعنى أن موقفه الأول كان موقفاً
رجعياً ، لأن الأفغانى لم يكن داعية من دعاة آل عثمان ولا عاملاً على تثبيت سلطانهم فوق رقاب
العرب والمسلمين ، بقدر ما كان مناضلاً ضد الاستعمار الغربى ، أراد أن يستخدم كل الإمكانيات
والطاقات المتاحة ، الحقيقى منها والمتوهم ، فى هذه المعركة الرئيسية ضد الإمبريالية والاستعمار ،
كما أن الموقف الاجتماعى للأفغانى ، وانحيازه إلى صف الجماهير البسطاء ضد القلة الغنية
والمستغلة ، إنما تنبى عنه نفيًا قاطعاً أن يكون شريكاً لأولئك الذين اتخذوا من شعار «الجامعة
الإسلامية» سبيلاً لتثبيت الاستغلال الاقتصادى والظلم الاجتماعى على كاهل جماهير المسلمين
الفقرءاء ... لقد تطورت - فى هذا المقام - مواقف الأفغانى السياسية .. لكنه ظل دائماً وأبداً وفيما
لموقفه الفكرى ، الذى لم يعرف التناقض العدائى بين رابطة «الجامعة الإسلامية» ورابطة
«القومية الحضارية» .. فلقد كان مهندس «النهوض الإسلامى» ، الذى أبصر «للأمة العربية»
دورا رائداً فى الجهاد من أجل هذا النهوض ! .

(١) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٨ .

القومية ... والعروبة

لعل من أبرز آيات النضج للفكر القومي العربي عند الأفغانى ، ذلك الرد الذى كتبه ونشره فى صحيفة (الديبا) الفرنسية على المحاضرة التى ألقاها فى «السربون» المستشرق الفرنسى «أرست رينان» ، وكان «رينان» قد تناول فيها ، ضمن ما تناول ، هجوماً على «الجنس العربى» أعاد فيه دعاواه المعروفة عن سطحية العقلية العربية ، وعدم ملاءمتها للفكر الفلسفى والقضايا التركيبية ، وخلص من ذلك إلى أن التراث العربى الإسلامى إنما هو إنتاج إسلامى لشعوب وأجناس غير عربية ، وليس إنتاجاً عربياً لشعوب تعربت بالحضارة واللغة والولاء ، وإن كانت قد انحدرت من أصلاب غير أصلاب عدنان وقحطان ،^(١) فتصدى الأفغانى للدفاع الموضوعى عن الأمة العربية والحضارة العربية ، محمداً ومبلوراً فكره القومى الناضج حيال هذا الموضوع .

وهو فى هذا الصدد يحدد المعيار الذى يقيس به العروبة ، فيرفض معيار «رينان» القائم على العرق والجنس ونقاء الدم ، ويرى أن الحضارة واللغة والهوية هى المعيار فى هذا المقام ، ومن ثم فإن العروبة متميزة عن الدين الإسلامى ، وإن قامت بينهما علاقات . ولقد كانت العروبة أسبق من الإسلام فى الوجود ، كما أن الإسلام قد مد ظلها ونشر مقوماتها بعد أن تم لأصحابه الفتح واكتملت للشعوب التى فتحت بلادها مقومات التعريب .. فيقول عن «الخرانيين» و«الصابئة» الذين سكنوا شمال العراق منذ ما قبل الإسلام ، والذين احتفظوا بديانتهم القديمة بعد الإسلام ، ومع ذلك أسهموا فى بناء الحضارة العربية الإسلامية ، يقول : «إن الخرائين كانوا عرباً .. وإن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الخرائين . وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهى : «الصابئة» ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية» ، ثم يتحدث عن أن الحضارة التى ورثها العرب والتي ساعدوا على ازدهارها فى الشام ، إنما هى حضارة غير مقطوعة الصلة بالعروبة ، فلقد «كانت أكثرية نصارى الشام عرباً غسانيين اهدتوا بهدى النصرانية» ، كما يتحدث عن عروبة المجتمع الأندلسى وعروبة حضارته وثقافته فيقول^(٢) : «إن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم ، بل ظلوا عرباً .. أما ابن باجة وابن رشد وابن طفيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندى بدعوى أنهم لم يولدوا فى جزيرة العرب» . فهو هنا يبنى أن يكون المعيار للإدخال فى العروبة أو الإخراج منها الأصل العرقى أو العقيدة الدينية ، صابئة كانت

(١) رينان (ابن رشد والرتدية) ص ١١٦ . ١٨٥ ترجمة عال زعير ج ١ - القاهرة سنة ١٩٥٧ م .

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٢٠٨ . ٢٠٩ .

هذه العقيدة ، أو مسيحية ، أو إسلاماً ، لأنه قد اتخذ معياراً أكثر اتساعاً ، وهو المعيار الحضارى الذى تقف اللغة فى مقدمة سماته وقسماته ، وذلك عندما يحسم هذه القضية - فى عصره - بقوله : إنه « لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بـ«لغتها» ، وعندما يقول إن « الأمة العربية هى عرب قبل كل دين ومذهب ، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان مما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان »^(١) .

مكونات القومية :

ولم تكن هذه المحاضرة التى رد بها « الأفغانى » على « رينان » هى المناسبة الوحيدة التى طرق فيها هذا الموضوع ، وإنما وجدناه فى مناسبات كثيرة يلقى إلينا بتار ناضجة لمفهومه القومى الجديد ، فهو يحدثنا ، مثلاً عن المؤثرات والأسباب التى تجعل من المجموعة البشرية التى تعيش ظروفها وملابساتها قومية متحدة ، وهو يعدها خمس خواص ومؤثرات وعناصر ، أربعة منها تابعة من الطبيعة والواقع والظروف المادية التى يعيشها الناس ، وهى : ١ - « اللسان » (اللغة بآدابها ومتعلقاتها) ٢ - و « الأخلاق » ٣ - و « العوائد » ٤ - و « الإقليم » ، أما الخاصية الخامسة ، التى هى « طائفة » من خارج الواقع المادى فهى ٥ - « الدين » ، وذلك عندما يقول : « إن الحكمة قضت أن تكون الحواس البشرية المعروفة خمساً ، وأن يكون للإقليم خواص خمس ، بها تميزت الشعوب والقبائل التى خلقها الله من نفس واحدة ، وتقسّم المعمور إلى ما يسمونه ممالك وأوطاناً ، أما الخواص فأربع منها تستمد من طبيعة الإقليم ، والخامسة تطراً فتؤثر وهى « الدين » ، ويليهما « اللسان » و « الأخلاق » و « العوائد » و « الإقليم » وتأثيره على المجموع .. وتحت هذه المؤثرات تحصل للأقوام ميزه ، وتتأصل فيهم بحبة البقاء على مألوفهم والذود عنه ، واعتبار من خالفه أنه ليس منهم ، بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة ، فحتى تم لقوم من سكان الأرض ، أو لأهل إقليم أو مصر ، تلك الجوامع أو الخواص الخمس المميزة ، وحصلت المساواة بها بين العموم منهم ، وتأثروا بمؤثراتها أصبحت دعوى الكفاءة بينهم ميسورة ، وأمر التمييز أو تعيين الأفضلية غير ميسور »^(٢) .

ولكن هذا المفهوم القومى عند الأفغانى ، لا ينسبه أن وحدة الأصل بالنسبة للنوع الإنسانى إنما تقتضى مستوى من النظرة الإنسانية والعلاقات الإنسانية بين كل نبى البشر ، إذ الإنسانية

(١) المصدر السابق ص ٥٧ .

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى . ص ٤٢٨ .

دائرة أرحب وأوسع وأشمل من دوائر القوميات ، وأنه ، لذلك « خليق بالإنسان . كما أنه نوع واحد . ألا يكون له غير هذه الكرة الأرضية الصغيرة وطناً . بمعنى أن وحدة النوع تقتضى وحدة المكان . فالإنسان طالما لا يمكنه أن يعيش في الماء . فوطنه إذن اليابسة »^(١) .

وهكذا تكتمل لديه . بالنسبة للإنسان . دوائر ثلاث هي :

١ - الدائرة القومية . ٢ - والدائرة المليية . ٣ - والدائرة الإنسانية .

الوطنية :

وإذا كانت المشاعر الوطنية التي تتجسد وتتبلور في ولاء يمنحه الإنسان لوطن من الأوطان هي إحدى المميزات والقسمات غير المنظورة ، التي تلخص عملية الانتساب القومي بالنسبة للإنسان ، فإننا يجب أن نميز ، بالنسبة للأفغانى ، بين نوعين من الوطنية . رفض أحدهما ، وهو ذلك المتصف بالتعصب وضيق الأفق والانغلاق على قطعة من الأرض لا يرى الإنسان أبعد من حدودها ولا يعيش غير قضاياها ومشكلاتها . وإذا كان الأفغانى قد عاش كما يعيش الراعى العملاق الذى يستشعر المسؤولية بالنسبة للإنسان الشرقى ، بل وبالنسبة لكل الذين « يحامون عن الحرية والعدل المطلق » . وإذا كان قد حمل على كاهله قضايا أمم عديدة ومتساكِل شعوب كثيرة . فإنه لذلك قد برئ من ضيق الأفق الوطنى عندما « لم يتعلق ببلد من البلاد على أنه وطن . ولم تدخل فكرة الوطنية بهذا المعنى في مذهبه الاجتماعى »^(٢) .

أما الوطنية كسلاح بيد الشعب في معركة تحقيق الذات والنضال ضد الأعداء ، فإن الأفغانى قد عرفها وحبها وأشاد بها . بل وقدم لنا في مجالها النفيس والجيد من الآثار .

فهو الذى يحدثنا عن عداء المدارس الأميرية العثمانية . وعداء الأجانب للتربية الوطنية ، فيقول : « أما الوطنية ، أو حب الوطن ، فهو الداء الذى تحشاه المدارس الأميرية ، أو ما كان تحت سلطة الأوصياء الأجانب منها » ، ثم يلح في طلبه ودعوته إلى « تعليم وطنى : يكون بدايته الوطن . ووسطه الوطن ، وغايته الوطن » . ثم يمضى قائلاً : إنه « يجب أن يكون الوطن في مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية . إثنان فائنان = يعملان أربعة ، فلا تستطيع المذاهب

(١) المصدر السابق ص ٤٢٧ . ٤٢٨ .

(٢) مصطفى عبدالرزاق (ترجمة الأفعان) مقدمة (العروة الوثقى) ص ١٤ . ط . القاهرة سنة ١٩٢٧ م .

أو الطوائف أن تدعيها خاصة ، ولأن تحاول نقضها ، هذا هو الوطن ، وهكذا يجب أن يكون التعليم الوطني»^(١) ، أى أن هذه المشاعر والروابط والولاءات التي هي نبت لقسمات وخصائص سبق حديث الأفغانى عنها ، إنما يجب الحفاظ على قدسيتهما من أن تتدنس تحت أقدام الصراعات المذهبية والطائفية ، التي يحاول بعضها احتكار هذه العاطفة ويحاول بعضها الآخر نقضها وهدمها

الخلافة العربية :

وإذا كان هذا هو مبلغ الحسم الذى بلغه الفكر القومى لجمال الدين الأفغانى ، فإن الرجل لم يقف عند حدود هذه الجبهة ، وإنما امتد نشاطه العملى ليواكب هذا الطور الجديد من أطوار تقدمه ونضجه ، وليصنع الكثير فى سبيل نزع الراية من آل عثمان ، وعلى وجه التحديد فك قيودهم من حول أعناق الولايات العربية التي يحكمونها .

ونحن لن نتحدث عن الأحاديث الكثيرة التي ألقاها الأفغانى على مرديه وتلاميذه ضد السلطان عبد الحميد ، فإنها أكثر من أن يتسع لها هذا المقام ، ولا عن كل النشاطات التي مارسها ضد استبداد الخلافة العثمانية ، وإنما سنختار من كل ذلك حادثتين تاريخيتين فقط للتدليل على هذا الذى نقول :

الأولى : حدثت فى سنة ١٨٩٣ م ، وكان الأفغانى يعيش يومئذ فى الآستانة ، فخطط مع تابعه ومريده «محمد باشا الخزومى» لإصدار جريدة عربية ، على غرار (العروة الوثقى) ، تمثل هذا الطور الناضج من فكر الأفغانى وتجاربه ، وأطلقا عليها اسم (البيان) ولكن السلطان وحاشيته سرعان ما عطلاها ، واتها الأفغانى ومريده بأنها يسعيان بذلك العمل «لتحرير اليمن واستقلالها» ، (وكانت قد شقت عصا الطاعة على السلطان) ، وذلك تمهيداً للسعى «لاستقلال البلاد العربية»^(٢) .

والثانية : تلك التي اتهم فيها الأفغانى صراحة بالسعى لإقامة خلافة عربية يكون مركزها القاهرة وخليفتها الخديوى عباس حلمى . أما قصة هذا الاتهام فإنها تبدأ بذلك اللقاء الذى تم «بالصدفة» ؟ ! بين الخديوى عباس فى منزله «الكاغدخانة» بالعاصمة العثمانية وبين جمال الدين

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٤٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٦ .

الأفغانى وعبد الله النديم ، ولقد تحدثت حيثيات «الالتهام» الذى رفع للسلطان عن «أن جمال الدين قد تعاهد وتحالف مع الخديوى عباس على أن يؤسس له دولة «عباسية» ، وأنه قد طلب تأميناً من الخديوى بعد أن يتم له الأمر ، ألا تكون عاقبته كما كانت عاقبة أبى مسلم الخراسانى مع العباسيين ، وأن سوريا الجغرافية لمن حكم مصر بمنزلة اللازم والملزوم ، وهى مفتاح العراق» وأن ختام هذا اللقاء إنما كان بيعة من الأفغانى والنديم للخديوى عباس ، حيث «بايعاه تحت الشجرة» ، وقال له الأفغانى أبيتاً من الشعر تقول :

شاد الخلافة فى بنى العباس عباس . لكن نعتة السفاح
ولانت خير مملك ستشيدها بالبشر . يا عباس يا صفاح^(١)

ونحن لا يعيننا كثيراً أن الأفغانى قد نبى عن نفسه هذه «التهمة» عندما سأله عنها السلطان عبد الحميد ، فلم يكن متصوراً ، على فرض صحتها ، أن يعترف بها وهو فى قبضة الطاغية . مهما أوتى من الشجاعة والإقدام ، فضلاً عما فى الاعتراف من المخاطر التى تهدد نجاح المسعى فى هذا السبيل ، وإنما الذى يعيننا هو : هل كان هذا الأمر متصوراً ومنسجماً مع طبيعة الفكر القومى للأفغانى يومئذ ؟ ومع تقديره لمصر وعاصمتها كمركز لخلافة عربية ؟ ومع رأيه فى عباس حلمى من حيث الصلاحيات لتولى هذا المنصب ؟ .. إذ فى الإجابة على هذه الأسئلة الوصول إلى الموقف المطمئن إلى معقولية هذا المشروع وإمكانية حدوث هذا التدبير ، أو العكس ، دون الدخول فى متاهات الافتراضات والتحقيقات التى هى أقرب إلى الأسلوب «القضائى» منها إلى أسلوب معالجة السياسة والتاريخ ..

« وبالنسبة للموقف الفكرى القومى للأفغانى ، فلقد سبق أن اتضحت لنا تطورات التى بلغت مرحلة النضج ، بل ولقد سبق وأشرنا إلى اتهامه فى سنة ١٨٩٣ بالسعى «لاستقلال البلاد العربية» عن سلطان العثمانيين .

« أما عن رأى الأفغانى فى مصر ، وصلاحيات عاصمتها . القاهرة ، أن تكون مركز خلافة عربية للأمة العربية ، فهو موقف يجب على هذا السؤال بالإيجاب ، ذلك أن الأفغانى كانت له فى مصر سنوات عاشها (١٨٧١ - ١٨٧٩) عدها من أخصب سنوات عمره ، كما كانت له عن القضية المصرية أبحاث فى (العروة الوثقى) لم تحظَ بمتلها دولة من الدول ، أو قضية من القضايا ، لأنه كان يعتبرها «أهم مسألة شرقية» .. وأهم من ذلك أن الأفغانى كانت له تقديرات صائبة

(١) المصدر السابق ص ٧٢ . ٧٣ والصفاح ، هو الكثير الصمغ عن الذبوب .

لمدى النضج والتطور الذى بلغه المجتمع المصرى ، بالنسبة للمجتمعات العربية الأخرى ، وخاصة منذ قيام الدولة العصرية و«الحكومة النظامية» فيها على عهد محمد على ، الذى وصفه جمال الدين بأنه : «نابعة الدهر» الذى تقدمت مصر على عهده فى كل المجالات ، «وتعارفت أهلها ، واثلف الجنوبي بالشمالى ، والشرق بالغربى ، وقوى فيهم معنى الوطنية .. واعتدلت المشارب المذهبية ، حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر بأنه : «وطنى مصرى» ، وارتفعت بذلك أصواتهم بعد ما جالت فيه أفكارهم ، وكيف كان المتأمل فى سيرها هذا يحكم حكماً ربما لا يكون بعيداً عن الواقع ، أن عاصمتها لا بد أن تصير فى وقت قريب وبعيد ، كرسى مدينة لأعظم الممالك الشرقية ، بل ربما كان ذلك أمراً مقررأ فى أنفس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها ، وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر» .^(١) فإذا كان الخطر قد عرض ، والخطب قد ألم ، فلا بد وأن يكون فكر الرجل وعقله وبصره قد شخسوا جميعاً إلى مصر متطلعين أن تؤدى دورها التاريخى الذى تقرر لها تاريخياً ، والذى أصبح قدرها المكتوب والمحتوم ، كما أصبح الأمل الفرد لهؤلاء الجيران .

« أما عن تقديرات الأفغانى لصلاحيات الخديوى عباس حلمى كى يتولى منصب الخلافة ، فإننا نراه إيجابياً ، رغم ما أحيط به من تحفظات ، فهو يرى أن «الخديوى بظروفه ، وما أحاق وأحاط بمصره ، هو عندى أعجز من السلطان» إذن لو زالت هذه الظروف التى تحيط به وبمصر لا كتملت للرجل الصلاحيات المطلوبة ، بل إن جمال الدين يرمحنا عن عناء الاستنتاج فيقول : «.. نعم لو تخلصت مصر من براثن بريطانيا ، وتسنى لعباس ، مع ذكائه وتطلعه ، أن تكون له هممة محمد على الكبير ، ومضاء إبراهيم ، وسخاء إسماعيل ، لوقع من الخلافة على ما يرجوه»^(٢) .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن القاهرة كانت فى ذلك الحين مستقرأ لكثير من الثوار العرب ومكاناً لكثير من الحركات الثورية والقومية والإصلاحية التى قامت فيها لتحرير المشرق العربى من سلطان العثمانيين . وأن المفكر القومى المناضل عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) قد اتخذ من القاهرة بعد وفاة الأفغانى بقليل مركزاً للدعوة للخلافة العربية ، وأنه كان يرشح لهذا المنصب الخديوى عباس حلمى بالذات .

وأن المتناقضات التى قامت بين الخديوى وبين السلطان قد جعلت صوت العروبة عالياً ومسموعاً فى القاهرة يومئذ ، حتى قيل «إن التدابير والخطط الكبرى للجامعة العربية قد نظمت

(١) المصدر السابق ص ٥٠ . ٧٤ . ٤٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

وانضجت في مصر. وأما البرنامج المصري للجامعة فهو يرمي إلى توحيد جميع الأقطار العربية ، وعلى رأسها الخديوي .. ويعزى إلى الخديوي عباس حلمي .. تشجيعه لهذه الحركة» (١) .

إذا علمنا كل ذلك ، وجمعنا إلى الموقف الفكري القومي للأفغانى ، مفهومه الناضج للوطنية ، وموقفه العملي من الخلافة العثمانية ، وقصته مع الخلافة العربية ، استطعنا أن نضع أيدينا على صفحة تجسد الموقف الفكري ، والعمل للرجل حيال هذا الموضوع الهام .

من الرأسمالية إلى الاشتراكية :

إذا تحدثنا عن التطور الفكري الذى أصاب الأفكار الاجتماعية عند الأفغانى ، فإننا سنشهد وضوح معالم هذا التغيير وذلك التناقض بين الموقف الرأسمالى المنحاز للاقتصاد الحر ، والمعادى ، فى عنف وغلو ، للاشتراكية والاشتراكيين ، وبين الموقف الذى انتهى إليه ، والذى رأى فيه « حتمية » سيادة الاشتراكية جميع أنحاء العالم ! ؟ .

ونحن نستطيع أن نقول : إن الموقف الأخير هو الموقف الأصيل المعبر عن حقيقة فكر الأفغانى ونشاطه النضالى ، بينما الموقف الأول لم يكن سوى قشرة رقيقة اقتضاها ظرف خاص مرَّ به الرجل جعله يعادى الاشتراكية هذا العداء « الحامسى » وبتهم الاشتراكيين هذه الاتهامات المشبعة بالعنف والظلم والتعميم .

أما تفسير ذلك فإنه يتضح عندما نعلم أن الأثر الفكري الوحيد الذى هاجم فيه الأفغانى الاشتراكية هو رسالته التى كتبها فى الهند سنة ١٨٨١ ، والتى أسماها (الرد على الدهريين) وهى رسالة كتبها ضد طائفة هندية مسلمة كانت تنحو فى الثقافة والتعليم منحى عسرياً متطرفاً فى تقليده للأوروبيين ، وتهادن الاستعمار الأنجليزى فى نفس الوقت وتتعاون معه وتركن إلى سلطانه كل الركون ، فجاءت هذه الرسالة على نحو من الحماسة والانفعال اللذين جرفا فى طريقهما كل الأفكار الفلسفية والاجتماعية والإصلاحية والعلمية التى أنتجتها الكثير من العقول والأمم والحضارات ، ولقد كان مثل الاشتراكية فى ذلك الهجوم الحامسى كمثل الفلسفة اليونانية ، والتراث الفارسى ، والنشوء والارتقاء ، والثورة الفرنسية ، وغير ذلك من القيم الفكرية والحضارية التى هاجمها الأفغانى فى هذه الرسالة ، تم عاد فيما بعد ذلك فصحيح موقفه منها ، وقدم لنا عنها الفكر الناضج الذى يمثل موقفه الحقيقى بصدد قضاياها ، ويكفى أن نستعير هنا

(١) حاضر العالم الإسلامى . المجلد ٤ ، ص ١٢٠ .

وصف «الشيخ محمد عبده» للظروف التي ألفت فيها هذه الرسالة الحجازية ، والذي يقول فيه إنه قد «دعاه إلى تصنيفها حمية جاشت بنفسه أيام كان في البلاد الهندية عندما رأى حكومة الهند الانكليزية تمد في النقي جماعة من سكان تلك البلاد إغراء لهم بنبد الأديان ، وحل عقود الإيمان»^(١) . يمكن أن نستعير هذا الوصف لنعلم كيف رفض الأفغانى وهاجم بعنف كل الفكريات والمواقف التي توهم فيها التناقض والعداء مع موقف التدين والإيمان .

ونحن نجد قد عقد فصلاً خاصاً للهجوم على الأساس الأيديولوجى للاشتراكية ، عنوانه : (مطلب فى السوسىالست) «الاجتماعيون» ، والنهليست «العدميون» ، والكهونىست «الاشتراكيون» يتحدث فيه عن أن «هذه الطوائف الثلاثة تتفق فى سلوك هذه الطريقة (أى الإلحاد) .. وزينوا ظواهرهم بدعوى أنهم سند الضعفاء ، والمطالبون بحقوق المساكين والفقراء ، وكل طائفة منها وإن لونت وجهة مقصدهم بما يوهم مخالفته لمقصد الأخرى ، إلا أن غاية ما يطلبون إنما هو رفع الامتيازات الإنسانية كافة . وإباحة الكل وإشراك الكل فى الكل ، وكم سفكوا من دماء ، وكم هدموا من بناء ، وكم خربوا من عمران ، كل ذلك سعياً فى الوصول إلى هذه المطالب الخبيثة .. وجميعهم يتعاونون على إذاعة خيالاتهم الباطلة ، وبهذا كثرت أضرارهم ونمت شيعتهم فى أقطار الممالك الأوروبية ، خصوصاً مملكة الروسية» ، ثم يمتضى الأفغانى ليدافع عن مواقع الفكر الرأسمالى متحدثاً عن أن «المبدأ الحقيقى لمزايا الإنسان إنما هو حب الاختصاص والرغبة فى الامتياز» وواصفاً الأفكار الاشتراكية بأنها هى وأفكار «المصابين بالمليخوليا سواء» ، وأن تطبيقها سيجعل «الإنسان فى معيشته على مثال الهائم البرية» وأن «هذه الطوائف إذا استفحل أمرها وقوى ساعدها على المجاهرة بأعمالها ، فقد تكون سبباً فى انقراض النوع البشرى .. أعاذنا الله من شرور أقوالهم وأعمالهم !»^(٢) ، إلى أمثال هذه الأحكام التي رمى بها الاشتراكية والاشتراكيين .

على أن الأمر الجدير بالملاحظة هو أن هذه الرسالة الحجازية التي ذهب فيها الأفغانى هذا المذهب قد لقيت رواجاً منقطع النظير من قبل الذين ظلوا يطبعونها ويعيدون طبعها فى مصر مراراً وتكراراً ، حتى ظن الناس فى مصر أنه ليس للأفغانى أثر فكرى سوى رسالة الرد على الدهريين ! . ولقد كانت آخر طبعاتها بمصر تلك التي أخرجتها إحدى دور النشر التي لا صلة

(١) محمد عبده . مقدمة ترجمة الرد على الدهريين ص ١٧ ، الطبعة الرابعة . القاهرة سنة ١٣٣٣ هـ .

(٢) الأعمال الكاملة لجلال الدين الأفغانى ص ١٦٣ . ١٦٤ .

لها بالتراث ولا بالإسلاميات^(١) ، وذلك عقب صدور قوانين يوليو الاقتصادية سنة ١٩٦١ م .
بينما الآثار الفكرية التي تحدث فيها الأفغانى عن الاشتراكية وحتميتها لم تعرف طريقها إلى المطبعة
المصرية إلا فى سنة ١٩٦٨ م عندما بدأنا ننشر أعماله الكاملة ! .

الجوهر الأصيل :

أما كيف كان هذا الموقف الحامسى الذى اتخذه الأفغانى ، حيال الفكرية الاشتراكية
وأحزابها ، قشرة لا تعبر عن الجوهر الأصيل للرجل ، فإن لنا على ذلك أكثر من دليل ، بل إن
حياة الرجل ، ونضاله ، والمعسكر الذى انحاز إليه فى كل المجتمعات التى مر بها أو عاش فيها ، إنما
تؤكد جميعها على أن الجوهر الأصيل لهذه الشخصية ما كان له أن يتناقض أبداً مع مثل العدالة
الاجتماعية والإخاء الإنسانى ومحاربة الاستغلال التى تستهدفها الاشتراكية ويسعى لبلوغها
الاشتراكيون ، إذا ما كان القياس وكانت المقارنة بينهم وبين الرأسمالية ، ودعاتها .

« فالأفغانى الذى عرف باحترامه للتصوف والمتصوفة ، والذى كان شديد الإعجاب
للفيلسوف الإسلامى المتصوف «محيى الدين بن عربى»^(٢) ، عندما يُسأل عن رأيه فيما يذهب إليه
المتصوفون من دعوى «الفناء فى الله» يجيب إجابة تحدد موقفه الاجتماعى إلى جانب جمهور
الناس البسطاء فيقول : «أنا لا أفهم معنى لقولهم : الفناء فى الله ، وإنما الفناء يكون فى خلق
الله ، ومعنى الفناء فيهم تعليمهم وتنبئهم إلى وسائل سعادتهم وما فيه خيرهم»^(٣) .

« وعندما يتحدث عن جمعية (العروة الوثقى) السرية التى كومتها بعد فشل الثورة العراقية ،
والتي أقامت لها فروعاً بمصر والهند وغيرهما يشير إلى تحالف هذه الجمعية «مع الذين يتململون من
مصاهم ، ويحبون العدالة ويحامون عما ، من أهل أوروبا»^(٤) . وهو يشير هنا إلى الأحزاب
والجمعيات الاشتراكية التى تعاون معها فى باريس .

(١) ودار النشر هذه هى (دار الكرنك) التى كانت تموطها السفارة الأمريكية لتنتشر كتب المسترجون فوستر دلاس
وما شابهها ؟ ! .. ولقد صنعت ذلك الصنيع (دار الهلال) - مع الفارق - عندما تحيرت هذا النص من نصوص

الأفغانى فنشرته سنة ١٩٧٣ م ؟ - إبان الترويج الرسمى للافتتاح على الغرب والاقتصاد الحر ! .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٩ .

(٣) عبد القادر المغربى (جمال الدين الأفغانى) ص ٣٤ . ط . القاهرة . دار المعارف .

(٤) العروة الوثقى . ص ٣٣ .

« وعندما يتحدث عن «السلطة الزمنية» فإنه يرى أن «الغاية المقصودة منها هي العدل المطلق ...»^(١) .

« وعندما يجيء الحديث عن القلة المالكة المترفة فإنه يحدد بحسم موقفه المعادى لهم ، ويرى فيهم «سلاسل وأغلالاً» قد وضعت في رقاب المسلمين ، وذلك عندما يقول إنه «ما أقعد الهمم عن النهوض إلا أولئك المترفون ، يحرصون على طيب في المطعم ، ولين في المضجع ، وتطاول في البنين .. أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالاً»؟!^(٢) .

« وعندما يجتمع في «بطرسبرج» بالقيصر الروسي ، ويسأله القيصر عن سر خلافة مع الشاه الإيراني ناصر الدين ، فيقول الأفغاني : «إنها الحكومة الشورية، أدعو إليها ، ولا يرضاها الشاه» ، فإذا تعاطف القيصر مع الشاه ، مستنكراً رضاء أى ملك بأن يتحكم فيه فلاحو أمته ، أجابه الأفغاني بدفاع عن الفلاحين أغضب منه القيصر حتى أنهى هذا اللقاء ، فلقد كان يعلن دائماً انحيازه «للشعب العامل» ويقول : إنه «لولا الزرع ولولا الضرع لما كان سرف الأغنياء ولا ترف الأمراء . موقف الزراع والصناع من الحضارة أنفع من موقف الإمارة . رأينا شعباً يعيش بدون ملك ، ولكن ما رأينا ملكاً يعيش بدون شعب» ، ويخاطب الشاه الإيراني بقوله : «الفلاح والعامل والصانع في المملكة ، يا حضرة الشاه ، أنفع من عظمتك ومن أمراك»^(٣) .

« فإذا ما شئنا أن نبحث عن مكان الأفغاني ، كإنسان ، من الثروة والغنى في حياته ، علمنا أنه لم يمتلك في حياته سوى الثوب الذى كان يرتديه إلى أن يخلق فيبدله ! ، والراتب الذى بلغ بمصر عشرة جنيهات وفي تركيا خمسة وسبعين ليرة عثمانية ، كان ينفقه على جلسائه وزواره في ندوته اليومية ، وغيرهم من قاصديه .

وهذه المواقف والآراء والأخلاقيات ، هي التي حددت للأفغاني موقفه إلى جانب جاهير الناس البسطاء ، ومثلت جوهره النضالى الأصيل ، ومن ثم قادت خطاه الثابتة إلى رحاب الفكر الاشتراكي الذى آمن به وبشر منذ زمن طويل .

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٣٢٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦ ، ١٧ ، ٨٧ ، ٨٨ .

ملامح الاشتراكية :

وإذا كان الأفغانى قد أفاض فى الحديث عن الاشتراكية ، وخلف لنا صياغات فكرية واضحة نستطيع منها أن نتفهم بالتحديد الملامح التى تصورها عليها ، كما ناقش الفرق بين الاشتراكية الغربية ، والتى جاءت رد فعل للتطرف الرجعى من قبل الأغنياء والاحتكاريين ، وبين الاشتراكية التى شهد تطبيقها المجتمع العربى الإسلامى الأول ، إذا كان ذلك كذلك ، فإننا نستطيع فى هذا المقام أن نشير إلى بعض الأسس التى ضمنها الرجل حديثه عن الاشتراكية ، كى تساهم فى تحديد الملامح الأساسية لتصوراته عنها ، وفى مقدمة هذه الأسس :

١ - الطبقات .. وصراعها : وعلى عكس ما يزعمه البعض من أن تمايز الطبقات الاجتماعية وصراعها إنما هى خاصية من خصائص المجتمعات الغربية ، وأن المجتمعات الإسلامية لم تعرف هذا التمايز ولا ذلك الصراع ، على العكس من هذا الزعم ، وعلى الرغم من أصحابه ، يقدم لنا الأفغانى تحليلاً عبقرياً لنشأة الطبقات وتمايزها وصراعها فى المجتمع العربى الإسلامى على عهد عثمان بن عفان ، فيقول : إنه « فى زمن قصير من خلافة عثمان تغيرت الحالة الروحية فى الأمة تغيراً محسوساً ، وأشد ما كان منها ظهوراً هى سيرة وسير العمال (الولاء) ، والأمراء ، وذوى القربى من الخليفة ، وأرباب الثروة ، بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى «أمراء» وطبقة «أشراف» وأخرى «أهل ثروة وثراء وبذخ» ، وانفصل عن تلك الطبقات طبقة العمال وأبناء المجاهدين ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحماية والسابقة فى تأسيس الملك الإسلامى وفتوحاته ونشر الدعوة ، وصار يعوزهم المال الذى يتطلبه طراز الحياة الذى أحدثته الحضارة الإسلامية ، إذ كانوا ، مع جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم ، لا يستطيعون اللحاق بالمتتمين إلى العمال (الولاء) ورجال الدولة .. فنتج عن مجموع تلك المظاهر التى أحدثتها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين فى المسلمين ، تكون طبقة أخرى أخذت تتحسس بشيء من الظلم وتحفز للمطالبة بحقوقهم المكتسب من مورد النص ومن سيرى الخليفة الأول والثانى أبى بكر وعمر . وكان أول من تنبه لهذا الخطر الذى يهدد الملك والجامعة الإسلامية الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى .. الذى اجتمع مع طبقة المتألمين والمتذمرين من المسلمين ، وقص عليهم من مسيرة السلف أشياء ، وأطلعهم على ما قاله عامل الشام معاوية بن أبى سفيان ، وأردفها بإعلانه مشاركته لهم فى كل ما يتحسسون به قلباً وقالباً . وبمختصر القول : إنه شجعهم على النهضة - (الثورة) - والمطالبة

بحق صريح لهم اهتضمه جماعة بغير وجه شرعى .»^(١)

والأفغانى هنا لا يقدم لنا تصوراً واقعياً رائعاً لهذه الفترة من حياة العرب المسلمين فقط ، وإنما يقدم لنا نموذجاً للمنهج العلمى عندما يكون هو الرائد فى كتابة صفحات التاريخ .

٢ - الاشتراكية بين الغرب .. والإسلام : والأفغانى عندما كتب عن الاشتراكية الصفحات التى خلفها لنا فى تراثه الفكرى لم يكن بإزاء نموذج أو نماذج من المجتمعات التى طبقت هذه الأفكار ، وأحالتها إلى حقائق مادية ملموسة ، وإنما كان يتجاذب عقله وعواطفه ، إزاء هذا الموضوع ، واقع تعيشه هذه الأفكار والأحزاب التى تنادى بها ، والطبقات التى تتعاطف معها فى البلاد الأوروبية ، وذكرى لتجربة عربية إسلامية هى أقرب ما تكون ، فى التحليل الأدق إلى النظم الاشتراكية الأولى ، أقامها المسلمون الأوائل ، ثم اجهضت على يد القيم الإقطاعية التى نمت بالمجتمع العربى بعد فتح المجتمعات الزراعية الإقطاعية العريقة فى مصر والشام والعراق ، وبالذات زمن عثمان بن عفان . ولذكرى سحر على العقول والقلوب لا يدانيه الواقع المعاصر أو المعاش ، بما فيه من جراحات وآلام وصراعات .

وهكذا انحاز الأفغانى إلى صف التجربة الإسلامية الأولى ، ورآها أجدر بتحقيق روح المبادئ الاشتراكية من تلك الصراعات التى كان يعيشها العالم الغربى وقتذاك .

وحتى لا نساهم ، مبالغين ، فى إلقاء ثوب «المثالية» وأوصافها على تفكيره هذا ، نبادر بتقديم تصوراتنا للميزات التى أبصرها فى تجربة العرب المسلمين الأولى واعتقدتها عند الغربيين ، هذه الميزات التى نجد فى مقدمتها :

(أ) أن الاشتراكية لدى المسلمين الأوائل لم تكن رد فعل نتج عن المظالم الاجتماعية والمغالاة من قبل الأثرياء ، ذلك لأن «الرسول عليه الصلاة والسلام قد أقام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وحقق الاشتراك العمومى فى الثروة بينهم جميعاً عندما هاجر القرشيون بدينهم إلى «يثرب» (المدينة) ، وذلك استجابة للضرورات الاقتصادية ، وأيضاً - وذلك مهم جداً - استجابة للدعوة إلى الإخاء التى تتضمنها آيات القرآن ، فهذا الحدث الهام الذى يعتبره الأفغانى «أشرف عمل تجلّى به قبول الاشتراكية قولاً وعملاً»^(٢) ، لم يتأخر به التطبيق حتى

(١) المصدر السابق ص ٤٢١ ، ٤٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٤١٧ .

يشهد مجتمع « المدينة » الصراعات الطبقيّة ومآسى الفقر والفقراء . بينما الاشتراكية في العالم الغربي ، على عهد الأفغانى وفي رأيه ، ليست سوى رد فعل من قبل الطبقات المحرومة نتيجة إفراط الأثرياء في حرمان هذه الطبقات .

(ب) أن روح الاشتراكية في التجربة العربية الإسلامية كانت مبرأة من روح الانتقام ، لأنها قد نمت ابتداء بلا عنف في مجتمع « المدينة » ، وبمبادرة من الحكومة الإسلامية ، ولأنها قد حدثت في ظرف نستطيع أن نقول إنه استثنائي بالنسبة للظروف المعتادة في حياة البشر ، شهد من ظروف التسامى الروحي والديني ما أذاب النوازع الأنانية والغرائز الفردية وأغرقتها في جو قدسي غير قابل للتكرار الكثير ، بل وغير قابل للدوام ، ولأنها قد حدثت في مجتمع محدود ، كان يومئذ مجرد نواة للدولة الجديدة ، وعندما ترامت الحدود تعذّر الحفاظ على هذه النواة ، بينما الاشتراكية في الغرب والتي هي رد فعل المحرومين إزاء ثراء الأثرياء وسرفهم ، قد تشبّع أنصارها بروح الانتقام ، بل لعلهم حريصون على أن يربوا قواتهم الثورية بهذه الروح ضماناً للنصر على الأثرياء !^(١١) .

ورغم أن تفكير الأفغانى هذا ، بمقاييس « الاشتراكية العلمية » ، يبدو مغرّقاً في « المثالية » إلا أننا نعتقد أنه ليس كذلك تماماً ، ذلك أن كراهية الأفغانى لروح الانتقام النابعة من الظلم الاجتماعي في البلاد الأوروبية الرأسمالية ، والتي تحرك الطبقات الكادحة إلى إحداث الثورات الاشتراكية ، لم يجعله يلقي المسؤولية في ذلك على الفقراء والكادحين ، بل لقد اعتبرهم معذورين في ذلك إزاء الظلم الاجتماعي الذي يعانونه ، لأن هذا الظلم هو الذي « استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية ، وفي نفيرهم روح الانتقام ، وهي أوضاع لن تظل قاصرة على الغرب » ، بل لن « يسلم منها الشرق »^(١٢) .

بل إن الأفغانى قد سبق وبرر لما أسماه « بالطبقة الاشتراكية » العربية المسلمة أن تنهض للمطالبة بحقها ، وهي مسلحة بروح الانتقام ، على عهد عثمان بن عفان ، وذلك عندما تحدث عن « تكون طبقة أخذت تتحسس بشيء من الظلم ، وتتحفز للمطالبة بحقهم المكتسب » ، وعندما اجتمع « أبوذر الغفارى » مع « طبقة المتألمين والمتذمرين من المسلمين » وقادهم في صراعهم الطبقي ضد عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان والنظام الاجتماعي

(٢) المصدر السابق ص ٤١٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٤١٥ .

الذي كان قائماً يومئذ ، كان تعاطف الأفغانى مع أبى ذر ومع الثوار^(١) ، فتعلق الأفغانى
إذن ، بالمثل الأعلى الذى حفظه التاريخ لتجربة المسلمين الأوائل ، لا يعنى أنه قد رفض
التطبيق الاشتراكى عن غير هذا الطريق ، خصوصاً بعد أن تكونت الطبقات بالفعل ،
وأصبحنا نعيش فى مجتمعات طبقية ذات علاقات اقتصادية واجتماعية معقدة ، وليست لها صلة
بالبساطة التى كان عليها مجتمع المسلمين الأوائل فى شبه الجزيرة العربية .

وعلى الرغم من أن الحركات الاشتراكية الغربية كانت على عهد الأفغانى ، مليئة بالعديد
من المنظمات والتيارات الفوضوية المحسوبة على الاشتراكية والاشتراكيين ، فإن الرجل لم يجعله
هذه الحركات الفوضوية يتخلى عن الانحياز المطلق إلى صف الكادحين ، حتى ولو سلكوا
طريق الانتقام إلى الحصول على ما لهم من حقوق ، بل ظل دائماً يلقى اللوم على «الذين أثروا
من كدهم وعملهم ، وادخروا كنوزهم فى الخزائن ، واستعملوا ثروتهم فى السفه» ، لأن كل
عمل «يكون مرتكباً على الإفراط لا بد أن تكون نتيجته التفريط»^(٢) .

٣ - حمية الاشتراكية : ومما يشهد للرجل بعد النظر ، ويقرب مفهومه الاشتراكى إلى
حقل الأفكار الاشتراكية الجديرة بالدرس المفصل والجداد ، أنه قد رأى فى هذا النمط من
أنماط تنظيم حياة المجتمعات مرحلة تطورية لا بد أن يصل إليها المجتمع ، أى مجتمع ، ويعيشها
الإنسان ، أى إنسان ، وهو قد رسم لذلك طريقاً معيناً ، لم يجعله سيادة طبقة من الطبقات
أو انتصار حلف مجموعة من الطبقات . وإنما هو «طريق العلم الصحيح» وشيوع المعرفة بين بنى
الإنسان ، ونحن نلاحظ أن الأفغانى قد ربط تحقيق الكثير من آماله وأحلامه ، مثل سيادة
السلام ، وانتهاء الحكم المطلق ، وكذلك سيادة الاشتراكية كل مجتمعات العالم بسيادة الفكر
والمعرفة الصحيحة حياة البشر ، وتحولها إلى قوة مؤثرة فى أحداث هذه الحياة ، وعلو راية
الإخاء الإنسانى فوق كل الرايات . ولذلك وجدناه يقول : إن «دعوى الاشتراكية ، وإن قل
نصراؤها اليوم ، فلا بد أن تسود العالم ، يوم يعم فيه العلم الصحيح ، ويعرف الإنسان أنه
وأخاه من طين واحد ، أونسمة واحدة ، وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من المسعى
للمجموع ، وليس بتاج أو نتاج ، أو مال يدخره أو كثرة خدم يستعبدها ، أو جيوش
يخشدها ، أو غير ذلك من عمل باطل ومجد زائل ، وسيرة تبقى معرة لآخر الدهر»^(٣) .

* * *

(٣) المصدر السابق ص ٤٢٣ .

(١) المصدر السابق ص ٤٢١ - ٤٢٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٠ ، ٩١ .

الديمقراطية :

وإذا كان فكر الأفغانى الاجتماعى قد أصابه الظلم من قبل الذين وقفوا منه وبه عند حدود المرحلة والصياغات التى تعاطفت مع المفهوم الرأسمالى ومعاداة الاشتراكية . وإذا كانت محاولات استغلال هذه الصياغات قد حدثت بعد وفاة فيلسوفنا الكبير ، فإن الفكر الديمقراطى لديه قد أصيب بما هو أكثر من الظلم ، عندما تعرض الرجل بصدده لافتراءات وأكاذيب نسبت له ما لم يقله ، بل ضد ما يعتقدوه ويبشرون به ، ولم تنتظر فى ذلك وفاته بل صنعت ذلك وهو حتى يرزق يسعى بين الناس ! .

ومن هنا كان ما يسمع ويقرأ من أن الأفغانى قد كان يبشر بان صلاح المجتمعات الشرقية لا يمكن أن يتم إلا على يد حاكم «مستبد عادل» وأن الرجل كان نصيراً للحكم الفردى المطلق ، على شرط أن تتوافر العدالة لمن يمسك بزمام الأمر فى هذا النظام ؟

ونحن لن نسلك فى سبيل تنفيذ هذا الافتراء الجريء على الأفغانى ، سبيل الاحتكام إلى حياته فقط ، وما زخرت به من معارك ونضالات ضد الاستبداد والمستبدين ، ولا سبيل كتاباته فقط ، التى أودعها الكثير من آيات الشورى والديمقراطية ، والإيمان الذى لا يجد بالحكم الثيابى الدستورى السليم ، ولا سبيل لإيراد النماذج السياسية الديمقراطية التى حببها ، فحسب ، التى أشار على شعوب الشرق العربية الإسلامية بالاستفادة منها ، وإنما سنسلك كل هذه السبل ، فى إنجاز يناسب المقام ، مع البدء برأى الأفغانى نفسه فى هذا الافتراء ..

فلقد سأله يوماً مريده ومسجل خواطره وخاطراته «محمد باشا الخزومى» فقال : «إن المتداول بين الناس على لسانك : «يحتاج الشرق إلى مستبد عادل» .. فإذا بالأفغانى يجيب ويقول : «هذا من قبيل جمع الأضداد ، وكيف يجتمع العدل والاستبداد؟! .. وخير صفات الحاكم «القوة والعدل» ، فلا خير بالضعيف العادل ، كما أنه لا خير فى القوى الظالم» .

فهو هنا حاسم الموقف ، واضح الرأى ، لا يترك مجالاً للبس أو الغموض . ومع ذلك فإن فى فكره الديمقراطى ما هو أبعد من ذلك بكثير ..

فى الغرب : وإذا كنا قد سبق وأشرنا إلى أن الأفغانى قد رأى فى انتشار العلم الصحيح والمعرفة الحققة السبيل لسيادة الاشتراكية جميع أنحاء العالم ، فإنه قد رأى كذلك فى العلم والمعرفة السبيل لخلاص البشر من الحكم المطلق وأثار المستبدين .. فهو يتحدث عن الديمقراطيات الغربية

الأوروبية ، وكانت على عهده أكثر النماذج الديمقراطية في العالم ، إن لم تكن الوحيدة فيه ، فيقول لشعوب الشرق : « انظروا إلى العالم الغربي ، ترونه على تقسيماته الحاضرة ، واستقلال عناصره بميزاتهم القومية ، لما تساوا على الوجه النسبي بالفضيلة ، وأهمها العلم بالواجبات ، سواء كانت لهم أو عليهم ، ومعرفة وجوه المطالبة بها ، والمساواة لأدائها ، انتفى من بين ظهرانيهم أمر التفرد بالسلطة ، وسوق الأمة على هوى السلطان » ، ثم يمضى ليشر بأن ما حدث في الغرب من زوال سلطان الحكم الفردي سيم غير الغرب أيضاً وسيستفي ما بقي في العالم البشري من هذا النوع من الحكم المطلق » ، وأن ذلك سيحدث عندما يصبح « الحكم للعقل والعلم » ، لأنه « متى فشى العلم في الأمة فأول ما تناهض ذلك الشكل من الحكم ، وتعمل على التخلص منه ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً » (١) .

ونحن نلاحظ أن الأفغانى يستخدم هنا تعبير « النهضة » ، ومشتقاتها ، كسبيل للجماهير في إزالة الحكم الفردي المطلق والقضاء على المظالم الاجتماعية ومقاومة الإستعمار .. الخ .. كبديل لكلمة « الثورة » ، لا لأنه لم يكن ثورياً ، وإنما لأن « النهوض » إنما يعنى الثورة في أصل الكلمة الأول ومعناها الذى كان شائعاً في ذلك الحين ، وإن تكن قد اكتسبت في عصرنا هذا ظلالاً دون ما توحى بها كلمة « الثورة » ، في هذا المجال .

في اليابان : والتجربة التى شهدتها المجتمع اليابانى خلال القرن الماضى ، التى أدت إلى بعثه وإحيائه ومنافسته للدول الغربية الأوروبية ، في مجالات الصناعة والزراعة والتقدم الحضارى ، هذه التجربة كانت في مقدمة النماذج التى يسوقها المصلحون والثوار في المجتمعات الشرقية إلى شعوبهم سعياً إلى زرع الثقة التى يزعزعها الاستعمار ، أليس هذا بلداً شرقياً ؟ إذن فإن الحضارة والتقدم ، بل والسبق في هذا المضمار ، ليس وفقاً على الأوروبيين ؟ .

والأفغانى عندما تحدث عن هذه التجربة الحضارية الشرقية ، ركز كثيراً على جانب الحكم الشورى الدستورى ، والنظام النيابى الذى أخذت به اليابان .. فهو يعتقد أن من أكبر أسباب هذه النهضة هو « تقييد الحكومة بالدستور ، والنظام الشورى » ، ويورد محادثة - لعله يسوقها لأمرء الشرق - دارت بين امبراطور النمسا « فرانسوا جوزيف » وبين ابن عم « الميكادو » إمبراطور اليابان ، يقول فيها فرانسوا : « يا عجباً من امبراطورك كيف يسعى لإيجاد الحكم الدستورى النيابى في مملكته ؟ ونحن في أوروبا نود لو أمكننا التخلص من تحكم النواب في البلاد ؟ ! » ، فيجيبه الأمير اليابانى : « إن جلالته الميكادو ، (ومعنى اسمه : العادل) ، يجب

(١) المصدر السابق ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

أربعة أشياء ، يجب بلاده أولاً ، ورعيته ثانياً ، ومحج العدل ثالثاً ، وراحة نفسه رابعاً . وما وجد من ينيله ما يجب إلا بالحكم الدستوري النيابي ، واشترك الأمة بإنهاض نفسها وصون ملكها»^(١) .

بل إننا نلاحظ هنا أن الأفغاني يقدم المجتمعات الشرقية ، من خلف اليابان ويزكيها ، على اعتبار أنها الأجدد برعاية أصول الشورى ، والأحرص على الحكم النيابي الدستوري ، أليست اليابان حريصة عليه ، بينما يود الخلاص منه امبراطور النمسا؟!

في مصر : وإذا كنا نعتقد أن رحلات الأفغاني إلى أوروبا ، علاوة على وعيه بحقائق كنوز التراث العربي الإسلامي ، قد أنضجت فكره الاشتراكي ، فإننا نؤمن بأن درجة التطور التي كانت عليها مصر عندما عاش فيها الأفغاني ، وتجربة الدولة العصرية التي أقامها فيها محمد علي ، والتي درسها الأفغاني ولس آثارها ، عندما تصورهما في ضوء الفكر الإسلامي عن الشورى ، هما اللذان أنضجا لديه الفكر الديمقراطي ، وجعلاه منه عاشقاً للحكم الدستوري ، منافحاً عن سياسة أمور المجتمع بواسطة البرلمان والنواب .. بل لقد جاهد الأفغاني حيناً غير قليل من الدهر لجعل من مصر النموذج الذي يطبق فيه أفكاره حتى يقدم لشعوب الشرق القدوة التي تحتذى في هذا السبيل .

« فهو عندما انحرف في سلك الحركة الماسونية بمصر ، إنما كان يهدف إلى تحويل شعاراتها : (الحرية والإخاء والمساواة ، ومنفعة الإنسان ، والسعي وراء ذلك صروح الظلم وتشديد معالم العدل المطلق) . تحويل هذه الشعارات إلى واقع حي معاش . وعندما لم يجد من هذه الحركة تجاوباً ، بل صادف حرباً من أعضاء محفلها ، وجه إليهم الانتقادات المرة ، وخرج عليهم ليكون محفلاً ماسونياً شرقياً خاصاً ، جمع فيه الكثيرين من الرجال والقيادات ، ونظمه شعباً على غرار «النظارات» و«الدواوين» السياسية من حيث التخصص والدراسة والاهتمامات ، وذلك حتى يخلق قاعدة عريضة للعمل السياسي تحول دون الانفراد بالسلطان ، ولقد كانت مدرسة الأفغاني هذه هي التي قادت الثورة العراقية ، وكان مكان الدستور والشورى والحكم النيابي ملحوظاً بين ما طرحته من مبادئ وأهداف ، بل ولقد ظل تأثيرها دائم السريان في مصر ، حتى لقد ساهم في تفجير ثورة سنة ١٩١٩ باعتراف سعد زغلول .^(٢)

(١) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢١ ، ٥٢٢ .

* ولقد حاول الأفغانى أن يعيد مع الخديوى توفيق ، قبل أن يتولى السلطة ذكريات الحركات الثورية الإسلامية التى كانت تتعهد الأمراء بالتثقيف والإقناع ، حتى إذا ما تولوا مقاليد الأمور ساروا بالبلاد فى الاتجاه الذى تريده هذه الحركات ، فكان الأمير توفيق على صلة بملفات الأفغانى ودروسه ومحاضراته ، وكان حديث الحكم النيابى والدستورى يحظى من اهتمام الأفغانى معه بالنصيب الكبير ، وكثيراً ما دافع الرجل عن الشعب المصرى ، ورد حجج الذين يريدون سيادة الحكم المطلق بحجة انتشار الجهل والامية بين الجماهير ، وقال « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بجرية وإخلاص : إن الشعب المصرى كسائر الشعوب ، لا يتخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفرادها ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى وأفراده ، ينظر به لسموكم ، وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم ويأرادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم» .^(١)

* ولم يكن الأفغانى باحثاً عن قيام الشكل النيابى والدستورى ، وإنما ساعياً وراء تحقيق الجوهر والمضمون الحقيقى لهذا النظام . فهو يرى « أن القوة النيابية لأى أمة كانت ، لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى إلا إذا كانت من نفس الأمة ، وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير ، أو قوة أجنبية محركة لها ، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية موقوفة على إرادة من أحدثها» ..^(٢) وسعيه هذا لتحقيق الجوهر والمضمون ، قد قاده إلى أن هذا الجوهر هو الحرية المرتبطة بالاستقلال ، ومن ثم فإن الطريق إليها إنما هو النضال ، لا الهبات الملكية والتعطف من ولى النعم ، فيقول إنه « إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب ، فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال كذلك .. أما تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابى الشورى فهو أيسر مطلباً وأقرب منالاً ..»^(٣) ، بل لقد رأى فى هذه المؤسسات النيابية التى لا تحقق غير الشكل أشياء عدتها خير من وجودها . وذلك على الرغم من أن القاعدة تقول : «إن الوجود خير من العدم !» .

(١) المصدر السابق ص ٤٧٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٧٣ .

« وإذا كان الأفغانى قد رأى أن الحكم الجمهورى « لا يصلح للشرق اليوم ، ولا لأهله » فإنه قد وضع للحكم الشورى النيابى الدستورى من الشروط والضمانات ما يجعل تنفيذها وأياً بمطالبات الانطلاقات الشعبية فى العصر الذى عاش فيه ، ويكفى أن نستمع إلى كلماته الجامعة التى تقول : إنه « لا تحيا مصر ، ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قوياً عادلاً يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان ، لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة ، وحكم مصر بأهلها إنما أعنى به الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح .. ذلك الرجل .. تأتى به الأمة فتملكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسى ، وتتوجه على هذا القسم ، وتعلنه له : يبقى التاج على رأسه ما بقى هو محافظاً أميناً على صون الدستور ، وأنه إذا حنث بقسمه ، وخان دستور الأمة ، إما أن يبقى رأسه بلا تاج ، أو تاجه بلا رأس . »^(١) ؟ ! ..

* * *

الحرب والسلام :

منذ نحو قرن من الزمان ، وقبل أن يشهد علمنا هذه الحروب الكونية الشاملة ، التى فاقت فى دمارها وضحاياها خيالات السابقين وتخيلاتهم ، والتى ألهبت المشاعر فى اتجاه النضال من أجل السلام ، وحفزت العقول لدرس أسباب قيامها ووسائل إراحة البشرية من عذاباتها ، طرق جمال الدين الأفغانى هذا المبحث ، وقدم لنا فيه ما يعجب ويدهش ويحتدب أعظم مشاعر التقدير والإعجاب .

فتجاه إيديولوجيات كثيرة ومنتشرة ، كانت ترى فى الحروب قدر الإنسانية الذى لا يمكن الخلاص منه ، لأنها ثمار غرائز التوحش والغضب عند الإنسان ، نجد الأفغانى يبصر الأسباب الحقيقية والمادية التى تقوم لها الحروب ، وكيف أن الشعوب إنما تساق إليها لتذبح على مذابحها وفى ساحاتها تنفيذاً « لإرادة ملك مسرف مغرور » يسلط على رعيته حسمى من الدعايات الحربية التى يقوم بها « أفراد يقبضون على زمام الأحكام » بينما هم يهدفون من وراء إشعال هذه الحروب تحقيق الغنى والثراء ، عندما « يعتمنون فرصة الحرب ليكثروا من ورائها الذهب والفضة » .^(٢)

(٢) المصدر السابق ص ٤٣٤ .

(١) المصدر السابق ص ٤٧٧ - ٤٧٩ .

كما يبصر الأفغانى أيضا ريف تلك الدعاوى التى استخدم فيها الرأسماليون ، والمستفيدون من الحروب الاستعمارية والتوسعية ، اسم الوطن وكرامة الوطن وشرف الوطن ، ليسوقوا البسطاء من الناس «للقتل كالأنعام» ، فلا يفوته - وهو الذى حارب وناضل فى سبيل الوطنية الحقة - أن يسفه من هذا الزيف وهذا الاستغلال لمقدسات الوطنية ، عندما يقول : إن دعاة الحرب وتجارها يهولون على الناس «ويستهونهم باسم (الوطن) والوطن نقاع من الأرض لو أنصف الناس بعضهم بعضاً ، لو سعتهم» .^(١)

كما يبصر ، وهو الذى قاوم الزحف الاستعمارى الأوروبى على الشرق ، تلك الأهداف التوسعية والاستعمارية وراء قيام الحروب ، وكيف كانت تستخدم شكليات الأسباب ، مثل «عدم احترام سفير ، لأن كرسيه وضع فى المأدبة الملوكية فى غير الموضع الذى يريده» سبباً للحروب تراق فيها دماء مئات الألوف من تلك الأنفس الزكية» . والحقيقة أن الهدف إنما كان «الأرض يطعمون بضمها للمملكة ، أو ليستعمرونها» .^(٢)

يبصر الأفغانى ذلك ، ويضع يده عليه ، ثم يقول : «إن الإنسان لتعروه الدهشة عندما يرى أفراد الأمة يسوق بعضهم بعضاً للشكنات ، فصفوف القتال ، وجلهم غير راض عنها ، بل نافر منها ، إذ يعلم أن من ورائها يتم الأطفال ، وموت الشيوخ ، وهتك الأعراس» .^(٣) ولذلك فإن الأفغانى لا يعلق آماله فى السلام على الفئات الحاكمة والمستفيدة من إشعال الحروب ، وإنما على جماهير الشعوب التى تساق إلى المجزرة ، وليس بين القاتل والمقتول لا نزاع ولا خصام ، بل حتى ولا تعارف بالوجوه» ،^(٤) ! وهو يرسم لها طريق السلام الدائم و«إبطال الحروب» ويحدد لها معاملة التى تتلخص فى هذه الخطوات :

- ١ - تحكيم العقل فيما ينشب بين الأمم والشعوب من خلافات .
- ٢ - وحل هذه الخلافات والمنازعات على أساس من قاعدة العدل .
- ٣ - والعصيان من قبل الجماهير للقلة الظالمة الحاكمة عندما تدعوها للحروب وسفك الدماء .

(١) المصدر السابق ص ٤٣٤ .

(٢) المصدر السابق ٤٣٥ .

(٣) المصدر السابق ٤٣٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٣٤ .

٤ - وأن السبيل إلى كل ذلك إنما يكون بالرقى الإنسانى فى مجالات المعرفة الحقّة والعلم الصحيح^(١) .

ولقد كان حديث الأفغانى عن الحرب والسلام مناسبة وضع يدنا فيها على مفهومه «للمعرفة الحقّة والعلم الصحيح» الذى كثيراً ما عول عليه فى تخلص الإنسان من كثير من الشرور ، والذى رآه سبيلاً إلى الاشتراكية ، والديمقراطية ، كما رآه طريقاً للسلام ، فهو لا يعتبر المدينة والتمدن والعلم والمعرفة ذات قيمة ، بل ولا تستحق حتى هذه الأسماء ، ما لم توضع فى خدمة الإنسان ، وتؤدى دوراً نافعاً فى حياة البشر ، إذ «لا يُقدَّر الفرد ، ولا تُقدَّر الأمة ، ولا تُقدَّر الأشياء ، ولا تُقدَّر المكتسبات العلمية ، إلا بنسبة ما يترتب على ذلك من الفائدة» و«صحيح العلم إنما يكون له قدر على نسبة ما يترتب عليه من الفائدة» .. ثم يناقش صراحة «مدنيات» الأمم التى سخرت العلم والمعرفة فى الحروب والدمار ، ويرفض الآراء التى تعتبر ذلك تمدناً ، فيقول ، «فلنأخذ من ذكرتم من الأمم المتقدمة (الانكليز والفرنسيس والألمان والأمريكان) ومكتسباتهم العلمية ، وما صنعوه وعملوه وكسبوه وربحوه ، وما ترتب على ذلك وما حصل من المنافع والفوائد للبشر من وراء تلك المكتسبات المدنية والثروة ، فإننا لو جمعنا كل ما فى ذلك من المكتسبات العلمية ، وما فى مدينة تلك الأمم من خير ، وضاعفناه أضعافاً مضاعفة ، ووضعناه فى كفة ميزان ، ووضعنا فى الأخرى الحروب وويلاتها ، لا شك أن كفة المكتسبات العلمية والمدنية والتمدن هى التى تنحط وتغور ، وكفة الحروب وويلاتها هى التى تعلو وتغور» ، وذلك لأن هذه المدنيات إنما تهتم بالشكل دون الجوهر الإنسانى للحضارة والمدنية ، مما يجعل «الرقى والعلم والتمدن ، على ذلك النحو ، وفى تلك النتيجة إن هو إلا التوحش !»^(٢) .

وهو حديث مفكر ناضج عن مرض الشيخوخة الذى أبصره ينخر فى أبنية تلك الحضارات والمدنيات ، والذى كثرت الحديث عنه فى عصرنا الراهن ، بعد ارتفاع درجة المأساة التى سببتها وتسببها الحروب .

بل إن إيمان الأفغانى بالسلام وتقديره للعلم الصحيح والمعرفة الحقّة ليذهب به إلى الحد

(١) المصدر السابق ص ١١١ ، ١١٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣١ - ٤٣٥ .

الذى يرى فيه المعنى الحقيقي لإنسانية الإنسان وجدارته بأن يكون سيداً لهذا الكون وخليفة عن الله فيه .. وهو هنا يعطى معنى عميقاً وجديداً وذكياً لقصة خلافة الإنسان عن الله فى الأرض ، والحوار الذى ساقه القرآن بين الله ، سبحانه وتعالى ، وبين الملائكة عندما اصطفى الإنسان ، دونهم ، ليجعله خليفة عنه فى هذا الكوكب ، ذلك أن الملائكة لم تجد من بين نواقص الإنسان ومثالبه جريمة تذكرها كدليل على عدم صلاحيته لهذه المهمة إلا القتل وسفك الدماء ؟ ! فقالت لربها : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) (١) ؟ ! ، وذلك باعتبار القتل وسفك الدماء جريمة تغطى كل المحاسن وتلغى كل الميزات .. والله سبحانه وتعالى قد اختار ، فى حوار ملائكته ، من بين محاسن الإنسان وكفاءاته ميزة «العلم والمعرفة» ، لأنها الكفيلة بإلغاء هذه السيئة الكبرى التى ذكرتها الملائكة له ، وعندما أخبر الملائكة بأنه (علم آدم الأسماء كلها) (٢) ، اقتنعوا أن العلم والمعرفة دونهما كل نقيصة ، وفيها وبها يستطيع الإنسان أن يحقق إنسانيته ، وأن يكون جديراً حقاً بخلافة ربه فى هذا الكوكب الذى عليه يعيش . (٣)

وإذا كانت هذه الإشارات هى بعض ما قدمه لنا الأفغانى فى حقل «الحرب والسلام» ، وإذا كان فكره قد استشرى وتناول حديثاً عميقاً عن الحرب العادلة والحرب العدوانية ، والفرق بينهما (٤) ، فقد كان وفاء لتراث هذا المفكر المناضل الإنسان أن يتخذ (مجلس السلام العالمى) قراراً فى سنة ١٩٥٤ م بإقامة المهرجانات والاحتفالات وعقد الندوات وإلقاء المحاضرات فى كل أنحاء العالم فى ذكرى جمال الدين الأفغانى : نصير السلام .

* * *

سلطان العقل :

لم يكن الأفغانى مفكراً موسوعياً ، على الرغم من أنه كاد أن يكون قد تحدث فى كل شىء خطر ببال معاصريه ، لأن المفكر الموسوعى - فى الأغلب الأعم - هو الذى يلم بالمختصرات والعموميات و«العناوين» ، أما الأفغانى فإننا نجد مفكراً مبدعاً وخالقاً عميق الغوص وحاد

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) البقرة : ٣١ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٣٢ . ٤٣٣ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٣٧ - ٤٤١ .

الذكاء ومجوداً في الاستخدام للخاطر واللمحة بما يغني عن الإطالة والاستطراد ، والذي جعل من هذا الرجل الذي فاق في نشاطه العملي ما خلف من آثار فكرية ، والذي صنع من الرجال والثورات والأحداث ما لا يقارن بما خلف من صفحات وسطور ، الذي جعل منه خالفاً ومبدعاً في كل ما طرق من موضوعات : اعتماده الذي لا حدود له على العقل وملكاته ، وإيمانه الذي لا يتزعزع بقدرات هذا العقل على فض كل المغاليق ، واقتحام كل العقبات وفتح كل الأبواب ، وهتك كل الأستار .

ولعل هذا الإيمان المطلق الذي منحه الأفغانى للعقل ، هو الذي جعله يتخذ من المواقف الفكرية والعملية ما جلب عليه معارك الحرب الضروس التي خاضها ضد الرجعية والرجعيين ، وضد المحافظة والجمود والجامدين والمحافظين ، ولقد كان الرجل يدرك ، كما أدرك الكثيرون من فلاسفة العرب والمسلمين ، أن معطيات العقل كثيراً ما ترفضها الفطر المريضة ، ولا تستسيغها . أفهام العوام لأن «العقل لا يوافق الجماهير ، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتورين . والعلم - على ما به من جمال - لا يرضى الإنسانية كل الإرضاء ، وهي التي تتعطش إلى مثل أعلى ، وتحب التحليق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها أو ارتيادها» .^(١) ولم يكن ذلك من قبيل التعالي عند الرجل ، ولا نفوراً من الجماهير ، فلم يكن ذلك من خلقه ، وإنما هو تقدير الإنسان المسؤول الذي يحترم العقل ومعطياته ولا يريد أن يبلبل أفكار «العامة» بقضايا وأبحاث تفوق الأدوات الفكرية والاستعدادات التي وقفت مداركها عند حدودها ، والتي لم تستطع ، لأسباب كثيرة ، أن تصل إلى ما هو أبعد منها وأرقى .

بين العقل والنقل : ولقد كان طبعياً أن يصارع الأفغانى قوى عاتية تحصنت بظواهر النصوص ، وزعمت وأشاعت أن «باب الاجتهاد» قد أغلق منذ قرون ، وبالذات منذ امتلك الفكر الإسلامى أعمال الفقهاء الأربعة : أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وابن حنبل ، ولكن الأفغانى يرفض هذا الموقف ويشن عليه الهجمات تلو الهجمات ، ويقول لهم : إننى لا أرتاب بأنه لو فسح في أجل أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، واحمد بن حنبل ، وعاشوا إلى اليوم ، لداموا مجدين مجتهدين ، يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن والحديث ، وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهماً وتدقيقاً ،^(٢) وذلك لأن الأفغانى كان يدرك أن الاجتهاد

(١) المصدر السابق ص ٢١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٠ .

لا يمكن أن يغلق بابه ، لأن التشريعات إنما تتبدل بتطور الزمان ، وأن السابقين إنما « أتوا بما
ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم » وأن « تبدل الأحكام بتبدل الزمان » يجعل من
الخطأ الذي لا يغتفر أن نقف موقف « الجمود والوقوف عند أقوال أناس ، هم أنفسهم لم يقفوا
عند أقوال من تقدمهم » .^(١)

أما عن العلاقة بين العقل وبراهينه ومعطياته وبين ظواهر النصوص ، فإننا نجد الأفغانى
يحتكم إلى معطيات العقل والبرهان ، ويقطع بوجوب الاحتكام للعلم في كل ما يعرض من
شبهات خلافية ، لأن القرآن قد أتى بالكليات والعموميات فيما يتعلق بهذا الحقل ، وتفسير هذه
الكليات والإشارات إنما يكون على ضوء أحكام العقل ومنجزات العلوم ، والتأويل لظواهر
النصوص هو السبيل إلى هذا التوفيق المنشود « فإذا لم تر في القرآن ما يوافق صريح العلم
اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة ورجعنا إلى التأويل . » ، إذ لا يمكن أن تأتى العلوم والمخترعات
بالقرآن صريحة واضحة ، وهى فى زمن التنزيل مجهولة من الخلق كامنة فى الخفاء لم تخرج لحيز
الوجود ، كما أن « القرآن يجب أن يجل عن مخالفته العلم الحقيقى ، خصوصاً فى الكليات »^(٢) .

الإنسان والكون : فإذا ما ذهبنا لتلمس رأى الأفغانى فى العلاقة ما بين الإنسان
والكون ، ومدى فعالية الإنسان وقدراته على اكتشاف المجهول من الأسرار ، وجدنا لإيمان
الرجل بالعقل وسلطانه أثراً كبيراً فى هذا المجال . ذلك أن الإنسان فى رأيه إنما هو النموذج
المصغر الذى تجسد فيه هذا الكون بما حوى من نظام ، وهو يستعير كلمات ابن عربى التى يقول
فيها : « أيجسب الإنسان أنه جرم صغير ؟ ، وفيه انطوى العالم الأكبر ؟ ! » .. ثم يمضى قائلاً :
« نعم ... إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون ، وسوف يستجلى بعقله ما غمض وخفى من
أسرار الطبيعة ، وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصورات ، فىرى ما كان
من التصورات مستحيلاً قد صار ممكناً ، وما صورته جموده وتوقف عقله عنده بأنه « خيال »
قد أصبح « حقيقة » .^(٣)

فإذا علمنا أن حديث الأفغانى هذا إنما كان يخاصم ويعادى كل الفلسفات التى تؤمن بأن
فى الكون مناطق مغلقة إلى الأبد دون عقل الإنسان وتفكيره ، وأنه لا سبيل إلى اقتحام هذه

(١) المصدر السابق ص ٣٣٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٤٠ ، ٤٤١ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

الساحات وفض هذه المغالبيق ، أدركنا مدى خطورة هذا الموقف وأهمية صدور هذا الحديث من الأفغانى بالذات .

« ولقد قادنا هذا الموقف العقلى المتقدم الذى وقفه فيلسوفنا الكبير من علاقة الإنسان بالكون ، إلى لمحة جزئية ، ولكنها هامة جداً ، تلك التى تصور بها الأفغانى العلاقة بين الفكر وبين المادة فى هذا الكون والصلة التى بين الأفكار والأعمال ، فنراه يتحدث عن أن الملاحظة (الشهود) تحدث (فكراً) ثم يعود (الفكر) إلى التأثير فى (العمل) ، والواقع ، ثم تستمر علاقة التأثير المتبادل والتأثر المتبادل دائماً ، وباستمرار لتحدث التغيير الدائم المستمر فى كل الأشياء ، وذلك عندما يقول : «إن كل شهود يحدث فكراً ، وكل فكر يكون له أثر فى داعية يدعو إليها ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل إلى الفكر ، دور يتسلسل ، ولا يقطع الانفعال بين الأعمال والأفكار مادامت الأرواح فى الأجساد ، وكل قبيل هو للآخر عاد ، آخر الفكر أول العمل ، وأول العمل آخر الفكر .. » (١)

« فإذا ما تعرض للقضية التاريخية والشهيرة الخاصة بالعلاقة بين الإنسان والظروف الموضوعية المحيطة به والقوى الغيبية المؤثرة فيه ، وهل هو حر صانع لأفعاله ، ومن تم صانع للحضارة والتاريخ ؟ ، أم هو مجبر لا يختلف أمره عن الريشة المعلقة فى مهب الريح ؟ .. وجدنا الأفغانى ينحاز إلى صف الفكر الذى مجد الإنسان فاعترف له بالحرية والاختيار ، وهو لا ينسى أن فكرة «القضاء والقدر» التى نستطيع أن نجعل منها حافزاً للشجاعة والإقدام فى المخاطر والملمات ، قد شابتها أفكار «جبرية» غريبة عن الروح الحق لفكر الإسلام وتقديره لقدرات الإنسان ، فيدعو إلى التفريق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وبين الجبر وسلب الحرية والاختيار عن الإنسان .. » (٢)

« فهل نجد بعد هذا التقدير العالى الذى منحه الأفغانى للعقل ، غرابة فى أن يثق هذا المفكر التائر ثقة لا حدود لها فى اتساع ميادين المنجزات العلمية الإنسانية ، بما فيها غزو الفضاء ؟ ! إنه لا يطلب شروطاً لذلك ، ولما هو أكثر منه ، سوى إطلاق سراح العقل من القيود . وخاصة قيود الأوهام التى رآها أفسى على العقل من قيود الأغلال ، لأن ذلك سيفتح أمام الإنسان صفحة بلا نهايات ، وميداناً بلا حدود ، أشار إليه الأفغانى عندما قال : «... »

(١) المصدر السابق ص ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨١ - ١٨٨ .

وعندى ، إذا ظفر العقل في هذا العراك والجدال ، وتغلب إقدامه على الأوهام ، واستطاع فك قيوده ، ومشى مطلق السراح ، لا يلبث طويلاً إلا وتراه قد طار بأسرع من العقبان . وغاص في البحار يسابق الحيتان ، وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره ، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره كأنه قاب قوسين أو أدنى ، وهل يبقى مستحيلاً إيجاد مطية توصله للقمر ، أو الأجرام الأخرى ؟ ! .. وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الإنسان في مستقبل الزمان ، إذا هو ثابر على هذا السير لكشف السر بعد السر من مجموع أسرار الطبيعة التي ما وجدت إلا للإنسان وما وجد الإنسان إلا لها» .^(١)

وهو أفق بلغ من السمو والاستشراق درجة لا تحتاج إلى التعليق .
النشوء والارتقاء : وكما سبق ورأينا ذلك التطور الفكري عند الأفغانى فيما يتعلق بفكره الاجتماعى ، فإننا نجد أن تفكيره حيال قضية التطور والنشوء والارتقاء قد سلك نفس الطريق ..

فى رسالة (الرد على الدهريين) نجده يرفض هذه النظرية ، ويصب جام غضبه على «تشارلز داروين» موجهاً إليه الكثير من الاعتراضات التى شاعت ضد هذه النظرية فى ذلك الحين ، وواصفاً إياه بأقبح الصفات .^(٢) ولكن الأفغانى يعود فى أخريات سنى حياته لنقض هذا الموقف القديم ، فنجد له إزاء هذه الأفكار حديثاً علمياً يقدم به هذه النظرية إلى الناس ، ويدلل على صحتها . ويستخدم طاقاته الإقناعية فى سد ثغراتها وجلب المؤيدين والأنصار إلى الاعتقاد بها . فيؤيد نظرية «الانتخاب الطبيعى» ويتحدث عن شمولها عوالم النبات والحيوان والإنسان ، بل ويذهب إلى أبعد مما ذهب داروين ، عندما يطبق قواعد النشوء والارتقاء على عالم الأفكار عند الإنسان ، فيقول : «إن الأفكار تتجدد ، ومعقولات عن أخرى تتولد ، وصفات تسمو وهمماً تعلو ، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ، ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه أنه ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب» ،^(٣) بل ويمضى قدماً فى هذا السبيل ليضفى نوعاً من الأصالة والقدم على تطبيقات هذه النظرية فى الحياة العربية والإسلامية الأولى . ضارباً الأمثلة على إيمان العرب وتطبيقهم للانتخاب الطبيعى فى عالمى الإنسان والحيوان .^(٤)

(٣) المصدر السابق ص ١٠٧ .

(١) المصدر السابق ص ٣٢٤ - ٣٦٥ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٣ - ١٣٦ .

ولقد كان طبيعياً مع هذا التطور الذى أصاب فكر الأفغانى حول هذه النظرية ، أن تتغير نظرتة وتقديره «لداروين» ، فبعد أن كان يصفه «بالقنفذ» و«الحائر المسكين الواهم» .. الخ .. الخ .. نراه يتحدث عن «الاعتراف بفضل الرجل ، وثباته ، وصبره على تبعاته وخدمته للتاريخ الطبيعى من أكثر وجوهه»^(١) ، وإن كان قد ظل على خلاف معه ومع أنصاره حول موجد أصل الحياة ، أو «نسمة الحياة» ، كما يسميها جمال الدين ، ولكنه رغم هذا الخلاف يناقش بمرونة كبرى تعكس أفضه المستنير ، وثقة الإنسان الباحث عن الحقيقة حيثما تكون ، وذلك عندما يقول : «إن كل ما جاء فى مذهب الطبيعيين من حصر الأحياء بأنواع قليلة ، وتفرع الكثير منها وعنها ، كل هذا لا يضر التسليم به ، كما أنه لا يفيدهم أن الحياة وظهور الأحياء نتيجة طبيعية لقوى طبيعية ، نعم .. إن أمكنهم إثبات التولد الذاتى كان لأقوالهم معنى ، ولمذهبهم مستنداً»^(٢) .

ونحن إذا كنا قد احتفلنا بإيضاح رأى الأفغانى فى هذه القضية ، وتطوره الفكرى إزاءها ، فليس مرادنا هو إبراز موقفه هذا كموقف فكرى مجرد ، بقدر ما نريد رؤية الآثار التى يمكن أن تترتب على موقفه هذا عند معالجته لقضايا أخرى تحتاج إلى الارتباط الوثيق بمنجزات العلم والعقل ومعطيات الحقائق العلمية الحديثة والبراهين .. ذلك لأن التعاطف مع مذهب التطور إنما يعنى إيمان العقل بالعلم ، واستعداده لكسر أغلال الجمود والتقليد ، واقتحام الميادين البكر الجديدة بقلب ثابت وعقل جسور .. وهو ما امتاز به جمال الدين الأفغانى عندما اتخذ الموقف الثورى والعقلى من كثير من القضايا وعديد من الأمور ، بل إنه هو الأمر الذى غدا طابع حياته ، ومن ثم أحله من تراثنا وتاريخنا الحديث ذلك المكان الرفيع^(٣) .

(١) المصدر السابق ص ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٨ ، ٢٥٢ .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر كتابنا [جمال الدين الأفغانى - موقف الشرق وفيلسوف الإسلام] طبعة بيروت والقاهرة سنة

١٩٨٤ م وكتابنا [جمال الدين الأفغانى المفترى عليه] طبعة دار الترويق .

- ١٧ -

عبد الرحمن الكواكبي

[١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ - ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م]

مع العدل ضد الاستبداد

حياته فى سطور :

- * اسمه : عبد الرحمن أحمد بهائى بن محمد بن مسعود الكواكبى .
- * ولد فى حلب سنة ١٢٧٠ هـ ١٨٥٤ م من أسرة « شريفة » ذات نفوذ علمى وإدارى ، وتوارث الإشراف على « نقابة الأشراف » ، ويرتفع نسبها إلى على بن أبى طالب .
- * تعلم علوم العربية التقليدية والحديثة ... وأجاد التركية والفارسية .
- * اشتغل بالصحافة وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، ثم أصدر بعد عامين صحيفة (الشهباء) ، أولى الصحف العربية بحلب ، وبعد إغلاقها من قبل الأتراك أصدر صحيفة (الاعتدال) ، فلاقت نفس المصير .
- * احتل عدداً من المناصب الإدارية والاقتصادية الهامة فى الولاية ، واحترف التجارة فترة من الزمن ، كما كان مرجعاً للمحاماة فى القانون ، وعمل « عرضحالياً » يحرر ظلمات المظلومين ضد الأتراك !!
- * دخل السجن متهماً بمحاولة اغتيال الوالى التركى ، وحكم عليه بالإعدام من القضاء التركى فى حلب ، ثم برأته محكمة « بيروت » من تهمة الاتفاق مع دولة أجنبية ضد الدولة العثمانية .
- * هاجر سراً إلى مصر سنة ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ م ، ونشر فصول كتابه (طبائع الاستبداد) فى صحيفة (المؤيد) دون توقيع .
- * طبع بمصر كتابيه (أم القرى) و(طبائع الاستبداد) بعد أن أدخل عليها الكثير من التعديلات ، ونشرهما باسم مستعار : (الرحالة ك) .
- * قام برحلة إلى المشرق ، زار فيها العديد من بلاد آسيا وأفريقيا الإسلامية ، ومات وهو يعتمر

القيام برحلة مماثلة إلى المغرب ، وكتب عن رحلته هذه كتاباً ضاعت أصوله قبل أن يرى النور .

* عندما مات في ٧ ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ ١٤ يونيو سنة ١٩٠٢ م صادر مندوب من قبل السلطان التركي عبد الحميد أوراقه الخاصة التي حملت إلى السلطان ولم يظهر لها أثر فيها بعد ، وضمها أصول كتابين لم ينتسراهما : (العظمة لله) و(صحائف قريش) .

* يحسبه البعض داعية وحدة دينية ، بينما هو - في عصره - أنصح رائد من رواد الفكر القومي العربي الحديث .. وبعده الكثيرون نصيراً لقيام الحكومة الدينية بينما هو داعية لتمييز الدين عن الدولة ؟ !

* يضعه فكره الاجتماعي من الرواد الأوائل لدعاة الاشتراكية في تراثنا العربي الإسلامي الحديث .

* عندما دفنه مشيعوه في مقابر «باب الوزير» بسفح «المقطم» كتبوا على قبره كلمة «الشهيد» لتشير بأصابع الاتهام إلى الأتراك العثمانيين وطاغيتهم حينئذ السلطان عبد الحميد ؟ ! .

مولود يتحدى الاستبداد :

كان ذلك قبل منتصف القرن الماضي ، وفي سنة ١٢٧٠ هـ ١٨٥٤ م على وجه التحديد ، وكانت خريطة العالم يومها شبيهة بها في هذه الأيام ، ففي القارة الأوروبية كانت سلطة الإقطاع تتعرض لهزات عنيفة تزلزل كيائها ، وتبشر بيزوغ فجر جديد يفتح الطريق أمام مرحلة إنسانية متقدمة بالنسبة لتطور الإنسان ... وفي شرقنا العربي كان الاستعمار التركي ييسط نفوذه الطاغى وسلطانه المظلم على أجزاء الوطن العربي .. كان السلطان الطاغية عبد الحميد يحكم في «الآستانة» ، وكان مشيره ، شيخ الرجعية في زمانه ، ومعذب جمال الدين الأفغانى ، ومضطهد عبد الله النديم : «أبو الهدى الصيادى» ، يمد إصبع الرجعية ونفوذهما في ثنايا كل عقل يفكر ، وقلب يخفق ، عله يعوق تطور المجتمع ، ويمنع اعتناق الشعب ، وتحرر الإنسان وكانت أيضاً قوى الشعب العربي الجديدة النامية تتلمس طريقها إلى المستقبل ، وترنو بحاستها الخيرة نحو أشياء غامضة ومبهمة ، تريد أن تصنع منها قيماً تجمع حولها الشعب لتخوض به معركة التحرير والخلاص .

وفي هذا الجو .. وفي مدينة «حلب» السورية ، وفي بيت من بيوت العلم والمجد ، ولد

صاحبنا عبد الرحمن الكواكبي .. فأبوه أمين الإفتاء في حلب ، ووالد أمه يشغل نفس المنصب الهام في أنطاكية ، والمدرسة التي تلقى فيها علوم اللغة والدين كانت تعرف : « بالمدرسة الكواكبية » ، وكانت على غرار الأزهر الشريف ... ولكن والده الشيخ أحمد الكواكبي لم يكتف بمنهج هذه المدرسة في التعليم فأحضر لابنه من علمه ، إلى جوار العربية ، الفارسية والتركية ، وأيضاً علوم المنطق والرياضة والطبيعة وغيرها من العلوم .

في مدرسة الحياة :

وكانت مشيئة الوالد أن يرى ابنه يتقلد المناصب الهامة والحيوية في جهاز الدولة ، فتولى منصب التحرير في إحدى الصحف الرسمية ، ثم رأس كتاب المحكمة الشرعية ، ثم منصب القضاء الشرعي ، وأخيراً أصبح رئيساً للبلدية ، ورغم الفوائد التي اكتسبها الكواكبي من هذه الفترة ، ورغم الخبرات العملية التي حصل عليها إلا أن طبيعته الحرة ماكانت لتسمح له بأن يعيش داخل جهاز دولة آل عثمان .. فانسل من سلك الوظائف الحكومية ودخل بميدان التجارة ، وفي هذا الميدان تعلم الكثير والكثير من الخبرات .. لقد تعلم أخلاق المجتمع في مدرسة المجتمع .. في السوق !!

ولكن الأمة لم تعرف في الكواكبي تاجراً ، كما عرفت فيه المفكر الحر ، والصوت الصادق الذي تتمثل فيه أمالها ، والذي يصدع بالآمالها من قسوة وشقوة النظام .. وفي صحف «الفرات» و «الاعتدال» و «الشهباء» قرأ الشعب للمفكر الحر ، وأبصر خيوط النور تشير إلى باب الحرية ، وأيضاً أبصر هذه الخيوط السلطان عبد الحميد ، فعطل هذه الصحف ، وظن أنه قد عطل عند الكواكبي ملكة التفكير ، وبدد طاقات النضال .

« العرض حالجي .. المتهم !! » :

وتفتقت عبقرية صاحبنا عن حيلة بارعة حطم بها حصار السلطان الطاغية عبد الحميد ، فإذا كانت الصحف تصدر بقرار ، وتغلق بنفس القرار ، فليتصل الكواكبي بالجمهور اتصالاً مباشراً ، لا عن طريق التجارة ، وإنما عن طريق تحرير الشكاوى ضد الظلم ، وصياغة ظلمات الناس من جور الحكام ، ومن خلال صياغة الكواكبي لعرائض وشكايات المظلومين أدرك مدى البشاعة التي يعيش فيها السواد الأعظم من الناس ، وانطلق قلمه يصور هذه

البشاعة ، وأخذ عقله ولسانه يثير في الناس جوانب المقاومة وروح التحرر ، والأمل في الانتصار .

وأدرك جهاز الدولة خطورة عمل الكواكبي على النظام الاجتماعي لسلطين آل عثمان ، ولم يكن باستطاعة الرجعية أن تحرم على الكواكبي صياغة عرائض التظلم والشكوى للناس ، فقررت قرارها الخطير ، وعزمت على التنفيذ .

وذات صباح علم الناس أن حاكم «حلب» «عارف باشا» قد زور على الكواكبي «وثائق» تثبت اتصاله بدولة أجنبية !!! واتفاقه معها على تسليم مدينة حلب إليها ؟؟ !! وأن الكواكبي قد أصبح خلف الأسوار في انتظار الحكم الذي بيته السلطان !! وانتظر الناس ... ولم يطل بهم الانتظار ، فلقد صدر الحكم بالإعدام ؟ ! ..

ولكن الكواكبي لم يستسلم ، ولم يستسلم معه الأحرار ، وتحت ضغط الرأي العام ، استجابت السلطة الحاكمة ، وقررت إعادة محاكمته أمام محكمة «بيروت» ، وبرأت محكمة «بيروت» ساحة مفكرنا العظيم .. .

«هجرة إلى الأمصار .. والأفكار» :

وأدرك الكواكبي أن إقامته بالشام ستجعله في متناول يد الجهاز الرجعي لآل عثمان ، وأن هذا الجهاز قد قرر التخلص منه بأي ثمن وبأي شكل من الأشكال ، ولم يكن الكواكبي ممن يؤمنون بالإقليمية الضيقة ، ولا من الذين يربطون مصيرهم بمصير مدينة أو قطاع من مدن وقطاعات الوطن العربي الكبير ، فقرر أن يقوم بعدة رحلات ، وأن يجعل من هذه الرحلات مجالاً خصباً لرحلات خصبة في مجال الدراسة والتفكير .. فقصده مصر في سنة ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ م ، وكانت يومئذ تحت حكم الخديوي عباس حلمي الثاني ، ولم يكن على وفاق تام مع السلطان ، وجعل هذا التناقض من مصر عاصمة وكعبة لكل المفكرين الأحرار ، ولجماعات العرب الثائرة ضد ظلم العثمانيين ، وفيها التقى الكواكبي بكوكبة من مفكري العرب وثوارهم أمثال محمد كرد علي ، ومحمد رشيد رضا ، ورفيق العظم ، وعبد القادر المغربي ، وغيرهم كثيرين .

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مصر كعبة ومقراً لعبد الرحمن الكواكبي ، وإن كانت سياحاته قد شملت العديد من الأقطار ، فلقد زار إفريقيا الشرقية والجنوبية ، ودخل الحبشة

وسلطنة هرر والصومال ، وتعرف بشبه الجزيرة العربية ، وزار سواحل آسيا الجنوبية ، والهند ، وبلغ جاوة ، وطاف بالسواحل الجنوبية للصين .. وهو وإن لم يسافر إلى أوروبا ، إلا أنه عاش أياماً وليالي ممتعة مع نفر من مفكرى الغرب فى كتاباتهم عن حضارة ومستقبل الإنسان ..

وكما غنى الكواكبى من قبل فى «حب» أغنيات التحرر والاعتناق ، فلقد عاد فى القاهرة يسلك نفس الطريق .. وفى أنهر الصحافة المصرية خط قلم صاحبنا طريق التحرر والإصلاح لوطننا العربى ، وفى أنهر هذه الصحف خلف الكواكبى تعاليمه فى الإصلاح ، تلك التعاليم التى بقيت لنا فى كتابيه الخالدين «أم القرى» و«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» .. وفى الكتاب الأول سلك صاحبنا سلوك أفلاطون فى المحاورات ، فتخيل - وقيل إن لها أصلاً حقيقياً - جمعية سرية عقدت مؤتمراً لها فى «مكة» «أم القرى» .. وضم هذا المؤتمر ثلاثة وعشرين مفكراً يمثل كل منهم دولة إسلامية أو أقلية إسلامية ، وناقش المؤتمر داء «الأمه الإسلامية» ، فلم يجدوه شيئاً غير «الفتور» ، كما وجدوا علاج هذا الفتور فى نهضة العرب وإعطاء قيادة الإسلام والمسلمين للأمة العربية.. ومن المحاورات التى تضمنتها محاضر جلسات اجتماعات المؤتمرين تألف كتاب «أم القرى» .. ذلك الكتاب الذى طبع دون أن يوضع عليه اسم الكواكبى ، بل اكتفى فقط بوضع «اسمه السرى» الذى اختاره لنفسه فى «الجمعية السرية» وهو (السيد الفراقى) .. !!! ونحن نلاحظ أن الكواكبى قد تناول فى هذا الكتاب بالدرجة الأولى مشاكل وأدواء الفئات والكتل الشعبية ، وترك التركيز على نظم الحكم واستبداد الحكام لكتابه الآخر ، «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» ذلك الكتاب الذى لم يستطع الكواكبى أيضاً أن يضع اسمه على غلافه فاكتفى بأن يكتب عليه هذه العبارة «محررها الرحالة ك»!!.. وعند الكواكبى أن «الفتور» من جانب الجماهير - الذى تناوله فى كتابه الأول - و«الاستبداد» من جانب الحكام - الذى تناوله فى كتابه الثانى - هما الأمران الأساسيان اللذان يسببان ذلك الحال الذى وصل إليه المسلمون .. وفى عبقرية فذة متقدمة يرسم الكواكبى للشعب طريق الخلاص .

«الإصلاح الثورى» :

ونحن عندما نريد أن نضع الكواكبى فى موضعه بين مفكرينا ، بل ومفكرى الإنسانية على وجه العموم ، فلا شك أننا سنلقى بعض الصعوبات ، وخاصة ونحن بصدد الإجابة عن هذا السؤال : هل كان الكواكبى ثورياً؟؟ أم كان إصلاحياً؟؟ .. وهذه الصعوبة ناشئة من أن

الكواكبي عندما نقرأه فإن نجد فيه طابع العنف والثورية التي كانت مثلاً عند الفيلسوف الكبير جمال الدين الأفغاني ... وأيضاً فالكواكبي لم يكن يضع الحلول السطحية لمشاكل المجتمع ، كما يفعل ذلك جمهرة المفكرين الإصلاحيين ، بل إن حلوله في معظمها كانت تتناول جذر المشكلة ، وتريد أن تصل بها إلى طور جديد ، وتستهدف انتصار أحد القطبين المتصارعين داخل الظاهرة الاجتماعية المدروسة .. وأمام هذه المشكلة فإننا نرى أن الدقة في البحث تحتم علينا أن نقرر أن صاحبنا هذا كان أقرب إصلاحي إلى معسكر الثوار ، وأن منهجه في التفكير إنما كان منهج « الإصلاح الثوري » إن جاز ذلك التعبير .

ولقد عمل مفكرنا العملاق وفق هذا المنهج في كافة الميادين التي طرقها ، وككل المفكرين المعالقة كانت للكواكبي خطة في البحث لا تجعله أبداً يضل الطريق .. لقد آمن الكواكبي بأن « الاستبداد » هو العدو الذي عليه ألا يغفل لحظة عن تسديد سهام الفكر الحر لتصرعه ، وأن هذا « الاستبداد » يجب أن يحارب لا كشيء مجرد ، وفكرة لا تعرف التحديد ، وإنما يجب أن يحارب على ضوء علاقاته بالدين ... والديمقراطية ... والتطور ... وغيرها من ميادين الفكر والتطبيق ... فالاستبداد كالأخطبوط الذي يمد أطرافه في أنحاء عدة سواء في الفكر الإنساني ، أو في دواوين الحكم ، أو في مجالات الحياة الأخرى التي يعيش فيها الإنسان .. وفي كل هذه الميادين وجميع هذه المجالات سَلَّط الكواكبي الأضواء وأطلق أيضاً الكثير والكثير من السهام على الاستبداد^(١) .

« الاستبداد .. والدين » :

لقد كان لصاحبنا بصدد هذا الموضوع موقف واضح ومحدد لا لبس فيه ولا غموض ، لقد كان يؤمن بأن الدين الإسلامي برىء من القيم التواكلية ، ولا بد من الرجوع إلى أصوله ، وتحديد تعاليمه ، كي نخلصه من آفات القيم الفاسدة ، وتراكم الخرافات .: فهو يرى أن : «القرآن الكريم مشحون بتعاليم إمامة الاستبداد وإحياء العدل والتساوي» .^(٢)

وهو لذلك يدعو لشن هجوم ساحق ضد هذا الضلال وتلك الخرافات ، يدعو إلى ذلك للمسلمين فقط ، وإنما كل سكان الشرق ، وهو عندما يتحدث إلى أصحاب الديانات ، نرى تسامحه يبلغ الذروة ، ويتجلى في ترتيبهم حسب كثرتهم العددية في بلاد الشرق ،

(١) انظر الدراسة المستفيضة التي قدمنا لها لأعمال الكواكبي الكاملة - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م ص ١ - ١٠٧ .
(٢) طبائع الاستبداد ص ١٩ .

لا حسب عواطفه تجاه الأديان ، استمع إليه وهو يتحدث فيقول : « ما أحوج الشرقيين أجمعين من بوذيين ، ومسلمين ، ومسيحيين ، وإسرائيليين ، وغيرهم إلى حكماء يجددون النظر في الدين ، فيعيدون النواقص المعطلة ، ويهدون من الزوائد الباطلة ، مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين البريء^(١) » نعم لقد كان هذا هو موقف الكواكبي من العلاقة بين الاستبداد والدين ، بل لقد بلغ الكواكبي مرتبة أكثر تقدماً من هذه عندما حدد بوضوح أن جانب المعاملات في الدين هو الذي يركز المستبد لإفساده ، فهو يرى أن : « الاستبداد .. مفسد للدين في أهم قسميه ، أى الأخلاق .. وأما العبادات منه فلا يمسها لأنها تلائمة في الأكثر^(٢) ! » لقد كان حكمه صائباً ، بقدر ما كان عاماً وشاملاً لكل الأديان ، وبقدر ما كان متسامحاً في نظره لمختلف الأديان وفئات المؤمنين ، فهو الذى أبصر منذ نحو قرن من الزمان أصعب الاستعمار خلف الزعامات الطائفية في وطننا العربي ، وذلك يوم أن وقعت في حلب والشام ولبنان أحداث طائفية دامية سنة ١٨٦٠ م ١٢٧٧ هـ ، فقال الكواكبي يومها إن هذه الحوادث لم تكن « متولدة عن تعصب ديني أو جنسي - (قومي) - بل عن غرور جماعة بالانجليز وجماعة أخرى بنايليون الثالث^(٣) !! »

ولكن .. ما هو الحل الذى يضعه الكواكبي؟؟ إنه لا يتباكى على الأخلاق التى ضاعت ، والأيام التى خلت ولن تعود !! ، وإنما هو يرفع شعار الإصلاح والتطهير في مجال العقائد الدينية ، وحتى يحدث ذلك لابد من حرية البحث ، والبحث العلمى .

الاستبداد .. والتربية :

وميدان التربية ، كما يراه الكواكبي ، من أهم الميادين التى يصوب إليها المستبد سهام ظلمه واستبداده ، ولذلك أعطاها مفكرنا العربى قسطاً وافراً من الاهتمام .. لقد نادى بالتربية الهادفة ، التى يضمن صاحبها ثمارها الناضجة ، تلك الثمار التى لابد وأن تفك العقول الأسيرة ، وتحرر الإنسان من ربة العبودية للمجهول الخرافى ..

وهو لا يرى في التربية السطحية والنظرية خطراً على الاستبداد والمستبدين ، فيدعو للعمق في التفكير ، ويطلب من شعبه أن يسلك سبيل العلوم العملية ، سبيل التخصص ، سبيل

(١) طبائع الاستبداد ص ٨٣ .

(٢) طبائع الاستبداد ص ٨٥ و ٨٦ .

الفكر الذى ينخر أعمدة العروش التى يتربع عليها المستبدون .. فهو يرى : «أن من الغرارة توهنا أن شؤون الحياة سهلة بسيطة ، فنظن أن العلم بالشئ إجمالاً ، ونظرياً ، بدون تمرن عليه ، يكفى للعمل^(١) به » ، وهو يؤكد أن العاقل من يتخصص بعمل واحد ثم يجاوب نفسه عن كل شئ غيره : « لا أدرى ولا أقدر » .^(٢)

بل لقد بلغ مفكرنا العملاق قمة المجد عندما لمس إحدى الحقائق الهامة فى مجال التربية بالنسبة لأى شعب من الشعوب ، فهو يرى فى الإنسان كائناً اجتماعياً ، يؤثر ويتأثر بالمجتمع الذى يعيش فيه ، ولذلك فلا بد وأن تكون التربية اجتماعية ومرتبطة بظروف الحياة ، لأن الإنسان فى واد ، ومناهج التربية فى واد آخر ، فى مرحلة تاريخية تعيش فيها قيم معينة ، لا يمكن إغفال هذه القيم عند وضع المناهج التربوية ، ومن هذه الحقيقة التى لمسها الكواكبي نستطيع أن نضع يدنا على حقيقة أخرى أدركها ذلك المفكر العظيم ، ألا وهى العلاقة بين الفكر والمجتمع ، وحقيقة أن المجتمع هو ينبوع ومصدر الأفكار التى ينتجها عقل الإنسان .. وإلى جوار هذه الحقائق يؤكد الكواكبي أن التلقين وحده ليس الأسلوب الأمثل للتربية ، فلا بد من النشاط الذاتى للإنسان ، ولابد من قدرته الإبداعية مع عمليات التلقين التى يجب أن تأتى فى المرتبة الثانية ، استمع إليه وهو يقرر هذه الحقائق فيقول : « لا بد أن تصحب التربية ، من بعد البلوغ ، تربية الظروف المحيطة ، وتربية الهيئة الاجتماعية ، وتربية القانون ، أو السير السياسى ، وتربية الإنسان نفسه . »^(٣)

وإن تكن هناك جوانب سلبية فى موقف الكواكبي تجاه موضوع التربية ، فهى تلك الجوانب التى دفعته إليها شدة حساسيته بالنسبة لموضوع الحرية حتى بلغ ذلك حداً يقرر معه أفكاراً لا تتناسب ولا تتفق مع آرائه على وجه الإجمال .. فهو يطلب من الآباء المستعبدين ألا يعلموا أولادهم حتى لا تزداد حساسيتهم فيتألمون أكثر من المظالم التى تقع على طبقاتهم الاجتماعية المضطهدة من قبل الأتراك والمستعمرين الغربيين !! وبدلاً من أن يسير مع الحقائق التى أكدها هو فى أكثر من مجال ، والتى ترى فى التربية معولاً يقوض حكم المستبدين ، نراه فى لحظة من لحظات ضعفه يقول : « ليت شعرى لماذا يتحمل الآباء الأسراء مشاق التربية ، وهم إن نوروا أولادهم جنوا عليهم بتقوية إحساسهم ، فيزيدونهم شقاء ، ويزيدونهم بلاء ،

(١) أم القرى ص ١٢٣ .

(٢) أم القرى ص ١٢٤ .

(٣) طبائع الاستبداد ص ٨٦ .

ولهذا لا غرو أن يختار الأسراء ، الذين فيهم بقية من الإدراك ، ترك أولادهم تجرفهم البلاهة إلى حيث تشاء» !!^(١)

وكان الأولى بالكواكبي أن يدرك أن هؤلاء «الأسراء» المستضعفين ، لا يختارون البلاهة لأولادهم بسبب بقية من الإدراك» لديهم ، وإنما بسبب ضيق ذات اليد التي تقف حائلاً بينهم وبين تعليم الأولاد .. وعلى كل فهي نقطة محسوبة على مفكرنا العملاق .. مفكرنا الذي اهتم اهتماماً بالغاً بالتربية والتعليم .. والذي حدد بدقة ما هي العلوم التي يراها سهاماً في صدور المستبدين ، أما إذا فهم موقفه هذا وعبارته تلك على أنها إمعان في الإثارة والاحتجاج ضد الاستبداد ، فإن موقفه هنا يصبح مستكماً لعناصر الاطراد والانسجام .

الاستبداد .. والعلوم :

إن الجدل الذي يثور اليوم حول ضرورة اشتراك العلماء في تقرير مصير الإنسانية ، ووجوب تحملهم مسؤولية الأعمال التي يقدمونها بين يدي الإنسانية ، إن هذا الجدل حول هذه الضرورة أو عدمها ، نرى الكواكبي قد حدد منه موقفاً منذ عشرات السنين ، فهو لا يرى ضرورة مشاركة العلماء في خضم الحياة وحسب ، ولا يبصر فقط مسؤوليتهم تجاه مكتشفاتهم وأبحاثهم عندما توضع في التطبيق ، ولكنه أكثر من ذلك يضع العلماء ، ويطلب منهم ، أن يكونوا في مقدمة صفوف المناضلين دفاعاً عن الحرية ، وضد الاستبداد والمستبدين .. إن الكواكبي يقول : «المستبد عاشق للخيانة .. والعلماء عواذله» !! .. ومن هذه العبارة الطريفة ، والحاسمة الدلالة أيضاً ، يحدد الكواكبي مكان العلماء من معركة الإنسان ضد أعداء التقدم والحرية والرخاء .

وإذا كانت هذه هي مسؤولية وتبعات العلماء ، فإن العلم عند الكواكبي نوعان ، علم لا يهتم المستبد بمقاومته ، لأنه لا يرى فيه ضرراً على جبروته وصروح طغيانه ، أو يراه في خدمة هذا الجبروت وذلك الطغيان .. وعلم آخر يرى فيه المستبد ، كما يرى فيه الشعب ، قوى مادية تتحرك وترحف لتضع حداً ونهاية لهذا الجبروت وذلك الطغيان .. فنحن مثلاً نرى :

(١) طبائع الاستبداد ص ٩٣ .

«المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حاس تعقد الألوية ، أو سحر بيان يحل الجيوش» .^(١) .

ولكن .. عندما تكون العلوم أكثر التصاقاً بحياة الشعب ، وأقدر على كشف الجوانب المشرفة والمظلمة في هذه الحياة ، وأكثر فعالية في مساعدة نضال الجماهير من أجل التحرر والتقدم ، كلما كانت كذلك ، كانت أكثر أهمية لحياتهم ، وأكثر خطراً على المستبدين ، وأكثر استهدافاً لسهام الطغاة وأعداء الإنسان ... «نعم ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية ، والفلسفة العقلية ، وحقوق الأمم ، وسياسة المدنية ، والتاريخ المفصل . والحطابة الأدبية ، وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم ، المسبقة للشموس ، المحرقة للرؤوس .. المستبد لا يخاف من العلوم كلها ، بل من التي توسع العقول ، وتعرف الإنسان ما هو الإنسان ، وما هي حقوقه ، وهل هو مغبون؟ وكيف الطلب؟ ، وكيف النوال؟ وكيف الحفظ؟» .^(٢) .

على أن الكواكبي لم يكن فقط نصيراً لحرية الفكر والعلماء ، بالمعنى الذى لا يتعدى مفهوم الحرية الفردية الضيقة ، فلقد كان مفكرنا العربى يبصر قيمة العلم على ضوء فعاليته في المجتمع وبالتالي على ضوء مدى انتشار حقائقه وقضاياها وسط أوسع الكتل الشعبية والفئات والطبقات .. فهو يرى أن المستبد في جانب ، والعلماء في جانب آخر ، وبينهما صراع على قيادة الجماهير ، وبقدر نجاح العلماء في قيادة الشعب يكون خطرهم وخطر علمهم على الاستبداد والمستبدين .. فكأنما الكواكبي كان يرفع منذ عشرات السنين شعار اليوم ، وهو «العلم للملايين» !! .. استمع إليه وهو يقرر هذه الحقيقة : «يسعى العلماء في نشر العلم ويحتهد المستبد في إطفاء نوره ، والطرفان يتجاذبان العوام ، ومن هم العوام؟؟ .. هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا ، وإذا خافوا استسلموا ... وهم الذين متى علموا قالوا ، ومتى قالوا فعلوا ..»

الاستبداد .. والاقتصاد :

لقد دعا الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد» (ص ٥٩) إلى تحديد الملكية الزراعية ، ووضع حد أقصى للمبلغ الذى يباح للفلاح أن يقتضه حتى لا يفترس أرضه المرابون .. وهو

(٢) طبائع الاستبداد ص ٢٩ . ٣٠ .

(١) طبائع الاستبداد ص ٢٩ . ٣٠ .

يرى أن الإسلام قد ترك : «معظم الأراضي الزراعية ملكاً لعامة الأمة يستنبها ويتمتع بخصبها العاملون فيها فقط ، وليس عليهم غير العشر والحراج ، الذي لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال» .^(١)

ومن ذلك نقرر ، ونحن على ثقة من صحة ما نقرر ، بأن الكواكبي كان نصيراً للفلاحين وعدواً للإقطاع .

فهل كان نصيراً للاحتكار واستبداد رأس المال ؟؟ .. كلا .. لم يكن الكواكبي من هؤلاء .. فهو الذي يرى : «أن رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة ...»

وهو يرى : «أن أهل الصنائع النفسية والكمالية والتجار الشريين ، والمحتكرين ، وأمثال هذه الطبقة ، ويقدرون بواحد في المائة ، يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الألوف من الصناع أو الزراع ، وهذه القسمة .. جاء بها الاستبداد السياسي^(٢) .. ويضرب الكواكبي على ذلك مثلاً ، حيث سلط الاستعمار الإنجليزي على مستعمرة «إيرلانده» : «ألف مستبد مالى من الانكليز ليتمتعوا بثلثي أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة إيرلانده^(٣) ..» إن الرجل الذى يقف هذا الموقف من هذه القضايا وأمثالها لا يمكن أن يكون داعياً من دعاة الاحتكار واستبداد رأس المال . وإذا كانت الاشتراكية العلمية لم تكن حتى ذلك التاريخ قد جاءت أفكارها إلى بلاد الشرق العربي ، ولا تشرب بها المفكرون العرب ، وإذا كان التطور الاجتماعى للشعب العربى يومئذ ، ودرجة السلم الاجتماعى التى وصل إليها كانت لا تزال فى مرحلة النضال ضد قوى الإقطاع ، إذا كان الأمر كذلك ، فإن كل الدلائل تشير إلى أن الكواكبي كان صاحب نزعة من نزعات الاشتراكية الإسلامية ، وكان كثيراً ما يحاول تدعيمها عن طريق ضرب الأمثلة عن حياة المجتمع الإسلامى الأول ، وروح النصوص القرآنية وبعض الأحاديث .

فالساسة الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين كانت فى نظر الكواكبي «نباية اشتراكية ، أى ديمقراطية تماماً» ، وذلك هو النموذج الذى يعتمد م فكرنا الكبير سابقة تاريخية يجب أن نستلهم روحها وكتلياتها لسترشد بها ونحن نبني مجتمعنا الجديد ، لأنها هى الفترة التاريخية الوجيزة التى «اتحدت فيها إدارة الدين بإدارة الملك» . وذلك لأن «هؤلاء الخلفاء الراشدين

(١) طبائع الاستبداد ص ٥٧ .

(٢) طبائع الاستبداد ص ٥٤ .

(٣) طبائع الاستبداد ص ٥٨ .

فهموا معنى القرآن وعملوا به واتخذوه إماماً ، فأنشأوا حكومة قضت بالتساوى حتى بينهم أنفسهم وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشظفها ، وأحدثوا في المسلمين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية ، وحالات معيشة اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة» (١) .

وبعقريه فذة يفسر الكواكبي السرفى دعوة القرآن إلى «معيشة الاشتراك العمومى» هذه ، وبين كيف أن هذا النوع من أنواع المعيشة هو الطبيعى المتلائم مع سنن الكون وقوانين الطبيعة ، وأن الفردية المطلقة لا وجود لها ، لأنها ضد نظام الكون وسنن الحياة ، ومن ثم فإن نمط المعيشة الفردى ، غير الجماعى ، إنما هو انتكاس بطبيعة الحياة ، فضلاً عن أنه عداء صريح لأسباب تقدمها ، فيتحدث حديث الفيلسوف العالم عن «أن الاشتراك هو أعظم سنن الكائنات ، به قيام كل شىء ماعدا الله وحده ، به قيام الأجرام السماوية ، وبه قيام المواليد ، به قيام حياة العالم العضوى ، به قيام الأجناس والأنواع ، به قيام الأمم والقبائل ، به قيام العائلات وأعضاء الجسم ، نعم ، فيه سر تضاعف الحياة ، وفيه سر تضاعف القوة بنسبة ناموس (قانون) التريع ، فيه سر تجديد الاستمرار على الأعمال التى لا تنق بها أعمار الأفراد ، نعم ، الاشتراك هو السر كل السر فى نجاح الأمم المتمدنة» (٢) .

فهو يفتح عيون الناس على مجموعة من الحقائق العلمية ، طبيعية وفلكية ورياضية وبشرية واجتماعية ، والتي تنطق كلها بأن «معيشة الاشتراك العمومى» إنما هى الثمرة المنطقية لكل ما هو طبيعى وعادل فى هذه الحياة ، وكأتما هو فى ذلك يستخدم المنطق القرآنى البسيط والمعجز عندما يخاطب الناس متسائلاً فيقول : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) (٣) ؟؟ !

مصادر الثروة .. الربح ؟ أم العمل ؟؟ :

وبعد أن يتحدث الكواكبي هذا الحديث ، الذى هو ذخيرة فى الأدب السياسى الاشتراكى العربى ، والذى يضارع الروائع التى كتبت فى الاشتراكية ، نراه يتبع بدقة وأناة تلك المصادر التى أثرت عن طريقها هذه الأقلية التى استخدمت الصدفة التى أعطتها العصبية فى جمع المال ، فتراه يبنى نفيماً قاطعاً أن يكون تحصيل هذه الثروات بطريق عادل وشريف ،

(١) طبائع الاستبداد ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٦١ .

(٣) الذاريات . ٢١ .

وذلك لأن «تحصيل الثروة في عهد الحكومة العادلة عسر جداً ، وقد لا يتأتى إلا من طريق المراباة مع الأمم المنحطة أو التجارة الكبيرة التي فيها نوع من الاحتكار ، أو الاستثمار في البلاد البعيدة ، مع المخاطرات ،»^(١)

وفي حديثه هذا ، إلى جانب دلالاته الاجتماعية ، التي تعيننا هنا ، لمسة عبقرية لعمليات النهب الاستعماري التي كانت تتم في عصره من قبل الإمبريالية للشعوب المستعمرة في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، فيقدم لنا تفسيراً علمياً حديثاً لحكمة تحريم القرآن للربا عندما يقول إن «الشرائع السماوية كلها ، وكذلك الحكمة السياسية ، والأخلاقية ، والعمرائية ، حرمت الربا بقصد حفظ التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية ، لأن الربا هو كسب بدون مقابل مادي ، ففيه معنى الغضب ، وبدون عمل ، ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق ، وبدون تعرض لحسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملاك ... بالربا تربو الثروات فيختل التساوي بين الناس.»^(٢)

فهل هناك أدلة إدانة للرأسمالية تقدمها أحدث النظريات العلمية في الاشتراكية ، أجدو وأعطق من هذه التي قدمها الكواكبي؟؟ والتي جعل فيها تحريم الربا ، الذي أجمعت كل الشرائع والقوانين على تحريمه ، إنما هو لنفس الأسباب التي تمثل طريق الربح الرأسمالي الاستغلالي ، ونمط الحياة التي يحيها الرأسماليون ، بل والإقطاعيون الذين يعيشون على ربح الأبطال .

ذلك لأن الكواكبي كان يؤمن إيماناً عميقاً بأن العمل الإنساني هو أشرف شيء يمكن أن يتحلى به الإنسان ، بل لقد رآه معيار إنسانية الإنسان عندما تحدث عن «أن البشرية هي العلم.. وأن القضاء والقدر هما السعي والعمل»^(٣) ، ومن ثم فإن «الإنسان لا يكون إنساناً مالم تكن له صنعة مفيدة تكفي معاشه باقتصاد ، لا تنقصه فتدله ، ولا تزيد عليه فتطغيه.»^(٤)

بل وربما غالى الكواكبي في تقديره للعمل ، والعمل اليدوي بالذات ، كرد فعل لاحتقار الكثيرين له ولأصحابه ، فتحدث عن تفضيل الناس «للكناس» على «الحجام» ، «لأن

(١) المصدر السابق ص ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٣) (أم القرى) ص ١٨٤ .

(٤) (طائع الاستبداد) ص ٥٢ .

صنعته أنفع للجمهور ، وكذلك صانع الخبز أفضل من ناظم الشعر! ^(١) ، وهى مبالغة معلومة السبب ، فضلاً عن أنها مغضبة للشعراء! ؟ .

أما هؤلاء الذين يريدون أن يجردوا حياتهم من شرف العمل ، ليعيشوا عائلة على غيرهم ، فعنهم يقول مفكرنا الكبير : إن « من لا يصلح لوظيفة ، أو لا يقوم بما يصلح له ، بل يريد أن يعيش كلاً عليهم (أى على العاملين) لا عن عجز طبيعي ، (يكون) حقيراً يستحق الموت لا الشفقة » ^(٢) .

«الكواكبي ... والعمال والفلاحون والمتقنون» :

بل إننا لنعجب كل الإعجاب عندما نجد أن تلك الدعوة التى لا تزال موضع جدل ونقاش كبير ، والخاصة بالمعسكر الفكرى الذى يجب أن ينتمى إليه المفكر ، نجد هذه الدعوة قد طرقتها الكواكبي ، ومجده قد اختار معسكر العاملين الذين يصنعون الحياة ، بل وعلى وجه التحديد معسكر « المتقنين والفلاحين والعمال » وهذه كلمات الكواكبي التى كان يستقرئ فيها المستقبل ويحدد بها مكان المثقف العربى ، عندما يتحدث عن أن الإنسان الراقى « قد يترفع عن الإمارة ، لما فيها من معنى الكبر ، وعن التجارة لما فيها من التمويه والتبذل ، فيرى الشرف كل الشرف فى القلم ، ثم فى المحراث ، ثم فى المطرقة ! » ^(٣) .

وهو يقول هذا وهو الذى مارس التجارة زمناً طويلاً ، وعمل بجهاز الدولة ، فخبير مثل هذه المهن والأعمال ، وهو كذلك سليل الأسرة « الشريفة » وورث الحسب والنسب والجاه .

«شروط التَّمَوُّل» :

وإذا كان هذا هو نصيب البطالة أو التبطل ، والكبر والتبذل والتمويه ، كنمط حياة للأثرياء والمرابين ، من فكر الكواكبي وسياط كلماته ، فإن نصيب الاحتكار ، كطريق للإثراء هو الآخر جدير بالملاحظة والاعتبار .

(١) المصدر السابق ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٩١ .

فهو يتحدث عن الوسائل التي ترضاهها «الإسلامية» طرقاً للتموّل وتحصيل الثروة ، والشروط التي يجب أن تتوافر في هذه الطرق حتى تستقيم مع الحياة الإسلامية فيقول : «إن التمول ... محمود بثلاثة شروط ... الأول : أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال ، أي بإحرازه من بذل الطبيعة ، أو بالمعاوضة ، أو في مقابل عمل ، أو في مقابل ضمان ، والثاني : ألا يكون في التمول تضييق على حاجيات الغير ، كاحتكار الضروريات ، أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو التغلب على المباحات ، مثل امتلاك الأراضي التي جعلها خالقها ممرحاً لكافة مخلوقاته ، وهي أمهم ترضعهم لبن جهازاتها ، وتغذيهم بشمراثها ، وتأويهم في حضن أجزائها ، فجاء المستبدون الظالمون الأولون ووضعوا أصولاً لحمايتهم من أبنائها ، وحلوا بينها ... والثالث : ... هو ألا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير» .^(١)

وليست طرق التبطل والمراعاة والاحتكار هي التي تحظى فقط بهجوم الكواكبي وتجريجه ، بل إن تمرتها أيضاً ، وهي تكوين طبقة من الأغنياء والأثرياء ، نراها محل هجوم أيضاً من المفكر العملاق ، فهو يرى في وجود طبقة من الأثرياء في مجتمع من المجتمعات دليل مرض وتحلف لا عامل صحة وتقدم ، وظرفاً موافياً للاستبداد ، لا عوناً لهذا المجتمع على الحرية والانطلاق لأن «الأغنياء رباط المستبد ، يذلم فينون ، ويستدرهم فيحنون ، ولهذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها» .^(٢)

وما ينطبق على مجتمع من المجتمعات ينطبق على حضارة من الحضارات ، بل وعلى القارة بأسرها ، فأوروبا المتمدنة الغنية العاتية ، صاحبة البريق واللمعان في عصر الكواكبي ، يراها «مهتدة بشرور الفوضويين بسبب اليأس من مقاومة الاستبداد المالى فيها»^(٣) .

«الكواكبي والثروة العامة» :

فإذا ما جاء الحديث عن «الثروة العامة» في إنتاج الكواكبي أحسنا أننا بإزاء نصوح عبقرى نستعين على تقديمه ، تفادياً لتهمة المبالغة والتزيد ، بعدد من النصوص ، وذلك لأن الدهشة والانهار ستسرع بالإنسان إلى الشك في المبالغة والتزيد على الرجل ، أو النفخ

(١) المصدر السابق ص ٤٧ - ٤٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٥١ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٠ .

والتضخيم لآرائه في هذه الموضوعات ، ومن ثم فليس سوى نصوصه هو حكماً ومعياراً تُشهدها على عبقريته الفذة في مثل هذه الميادين .

فهو بعد أن يتحدث عن أن «المال يُسَمَد من الفيض الذي أودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها ، لا يملك ، ولا يتخصص بإنسان إلا بعمل فيه أو في مقابله^(١)» . نراه يروى كيف «تركّت الإسلاميّة معظم الأراضي الزراعيّة ملكاً لعامة الأمة ، يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط» .^(٢)

كما يتحدث عن أن ظروف العصر ، ودواعي الاهتمام بتحقيق الاستقلال الحقيقي إنما تفرض الاهتمام بتنمية حجم الثروة العامة في الأمة ، إذ «لم تكن قديماً أهمية للثروة العمومية ، أما الآن وقد صارت المحاربات محض مغالبات علم ومال فأصبح للثروة العمومية أهمية عظمى لأجل الحفاظ على الاستقلال» .^(٣)

فهو هنا يتحدث عن أن الحفاظ على الاستقلال لا بد وأن يستلزم تنمية الثروة العمومية في الأمة ، وتزايد حجمها ، كأعمق ما يتحدث به اليوم مفكر يدرس احتياجات الأمم الناهضة حديثة الاستقلال ، التي يترى بها الأعداء الذين يغالبونها بحروب ومكائد قائمة على العلم والمال .

« ملكية للشعب ؟ .. أم رأسمالية للدولة ؟؟ » :

بل وقضية أخرى ربما كان تناول الكواكبي لها أكثر غرابة وأدعى إلى العجب والإعجاب ، وهي تلك التي يتحدث عنها بعضنا اليوم كقضية حديثة مستحدثة ، عندما يفرق الاشتراكيون بين الثروة العامة والملكية العامة وبين ملكية الحكومة ورأسمالية الدولة ، فيدعون للأولى ، ويرونها جوهر البناء الاشتراكي ، على حين يرون في الثانية مجرد خطوة إلى الأمام في التنظيم الاقتصادي ، وإن لم تكن بناء اشتراكياً بحال من الأحوال .

فالثروة العمومية التي كان الكواكبي من أنصارها ، إنما كان يعني بها الثروة المملوكة

(١) المصدر السابق ص ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٥١ ، ٥٢ .

للمجموع والمخصصة للكافة ، لا التي تملكها الحكومة ، ويستمتع بثأرها جهاز الدولة ، فهو يتساءل عن مكان «الحكومة» من هذه الثروة العمومية ومركزها من السلطة والتصرف والتحكم في هذه الثروة فيقول : «هل للحكومة صفة المالكية؟» أو صفة الأمانة والنظارة على الأملاك العمومية مثل الأراضي والمعادن والأنهار والسواحل والقلاع والمعابد والأساطيل والمعدات؟ هل للحكومة التصرف في الحقوق العامة المادية والأدبية كما تنشاء بدلاً وحرماناً؟ أم تكون الحقوق محفوظة للجميع على التساوى والشيوع ، أو موزعة على الفضائل والبلدان والصفوف والأديان بنسبة عادلة؟»^(١)

وهو بهذا يضيف إلى البناء الذي أقامه حول الاشتراكية لمسات عبقرية تعطي هذا البناء القدر العظيم من الأصالة التي تستحق أعظم مشاعر التقدير والإعجاب .

الاستبداد .. والديمقراطية :

والديمقراطية لا تعني عند الكواكبي مجرد لفظ تضلل به الجماهير ، أو يردد ذكره في الدساتير .. ولا مجرد علاقات بين الناس في داخل المجتمع الواحد .. بل إنها لديه تشمل كذلك العلاقة بين الأمم والحكومات .. ولقد كان الكواكبي بحق مرآة لعصره ، فهو يدعو في نظام الحكم الداخلي إلى أسلوب الإدارة الديمقراطية الحرة ، ويحذر من أن «يدخل على الناس أن للاستبداد حسنات مفقودة في الإدارة الحرة ، ويسلمون له بها»^(٢) وهو إنما يريد بذلك القضاء على خرافة «المستبد العادل» ، بمعناها الذي شاع في زمنه ، والذي حاول البعض - زوراً - أن ينسبها إلى الفيلسوف الكبير جمال الدين الأفغاني .. وهو يعدد سمات الأمة الحرة ، كما يراها حيث يقول : «أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة ، والتأليف ، والمطبوعات ، مستثنية القذف فقط .. ورأت أن تحمّل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد ، لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد. يخفقون بها عدوتهم الطبيعة، أي الحرية ، وقد حمى القرآن قاعدة الإطلاق بوضعه قاعدة (ولا يضار كاتب ولا شهيد)^(٣) .. وهذه الأمم الموقفة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب ، وظيفتها السيطرة والاحتساب على الإدارة العمومية السياسية ، وذلك منطبق تماماً على ما أمر به القرآن الكريم في آية (ولتكن

(١) المصدر السابق ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) طبائع الاستبداد ص ٧٠ .

(٣) البقرة : ٢٨٢ .

منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر^(١) وفى كماله هذه الآية ، وهى : (وأولئك هم المفلحون) من التبجيل ما يحمل نفوس الأبرار على تحمل مضض القيام بهذه الوظيفة الشريفة فى ذاتها الممقوتة طبعاً عند المستبد وأعوانه .^(٢)

ولم تكن الديمقراطية عند الكواكبي فقط إدارة حرة . ومجلساً للنواب ، وحرية للخطابة والكتابة والمطبوعات ، وإنما كانت أيضاً موقفاً متحرراً من العلاقة القائمة بين الرجال والنساء .. فهو يستنكر أن يكون البشر ، المقدر مجموعهم بألف وخمسمائة مليون ، نصفهم كلاً على النصف الآخر ، ويشكل أكثرية هذا النصف : نساء المدن^(٣) .. وهو يتصدى فى صدق وبراعة للرد على الذين يدعون لجهالة النساء دفاعاً عن الطهر والعفاف !! فىقول : «إن لانحلال أخلاقنا سبباً مهماً .. يتعلق بالنساء ، وهو تركهن جاهلات على خلاف ما كان عليه أسلافنا ، حيث يوجد فى نساتنا كأأم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، التى أخذنا عنها نصف علوم ديننا ، وكمثات من الصحايبات والتابعيات راويات الحديث والمتفقهات فضلاً عن ألوف من العالمات والشاعرات اللاتي فى وجودهن فى العهد الأول ، بدون إنكار ، حجة دامغة ترغم أنف غيرة الذين يزعمون أن جهل النساء أحفظ لعفتن ، فضلاً عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون حتى يصح الحكم بأن العلم يدعو للفجور وأن الجهل يدعو للعفة .. نعم .. ربما كانت العاملة أفدر على الفجور من الجاهلة ، ولكن الجاهلة أحسر عليه من العاملة ، ثم إن ضرر جهل النساء وسوء تأثيره فى أخلاق البنين والبنات أمر واضح غنى عن البيان» .^(٤) وكما كانت للكواكبي تلك النظرة المتقدمة التى تعطى المرأة ما للرجل من حقوق سياسية واجتماعية .. فلقد كانت له نظرة متقدمة أيضاً للعلاقة بين الطبقات ، والفوارق بين هذه الطبقات .. ومعنى هذا أن الكواكبي لم يكن يرى فى الديمقراطية نظاماً سياسياً فحسب ، بل ونظاماً اقتصادياً ، لقد كان يرى فيها نظاماً معادياً للاستغلال .

إن الكواكبي يخاطب الشعب بهذه العبارة : «ما هذا التفاوت بين أفرادكم وقد خلقكم ربكم أكفاء فى البيئة ، أكفاء فى القوة ، أكفاء فى الطبيعة ، أكفاء فى الحاجات ، لا يفضل بعضكم بعضاً إلا بالفضيلة ، لا ربوبية بينكم ولا عبودية ، والله ليس بين صغيركم وكبيركم

(١) آل عمران : ١٠٤ .

(٢) طبائع الاستبداد ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) طبائع الاستبداد ص ٥٣ .

(٤) أم القرى ص ١٢٦ .

غير برزخ من الوهم !» .^(١) وهو يرى في الديمقراطية نظاماً يجر ضمير الإنسان ووجدانه ، هيؤذن في قومه : « متى تستقيم فاماتكم ، وترتفع من الأرض إلى السماء أنظاركم ، وتميل إلى التعالي نفوسكم ، فيستقل كل إنسان منكم بذاته ، ويملك إرادته واختياره ؟! !» .^(٢)

أما الديمقراطية كعلاقة بين الأمم والشعوب فلقد تمثلت في موقف الكواكبي ، كصوت للتعيب العربي في فضاله ضد ظلم الأتراك ، ومحاولاتهم إلغاء خصائصنا القومية وطابعنا العربي في كل شؤون الحياة وفروعها .. وهو يطلق هذه العبارة التي ذهبت مثلاً يعبر عن الصراع العربي التركي : « ثلاث خلقت للجور والفساد : القمل ، والترک ، والجراد » !!^(٣)

على أن هجوم الكواكبي لم يكن قاصراً فقط على الاستبداد التركي ، فلقد أبصر يومئذ زحف الاستعمار الغربي ليرث دولة الرجل المريض ، كما عاش في مصر وهي تزح تحت نير الاحتلال الإنجليزي ، فهو يستثير الهمم ضد أن يكون للوطن حاكم غريب عن أبنائه ، لم تنبته أحشاء هذا الوطن ، ولا صلة ، سوى الظلم ، تجمعها بالحكومين ، فإذا « كان البستاني أو الحطاب غريباً لم يخلق من تراب تلك الديار ، وليس فيها له فخار ، ولا يلحقه منها عار ، إنما همه الحصول على الفائدة العاجلة ، ولو باقتلاع الأصول ، فهناك الطامة وهناك البوار » ..^(٤) وليس معنى هذا أن الكواكبي كان يحارب الأتراك كجنس ، وإنما كان يحارب الرجعية التركية والمستبدين الأتراك ، بل إن العرب الذين حاولوا الانسلاخ من قوميتهم لم يسلموا من هجوم مفكرنا العملاق .

« إن شؤون الناشئة المتفرجة .. لا تخرج عن تذبذب وتلون ونفاق ، يجمعها وصف : لا خلاق .. على أنه يوجد في المتفرجة أفراد غيرون كالراسخين من أحرار الأتراك ، الملتهمين غيرة ، يقتضى احترام مزيتهم » .^(٥)

وكل هذه المفاهيم التي تحدث عنها الكواكبي ، والتي أشرنا إلى طرف منها ، إنما جاءت نتاجاً لعبقرية فذة ، وتفكير أنتج قيمة خالدة على مر الأيام ، ولقد كان لهذه المفاهيم وتلك القيم ، أسسها في حياة عبد الرحمن الكواكبي ومجتمعه وشخصيته .. لقد كانت في حياته

(١) طبائع الاستبداد ص ١٠٦

(٢) طبائع الاستبداد ص ١٠٧ .

(٣) أم القرى ص ١٢١ .

(٤) طبائع الاستبداد ص ٧١ .

(٥) أم القرى ص ١٣١ .

وتكوينه عدة أسس ومجموعة من الحقائق أنتجت هذا الإنسان .. نعم ..
.. فلقد كان متعمقاً في دراسة التراث العربي والإسلامي والتركي والفارسي . وكان مثلاً
طيباً للانتفاع بما في هذا التراث من صفحات مشرقة ووضاءة .

« كما كان داعية من دعاة التطور والتجديد ، وعدواً للجمود ، جمود الشيوخ الرجعيين ،
وجمود الذين دعاهم للتخلف موقف طبق معاد للقوى التقدمية النامية والزاحفة للأمام » إن
الخور .. علة معدية تسرى من الشيوخ إلى الشباب ، ومن الطبقة العليا إلى العامة ، وليت
الشيوخ والكبراء يرضون بما كتبه الله عليهم من الذلة والمسكنة والحمول وسقوط الهمة والدناءة
والاستسلام ، فيتركون أهل النتأة الجديدة وشأنهم ... وما أظنهم بفاعلين إلا أن تتصدى لهم
جرائد مخصوصة تقابلهم باللوم والتبكيث ، وتسלט عليهم أقلام الأدباء وألسنة الشعراء بوضع
أهاجى وأناشيد بعبائر بسيطة محلاة بنكت مضحكة ، لكي تنتشر حتى على ألسنة العامة ،
وبمثل هذا التدبير تثور حرب أدبية بين الناشئة والواهنة لا تلبث أن تثمر انكسار الفئة
الثانية » .^(١)

« ولقد كان ارتباط التراث التقدمي بالتطور والتجديد ، نابغاً عند الكواكبي من إيمانه
بحقيقة علمية أكدها العلم الحديث ، ألا وهي ترابط ظواهر المجتمع ، وترابط ظواهر الطبيعة
وتفاعلها جميعاً .. ولقد أدرك ذلك الكواكبي منذ عشرات السنين عندما قال : « ليس في
الكون شيء غير تابع لنظام ، حتى فلتات الطبيعة والصدف ، التي هي مسببات لأسباب
نادرة » .^(٢)

وبعد ... فإن عبد الرحمن الكواكبي ، رغم قلة التراث الذي خلفه من ناحية الكم ، إلا
أنه ولا شك دليل ونصب تذكارى يقف على طريق تقدم الشعب العربي والأمة الإسلامية
ليشير بأحرف من نور إلى أن في تراثنا صفحات مشرقة جديرة بالبعث والبحث والتقدير ..
فليكن ذلك هو موقف الشعب العربي من مفكريه الأفلاذ ، وهو بيني أمتة الواحدة في ظل
قوميته الواحدة ، ممارسا دوره القائد في المحيط الإسلامي الكبير^(٣) .

(١) طبائع الاستبداد ص ١٣١ . ١٣٢ .

(٢) طبائع الاستبداد ص ٩٥ .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر كتابنا [عبد الرحمن الكواكبي - شهيد الحرية ومجدد الإسلام] طبعة بيروت والقاهرة سنة

١٩٨٤ م .

- ١٨ -

محمد عبده

[١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]

تجديد الدنيا بتجديد الدين

في سنة ١٢٦٦ هـ سنة ١٨٤٩ م ولد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده حسن خير الله ، وكان ميلاده بقرية « محلة نصر » ، مركز « شبراخيت » ، محافظة « البحيرة » ، بمصر .. لأسرة تمثلت ثروتها في كثرة رجالها ، وتجدد جاهها في مقاومتها ظلم الحكام لعدة أجيال ، الأمر الذي جعلها تقدم لذلك العديد من التضحيات : هجرة ، وسجنا ، وتشريدا ، وموتا ، وضياح ثروة ! ..

وفي القرية تلقى تعليمه الأولى للقراءة والكتابة ، ثم شرع يحفظ القرآن وهو في السابعة من عمره .. وفي « الجامع الأحمدي » بطنطا تلقى دروس تجويد القرآن سنة ١٢٧٩ هـ سنة ١٨٦٢ م .. ثم بدأ يتلقى أولى الدروس في التعليم الأزهرى ، بنفس « الجامع الأحمدي » سنة ١٢٨١ هـ سنة ١٨٦٤ م .. لكن عقم أساليب التدريس صدته عن مواصلة الدراسة ، فهجرتها عائدا للقرية بعد عام واحد ، حيث تزوج ، وعزم على احترام الزراعة مثل والده وأخويه : « على » و « محروس » .. لكن والده رفض ذلك ، وقرر إعادته إلى « الجامع الأحمدي » في نفس العام ، فهرب من القرية ، حيث التقى بخال والده : الشيخ درويش خضر .. وكان صوفيا على اتصال بالزاوية السنوسية - فألقى إليه ببعض من حكمة التصوف ، وقاده إلى شيء من سلوك الصوفية ، فعادت إليه الرغبة في طلب العلم ، فرجع إلى « الجامع الأحمدي » ، ومنه انتقل للدراسة بالجامع الأزهر ، في القاهرة ، سنة ١٢٨٢ هـ سنة ١٨٦٦ م ..

وفي سنة ١٢٨٨ هـ سنة ١٨٧١ م تفتحت مدارك الشيخ محمد عبده على آفاق جديدة في العلم والحياة ، وذلك عندما بدأت صلواته ، بل وملازمته ، لجمال الدين الأفغانى [١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] فحضر دروسه في منزله ، واستمع إلى شروحه وتعليقاته على كتب العقائد والكلام

والمنطق والأدب والسياسة ، ودون الكثير من هذه الشروح والتعليقات ، وكان يعيد إلقاء هذه الدروس على زملاء له من طلاب الأزهر ، بالجامع الأزهر ، الأمر الذي أغضب منه الشيوخ ، حتى لقد هموا بإسقاطه عندما تقدم لامتحان «العالية» سنة ١٢٩٤ هـ سنة ١٨٧٧ م لولا أن عارضهم في ذلك شيخ الأزهر الشيخ محمد المهدي العباسي ، فنحوه «العالية» من المرتبة الثانية ! ..

وفي أواخر سنة ١٢٩٥ هـ سنة ١٨٧٨ م عين مدرسا للتاريخ بمدرسة دار العلوم العليا ، فشرح لطلابها «مقدمة» ابن خلدون ، ودرس لهم «علم الاجتماع والعمران» واشتغل بالتدريس كذلك في مدرسة الألسن . كما شارك أستاذه الأفغاني - في تلك الفترة - نشاطه السياسي المناوئ لاستبداد الخديوي إسماعيل [١٨٣٠ - ١٨٩٥ م] بالسلطة ، وللتدخل الأجنبي في مصر . ذلك النشاط الذي استخدمه فيه «التنظيم» الفكري والسياسي ، من مثل «الحزب الوطني الحر» - الذي بدأ سرىا - والذي رفع شعار : «مصر للمصريين» ، وهو الحزب الذي ضم أغلب القيادات التي أسهمت في تفجير الثورة العراقية سنة ١٨٨١ م .

وبعد نفي الأفغاني من مصر - في أغسطس سنة ١٨٧٩ م - رمضان سنة ١٢٩٦ هـ - عزل الشيخ محمد عبده من وظائف التدريس ، وحددت إقامته بقريته «محلة نصر» قرابة العام ، حتى استصدر له رياض باشا [١٨٣٤ - ١٩١١ م] ناظر النظائر عفوا من الخديوي ، وعينه محررا ثالثا في «الوقائع المصرية» ، وبعد أشهر تولى رئاسة تحريرها ، كما تولى مسؤولية الرقابة على المطبوعات ! .. وعندما أنشئ المجلس الأعلى للمعارف العمومية - في ٢٨ مارس سنة ١٨٨١ م - ٢٨ ربيع آخر سنة ١٢٩٨ هـ - عين عضوا فيه ..

وخلال هذه الفترة - ما بين نفي الأفغاني وتفجير الثورة العراقية بمظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م - تميز الشيخ محمد عبده في «أسلوب» العمل السياسي عن أستاذه الأفغاني ، فركز على «الإصلاح» لا «الثورة» ، واهتم «بالترقية» وتكوين «الصفوة» بدلا من «التهييج» الذي يستهدف تحريك «الجمهور والعامة» ضد أعداء الأمة .. لكن حرارة الثورة العراقية قد غيرت من هذا «المزاج المعتدل» للأسناذ الإمام ، بعد مظاهرة عابدين ، فاقرب من الثورة ، وشارك في قيادتها ، ممثلا - مع عدد من قيادات الحزب الوطني الحر - الجناح المعتدل فيها .. فلما هزم الانجليز الثورة في سبتمبر سنة ١٨٨٢ أدخلوه السجن ، وحاكموه ، ثم حكموا عليه بالنفي ، خارج مصر ، ثلاث سنوات بدأت في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م ، ثم امتد منفاه قرابة الست سنوات .

وفي المنى تنقل الأستاذ الإمام في بلاد كثيرة ، فمن بيروت لحق بالأفغانى بباريس ، حيث تولى مسئولية نائب رئيس جمعية «العروة الوثقى» السرية ، ورأس تحرير مجلتها - [العروة الوثقى] - .. ولقد زار - نهوضا بمسئولته تلك - لندن ، داعيا لجللاء الانجليز عن مصر ، بل ودخل مصر سرا سنة ١٨٨٤ م ليشراف على تنظيم «الجمعية» وليرقب ، عن كثب ، أحداث الثورة المهديّة في السودان ! ..

وبعد توقف مجلة «العروة الوثقى» ، وانقضاء السنوات الثلاث المحكوم عليه أن ينفي خلالها من مصر ، وتسرب اليأس إلى نفسه من جدوى العمل «السياسى - المباشر - والثورى» - الذى لم يكن موافقا لطبعه وتكوينه ومزاجه - بدأ مسعاها فى العودة إلى مصر ، فغادر باريس إلى بيروت ، عن طريق تونس ، سنة ١٨٨٥ م .. وهناك تفرغ للتربية والتعليم والتجديد الدينى .. فأسس جمعية سرية للتقريب بين الأديان السماوية ، وكتب الفصول فى الصحف والمجلات ، وأتم ترجمته لرسالة الأفغانى : «الرد على الدهريين» ، ووضع «لوائح» لإصلاح التعليم العثمانى ، والسورى ، والمصرى ، وشرع فى تحقيق كنوز التراث العربى الإسلامى ، وتحول «بالمدرسة السلطانية» من مدرسة شبه ابتدائية إلى مدرسة شبه عالية عندما درس بها الأدب والبلاغة والفلسفة والعقائد والقانون ، كما بدأت دروسه فى تفسير القرآن بالمسجد العمرى ، تلك التى جسدت منهجه التجديدى ، فاجتذبت خاصة بيروت وعامتها ، المسلمون منهم والمسيحيون المستنيرون ! ..

وفى بيروت تزوج من زوجته الثانية ، بعد أن توفيت زوجته الأولى ..
وفى سنة ١٨٨٩ م ١٣٠٦ هـ نجحت مساعى أصلدقائه وتلاميذه بمصر ، فسمح له بالعودة إليها ، بعد التأكد من أنه لن يحترف العمل السياسى مرة أخرى ! ..

وبعد عودة الأستاذ الإمام إلى مصر ظل الود مفقودا بينه وبين الخديو توفيق [١٨٥٢ - ١٨٩٢ م] الذى لم ينس له إسهامه فى الثورة العرابية ، فرفض أن يحقق رغبته فى العودة إلى التدريس ، كى لا يرى الأجيال الجديدة على مشربه ومنهجه ، فعين قاضيا بمحكمة «بها» سنة ١٨٨٩ م ، ومنها انتقل إلى محكمة «الزقازيق» ثم محكمة «عابدين» - بالقاهرة - .. ثم ارتقى إلى منصب مستشار فى محكمة الاستئناف سنة ١٨٩١ م .

وأدرك الأستاذ الإمام أن السلطة الحقيقية بمصر هى فى يد الانجليز ، وظن أن أبتعاده عن العمل السياسى المباشر سيجعلهم يكتفون من مسعاها فى التجديد الدينى والإصلاح التربوى والنهضة بالمؤسسات الإسلامية ، فأتجهت جهوده «لإصلاح الأزهر ، والأوقاف ، والمساجد ،

وتطوير القضاء الشرعى .. وخيل إليه أن موافقة كل من «كرومر» والخديوى عباس حلمى الثانى [١٨٧٤ - ١٩٤٤ م] على نشاطه الإصلاحى سيدلله أمامه العقبات .. لكن الأمر لم يكن كذلك .. فالإنجليز قد وعدوه العون ، لينصرف كلية عن العمل السياسى ، وليناهض التيار «الشعبى - الثورى» الذى بدأ يتبلور من حول مصطفى كامل [١٨٧٤ - ١٩٠٨ م] .. لكنهم حرصوا على الحيلولة دون نجاح تجديده وإصلاحه ، فأوكلوا إلى القوى المحافظة والجامدة التصدى لهذا التجديد وذلك الإصلاح ! .. والخديوى لم يغفر له وده لكرومر وصلاته به ، كما أحنفته موافقه التى تصدى بها لأطاع الخديوى فى أراضى الأوقاف ! وعداءه لأسرة محمد على ، فأوعز هو الآخر إلى المحافظين من شيوخ الأزهر كى يقيموا العقبات أمام ما يقترح من تجديد وإصلاح ! .. فكان أن وقفت جهوده الإصلاحية دون المدى الذى طمح فيه .. وذلك فضلا عن القطيعة التى قامت بينه وبين أستاذه الأفغانى ، بسبب موقفه المهادن لسلطات الاحتلال ! ..

لكن ذلك لا يعنى قتل مسعى الأستاذ الإمام فى الإصلاح والتجديد ، فلقد أنجز الرجل فى هذا الميدان ما لم ينجزه مصلح آخر بعالم الإسلام فى عصرنا الحديث ، وإنما الذى يعنيه هو أن إصلاحه وتجديده لم يبلغا المدى الذى أراد .. لقد كانت طموحاته وأهدافه فى التجديد : «ثورة كاملة وشاملة» ، لكنه سلك إلى تحقيقها طريقا غير ثورى ، طريق «الإصلاح» ، فلم تتحقق له ولاهاكل الأهداف ! .. لكنه ، مع ذلك أنجز الكثير والكثير ..

● فتكونت من حوله صفوة فكرية جسدت آمال الأمة فى الإحياء والتجديد ، بمختلف الميادين ، حتى لنستطيع أن نقول : إنه أبرز مجددى الإسلام فى عصرنا الحديث ، وأعظم العقول التى توفرت على تحرير العقل الإسلامى من قيود الجمود والتقليد ، وأول من تكونت من حوله مدرسة فكرية متميزة ..

● وكانت مقالاته ورسائله فتحا مبينا تجددت بها أساليب الكتابة العربية ، فتخلصت من بقايا البسج والمحسنات اللفظية التى بقيت تثقل هذه الأساليب منذ عصر المالك ، حتى لنستطيع أن نقول : إن مقالاته هذه هى الامتداد المتطور لرسائل الجاحظ [١٦٣ - ٢٥٥ هـ - ٧٨٠ - ٨٦٩ م] تجاوزت بها العربية قيود عصر الركاكة والانحطاط ! ..

● وكانت «الصحافة الفكرية» التى رعاها الميدان الذى اشتد فيه عود الفكر المجدد والمستنير ، سواء منها تلك التى باشر إصدارها والكتابة فيها ، مثل «العروة الوثقى» و«المنار» ، أو تلك التى أصدرها تلاميذه ، مثل «الجريدة» و«السياسة» .. الخ .. الخ ..

● وكان تفسيره لما فسر من القرآن الكريم من أعظم الإنجازات الفكرية التي جسدت منهاجاً جديداً في النظر إلى كتاب الله ، وهو المنهج الذي يغيّر مناهج القدماء ، لغوية أو نحوية أو بلاغية أو صوفية ، كما يخالف المنهج الذي يحول القرآن إلى كتاب طبيعة وعلوم وجغرافيا وتاريخ وطب وفلك وتنجم ! على حين يرى في القرآن : كتاب العرب الأول ، والمعجزة العقلية للإسلام الدين ، جاء به الوحي مؤذنا ببلوغ الإنسانية مرحلة الرشد ، ومطلقاً للعقل الإنساني العنان في كل ميادين عالم الشهود ! ..

● وكانت معاركه الفكرية ، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين - وأبررها تلك التي كانت بينه وبين مفكر فرنسا ووزير خارجيتها « جابر بيل هانوتو » [١٨٥٣ - ١٩٤٤ م] وبين فرح أنطون [١٨٦١ - ١٩٢٢ م] - كانت مجالاً خصباً للكشف عن الوجه الحقيقي للإسلام ، بعد أن تراكمت عليه ، لقرون ، البدع والخرافات والشعوذات ، التي تميزت بها فكرية عصر المماليك والعثمانيين .

● وكانت جهوده في إحياء التراث العربي والإسلامي - وخاصة بعد أن أسس لها سنة ١٩٠٠ م سنة ١٣١٨ هـ « جمعية إحياء الكتب العربية » - من أبرز الإسهامات القومية في هذا الميدان ، الذي ظل حكرًا على المستشرقين لعدة قرون ! ..

● وكانت أحكامه القضائية في الاستئناف فتحة لباب الاجتهاد في فقه المعاملات ، تعزز بإسهامه في « مجلس شورى القوانين » الذي عين عضواً فيه في ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ م - ١٨ صفر سنة ١٣١٧ هـ .. وبالتقرير الذي كتبه لإصلاح المحاكم الشرعية سنة ١٨٩٩ م .. وأيضاً بالفتاوى التجديدية التي وصلت ما بين الإسلام والواقع المعاصر المتطور ، وهي التي أصدرها منذ أن تولى منصب مفتي الديار المصرية في ٣ يونيو سنة ١٨٩٩ م - ٢٤ محرم سنة ١٣١٧ هـ . . .

● وكانت جهوده الاجتماعية والتربوية من خلال نشاط « الجمعية الخيرية الإسلامية » ، التي شارك في تأسيسها سنة ١٨٩٢ م سنة ١٣١٠ ، والتي تولى رئاستها سنة ١٩٠٠ م سنة ١٣١٨ هـ .. كانت إطلاقة من قمة الفكر على قاع المجتمع المصري الذي عاش فيه ! ..

● وكانت رحلاته إلى خارج مصر : بيروت ، والشام ، والآستانة ، وباريس ، ولندن ، وجنيف ، وتونس ، والجزائر ، والسودان ، وصقلية .. الخ .. الخ .. وكذلك محاوراته ومراسلاته مع علماء عصره ومفكريه ، عرباً ومسلمين وأجانب .. من الأفغانى ..

إلى أعضاء «العروة الوثقى» .. إلى تولستوى .. إلى هيربرت سبنسر.. الخ .. الخ .. كانت تجسيدا لمكانته ، ولقوام فكره ، وللتأثير والتأثر اللذين مثلها في العصر الذي عاش فيه ..

● بل .. وحتى الأزهر الذي أبقى شيوخه مطاوعة الإمام كى يبلغ بتجديده المدى الذى أراد ، نراه قد انتقل بفضل نضاله ، من خلال مجلس إدارته الذى أنشئ سنة ١٨٩٥ م سنة ١٣١٢ هـ ، إلى طور جديد ، فعرف طلابه علوم : المنطق ، والحساب ، والجغرافيا ، والتاريخ .. بعد أن كان شيوخه يرون فيها بدعا وضلالات ، مصيرها ومصير الناظرين فيها إلى النار ! ..

فإذا كان الأستاذ الإمام لم يشهد تحقيق كل ما يريد فى ميدان التجديد الدينى والإصلاح للمؤسسات الإسلامية .. وإذا كان التوفيق لم يحالفه فى ميدان السياسة ، بمعناها الشائع ، فإن هذه المعالم البارزة لإنجازاته الرئيسية فى ميادين التجديد والإصلاح تؤكد ، دونما ريب ، أنه واحد من أعظم مجددى الإسلام ومصلحي المسلمين عبر تاريخنا الطويل ، وأنه أعظم مجددى حياة أمتنا فى عصرها الحديث ، وأبرز من ترك بصماته على حياتنا الفكرية ، تلك البصمات التى لازالت تفعل فعلها حتى الآن ! ..

وإذا كانت الإنجازات الإصلاحية والجهود التجديدية للأستاذ الإمام قد تمثلت فى صفة فكرية كان لها الأستاذ المرعى ... وفى مؤسسات أنشأها ورعاها ، وأخرى طورها وأصلح من أمرها ... وفى مواقف عملية وممارسات جسدت عزة المسلم وكبرياء الفلاح المصرى وارث الحضارة الحكيمة والحكمة المتحضرة ! .. الخ .. الخ .. فإن هذه الإنجازات قد تجسدت أيضا فى أعمال فكرية ، ضمت الرسائل والمقالات ، والكتب ، والشروح والتعليقات ، وهى التى بلغت ، عندما جمعت فى [أعماله الكاملة] ست مجلدات .. فأضافت إلى ثرائه فى «صنع الرجال» وإلى «مواقفه وممارساته» ثروة فكرية هى ، بحق : ديوان الفكر المجدد للإسلام والحياة المسلمين فى عصرنا الحديث ..

ولذلك ، فإن الموت الذى اختار جسده الأستاذ الإمام فى الساعة الخامسة من مساء يوم ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ - ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ هـ - وهو فى السابعة والخمسين من عمره - لم يمسس ذلك البناء الفكرى الذى صنعه ذلك المجدد العملاق .. لقد كان عقلا من أكبر عقول الشرق والعروبة والإسلام فى عصرنا الحديث ... والموت إنما يصيب الأجسام ، أما هذه العقول الفعالة فإنها لا تموت ! ..^(١)

(١) لمزيد من التفصيل انظر كتابنا [الإمام محمد عبده] مجد الإسلام - طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م . ١٩٨٦ م .

- ١٩ -

رشيد رضا

[١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ - ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م]

التجديد بالمأثور

هو «السيد» محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني ، نسبة إلى بلدته «القلمون» ، إحدى قرى نواحي «طرابلس» الشام .. ولقد نزحت أسرته إلى «القلمون» من بغداد ، فهو بغدادي الأصل .. ويلقب «بالسيد» ، لأن أسرته «شريفة» ، يرتفع نسبها إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ، -رضي الله عنهما- .

ولد بقريته «القلمون» - والمشرق العربي خاضع للدولة العثمانية وجزء من امبراطوريتها - وكان مولده في ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ - ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٥ م ..

وفي المحيط المتدين للأسرة بدأ رشيد رضا يتلقى دروس تعليمه الأولى بقريته ، على عادة عصره ، فحفظ القرآن ، وأخذ بأسباب التعليم التي تؤهله كي يكون عالماً من علماء الإسلام وفي «طرابلس» التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية .. كما درس في بيروت .. وانتهى به المطاف ، بعد أن درس علوم القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، واللغة ، والفقه ، إلى نيل شهادة (العالمية) من طرابلس ، بعد أن حصل ما يشابه علوم الأزهر الشريف في مصر .. ولقد تتلمذ في تعليمه هذا على نفر من علماء سورية وأدبائها البارزين ، مثل الشيخ حسين الجسر [١٨٤٥ - ١٩٠٩ م] والشيخ عبد الغني الرافعي [١٨٢١ - ١٨٩١ م] ..

كان تحصيله ثمرة لمنهج دراسته ، يغلب عليه الطابع السلفي ، الذي يهتم أكثر ما يهتم «بالمنفق» وينحونحو إعلاء شأن النصوص والمأثورات ، مع فضيلة التدقيق في أسانيد هذه النصوص ، دينية كانت أو تاريخية ..

ومن الكتب التي طبعت فكره وسلوكه بطابع متميز في المرحلة الأولى من حياته كتاب [إحياء علوم الدين] للإمام الغزالي [٤٥٠ - ٢٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١ م] فلقد مال به إلى

الزهد ، وسلوكه فى سلك الصوفية ، فأصبح واحداً من المريرين فى «الطريقة النقشبندية» . واشتغل بالوعظ والإرساد فى قريرته والقرى المجاورة لها . حتى لقد كانت نزهاته التى يروح بها عن نفسه فى القرى المجاورة مجالاً لعظات يلقيا ، مستعينا بكتب المواعظ السلفية من أمثال كتاب [الزواج عن اقتراف الكبائر] (١) ! .. ولقد تهبأ له فى هذه الفترة أن يتدرب على الخطابة الدينية فأجادها .. كما طمع إلى الكتابة ، فألف كتاباً عن [الحكمة الشرعية] ، ونشر فى إحدى الصحف مقالا طويلا عن الأخلاق . وكيف أنها هى والوجدان مصدر عمل الإنسان .. كذلك صاغ بعض أفكاره شعرا منظوما ..

ولقد تصادف أن ولت الدولة العثمانية على طرابلس «متصرفاً» كان من أنصار الحرية . هو حسن باشا سامى ، وفى أحد الاجتماعات التى حضرها خطب الشيخ رشيد خطاباً تحدث فيه عن طبقات الأمة . حاكمين ومحكومين . وحذ أن يكون العمل هو معيار التمايز بين الطبقات .. وهو فكر استاء منه البعض ، وخشى عليه أصدقاؤه مغبته .. لكن «المتصرف» التركى أعجب به . فعينه عقب ذلك عضواً فى «سبعة المعارف» (٢) ! ..

وفى سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ - ١٨٩٣ م) - وكان فى الثامنة والعشرين من عمره - حدث لفكره وسلوكه تحول عظيم .. فبينما هو يقرب الأوراق فى محفوظات والده ، إذا به يعثر على بعض من أعداد مجلة [العروة الوثقى] التى أصدرها فيلسوف الإسلام وموقف الشرق جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] وتلميذه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٨ - ١٩٠٥ م] من باريس سنة ١٨٨٤ م ، التى توقفت بعد ثمانية عشر عدداً .. فقرأ هذه الأعداد التى أحدثت مقالاتها فى عقله ووجدانه انقلاباً شاملاً .. فأخذ يبحث عن بقية أعداد المجلة ، فوجدها كاملة فى مكتبة شيخه حسين الجسر ، فنسخها وأكب على مطالعتها وفقهاها مرات ومرات ، فتغيرت صورة الإسلام فى فكره ، ومن ثم تغيرت صورة المسلم النموذجى ، فلم يعد الإسلام هو زهد [إحياء علوم الدين] المغربى فى إدارة الظهر للدين ، ولم يعد المسلم هو السلفى العاكف على إصلاح العقائد وحدها .. وإنما تبدى له الإسلام الذى يوازن بين الدين والدينيا ، والحضارة والمشعائر ، والتمرد وتطهير القلوب ، الإسلام المجاهد فى سبيل إصلاح دنيا المسلمين ، التى هى السبيل لإصلاح أخراهم ! .

(١) رشيد رضا [تاريخ الأستاذ الإمام] ج١ ص ٨٤ . ٨٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م .

(٢) المصدر السابق . ج١ ص ١٠١ .

ويتحدث الشيخ رشيد عن هذا الانقلاب الذى أصاب حياته . وهو لما يزل طالبا للعلم فى طرابلس . فيقول : « ... تم لى رأيت فى محفوظات والدى بعض نسخ [العروة الوثقى] فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء . اتصل بى فأحدث فى نفسى من الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بى من طور إلى طور ومن حال إلى حال ... كان الأثر الأعظم لتلك المقالات الإصلاحية الإسلامية . وبليه تأثير المقالات السياسية فى المسألة المصرية . والذى علمته من نفسى ومن غيرى ومن التاريخ أنه لم يوجد لكلام عربى فى هذا العصر ولا فى قرون قبله بعض ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب . والإقناع من العقل . ولا أحد للبلاغة إلا هذا ؟ ! »^(١)

لقد تعلم من [العروة الوثقى] « أن الإسلام ليس روحانيا أخويا فقط . بل هو دين روحانى جسمانى . أخروى دنيوى . من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة فى الأرض بالحق . ليكون خليفة الله فى تقرير المحبة والعدل ! »

وهو يمضى مصورا معالم ذلك الانقلاب الذى حدث له . فيقول : ولقد « أحدث لى هذا الفهم الجديد فى الإسلام رأيا فوق الذى كنت أراه فى إرشاد المسلمين . فقد كان همى قبل ذلك محصورا فى تصحيح عقائد المسلمين . ونهيم عن المحرمات . وحتم على الطاعات . وتزهيدهم فى الدنيا ... فتعلقت نفسى بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية . والمحافظة على ملكهم . ومباراة الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات . وجميع مقومات الحياة . فطلقت أستعد لذلك استعدادا .. »^(٢)

ومذ ذلك التاريخ تأقت نفسه لإقامة الصلة بينه وبين جمال الدين الأفغانى - الذى كان يعيش فى الآسنانه - والإمام محمد عبده - الذى كان قد عاد إلى مصر - .. فكتب للأفغانى كتابا بليغا . امتلأت عباراته بشحنات الإكبار والإعجاب والتمجيد^(٣) .. ثم سئحت له الفرصة فلقى الشيخ محمد عبده مرتين . لقاء عابرا . أولاها عندما ذهب الإمام لزيارة «المدرسة الخاتونية» بطرابلس .. والثانية عند زيارته لطرابلس . مصطافا . وبصحته القانونى المصرى البارز أحمد فتحى باشا زغلول . وفى هذين اللقائين عبر الشيخ رشيد للأستاذ الإمام عن إعجاب به وبالأفغانى . وعن تأثير [العروة الوثقى] فى التحول الذى حدث له . وكيف

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ٩٩٦ . ٣٠٣ .

(٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٨٤ . ٨٥ .

(٣) المصدر السابق . ج ١ ص ٨٥ - ٨٧ .

انتقلت به من طور إلى طور ، فأخرجته من قوقعة «التنسك الصوفى» إلى رحاب «الإسلام المصلح»^(١) ، على نحو ما صنع الأفغانى بالشيخ محمد عبده عندما تقابلا ، بمصر ، فى مطلع سبعينات القرن التاسع عشر؟! ..

ولم يفكر رشيد رضا فى السفر إلى «الآستانة» ليتلمذ على الأفغانى ، فلقد كان يعلم أن المناخ هناك قاتل للإبداع والطموح .. فلما توفى الأفغانى سنة ١٣١٤ هـ سنة ١٨٩٧ م نشأت لديه فكرة الهجرة إلى مصر ، كى يتخذ من الشيخ محمد عبده أستاذا ، وليكون موقعه منه كموقع محمد عبده من جمال الدين ! .. فأخذ يعد عدته للسفر ، فادخر من أجره عن تحرير «الحجيج» و«العقود» نفقات رحلته - كما يقول - ثم تسلل إلى إحدى السفن الناهبة إلى الاسكندرية فوصلها مساء الجمعة ٨ رجب سنة ١٣١٥ هـ أول ديسمبر سنة ١٨٩٧ م .. ومنها قام برحلة إلى «طنطا» «فلنصورة» «فدمياط» «فطنطا» - ثانية - ثم وصل القاهرة يوم السبت ٢٣ رجب سنة ١٣١٥ هـ - ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٧ م .. وفى اليوم التالى ذهب لزيارة الأستاذ الإمام^(٢) ..

وفى القاهرة وضع الشيخ رشيد قدمه على طريق تحقيق ما بنفسه من طموحات وآمال .. وكما يقول : «فلقد كنت أعتقد أن استعدادى كله يبقى ضائعا إذا بقيت فى سورية ، وأنه لا يمكن أن يظهر هذا الاستعداد بالعمل إلا فى مصر ، لما فيها من الحرية المفقودة فى البلاد العثمانية ..»^(٣)

وفى طموحات الشيخ رشيد ومشروعاته الإصلاحية كان الحدث الذى هز كيانه وحول اتجاهه وهياً له الاكتشاف الصادق لحقيقة الإسلام - حدث [العروة الوثقى] - ماثلاً فى ذهنه .. فهذه المجلة ، التى أحدثت فى المسلمين أثرا غير مسبوق فى زمنها وما تقدمه من قرون ، قد جاءت ثمرة لصحبة محمد عبده للأفغانى ، وتتلذذه عليه ، وزمائله له .. فلتنكن [المنار] - وهى المجلة التى يطمح فى إصدارها - هى [العروة الوثقى] الجديدة ، وليكن هو «ترجمان أفكار» الأستاذ الإمام .. فلا بد للإصلاح الإسلامى من زعيم تثق به الأمة ، وهو الآن محمد عبده ، ولا بد لهذا الإصلاح من ترجمان ، فليكن هو هذا الترجمان ، ولتنكن [المنار] هى الامتداد الجديد ، والمعدل ، [للعروة الوثقى] ! ..

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٩٠ .

(٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٩٩٨ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠٠١ .

وفى لقائه بالأستاذ الإمام - فى ٦ شعبان سنة ١٣١٥ هـ ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٧ م - عرض عليه مشروعه ، فباركه ، بعد أن استوتق أن المجلة « ستبحث فى موضوع مرض الأمة وضعفها ، وفى معالجتها بالتربية والتعليم ونشر الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والأفكار الفاسدة التى فشت ، كالحبر والخرافات » ... وأن لدى صاحب المشروع القدرة المالية على الإنفاق عليه عاما أو عامين حتى يستقر ويحلب الأرباح التى تضمن له الاستمرار لقد قال له الأستاذ الإمام :

- إن كان هكنا فهو حسن . وهذا أشرف الأعمال وأفضلها . وأنا إذا كنت على ثقة من مشرب هذه الجريدة فىنى أساعدها بكل جهدى .
فأجابه الشيخ رشيد :

- إنى أعاهدكم على أن أكون معكم كالمرید مع أستاذه - على نحو مما يقول الصوفية - ولكنى أحفظ لنفسى شيئا واحدا أخالفهم فيه ، عن : أن أسأل عن حكمة مالا أعقله . ولا أقبل إلا ما أفهمه ، ولا أفعل إلا ما أعتقد فائدته .

فقال له الإمام :

- هذا ضرورى لابد منه ! ..»

وفى لقاء تال - فى ٦ شعبان سنة ١٣١٥ هـ ٦ يناير سنة ١٨٩٨ م - طلب الإمام من الشيخ رشيد :

- ١ - أن لا تتحيز الجريدة لحزب من الأحزاب ..
- ٢ - ولا تهتم بالرد على ذام أو منتقد ..
- ٣ - ولا تحدم أحدا ممن يسميهم الناس «كبراء» .. تستخدمهم ، نعم .. لكنها لا تكون فى خدمتهم ! ..

ووافق الشيخ رشيد .. وصدر [المنار] فى ٢٢ شوال سنة ١٣١٥ هـ ١٧ مارس سنة ١٨٩٨ م .. ليوصل رسالة [العروة الوثقى] .. مع مراعاة الزمان والمكان والظروف والملايسات .. وليركز على الإصلاح الدينى ، وربط الشريعة بالواقع المتطور ، وتطهير العقيدة من الخرافة ، وتحرير العقل من جمود التقليد ، وعقد المصالحة والإخاء بين الدين والعلم ، والعقل والنقل ، والإسلام والتمدن .. الخ .. الخ .. وبلغ فى ذلك ، على امتداد عمره الذى

امتد حتى سنة ١٣٥٤ هـ سنة ١٩٣٥ م ، ما لم يبلغه منبر إسلامي شهدته الأمة في ذلك التاريخ ... لقد كان . بنحو ، «ترجمان أفكار» الأستاذ الإمام ، أي المنار لأعظم تيارات التجديد الإسلامي في العصر الحديث . وكان «المشكاة» الذي أضاءت من خلالها أنوار العبقرية التجديدية للشيخ محمد عبده ، ولولاه لخبث في عقل الرجل نيرانه وأنواره على حد سواء ! .. ففضل الشيخ رشيد يتعدى حدود التعبير عن حركة التجديد التي مثلها الإمام محمد عبده ، ويتمثل ، أيضا ، في قلدح زناد هذا الفكر المحدد للإمام ، وتفجير بناييعه ، وتهيئة السبل والمناسبات وخلق الدواعي لاستمرار تدفقه .. هذا إلى الإسهام الجاد والخلاق في هذا التجديد ..

ولقد كان طبيعيا أن يخارب [المنار] معارك الأستاذ الإمام ضد خصومه .. وأن تصيب صاحبه سهام المصوبة للأستاذ الإمام ... فحاولوا التفريق بينه وبين الإمام ، فلما فشلوا هموا بإخراجه من مصر ، حتى لقد أوعزوا إلى الدولة العثمانية أن تسندعيه بحجة أنه متخلف عن تأدية الخدمة العسكرية^{١٢} .. وكادوا ينجحون لولا أن أثبت الرجل بالوثائق أنه قد تمتع بالإعفاء لطلبه العلم أولا ، تم لبلوغه مرتبة العلماء المشتغلين بتدريس العلم بعد ذلك ! ..

وعندما حانت منية الأستاذ الإمام سنة ١٣٢٣ هـ سنة ١٩٠٥ م كانت قد رسخت في الأذهان حقيقة سلم بها الجميع ، وهي : أن مكانة الشيخ رشيد من الأستاذ الإمام هي مكانة الإمام من أستاذه الأفغاني . وأنه هو رأس حركة الإصلاح الديني من بعده ، وأبرز تلاميذه العاملين في هذا الميدان .. بل لقد عبر الأستاذ الإمام ، تلميحاً ، عن هذه الحقيقة في الآيات التي نظمها وهو على فراش الموت ، عندما صور رسالته الإصلاحية ومكان الشيخ رشيد ، باعتباره «مرشدا رشيدا» يأمل الإمام أن يواصل السير بعده على طريق الإصلاح الديني .. فقال :

ولست أبالي أن يقال محمدٌ
ولكن دينا قد أردت صلاحه
وللناس آمال يُرَجِّون نيلها
فيارب إن قدرت رُجعي قريبة
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا
يماثلني نطقاً وعلماً وحكمةً
أبَلِّ أواكتظت عليه المآتم
أحاذر أن تقضي عليه العمام
إذا مِتَّ ماتت واضمحل عزائم
إلى عالم الأرواح وانفضَّ خاتم
رشيداً يضيئ النجى والليل قائم
ويشبه مني السيف ، والصيف صارم^(١)

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ١٠٢٦ . ١٠٢٧ .

مضى الشيخ رشيد . بعد وفاة الأستاذ الإمام . ناهضا بالريادة في ميدان الإصلاح الديني .. وكانت علاقته قد توثقت بتلاميذ الإمام محمد عبده من أقطاب الفكر والصحافة والسياسة بمصر .. وأيضا بكوكبة من أبرز الزعماء والمفكرين العرب والمسلمين الذين اتخذوا مصر موطنًا لنضالهم بعد أن لجأوا إلى الهجرة فرارا من اضطهاد آل عثمان . بالشرق . والاستعمار الفرنسي . بالمغرب ... وواصل [المنار] دورة كساحة للفكر التجديدي الإسلامي .. لكن إنفراد الشيخ رشيد بالعمل في الحقل الإسلامي . بعد وفاة أستاذه . فد طبع فكره وممارساته بقسمتين لم تكونا ملحوظتين عندما كان يعمل في ظل شخصية الشيخ محمد عبده وفكره ..

● فالتكوين السلفي النصوصي المبكر للشيخ رشيد ، والذي يهتم أصحابه « بالمتقول » أكثر مما يهتمون « بالمعقول » - وهو الذي تربى عليه الشيخ رشيد مبكرا - والذي كان قد توارى ، مفسحا المجال للموقف المتوازن ، الذي يوازن بين « المنقول » و « المعقول » ، والذي يجعل العقل حكما وحكما في فقه المأثورات والفصل في تناقضاتها - هذا التكوين السلفي النصوصي القديم عاد فبرز في فكر الشيخ رشيد عندما تحررت أفكاره من تأثير الأستاذ الإمام ! .. وبرز ذلك في الأجزاء التي فسرنا من القرآن الكريم بعد وفاة الأستاذ الإمام .. فالذين يقارنون ، في [تفسير المنار] بين ما للإمام محمد عبده وما للشيخ رشيد يرون الفرق واضحا وجليا بين التفسير « بالمعقول » و « الدراية » ، عند الإمام . وبين التفسير « بالمتقول » و « الرواية » ، عند الشيخ رشيد .. ! ..

وكذلك الحال في المعارك الفكرية التي خاضها صاحب [المنار] .. لقد تحول يمينا - إذا جاز التعبير - بعد وفاة أستاذه .. ويكنى أن نتذكر أنه - في حياة الإمام - وقف مع دعوة قاسم أمين [١٨٦٥ - ١٩٠٨] لتحرير المرأة ... على حين اتخذ من كتاب الشيخ علي عبد الرازق [١٨٨٨ - ١٩٦٦ م] عن [الإسلام وأصول الحكم] موقفا حادا وشديدا العداء ! ..

● والقسمة الثانية التي تميز بها فكره وطبعت ممارساته . بعد وفاة أستاذه . هي الميل الملحوظ للانغماس في العمل السياسي .. فلقد أفاض في معالجة قضايا « الخلافة » ، و « علاقة العرب الأتراك » ، و « المسألة الشرقية » ، و « التدخل الاستعماري الغربي في الشرق العربي والإسلامي » . كما كان له موقف بصير من « الخطر الصهيوني » على فلسطين والوطن العربي ... وفي الممارسة السياسية وجدناه قطبا من أقطاب [حزب اللامركزية] الذي تألف من مجاهدي الشرق العربي لإبراز الكيان العربي في الإطار العثماني . وهو الحزب الذي تألف

بالقاهرة سنة ١٩١٢ م ... ووجدنا العلاقات الوثيقة بينه وبين حركة الشريف حسين بن علي [١٨٥٦ - ١٩٣١ م] لتأسيس دولة عربية مستقلة عن العثمانيين .. حتى لقد ذهب إلى سورية عندما أعلن أهلها استقلالها تحت حكم الملك فيصل بن الحسين [١٨٨٣ - ١٩٣٣ م] وانتخب رئيسا للمؤتمر السوري فيها ، ولم يغادرها إلا عندما أجهض الاحتلال الفرنسي هنا الكيان العربي سنة ١٩٢٠ م .

ووجدناه ، كذلك ، داعية من دعاة الإصلاح الدستوري للدولة العثمانية ، يزور الشام ، ويخطب للإصلاح من فوق منبر الجامع الأموي بدمشق عقب إعلان الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م ، حتى لقد فجرت خطبه الصراع بين أعداء الإصلاح ، وأنصاره . الأمر الذي اضطره للعودة إلى مصر ! ..

كما رأينا رحلاته إلى الحجاز ، والعراق ، والهند وثيقة الصلة بالإصلاح السياسي ممزوجة بالإصلاح الديني .. وذلك غير رحلته التي حجج فيها إلى بيت الله الحرام سنة ١٣٣٤ هـ سنة ١٩١٦ م .. ناهيك بعلاقاته الوثيقة بالحركة الوهابية وزعيمها الملك عبد العزيز بن سعود [١٨٨٠ - ١٩٥٣ م] وكتابه عن [الوهابيون والحجاز] شهير ! ..

لقد برز الطابع السياسي في دعوته الإصلاحية ، وأخذت السياسة الدولية ، بصراعاتها وتوازنات قواها ، تجد لها مكانا بارزا على صفحات [المنار] .. من الثورة البلشفية ، إلى المسألة الليبية ! .. مرورا بالهند ومراكش والحجاز .. الخ .. الخ .. وهو طابع لم يكن بهذا الوضوح على عهد صحبته للأستاذ الإمام .. بل إن الشيخ رشيد يكتب عن هذا التحول في افتتاحية المجلد الثاني عشر من المنار سنة ١٣٢٧ هـ سنة ١٩٠٩ م ، أى بعد أربع سنوات من وفاة الأستاذ الإمام ، فيقول : «سلمنا السياسة فساورت وواثبت ! وأسلسنا لها فجمحت وتفحمت ! وكناهم بها في بعض الأحيان ، فيصدف بها عنا الأستاذ الإمام ؟ ! ولم نتل منها مانهوا ، إلا بعد أن اصطفاه الله ! !»^(١)

فكما كان [المنار] أوسع ميادين الإصلاح الإسلامي ، دينيا وسياسيا ، في عصره .. كذلك كان صاحبه علما بارزا في هذا الميدان ، لفكره الأنصار ، ، وأيضا الخصوم ، في طول البلاد العربية الإسلامية وعرضها ..

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ١٠٢٣ .

لكن جهود الرجل الفكرية لم تقف عند هذا الانجاز العملاق - [المنار] - إذ قدم للمكتبة العربية الإسلامية العديد من الكتب ، تأليفا ، وتحقيقا وتصحيحا وطبعاً ، فمن مؤلفاته :

[تفسير المنار] - في اثني عشر مجلدا ، فسر فيها اثني عشر جزءا من أجزاء القرآن .. وضمنه تفسير ما فسر الإمام محمد عبده من القرآن الكريم - . و [تاريخ الأستاذ الإمام] - في ثلاث مجلدات - . و [الوحي المحمدي] . و [شبهات النصارى وحجج الإسلام] . و [عقيدة الصلب والفداء] . و [المسلمون والقبط والمؤتمر المصري] . و [محاورات المصلح والمقلد] . و [الوهابيون والحجاز] . و [ذكرى المولد النبوي] . و [الخلافة ، أو الإمامة العظمى] . و [نداء للجنس اللطيف] . و [يسر الإسلام وأصول التشريع] .. كما أشرف على طبع الآثار الفكرية للأستاذ الإمام ، وأعاد ، في [المنار] ، نشر أغلب مقالات [العروة الوثقى] .. وكذلك أشرف على تحقيق وطبع العديد من الكتب التراثية ، من مثل :

[تفسير ابن كثير] ، و [تفسير البغوي] ، و [العلم الشامخ في إيتار الحق على الآباء والمشايخ] للمقبلي ، و [شرح عقيدة السفاريني] لابن قدامة ، و [المغنى في شرح مختصر الخرقى] ، و [دلائل الإعجاز] للجرجاني ، [انجيل برنابا] .. الخ .. الخ ..

لقد امتدت الحياة بهذا المصلح الكبير ثلاثة وثمانين عاما .. منها خمسون عاما امتلأت بالفكر والممارسة على طريق الإصلاح ، منذ أن جاء إلى مصر وصحب أستاذه الإمام محمد عبده .. حتى إذا حان الأجل لبت نفسه الزكية نداء بارئها ، في حادث سيارة ، كانت عائدة به إلى القاهرة من مدينة السويس ، ففاضت روحه في ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٥ هـ ٢٥ إبريل سنة ١٩٣٥ م ، وذلك بعد أن أدت حق الله ورسوله في تجديد الدين وطلب القوة والمنعة والسعادة للإسلام والمسلمين ، وذلك حتى تتحقق «للإنسان السيادة في الأرض بالحق ، ليكون خليفة الله في تقرير الحجة والعدل .. ولينهض المسلمون ليحافظوا على ملكهم ، متسلحين بالمدنية ، مسابقين الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة ..»

فذلك هو الإسلام ، كما كشفت [العروة الوثقى] عن وجهه المشرق للشيخ رشيد .. عليه رحمة الله !

- ٢٠ -

عبد الحميد بن باديس

[١٣٠٧ - ١٣٥٩ هـ - ١٨٨٩ - ١٩٤٠ م]

عودة الروح القومية إلى شعب جريح وعريق

حياته في سطور :

يرتفع نسب أسرته إلى المعز بن باديس الصنهاجي ، مؤسس «الدولة الصنهاجية» ، التي حكمت مملكة «القيروان» ، في شمالي إفريقيا ، بعد دولة «الأغالبة» .. ولقد اشتهرت أسرته بمكانتها العلمية والأدبية والمالية في مدينة «فسنطينة» الجزائرية ، وكان والده من الشخصيات ذات الاحترام عند السلطات الفرنسية في الجزائر .

« ولد بمدينة «قسنطينة» في ١١ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ هـ ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٩ م وعاش حتى ٨ ربيع أول سنة ١٣٥٩ هـ ١٦ إبريل سنة ١٩٤٠ م حيث توفي في ظروف غير طبيعية ، دعت البعض إلى القول بأنه قد مات مسموماً .

« كانت له ثروة استعان بها في حياته النضالية .. وكانت جهوده أعظم من بنيتة الضعيفة ، وعوضت الفرق بينهما إرادة شديدة الصلابة والتصميم .

« درس أول ما درس في «قسنطينة» علوم اللغة العربية والإسلام ، ثم رحل ، وهو في التاسعة عشرة من عمره (سنة ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م) ، إلى جامعة «الزيتونة» - رغم أنه لم يكن يستغ منهج التدريس بها - وفيها أخذ العلم عن كثيرين في مقدمتهم الشيخ «محمد النخلي» والشيخ «طاهر بن عاشور» .

« من شيوخه الذين درس عليهم بالجزائر الشيخ «حمدان الونيسي» الذي أخذ على ابن باديس عهداً ألا يعمل موظفاً بالحكومة الاستعمارية في يوم من الأيام؟! وظل ابن باديس يأخذ هذا العهد على من يتخيره من التلاميذ والمريدين فيما بعد؟! !

« سافر إلى الحجاز سنة ١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م ، وكان قد سبقه - مهاجراً إليها - شيخه «حمدان الونيسي» ، فالتقى به فيها .. وتعلم أيضاً على الشيخ «حسين أحمد الهندي» .. وفي رحلته الحجازية هذه عرض على مشايخه أمر بقائه في الحجاز أو عودته إلى الجزائر؟

فأشار عليه «الونيسي» بالإقامة الدائمة في المدينة المنورة ، بينما نصحه الشيخ «حسين أحمد المهدى» بالعودة إلى وطنه ، والاجتهاد في خدمة القضية التي تشغل باله - خدمة العروبة والإسلام - بقدر ما يستطيع ... ووافق هذا الرأي ميله ورغبته ، فقد كان عزوفاً عن هجر الوطن والهجرة منه ، وقال : «نحن لانهاجر ، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية في هذا الوطن ..» .

* في المدينة المنورة ، وقبل العودة إلى الجزائر ، أخذ يفكر في الخطوط العريضة لرحلته النضالية بعد العودة إلى الجزائر ، وفي لقاءاته فيها بالشيخ «الشير الإبراهيمي» اتفقوا على ضرورة تربية جيل من العلماء والمثقفين ينهض بمهمة إعادة الجزائر إلى «العروبة والإسلام والقومية» .. جيل يمتلك «فكرة صحيحة ولو مع علم قليل» ، وكتيبة معدة لمهمة محددة هي مهمة وضع الوطن الجزائري على الطريق إلى الاستقلال ، وتسليمه لجيل جديد يواصل رحلة النضال بالسلاح .

* عاد إلى الجزائر سنة ١٣٣١ هـ ١٩١٣ م ، وقضى بها ثمانية عشر عاماً في إعداد العدة وتكوين النواة التي تبلورت في قيام (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) في ١٧ ذى الحجة سنة ١٣٤٩ هـ ٥ مايو سنة ١٩٣١ م .. التي نضج تيارها الفكري وولد هيكلها التنظيمي من خلال لقاءات المثقفين الجزائريين في «نادى الترقى» بالعاصمة الجزائر ، فتكونت بعد مؤتمر ، حضره علماء الجزائر وفقهاؤها ، دام أربعة أيام ، وانتخب ابن باديس - في غيابه - رئيساً لها ... وكان قيامها هو الرد الجزائري العربي الإسلامي على الاحتفالات الصاخبة المجنونة التي أقامها الفرنسيون احتفالاً بمرور قرن من الزمان على بدء احتلالهم للبلاد .

* بعد عودة ابن باديس للجزائر نهض بتنفيذ برنامج تعليمي وثقفي وإصلاحى كبير ... فكان يلقي «بقسنطينة» دروسه في «مسجد سيدى قوش» وفي «الجامع الكبير» ، وعندما منعه الحكومة الفرنسية ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م من التدريس في «الجامع الكبير» ، تحول إلى التدريس في «الجامع الأخضر» ، وكان التدخل الفرنسى هذا بناء على طلب المفتى الموالى للفرنسيين . وكانت دروسه في «مسجد سيدى قوش» تبدأ بعد صلاة الفجر .. ثم يقضى النهار في تعليم أطفال المدينة القرآن والعربية والدين .. وفي المساء تبدأ دروسه للكبار والكهول في «الجامع الكبير» أو «الجامع الأخضر» .. وكثيراً ما كان يسافر بعد الفراغ من

دروسه الليلية - في برنامج أسبوعي شبه منتظم - لدروس يلقيها في «الجزائر العاصمة» و«وهران» و«تلمسان» .

* من سنة ١٣٣١ هـ ١٩١٣ م حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٦ هـ ١٩١٨ م كانت قد تكونت من حوله مجموعة من التلامذة والمريدين والأنصار بلغت الألف عدداً؟! .. كل ذلك بواسطة التعليم واللقاء المباشر ، فلقد كان الرجل يتحدث عن نفسه بأنه لا يؤلف الكتب وإنما يريد صنع الرجال؟! .

* كان اعتماد فرنسا الأساسى على رجال الطرق الصوفية - (الطريقة) - ورجال الدين الرسميين .. ولقد بدأ ابن باديس حملته العلنية ضد الطرق الصوفية سنة ١٣٤٣ هـ ١٩٢٥ م ، وبسببها تعرض للاغتيال في سنة ١٣٤٥ هـ ١٩٢٧ م وهو عائد إلى بيته في منتصف الليل بعد فراغه من إلقاء درسه في تفسير القرآن ، ولكن المحاولة فشلت ، وألقي القبض على الجاني بواسطة أعوان ابن باديس . ولكنه عفا عنه ! .

* كان يقول الشعر ويضمنه أفكاره السياسية ، وشاعريته متوسطة الجودة إذا قيست بمقاييس العربية بالجزائر في ذلك التاريخ .

* منذ سنة ١٣٤٣ هـ ١٩٢٥ م بدأت مشاركته في العمل الصحفي ، فشارك في تأسيس جريدة (النجاح) ثم تركها... وفي سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٦ م أصدر جريدة (المنتقد) وتولى رئاسة تحريرها ، ولقد ألغتها الإدارة الفرنسية بعد أن أصدر منها ثمانية عشر عدداً فقط؟! .. وبعد إلغائها أصدر (الشهاب) في لهجة أخف من لهجة (المنتقد) مع اهتمام أكثر بالجوانب الدينية ، والتزام بخطه الفكرى الذى لا يجيد عنه .. وكانت (الشهاب) في البدء أسبوعية ، ثم صارت تصدر شهرية ، واستمر يصدرها حتى وفاته سنة ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠ م . كما أصدر صحفاً أخرى لم تعمر طويلاً ، بسبب اضطهاد الفرنسيين لها ، مثل (الشرعية) و(السنة المحمدية) و(الصراط) .

* كان ابن باديس سلفياً ، يرى في الإسلام ، كما يتمثل في منابعه النقية الأولى طوق النجاة للجزائر من الشعوذة والخرافة التى صارت عقيدة الطرق الصوفية ورجال الدين الرسميين ، الذين أصبحوا خدماً للاستعمار الفرنسى ... وهو يعد الامتداد الجزائرى لمدرسة جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده مجتمعين ، ولقد أكمل للقرآن تفسيراً نهج فيه نهج الشيخ محمد عبده في التفسير ، وأسماه (مجالس التذكير) ..

« جمع الإخوة الجزائريون كتاباته ، وطبعت أخيراً في مجلدات أربعة طبعتها دار الحياة في بيروت .. (١) »

* * *

« القرن الحالك الظلام » :

إذا قيل للناس : إن ابن باديس قد استحق وصف العبقرية والنضال والثورية ، وبلغ في هذا السبيل مراتب الفدائيين الذين خاضوا معاركهم بعزيمة الشهداء .. إذا قيل ذلك للناس ، ثم قدمت إليهم أعماله كمجرد مفكر إسلامي سلفي المنهج ، يدعو إلى العروبة والقومية ويدافع عن الإسلام .. فأغلب الظن أن الناس لن يقتنعوا باستحقاق ابن باديس لكل هذه الصفات .. ذلك لأن الموقف السلفي ، والدعوة إلى العروبة ، والدفاع عن الإسلام ، قد شارك ابن باديس في الدعوة إليها - بل وفاقه فيها - أناس كثيرون في مختلف أقطار العالم العربي دون أن يتحلوا بكل هذه الأوصاف .

لكن الأمر الذي يجعل من استحقاق ابن باديس لكل هذه الصفات ، ولما هو أكثر منها حقاً وأمراً طبعياً ، هو النظر إلى الرجل وإلى أعماله ومواقفه وأفكاره هذه في ضوء الظروف والملايسات التي عاش فيها هو وشعبه الجزائري ، وكذلك إبصار الأهداف التي أثمرتها هذه الأعمال التي ربما بدت بسيطة وعادية في غير المجتمع الذي عمل فيه ابن باديس ، والتي كانت ضرباً من العبقرية والإعجاز في المجتمع الجزائري تحت احتلال الفرنسيين ...

إبادة واستيطان :

ذلك ان الاحتلال الفرنسي الذي بدأ للجزائر بوصول الحملة المسلحة إلى ميناء سيدي فرج في ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٤٥ هـ - ١٤ يونيو سنة ١٨٣٠ م ، لم يكن مجرد عمل استعماري من النوع الذي شاع في كثير من أنحاء آسيا وإفريقيا بواسطة الإمبرياليين الأوروبيين ، بحثاً عن

(١) انظر في ذلك كله : مجلة (الشهاب) ود . محمود قاسم : الإمام عبد الحميد بن باديس ، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، طبعة دار المعارف بمصر ، ود . زاهر رياض : استعمار افريقية ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ ، محمد عمار : الأمة العربية وقضية التوحيد ط . القاهرة ١٩٦٦ .

مصادر الثروة ، وموادها الخام ، والأيدى العاملة الرخيصة ، والأسواق التجارية المفتوحة .. وإنما كان عملاً آخر تلتخص أهدافه في كلمتين : الإبادة لسكان البلاد الأصليين .. وتوطين الأوروبيين في الجزائر ، لتكون الامتداد اللاتيني عبر البحر المتوسط ، والتجسيد الإمبريالي المعاصر للحلم الصليبي الإقطاعي في العصر الوسيط ..

وهذا التخطيط الفرنسي لم يكن سرّاً يخفيه هؤلاء الفاتحون. فلقد عبّر عنه صراحة المفكر الصهيوني «ماكس نوردو» (١٨٤٩ - ١٩٢٣) بقوله : «إن شمال أفريقيا سيكون مهجراً ومستوطناً للشعوب الأوروبية ، وأما سكانه الأصليون فسيذفون نحو الجنوب ، إلى الصحراء الكبرى ، إلى أن يفنوا هناك»^(١) .. كما عبر عنه المفكر الاستعماري الفرنسي «سايسيمون دي» عندما كتب عن الجزائر في بدء احتلالها سنة ١٨٣٠ م يقول : إن هذه المملكة الجزائرية ستصبح بلداً جديداً يتدفق إليه الفائض من السكان ومن نشاط أبناء فرنسا»^(٢).

ولم يكن طريق الفرنسيين نحو تحقيق أهدافهم هذه سهلاً ولا خالياً من العقبات الكبار ، فعملية الاحتلال العسكري ذاتها قد استغرقت منهم سبعة عشر عاماً كاملة من الحرب والقتال .. حقيقة هم احتلوا عاصمة البلاد في ٤ يوليو سنة ١٨٣٠ م ، وتحقق لهم تقهقر الجيش التركي العثماني واستسلامه قبل الخامس من نوفمبر في نفس العام .. ولكن سنوات خمسة تمر عليهم دون أن يتجاوز احتلالهم مدناً ثلاثة تتفرق على ساحل البلاد في الشمال ، فيضطرون في ١٦ شوال سنة ١٢٤٩ هـ ٢٦ فبراير سنة ١٨٣٤ م إلى التعامل مع أمير البلاد عبد القادر الجزائري ، (١٢٢٢ - ١٣٠٠ هـ ١٨٠٧ - ١٨٨٣ م). والاعتراف بسلطان حكمه على داخل البلاد كلها .. ولكن القتال يتجدد في العام التالي ويستمر حتى سنة ١٢٥٣ هـ ١٨٣٧ م ليتوقف ثانية حتى يتجدد مرة أخرى في سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٤٠ م ليستمر في صورة بشاعتها منقطعة النظر ، لما فيها من الإبادة الجماعية للعنصر الوطني بإحراق القرى وتدمير معالم البلاد وآثار الإنسان فيها ، حتى تم لهم الأمر بتسليم الأمير عبد القادر في ذى القعدة سنة ١٢٦٣ هـ نوفمبر سنة ١٨٤٧ م .

وعندما تحققت للفرنسيين هذه الخطوة الأولى ، وارتفع علمهم على الوطن الجزائري - بل حتى قبل تمام هذه الخطوة - بدأت خططهم توضع في الممارسة والتطبيق .. وبلوغاً إلى تحقيق هذه الخطوة وتلك الأهداف ساروا في طرق ثلاث ، متوازية ، ومتشابكة ، تكمل كل منها

(١) الأمة العربية وقضية التوحيد ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٥ .

الأخرى ، وتفضى جميعاً إلى تحقيق الإبادة للعنصر الوطني وتوطيئ الأوروبين في هذه البلاد .. وهذه الطرق هي :

أولاً : التقسيم الإدارى الجديد .. الذى يتيح لهم إحكام القبضة مباشرة على مقدرات البلاد .. فقسموها إلى ولايات (عمالات) ثلاث ، على رأس كل ولاية منها موظف فرنسى يتبع وزير الداخلية الفرنسية في باريس ، وذلك تعبيراً عن التبعية المباشرة والاندماج التام في فرنسا ، «الوطن الأم» ، وباعتبارها أرضاً فرنسية ، بشكل كامل ، من الناحية القانونية ، وليست مجرد مستعمرة ، ولذلك كانت هذه التبعية لوزارة الداخلية لا لوزارة المستعمرات ! . ولقد طبق الفرنسيون هذا النظام الإدارى في سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م بعد فترة من الحكم العسكرى الذى مارسه الجيش الغازى ، واستمر هذا الحكم العسكرى لمنطقة الجنوب الجزائرى (جنوب جبال أطلس) .. ويبدو أن رفع القبضة العسكرية عن الولايات الشمالية الثلاث إنما كان لمصلحة المستوطنين الأوروبين الذين كانت قد ظهرت بوادر سيطرتهم على شمال البلاد في سنة ١٨٧٠ م بينما استبقيت قبضة هذا الحكم العسكرى على الجنوب الذى قرر الاستعماريون سلفاً أن يدفعوا إليه العنصر الوطنى ، والسكان الأصليين «حتى يفنوا هناك» ؟ ! .

وثانياً : عمليات النهب الاقتصادى التى بدأت حتى قبل أن تستقر للغزاة أمور الغزو والاحتلال ... والناظر إلى بشاعة الوقائع والإجراءات التى صنعها الفرنسيون على هذا الطريق تتجسد أمامه في جلاء ووضوح تلك الحقيقة التى قلنا إنها كانت الهدف ، وهى الإبادة الكاملة لهؤلاء السكان الأصليين .

« فعندما أسلم القائد الفرنسى الغازى «بومون» زمام القيادة إلى خلفه الجنرال «كلوزن» بدأ هذا الجنرال تنفيذ خطة لإحلال الأوروبين محل الجزائريين في حيازة مصادر الثروة في البلاد ، وبالذات أرضها الزراعية الخصبة .. فأقام خطأً ملاحياً بين ميناء مرسيليا وبين الجزائر يعمل بنشاط في نقل العناصر الفقيرة والمعذمة والمغامرة من أبناء فرنسا وأسبانيا وإيطاليا ومالطة لتوطيئها في البلاد .. وأرسلوا من يجمع ويتسوق مثل هذه العناصر من «حوض الراين» .. وجلبوا من خريجي إصلاحيات الأحداث الفرنسية خمسة وأربعين ألفاً . وأعطيت لكل هؤلاء الوافدين كافة الإمكانيات التى تتيح لهم انتزاع مقدرات البلاد الاقتصادية من أهاليها .. أعطيت لهم الأرض ، وأدوات الزراعة ، وأقيمت لمساعدتهم الشركات الزراعية المساهمة ،

ومن أجل ذلك بدأ الفرنسيون في مصادرة الأرض الجزائرية لحساب هؤلاء المستوطنين وكانت أولى إجراءات المصادرة خاصة بتملكات الحاكم الجزائري السابق - «الداي» - وممتلكات الأتراك العثمانيين هناك ..

« وفي سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٤٠ م أصدر الجنرال «بوجو» أول قرار يتزع «لحساب الفرنسيين» ملكية الأرض من السكان العرب الذين حملوا السلاح بشكل أو بآخر ضد جيش الاحتلال .

« وفي سنة ١٢٦٢ هـ ١٨٤٦ م أصدروا قراراً جديداً بمصادرة جميع الأراضي الخالية لحساب الفرنسيين ، وكذلك مصادرة الأراضي المأهولة بسكانها والتي يزرعها أصحابها إن هم عجزوا عن تقديم مستندات رسمية تثبت ملكيتهم لها في تاريخ سابق على محرم سنة ١٢٤٦ هـ يوليو سنة ١٨٣٠ م ؟ ! .. وفي مجتمع كالمجتمع الجزائري ، وفي ذلك التاريخ ، فإن هذا الشرط يعني وضع أغلب الأراضي الجزائرية تحت السلطة مباشرة ، وفي إطار الملكية الخالصة لسلطات الاحتلال .. ولقد كانت هذه المصادرة نتاجاً طبيعياً لتزايد عدد المستوطنين الأوروبيين الذين بلغ مجموعهم في تلك السنة أكثر من سبع وسبعين ألفاً منهم ٤٧,٤٧٤ فرنسياً و ٢١,٥٢٨ أسبانياً و ٨,٠٠٠ من إيطاليا وألمانيا ومالطة ؟ !

وفي العام الأول لاستقرار السلطة لفرنسا في البلاد (سنة ١٢٦٤ هـ ١٨٤٨ م) جلب الفرنسيون ١٢,٠٠٠ مستوطناً فرنسياً يعملون جميعاً في الزراعة ، وأعطيت لهم كل إمكانيات الاستيطان والاستغلال لأرض البلاد .

« وفي سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥١ م أصدر الفرنسيون قراراً يضم إلى ملكية الدولة - (الفرنسية طبعاً) - أراضي الغابات والأحراش وما فيها من إمكانيات اقتصادية .. وفي نفس العام بلغت ممتلكات الفرنسيين من أرض الجزائر ١١,٧٠٠,٠٠٠ هكتار موزعة ما بين المستوطنين ، والبلديات وجهاز الدولة مباشرة ... وهي بالطبع أكثر الأراضي خصوبة في البلاد ..

« وفي سنة ١٢٧٦ هـ ١٨٧٩ م ، عندما فشلت إحدى الثورات الجزائرية ، وهي التي قادها «محمد المقراني» ، انتهر المستعمرون الفرصة ففرضوا على من شارك في هذه الثورة وبجاء من الإعدام ، غرامة قدرها ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ من الفرنكات ؟ ! ومن لم يستطع الدفع صودرت أرضه ؟ ! وبالطبع صودرت أرض الذين نفذت فيهم حكم الإعدام ؟ ! .. حتى لقد وصل الأمر إلى أن أصبح متوسط ما يمتلكه المستوطن الأوروبي من الأرض ١٠٨ هكتارات (أى ٢٦٦ فداناً) من أحصص الأراضي الزراعية بينما متوسط ما يمتلكه المواطن الجزائري من الأرض -

وأغلبها مراعى - ١٤٪ هتكاراً (أى $\frac{1}{6}$ فدان) ؟!! .. (١)

وثالثاً : تجريد الوطن الجزائرى والمواطن الجزائرى من كل الخصائص والقسمات المميزة له عن المستوطنين ، تلك التى تجعل له ذاتية قومية مستقلة ، وتشده إلى الماضى العربى والتراث الإسلامى ، وتضعه فى الإطار القومى للعروبة ، مهما كانت قدسية هذه القسمات وجلال هذه الخصائص ، بل لقد كانت الحملات تشدد ، والعداء يزداد ، والسحق لا يعرف الحدود كلما زادت الحرمة والقدسية لهذه الخصائص والقسمات ؟ !! ..

والفرنسيون - وصولاً إلى هدفهم هنا - شنوا منذ اليوم الأول لاحتلالهم البلاد حرباً لا يكاد يوجد لها مثيل فى التاريخ ضد اللغة العربية ، كلغة للجزائريين .. ولقد كانوا واضحين وحاسمين فى هذه الحرب ، فقالوا منذ ذلك التاريخ ، فى أحد التقارير الرسمية : «إن «إيالة» الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا (الفرنسية) هناك لغة قومية ، والعمل الجبار الذى يتحتم علينا إنجازه هو السعى وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالى بالتدرج إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الفصحى الدارجة بينهم الآن» ... وفى تقرير آخر كتبوه بعد عام من استقرار الوضع لهم سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٩ م عبروا عن جانب من تطبيقاتهم لمخططهم هذا ، وعن آمالهم فى الوصول إلى ما يبتغون ، فقالوا : «.. يجب ألا ننسى أن لغتنا هى اللغة الحاكمة ، فإن قضاءنا المدنى الجزائى والعقابى يصدر أحكامه على الغرب الذين يقفون فى ساحته بهذه اللغة.. وهذه اللغة يجب أن تصدر ، بأعظم ما يمكن من السرعة ، جميع البلاغات الرسمية ، وبها يجب أن تكتب جميع العقود ، وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا ؟ ! إن أهم الأمور التى يجب أن نعى بها قبل كل شىء هو السعى وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعمامة بين الجزائريين ، وبين الذين عقدنا العزم على استئثارهم إلينا ، وتمثيلهم بنا ، وإدماجهم فينا ، وجعلهم فرنسيين» . (٢)

ولذلك بادر الفرنسيون منذ اليوم الأول لاحتلالهم إلى إلغاء المدارس الجزائرية التى تعلم أبناء الشعب بلغته القومية ، فأغلقوا نحواً من ألف مدرسة ما بين ابتدائية وثانوية وعالية ، كان بالعاصمة وحدها منها مائة مدرسة ابتدائية ، وعدد من المدارس الثانوية ، وذلك إلى جانب مائة واثنين وثلاثين مسجداً تقام فيها حلقات التعليم والتدريس أبطل منها هذا النظام وشمله

(١) استعمار إفريقية ص ١٧٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٢) الأمة العربية وقضية التوحيد ص ٩٦ ، ٩٧ .

الإلغاء والتحریم وأحل الفرنسيون محل مؤسسات التعليم القومي هذه مدارسهم الفرنسية التي حرموا فيها دراسة العربية فضلاً عن التدريس بها ، وسجلت إحصاءات سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م أن عاصمة البلاد ليس بها سوى ثلاث عشرة مدرسة تدرس المناهج الفرنسية بلغة الفرنسيين .. ولذلك لم يكن غريباً أن تسجل الإحصاءات بعد قرن وربع القرن من الاحتلال (سنة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م) أن نسبة الأمية بين الجزائريين هي ٩١٪ وأن الذين يقرؤون العربية من بين مثقفي الجزائر هم ٢٠٠,٠٠٠ مواطن من بين شعب كل تعداده يومئذ عشرة ملايين ؟ ! .. (١)

بل إن هؤلاء الذين قرأوا بلغتهم القومية إنما صنعوا ذلك من خلال المعركة التي تحدى فيها الشعب مخطط أعدائه ، عندما فتح المدارس الأهلية ، أو أرسل أبناءه إلى الخارج ، وخاصة مصر والأزهر ، وبالذات عندما انتشرت المدارس العربية التي افتتحتها جمعية العلماء التي أسسها ابن باديس ، والتي بلغت في سنة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م ١٧٠ مدرسة تكلفت ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ من الفرنكات وبلغ عدد تلاميذها ٥٠,٠٠٠ من أبناء الجزائريين. (٢)

ذلك أن الموقف الفرنسي المعادى للعروبة ولغتها كان شديد الحسم كما قدمنا ، وكان أيضاً دائماً ومستمراً ، لم تهذب منه السنوات ولا التطورات ولا تعدد الحكومات التي تعاقبت على الحكم في باريس ، حتى لقد شهدنا وزير الداخلية الفرنسية «شوطان» ، يصدر في ٦ محرم سنة ١٣٥٧ هـ ٨ مارس سنة ١٩٣٨ م قراراً بمنع تدريس اللغة العربية بالمدارس الجزائرية واعتبارها لغة أجنبية (٣) .. كما سلكوا إلى هدفهم هذا سبيل التفرقة بين عنصرى الشعب الجزائرى العرب والبربر ، فأرادوا أن يحدثوا حركة التفاف حول رابطة الإسلام التي تجمع العنصرين وتوحدهما وذلك عن طريق إقامة داتية مستقلة للبربر حددوا نطاقها في : «الظهير (المرسوم) البربرى» الذى أصدره بعد انتصارهم على ثورة الأمير عبد الكريم الخطابى سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م .. (٤)

ولقد كانت عروبة الجزائر - ككل أجزاء العالم العربى - شديدة الارتباط ، إلى حد التلاحم ، مع الإسلام كحضارة وعقيدة ودين . وذلك لصلة العربية بالقرآن ، ولأن القرآن

(١) المرجع السابق ص ٩٧ ، ٩٨ ، والإمام ابن باديس ص ٧ .

(٢) استعمار إفريقية ص ٣٧١ .

(٣) الإمام ابن باديس ص ٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١١ .

قد كان ولا يزال سبباً لتعريب اللسان وإبراز مكانة العرب في الحفاظ على هذا الدين ، وللروابط التي يمثلها هذا الدين ، والتي تجمع بين الجزائر وسائر أقطار العالم العربي ، ولذلك كان الإسلام هو الآخر ، ولهذه الأسباب ، أحد الأهداف التي شن عليها الفرنسيون حرباً تشين الهمج والمتوحشين من البشر ، فضلاً عن المتمدنين الذين يعيشون في العصر الحديث ؟ !

فعندما بدأ الفرنسيون في سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م يحتفلون على نطاق واسع بمرور قرن على بدء احتلالهم للجزائر كانت بعثات التبشير التي كرسوا لها الأموال - أموال الجزائر - كى تحوّل أبناء البلاد عن دينهم ، في مقدمة الدوائر التي تعمل على قدم وساق في هذا السبيل ، وكانت لا تزال تخطط لمحو الإسلام من الجزائر وتعلن إصرارها على بلوغ هذا الهدف ، والكاردينال « لا فيجى » يصرّح في غمرة هذه الاحتفالات بقوله : « إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر ، وإن عهد الصليب قد بدأ ، وإنه سيستمر إلى الأبد ... وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدياً لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدينة منبع وحيها الإنجيل ؟ ! » .^(١)

ولم يكن هذا الموقف الفرنسي الذي عبر عنه الكاردينال « لا فيجى » يعكس غيرة فرنسا على الدين المسيحي ، ولا إخلاص نظامها الاستعماري لتعاليمه - وهي تعاليم تتناقض حتماً مع صنيع الفرنسيين هذا - وإنما كان هذا الموقف ، وحركة التبشير المسيحية الفرنسية في الجزائر بأكملها عبارة عن إحدى الكتابات وأحد الأجهزة التي تعمل من خلالها الإمبريالية الفرنسية لإحكام القبضة على البلاد ، تلك القبضة التي كان الإسلام يقلل من قدرتها على الإمساك بما تريد أن تمسك به من الخيوط .. ولقد فطن المثقفون الجزائريون إلى « أن موقف البورجوازية الفرنسية هذا هو مدعاة للعجب ، فإن هذه البورجوازية نفذت أحكام الإعدام في القسس ، وأحرقت الكنائس ، وحاولت محو الدين المسيحي في فرنسا المسيحية .. أما في الجزائر فقد اتخذت مسلكاً مخالفاً ، فحولت المساجد إلى كنائس ، ومجدت المسيحية ، واستخدمت أموال المسلمين لتنصرهم ! وهكذا أحييت الروح الصليبية عندما رفعت علم المسيحية ضد الإسلام ، في الوقت الذي ظلت تسخر فيه من المسيحية والإسلام في آن واحد ؟ ! » .^(٢)

والأمر الذي يؤكد أن أهداف الفرنسيين من خلف هذا الموقف إنما كانت سياسية أكثر منها دينية وروحية ، وأن عداءهم للإسلام في الجزائر إنما كان عداءً للجانب الثوري والطابع القومي العربي لهذا الدين ، ولتلك الروابط والوشائج التي يشدها الجزائر والجزائريين إلى العرب

(١) المرجع السابق ص ٢٢ - ١١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠ .

والعروبة بعيداً عن «الفرنسة» والاندماج في الفرنسيين... الأمر الذي يؤكد أن هذه الأهداف «غير الدينية» هي التي كانت قائمة خلف هذه «الحملة الدينية»، الأمر الذي يؤكد ذلك أن الفرنسيين قد احتضنوا رجال الدين المسلمين الرسميين في الجزائر، ودافعوا عنهم ضد هجوم ابن باديس وجماعة العلماء، كما سيأتي الحديث عن ذلك، واحتضنوا كذلك رجال الطرق الصوفية الذين تحولوا للإسلام لديهم إلى طقوس للشعوذة، فلم يعد نمطاً من أنماط الفكر الثوري ولا سلوكاً نضالياً يمارسه المسلم في الحياة... ويكفي أن نقرأ كلمات المسيو «برك» أحد كبار الموظفين الفرنسيين في الولاية العامة بالجزائر التي يتحدث فيها عن المعايير التي كانت تحدّد للفرنسيين اختيار رجال الدين الإسلامي لمناصبهم الرسمية، لنعلم المهانة والأهداف التي استهدفها هؤلاء المستعمرون.. يقول المسيو «برك»: «لقد وصل بنا امتحان واحتقار الدين الإسلامي إلى درجة أننا أصبحنا لا نسمح بتسمية (تعيين) المفتي أو الإمام إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس، ولا يمكن لموظف ديني أن ينال أى رقى إلا إذا أظهر للإدارة الفرنسية إخلاصاً منقطع النظير».^(١)

كما أن النجاحات التي أحرزها الفرنسيون في معركتهم هذه ضد الإسلام في بلاد الشمال الإفريقي كانوا يتحدثون عنها باعتبارها خطوات تم لهم على درب تحويل هذه البلاد عن عروبتها والاتجاه بها إلى الاندماج في فرنسا والفرنسيين، فوزير خارجيتهم في مطلع هذا القرن الكاتب الشهير «جبريل هانوتو» يكتب عن نجاح مسعاهم هذا في تونس فيقول: «لأنه يوجد الآن بلد من بلاد الإسلام قد ارتخى، بل انقسم الحبل بينه وبين البلاد الإسلامية الأخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض، إذا توجد أرض تنفلت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضي الآسيوي، أرض نشأت فيها نشأة جديدة، إنبتت في قضائها وإدارتها وأخلاقها»^(٢).. «فهي إذاً «مكة» و«الماضي الآسيوي» ومكونات هذه البلاد وقسماتها التي تميزها في «القضاء» و«الإدارة» و«الأخلاق» هي التي يوجه إليها الفرنسيون نيران حملتهم باسم المسيحية وضد الإسلام..

* * *

والذي حدث أن الفرنسيين قد بلغوا هزيمة الشعب الجزائري في هذا الميدان حداً أدخل اليأس على قلوب الكثيرين.. حتى خيل للأغلبية الساحقة من المثقفين الجزائريين طوال قرن من

(١) الأمة العربية وقضية التوحيد ص ٩٩.

(٢) المرجع السابق ص ٩٥.

بدء الاحتلال أن التفكير في شيء آخر غير الاندماج في فرنسا والفرنسيين هو ضرب من الأحلام الخيالية .. وأن السعى في أي طريق آخر هو ضرب من الجنون ..

كان هذا هو التيار السائد في صفوف المثقفين الجزائريين .. أما عند عامة الشعب فلقد حدث شيء آخر ، فبفعل الصدمة ، وشدة الهجوم الفرنسي على مقومات الشعب وتقاليدِه وعاداته ومعتقداته تنهت في الشعب عوامل المقاومة ، ولكنه وجد أن لا سبيل إليها إيجابياً ، فاتخذ موقف المقاومة السلبية ، واعتصم «بالأمية» ضد التعليم الفرنسي ؟ ! واتخذ من لغة المشافهة والحديث بديلاً يستعيز به عن لغته المكتوبة المحرمة عليه ؟ ! وأقام لنفسه بناء ثقافياً وفتحاً وأديباً أداته لغة الحديث ؟ !! .. ومن الكلمات الجيدة التعبير عن هذه الحالة التي وصل إليها الشعب الجزائري قول أحد أبنائه : «إن هذا الشعب عندما هزم ، وتمزق ، ونهبت ثروته ، وعندما واجه الضياع ، وأصبح ظهره إلى الحائط ، لجأ قبل كل شيء إلى قلعه المنيع ، إلى إيمانه وتقاليدِه المعنوية ، ولغته المنطوقة ، لجأ إليها حتى يتمكن يوماً ، في ميدان آخر ، وبوسائل جديدة ، وفي ظروف أكثر ملاءمة ، من القيام بهجوم مضاد» ، فكان الاعتماد التام على «لغة الحديث ، التي تستخدم حسب التقليد المتبع للقصص والأشعار والأغاني . وخلال سنوات طويلة كان لدينا تيار ثقافي قائم على الأدب الشفوي ، كان العمود الفقري لمقاومة الجهود المبذولة للقضاء على الشخصية الجزائرية ، وكان النبتة المتينة الناشئة في تربتها ، والتي تنتظر التطعيم الملائم حتى تعطى أفضل الثمار» ولم يكن هناك منفذ يتعدى منه هذا الشعب نطاق لغة الحديث والمشافهة إلى نطاق اللغة القومية المكتوبة سوى أكثر أشكال التعليم بدائية ، وهو «الكتاب» .. فسلك الشعب هذا الطريق «فمدارس تحفيظ القرآن كانت تعطينا شيئاً أكبر بكثير من مجرد تعريفنا بالمبادئ الأولى للغة ، فهي رغم إطارها الجامد كانت عاملاً من عوامل الوحدة التي تربط البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وكانت طوقاً من أطواق النجاة التي تعلق بها الأمة التي تتقاذفها الأمواج» .^(١)

ونحن نستطيع أن نقول : إن هذه الهزيمة وذلك التمزق وتلك الحال قد استمرت سائدة في الجزائر حتى بدأ ابن باديس في تنفيذ مخططه الذي استهدف إعادة إيمان الجزائر بذاتيتها العربية المستقلة ، عن طريق إحياء قسامات العروبة وبعث مجد الإسلام في نفوس شعبها .. وأن نقول كذلك : إن هذا الشعب قد استمر معتصماً بلغة المشافهة والحديث حتى دخل أبنائه مدارس

(١) المرجع السابق ص ١٠١ - ١٠٣ والكلمات للكاتب الجزائري شير الحاج على في دراسته عن «الثقافة الوطنية وثورة الجزائر» ..

(جمعية العلماء) التي أسسها ابن باديس.. وأن نقول أيضاً : إن هذا الشعب قد ظل في موقف الدفاع ضد الهجوم الذي بدأه الأعداء في سنة ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م ، ولم يتحول إلى موقف المقاومة الإيجابية المدعومة بالتخطيط والتنفيذ إلا عندما قاده ابن باديس ، وبالذات بعد تكوين (جمعية العلماء) في سنة ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م .

* * *

«هجوم على الجبهة العريضة» :

منذ أن عاد ابن باديس إلى الجزائر من رحلته الحجازية سنة ١٣٣١ هـ ١٩١٣ م وهو دائم السعي لتنفيذ مخطط رسمه مع بعض أعوانه لإعداد كتبية من المثقفين والعلماء الجزائريين تتقدم لصد الهجوم الفرنسي على المقومات الذاتية للشعب الجزائري .. وإذا كانت حملة فرنسا هذه قد استهدفت إلغاء الذاتية المستقلة لهذا الشعب حتى تصل لتحويل الجزائر إلى مقاطعة فرنسية ، فإن ابن باديس قد أراد وخطط وعمل لإحياء ذاتية هذا الشعب حتى يصل إلى إحياء وتأکید الإيمان بالوطن الجزائري المستقل تماماً عن فرنسا والفرنسيين .. ومن هنا كان هجومه على جبهة عريضة ، غطى نضاله عليها كل المواقع التي حارب الفرنسيون فيها الجزائريين منذ بدء الاحتلال ...

الانتصار للعروبة :

منذ بدأ ابن باديس نشاطه - وكما سبق أن أشرنا - كان تركيزه على التعليم للصغار والكبار ، يستهدف بعث الروح العربية والتعليم العربي حتى تتحصل للجزائر قسمة العروبة فتعيد الاتصال بماضيها العربي والارتباط بأمته العربية الممتدة أرضها من الخليج إلى المحيط ، ولذلك ارتبطت لديه دائماً فكرة عروبة الجزائر باستقلال الوطن الجزائري عن الفرنسيين .. وهو عندما أصدر مجلة (المنتقد) في سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٦ م جعل شعارها كلمة ذات مغزى يقول فيها : (الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شيء) .. وحتى قبل أن تتكون (جمعية العلماء) ، كتب ابن باديس في سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ يقول : «إن الجزائر بلد عربي .. ومن ذا الذي يفكر في إنكار هذه الحقيقة؟! وهي أرض إسلامية أصيلة ، وذلك حق أيضاً ، ومهما يكن

من إرادة الإمبريالية في الماضي والحاضر ، ومهما يكن من قوة حراهما ، فإن هذه الظاهرة التاريخية تظل صادقة تمام الصدق . إن الاستعمار الفرنسي لم يدخر جهداً حتى يستعبد الجزائريين ، وحتى ينتزع من قلوبهم الإسلام والعروبة .. وقد حاول الاستعمار جهده طيلة قرن من الزمان لكي يصل إلى هذه الغاية ، ولم يكتف الاستعمار باستخدام القوة وتبريرها من الوجهة القانونية ، بل أراد أن يبرر مسلكه وأن يجعل ضم الجزائر إليه أمراً مشروعاً^(١) . ولقد كتب ابن باديس هذه الكلمات القوية الحاسمة في الوقت الذي أعلن فيه بعض المستعمرين الفرنسيين في الجزائر «أن عهد الهلال في الجزائر قد غبر» ، وبدأوا فيه احتفالاتهم المجنونة والاستفزازية بمرور قرن على بدء احتلالهم للبلاد ، وهي الاحتفالات التي قزروا لها أن تستمر ستة أشهر ، واستطاع ابن باديس وأنصاره أن يعكروا صفوها حتى تم إلغاؤها بعد شهرين فقط من بدئها ؟ ! .

وكان فرحات عباس ، يومئذ ، من أقوى الأصوات الجزائرية التي تنادى باندماج الجزائريين في «فرنسا الأم» .. وعندما كتب مقالاً ينكر فيه وجود «وطن جزائري» عنوانه : «لو أنني عثرت على الوطن الجزائري !» رد عليه ابن باديس رداً تاريخياً ، وقال : «.. إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت .. بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد : في لغتها ، وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ، ولا تريد أن تندمج .. ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بمحدوده الحالية المعروفة ..»^(٢) .

ولقد أجاد ابن باديس الربط ما بين العروبة والإسلام ، لا بالنسبة للجزائر فقط ، بل كان يرى أن الإسلام – بالرغم من عالميته – قد جعل للعرب مكاناً ملحوظاً بين الأجناس ، حتى عهد إليهم رب هذا الدين بالقيام على إبلاغه وحراسة تعاليمه .. وهو في هذا الموقف يذكرنا بالكواكبي وحديثه عن دور العرب وخصائصهم بالنسبة للنهضة الإسلامية في كتابه (أم القرى)^(٣) .. فيقول ابن باديس : «.. من الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبي في شيء ، لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها ، ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف .. إن

(١) الإمام ابن باديس ص ١٣ (نقلا عن كتاب فرحات عباس «الطلعة الاستعمارية» سنة ١٩٦٢ م) ..

(٢) الشهاب . عدد نوفمبر سنة ١٩٣٧ م .

(٣) انظر : الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي مع دراسة عن حياته وآثاره ص ٣٠٠ – ٣٠٠ دراسة وتقديم محمد عارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

عناية القرآن بإحياء الشرف في نفوس العرب ضرورة لإعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر.. وبهذا نستعين على فهم السر والحكمة في اختيار الله للعرب للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية ، واصطفائه إياهم لإنقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل .. إن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله ، وأن تظهر دين الله على الدين كله ..»^(١) .

وهذا المزج العبقري بين العروبة والإسلام ، كان يسميه ابن باديس أحياناً «الوطنية الإسلامية» ، وهي وطنية غير متعصبة . لا تنكر الدوائر الأصغر منها ، ولا تتنكر للدائرة الإنسانية الأكبر ، إذ «الوطنية الإسلامية العادلة هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها ، وعلى الأمة بجميع مقوماتها ، وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها ، فالإنسان من طفولته يجب بيته وأهل بيته .. وما البيت إلا الوطن الصغير .. فإذا تقدم اتسع أفق حبه وأخذت تتسع بقدر ذلك دائرة وطه .. فإذا غدى بالعلم الصحيح شعر بالحب لمن يجد فيهم صورته الإنسانية . وكانت الأرض كلها وطناً له ، وهذا هو وطنه الأكبر . وهذا ترتيب طبيعي لا طرفة فيه ولا معدل عنه ، فلا يعرف ولا يجب الوطن الأكبر إلا من عرف وأحب الوطن الكبير ، ولا يعرف ولا يجب الوطن الكبير إلا من عرف وأحب الوطن الصغير»^(٢) .

وهذه الكلمات البالغة درجة عظيمة من العمق والعبقرية جعلت ابن باديس يضع يده ، سياسياً ، في يد كل التيارات السياسية التي ناصرت عروبة الجزائر واستقلالها ، بما فيها الحزب الشيوعي ، وفي ذات الوقت انتقد موقف الشيوعيين الذي يقلل من خطر وأهمية الرابطة القومية فيقول : إن هناك قسماً من الناس «رعموا أنهم لا يعرفون إلا الوطن الأكبر ، وأنكروا وطنيات الأمم ، وعدوها مفرقة بين البشر ، وعاكسوا الطبيعة جملة ، وما عرفته البشرية من آلاف السنين»^(٣) .

ولقد أدرك أعداء ابن باديس إدراكاً عميقاً خطورة ربطه هذا بين العروبة والإسلام . وصلة ذلك ببعث الوطن الجزائري ، فكتبوا يقولون : «هل يمكن لنا أن نقول : إن جمعية العلماء مليئة (دينية) ؟ نعم .. وعجب أن يشك أحد في ذلك . ولكن هذه المليئة لا تظهر مباشرة ، فالعلماء يحملونها في صدورهم ، ولا يتحدثون بها . على أن نشاطهم لا يبعدهم عنها

(١) الإمام ابن باديس ص ١٤١ (نقلا عن الشهاب ج ١ م ١٥ سنة ١٩٣٩ م) ..

(٢) المرجع السابق ص ١٣٣ . ١٣٤ (نقلا عن الشهاب ج ٧ م ١٣ سنة ١٩٣٧ م) .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٤ (نقلا عن الشهاب ج ٧ م ١٣ سنة ١٩٣٧) .

أبداً ، فكل من إصغائهم لدمشق والرياض والأزهر وجامع الزيتونه والقرويين ، وكل من دعوتهم ضد متأخري شيوخ الطرق هو لفائدة القومية الجزائرية التي يخدمونها .. إن سياستهم الحاضرة تنحصر في المراقبة بحسن الثقافة والدين ، وهكذا يتدخلون في كل شيء ، ينتظرون أن يتقدم رجال آخرون لاستعمال السلاح الذي يصقلونه الآن بأيديهم ويعدونهم . إن مجددي فكرة الوطن الجزائري هم بالأحرى هؤلاء الذين أسسوا جمعية العلماء .. منذ سنة ١٩٣٠ م نرى في الواقع أن هؤلاء الرجال ذوى الثقافة الرفيعة والعلم الواسع - وهم من أقوى الشخصيات الإسلامية في المغرب المعاصر - قد ربطوا محاولتهم لتجديد الإسلام وللقضاء على الطرق الصوفية بمحاولة تجديد الوطن الجزائري ..» (١) .

العروبة والخلافة الإسلامية :

في حياة ابن باديس دار الجدل في مصر مرتين حول قضية «الخلافة الإسلامية» ، وبذلت محاولتان لتولى ملك مصر لهذا المنصب ، أولاهما كانت في عهد الملك فؤاد ، (٢) والثانية في عهد الملك فاروق ، وفي المرة الثانية كانت لابن باديس مكانة كبرى في الجزائر ، ووسائل إعلامية تتيح له أن يشارك بالرأى في هذا الموضوع الذي شغل المسلمين والعرب أجمعين ..

وفي الآراء التي أبداها ابن باديس حول هذا الموضوع يتكشف لنا الرجل عن عقل تقدمي مستنير .. فرغم مزجه الرائع ما بين عروبة الجزائر وإسلامها ، ورغم مكانته الدينية ، إلا أنه كان داعية من دعاة التمييز ما بين الدين والسلطة والحكومة ، رافضاً للخلط - إلى درجة الاتحاد - بين الدولة وبين الدين ..

« فهو يرى أن هذا المنصب ، بمعناه الإسلامى ، قد ذهب ودرس منذ عهد صدر الإسلام ، فيومئذ كانت «الخلافة هي المنصب الإسلامى الأعلى الذى يقوم على تنفيذ الشرع وحياطته بواسطة الشورى من أهل الحل والعقد من ذوى العلم والخبرة والنظر ، وبالقوة من الجنود والقواد وسائر وسائل الدفاع ، وقد أمكن أن يتولى هذا المنصب شخص واحد صدّر الإسلام وزمناً بعده على فرقة واضطراب ، ثم قضت الضرورة بتعددته في الشرق والغرب ، ثم

(١) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) انظر دراستنا عن كتاب الإسلام وأصول الحكم لعل عبد الوارث . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

انسلخ عن معناه الأصلي وبقى رمزاً ظاهرياً تقديسياً ليس من أوضاع الإسلام في شيء..»^(١) ولذلك فإن التماس السلطة والسلطان على المسلمين يجب أن يكون طريقه الكفاءة والحصول على رضى الأمة وتأييدها «فلا حق لأحد في ولاية أمر من أمور الأمة الإسلامية إلا بتولية الأمة ، فالأمة هي صاحبة الحق والسلطة في الولاية والعزل ، فلا يتولى أحد أمرها إلا برضاها»^(٢) ثم يمضى ابن باديس في موقفه هذا إلى تبنى رأى المعتزلة في تقديم الأكفاء في السياسة على الأفضل في الدين لمنصب الحكومة ، تعبيراً عن إيمانهم بأن هذه المناصب سياسية وليست دينية بالدرجة الأولى ، فيقول : إن «الذى يتولى أمراً من أمور الأمة هو أكفؤها فيه ، لا خيرها في سلوكه .. لذلك أقدم الأرحح في الكفاءة لا في الخيرية ..»^(٣)

« وهو يؤمن إيماناً شديداً بالديمقراطية ووحوب سيادة القانون الصادر عن الأمة والنابع منها ، ويقول : إنه «لا تحكم الأمة إلا بالقانون الذى رضيته لنفسها وعرفت فيه فائدتها ، وما الولاية إلا منفذون لإرادتها ، فهى تطيع القانون لأنه قانونها ، لا لأن سلطة أخرى لفرد أو جماعة فرضته عليها ، كائناً من كان ذلك الفرد وكائنة من كانت تلك الجماعة ، فتشعر بأنها حرة في تصرفها .. إذ هذه الحرية والسيادة حق طبيعى وشرعى لها ولكل فرد من أفرادها»^(٤) ولذلك فإنه يرى أن آفة الآفات هى الحكومة المستبدة ، ويحكى قصة الإمام جعفر الصادق : «إن أعظم الفتنة أن يسلط الله على الناس السلطان الجائر» ، ويقول تعليقاً عليه : «إن أعظم ما لحق الأمم الإسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على يد السلاطين الجائرين منها ومن غيرها ، وهذا ما يشهد به ماضيها وحاضرها ، فما أصدق كلمة جعفر الصادق وما أعمق نظره فيها !!»^(٥)

« وابن باديس لا ينكر ، بموقفه هذا من فكرة الخلافة الإسلامية ، التضامن الإسلامى والرابطة الإسلامية ، ولكنه يرى جامعة المسلمين - على ضوء واقع عصره - فى صورة رأى عام قوى وإعٍ مستنير ، تتبلور إرادته فى تنظيم ينهض بالتنخطيط لتقدم المسلمين ورعاية هذا التقدم ، فى إطار الحياة الدينية والأدبية ، فهو يقول : إن المسلمين «إنما تكون لهم قوة إذا

(١) الشهاب ج ٢ م ١٤ سنة ١٩٣٨ م

(٢) الإمام ابن باديس ص ٦٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٦٦ .

(٥) المرجع السابق ص ٤٧ .

كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر ، وتشاور وتتآزر ، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة ، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة ..»^(١) فهو إذًا لم ينكر الروابط الإسلامية ، فهو من كبار الأئمة المسلمين المجاهدين في عصره ، ولقد كانت «تهمة» الدعوة إلى «الجماعة الإسلامية» من بين «التهم» التي وجهها إليه خصومه من عملاء الفرنسيين .

« ولكن الرجل كان مناهضاً لتلك «اللعبة» التي كان يمارسها البعض في مصر تحت شعار تولية ملك مصر خلافة المسلمين ، بدعوى أن الأتراك قد ألغوا هذا المنصب الإسلامي السامى في عهد الكماليين . فهو أولاً ينكر أن المنصب الذى ألغاه الأتراك كان منصباً إسلامياً حقيقة ، فضلاً عن أن يكون خلافة للمسلمين ، فيقول : « .. فيوم ألغى الأتراك الخلافة - ولسنا نبرر كل أعمالهم - لم يلغوا الخلافة الإسلامية بمعناها الإسلامى ، وإنما ألغوا نظاماً حكومياً خاصاً بهم ، وأزالوا رمزاً بالياً فتن به المسلمون لغير جدوى ، وحاربتهم من أجله الدول الغربية المتعصبة للنصرانية والمتخوفة من شبح الإسلام » ، تم يمضى ابن باديس ليكشف كيف أن ما يحدث في مصر إنما هو لعبة استعمارية لاستغلال اسم «الخليفة» ويقول : إن الأمم المتقدمة لن تنخدع بهذه اللعبة حتى «ولو جاءت من تحت الجبب والعائم ؟ !» لأنه ليس بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - «شخص مقدس الذات والقول ندعى له العصبة .. ولكن لنا جماعة المسلمين وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون في مصالح المسلمين من الناحية الدينية والأدبية ويصدرون عن تشاور ما فيه خير أنفسها بعيدة كل البعد عن السياسة وتدخل الحكومات لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها» .. وهو لذلك الذى يتبنى موقف الإمام محمد عبده في مدينة السلطة ، وإنكار الحكومة الدينية^(٢) ، وتحديد إطار العمل لجماعة المسلمين .

ولقد كتب ابن باديس برأيه هذا إلى شيخ الأزهر ، وأنكر عليه دعوته لخلافة الملك فاروق .. ولما لم يأت رد من شيخ الأزهر استمر على موقفه مهاجماً الذين «يتحدثون في مصر وفي الأزهر عن الخلافة كأثمهم لا يرون المعامل الإنجليزية الضاربة في ديارهم» ؟ وتنبأ بفشل هذه «اللعبة» قائلاً : «وسيرى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر أن خيال الخلافة لن يتحقق وأن المسلمين سينتهون يوماً ما - إن شاء الله - إلى هذا الرأى»^(٣) . فكان موقفه هذا التحديد

(١) المرجع السابق ص ٥٥ .

(٢) انظر الفصل الخاص بهذه القضية في الدراسة التي قدمها لها للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ص ١٠١ - ١١٧ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(٣) التهاب ج ٢ م ١٤ سنة ١٩٣٨ م .

الديق لمضمون دعوته لإسلام الجزائر ، وعلاقة قسمة الإسلام بقسمة العروبة في دعوته لإحياء
ذاتية الجزائريين .

* * *

العروبة والتعليم :

ولقد كان بعث عروبة الجزائر هذه يستدعى تطوير بقايا التعليم العربي البدائي في البلاد ،
وتوسيع دائرته بإنشاء المدارس و «الكتاتيب» ، وإعادة الدور التعليمي للمسجد في حياة الأمة
الإسلامية إلى مساجد الوطن الجزائري .. وهو ما صنعه ابن باديس «وجمعية العلماء» ،
فالجمعية فد أنشأت مائة وسبعين مدرسة ، وذلك غير «الكتاتيب» التي انتشرت في كل مكان
والتي سارت على منهج متطور يقترب بها من المدارس الأولية ، حتى لقد أخذ الفرنسيون
يحاربونها ويسحبون رخصتها ويغلقون منها تلك التي تستخدم المناهج المتطورة والحديثة في
التعليم ! وكما يقول ابن باديس : لقد «صار من شروط إعطاء الرخصة للقليل الذي أُعطيت له
أن يعلم على الكيفية القديمة الخالية من كل تهذيب ، ذات «العصا» و«الفلقة»
و«الحصير» ، وفي العصر الذي تتقدم فيه كل الأمم كل عام في أساليب التعليم نرد نحن إلى
الوراء ، فاسمع ، وتعجب يا عصر المدينة والنور؟!» (١).

ولكن ابن باديس لم تقعه قيود الفرنسيين هذه ، ولا مضايقاتهم له واستدعائهم له
لسؤاله : «إن كانت معه رخصة للقيام بالتعليم؟!» على حين أنهم يعلمون ممارسته لهذا العمل
منذ سنوات وسنوات .. ففضى ومضت «جميعة العلماء» في نشاطها التعليمي الذي لا يقتصر
على تعليم العربية وحدها ، ولا يتنكر للغات الأخرى ، فنص قانون (جمعية التربية والتعليم)
التي أقاموها «على تعليم العربية والفرنسية ، لأننا قوم نريد الحياة لأنفسنا كم نحبا لغيرنا ،
ونكره أن ندخل الضرر على أي كان غيرنا ، كما لا نرضى أن يدخل علينا الضرر أي كان غيرنا .
ونحترم لغتنا ومجدنا كما نحترم لغة ومجد غيرنا .. وللجمعية نيات أخرى تنوى أن تقوم بها في
المستقبل ، إن شاء الله ، تنوى أن تبث البعثات العلمية إلى الخارج ، وتسعى جهدها في
تحقيق ما ينص عليه قانونها الأساسي من تأسيس المصانع والملاجئ والمحلات العامة» (٢) ..

ولقد نجح ابن باديس في أن يجمع من حوله كل فئات وتيارات الشعب الجزائري مطالبة

(١) الإمام ابن باديس ص ١٤٠ (نقلا عن الشهاب ، ج ٨ م ١٤ سنة ١٩٣٨ م).

(٢) المرجع السابق ص ١٤٤ (نقلا عن البصائر في ٢٢ يونيو سنة ١٩٣٩ م).

بالتعليم العربي للبلاد ، وفي الوقت الذي أصدر الفرنسيون فيه قانوناً يحرم التعليم العربي ، ويجعل العربية لغة أجنبية ، طالب القسم العربي لمجلس النيابات المالية بالجزائر في نفس العام (سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م) ومن خلفه الأحزاب الجزائرية جميعها بالتعليم العربي ، وكتبوا لفرنسا يقولون : «إن مسألة اللغة العربية والتعليم الديني بالقطر الجزائري ليست مسألة حزب خاص أو جمعية معينة .. بل هي مسألة الأمة جمعاء .. تختلف في كل شيء وتتفق فيها^(١) ؟ ! .. فلقد كانت الجزائر تسير خلف ابن باديس سعياً لتغيير ذلك الوضع المهين الذي ساد يوم أن كان أبناءها «يذهبون إلى المدارس الأجنبية التي لا تعطيهـم غالباً من العلم إلا ذلك الفتات الذي يملاً أذهانهم بالسفاسف ، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم ، وقد ينكرونها^(٢) ..» .

والذين قرأوا جمال الدين الأفغاني ، وحديثه في (العروة الوثقى) وفي غيرها عن دور اللغة القومية الواحدة (اللسان) في جمع شتات الأمة التي أصابها الاستعمار بالترق وشن عليها حرب السحق والإبادة .. ثم قرأوا أيضاً ابن باديس يعلمون كيف كان فكر الأفغاني وفكر الزعيم الجزائري على درب واحد وفي ميدان واحد صنعه اتحاد المشرب والمنهج واتفاق الظروف .. وابن باديس يجسد هذه الفكرة عن أهمية اللغة العربية ودورها المنتظر في بعث الجزائر وربطها بماضيها العريق ، فيقول في عمق غير مسبوق : «إننا نعتصم بالحق ونعتصم بالتواضع عندما نقول : إننا شعب خالد ككثير من الشعوب ، لكننا ن نصف التاريخ إذا قلنا : إننا سبقناها في ميادين الحياة ، سبقناها بهدائتنا ، وسبقنا هذه الأمم في نشر الحق أيام كانت في ظلمات الجهل ، ذلك ما كنا فيه وما سنعود إليه ، وإنما علينا أن نعرف تاريخنا ، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة في هذا الوجود ، ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأعز والمستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين : اللغة العربية ، لغة الدين ، لغة الجنس ، لغة القومية ، لغة الوطنية المحروسة .. إنها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا وأحفادنا الغر الميامين ، تربط أرواحهم بأرواحنا ، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به ، وهي الترحمان عما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار وما في النفس من آلام وآمال ..»^(٣) .

وبقدر الأهمية التي علقها ابن باديس على اللغة العربية في بعث الجزائر العربية الإسلامية

(١) المرجع السابق ص ٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٣ (نقلا عن البصائر ٢٢ يونيو سنة ١٩٣٩ م) .

كان الجهد المضنى الذى قدمه فى هذا السبيل .. مدارس قد فتحت .. ، و «كتائب» قد أنشئت .. ومساجد فد أُقيمت وانهقدت فيها حلقات الدرس والتعلم .. كل ذلك كى تتكون للوطن الجزائرى الكتيبة التى تمهد الطريق للثورة ، التى تتولى صنع السلاح وتدفع به إلى أيدي جيل جديد من المقاتلين ..

* * *

ضد الطرق الصوفية :

وكما حارب الفرنسيون عروبة الجزائر وذاتيتها القومية بواسطة إشاعة الجهل والأمية بين الأغلبية الساحقة جداً من الشعب ، وبواسطة «فرنسة» التعليم للقلة القليلة جداً من الجزائريين الذين أُتيحت لهم فرص الالتحاق بمدارسهم ، فإنهم قد شنوا هجومهم على الإسلام عندما رأوه لحناً يميز المواطن الجزائرى ، ووشيجة تربطه بالعروبة والعالم العربى وتشده بعيداً عن فرنسا والفرنسيين .

ولم يعتمد الفرنسيون فى حربهم للإسلام بالجزائر على المبشرين فقط ، ولا على إطلاق العنان لجماعات التبشير فى المناطق الجنوبية وإغلاقها أمام «جمعية العلماء» ، فحسب ، وإنما اعتمدوا أيضاً على رجال الطرق الصوفية - (الطرقية) - . ومكنوا لهم من إحكام القبضة على القلوب وشل عقول أغلبية الشعب بالشعوذة والخرافات وشل إرادتهم وفعاليتهم بالتواكل والاستسلام ، ولذلك حارب ابن باديس خطة فرنسا على هذه الجبهة بواسطة الصراع العنيف الذى شنه ضد هذا المسخ المشوه للإسلام وتعاليم الدين الحنيف .

فلقد وضع رجال الطرق الصوفية أنفسهم فى خدمة المستعمر ، وأصبحوا أدواته التى يعتمد عليها فى تخدير الجماهير ، وصوروا للناس ما أنزل الفرنسيون بالبلاد على أنه إرادة الله سبحانه؟! ودعوا من أجل ذلك للاندماج فى فرنسا امثالاً لإرادة الله هذه؟! .. وقالوا : «إذا كنا أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك ، وهو على كل شىء قدير ... فإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل ، وكان ذلك عليه أمراً يسيراً ، ولكنه كما ترون يمدهم بالقوة ، وهى مظهر قدرته الإلهية ، فلنحمد الله ولنخضع لإرادته ..؟! ..» (١) .

(١) الشهاب . ج ٧ م ١٤ (نقلا عن حريدة «الريبيليكان الفرنسية فى ٢٢ يونيو سنة ١٩٣٨ م) .

ولكن ابن باديس يعلن الحرب ضد هذه الطائفة الضالة ، ويقول بأنها قد فرت إلى حمى المستعمر ، وأن الله برئ مما يفترونه عليه ، ويصور نزاع «جماعة العلماء» معهم فيقول : «إننا إذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعتا ، فالتجأت إحداهما إلى السلطان تستغيثه وتستعين به .. فأغاثها وانتصر لها وأمدّها وقربها وأدناها ، وأما الأخرى فلم تستغث إلا بالله ولم تستنصر إلا به ، ولم تعتمد إلا عليه ، ولم تعمل إلا فيما يرضيه من نشر هداية الإسلام .. وتحملت في سبيل ذلك كل ماتسببت لها فيه الفئة الأخرى ، ومن تولته وهربت إليه .. إذا رأينا هاتين الطائفتين عرفنا من منهما يقيناً الفارة من الله والفارة إليه ، فكنا - إن كنا مؤمنين - مع من فر إلى الله ..» (١) .

ومن هنا كانت الحرب الضروس التي شنها ابن باديس وشنّها «جمعية العلماء» ضد هؤلاء المشعوذين .. ومن هذا الموقف المبذئ رفض ابن باديس عديداً من المحاولات التي بذلت للمصالحة بينها في سنة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م لأن الذين قاموا بها طلبوا من «جمعية العلماء» أن تسكت على قيام الصوفية بممارسة البدع الدخيلة على الدين ، وأيضاً أن تترك وتهجر الميدان السياسي والاشتغال بالسياسة (٢) .. كما رفض محاولة أخرى «للصلح» قام بها ودعا إليها أحد علماء الأزهر ، وكتب ابن باديس يومئذ في رفضه لهذه المحاولة يقول : «إننا نعلن لإخواننا أننا على رجاء اليأس من خصوم تضييع معهم حكمة لقمان ، ولا يجدي معهم حلم معاوية ، ولا يرضيهم عدل ابن الخطاب ، ولا تسامح صلاح الدين .. وليس لنزاعهم معنا غاية غير كرم أفواهنا وكسر أقلامنا ثم إقلال راحتنا إن أعجزتهم المقادير عن إزهاق أرواحنا ، وليس لهم إلى هذه الغاية غير وسيلتين : إحداهما الوشاية بنا إلى الحكومة بأننا وطنيون ضد الاستعمار ، وأنها تعمل للجامعة الإسلامية .. وثانيهما الاختلاق علينا مع الأمة بأننا ندعى الاجتهاد ، وأنا نستخف بأمتنا في الدين ، وأنا ننكر الولاية والكرامة ..» (١) ولذلك فإنه لا أمل في مثل هذا الصلح وذلك اللقاء ..

ولقد نجحت «جمعية العلماء» نجاحاً ملحوظاً في تجريد هؤلاء المشعوذين من صلاحيات التحديث باسم الإسلام ، وأخذ المجتمع الجزائري ينظر إليهم كمارقين قد باعوا دينهم وكرامتهم للمستعمر حتى لم يعودوا - هم ومن تبعهم على درب الاندماج - يستحقون شرف الانتساب

(١) الإمام ابن باديس ص ٣٧ ، ٣٨ (بقلا عن تفسير ابن باديس للقرآن ص ٤٦٧ ، ٤٦٨) .

(٢) المرجع السابق ص ٤١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤١ .

للإسلام ، وتصور الجريدة الفرنسية (الريبيليكان) نجاح العلماء هذا فتقول في غضب ومرارة : « لقد نجح هؤلاء في حمل الناس على البراءة من مواطنيهم الذين قبلوا أن يعدوا من الفرنسيين ، وامتنعوا عن دفعهم في مقابر المسلمين . وهؤلاء القادة ينفذون أوامر تأتيهم من القاهرة ودمشق ومكة ، وهي المدن التي تعمل فيها جماعات خفية لتنفيذ أغراض على جانب كبير من الخطورة .. والتبعة في ذلك تقع على الحكومة الفرنسية ، فهي التي تركت هؤلاء المتعصبين أو الخبيثين يبتون دعوتهم ، ويضعون من سلطان أصدقائنا المرابطين» - (الطريقة) -^(١) ولقد كان انحسار نفوذ هؤلاء المشعوذين يعني زيادة القوة والأنصار «الجمعية العلماء» ، وأيضاً تصحيح صورة الإسلام ، وإتخاذة أداة في مناوأة الاستعمار .

فكر سلفي مستنير :

ونحن إذا تجاوزنا الصدام السياسي المباشر الذي حدث بين ابن باديس وبين رجال الطرق الصوفية ، استطعنا أن نبصر لهذه المعركة سبباً آخر يرجع إلى اختلاف المنطلق الذي ينطلق منه كل فريق في فهمه للإسلام ، فهؤلاء المتصوفة قد تحولوا للإسلام لديهم إلى ركام من البدع والخرافات التي تراكمت بفعل الزمن والقرون ، بينما كان ابن باديس مفكراً سلفياً يرى في العودة إلى منابع الإسلام النقية الأولى وأصوله الجوهرية السبيل الأوحى لبعث الجزائر المناضلة ، والطريق الذي لا طريق سواه كفى يتحول للإسلام إلى سلاح في معركتها الحالية بعدما حوله المتصوفة إلى وسيلة لتبرير الخضوع للفرنسيين .

وهذا الموقف السلفي لابن باديس يتجلى في مواقف فكرية عديدة ، نكتفي هنا بأمثلة عليها تضاف إلى ما قدمنا من إشارات :

* فهو يدعو للعودة بعقيدة التوحيد الإسلامية إلى نقاؤها الأول ، قبل أن تلحق بها شبهات الوثنية على أيدي « المشبهة والمجسمة والمتصوفة » الذين يعظمون الأموات والقبور ، ويقول : إنك « تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً في هذا الضلال ، فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات ، يسألونهم حوائجهم .. ويذهبون إلى الأضرحة ... ويدقون قبورهم ويثدرون لهم ، وتراهم هناك في ذلك وخضوع وتوجد ، قد لا يكون في صلاة من يصلى منهم » .

(١) المرجع السابق ص ٩٥ .

« وهو فيما يتعلق بالأحكام الفقهية يدعو إلى بساطة تعاليم الإسلام وسهولتها ومرونتها . ويرى في التعقيد الذي أصاب المذاهب الفقهية أحد الأسباب التي دفعت الناس إلى التحلل منها عن طريق الانخراط في الطرق الصوفية التي أباح لهم التحلل من التكليف ..

« كما يرى في العودة إلى «الحلق الإسلامي» البسيط ، والسلوك البعيد عن «الإغراق في النسك الأعجمي ، والتخيل الفلسفي» أحد السبل التي تتلافى التعقيدات التي دفعت بجماهير مسلمة غفيرة إلى طريق التصوف أيضاً ..

« كما برأ السلوك الإسلامي من ذلك «التواضع الصوفي» الذي بلغ حد «الذلة» و«القنوط» ، فدعا لاستبدال ذلك بالإيمان والتقوى ، ورأى فيها «العلاج الوحيد من حالتنا .. فنقطة البدء في أي إصلاح هي تطهير العقائد من الشرك ، والأخلاق من الفساد» .

« وكانت دعوته الدائمة والمستمرة إلى موقف سلفي ينظر صاحبه بعقل معاصر ومستنير في أصول الإسلام الأولى ومنابعه النقية والجوهرية دوّما إغراق في تعقيدات الفلاسفة والمتكلمين ..^(١)

والذين قرأوا عبد الرحمن الكواكبي ، وخاصة كتابه (أم القرى) يلمحون صلوات لا تنكر بين فكر الكواكبي في هذه القضايا وفكر ابن باديس ...

« وهذا الموقف السلفي لابن باديس ، قد اتضح أكثر ما اتضح في تفسيره للقرآن الكريم .. فهو قد نهج فيه منهج الإمام محمد عبده في التفسير ، وفي ذلك يقول صديقه وزميل نضاله الشيخ البشير الإبراهيمي في حديث له عن التفسير والمفسرين : « ... ثم كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاس بظهور إمام المفسرين بلا منازع «محمد عبده» ، أبلغ من تكلم في التفسير بياناً لهديه ، وفهماً لأسراره ، وتوفيقاً بين آيات الله في القرآن وبين آياته في الأكوان .. فبوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم ، ولم ينقصه إلا أنه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه . ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيراً ، لا للقرآن ، بل للمعجزات القرآن ، ولكنه مات دون ذلك فخلفه «محمد رشيد رضا» ، فكتب في التفسير ما كتب ، ودوّن آراء الإمام فيه^(٢) ، وشرع للعلماء مناهجه ، ومات قبل أن يتمه ، فانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى أختينا

(١) المرجع السابق ص ٩٢ ، ٥٣ ، ٥٠ (نقلا عن تفسير ابن باديس للقرآن ص ١٥٥ ، ١٦٤ ، ٢٤١) .

(٢) في تحقيقنا للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ميزنا تفسيره لما فسر من القرآن عن تفسير الشيخ رشيد رضا . انظر ج ٤ .

ج ٥ من هذه الأعمال .

وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر ، بل بالشمال الإفريقي : عبد الحميد ابن باديس ..» (١).

ولقد لخص أحد شيوخ ابن باديس له هذا الموقف السلقي في تفسير القرآن عندما نصحه قائلاً : «اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة ، وهذه الآراء المضطربة ، ليسقط الساقط ويبقى الصحيح ، وتستريح ؟ !» ..

ولقد كان هذا الموقف السلقي لابن باديس شديد الوضوح ، وكما تحدث به أصدقاؤه ، فلقد أبصر خطورته أعداؤه ، فكانت بعض اتهاماتهم له أنه «وهاي» - نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب ، ومذهبه السلقي - وأنه «عبداوى» ، نسبة إلى الشيخ محمد عبده زعيم هذا الاتجاه في عصرنا الحديث . (٢)

شيء من الاعتزال :

وفي الاعتدال في الموقف السلقي تبع ابن باديس الإمام محمد عبده ، فأبكر الإغراق في «النسك الأعجمي والتخيل الفلسفي» ولكنه وقف قريباً من مدرسة المعتزلة وخاصة في قضية الحرية الإنسانية ، فرأى الإنسان حراً مختاراً . وما كان له إلا أن يقف هذا الموقف ، وهو المناضل الذي صنع على عينه كتيبة مجاهدة كى تريد لوطنها وتصنع له حاضراً ومستقبلاً غير الذى أرادوه وصنعه المستعمرون .. وهو في هذا المقام يدعو إلى تبني مجموعة من المبادئ والقواعد والعقائد التي سبق أن قررها المعتزلة ، والتي هي في ذات الوقت الموقف الإسلامي النقي في بابها وموضوعاتها .. وذلك مثل :

« الموقف من الأسباب وفعالها وفعاليتها ، وارتباط المسببات بهذه الأسباب .. وهو يعزوه نجاح أسلافنا وصنعهم لعصر حضارتنا الذهبي إلى إيمانهم بارتباط الأسباب بالمسببات ، ومن ثم عنايتهم بهذه الأسباب . (٣)

« وهو يدعو إلى الاعتقاد بجرية الإنسان واختياره لأفعاله وصنعه لها ، وإلى أن حسابيه وجزاءه إنما هو على فعله هو الذى قدمته يداه .. ووجود علم الله بالمطيع والمعاصي لا يعنى أن

(١) المرجع السابق ص ١٢٠ ، ١٢١ (نقلا عن مقدمة تفسير ابن باديس ص ٢٨ - ٣٢) .

(٢) المرجع السابق ص ٥٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٧ .

هذا العلم هو الذى أوجد الطاعة والمعصية ، فالذى أوجدها هو اختيار الفاعل لها .. فالله سبحانه «قد أحاط بكل شيء علماً ، فعلم من سيطعه ومن سبغى ، ولكنه الحكم العدل ، فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم ، الذى لا دخل لهم فيه ، بل جعل جزاءهم - بعد إقامة الحجة عليهم - بما يكون من اختيارهم ، ليكون جزاؤهم على ما عملوا وما قدمت أيديهم ... فلا يصح أن يحتج بالقدر فى الذنوب ، لأن حجة الله قائمة على الخلق بالتمكن والاختيار والدلالة الفطرية والدلالة الشرعية ، لقوله تعالى : (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم . ما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يخرصون) (١) ..» (٢) .

« ووقف ابن باديس إلى جانب المعتزلة - وتبع فى ذلك محمد عبده أيضاً - فى القول بأن العقل الإنسانى يدرك ، ذاتياً ، الحسن والقبح ، ويميز ما بين الحسن والقبح ، دون أن يكون ذلك وفقاً على الأدلة العقلية والنصوص. (٣)

وهكذا اتخذ موقفاً سلفياً معتدلاً ومستنيراً ، واقترب إلى حدٍ ما من بعض مواقع المعتزلة الفكرية فى العقلانية الإسلامية وكان فى كل ذلك مستجيباً لاحتياجات عصره ووطنه ، ناظراً فى تعاليم الإسلام وملء قلبه وعقله هذه الاحتياجات .

* * *

« أكثر من مفكر » :

على أن عظمة ابن باديس وعبقريته لم تكن أبداً مقصورة على ما قدم من أفكار فى الإصلاح الدينى وآراء فى التعليم العربى . وإنما كان مرجع هذه العظمة والعبقرية إلى أن الرجل قد كان مناضلاً من الطراز الأول فى سبيل تنفيذ هذه الأفكار والآراء فى ظروف غاية فى الصعوبة والقسوة ، هى تلك التى صنعها المستعمرون الفرنسيون بالجزائر على عهد ابن باديس ..

وحتى ندرك أهمية هذه الملاحظة يكفى أن نعلم أن بعض آراء ابن باديس هذه ، وبالذات الاعتماد على التعليم كسبيل للتحرر الوطنى ، قد سبقه إليها محمد عبده فى مصر ، ولكنها كانت من سلبيات فكر الأستاذ الإمام ، حسبت عليه لاله ، لأنها مكنت المستعمر وعميده «كرومر»

(١) الزخرف : ٢٠

(٢) المرجع السابق ص ١٠٥ (نقلا عن تفسير ابن باديس ص ٣٨١ . ٣٨٢ وكتاب العقائد الإسلامية ص ٥٩) .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٨ . ١٠٩ (نقلا عن تفسير ابن باديس ص ١٤٢ - ١٤٤) .

من أن يضم الرجل إلى القوى التي يعتمد عليها ، والتي تؤيده - أو على الأقل لا تناوئه - ومن أن يتخذ منها سلاحاً ضد أصحاب المواقف الوطنية «الثورية» في ذلك الحين ، ولقد كان موقف محمد عبده هذا موضع نقد الكثيرين ، وفي مقدمتهم أستاذه جمال الدين الأفغانى ، الذى قال له : «إنما أنت مثبط ؟ !» وعجب من موقفه المهادن للانجليز ، وكيف لم يؤلف ، «من تلاميذه ، مثل سعد زغلول وإخوانه .. عصبية حق تصدم باطل الانكليز؟ !»^(١) ، فهذا الذى كان موقفاً - من محمد عبده - متهادناً مع المستعمر الانجليزى فى مصر كان نفسه موقفاً ثورياً من ابن باديس فى الجزائر لاختلاف الظروف والملابسات ومن هنا كانت كثير من مواقف ابن باديس وآراؤه تبدو عادية إذا ما نظر إليها بمعزل عن ظروف الوطن الجزائرى الذى عاش فيه تحت القبضة الساحقة للمستعمرين الفرنسيين . وكانت حياة هذا الرجل الفكرية برمتها غير ذات أهمية كبرى إذا ما أخذت بمعزل عن مواقفه السياسية النضالية ضد الفرنسيين .

« فالرجل كان يتخذ من القرآن مدرسة يعلم فيها الناس النضال ، والصبر على المكاره فى أثناء هذا النضال ، فيكتب فى تفسير قول الله سبحانه ، (إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل نخوان كفور)^(٢) يقول : إن «دفع الله يكون بأسباب وأنواع ، وعلى وجوه تختلف بسبب الحكمة ، ولا تخلو كلها من دفاع ، فإن ما يصيب المؤمنين فى أفرادهم وجماعاتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد ، ويقوى فيهم الصبر والثبات ، وينبهم إلى مواطن الضعف فيهم ، وناحية التقصير منهم ، فيتداركون أمرهم بالإصلاح والمتاب ، فإذا هم بعد ذلك الابتلاء أصلب عوداً وأظھر قلوباً ، وأكثر خبرة وأمنع جانباً . وإن فى صبر الصابرين منهم ، وقد نزل به البلاء الذى لا يقدر على دفعه ، والظلم الذى لا يقدر على إزالته ، لبعثنا للقوة فى نفس غيره ممن يأنس به ، وضعفاً فى قلب ظالمه ، وفى كليهما دفع من الله للمؤمنين» .^(٣)

« والرجل كان صاحب موقف ثورى ضد الاستعمار الفرنسى .. ولقد تصاعد بهذا الموقف الثورى بتصاعد قوة القاعدة والتنظيم الذى أسسه وأقامه ورعاه ، كما كان يدعو الجميع أن يسلكوا مثله هذا المسلك الثورى ، وأن ينفخوا مثله «روح الاجتماع الثورى فى كل ما يهمهم من

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٤٧٩ . وانظر كذلك الدراسة التى قدما بها للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، وخاصة فصل : فكره السياسى ، وفكره فى التربية والتعليم . ج ١ . ص ٣٣ - ٩٩ . ص ١٥١ - ١٦٥ .

(٢) سورة الحج : ٣٨ .

(٣) الإمام ابن باديس ص ١١٣ (نقلا عن تفسير ابن باديس ص ٤٥٣) .

أمر دينهم وديناهم حتى لا يستبد بهم مستبد..»^(١).

ونحن لو ذهبنا نستقصى مواقف الرجل الثورية ضد السلطة الفرنسية المستبدة لطلال بنا المقام والمقال ، ولذلك نكتفي بعدد من الأمثلة ذات الدلالة في هذا المجال .. مثل :

١ - رد الفعل العنيف الذى حدث من جانب الفرنسيين عند قيام ابن باديس بتأسيس (جمعية العلماء) ، فلقد أصدر سكرتير الأمن العام بالجزائر تعليماته بمراقبة العلماء مراقبة دقيقة ، ورصد تحركات ابن باديس .. وحرم على غير رجال الدين الرسميين الموالين للسلطة ممارسة الوعظ بالمساجد أو إلقاء خطبة الجمعة بها وحرم على أعضاء الجمعية فتح المدارس وممارسة التعليم في «الكتاتيب»؟! . وذهب الأمر بسكرتير الأمن العام هذا - وهو فرنسى طبعاً - إلى أن عين نفسه رئيساً للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجزائر؟! حتى يباشر بنفسه مواجهة خطر ابن باديس وجمعية العلماء!!؟ .

٢ - في سنة ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م ، عندما حكمت فرنسا حكومة «الجبهة الشعبية» ، انتعشت الآمال لدى دعاة الاندماج الجزائريين في تحقيق مساواتهم بالفرنسيين ، واندماجهم فيهم على قدم المساواة . ولكن ابن باديس ظل على عدائه لهذا الاندماج ، ودعا إلى تأسيس (المؤتمر الإسلامى الجزائرى) من كل الاتجاهات والأحزاب ، فانعقد المؤتمر في ٧ يونيو سنة ١٩٣٦ م ولم يشأ ابن باديس أن يكون العلماء أعضاء فيه ، فحضره كمراقبين ، وذلك حتى تكون لهم حرية الحركة إذا ما تغلبت أصوات دعاة الاندماج .. وتحقق ظن ابن باديس ، فاحتفظ العلماء لأنفسهم بحرية الحركة في سبيل الاستقلال عندما وقفت أغلبية المؤتمر إلى جانب الاندماج .

٣ - في ١٨ يونيو سنة ١٩٣٦ م سافر إلى باريس وفد يمثل المؤتمر الإسلامى الجزائرى ، ولقيهم «دلاديه» وزير شؤون الجزائر في الحكومة الفرنسية ، الذى هدد أعضاء الوفد بقوله : «إن لدى فرنسا مدافع طويلة»؟! فتصدى له ابن باديس قائلاً : «إن لدينا مدافع أطول؟!» . فتساءل «دلاديه» عن أمر هذه المدافع الأطول التى تحدث عنها هذا الشيخ ، فأجابه الرجل : «إنها مدافع الله؟! ..» وبالطبع سخر الوزير الفرنسى . وما كان يدرى يومئذٍ أن أصدق الأقوال التى قيلت يومئذٍ وأكثرها واقعية ومطابقة للحقيقة

(١) المرجع السابق ص ٢٦ (بقلا عن تفسير ابن باديس ص ٢٢٣) .

إما كان هذا القول الذى قاله ابن باديس !! .. ونتائج الصراع هى الشاهد على صدق الشيخ ، وعلى كذب « دلاديه » ! .

٤ - وشهدت سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م تزايد حرارة المواقف الثورية لابن باديس ، وذلك تبعاً لتزايد قوته واقترابه من بلوغ الحد الذى أراده لهذه الكتيبة المناضلة التى سهر على تكوينها منذ نحو ربع قرن من الزمان ..

(أ) فعندما أراد الفرنسيون الاحتفال بمرور قرن على احتلالهم للمدينة « قسنطينة » ، - بلد ابن باديس - أصدر الرجل فى ٢٨ سبتمبر منشوراً باسمه طلب فيه من الأهالى مقاطعة هذه الاحتفالات .. واستجاب له الشعب ، وفشلت احتفالات الفرنسيين ..

(ب) ووجه إلى الأمة نداء يدعوها فيه إلى المقاومة السلبية حتى تسلم السلطات الفرنسية بمبدأ مساواة الجزائريين مع المستوطنين الفرنسيين فى المجلس النيابية بالجزائر . وقال فى هذا البيان : « حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامى أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمة ترى ، أو ترى أكثريتها ، ذلك كثيراً علينا !! ويسمعنا كثير منها فى شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا ويحرج أعز شئء لدينا ، لنندع الأمة الفرنسية ترى رأيها فى برلمانها ، ولتتمسك - عن إيمان وأمل - بشخصيتنا ، ولنطالب بالمساواة التامة فى جميع الحقوق فى وطننا ، وأولها المساواة فى المجلس النيابية » .

(ج) وكان خطر الحرب العالمية الثانية قد افترب من فرنسا ، فسعت حكومتها إلى الحصول على المساندة والتأييد ، وطرقت لذلك أبواب « جمعية العلماء » بواسطة أحد أعضاء الجمعية - الشيخ العقبي - وأيد العقبي فى إرسال برقية تأييد للحكومة الفرنسية ثلاثة من أعضاء الجمعية ، ورفض ابن باديس ومعه أغلبية الأعضاء ، وقال ابن باديس يوماً : إن الأغلبية لو وافقت لقدمت استقالتي ، وإننى لن أوقع هذه البرقية حتى لو قطعوا عنق ؟ ! ..

(د) وأطلق ابن باديس على يوم افتتاح « جمعية العلماء » لمؤسسة « دار الحديث » التعليمية « بتلمسان » « يوم عيد النهضة الجزائرية » ، وذلك تعبيراً عن اقتراب الثمرة التى عمل لها من النضج والاستواء ، وفى خطابه فى ذلك اليوم - ٢٧ سبتمبر

سنة ١٩٣٧ م - قال عن هذه النهضة : «إنها سلام على البشرية ، لا يخشاها النصراني نصرانيته ، ولا اليهودى ليهوديته ، بل ولا المحوسى لمحوسيته ، ولكن يجب ، والله ، أن يخشاها الظالم لظلمه ، والدجال لدجله ، والخائن لخيانته !!» .. وفى هذه الكلمة حدد ابن باديس أعداء هذه النهضة وهم «الظلمة» (المستعمرون) ، و«الدجالون» - (الطرقية) ، و«الخونة» (دعاة الاندماج) .. وأهم من ذلك ، فإنه أعلن أن هذه النهضة قد بلغت الحد الذى يخشاها فيه هؤلاء الأعداء ؟ ! ..

٥ - وفى سنة ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م نرقب من خلال أحاديث ابن باديس أن الحركة التى صنعها وقادها قد انتقلت إلى طور جديد ، فهو يقول : «إننا قد «استطعنا أن نعلن عن وجودنا ، وأن نخيف بعد أن كنا نخاف !» .. كما أعلن أن «جمعية العلماء» لن تلجأ بعد اليوم إلى ما كانت تلجأ إليه من قبل من الشكوى إلى السلطات الفرنسية من الأعمال التى تقوم بها هذه السلطات ، مباشرة أو بواسطة العملاء ، فيخطب الرجل ، ويقول هذه الكلمات ذات الدلالة : «أيها الإخوان .. فنحن مع بقائنا على جميع ما قلنا وبيّنا ، واستمرارنا فى موقفنا كما كنا ، لا نريد اليوم أن نرفع شكوانا ولا أن نقدم احتجاجنا ، وحسبنا هذه السنة السكوت ، وكفى بالسكوت احتجاجاً عند من عرف وأنصف !» ، تم يتحدث عن توضيحات «جمعية العلماء» فتدلنا كلماته على المستوى النضالى الذى بلغته الحركة فى ذلك العام ، فهو يخاطب مؤتمر الجمعية فيقول : «أما بعد ... فسلام عليكم يا أعضاء (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) أجمعين .. و سلام على مساجينكم فى المساجين ، و سلام على متهميكم فى المتهمين ، و سلام على منكوبيكم فى المنكوبين .. سجون و اتهامات و نكبات .. ثلاث لا تبني الحياة إلا عليها ، ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحققة إلا على أسسها .. فالיום - وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث - أثبتت الجمعية فى تاريخ الإسلام وجودها ، وسجلت فى صحيفة الخلود رسمها ، ونقشت فى قلوب أبناء المستقبل اسمها ، وبرزت فى ذلك كله أسماء المسجونين والمتهمين والمنكوبين نجوماً متألقة تأخذ بالأبصار !» (١) .

ومنذ ذلك التاريخ وهذه الكتيبة المؤمنة التى صنعها ابن باديس تقدم العديد من النجوم المتألقة وترتفع بها إلى سماء النضال : مسجونين ومتهمين ومنكوبين .. حتى جاء الوقت الذى

(١) [كتاب آثار ابن باديس] ج ٣ ص ٥٦١ طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .

فتحت فيه هذه الكتيبة أذرعها لجيل جديد من الثوار قاد ثورة الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤ م
٥ ربيع الأول سنة ١٣٧٤ هـ التي حققت حلم ابن باديس وطبقت خطته التي بدأها سنة
١٣٣١ هـ ١٩١٣ م ، حققتها في سنة ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م بعد قرن وثلث القرن من الاحتلال
الوحيثى ومحاولات الإبادة لهذا الشعب العربي الصابر المناضل العنيد ..

* * *

- ٢١ -

الخضر حسين

[١٢٩٣ - ١٣٧٧ هـ - ١٨٧٦ - ١٩٥٨ م]

الإصلاح بالإسلام

ليست هذه بالترجمة المستفيضة لحياة الشيخ الفاضل محمد الخضر حسين .. وإنما هي «بطاقة» تجتهد لتكثف هذه الحياة الخصبة في سطور ..

- فمن أسرة جزائرية «شريفة» ، يرتفع نسبها إلى الأمراء الأدارسة ، بالمغرب ، جاء والده .. ومن أسرة تونسية ، اشتهرت بالعلم والفضل والتقوى - هي أسرة عزوز - جاءت والدته ..
- وفي مدينة «نفطة» ، من أعمال «الجريد» ، بجنوب القطر التونسي ، ولد شيخنا في ٢٦ رجب سنة ١٢٩٣ هـ ١٦ أغسطس سنة ١٨٧٦ م .. وفي «نفطة» كانت نشأته الأولى ، التي تأثر فيها بأبيه ، وبخاله السيد محمد المكى بن عزوز ، الذى كان من كبار العلماء ، وموضع احترام رجال الدولة العثمانية يومئذ ، والذى قضى الشطر الأخير من حياته فى الآستانة ، تلبية لرغبة السلطان عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] .. وله مؤلفات علمية معروفة ، وترجمة فى بعض كتب التاريخ ...

وفي هذه النشأة الأولى ، «بنفطة» ، حفظ شيخنا القرآن الكريم ، وألم بجانب من الأدب ، والعلوم العربية ، والشرعية ..

- وفي الثانية عشرة من عمره [سنة ١٣٠٥ هـ سنة ١٨٨٨ م] انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة .. وبعد عامين [سنة ١٣٠٧ هـ سنة ١٨٨٩ م] التحق «بجامع الزيتونة» ، المناظر ، فى تونس والمغرب ، للجامع الأزهر الشريف ..

وفي الزيتونة تقدم الفتى فى تحصيل العلم ، وظهرت أمارات نبوغه فى علوم العربية وعلوم الشريعة ، وتجلّى ذوقه الأدبى ، فى الإنشاء وفى التدقيق ، حتى لقد طلبته الحكومة ليتولى بعض الخطط العلمية ، قبل إتمامه دراسته .. لكنه اعتذر عن عدم القبول لرغبة حكومة تونس الفرنسية؟! .

- كانت رحلته الأولى ، خارج تونس ، إلى الشرق - ولما يزل طالبا - فزار طرابلس الغرب ، في ليبيا ، سنة ١٣١٧ هـ سنة ١٨٩٩ م ، فأقام بها أياما ، ثم عاد إلى تونس ، فلابزم جامع الزيتونة .
- وفي سنة ١٣٢١ هـ سنة ١٩٠٣ م نال شهادة العالمية ، وأصبح من علماء الزيتونة .. وفي نفس العام الذي تخرج فيه من جامع الزيتونة أنشأ مجلة [السعادة العظمى] ، التي كانت رائدة المجالات العلمية والأدبية في بلاد الشمال الإفريقي يومئذٍ .. فلفت الأنظار إلى قلمه ولسانه .. فلقد كان خطيبا ومحاضراً إلى جانب كونه أديبا وشاعرا وكاتبا ..
- وفي سنة ١٣٢٤ هـ سنة ١٩٠٥ م تولى قضاء مدينة بنزرت ومنطقتها ، إلى جانب التدريس والخطابة بجامعها الكبير ..
- وفي ١٧ ربيع الآخر سنة ١٣٢٤ هـ ٩ يونيو سنة ١٩٠٦ م ألقى في نادى قداماء خريجي المدرسة الصادقية محاضرة عن «الحرية في الإسلام» ، فكشف بها عن موقف فكري ذي مغزى في بلد يستبد بحكمه المستعمرون الفرنسيون ؟ ! .. ثم ما لبث أن استقال من قضاء بنزرت ، وعاد إلى تونس العاصمة ، مدرسا بالمدرسة الصادقية ، وكانت المدرسة الثانوية الوحيدة بتونس يومئذٍ .. وكان ذلك في سنة ١٣٢٦ هـ سنة ١٩٠٨ م .. وفي العام التالي لتدريسه بالصادقية [سنة ١٣٢٧ هـ سنة ١٩٠٩ م] تطوع للتدريس بجامع الزيتونة .. ثم أحيلت إليه مهمة تنظيم خزائن الكتب الخاصة بهذه الجامعة .. وتم تعيينه ، رسميا ، مدرسا بجامع الزيتونة .
- وفي سنة ١٣٢٥ هـ سنة ١٩٠٧ م اشترك في تأسيس «الجمعية الزيتونية» .. ثم كلف بالخطابة في «الخلدونية» ..
- وفي ١١ شوال سنة ١٣٢٧ هـ ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٩ م ألقى محاضرة في نادى الجمعية الخلدونية عن «حياة اللغة العربية» ... وفي العام التالي [سنة ١٣٢٨ هـ سنة ١٩١٠ م] نظم قصيدة يدعو فيها علماء جامع الزيتونة إلى العناية بتنشئة جيل من الكتاب والأدباء والدعاة .. فوضحت مقاصده من وراء الدعوة إلى إحياء قيم «الحرية» و«العروبة» وأدوات «الكتابة» و«الخطابة» في وطن يخضع لاستعمار ينهب خيراتهِ ويستبد بمقدراتهِ ويمسح هويته العربية الإسلامية ؟ ! ..
- ولما قامت الحرب الطرابلسية في ٥ شوال سنة ١٣٢٩ هـ ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ م بين

إيطاليا والدولة العثمانية ، وزحفت الجيوش الإيطالية فاحتلت طرابلس وبنغازي ، وقف الشيخ الخضر بقلمه ولسانه ، ومن خلال مجلته [السعادة العظمى] يستنفر الأمة لتقاوم الغزو الإيطالي ، ويستنهض الدولة العثمانية استخلاص الحق من غاصبيه .. ومن بيانه في ذلك قصيدة مطلعها :

ردوا على مجدنا الذكر الذي ذهبنا يكفي مضاجعنا نوم مضى حقبا !

● ثم سافر إلى الجزائر زائرا لأمهات مدنها ، ومحاضرا فيها ... وعاد إلى تونس يواصل دروسه بالزيتونة ، ونشاطه في المحاضرات والخطابة والكتابة في الإصلاح الإسلامي والنهضة العربية وإذكاء الروح الوطنية ..

● وفي هذه الفترة رفض رغبة الحكومة ضمه إلى سلك القضاء في محكمة فرنسية ؟ ! ..

● وكان لابن الصدام بن سعي الشيخ المناضل وبين سلطات الاستعمار الفرنسي في تونس ،

فوجهت هذه السلطات إليه في سنة ١٣٢٩ هـ سنة ١٩١١ م تهمة « بث روح العداء للغرب ،

وبخاصة لسلطة الحماية الفرنسية في تونس » .. فلما استشعر الشيخ الخطر على حياته ، غادر تونس

إلى الآستانة ، بحجة الرغبة في زيارة خاله السيد محمد المكى بن عزوز ، الذي كان يعيش

هناك .. وكانت رحلته هذه إلى الآستانة ، عبر مصر ، فدمشق ... لكنه لم يلبث أن حن إلى

وطنه تونس ، فعاد إليه ، عبر نابولي ، في إيطاليا وبشر أخبار رحلته هذه .. وعينته الحكومة

عضوا بإحدى لجان التاريخ التونسي ... لكن الجو الخانق الذي كان مفروضا على تونس من

سلطات الاحتلال الفرنسي دعاه إلى الهجرة ثانية ، فقصده إلى دمشق .. وفي طريقه إليها مرَّ

بالقاهرة فلبث فيها مدة وجيزة تعرف فيها على كوكبة من العلماء الأعلام المناضلين في سبيل

النهضة العربية والإحياء الإسلامي . منهم : الشيخ طاهر الجزائري [١٢٦٨ - ١٣٣٨ هـ

١٨٥٢ - ١٩٢٠ م] والسيد محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م]

والسيد محب الدين الخطيب [١٣٠٣ - ١٣٨٩ هـ ١٨٨٦ - ١٩٦٩ م] وأحمد تيمور باشا

[١٢٨٨ - ١٣٤٨ هـ ١٨٧١ - ١٩٣٠ م] .. وفي دمشق عين مدرسا للغة العربية في المدرسة

السلطانية سنة ١٣٣٠ هـ سنة ١٩١٢ م .. وخلال تلك الفترة سافر إلى القسطنطينية فوصلها

يوم إعلان حرب البلقان «الروسية - العثمانية» - ذى القعدة سنة ١٣٣٠ هـ أكتوبر سنة

١٩١٢ م . ثم عاد إلى دمشق ، ومنها سافر ، بسكة حديد الحجاز ، إلى المدينة المنورة سنة

١٣٣١ هـ سنة ١٩١٣ م .. ثم عاد إلى دمشق ..

ومن دمشق سافر إلى الآستانة ، ولقى وزير حريبتها أنور باشا [١٢٩٩ - ١٣٤٠ هـ ١٨٨٢ -

١٩٢٢ م] فاختاره محررا عربيا بالوزارة .. ولقد اتاحت له الفرصة ليلمس عوامل الفساد التي تفتك بمقومات الدولة العثمانية ، فسجل ذلك شعرا في قصيدته التي نظمها سنة ١٣٣٢ هـ سنة ١٩١٤ م ، والتي يقول فيها :

أدمى فؤادي أن أرى الـ أقلام ترسف في القيود
فهجرت قوما كنت في أنظارهم بيت القصيد
وحسبت هذا الشرق لم يبرح على عهد الرشيد
فإذا المجال كأنه من ضيقه خلق الوليد!

● وفي سنة ١٣٣٣ هـ سنة ١٩١٥ م أرسله أنور باشا إلى العاصمة الألمانية برلين في مهمة رسمية ، فمكث بها تسعة أشهر ، اجتهد خلالها أن يتعلم اللغة الألمانية ... وعندما تحدث إليه المدير الألماني للقسم الشرقي بوزارة الخارجية الألمانية ، خلال صحبته بقطار ضواحي برلين ، عن قول ابن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨ هـ - ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م] : إن العرب أعد الناس عن السياسة .. رفض هذا التفسير العنصري لكلام ابن خلدون ، ودافع عن العرب .. ونظم أبياتا قال فيها :

غديري من فتي أزرى بقومي وفي الأهواء مايلسد الهذاء
سلوا التاريخ عن حكم تملت رعاياه العدالة والإخاء
هو الفاروق لم يدرك مداه أمير هز في الدنيا لواء

ومن برلين عاد إلى الآستانة .. وما لبث أن ضاقت به ، فحن إلى دمشق ، وعاد إليها ..

● وفي دمشق اعتقله السفاح أحمد جمال باشا [١٢٨٩ - ١٣٤٠ هـ - ١٨٧٢ - ١٩٢٢ م] الحاكم العام في سورية ، في رمضان سنة ١٣٣٤ هـ يوليو سنة ١٩١٦ م ، لعدة أشهر ، حتى أنقذه من السجن تدخل وزير الحربية العثماني أنور باشا .. فغادر دمشق ، بعد الإفراج عنه ، إلى الآستانة ، فأوفده أنور باشا ، ثانية ، إلى برلين سنة ١٣٣٥ هـ سنة ١٩١٧ م . فالتقى فيها بزعماء الحركات الإسلامية هناك ، من مثل الشيخ عبد العزيز جاويش [١٢٩٣ - ١٣٤٧ هـ - ١٨٧٦ - ١٩٢٩ م] والدكتور عبد الحميد سعيد [١٢٩٩ - ١٣٥٩ هـ - ١٨٨٢ - ١٩٤٠ م] والدكتور أحمد فؤاد [١٣٠٣ - ١٣٥٠ هـ - ١٨٨٦ - ١٩٣١ م] ، ثم عاد ، بعد فترة طويلة ، إلى الآستانة .. ومنها رجع إلى دمشق ، وإلى التدريس في المدرسة السلطانية بقية سنة ١٣٣٥ هـ وسنة ١٣٣٦ هـ - سنة ١٩١٧ م وسنة ١٩١٨ م - فشرح لنجباء الطلاب كتاب ابن هشام [٧٠٨ - ٧٦١ هـ - ١٣٠٩ -

- ١٣٦٠ م] «مغنى اللبيب» فى علم العربية ... وهو الشرح الذى كان الأساس لبحثه فى «القياس وشروطه ومواقفه وأحكامه» .. وهو البحث الذى طوره ، فيما بعد ، كتابا نال به عضوية «هيئة كبار العلماء» بالجامع الأزهر.. وطبع سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ م.
- وفى سنة ١٣٣٧ هـ سنة ١٩١٨ م سافر من دمشق إلى الآستانة . وكانت الحرب العالمية الأولى فى نهايتها ، ومنها توجه إلى ألمانيا للمرة الثالثة ، ففضى بها سبعة أشهر .. وكانت نذر الزوال للدولة العثمانية تطل فى الأفق .. فعاد من ألمانيا إلى دمشق مباشرة ! ..
 - وصادفت عودته إلى دمشق إقامة الحكم العربى بقيادة فيصل بن الحسين [١٣٠٠ - ١٣٥٢ هـ ١٨٨٣ - ١٩٣٣ م] سنة ١٣٣٨ هـ سنة ١٩١٩ م .. لكن الاحتلال الفرنسى عاجل هذا الأمل العربى سنة ١٣٣٨ هـ سنة ١٩٢٠ م .. ففكر الشيخ ، الذى هاجر من تونس المحتلة بالفرنسيين ، فى العودة إليها بعد أن احتلوا دمشق أيضا ! .. لكنه رحل إلى القاهرة وألقى بها عصا ترحاله الذى استمر عشر سنوات ، فاستوطن القاهرة سنة ١٣٣٩ هـ سنة ١٩٢١ م .
 - وفى القاهرة أعانه الاستقرار على الإنتاج العلمى المنظم ، والنشاط الإصلاحى الدائم ، فوضحت معالم نهجه فى التجديد والإصلاح ، وتكونت من حوله حلقات الطلاب والمريدىن ، وأخذت تأثيرات علمه وإصلاحه تلفت إليه أنظار العلماء وطلاب الإصلاح ..
- ففى سنة ١٣٤٠ هـ سنة ١٩٢٢ هـ ألف رسالته «الخيال فى الشعر العربى» .. واشتغل عدة سنوات فى التحقيق لكتب التراث بالقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية ... وتجنس بالجنسية المصرية .. تم تقدم إلى امتحان العالمية بالجامع الأزهر ، فحصل عليها بجدارة ، وأصبح واحدا من علماء الأزهر الشريف ..
- ولم يكن التجنس بالجنسية المصرية ، ولا الانخراط فى «هيئة كبار العلماء» ، والاشتغال بالبحث والتحقيق .. لم يكن فى ذلك ما يعوق الشيخ الخضر عن مواصلة النهوض بمسئوليته وواجباته كعالم مسلم ومجاهد عربى .. وأيضا رعاية حقوق وطنه الأصلى تونس ، وأشقاؤه الراضحين ، بالمغرب ، تحت نير الاستعمار الفرنسى .. فنهض الشيخ فى سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٤ م بتأسيس [جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية] لتكتيل وتحريك جهود أبناءها فى خدمة قضية تحرير هذه البلاد من الاستعمار .. ولقد كانت هذه الجمعية مكان اللقاء والتعاون بين أحرار تلك البلاد ومناضليها ، فضممت عضويتها من المغرب : الفضيل الورتلائى] [ومن الجزائر : البشير الإبراهيمى [١٣٠٦ -

١٣٨٥ هـ - ١٨٨٩ - ١٩٦٥] ومن تونس : الحبيب بورقيبة [١٢٢١ - هـ
١٩٠٣ - . [

● وفي سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٥ م بدأت معاركه الفكرية الكبرى بكتابه [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] .. ولقد كان الشيخ صديقا لأسرة عبدالرازق ، يتردد على منزلهم ، وبينه وبينهم علاقات المودة والاحترام .. وعندما قارب طبع كتاب الشيخ على عبدالرازق [الإسلام وأصول الحكم] على التمام ، طلب آل عيدالرازق من الشيخ الخضر عناوين زعماء العالم الإسلامي ومفكره ليهدوا إليهم الكتاب ، فأتاهم بقائمة العناوين من صديقه محب الدين الخطيب .. فلما طبع كتاب [الإسلام وأصول الحكم] أهديت إليه نسخة منه ، ففاجأته أفكار صاحبه .. فعكف على الرد عليه ونقضه ، فطبع الرد في نفس السنة ، ونفدت طبعته خلال شهر واحد ! ..

وفي العام التالي [سنة ١٣٤٥ هـ سنة ١٩٢٦ م] ظهر كتاب [في الشعر الجاهلي] للدكتور طه حسين ، فرد عليه الشيخ بكتابه [نقض كتاب في الشعر الجاهلي] فصنع معه ما صنع مع كتاب [الإسلام وأصول الحكم] عندما فنده فقرة فقرة وفكرة فكرة ، مع أدب رفيع في الحوار وبراعة في الجدل كشفت عن عقل متمكن ومتمرس في ميدان البحث والمناظرة ، يعترف صاحبه من معين من العلم لا يغيض .

لقد أدى الرجل بهذين الكتابين حق دين وأمة ، ونهض بفرض كفاي وجب على الأمة جمعاء .. وكان ، بحق ، كما قال هو :

ناضلت عن حق يحاول ذو هوى تصويره للناس شيئا منكرا

● وفي سنة ١٣٤٦ هـ سنة ١٩٢٧ م اشترك مع صديقه العلامة أحمد تيمور باشا في تأسيس [جمعية الشبان المسلمين] التي جاءت طليعة الجمعيات الإسلامية التي تكونت للتعريف بالإسلام ، والزود عن حضارته ، في تلك الحقبة التي تميزت بزحف فكرية «التغريب» على وطن العروبة وعالم الإسلام .. ولقد رأس أول اجتماع تحضيري لتأسيسها في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٧ م ..

كذلك نهض الشيخ الخضر بتأسيس [جمعية الهداية الإسلامية] ، التي ضمت كوكبة من المثقفين ثقافة دينية ومدنية .. وأصدر لها مجلة [الهداية الإسلامية] .. وكون لها مكتبة عامة ، جعل من مكتبته الخاصة نواة لها .. ولقد امتد نشاط هذه الجمعية إلى الأقاليم ، فقامت لها

فروع فيها .. وكانت محاضراته المستمرة فيها ومقالاته في المجلة جهدا منظما ومستمرًا قدم من خلاله معالم دعوته للإحياء الإسلامي والنهضة العربية وتحرير ديار العروبة والإسلام .. ولقد جمعت مقالاته ومحاضراته هذه في كتاب من ثلاثة أجزاء هو [رسائل الإصلاح] ..

● وعندما أصدر الأزهر مجلته ، التي بدأت باسم [نور الإسلام] في سنة ١٣٤٩ هـ سنة ١٩٣٠ م عهد إلى الشيخ الخضر برئاسة تحريرها ، فنهض بهذه المهمة من عددها الأول - [محرم سنة ١٣٤٩ هـ مايو سنة ١٩٣٠ م] - حتى عدد ربيع الآخر سنة ١٣٥٢ هـ يوليو سنة ١٩٣٣ م .. عندما استقال من رئاسة تحريرها ، رافضا التعاون مع الأستاذ محمد فريد وجدى [١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ ١٨٧٨ - ١٩٥٤ م] الذي عين - دون إذن الشيخ الخضر - مديرا لتحرير المجلة .. وكان بينهما جدل فكري يومئذ في الصحف والمجلات .. ولم تفلح وساطة الشيخ الظواهري [١٢٩٥ - ١٣٦٣ هـ ١٨٧٨ - ١٩٤٤ م] - شيخ الأزهر - في إثنائه عن الاستقالة .. وكان معايشة يومئذ أقل من خمسة جنيهات ؟ ! .. لكن نشاطه تواصل في التدريس بكلية أصول الدين .

● وعندما تكون «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة في سنة ١٣٥١ هـ سنة ١٩٣٢ م ، من عشرين عضوا عاما ، كان الشيخ الخضر واحدا من أقدم هؤلاء الأعضاء ، ومن أكثرهم إنتاجا .. فلقد شارك في كثير من لجان المجمع العلمية ، من مثل : لجنة اللهجات .. ولجنة الآداب والفنون الجميلة .. ولجنة دراسات معجم فيشر .. ولجنة الأعلام الجغرافية .. ولجنة الأصول .. ولجنة معجم ألفاظ القرآن الكريم .. ولجنة المساحة والعمارة .. ولجنة المعجم الوسيط .. الأمر الذي يعكس وزنه العلمي وثقله الفكري وثقافته الموسوعية وجهده الدؤوب في خدمة الفكر... كذلك نشرت له مجلة المجمع العديد من الأبحاث ، من مثل :

١ - «المجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية» ..

٢ - «شرح قرارات المجمع والاحتجاج بها ، وتكملة مادة لغوية ورد بعضها في المعجمات ولم ترد بقيتها» ..

٣ - «الاستشهاد بالحديث في اللغة» ..

٤ - «وصف جمع العاقل بصفة فعلاء» ..

٥ - «اسم المصدر في المعجم» ..

٦ - «طرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها في البلاد العربية» ..

٧ - «شعر البديع في نظر الأدباء» ..

٨ - «من وثق من علماء العربية ومن طعن فيه» .

ولم يقف نشاطه الجمعي عند مجمع القاهرة .. فلقد اختير عضوا بالمجمع العلمي العربي بدمشق .

● وفي سنة ١٣٦٦ هـ سنة ١٩٤٧ م رأس تحرير مجلة [لواء الإسلام] وبدأ فيها تفسيره للقرآن الكريم ..

● وفي سنة ١٣٧٠ هـ سنة ١٩٥١ م نال عضوية «هيئة كبار العلماء» برسائلته [القياس في اللغة العربية] .

● وعندما قامت الثورة المصرية في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م كان منصب شيخ الأزهر شاغرا .. فوقع اختيار الثورة وحكومتها على الشيخ الخضر إماما أكبر وشيخا للإسلام ووجها مشرقا لهذه الجامعة العريقة تطل من خلاله على عالم العروبة والإسلام .. فتوجه ثلاثة من الوزراء إلى منزل الشيخ ، بشارع خيرت ، في يوم الثلاثاء ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ ١٦ سبتمبر سنة ١٩٥٢ م طالبين منه قبول مشيخة الأزهر .. فنهض بالأمانة ما وسعته الطاقة .. وعندما أحس بضغوط تحول بينه وبين تنفيذ ما يريد ، أو تطلب منه تنفيذ مالا يرضى صمم على الاستقالة في ٢ جادى الأولى سنة ١٣٧٣ هـ ٧ يناير سنة ١٩٥٤ م .. قاتلا كلمته الشهيرة : «يكفينى كوب لبن وكسرة خبز ، وعلى الدنيا بعدهما العفاء» ؟ ! ... ولقد ألح إلى ملاسبات استقالته عندما قال : «إن الأزهر أمانة فى عنقى ، أسلمها - حين أسلمها - موفورة كاملة ، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يديّ فلا أقل من ألا يحصل له نقص» ! ..

● ومنذ ذلك التاريخ تفرغ للبحث والكتابة والمحاضرة ، حتى وافاه الأجل ، فانتقل إلى جوار ربه مساء يوم الأحد ١٣ رجب سنة ١٣٧٧ هـ ٣ فبراير سنة ١٩٥٨ م .. فشيعة العلماء والفضلاء والعارفون لفضله وعلمه ونضاله ، حتى لقد امتد موكب جنازته ما بين ميدان باب الخلق والجامع الأزهر الشريف ؟ ! ..

ولم يخلف الرجل وراءه من حطام الدنيا شيئا ، حتى لقد دفن - بناء على وصيته - بمدفن الأسرة التيمورية ، مع صديقه العلامة أحمد باشا تيمور ! ... لكنه خلف ، غير النضال والأثر الطيب والذكر الحسن والقدوة الصالحة ، كنوزا من الفكر شاهدة على عقله المبدع والمجدد ، وجهده الدؤوب ، وعزمه الذى لم يعرف الوهن أو التقصير ... فغير خطبه ومحاضراته ومقالاته وأبحاثه التى لم تجمع .. خلف لنا هذه المؤلفات :

- ١ - [رسائل الإصلاح] - في ثلاثة أجزاء -
- ٢ - [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم].
- ٣ - [نقض كتاب في الشعر الجاهلي].
- ٤ - [القياس في اللغة العربية].
- ٥ - [الخيال في الشعر العربي].
- ٦ - [آداب الحرب في الإسلام].
- ٧ - [خواطر الحياة] - [ديوان شعره] - .
- ٨ - [تعليقات على كتاب [الموافقات] للشاطبي].

* * *

لقد كان ، رحمه الله ، عقلا إسلاميا مجددا .. ومناضلا في سبيل النهضة العربية والإحياء الإسلامي ، يتحلى بخلق الأولياء والصديقين والشهداء

● فهو في تونس يواجه الاستبداد الاستعماري والمسوخ الحضاري بالدعوة إلى إحياء العربية لتكون سلاحا في معركة الأمة من أجل حريتها واستخلاص هويتها العربية الإسلامية .. ويستنهض الشعب بإبراز قيمة ومكانة «الحرية» في الإسلام .. ويدفع الثمن هجرة من الربوع التي نشأ فيها ! ..

● وهو في المشرق ، بدمشق ، يواجه تسلط السفاح أحمد جمال باشا ، فيدفع الثمن سجنا وتعذيبا ..

فلقد كان عداؤه للاستعمار الأجنبي وللإستبداد الداخلي شديدا ودائما ..

فلا كان من عيش أرى فيه أمتي تساس بكفئ غاشم وغريب !

● وهو في مصر يتصدى لخطر الغزو الفكري ، ممثلا في تيار «التغريب» ، فينقض كتابي على عبد الرازق وطه حسين ... ويسهم ، بالفكر ، في إنهاض العروبة وتجديد الإسلام ... ويسلك سبل التنظيم - الاجتماعي والفكري والقومي والعلمي - من خلال [جمعية الهداية الإسلامية] ومجلتها .. و[جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية] .. و[جمعية الشبان المسلمين] .. و[هيئة كبار العلماء] .. و[الجماع اللغوية] .. و[القسم الأدبي بدار الكتب المصرية] .. ومجلات [نور الإسلام] و[لواء الإسلام] .. الخ .. الخ .. ليجمع الأنصار حول فكره التجديدي ، وليمهد السبل لهذا الفكر كي يوضع في الممارسة والتطبيق ..

لقد جمع إلى وعيه بتراث أمته وكنوزها الحضارية ، وعيا بالتحديات المعاصرة التي تحول بينها وبين النهضة والإحياء ، فكان لسان «الأصالة» ، المعبر عن مشكلات «المعاصرة» وضرورتها .. يدود عن «فكر الإسلام ومجد العروبة» ، ويدعو إلى النهضة الحديثة المرتكزة على «المعارف» و«الصناعات» ! ..

أبناء هذا العصر، هل من نهضة تشفى غليلا حره يتصعد؟!
هذى الصنائع ذلت أدواتها وسبيلها للعالمين م مهد
إن المعارف والصنائع عُدّة باب الترقى من سواها موصل!

ولقد أصاب صديقه العالم الفاضل محب الدين الخطيب ، عندما وصفه فقال : « هذا رجل آمن بالإسلام ودعوته ، وأحب من صدر حياته أن يكون من الذين قال الله سبحانه فيهم : [إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون]^(١)^(٢)

* * *

وإذا كان لنا - في هذا المقام - وفي إطار هذا الحيز - الذي نحصر أن لا يكون طويلا - إذا كان لنا أن نضع بين يدي القارئ ، وأمام عقله وبصيرته ملامح عن واحدة من المعارك الفكرية الجليلة التي خاضها هذا الإمام الجليل ... فإننا نقدم صفحات عن معركته ضد محاولة الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ - ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] - بكتابه [الإسلام وأصول الحكم] - « علمنة » الإسلام ... صفحات توجز القسامات الرئيسية والخطوط العامة لكتاب الشيخ الخضر : [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] .

- ماذا قال فيه ؟ ...
 - وكيف تصدى به لأخطر وأكبر المعارك الفكرية التي دارت حول علاقة الإسلام بالدولة والسياسة في عصرنا الحديث ؟؟ ..
- في هذا الكتاب - [كتاب الشيخ الخضر] - [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] -

(١) فصلت : ٣٠ .

(٢) لقد جمعنا مادة هذه الصفحات عن حياة الشيخ الخضر من مقال صديقه محب الدين الخطيب . وعنوانه : [شيخ الأزهر السابق : السيد محمد الخضر حسين] مجلة [الأزهر] عدد شعبان سنة ١٣٧٧ هـ . وكتاب [مشيخة الأزهر] لعلى عبد العظيم ج ٢ ص ١٤٧ - ١٦٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

عمد المؤلف إلى نهج يغني قارئه عن قراءة الكتاب الذي يرد عليه وينقضه .. فإذا لم يتيسر للقارئ الاطلاع على كتاب الشيخ على عبد الرازق ، فإنه سيطلع عليه في ثنايا كتاب الشيخ الحضرمي ، حتى ليكاد الرجل لا يترك من كتاب [الإسلام وأصول الحكم] فقرة إلا وأوردها ليناقد صاحبها ولينقدها وينقض فكرتها أو يبين رأيه فيها .. فهو يتتبع أبواب الكتاب ، موضوع النقض ، بابا بعد باب ، فيبدأ بتلخيص الباب .. ثم يأخذ في إيراد الفقرة المعبرة عن الفكرة ، فينقضها ، وهكذا ، إلى نهاية الباب .. ففيه معظم نصوص كتاب علي عبد الرازق .. الأمر الذي يغني القارئ له عن كتاب علي عبد الرازق ..

وفي هذا الكتاب يتجلى الشيخ الحضرمي ، في أسلوبه واختيار ألفاظه : «علما - أدبيا» .. فهو يتتق ألفاظه المعبرة بدقة شديدة عن المعنى المراد كما يصنع «الفلاسفة - العلماء» .. وهو يتخير من هذه الألفاظ المحكمة ما هو جميل ، ويصوغها في أسلوب بالغ الرقي ، كما يصنع الأدباء الذين برعوا في تذوق العربية وفقهوا أسرار جمالها وأعانهم على ذلك علم غزير بعلومها .. حتى ليصلح أسلوب الرجل وبيانه لأن يكون نموذجا للغة «العلماء - الأدباء» ! ..

وفي هذا الكتاب نرى الشيخ الحضرمي عالما بالمنطق وقضاياها - بالمعنى الفني والاصطلاحي - بارعا في فن الجدل والمناظرة .. وإذا كان الشيخ على عبد الرازق قد برع في «المراوغات التشكيكية» التي مكنته من أن يضع في كتابه متناقضات يستطيع أن يلجأ من إحداها إلى الأخرى ، عند المناظرة ، وفي أسلوبه وبألفاظه قد تسعفه إذا هو شاء أن يبنى عن كتابه التناقض ؟ ! - وهو الأمر الذي وضع جليا في «مذكرة» دفاعه عن نفسه ودفعه لاتهمات «هيئة كبار العلماء»^(١) .. فإن براعة الشيخ الحضرمي في فن الجدل وأدب المناظرة قد مكنته من تتبع «المراوغات التشكيكية» للشيخ على عبد الرازق ، في صبر وأناة ورسوخ قدم ، يحسده عليها أهل العلم وأساطين الجدل والمناظرة .. وإن بدا الرجل ، في هذا الميدان ، غير مألوف بالنسبة للقراء المتعجلين ؟ ! ..

كذلك ، يتجلى الرجل ، في كتابه هذا ، «ناقدا - محققا أميناً» .. فهو لا يقف في نقد مصادر خصمه عندما استند إليه الخصم من نصوص واقتباسات ، بل يعود إلى المصادر التي يقتبس منها الخصم ، ليتحقق من أمانته في النقل ، وليرى هل انتزع النص من سياقه على نحو مخل باتساق الأفكار ؟ .. ولقد استطاع الرجل أن يمسك بتلابيب الشيخ على عبد الرازق في بعض من هذه المواطن ! ...

(١) انظرها في كتابنا [الإسلام وأصول الحكم - للشيخ على عبد الرازق].

وكمثال على هذا «النهج التحقيقي» في نقد استخدام المصادر ، تتبع الشيخ الخضر لمقولة الشيخ على عبد الرازق القائلة إن علماء الكلام الإسلاميين قد قرروا للخليفة والإمام سلطانا إلهيا مطلقا .. فلقد ذهب الشيخ الخضر إلى المصادر التي عزا إليها الشيخ على هذه المقولة ، فكشف غياب الدقة عن الرجل في هذا الادعاء - وهو يكشف لنا هذه الحقيقة ، التي هي نموذج لهذا المنهج في «النقد بالتحقيق» فيقول : «قال المؤلف :- [على عبد الرازق] - ، عازيا إلى [طوابع الأنوار]^(١) وشرحه [مطالع الأنظار]^(٢) : «ولا غرو أن يكون له - [الخليفة] - حق التصرف في رقاب الناس وأموالهم وأبضاعهم^(٣)» . قطف المؤلف هذه الجملة من أصلها وأطلقها خالية من الروح التي تجعلها حكمة جليلة ، فإن صاحب [الطوابع] إنما ألقاها في نسق التعليل لأخذ العدالة شرطا من شروط الإمامة ، فقال : [الرابعة : أن يكون عدلا ، لأنه يتصرف في رقاب الناس وأموالهم وأبضاعهم] . وقال شارحه في [المطالع] : [لو لم يكن - يعني الإمام - عدلا لم يؤمن تعديه ، وصرف أموال الناس في مشتبهاته ، وتضييع حقوق المسلمين] ، فالمراد من التصرف في الأموال والرقاب والأبضاع التصرف بحق ، وهو التصرف بنحو القضاء ، أو بعمل مشروع ، كاستخلاص الأموال المفروضة ، وحمل الناس على أمر الجندية ، وولاية نكاح من لا ولي لها^(٤) .

فهو ، هنا ، يحقق اقتباسات خصمه ، ويكشف التجاوز الذي حدث في الاستشهاد بسبب عزل العبارة المقتبسة ، قسرا ، عن السياق الذي وردت فيه ! ...

* * *

ولقد كانت المعركة بين الشيخ على عبد الرازق وبين خصومه ، في نظر التيار «العلماني» ، على وجه الخصوص ، قد اتخذت صورة الصراع بين «التجديد» وبين «الجمود والتقليد» .. فصاحب [الإسلام وأصول الحكم] قد قدم نفسه كمجدد إسلامي ، وتحدث عن كتابه كإسهام في التجديد الديني .. كما اشتملت جبهة خصومه على أصوات كثيرة مثقلة بنغيات «الجمود والتقليد» .. لكن الشيخ الخضر حسين لم يكن من هؤلاء ، ولا كان كتابه صوتا من هذه الأصوات ... فلقد كان الرجل مجددا إسلاميا راسخ القدم على درب تجديد الإسلام ،

(١) هو متن في التوحيد ، للإمام البيضاوي . ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن علي .

(٢) لشمس الدين أبي الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصفهاني .

(٣) الأبضاع : الفروج .

(٤) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١١ من طبعة الأصل] .

يخاصم الجمود والتقليد ، ويرى فيها شذوذا على نهج الإسلام الحق والمسلمين الحقيقيين .. وفي هذا الصدد يقول : « .. من أول ما عنى به الإسلام في تشريعه أن أطلق العقول من وثاق التقليد ، وفتح أمامها باب النظر حتى تعبر إلى قرارة اليقين على طريق الحججة والبرهان ، قال تعالى : [ولا تقف ما ليس لك به علم] ^(١) وقال : [إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا] ^(٢) . وقد جرى علماء الإسلام ، ولا سيما السلف الصالح ، على هذا المنهج ، فكانوا لا يتابعون ذا رأى على رأيه ولا يتقلدون حكما قبل أن يعلموا مستنده ، وإذا عرفوا المستند عرضوه على قانون الأدلة السمعية ووزنوه بميزان النظر ليعلموا مبلغه من الصحة ، فإذا ثبت على النقد وسلم من وجوه الطعن رفعوه على كاهل القبول وإلا نبذوه نبذ الخناء المرقع ، غير مباليين بمقام مدعيه وإن حاكى القمرفعة وسناء ! ومن درس مسائل الخلاف من عهد الصحابة ، - رضى الله عنهم - ، إلى العصر الذى ساد فيه القول بسد باب الاجتهاد ، رأى الصحابة كيف يخالف بعضهم بعضا ولا ينقاد صغيرهم إلى كبيرهم إلا بزمام الحججة ، وسار على هذا الاستقلال وحرية الفكر التابعون فمن بعدهم ، ولا يكبر على أحد من المجتهدين أن يناظر أستاذه أو من كان أوفر منه علما وأوسع نظرا فيقارع حجته بالحجة ، حتى إذا لم تمتلئ نفسه بالثقة من أدلته اجتهد لنفسه وأقام بجانب مذهبه مذهبا ، ولتجدن من هؤلاء من يبلغه مذهب الصحابي في قضية لم يتعد عليها إجماع فيستأنف النظر في دلائلها ولا يكون في صدره حرج أن يخالف الصحابي أو يرجح مذهب تابعي على مذهبه» ^(٣) ..

وهذا الانحياز الإسلامى إلى التجديد قد ظل نهجا لم يخل منه عصر .. وإن ذبل خلال مرحلة الانحطاط والجمود - المملوكية العثمانية .. أما في عصرنا ، عصر اليقظة «فإن في العالم الإسلامى علماء شبوا على حرية الفكر وإطلاق العقل من وثاق التقليد الأصم ، فهم لا يكرهون لذوى الألباب أن يبحثوا حتى في أصل العقائد (وجود الخالق) ، وهم لا يستطيعون أن يحولوا بين المرء وما يعتقد من باطل ، وليس في أيديهم سوى مقابلة الآراء بما تستحقه من تسليم أو تفنيد» ^(٤) .

هكذا حدد الشيخ الخضر موقعه في هذه المعركة وأبان عن هويته ، فهو نصير للتجديد ،

(١) الإسراء : ٣٦ .

(٢) النجم : ٢٨ .

(٣) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٣٨ ، ٣٩ من طبعة الأصل] .

(٤) الباب الأول من الكتاب الثانى [ص ١٣٠ ، ١٣١ من طبعة الأصل] .

وخصم للجمود والتقليد ، ومن هذا الموقع يتقدم لنقض كتاب الشيخ على عبد الرازق « بمقابلة الآراء بما تستحقه من تسليم أو تفنيد » ؟

* * *

وإذا كان الرجل قد حدد موقعه وأبان عن هويته في هذا الصراع الفكري ، فهو قد نفي عن على عبد الرازق سمة التجديد ، واعلن عن أن « التغريب » والافتتان بالغرب ومقولات كتابه ونظريات فلاسفته وتصورات مستشرفيه هو الذى جعل الشيخ على عبد الرازق ينظر إلى الإسلام - في قضية الدولة والسياسة - بالمنظار الذى نظرت به النهضة الأوروبية إلى المسيحية الكاثوليكية ، فبرى الخلافة : استبدادا وحكما بالحق الإلهى وكهانة تجعل الحاكم نائبا عن الله ، لا يُسأل عما يفعل .. ويرى الإسلام : دينا لا دولة ، ورسالة روحية يا بعد ما بينها وبين السياسة وتنظيم المجتمعات ..

إنه تقليد الغرب ، ذلك الذى جعل صاحب [الإسلام وأصول الحكم] يرى الإسلام مسيحية تطلب أن ندع ما لقيصر لقيصر ومالله لله ! .. فهو « التغريب » ، إذا ، وليس « التجديد » ، المنطلق الذى رآه الشيخ الخضر مصدرا لهذا الفكر الذى انفرد به الشيخ على عبد الرازق دون كل علماء الإسلام على امتداد تاريخ الإسلام ! ..

إنه يحدد « التغريب » - وتصور الإسلام - في السياسة - مسيحية - كعلة أولى لهذا الفكر ، فيقول : « يتساءل الناس أحيانا عن الحال الذى لبس قلب المؤلف - [الشيخ على عبد الرازق] - حتى أصبح يقول على الله غير الحق : هل اقتحم هذه الخطيئة لقصور في الفهم ؟ أم لداعية افتتانة بجملة أخرى ؟ . إذا صح للقارئ أن يتردد في بغض المباحث السابقة ، فإن هذا البحث - [الذى تصور فيه على عبد الرازق الإسلام «رسالة لا حكم ودين لا دولة»] - لا يبقى له ريبه في أن المؤلف قد يقصد إلى قلب الحقائق ، حيث لا يصح أن تنقلب في نظره»^(١) ! فليس قصور الفهم هو علة هذه الأفكار ..

وعندما يتحدث على عبد الرازق عن وجود تصورين للحاكم في نظر علماء الإسلام ، أحدهما - وهو مذهب الجمهور ، في رأيه - يرى الحاكم ذا سلطان إلهى مستبد ... يبصر الشيخ الخضر أثر التقليد للمذاهب الغريبيين - لا مذاهب الإسلاميين - في هذا الادعاء .. فيقول - في تحفظ العلماء ودقتهم - : «والذى يؤخذ بطريق الإستنتاج أن المؤلف عرف أن

(١) الباب الثالث من الكتاب الثانى [ص ١٧٢ من طبعة الأصل].

للغريين في سلطة الملك مذهبين فابتغى أن يكون للمسلمين مثلها ، ولما لم يجد في كلام أهل العلم عن الخلافة ما يوافق أو يقارب القول بأن سلطان الخليفة مستمد من سلطان الله تلمسه في المدائح من الشعر أو النثر...»^(١) ؟ ! ..

وعندما يستند الشيخ على عبد الرازق إلى آراء المستشرق «السير أرنولد» [١٨٦٤ - ١٩٣٠ م] في تقرير «أحكام شرعية» خاصة بالإمامة والخلافة ، يبصر الشيخ الخضر أثر الافتتان بالغرب وتأثيرات الهيمنة التي تمارسها الحضارة الغربية. على عقول البعض إلى الحد الذي جعلتهم يأخذون عنها ، لا المباحث التاريخية والاجتماعية ، بل وأحكام الشرع والدين ؟ ! .. فيقول : «... ولو أحالنا المؤلف - [على عبد الرازق] - على كتاب السير أرنولد - [الخلافة] - في بحث تاريخي أو اجتماعي له مساس بالخلافة لأخذ منا الأسف على أن فاتنا الاطلاع عليه مأخذنا بليغا ، ولكنه أحالنا على كتاب السير أرنولد في تحقيق حكم شرعي ، فقلنا : لعله أراد خلط الجدل بالهزل ، أو إخراج أحكام الشريعة من دائرة الراسخين في علومها ! . يجب أن تكون قيمة الأحكام الشرعية في نظر المؤلف فوق هذا التقدير ، وما ينبغي له أن يخيل إلينا أنا في حاجة إلى الاقتداء بعقول الغريين حتى في أمور الدين من واجب وحرام . وإذا كان المؤلف يدري أن للشريعة أصولا ومقاصد لم يدرسها السير أرنولد حتى دراستها ، فإن إحالتنا على كتابه ليست سوى عثرة في سبيل البحث تعترض السذج فتكبو بهم في تردد وارتياب»^(٢) !

وعندما يتصور الشيخ على عبد الرازق ، ويصور الرسول ، - صلى الله عليه وسلم - ، مجرد «مبلغ» رسالة ، لاحظ له ولا شأن «بالتنفيذ» لما تضمنته هذه الرسالة من تنظيم للمجتمعات وسياسة للناس .. ينبه الشيخ الخضر إلى تأثيرات صورة المسيح ، - عليه السلام - ، بنظر علمانية الحضارة الغربية ، في تلوين تلك الصورة المدعاة لنبى الإسلام .. «فالرأى الذى يقصده المؤلف - [على عبد الرازق] - حسبها تصرح به ألفاظه وما يسوق عليه من الشبه - هو أن النبى ، - صلى الله عليه وسلم - ، مبلغ فقط ، ولم يكن من وظيفته تنفيذ ما أوحى إليه بتبليغه ، وأنه لم يأت بشرية لها مساس بالقضاء وسياسة الدولة . وهو رأى لم ينسج على أصل شرعي ولم يقم على بحث علمي . ولكن الافتتان بزخرف الحياة الافرنجية يخامر العقل ، فإذا

(١) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١٤ من طبعة الأصل].

(٢) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٢٩ من طبعة الأصل].

الخيال ينقر بقلم ما شاء أن ينقر ، ويقلب صور الحقائق إلى مالا يخطر على قلب أفك أثيم»^(١) !

وإذا كان اللاهوت المسيحي قد تصور المسيح منبت الصلوة بالدولة والسياسة ، يدعو إلى أن ندع ما لقيصر لقيصر ومالله لله .. فهو قد تصور إلهها أو ابنا لله ، له خصائص الألوهية وصلاحتها .. فإذا جاء الشيخ على عبد الرازق وتحدث عن سلطان الرسول ، - صلى الله عليه وسلم - ، على القلوب سلطانا يجعل له «حق التصريف لكل قلب تصرفا غير محدود» ... رأينا الشيخ الخضر ينبه على أن الإسلام يرى الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بتصريف القلوب .. وينقل رأى الحافظ ابن حجر العسقلاني [٧٧٣ - ٨٥٢ هـ - ١٣٧٢ - ١٤٤٩ م] في [فتح الباري] والذي يقول فيه : «إن الله تعالى تمدح بالانفراد بذلك ولا مشارك له فيه» .. ورأى البيضاوي [٦٨٥ هـ - ١٢٨٦ م] الذي يقول في تفسير آية : «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم»^(٢) : إن في نسبة تقليب القلوب إلى الله إشعارا بأنه يتولى قلوب عباده ولا يكلها إلى أحد من خلقه» ... ثم يحدد الشيخ الخضر مصدر هذا «الغلو» فيقول : «وإنك لتجد في هذه الجمل من الغلو في الوصف ما لم يذكره النبي ، - صلى الله عليه وسلم - ، عن نفسه ، وإنما علق بقلم المؤلف - [على عبد الرازق] - من أثر ديانة أخرى»^(٣) ! ..

وفي الحديث عن موقف علماء الإسلام من الفلسفة يلمح الشيخ الخضر خطر النهج الذي يجعل أصحابه مقلدين «لكل ما يلفظ به الغربيون»^(٤) ...

ولم يكن الرجل داعية لإقامة الأسوار بين الحضارات ، ولكنه كان نصيرا للتفاعل الصحي الراشد ، الذي يقوم بين حضارات مستقلة بما تبايز به وتميز من سمات وخصائص .. وعدوا للافتتان بزخرف الحضارة الغربية ... وهو يتحدث عن هذا الموقف المتوازن عندما يعرض لموقف حضارتنا من الحضارة اليونانية ، فيقول : «لقد عنى المسلمون من علوم اليونان بالفنون التي كانت معروفة لهم ، أو كانت بضاعتهم فيها مزجاة»^(٥) . وكانوا يصرفون عنايتهم إلى هذه العلوم على قدر ما يرون لها من فائدة ، وعلى حسب ما تمس إليه الحاجة ، فأقبلوا على العلوم

(١) الباب الثالث من الكتاب الثاني [ص ١٦٥ من طبعة الأصل] .

(٢) الأنعام : ١١٠ .

(٣) الباب الثالث من الكتاب الثاني [ص ١٦٦ من طبعة الأصل] .

(٤) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٥١ من طبعة الأصل] .

(٥) أى رانجة .

الرياضية والطبيعية والفلسفة والمنطق بمجامع قلوبهم ، وأعطوا جانباً من عنايتهم إلى ما نقل لهم من سياسة أفلاطون وأرسطو ، مع علمهم بأن أيديهم مملوءة بمبادئ السياسة الكافية في تدبير مصالح الأمة وصيانة حقوقها على مهج الحرية السامية والعدالة الصادقة ... ومن نظر في تاريخ عظماء الإسلام ببصيرة لم تفتتن بزخرف المدينة الغربية رأى أن سيرتهم العملية وما يلفظون به من نوايغ الكلم ما يشهد له بأنهم أدركوا في فن السياسة شأواً بعيداً ولم يكن حظهم منها أقل من حظ دارسي كتابي الجمهورية والسياسة»^(١) ! .

لقد أبصر الشيخ الحضر أتر «التغريب» و«الافتتان بالحضارة الغربية» في مجيء دعوى الشيخ على عبد الرازق جانحة عن مسار الفكر السياسي الإسلامي منذ تبلور هذا الفكر وحتى عصرنا الحديث .. ذلك أن من آفات هذا «التغريب» :

- تصور تطور كل المجتمعات على ذات الدرب وبذات المراحل وعلى نفس النحو الذي سلكه المجتمع الغربي في التطور !
- وتصور كل المدارس الفكرية والمذاهب والمنظومات الفكرية في ضوء مثيلاتها الغربية .. إلى الحد الذي نرى فيه ذاتنا وتاريخنا وواقعنا بمنظار الاستشراق ! ..

* * *

ولم يكن خلاف الشيخ الحضر مع هذا «النهج التغريبي» مجرد استمساك بفضيلة الاستقلال الفكرى ، وفرط أنفة من التبعية لقوم غير مسلمين ، كما قد يفهم البعض خطأ وقصر نظر ! .. وإنما كان وراء هذا الموقف - فضلاً عن أن فضيلة الاستقلال الفكرى هي السبيل الوحيد لرؤية الخصائص التي تمايز بين الحضارات ، ومن ثم فإنها السبيل الوحيد لتحصيل الحقيقة وإدراك الصواب - كان وراء هذا الموقف المعادى لهذا «النهج التغريبي» موقفاً وطنياً يدرك وظيفة هذا النهج التغريبي في تكريس التبعية السياسية والعسكرية والاقتصادية المفروضة على وطن العروبة وعالم الإسلام من قبل أبناء الحضارة الغربية الغزاة المستعمرين .. فالتبعية الفكرية ، هنا ، تلعب دوراً فاعلاً وفعالاً في تأييد وتأييد الاستعمار الذي يحول بين المسلمين وبين الحرية والنهضة والتقدم إلى الأمام ! ..

لقد كان الحضر : شيخاً - مجدداً - مناضلاً .. فهو عالم ملتزم بأصول الشريعة ومقاصدها .. وهو مجدد ، جعله تجديده مهتماً بواقع المسلمين المعاصر ، معنياً بالحلل الكافلة

(١) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٤٨ من طبعة الأصل].

للأمة تجاوز سلبيات الواقع الذى تعيش فيه . وهو مناضل يدرك دور الشريعة والتجديد فى التصدى لأعداء الأمة ، الذين يفرضون عليها القهر والعبودية والتخلف ، ويحولون بينها وبين الحرية والقوة والإنطلاق ...

- فهو ، فى تونس ، قد ناهض الاستعمار ، الذى اضطره إلى الهجرة من وطنه الأول إلى الشام ...
- وهو ، فى الآستانة ، يشارك فى العمل السياسى ، ويضطلع بمهام فى السفارات الخارجية ، تجعله على دراية بما يصنع الغرب وما يبنت لعالم الإسلام ...
- وهو فى دمشق ، يناضل الاستبداد ، ويدخل السجن ... ثم يضطره الاستعمار الفرنسى - الذى هجره من تونس - إلى الهجرة من دمشق إلى القاهرة ...
- وفى القاهرة - وبصدد كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - أبصر الرجل كم هى جليلة تلك الخدمة التى يقدمها للاستعمار كل من يدعو إلى تجريد الإسلام من طابعه ودوره السياسى . وتجريد الدولة ، فى وطن المسلمين ، من صبغتها الإسلامية ، وتقديم الإسلام دينا لا دولة ، ورسالة روحية لا شرع فيها ولا سياسة ... ذلك أن المسلمين ، فى ظل الاستعمار ، إذا اهتموا « بمالله » ، « وتركوا ما لقيصر لقيصر » ، كان المستفيد الأول من ذلك هو الأجنبي . لأن « قيصر » هنا هو الاستعمار ! .. « فعلمنة الإسلام » هى - فى حقيقتها - وبصرف النظر عن النوايا - تشريع يمنع الحرج والإثم عن ضمير المسلم إن هو خضع لسلطان أجنبي أو سلطة غير إسلامية ... ومن ثم فإن اشتراط « إسلامية الدولة » و « إسلامية القانون » ، هو - فى الحقيقة - دعوة للمسلمين كى يثوروا فى سبيل حريتهم وتسويد شريعة الإسلام فى الوطن الذين يعيشون فيه ! ..

أبصر الشيخ الخضر هذه الحقيقة الجوهرية ، ونبه إليها وهو يرد دعوى الشيخ على عبد الرازق : « علانية الإسلام » !

فهو عندما ينبه على تهافت أدلة الشيخ على عبد الرازق وحججه ، يشبهها - ساخرا - بوعود الدول الاستعمارية وعهودها ؟ ! .. فىقول عنه : « إنه تشبث بأوهى من عهد دولة استعمارية ^(١) » ؟ !

وعندما يستدل على عبد الرازق على أن محمدا ، - صلى الله عليه وسلم - ، كان رسولا

(١) الباب الثانى من الكتاب الثانى [ص ١٥٢ من طبعة الأصل].

مبلغا ، ولم يكن حاكما منفذا ، بأن «الرسالة» غير «الملك» ، وبكلمة المسيح ، - عليه السلام - : «أعطوا مالم يقصر لقيصر ومالله لله» ، وبأن يوسف ، - عليه السلام - ، كان عاملا في دولة لا تدين بدينه ... ينه الشيخ الخضر على مغايرة النهج الإسلامي لما سبقه من نهج في هذا الأمر ... ويشير إلى الخطر البادئ من استغلال هذه الدعوى في تكريس انفراد «القيصر» المعاصر ، الاستعمار ، بالسلطة والسلطان في عالم الإسلام .. فيقول : «لم يرض محمد بن عبد الله ، - عليه السلام - ، أن يقيم تحت سلطان غير سلطان الله ، ولم يرض لمعتني دينه الخفيف أن يستكينوا لسلطة غير إسلامية ، وفرض الحجرة والجهاد على ما نقول شهيد . وما ينبغي للمؤلف - [على عبد الرازق] - أن يحشر في غضون كتابه مثل هذه الكلمة - [أعطوا مالم يقصر لقيصر ومالله لله] - التي تقضي حاجة في نفس المخالف المتغلب ، وتبقى في النفوس أثر الاستكانة إلى أي يد تقبض على زمامها»^(١) ! .. «إن محمد بن عبد الله ، - صلوات الله عليه - ، لم يعترف بسلطة دار الندوة بمكة ، وحاربها حتى خصد شوكتها واستأصل جرثومة فسادها ، ولم يعترف بسلطة قيصر ، وأخذ يعد ما استطاع من قوة ليدفع شره ويقوض دعائم ملكه ..»^(٢) ! ..

كذلك ، فإن الادعاء بأن الإسلام دين ليست به شريعة لسياسة الدولة والمجتمع ، هو - وعينا أم لم نع - دعوة تمنح المشروعية لسلطان الأجنبي المتغلب وفلسفة قانونه الغربية عن روح الأمة وهويتها الحضارية ، ذلك أن «الإسلام يقصد من تأسيس الدولة الإسلامية أمرين : أحدهما : إجراء أحكامه العادلة ونظمه الكافلة بسعادة الحياة ، إذ لا يقوم عليها بحق إلا من آمن بحكمتها وأشرب قلبه الغيرة على تنفيذها .

ثانيهما : الاحتفاظ بكرامة أوليائه وإعزاز جانبهم حتى لا يعيشوا تحت سلطة مخالف يدوس حقوقهم ، ويرفع أبناء قومه أو ملته عليهم درجات»^(٣) ! ..

والذين يجعلون الإسلام «دينا» لا «شرعا» ، سيهدرون ، ضمن ما يهدرون من «مقاصد الشريعة» مقصد «الجهاد» ، الذي تجاوز كونه سبيلا «لحفظ الدين» ، وأصبح ، في مواجهة الاستعمار الأجنبي السبيل الأول لحفظ مقاصد الشريعة كلها ؟ ! .. ذلك «أن المقاصد التي تقصدها الشريعة السماوية ترجع إلى حفظ النفس ، والدين ، والعقل ، والعرض ،

(١) الباب الثاني من الكتاب الثاني [ص ١٣٦ ، ١٣٧ من طبعة الأصل] .

(٢) الباب الثاني من الكتاب الأول [ص ٣٤ من طبعة الأصل] .

(٣) الباب الثاني من الكتاب الثاني [ص ١٤٦ من طبعة الأصل] .

والنسب ، والمال . فالقصاص ، مثلاً ، مشروع لحفظ النفس ، وحث الزنا لصيانة النسب ، وحث القذف لصيانة العرض ، وعقوبة شارب الخمر لصيانة العقل ، والجهاد لحفظ الدين . بل الاستعمار الأجنبي دل على أن الجهاد مشروع لحفظ الدين والنفس والعرض والمال ، ويرشد إلى هذا قوله تعالى : [إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمة]^(١) « ... »^(٢) ... فللشريعة الإسلامية ، في الواقع الإسلامي ، دور تحريري .. وهي ليست مجرد نصوص ! .

ولقد كان طبيعياً للرجل الذي أدرك دلالة سيادة الشريعة وأحكامها على استقلال الأمة ودولتها ، أن يبصر دلالة سيادة « الشريعة » الاستعمارية في بلادنا على خضوعنا لهذا الاستعمار ... فأحكام الشريعة الإسلامية هي قانون الأمة الطبيعي ، وفي سيادتها ، بدلا من الفلسفة القانونية للحضارة الغازية ، مظهر من مظاهر الاستقلال .. « وإذا كانت القوانين الوضعية لا يخضع لها المسلمون بقلوبهم ، ولا يتلقون القضاء القائم عليها بتسليم ، كان تقريرها للفصل بينهم غير مطابق لقاعدة الحرية ، إذ المعروف أن الأمة الحرة هي التي تساس بقوانين ونظم تألفها وتكون على وفق إرادتها أو إرادة جمهورها . فالشعوب الإسلامية لا تبلغ حريتها إلا أن تساس بقوانين ونظم يراعى فيها أصول شريعتها . وكل قوة تضرب عليها قوانين تخالف مقاصد دينها فهي حكومة مستبدة غير عادلة . فالذين ينقلون قوانين وضعها سكان رومة أو لندرة أو باريز أو برلين ، ومحاولون إجرائها في بلاد شرقية ، كتونس أو مصر أو الشام ، إنما هم قوم لا يدرون أن بين أيديهم قواعد شريعة تنزل من أفق لا تدب فيه عناكب الخيال أو الضلال . وأن في هذه القواعد ما يحيط بمصالح الأمة حفظاً ، ويسير بها في سبيل المدنية الراقية عتقاً^(٣) فسيحا . ولو قيض الله لشعوب هذه الأمة الإسلامية رؤساء يحافظون على قاعدة حرية الأمم ، لألفوا لجاننا ممن وقفوا على روح التشريع الإسلامي ، وكانوا على بصيرة من أحوال الاجتماع ومقتضيات العصر ، وناطوا بعهدتهم تدوين قانون يقتبس من أصول الشريعة ويراعى فيه قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد . وبغير هذا العمل لا يملك المسلمون أساس حريتهم ، ولا يسيرون في سبيل سعادتهم آمنين »^(٤) !

فسيادة أحكام الشريعة في الأمة ، وهيمنتها وهيمنة فلسفتها بالمؤسسة القضائية الوطنية

(١) التوبة : ٨ .

(٢) الباب الأول من الكتاب الثالث [ص ٢٠٠ من طبعة الأصل] .

(٣) العتق - بفتح العين والو - هو السير السريع .

(٤) الباب الثالث من الكتاب الثالث [٢٤٣ ، ٢٤٤ من طبعة الأصل] .

قسمة من قسمآ «الاستقلال الحضارى» ، بدونها ستظل سيادة الأمة منقوصة ، وحريةٓها ناقصة . حتى ولو حققت «الاستقلال السياسى» ، فأصبح لها «علم» و«نشيد» ؟ ! .. ومن هذه «الزاوية النضالية» ، وهذا «المنطق التحريرى» أبصر الشيخ الخضر مهمة «الخلافة» الإسلامية ، ودورها التوحيدى للأمة ، ومردود هذا الدور وفعاليته فى مواجهة التحديات التاريخية التى فرضها الاستعمار الغربى على عالم الإسلام .. «فالخلافة لا تزيد على ما يسمى دولة ، إلا أنها رابطة سياسية تجعل شعوبا مختلفى العناصر والقومية يولون وجوههم شطر رايٓتها بعاطفة من أنفسهم واختيار . ومن هذه الوجهة ينظر إليها بغاية الاستعمار بعين عابسة ، ويحاول الغرّ ، الذى يتخذع بهرج آرائهم ، أن يطوى رايٓتها ويمحو أثرها»^(١) ؟ !

لقد كانت الحصن الذى جمع المسلمين ، على امتداد تاريخهم الطويل ، فى مواجهة الغزاة .. وحتى فى لحظات ضعفها ومرضاها ، كانت «الرمز» الذى ظل الاستعمار على عدائه له وسعيه لمحوه ، مخافة أن يتداركها التجديد والإصلاح فتعود حصنا للمسلمين ، يجمع وحدتهم ، ويحول بين الاستعمار وبين التهام أوطانهم واستنزاف ثرواتهم واحتلال عقولهم بفكرية التغريب ! ..

هكذا أدرك الشيخ الخضر خطر دعوى «علمانية الإسلام» على قضية القضايا بالنسبة للأمة .. قضية : رفضها لسلطان الأجنبي ، ونهوضها لانتزاع حريةٓها من الاستعمار .

* * *

وإذا كان كتاب [الإسلام وأصول الحكم] قد ذهب فى تشويه صورة «الخلافة» الإسلامية ، تاريخيا ، إلى حد الافتراء الذى جعلها قهرا مسلحا واستبدادا بالأمر . من دون الأمة ، باسم الله ! .. فإن كتاب الشيخ الخضر قد برئ من «رد الفعل» الذى يبيض وجه هذه الخلافة دائما ، حتى ولو كان ذلك بالزور والبهتان ! .. بل إن الرجل لا يرغب فى إدارة المعركة حول اسم النظام وعنوانه .. فالدولة الإسلامية هى المطلب .. وليست «الخلافة» هى الشكل الوحيد ولا الاسم المفرد لهذه الدولة الإسلامية .. وفارق بين أن تنتقد تراثنا فى نظم الحكم لتقترب من مقاصد الإسلام فى «الدولة الإسلامية» ، وبين أن يكون هذا النقد سبيلا إلى التخلي عن شرط «إسلامية الدولة» وتجريد الإسلام من شرعه ومدخله فى السياسة وتنظيم

(١) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٨٧ من طبعة الأصل] .

المجتمعات .. « فلم يدع أحد قط أن صلاح شأن الرعية وصيانة شعائر الدين مربوطان باسم الخلافة ، وأن لقب الخليفة كالرقية النافعة ، يذهب بها كل بأس ، أو الدعوة المستجابة . ينزل عندها كل خير ، والذي نعلمه ويعلمه أشباه العامة من المسلمين أن الخلافة لا تترك آثارها وتمنحك ثمارها من منعة وعزة وعدالة إلا إذا سارت على سنة العزم في الأمور والحكمة في السياسة» (١) .

وإذا كان العصر الحديث قد ألح ويلح على إعلاء مكانة الأمة في تسيير شئون الدولة والمجتمع ، فليس هناك ، في نهج الإسلام السياسي ، ما يعارض هذا الاتجاه .. بل إن هذا هو نهج الإسلام الأصيل في هذا الباب « فالقوة المشروعة للخليفة لا تزيد على القوة التي يملكها رئيس دولة دستورية ، وانتخابه في الواقع إنما كان لأجل مسمى وهو مدة إقامته قاعدة الشورى على وجهها ، وبذله الجهد في حراسة حقوق الأمة ، وعدم وقوفه في سبيل حريتها» (٢) وشكل بعض الحكومات القائمة على خليفة ووزراء ومجلس نيابي يجرى انتخابه تحت ظلال الحرية التامة لا يخالف الشكل الملائم للخلافة الحقيقية بحال (٣) .. بل لقد ذهب الإسلام السياسي في شروط الخليفة إلى الحد الذي يجعل من دولته «الواقع» القريب من «مثال» «المدينة الفاضلة» ! .. فلقد «قر جمهور أهل العلم في شروط الخليفة أن يكون بالغاً في العلم رتبة الاجتهاد ، وأن يكون ذا رأى وخبرة بتدبير الحرب والسلم ، وأن يكون شجاعاً لا يرهب الموت الزؤام فما دونه ، وأن يكون عادلاً لا تأخذه في الحق لومة لائم . وتعرف مزية العدل باختبار سيرته فيما كان يتولاه من أعمال فبل منصب الخلافة أو بها تدل عليه التجارب والمشاهدة الطويلة من استفامته وشرف همته وإنكاره ما يفعل الظالمون بغيرة وحاسة ..» (٤) .

ولست صحيحة ولا دقيقة ولا صادقة تلك الصورة الشوهاء التي عممها صاحب [الإسلام وأصول الحكم] على مجمل نظام الخلافة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامى .. « فلقد أتى عليها حين من الدهر وهي لا تنتضى حسامها ولا تلمع بإنذارها ووعيدها إلا في وجه عدو يترصب بالمؤمنين الدوائر ، أو تائر عصفت به ريح الأهواء وماله من أولى الألباب ولى

(١) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٩٠ من طبعة الأصل].

(٢) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١٣ من طبعة الأصل].

(٣) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٨٤ من طبعة الأصل].

(٤) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٨٢ من طبعة الأصل].

ولا عاذر . وأدركها زمن بعدت فيه عن حقيقتها ، فخلطت عملا صالحا وآخر سيئا ، وربما كان إتمها في بعض الأحيان أكبر من نفعها»^(١) .. فالتعميم في تصوير الخلافة بصورة «القهر المستبد باسم الله» غريب عن المنهج العلمي في دراسة التاريخ ...

أما الصورة العثمانية للخلافة ، والتي أتاحت لأعداء «الدولة الإسلامية» تشويه صورة الخلافة ، بإطلاق وتعميم ، فإن الإسلام السياسي حجة عليها وعلى سلاطينها ، وليست هي بالحجة على هذا الإسلام ! .. «ولو أن المتأخرين من سلاطين آل عثمان أعطوا للخلافة شيئا من حقوقها ، وراعوا ما أمر الله به من وسائل استقامتها لما انفرط عقد هذه الممالك الإسلامية وأصبح كل قطعة منها تحت سلطة أجنبية تستبد عليها في حكمها وتتصرف في رقاب شعوبها وأمواهم كيف تشاء»^(٢) .

لكن المرض لا يبرر الإعدام .. والفساد لا يستدعي اليأس من الإصلاح .. فإذا كانت الخلافة الإسلامية لا تعدو : «الدولة الإسلامية الجامعة» ، «فليس إصلاح شأنها - [إذا فسد] - وإعادتها إلى سيرتها المثلى ممن يغارون على مصلحة الشرق واتحاد شعوبه بعيد»^(٣) ؟ ! ..

هذا عن الخلافة في التاريخ ..

* * *

ولقد كانت الفكرة الجوهريّة والمحوريّة لكتاب [الإسلام وأصول الحكم] هي دعوى أن الإسلام دين لا دولة ، ورسالة لا حكومة ، ويا بعد ما بينه وبين السياسة وتنظيم المجتمعات ! . وبعض الذين تصدوا لنقد هذا الكتاب بلغوا في معاداة هذه الدعوى مبلغ «رد الفعل» ، حتى لقد بدت في أقوالهم رائحة تصور الحكومة الإسلامية «حكومة دينية» تشبه تلك التي عرفتها أوروبا حاكمة «بالحق الإلهي»... ذلك أنهم تحدثوا عن «وحدة» الدين والدولة ، مقابل دعوى «الفصل» بينها ! ..

لكن هذا الموقع - موقع «رد الفعل» ، الغريب عن روح الإسلام وجوهرة - لم يكن هو

(١) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٦٤ من طبعة الأصل] .

(٢) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٨٧ من طبعة الأصل] .

(٣) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٦٤ من طبعة الأصل] .

الموقع الفكرى للشيخ الحضرمى عندما نقض كتاب الشيخ على عبد الرازق ... فهو قد تبني موقف علماء الكلام المسلمين ، من مختلف تيارات فكر أهل السنة ، الذين قرروا أن «الخلافة - الإمامة - الدولة» ليست من أصول الدين ولا أركانه ولا عقائده ، وأنها من الفروع .. ومن تم فلا حجة لمن يدعى «علمانية الإسلام» بسبب خلو القرآن من الآيات التى تنص على «الخلافة - الإمامة - الدولة» ، فكان الفروع ، ليس بالضرورة هو القرآن الكريم ... واستمراراً لهذا النهج الإسلامى العريق قال الشيخ الحضرمى : «إن الخلافة ليست من نوع العقائد»^(١) ... وبحتمها يرجع إلى النظر فى حكم عملى لا فى عقيدة من عقائد الدين . ومما يترتب على الفرق بين الأحكام العملية والعقائد أن الأحكام العملية يكتفى فيها بالأدلة المفيدة لنا راجحاً ، وأما العقائد فإنها لا تقوم إلا على براهين قاطعة ... فلا غضاضة على حكم الخلافة إذا لم يرد به قرآن يتلى ، إذ ليست الخلافة زائدة على إمارة عامة تحرس شعائر الدين وتسوس الناس على طريق العدل ، ولم يكن وجه المصلحة من إقامة هذه الإمارة بالحقى الذى يحتاج إلى أن يأتى به قرآن صريح ... فالقرآن لم يصرح بحكم الإمارة العامة اكتفاء بما بثه فى تعاليمه من الأصول التى تبينها السنة ويرجع إليها الراسخون فى العلم عند الحاجة إلى الاستنباط . ولأن فى الأمر بإطاعة أولى الأمر عبرة لأولى الألباب ...»^(٢) ! فإذا استدلل علماء الإسلام على وجوب «الخلافة - الإمامة - الدولة الإسلامية» بضرورتها ، لأن «ترك الناس فوضى لا يجمعهم على الحق جامع ولا يزعهم عن الباطل وازع ، يفضى إلى تبدد الجماعة ، وإضاعة الدين ، وانتهاك حرمة الأموال والنفوس والأعراض ، فإنهم - [بهذا الاستدلال] - إنما يطبقون قاعدة شرعية ، وهى قاعدة : «الضرر يزال» أو قاعدة : «ملا يتم الواجب المطلق إلا به ، وكان مقدوراً ، فهو واجب» ...»^(٣) ومن هذا الموقع الفكرى ، الذى يرى وجوب «الدولة الإسلامية» - وليس أى دولة - دون أن تكون هذه الدولة عقيدة من عقائد الدين أو ركناً من أركانه - أنكر الشيخ الحضرمى إسلامية الصورة التى صور بها الشيخ على عبد الرازق الخليفة المسلم . ورفض ما قاله صاحب [الإسلام وأصول الحكم] عن طبيعة سلطات الخليفة فى الإسلام ... لقد قال على عبد الرازق ، عن الخليفة : إن «ولايته عامة ومطلقة ، كولاية الله تعالى ورسوله الكريم» .. وعلق الحضرمى على هذه العبارة فقال : «إنها من مبالغاته التى تضع للخلافة فى نفوس

(١) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٣٣ من طبعة الأصل].

(٢) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٧٤ ، ٧٥ من طبعة الأصل].

(٣) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٢٦ من طبعة الأصل].

المستضعفين من الناس صورة مكروهة ، ولو كان المؤلف - [على عبد الرازق] - يمشى في بخته على صراط سوى لتحرى فيما ينطق به عن المسلمين أقوالهم المطابقة ، وهم لم يقولوا إن ولاية الخليفة عامة ومطلقة كولاية الله ، فإن الله يفعل ما يشاء فيمن يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ، والخليفة مقيد بقانون الشريعة ومستول عن سائر أعماله . وكذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - له خصائص لا يحوم عليها الطير ولا يبلغها مدى البصر ، منها أن تصرفاته نافذة ولا تتلقى إلا بالتسليم ، وتصرفات الخليفة قد تقابل بالناقشة والنقض والإنكار...^(١) .

وفي صراحة وحسم يقرر الشيخ الحضرمي أن الأمة الإسلامية هي مصدر السلطات التي فوضت بعضها منها للخليفة والإمام ، فلا علاقة لطبيعة سلطاته بتلك التي زعمتها الكهانة والدولة الدينية للأباطرة والملوك الذين جعلوا سلطاتهم مستمدا من الله ... لقد زعموا نيابتهم عن الله .. بينما الخليفة الإسلامي نائب عن الأمة ووكيل عنها .. « ولم نعر على كلمة - [في فكر علماء الإسلام] - تنبئ - ولو بطريق التلويح - أن سلطان الخليفة مستمد من سلطان الله ، وقصارى ما يستنتج من كلماتهم عنها ومباحثهم فيها أن الله أوجب على الناس إقامة إمام ، وأن ولايته تتعد إما بمبايعة أهل الحل والعقد أو بعهد من الخليفة قبله ، وأنه إذا سعى في السياسة فسادا ، كان للأمة انتزاع زمام الأمر من يده ووضعه في يد من هو أشد حزما وأقوم سبيلا .. »^(٢) .

والإسلام يوجب « الدولة الإسلامية » ، التي تسوس الناس بشريعته ، وتحفظ بيضته .. وفي ذات الوقت ينكر مزاعم القائلين بسلطان إلهي لرأس هذه الدولة .. فلا هي « العلانية » التي تفصل « الدين » عن « الدولة » ولا هي « الكهانة » والدولة الدينية - والحكم بالحق الإلهي - ونيابة الحاكم عن الله .. وإنما هي « الدولة المدنية » الحاكمة والمحكومة بشريعة الإسلام .. وبعبارة الشيخ الحضرمي : « إن شارع الإسلام يقصد إلى أن يكون للمسلمين دولة ذات صبغة دينية^(٣) ... ورياسة غير منفصلة عن الدين ... وإمارة مرتبطة بالدين^(٤) فالإسلام دين وشريعة وسياسة ، وعلى الدولة أن تضع سياستها في صبغة إسلامية^(٥) ... لأن الإسلام عقيدة

(١) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١٠ من طبعة الأصل] .

(٢) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١٤ من طبعة الأصل] .

(٣) الباب الأول من الكتاب الثالث [ص ١٩٧ من طبعة الأصل] .

(٤) الباب الثاني من الكتاب الثالث [ص ٢٢١ من طبعة الأصل] .

(٥) الباب الثالث من الكتاب الثالث [ص ٢٤٤ من طبعة الأصل] .

وشريعة ونظام اجتماعي ، فهو بالنظر إلى أصول العقائد التي هي باب الإيمان به ، إنما يدعى إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، إذ لا يمكن لبشر أن يدخل في قلب بشر عقيدة إلا أن يقرنها بما يشبها في النفس من برهان أو إقناع . وأما الشرائع والنظم الاجتماعية ، فإن التجربة ، في القديم والحديث ، دلت على أنها لا تقوم في أمة ولا يطرد نفاذها إلا أن تكون شدة البأس بجانبها والسيوف من ورائها . فلا بد للإسلام من دولة ذات شوكة لتقوم على إجراء هذه الشرائع والنظم وتحول بينها وبين قوم لا يبصرون ..»^(١) .

وإذا كانت دعوى صاحب [الإسلام وأصول الحكم] أن الرسول ، - صلى الله عليه وسلم - ، كان «مبلغاً» فقط ، لم يكلف «بالتنفيذ» ، هي دعوى متهافتة لم يقلها قبله قائل ، من الشرق أو الغرب ، من المسلمين أو من غيرهم ، فإن الشيخ الخضر يتحدث عن ولاية الرسول ، رافضاً أن تقتصر على القلوب دون الأجسام - وهي دعوى على عبد الرزاق - ويقول : إن «النظر يقضى بأن الولاية على القلوب لا تكفي في صيانة الحقوق وحفظ النفوس والأموال والأعراض ، وأنه لا بد من ولاية يكون شأنها تنفيذ قوانين المعاملات والعقوبات فيمن يطغى به الهوى أو يتخبطه الغضب وإن كان من المؤمنين . فولاية الرسول ، - صلى الله عليه وسلم - ، كانت على القلوب ثم على الأجسام ، وكانت ولاية هداية وتدبير لصالح الحياة ، وكانت رياسة دينية وسياسية ، وكلاهما من عند الله ، ولا بعد بين السياسة والدين إلا في نظر قوم لا يكادون يفقهون حديثاً^(٢) لقد كان الرسول الأعظم مظهر السلطة التشريعية ، ومصدر السلطة التنفيذية . فالحكمة تجرى على لسانه ، ودم النفوس الحبيثة يجري على سنانها . يرسل الموعظة الحسنة تحت مثار النقع ، ويسن القانون العادل وهو يقاتل وحوشاً غابها الرماح ، ولقد كان في تشريعه الحكيم أو عزمه النافذ عبرة لأولى الألباب ..»^(٣) !

وإذا كان «الدين» وضعاً إلهياً، ثابتاً... فإن «الصبغة الدينية» للدولة الإسلامية وسياستها لا تعنى ثبات نظم هذه الدولة وثبات قوانينها ، ولا تعنى «الإلهية» و«الثبات» لهذه النظم والقوانين جميعاً... فالثابت هو «المقاصد والفلسفات والغايات» وبعض قليل من الأحكام التي تعلقت بثوابت لا تتغير ولا تتطور بتغير الزمان والمكان - أما ما عدا هذا القليل فهو متغير ومتطور يلعب فيه العقل المسلم والابداع التشريعي للمسلمين الدور الأول والأعظم دونما قيد

(١) الباب الثاني من الكتاب الثاني [ص ١٤٣ من طبعة الأصل] .

(٢) الباب الثالث من الكتاب الثاني [ص ١٦٧ ، ١٦٨ من طبعة الأصل] .

(٣) الباب الأول من الكتاب الثاني [ص ١١٢ من طبعة الأصل] .

إلا الروح العامة لتريعة الإسلام والمصلحة المتبغاة للأمة الإسلامية ... فلقد «أجمع المسلمون على أن إصلاح السياسة شطر من مقاصد الإسلام - [ولكن] - هل ادعوا ، مع هذا ، أن الإسلام رسم للسياسة خطة معينة ووضع لكل واقعة حكما مفصلا ؟ ! .. الحق أنهم لم يفعلوا ذلك ، بل ملأوا كتبهم ببيان أن الشريعة فصلت بعض أحكام لا تختلف فيها أحوال البشر ، ثم وضعت أصولا ليراعى تطبيقها على الوقائع حال الظروف الحافة بها ، ومن هذه الأصول قاعدة : «رعاية المصالح المرسله» ، وقاعدة : «العادة محكمة» ، وقاعدة : «سد الذرائع» ، وقاعدة : «المشقة تجلب التيسير» ، وقاعدة : «ارتكاب أخف الضررين» وقاعدة : «الضرر يزال»^(١) ... ولقد عيّنت الشريعة ، في الأكثر ، بتفصيل مالا يختلف فيه مصالح الأمم ولا يتغير حكمه بتغير الزمان والمكان ، وذلك ما يرجع إلى العقائد والأخلاق ورسوم العبادات ، ثم جاءت إلى قسم المعاملات والسياسات فأنت على شيء قليل من تفاصيله ، وطوت سائرته في أصول عامة ثلاث :

إحداها : أن أحكام هذا القسم تختلف بحسب ما يقتضيه حال الزمان وتطور الشعوب ، فإذا وقعت الواقعة أو عرضت الحاجة نظر العالم في منشئها وما يترتب عليها من أثر ، واستنبط لها حكما يقدر ما توسعه مقاصد الشريعة ومبادئها العليا .

ثانيا : أن وقائع المعاملات والسياسات تتجدد في كل حين ، والنص على كل جزئية غير متيسر ، علاوة على أن تدوينها يستدعي أسفاراً لا فائدة للناس في كلفة حملها .

ثالثها : أن الشريعة لا تريد أسر العقول وحرمانها من التمتع بلذة النظر والتسابق في مجال الاجتهاد^(٢) ..» .

ولذلك وجدنا فقهاء المسلمين يجتهدون ، كل من منظوره ، وعلى ضوء واقعه ، ووفق مقتضيات عصره ، يجتهدون في «وضع» القوانين الإسلامية المسترشدة بروح الشريعة والمحكومة بمنطقها الإسلامي العام .. فهم «ينظرون إلى المصالح ويوازنون بينها وبين المفساد .. كما ينظر إليها أصحاب القوانين الوضعية ، من حيث عظمها وصغرها ، ومن حيث ما يترتب عليها في الخارج من آثار نافعة أو عواقب سيئة»^(٣) .. ثم يصوغون القوانين ، التي كونت تراثنا في فقه المعاملات .

(١) الباب الثالث من الكتاب الثاني [ص ١٧٧ من طبعة الأصل] .

(٢) الباب الثاني من الكتاب الثاني [ص ١٥٤ . ١٥٥ من طبعة الأصل] .

(٣) الباب الأول من الكتاب الثالث [ص ٢٠١ من طبعة الأصل] .

فالذين يتصورون أن «إسلامية القانون» في الدولة الإسلامية ، يعنى إلزام الحاضر
 باجتهادات الماضي ، أو إلزام كل عالم الإسلام باجتهاد واحد ، لا يفقهون هذا الجانب من
 سياسة الإسلام ... بل إن بلوغ عالم الإسلام في التقارب والتضامن والاتحاد درجة إقامة
 الخلافة الواحدة ، أو الحكومة الواحدة لا يعنى وحدة النظم والقوانين إذا ما اختلف الواقع في
 إطار عالم الإسلام .. ذلك « أن أخذ الأمم الإسلامية بحكومة واحدة لا يقتضى توحيد قانونها
 السياسى أو القضائى ، بل يوكل أمر كل شعب إلى أهل الحل والعقد منه ، فهم الذين ينظرون
 فيما تقتضيه مصالحه ، ولا يقطعون أمرا حتى يشهدهم من أتوا العلم بأصول الشريعة لئلا
 يخرجوا عن حدودها ومقاصدها ... فالتشريع الإسلامى قائم على رعاية المصالح ، وما هى إلا
 المصالح التى توضع فى ميزانه المستقيم ، وهذا الميزان المستقيم لا يخس شعبا من الشعوب
 مصلحة التى يشهد بها العقل السليم ، ولا يفصل حكما واحدا يجريه على كل شعب وفى كل
 زمان ، إلا اذا لم تختلف فيه مصالح الشعوب ، فإن اختلفت اختلافا يعقله العاملون لكل
 شعب حكم وسياسة ، وذلك تقدير العزيز العليم .. »^(١)

فالدولة الإسلامية : دولة دستورية .. ورأسها : حاكم دستورى .. وأمتها : هى مصدر
 السلطات .. وقانونها إبداع وثمره لعبقريه فقهاءها ، يصوغون أغلبه بالاجتهاد المحكوم بروح
 الشريعة ومصلحة الأمة المرتبطة بظروف الزمان ومقتضيات المكان ... وهى ، فى ظل الخلافة
 والحكومة الواحدة ، أشبه بعصبة الأمم الإسلامية وجامعة الدول الإسلامية منها بالدولة
 الواحدة التى يسود فيها القانون الواحد والنظام الواحد فى واقع متغاير رغم وحدة الإسلام ! ..

وإذا كان هذا هو حال «الإسلام السياسى» ، وإذا كانت تلك هى قاعدة «سياسة
 الإسلام» .. فهل بنا من حاجة «لعلمانية» الحضارة الغربية ، نتنكر باستعارتها لطبيعة
 إسلامنا ؟ ! .. وألا يرعوى أولئك الذين يزيفون تاريخنا السياسى وفكرنا الإسلامى السياسى ،
 لاشيء إلا لافتنال التماثل بينه وبين تاريخ الكهانة الكنسية فى أوربا العصور المظلمة
 والوسطى ، بل ويزيفون صورة الإسلام ، بجعله «علمانية» أو «كهانة» .. لاشيء إلا ليبروا
 استعارتهم «للعلمانية» الغربية .. فهم يستوردون «مشكلة» ليستوردوا لها «الحلول» ؟ ! ..

هكذا نظر الشيخ الخضر إلى القضية المحورية والجوهرية فى كتاب [الإسلام وأصول
 الحكم] .. وحدد ، حياها ، رؤيته لموقف الإسلام .

* * *

(١) الباب الثالث من الكتاب الثانى [ص ١٧٩ ، ١٨٠ من طبعة الأصل].

على أن إعجاب الباحث والقارئ بهذا [النقض] الذى نهض به الشيخ الحضر لدعاوى صاحب [الإسلام وأصول الحكم] ، ولقلم الشيخ الذى تجلى عفيفا ودقيقا وجيد التدوق والاختيار لألفاظه وعباراته ... إن هذا الإعجاب لا ينقضه «هنتان» ، ننبه عليها ، وقع فيها قلم هذا الشيخ الجليل :

الهبة الأولى : هى أن الشيخ الحضر رغم مجيئ كتابه نموذجا فى أدب البحث والجدل والمناظرة ، وتميزه بالعفة والترفع عن إلقاء التهم جزافا .. لإلأنه استخدم عبارة «الوقوع فى حماة الإلحاد» على نحو «يوحى» بأنه يتهم بها الشيخ على عبدالرازق ! ..

ونحن رغم رفضنا للفكرة المحورية والجوهرية لكتاب [الإسلام وأصول الحكم] ، وإيماننا بخطأ الكتاب على التوجه الفكرى للأمة الإسلامية ، ومعرفتنا بالتأثير الذى أحدثه فى دعم «العلمانية» الغربية عن المناخ الإسلامى والفكر الإسلامى .. رغم ذلك ، إلا أننا ننكر استخدام ألفاظ من مثل «الكفر» أو «الإلحاد» فى وصف «الاجتهادات الخاطئة» بميدان الفكر السياسى الإسلامى بوجه عام ..

لقد استقر الرأى فى علم الكلام الإسلامى على أن مباحث «الخلافة - الإمامة - الدولة» هى من «الفروع» ، وليست من «عقائد» الدين ولا «أصوله» ، ومن ثم فإن الخلاف والاختلاف فيها أليق به أو صاف : «الخطأ والصواب» و «الضرر» و «النفع» ، لا «الكفر» و «الإيمان» أو «الإلحاد» .. الخ .. الخ ..

.. «إن الإمامة مستخرجة من «الرأى» ، وليست مستخرجة من الكتاب أو السنة ..»^(١) .. والجوينى ، إمام الحرمين [٤١٩ - ٤٧٨ هـ - ١٠٢٨ - ١٠٨٥ م] يقول : «إن الكلام فى الإمامة ليس من أصول الاعتقاد»^(٢) .. والإمام الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١ م] يقول : «إن نظرية الإمامة ليست من المهمات ، وليست من فن المعقولات فيها ، بل من الفقهيات ..»^(٣) .. أما ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ - ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] فإنه يقول إنها ليست من أركان الإسلام الخمسة ، ولا من أركان الإيمان الستة . ولا هى من أركان الإحسان^(٤) ... وفوق ذلك ، وتبعاله ، يقول الإمام الغزالى : «واعلم أن

(١) أبو حفص عمر بن جميع [عقيدة التوحيد] ص ٥٠٦ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .

(٢) [الإرشاد] ص ٤١٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠ م .

(٣) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٤ طبعة صبيح - القاهرة . بدون تاريخ .

(٤) [منهاج السنة] ج ١ ص ٧٠ - ٧٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م .

الخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه التكفير...»^(١) .
 هذا هو موقف علماء الكلام من طبيعة الإمامة ، وطبيعة الاختلاف في مباحثها ، بدءاً من
 «أصلها» إلى «تعيينها وشروطها وما يتعلق بها» ... وهذا الموقف هو الذي تبناه - كما سبقت
 إشارتنا - الشيخ الخضر ، عندما قال : «إن الخلافة ليست من نوع العقائد .. والبحث فيها
 يرجع إلى النظر في حكم عملي لا في عقيدة من عقائد الدين» وأنها ، لذلك ، يكتفى في
 مستندها «بالأدلة المفيدة ظناً راجحاً»

فإذا جاء الشيخ علي عبد الرازق وقال عن «المملكة النبوية» إنها «عمل منفصل عن دعوة
 الإسلام ، وخارج عن حدود الرسالة» .. وإذا وصف هذا الرأي بأنه ، على غرابته ، ليس
 «كفراً ولا إلحاداً» .. فنحن ننكر هذا «الرأي» ، لكننا معه في نفي صفة «الكفر والإلحاد» عن
 قائله ، لأنه «رأى» في مبحث من مباحث الفروع ، وهو خطأ ، لكنه ، كما قال الغزالي ،
 «لا يوجب التكفير» ..

ولذلك ، فما كنا نود أن يكون تعقيب الشيخ الخضر على قول علي عبد الرازق هذا هو
 قوله : إن «تصرف النبي ، - صلى الله عليه وسلم - ، في مثل الجهاد والزكاة والحزبية والغنائم
 يستند إلى صريح القرآن ، فلا مفر لمنكره من الوقوع في حماة الإلحاد . ولا أراني في حاجة إلى
 نقل شيء من نصوص الراسخين في علم الشريعة وفتواهم بأن من أنكر حقيقة معلومة من
 الدين بالضرورة فقد انقلب على عقبيه مدبراً عن الإسلام ، ولا يحق له بعد ذلك الإنكار أن
 يتأثم من المسلمين إذا طرحوه من حساب أولياء دينهم الحنيف»^(٢) !

فنحن نعتقد أن الخلاف والاختلاف حول «الخلافة .. والإمامة .. والدولة» لا يدخل في
 باب إنكار «ما هو معلوم من الدين بالضرورة» ، لأن المراد هنا هو إنكار الأصول والأركان ..
 وليس الخلاف في قضية أو أكثر من قضايا الفروع .. وعلى عبد الرازق ، رغم مجانبته للصواب
 في بحثه حول الخلافة ، لم ينكر ركناً من أركان الإسلام ، المعلومة من الدين بالضرورة ، وإنما
 أنكر إسلامية الخلافة ، وهي من الفروع .. فما كان يليق بالقلم العف للشيخ الخضر أن يدخل
 هذا «الخطأ» ، رغم فداحته ومضاره ، تحت باب «الإلحاد» - حتى ولو أخذنا «الإلحاد»
 بمعناه الأصلي ، وهو «الميل عن القصد» - ولا أن يصف صاحب هذا «الخطأ» بأنه «قد

(١) [فصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] ص ١٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م .

(٢) الباب الثاني من الكتاب الثاني [ص ١٤٨ ، ١٤٩ من طبعة الأصل] .

انقلب على عقبه مدبرا عن الإسلام»؟! ..

تلك هي «الهنة» الأولى في الكتاب ..

والهنة الثانية : هي تلك الصفحة التي صدر بها الشيخ الحضرة كتابه ، والتي طبعها «بماء الذهب» ، وسطر فيها إهداء كتابه العظيم «إلى خزانة حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر المعظم» ذلك أننا ، رغم إدراكنا لخطأ تقييم مثل هذه الأمور ، التي كانت طبيعية ومألوفة في عصرها ، بمعايير عصرنا ، وهي غير مألوفة ، بل مستنكرة فيه .. إلا أننا نعتبرها «هنة» لنا عليها ملاحظات :

● ففي هذا «الإهداء» يقول الشيخ الحضرة : «شهدت من حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم غيرة على الدين الحق ، وعناية برفع شأن المعاهد العلمية الإسلامية . فقلت : إن في هذه الغيرة والعناية لحماية الدين الحنيف من نزعة ترمى حوله بشرر الكيد والأذى» . وما كان يليق بالعالم والقاضي المحقق الشيخ الحضرة أن «يشهد» بغيرة الملك فؤاد على الدين الحق ! .. فتلك قضية إن لم يختلف فيها «الشهود» ، فإن إجماعهم ، أو إجماع أغليتهم سينقض «شهادة» الشيخ الجليل ؟! ..

● ثم .. ما كان يليق بالشيخ الجليل أن يغفل عن أن «عناية» الملك فؤاد بالمعاهد العلمية الإسلامية - الأزهر - لم تكن بالأمر الخالص للأزهر وعلوم الإسلام ، وإنما كانت - كما ثبت في الواقع - سبيلا لإفقاد الأزهر استقلاله ، وإحكام قبضة «القصر الملكي» على مشيخة الأزهر ، لاستغلالها في صراعه ضد حزب الوفد وزعيمه سعد باشا زغلول [١٢٧٣ - ١٣٤٦ هـ - ١٨٥٧ - ١٩٢٧ م] الممثل لسلطة الشعب في ذلك التاريخ .

● وأخيرا .. فإن هذا «الإهداء» قد ألقى ظللا على هذا العمل العلمي الفذ ، جعلت منه - ولو ظاهرا - جهدا مكرسا لخدمة طموحات الملك فؤاد الأول [١٢٨٤ - ١٣٥٥ هـ - ١٨٦٩ - ١٩٣٦ م] في منصب خلافة المسلمين .. ولقد كان الشيخ في غنى عن هذه «الشبهات» التي ألقها على عمله العلمي الفذ هذه الظلال التي تمثلت في ذلك الإهداء ! .

هاتان هما «الاهنتان» اللتان نأخذهما على كتاب الشيخ الحضرة حسين .. وإذا كان «عد» المعايير في عمل من الأعمال هو شهادة تقدير للعمل وصاحبه .. فما بالناس إذا كانت هذه «المعايير» «هنات» .. و«هنات» من هذا القبيل ، لا تندح في تألق هذا العمل العلمي الفذ : جهدا مخلصا ونيلا وعميقا في الدفاع عن علاقة ديننا الإسلامي بدولتنا الإسلامية ،

ونقض أعظم الشبهات التي أثّرت حول هذه العلاقة في عصرنا الحديث ؟ ! .

* * *

ذلك نموذج لواحدة من المعارك الفكرية الخصبة التي خاضها إمام جليل ، كانت حياته ، بطولها وعرضها وعمقها ، معارك خصبة ومتواصلة في سبيل الإصلاح .. والإصلاح بالإسلام .. عليه رحمة الله .

المصادر

- آدم متر : [الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .
- ابن أبي الحديد : [شرح نهج البلاغة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م .
- ابن الأثير : [الكامل في التاريخ] طبعة القاهرة سنة ١٣٥١ هـ .
- : [أسد الغابة] طبعة القاهرة سنة ١٢٨٠ هـ .
- ابن تغرى بردى : [النجوم الزاهرة] طبعة دار الكتب المصرية .
- ابن تيمية : [مهاج السنة النبوية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ هـ .
- ابن جميع (أبو حفص . عمرو) : [عقيدة التوحيد] طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .
- ابن جرير الطبري : [تاريخ الأمم والملوك] طبعة القاهرة - الأولى - + طبعة دار المعارف . القاهرة .
- ابن حجر العسقلاني . : [الإصابة في تمييز الصحابة] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م ،
- : [لسان الميزان] طبعة الهند - الأولى - .
- ابن حنبل : [المسند] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .
- ابن خلدون : [المقدمة] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .
- : [العبر] طبعة القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ .
- ابن رشد (أبو الوليد) : [تهافت التهافت] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م .
- : [تلخيص الخطابة] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .
- : [مناهج الأدلة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
- : [فصل المقال] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- : [ضميمة في العلم الإلهي] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- ابن سعد : [كتاب الطبقات] طبعة دار التحرير . القاهرة .
- ابن سلام (أبو عبيد) : [الأموال] طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ + طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

- ابن عبد البر : [الاستيعاب في أسماء الأصحاب] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م .
- : [الدرر في اختصار المغازي والسير] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- ابن عربي : [فصوص الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م .
- ابن قتيبة : [المعارف] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- : [عيون الأخبار] طبعة دار الكتب المصرية .
- ابن ماجة : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- ابن المرتضى : [المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل] مخطوط مصور - دار الكتب المصرية + طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ .
- ابن منظور : [لسان العرب] طبعة بولاق + طبعة دار المعارف . القاهرة .
- ابن النديم : [الفهرست] طبعة المكتبة التجارية . القاهرة .
- أبو يوسف : [الخراج] طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .
- أحمد أمين : [زعماء الإصلاح في العصر الحديث] طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩ م .
- أحمد صبحي (دكتور) : [نظرية الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .
- الأفغانى (جمال الدين) : [الأعمال الكاملة] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- : [العروة الوثقى] مجموعة المقالات . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .
- أمين سامي : [تقويم النيل] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .
- الإيجي - والجرجاني : [شرح المواقف] طبعة القاهرة سنة ١٣١١ هـ .
- بروكلمان : [تاريخ الشعوب الإسلامية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ م .
- البيضاوي : [تفسير البيضاوي] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .
- الجاحظ : [رسائل الجاحظ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م ، سنة ١٩٦٥ م .
- : [البيان والتبيين] طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩ م .
- : [الحيوان] طبعة - عبد السلام هارون - القاهرة .
- الجبرتي : [عجائب الآثار] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .
- الجويني : [الإرشاد] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠ م .
- حاجي خليفة : [كشف الظنون] طبعة القاهرة .
- الخوارزمي : [مفاتيح العلوم] طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ .
- الخطاط : [الانتصار] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م .
- خير الدين التونسي : [أفوم المسالك] طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م .
- دائرة المعارف الإسلامية . طبعة القاهرة - الثانية - دار الشعب .
- الدارمي : [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

- الرافعي (عبد الرحمن) : [تاريخ الحركة القومية] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .
- رضوان على الدوى : [العزبن عبدالسلام] طبعة دمشق سنة ١٩٦٠ م .
- رينان : [ابن رشد والرشدية] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧ م .
- زاهر رياض : [استعمار افريقية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
- السبكي : [طبقات الشافعية] طبعة القاهرة - الأولى -
- الشهرستاني : [الملل والنحل] طبعة القاهرة - مكتبة الحسين - طبعة سنة ١٣٢١ هـ .
- صنى الدين البغدادى : [مراصد الاطلاع] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م .
- طاش كبرى راده : [مفتاح السعادة] طبعة الهند - الأولى - .
- الطهطاوى (رفاعة) : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .
- عبد الجبار بن احمد (فاضى القصاصة) : [المغنى فى أبواب التوحيد والعدل] طبعة القاهرة .
- : [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م .
- عبد الحميد بن باديس : [كتاب آثار ابن باديس] طبعة بيروت .
- عبد الرحمن الكواكبي : [الأعمال الكاملة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- عبد القادر المغربي : [جمال الدين الأفغانى] طبعة دار المعارف . القاهرة .
- عبد الواحد المراكشى : [المعجب فى تلخيص أخبار المغرب] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- عبد الحلو : [ابن رشد فيلسوف المغرب] طبعة بيروت سنة ١٩٦٠ م .
- على بن أبى طالب : [نهج البلاغة] طبعة دار الشعب . القاهرة .
- على عبدالرازق : [الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م + طبعة بيروت ١٩٧٢ م .
- على عبد العظيم : [مشيخة الأزهر] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
- الغزالي (أبو حامد) : [الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة صبيح - القاهرة - (د . ت) .
- : [فصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م .
- : [تهافت الفلاسفة] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م
- فرح أنطون : [ابن رشد وفلسفته] طبعة الاسكندرية سنة ١٩٠٣ م .
- فيليب حتى (وآخرون) : [تاريخ العرب] - مطول - طبعة بيروت سنة ١٩٥٣ م .
- القلقشندى : [صبح الأعشى] طبعة دار الكتب المصرية .
- لوثرروب ستودارد : [حاضر العالم الإسلامى] - تعليقات شكيب أرسلان - طبعة بيروت سنة ١٣٥٢ هـ .
- لينين : [المختارات] طبعة موسكو - العربية - .

- الماوردي : [الأحكام السلطانية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- : [أدب الدنيا والدين] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- محب الدين الخطيب : [شيخ الأزهر السابق . السيد محمد الخضر حسين] مقال في مجلة [الأزهر] عدد شعبان سنة ١٣٧٧ هـ .
- محمد حسين هيكل (دكتور): [الفاروق عمر] طبعة القاهرة سنة ١٣٦٤ هـ .
- محمد الخضر حسين : [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م .
- محمد رشيد رضا : [تاريخ الأستاذ الإمام] طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م .
- محمد ضياء الدين الريس (دكتور): [الحراج والنظم المالية للدولة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م .
- محمد عبده (الأستاذ الإمام): [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .
- : [مقدمة الرد على الدهريين] طبعة القاهرة سنة ١٣٣٣ هـ .
- محمد عمارة (دكتور) : [الإسلام وفلسفة الحكم] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- : [المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد] طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م .
- : [عمر بن عبد العزيز] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- : [فجر اليقظة القومية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .
- : [الأمّة العربية وقضية التوحيد] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- : [الإسلام والثورة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
- : [الأرض والفلاح من الفتح العربي إلى الإقطاع الحربي] دراسة بمجلة [الهلال] عدد سبتمبر سنة ١٩٧٠ م .
- محمد فؤاد عبد الباقي : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب . القاهرة .
- محمد فريد : [المذكرات] منشورة بكتاب محمد صبيح [مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- محمد مختار باشا : [التوقيعات الإلهامية] . طبعة القاهرة سنة ١٣١٠ هـ .
- محمود قاسم (دكتور) : [الإمام عبد الحميد بن باديس] طبعة دار المعارف . القاهرة .
- : [نظرية المعرفة عند ابن رشد] طبعة القاهرة .
- المرتضى (الشريف) : [أمالى المرتضى] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م .
- المسعودي : [مروج الذهب] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م + طبعة سنة ١٩٦٦ م .
- مسلم : [صحيح مسلم] طبعة محمود توفيق - القاهرة (د . ت) + طبعة سنة ١٩٥٥ م .
- مصطفى عبد الرازق : [جمال الدين الأفغانى] تقديم مجموعة مقالات «العروة الوثقى» طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .

- المصنف (أبو بكر الحسيبي) : [طبقات الشافعية] طبعة بغداد سنة ١٣٥٦ هـ .
- المنجى الشملي : [خير الدين باشا] طبعة تونس سنة ١٩٧٣ م .
- ولتر لاكور : [الاتحاد السوفيتي والشرق الأوسط] طبعة بيروت سنة ١٩٥٩ م .
- وينسنتك (أ . ي) : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف] طبعة لندن سنة ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م .
- ياقوت الحموي : [معجم البلدان] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٦ م .
- يحيى بن آدم : [الخراج] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤ م .
- يوحنا قدير (الأب) : [ابن رشد] طبعة بيروت .
- دوريات

- الأهرام (القاهرة)
- الجمهورية (القاهرة)
- الجامعة (مصر)
- المنار (مصر)
- البصائر (الجزائر)
- الشهاب (الجزائر)
- العمال (القاهرة)

الفهرس

صفحة	
٥	بين يدى الطبعة الجديدة
٩	مقدمة الطبعة الثانية
١٣	مقدمة الطبعة الأولى
١٩	١ - عمر بن الخطاب : [تجسيد العدل بين الناس] :
٢١	تقديم
٢٦	طور جديد من بناء الدولة
٣١	العطاء بين المساواة والتفاوت
٣٣	نصيب الرسول ونصيب قرابته من الغنائم
٣٤	الموقف من تملك الأرض الزراعية
٣٩	مصدر التشريع لضريبة الأرض
٤٠	العدل بين الحاكم والمحكوم
٤٦	المال للأمة
٥٣	وماذا للحاكم فى المال العام ؟
٦١	عام الرمادة
٦٥	٢ - أبو ذر الغفارى : [انتفاضة العدالة الاجتماعية] :
٦٧	حياته فى سطور
٧٣	صفات أخرى للرجل
٧٧	تحولات عهد عثمان
٨٣	اتهام مردود
٨٦	الصدام مع عثمان ومعاوية
٨٦	فى المدينة
٨٨	فى الشام

٩١ في المدينة .. مرة ثانية
٩٧ ٣- علي بن أبي طالب : [ثورة الفكر الاجتماعي للإسلام] :
٩٩ تمهيد
١٠٠ حكومة العرب قبل الإسلام
١٠٢ أين بنو هاشم من هذا البناء ؟
١٠٥ ما بعد الرسول
١٠٧ على يتصدى لتغيير هذا الواقع
١٠٩ وضد قريش
١١١ العزم والإصرار على التغيير الاجتماعي
١١٩ طبقات المجتمع ومكانها
١١٩ ١- انقسام المجتمع إلى طبقات
١٢٠ ٢- الذين يفلحون الأرض
١٢٣ ٣- طبقة التجار والصناع
١٢٣ ٤- الطبقة السفلى
١٢٤ ٥- طبقة الخاصة
١٢٦ المال العام
١٢٧ ٤- أسماء بنت أبي بكر : [أم الفداء] :
١٣٩ ٥- غيلان الدمشقي : [الحياة : موقف ثوري] :
١٤١ حياته في سطور
١٤٢ حياته : موقف ثوري
١٤٣ النظرية والتطبيق
١٤٤ الإمامة والسياسة
١٤٥ عقيدة الجبر والاستبداد السياسي
١٤٦ مصادرة ممتلكات الأسرة الحاكمة
١٤٨ دفع حياته تمنا لهذا الموقف
١٥١ ٦- الحسن البصري : [فيلسوف يشبه الأنبياء] :
١٦١ ٧- عمرو بن عبيد : [الزاهد .. الناثر .. الفيلسوف] :
١٦٣ النشأة الأولى

١٦٥	في قيادة المعتزلة
١٦٦	مع الثورة . ضد بني أمية
١٦٨	أزمة علاجها الشورى
١٧٠	المقاومة السلمية
١٧٧	٨- النفس الزكية : [الإنسان الثائر] :
١٨٠	الانحياز المبكر لمعسكر الإنسان الثائر
١٨٢	الثورة : خلف زيد بن علي
١٨٣	تم الثورة خلف يحيى بن زيد
١٨٤	مع الخلافة الشورية ضد الملك الوراثي
١٨٥	الشعبوية تختار الملك .. وترفض الشورى
١٨٦	إذن .. فالثورة مستمرة
١٨٩	المنصور يتعجل الثورة
١٩٠	الثورة والاستشهاد
١٩٥	٩- علي بن محمد : [ثورة « الزنج » العربية] :
١٩٧	تقديم
٢٠١	لماذا .. الثورة ؟
٢١١	القائد .. والثورة
٢٢٧	الصراع .. والنهاية
٢٣٧	١٠- الماوردي : [طور جديد في الفكر السياسي]
٢٤٠	في علم السياسة
٢٤٢	الإنسان : اجتماعي .. والسلطة : مدنية
٢٤٥	الماوردي - وقواعد الاصلاح الاجتماعى
٢٤٥	قواعد الإصلاح الدينى
٢٤٦	القاعدة الأولى : الدين المتبع
٢٤٧	والقاعدة الثانية : السلطان القاهر
٢٤٨	والقاعدة الثالثة : العدل الشامل
٢٤٩	والقاعدة الرابعة : الأمن العام
٢٤٩	والقاعدة الخامسة : الحصب الدار

- ٢٥٠ والقاعدة السادسة : الأمل الفسيح
- ٢٥٢ الماوردى - والمصادر المادية لحياة الإنسان
- ٢٦١ ١١ - أبو الوليد ابن رشد . [العقل العرى فى القمة] :
- ٢٦٣ حياته فى سطور
- ٢٦٤ ١ - عصر السلبات والايجابيات
- ٢٦٨ ٢ - علاقة الحكمة بالشريعة
- ٢٧١ (أ) الذات الإلهية
- ٢٧٥ (ب) العالم بين القدم والحدوث
- ٢٧٨ ٣ - ابن رشد والمجتمع
- ٢٧٩ (أ) نظريته فى المعرفة
- ٢٨١ (ب) موقفه من السياسة
- ٢٨٦ (ج) موقفه من الحرية
- ٢٨٨ (د) موقفه من المرأة
- ٢٩٠ ٤ - ابن رشد بين الشرق والغرب
- ٢٩٥ ١٢ - الغز بن عبد السلام : [ضد الخرافة والظلم والجمود] :
- ٢٩٧ حياته فى سطور
- ٢٩٩ عصر جامد يضيق بالمحافظين
- ٣٠٣ فى دمشق : معركة ضد الجمود والاستبداد والخيانة
- ٣١٢ فى القاهرة
- ٣١٣ الموقف من بدع المتصوفة
- ٣١٦ الجراءة على السلطان
- ٣١٧ إزالة المنكر باليد
- ٣١٨ العدالة فى تحمل أعباء القتال
- ٣٢١ ١٣ - عمر مكرم : [شيخ يقود الأمة] :
- ٣٣٧ ١٤ - رفاة الطهطاوى : [رائد التنوير فى العصر الحديث] :
- ٣٥٥ ١٥ - خير الدين التونسي : [استلهام إسلامى للتنظيمات الأوربية] :
- ٣٦٩ ١٦ - جمال الدين الأفغانى : [ثورة البعث والإحياء] :
- ٣٧١ حياته فى سطور

٣٧٤ العاصفة .. والإعصار
٣٧٦ الثقة .. والثورية
٣٨٠ زلة قدم
٣٨١ الجامعة الإسلامية
٣٨٦ الأفغانى والحلافة العثمانية
٣٨٩ القومية .. والعروبة
٣٩٠ مكونات القومية
٣٩١ الوطنية
٣٩٢ الخلافة العربية
٣٩٥ من الرأسمالية إلى الاشتراكية
٣٩٧ الجوهر الأصيل
٣٩٩ ملامح الاشتراكية
٤٠٣ الديمقراطية
٤٠٧ الحرب والسلام
٤١٠ سلطان العقل
٤١٧ ١٧ - عبد الرحمن الكواكبي : [مع العدل ضد الاستبداد] :
٤١٩ حياته فى سطور
٤٢٠ مولود يتحدى الاستبداد
٤٢١ فى مدرسة الحياة
٤٢١ « العرضحالجى » .. المتهم
٤٢٢ هجرة إلى الأمصار .. والأفكار
٤٢٣ الإصلاح الثورى
٤٢٤ الاستبداد .. والدين
٤٢٥ الاستبداد .. والتربية
٤٢٧ الاستبداد .. والعلوم
٤٢٨ الاستبداد .. والاقتصاد
٤٣٠ مصادر الثروة .. الربح ؟ أم العمل ؟
٤٣٢ الكواكبي .. والعمال والفلاحون والمتقنون

٤٣٢ شروط التمويل
٤٣٣ الكواكبي والثروة العامة
٤٣٤ ملكية للشعب؟ .. أم رأسمالية للدولة؟
٤٣٥ الاستبداد .. والديمقراطية
٤٣٩ محمد عبده : [تجديد الدنيا بتجديد الدين] :
٤٤٧ رشيد رضا : [التجديد بالمأثور] :
٤٥٩ عبد الحميد بن باديس : [عودة الروح القومية إلى شعب جريج وعريق] :
٤٦١ حياته في سطور
٤٦٤ القرن الحالك الظلام
٤٦٤ إبادة واستيطان
٤٧٣ هجوم على الجبهة العريضة
٤٧٣ الانتصار للعروبة
٤٧٦ العروبة والخلافة الإسلامية
٤٧٩ العروبة والتعليم
٤٨١ ضد الطرق الصوفية
٤٨٣ فكر سلفي مستنير
٤٨٥ شيء من الاعتزال
٤٨٦ أكثر من مفكر
٤٩٣ ٢١ - الخضر حسين : [الإصلاح بالإسلام] :
٥٢٦ المصادر